أمالي المرتضى

غرر الفوائد ودرر القلائد

للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الأول

دار الفكر العربي

أمالي المرتضى

غرر الفوائد ودرر القلائد

للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي

٣٥٥ — ٤٣٦ هـ

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

القسم الأول

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٧٣٥ فاكس : ٢٧٥٢٧٣٥

٨١٠,٨
ش ر آ م

الشريف المرتضى، على بن الحسين، ٣٥٥-٤٣٦هـ.
آمالي المرتضى، أو، غرر الفوائد ودرر القلائد/ للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٨.
٢مج؛ ٢٤سم.
بيليوجرافية: مج٢: ص ٦٢٤ - ٦٣١.
يشتمل على فهارس
تدمك: ١ - ١١١١ - ١٠ - ٩٧٧.
١-الأدب العربى- مجموعات. ٢- القرآن الكريم، خواص وأسرار. ٣- الحديث الشريف - مباحث عامة.
أ- محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق. ب- غرر الفوائد ودرر القلائد. جـ- العنوان.

رقم الإيداع	١٩٩٨ / ٤٨٩٥
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1111- 1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ ـ الشريف المرتضى (*)

كانت بغداد فى القرن الرابع الهجرىّ موئل العلم ، ومثابة العلماء ، وملتقى الكتّاب والشعراء والأدباء ، فيها غنيت ساحات الخلفاء والملوك والرؤساء بفنون المناظرة والمساجلة والجدل ، وعمَرت المكتبات بألوف الكتب المؤلفة والمترجمة ، المطوّلة والمختصرة ؛ وغصّت دور العلماء وحلقات الدروس بطلاّب الأدب ، وروّاد العلم والمعرفة من شتى الجهات .

وكان للكثير من ملوك بنى بويه من لطافة الحسّ ، وزكانة الطبع ، ورهافة الذوق ،

(*) مصادر الترجمة :

أمل الآمل ٤٨٦ـ٤٨٧
إنباه الرواة ٢ : ٢٤٩ـ٢٥٠
بغية الوعاة ٣٣٥ـ٣٣٦
تاريخ ابن الأثير ٨ : ٤٠ـ٤١
« الإسلام للذهبى (وفيات ٤٣٦)
« بغداد ١١ : ٤٠٢ـ٤٠٣
« أبى الفداء ٢ : ١٦٧
« ابن كثير ١٢ : ٥٣
تتمة اليتيمة ١ : ٥٣ـ٥٦
جمهرة الأنساب لابن حزم ٥٦ـ٥٧
ابن خلكان ١ : ٣٣٦ـ٣٣٨
دمية القصر ٧٥ـ٧٦
الرجال لأبى العباس النجاشى ١٩٢ـ١٩٣
روضات الجنات ٣٧٤ـ٣٧٨
سير النبلاء للذهبى ج ١١ قسم ١ ص ١٣١
شذرات الذهب ٣ : ٢٥٦ـ٢٥٨
الفهرست لأبى جعفر الطوسى ٩٧ـ١٠٠
لسان الميزان ٤ : ٢٢٣ـ٢٢٤
مرآة الجنان ٣ : ٥٥ـ٥٧
معالم العلماء لابن شهراشوب ٦٠ـ٦٣
معجم الأدباء ١٣ : ١٤٦ـ١٥٧
المنتظم (وفيات ٤٣٦)
النجوم الزاهرة ٥ : ٣٩

ورجاحة العقل ماهيأ لهم أن يكونوا كتّابا أو شعراء ؛ وما دفع بعضهم للمشاركة فى العلوم ، والأخذ بنصيب من أطراف الفنون ؛ فحدَبوا على العلماء ، وأغدقوا على الشعراء ؛ وعرفوا للأدباء أقدارهم ؛ فولّوهم الوزارة والإمارة والقضاء فى كثير من الأحايين .

وكانوا أيضاً من شيعة علىّ ، وعلى هوى أحفاده من أبناء الحسن والحسين ، فخصّوهم بالتكرمة ، ومنحوهم أرفع المناصب ، وأدنوهم من نفوسهم ، وقرّبوهم فى مجالسهم ، وظاهروهم فى المناظرة ، ودفعوهم إلى الجهر بالرأى والإدلاء بالحجة ؛ وكانوا لهم ردءا حين يحتدم الجَدَل ، ويشتد اللّداد بينهم وبين أهل السّنة ؛ ومَنْ يشدّ أزرهم من الأتراك وخلفاء بنى العباس .

فى هذه الحِقبة النادرة فى تاريخ العلوم ، وفى هذا العصر الحالى بأزاهير الفنون والآداب ، وفى تلك الدولة التى قام فى أكنافها العلماء والشعراء والأدباء ؛ عاش الشريف المرتضَى علىّ ابن الحسين ، وأخوه الشريف الرّضىّ محمد بن الحسين ، واتخذا مكانهما بين ذوى المَثالة ، وأعيان الشرف والفضل من الأعلام ؛ فكان المرتضى عالما فقيها متكلّما ، خبيرا بقرض الشعر ، بصيراً بمذاهب الكلام ، وكان الرّضىّ شاعراً مطبوعا متصرّفا ، وكاتبا بارعا رائق الديباجة صافى الأسلوب ، مشاركا فى التأليف والتصنيف ؛ وقضيا حياتهما مرعيّى الجانب ؛ رفيعَى المنزلة ؛ مرموقَى المحلّ عظيمَى الخطر والجاه عند خلفاء بنى العباس ، والملوك من بنى بويه على السواء .

* * *

وكانا يَنزِعان إلى أعرق المناصب ، وأطيَب النّجار ، نَجلَهما أبو أحمد الحسين بن موسى ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وأنجبتهما فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر الأطروش ، صاحب الديلم ، وشيخ الطالبيّين وعالمهم وشاعرهم .

وكان أبو أحمد من ذوى النباهة والصيت عند بنى بويه ، ولقبه بهاء الدولة أبو نصر ابن بويه بالطاهر الأوحد ؛ كما كان من ذوى القدر والجاه عند بنى العباس ؛ وولوه النظر فى المظالم ونقابة الطالبيين مرات ؛ كان يقوم بالسفارة بينهم وبين آل بويه أحيانا ، وبين الحمدانيين أحيانا ، فمحض النصح ، وبصر بمناهج الرشد ، وأبدى الرأى الأصيل ؛ وظفر بالمكانة منهم جميعاً . ومات فى سنة ٤٠٠ . وقد رثاه أبو العلاء المعرّى بقصيدته المشهورة :

أَوْدَى فليتَ الحادثاتِ كَفافِ   مالُ المسيفِ وعنبرُ المُسْتافِ[١]
الطّاهِرُ الآباء والأبناء والآ   راب والأثْوَاب والآلافِ
رغتِ الرُّعود وتلك هدّة واجب   جبلٌ هَوى من آل عبد مَنافِ[٢]
بخلت فلما كان ليلة فقدهِ   سمح الغمامُ بدمعه الذرّافِ
ويقال إن البحر غاضَ وإنها   ستعود سيفاً لُجّةُ الرّجّافِ[٣]
ويَحِقُّ فى رزء الحسينِ تغيُّرُ الـ   ـحرَسَين ، بَلْهَ الدرّ فى الأصدافِ[٤]

وفيها يذكر الشريفين ويعزيهما :

ولقيتَ ربّك فاستردّ لك الهدى   ما نالتِ الأيامُ بالإتلافِ
وسقاكَ أمْوَاه الحياة مخلّدًا   وكساكَ شرخَ شبابِك الأفوافِ
أبقيتَ فينا كوكبين سناهُما   فى الصُّبحِ والظّلْماء ليس بخافِ
متأنِّقَين وفى المكارم أرْتَعَا   متألِّقينِ بسؤددٍ وعفافِ
قَدَرَيْنِ فى الإرْداء، بل مَطَرينِ فى الـ   إجْداءِ ، بل قمرين فى الإسْدافِ

(١) سقط الزند ١٢٦٤ـ١٣٢٠ . كفاف ، أى ليت الحوادث كفت الأذى . والمسيف : من ذهب ماله . والمستاف : الشامّ . (٢) الهدة : صوت الشيء الساقط ، والواجب : الساقط ؛ ويقال إن المرثى مات فى ذات ليلة برق ورعد ومطر . (٣) السيف : الساحل . والرجاف : من نعوت البحر .
(٤) الحرسان : اسم الليل والنهار .

رُزِقا العلاء فأهــــل نجدٍ كلّما نطقَا الفصاحة مِثلُ أهلِ دِيافِ[1]

ساوى الرَّضِيُّ المُرْتضى وتقاسَمـا خُطَطَ العُلا بتَناصفٍ وتَصافِ

وفي آخرها يقول :

يا مالِكَيْ سَرْحِ القريض أتتكُما مِنّي حمولةُ مُسْنِتِين عِجافِ[2]

لا تعرف الوَرَقَ اللُّجينَ وإن تُسَلْ تُخْبِرْ عن القُلّامِ والخِذْرافِ[3]

وأنا الذي أهْدِي أقلَّ بَهارةٍ حُسْناً لأحْسَنِ روضةٍ مِئنافِ[4]

وبعد موته انتقلت وظائفه إلى الشريف الرضي ، ولما مات آلت إلى الشريف المرتضى .

* * *

وكان مولد الشريف المرتضي ببغداد في رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة[5] ، وفيها تلقّى العلم وشغل به في جميع أدوار حياته ؛ وكان أول عهده بالمدارسة والتأدب على الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالمفيد ، ذهبت به أمه إليه مع أخيه الرضيّ ؛ وهما في سن الحداثة ، وقبل أن يجاوزا حدّ الصغر ؛ فأخذا عنه ، وتخرّجا عليه . ثم صحب المرتضى غيره من العلماء ، وورد شِرْعتهم ، وحمل عنهم ؛ مثل سهل بن أحمد الديباجيّ ، وأبي عبيد الله المرزبانيّ ، وأبي الحسن الجندي ، وأحمد بن محمد بن عمران الكاتب ، وغيرهم .

ويبدو مِنْ تقصّي أخباره ؛ ومطالعة ماوصل إلينا من كتبه ورسائله أن أعظم الشيوخ الذين تأدب بهم وأفاد منهم هما الشيخ المفيد وأبو عبيد الله المرزبانيّ .

(١) دياف : موضع فيه نبط لا فصاحة لهم .

(٢) السرح في الأصل : المال الراعي ، والمسنت : الذي أصابته السنة ؛ أي القحط . والعجاف : المهازيل .

(٣) اللجين : ورق الشجر يخلط بالنوى المرضوض ، ويلجن بعضه ببعض ، وهو من علف أهل الأمصار . والقلام والخذراف : من الحمض ؛ وهو علف أهل البادية .

(٤) الروضة المئناف : التي لم ترع بعد . (٥) الفهرست لأبي جعفر الطوسي ١٠٠ .

فأما الشيخ المفيد فقد كان رأساً من رءوس الشيعة ؛ وعلماً من أعلامهم ؛ لا يدرك شأوه فيهم ؛ وإليه انتهت رئاسة الإمامية فى عصره ، وفى كتبه حُفِظت أقوالهم وآراؤهم وشروحهم وتأويلاتهم ؛ وعنه تلقى السيد المرتضى الفقه والأصول والتفسير وعلم الكلام ؛ ثم استقل بالرأى فيما بعد ؛ ووضع فى ذلك الكثير من الكتب والرسائل والمقالات .

وأما المرزبانىّ فقد كان إماما من أئمة الأدب ؛ وشيخاً من شيوخ المعتزلة ، وعلما من أعلام الرواية ؛ وكانت داره مقصد العلماء والمتأدبين ؛ مهيَّأة بالكتب والورق والمداد ؛ ممدّة للطعام والراحة والنوم ؛ فكان يأخذ عمّن يزوره من العلماء ؛ ويقرأ أن يجلس إليه من الطلاب ، وفيما بين ذلك يؤلف الكتب ويصنفها ؛ ومعظم مارواه السيد المرتضى فى كتاب الغرر من الشعر واللغة والأخبار مما تلقاه عليه ، ورواه عنه .

ولما عَلَتْ به السنّ ، وخلع عن منكبه رداء الشباب عكف فى منزله مُخلِداً إلى القراءة والدرس ؛ واستنزف أيامه فى التحصيل والتأليف ، مؤثراً مجالسة العلماء والمستفيدين على مخالطة الرؤساء وذوى السلطان ؛ بل إنه زهد فيما ورّث أبوه من نقابة الطالبيين ، والنظر فى المظالم ، وآثر بها أخاه الرضىّ — وكان أصغر منه — ليُرضى ما كانت تنزع إليه همة أخيه من الرغبة فى سَنِىّ المطالب وبلوغ الأقدار ؛ ويقضى حاجة نفسه من الانقطاع إلى العلم ، والخلوة إلى القراءة والدرس ؛ ولم يتولّ شيئا من هذه المناصب إلا بعد وفاة أخيه. وأعانه على مايبغى ماتهيأ له من مكتبة عريضة واسعة ؛ تحوى ما عرف من الكتب فى حياته ؛ ذكر الثعالبى أنها قُوِّمت بعد وفاته بثلاثين ألف دينار ، وقدرت بثمانين ألف مجلد ، بعد أن أهدى منها ما أهدى إلى الرؤساء والوزراء .

وكان السيد المرتضى فى نعمة سابغة ، وخير كثير ، وثروة قلّ أن تتهيأ لمثله من العلماء ؛ روى أنه كانت له ثمانون قرية بين بغداد وكربلاء ، يشقها نهر ينتهى إلى الفرات؛ وكانت السفن تسير فيه غادية رائحة ، تحمل السَّفْر والزوار ؛ وخاصة فى موسم الحجيج ؛ وكان لهم فيها يسّاقط

من ثمار الأشجار العاطفة على النهر؛ فالكهة موقوفة عليهم ، ولغيرهم ممن تحمل السفن؟ وقدّروا ما تُغلّه هذه القرى بأربعة وعشرين ألف دينار فى العام .

وقد تمكّن بفضل هذه الثروة من أن يعيش فى داره مكفول الرّزق ، مقضىّ الحاجات ، لا يشغله ما يشغل غيره من شئون الدنيا ومطالب الحياة ؛ ولا يصرفه شيء عن القراءة والدرس والتصنيف والفُتيا ؛ بل إنه تمكن من أن يقضى حاجة قلبه من البرّ بالناس، ومواصلتهم، والعطف عليهم ؛ وخاصة مَنْ كان يمت إلى العلم بصلة ، أو يُدلى إليه برحم ماسّة ، فكان منزله داراً للضيافة ، ومدرسة للتعلم والمدارسة ، ينقطع فيه التلاميذ والطلاب والمريدون ، ويستروح فى رحابه الوافدون من شتى الجهات ، بعد أن يكون قد أدماهم السير وأكلهم السّرى؛ بل إنه جعل للكثير من تلاميذه مرتبات منظمة؛ وحبوساً موقوفة عليهم ؛ كان أبوجعفر الطوسى[1] من تلاميذه المنقطعين إليه، فأجرى عليه اثنى عشر ديناراً فى كل شهر ، فى ثلاثة وعشرين عاما قضاها فى صحبته إلى أن مات ، وكذلك رتب للقاضى عبد العزيز بن البراج[2] ثمانية عشر دينارا فى الشهر ؛ وغيرهما كثير . ووقف قرية كاملة؛ يجرى خيرها على كاغد للفقهاء خاصة ؛ رغبة فى النفع ، وبثّ العلم فى الناس .

وروى أنه أصاب الناس قحط شديد فاحتال رجل يهودىّ على تحصيل قوت يحفظ نفسه ففزع إليه ؛ وشفاعتُه الرغبةُ فى العلم . واستأذنه أن يقرأ عليه شيئا من علم النجوم ؛ فأذن له ، وأمر بجائزة تجرى عليه فى كل يوم ، فقرأ عليه برهة ثم أسلم .

ومن هذه البابة أيضا ماحكاه ابن خلكان عن أبى زكريا التبريزىّ أن أبا الحسن على ابن أحمد بن سَلّك الفالى الأديب كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد فى غاية الجودة ،

(١) هو محمد بن على بن جعفر الطوسى ، ولد سنة ٣٨٥ ، ولزم الشيخ المفيد وتخرج عليه ولما مات سنة ٤١٣ ؛ لزم السيد المرتضى الى أن مات ، ثم استقل بالإمامة بعده ، وتوفى سنة ٤٠٦ .

(٢) هو عبد العزيز بن نحرير بن البراج ؛ ولد بمصر ونشأ بها ؛ ورحل الى طرابلس وولى قضاءها مدة، وتوفى سنة ٤٨١ .

فدعته الحاجة إلى بيعها ، فاشتراها الشريف المرتضى بستين دينارا ، وتصفحها فوجد بها أبياتا بخط بائعها أبي الحسين الفالى ؛ وهي :

أنِستُ بها عشرين حَولا وبعتُها لقد طال وجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنى أننى سأبيعُها ولو خلّدتنى فى السجون ديونى
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ صغارٍ عليهم تستهلّ شئونى
فقلت ولم أملك سوابق عَبرةٍ مقالةَ مكوىّ الفؤاد حزين
«وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أم مالكٍ كرائمَ من ربٍّ بهن ضنينِ»

فأرجع إليه النسخة ؛ وترك الدنانير ؛ جريا على عادته من صلته أهل العلم ، وبره بهم .

* * *

وقد اجتمع إليه من فنون العلوم وضروب الآداب ما قلّ أن يجتمع لسواه ؛ وضرب فيها جميعها بسهم وافر ؛ فكان فقيها انتهت إليه رياسة الإمامية فى عصره ؛ بعد أن درس الأصول ، ومحّص الحقائق ، واستخرج المسائل ، ونصب نفسه بعد ذلك للفتيا، فشُدّت إليه الرحال ، ووفدت إليه الناس من كل صُقْع ، ووضع لكلٍّ كتابا ؛ فهذه المسائل الديلمية ، وتلك المسائل الطوسية ، وهذه المسائل المصرية والموصلية وهكذا . وحذق علم الكلام وأصول الجدل ، فحاجّ النظراء والمتكلمين ، وناظر المخالفين ؛ وكتابه الشافى حجة على طول باعه فى الجدل . وله فى تفسير القرآن وتأويل الكتاب ما كشف به عن بحر لا يسبَر غوره ؛ ولا ينال دركه ؛ وقد حفظ من أخبار العرب وأشعارهم ولغتهم ماجمله فى الرعيل الأول من الرواة والحفاظ والأدباء ؛ وبكل هذا كان إمامَ عصره غيرمدافَع ؛ قال ابن بسام : « كان هذا الشريف إمام أئمة العراق ، بين الاختلاف والاتفاق ؛ إليه فزع علماؤها ، وعنه أخذ عظماؤها ، صاحب مدارسها ، وجماع شاردها وآنسها ؛ مما سارت أخباره ، وعرفت أشعاره ، وحمدت فى ذات الله مآثره ؛ إلى توالِيفه فى الدين ، وتصانيفه فى أحكام المسلمين ، مما يشهد أنه فرع

تلك الأصول ، ومن أهل ذلك البيت الجليل[1] » .

وكان بعدهذا شاعراً ، وله ديوان شعر؛ قال ابن شهراشوب: إنه يُربى على عشرين ألف بيت ، وذكر بروكلمان أن هناك نسخة منه من مكتبة مشهد . وقد أورد المرتضي طائفة منه فى كتاب الغرر، والشهاب، وطيف الخيال ، وذكر الثعالبيّ فى تتمة اليتيمة ، والباخرزيّ فى دمية القصر قدرا منه ، فمن قوله :

أحبُّ ثرى نجدٍ ، ونجدٌ بعيدةٌ ألا حبذا نجدٌ وإن لم تُفِدْ قربا[2]
يقولون: نجدلستَ من شِعبِ أهلها وقد صدقوا لكننى منهمُ حبا
كأنى وقد فارقت نجداً شقاوةً فتى ضلّ عنه قلبه يَنْشُدُ القلبا

ومنه :

يا خليلىّ من ذؤابة قيس فى التصابى رياضة الأخلاق[3]
عللانى بذكرهم تطربانى واسقيانى دمعى بكأسٍ دهاق
وخذا النوم من جفونى فإنى قدخلعتُ الكرى على العشاق[4]

ومنه فى الرثاء :

كأنىَ لما مات منعى نعيُّه شُكِكْتُ بمسنون الغرارين قاضبِ
طواه الردى طىّ الرداء وعُطِّلَتْ مغانى الحجا عنه وغر المناقبِ
ولما بلوتُ الأصدقاء وودَّهم خلصت إليه من خلال التجارب

وسئل إجازة بيت أبى دهبل الجمحىّ :

وأبرزتُها من بطن مكة عندما أصاتَ المنادى بالصلاة فأعتما

---

(١) ابن خلكان: ٣٣٦ . (٢) تتمة اليتيمة ١ : ٥٤ . (٣) تتمة اليتيمة ١ : ٥٥ ، وابن خلكان ١ : ٣٣٧ . (٤) روى ابن خلكان أنه لما وصلت هذه الأبيات إلى البصرى الشاعر قال : «المرتضى قد خلع مالا يملك على من لا يقبل» . (٥) الغرر ١ : ١١٥ .

فقال :

فطيّب سراها المقام وضوّأتْ ... بإشراقها بين الحطيم وزمزما
فيارب إن لَقّيْتَ وجهاً تحيّةً ... فحيِّ وجوهاً بالمدينة سهّما
تجافين عن مَسّ الدهان وطالمّا ... عَصَمْنَ عن الحناء كفّاً ومعصما
وكم من جليدٍ لا يخامره الهوى ... شَنَنّ عليه الوجد حتى تتيّما
أهـان لهن النفّس وهي كريمةٌ ... وألقى إليهنّ الحديثَ المكتّما
تسفهتَ لـما أن مَرَرْتَ بدارها ... وعُوجِلْتَ دون الحلم أن تتحلّما
فعجت تَقرّى دارساً متنكرا ... وتسأل مصروفاً عن النطق أعجما
ويوم وقفنا للوداع وكلّنا ... يَعُدّ مطيع الشوق مَنْ كان أحزما
نُصرتُ بقلب لا يعنّف في الهوى ... وعين متى استمطرتُها قطرتْ دماً

وتوفى الشريف المرتضى فى ربيع الأول سنة ٤٣٦ ، وصلى عليه ابنه ، ودفن فى داره ، ثم نقل إلى المشهد الحسينى بكربلاء .

٢ — مؤلفاته*

١ ـ « إبطال القياس » ؛ ذكره الذهبي في سير النبلاء .

٢ ـ « الانتصار في الفقه » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب ، وسماه « الانفرادات في الفقه » ، وطبع ضمن مجموعة الجوامع الفقهية لمحمد بن باقر بطهران سنة ١٢٧٦ ، وطبع منفردا سنة ١٣١٥ .

٣ ـ « إنقاذ البشر من القضاء والقدر » ، ذكره ابن شهراشوب ، وطبع في النجف ١٩٣٥ ، وطهران ١٣٥٠ .

٤ « البرق » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب ، وسماه « المرموق في أوصاف البروق » .

٥ ـ « تتبع الأبيات التي تكلم عنها ابن جني في إثبات المعاني للمتنبي » . ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٦ ـ « تتمة أنواع الأعراض من جمع أبي رشيد النيسابوري »[1] ، ذكره ابن شهراشوب .

٧ ـ « تفسير الخطبة الشقشقية » ، نقله صاحب روضات الجنات عن كتاب رياض العلماء .

٨ ـ « تفسير قصيدة السيد الحميري » المعروفة بالقصيدة المذهبة ، وهي القصيدة البائية في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وتبلغ ١٧ بيتا ، مطلعها :

(*) اقتصرت في سرد كتب المرتضى هنا على ما ذكر أبو العباس النجاشي في كتاب الرجال ، وأبو جعفر الطوسي في كتاب الفهرست ، وابن شهراشوب في كتاب معالم العلماء ، وما لم يذكره واحد من هؤلاء ذكرته منسوبا إلى مصدره.

هلاّ وقفت على المكانِ المُعْشِب بين الطويلع فاللِّوى من كبكب

ذكرها أبو جعفر الطوسيّ ، والنجاشيّ ، وابن شهراشوب . وطبعت مع الشرح بمصر سنة ١٣١٣ بعنوان: « القصيدة الذهبية » .

٩ ـ « تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ »، ذكره النجاشيّ .

١٠ ـ « تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ »، ذكره النجاشي .

١١ ـ « تفسير سورة الحمد ، وقطعة من سورة البقرة »، ذكره النجاشي.

١٢ ـ « تقريب الأصول » ، ذكره النجاشي .

١٣ ـ « تكملة الغرر والدرر »، ذكره ابن شهراشوب .

١٤ ـ « تنزيه الأنبياء » ، ذكره أبو جعفر الطوسي وابن شهراشوب . وطبع بالمطبعة الحيدرية في النجف سنة ١٣٥٢ .

١٥ ـ « جمل العلم والعمل »، ذكره أبو جعفر الطوسي ، والنجاشي ، وابن شهراشوب .

١٦ ـ « جواب الملحدة في قدم العالم من أقوال المنجمين »، ذكره ابن شهراشوب .

١٧ ـ « الحدود والحقائق » ذكره ابن شهراشوب .

١٨ ـ « الخطبة المقمصة » ، ذكره ابن شهرشوب .

١٩ ـ « الخلاف في أصول الفقه » ، ذكره النجاشي ، وابن شهراشوب .

٢٠ ـ « ديوان شعره » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب على ما ذكره بروكلمان أنه منه نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد .

٢١ ـ « الذخيرة في الأصول » ، ذكره أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهراشوب .

٢٢ ـ « الذريعة في أصول الفقه » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، والنجاشي، وابن شهراشوب .

٢٣ ـ « الرد على يحيي بن عدى فى اعتراض دليل الموجد فى حدث الأجسام »، ذكره النجاشى، وابن شهراشوب .

٢٤ ـ « الرد على يحيي بن عدىّ فى مسألة سماها طبيعة المسلمين » ؛ ذكره النجاشى .

٢٥ ـ « الرسالة الباهرة فى العترة الطاهرة » ذكره ابن شهرا شوب.

٢٦ ـ «رسالة فى المحكم والمتشابه»، منقول من تفسير النعمانى ؛ ذكره ابن شهراشوب .

٢٧ ـ « الشافى فى الإمامة والنقض على كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار بن أحمد » ، ذكره أبو جعفر الطوسى وقال : « إنه لم يؤلف مثله فى الإمامة » ، وذكره أيضا النجاشى ، وابن شهرا شوب . وقد اختصره أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ ، وطبع الكتاب والمختصر فى العجم سنة١٣٠١ فى جزأين .

٢٨ ـ « شرح مسائل الخلاف » ، ذكره النجاشى .

٢٩ ـ « الشهاب فى الشيب والشباب » ، ذكره أبوجعفر الطوسى ، وابن شهراشوب، وطبع بمطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ .

٣٠ ـ « طيف الخيال » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، وابن شهراشوب ، ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٣١٣ز، عن النسخة المحفوظة بمكتبة الأسكوريال.

٣١ ـ « غرر الفوائد ودرر القلائد » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، والنجاشى ، وابن شهراشوب ، وقد اختصره عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم العلائقى ، وسماه « غرر الغرر ، ودرر الدرر »، وأكمل هذا المختصر فى سنة ٧٦٦ ، ومنه نسخة خطية فى مكتبة طهران ؛ ذكره بروكلمان .

٣٢ ـ « الفرائض فى نصر الرواية ، وابطال القول بالعدد »، ذكره ابن شهراشوب .

٣٣ ـ « الفقه الملكى » ، ذكره ابن شهراشوب .

٣٤ ـ « الكلام على من تعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ » ، ذكره النجاشي .

٣٥ ـ « ماتفرد به الإمامية » ، ذكره النجاشي ، وابن شهراشوب .

٣٦ ـ « مسائل آيات » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٣٧ ـ « مسائل أهل مصر الأولى والأخيرة »، ذكره أبو جعفر الطوسي ، والنجاشي .

٣٨ ـ « مسائل البادريات » ذكره النجاشي .

٣٩ ـ « المسائل التبانيات » ، ذكره النجاشي ، وابن شهراشوب .

٤٠ ـ « المسائل الجرجانية » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٤١ ـ « المسائل الحلبية الأولى والأخيرة » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٤٢ ـ « مسائل الخلاف في الفقه » ، لم يتمه ؛ ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب ؛ وذكر بروكلمان أن منه نسخة في مكتبة مشهد (ضمن مجموعة) .

٤٣ ـ « المسائل الرازية » ١٤ مسألة ، ذكره ابن شهراشوب .

٤٤ ـ « المسائل الرمليات »، ذكره النجاشي .

٤٥ ـ « المسائل السلارية » ، ذكره ابن شهراشوب ؛ وذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد (ضمن مجموعة) .

٤٦ ـ « المسائل الصيداوية » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٤٧ ـ « المسائل الطبرية » ، ذكر بروكلمان أن منه نسخة في مكتبة مشهد ، وذكره أيضا الكنتوري في كشف الحجب .

٤٨ ـ « المسائل الطرابلسية الأولى والأخيرة » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٤٩ ـ « المسائل الطوسية » ، لم يتم . ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٥٠ ـ « المسائل المحمديات » ، ذكره النجاشي .

٥١ ـ « مسائل مفردات من أصول الفقه » ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٥٢ ـ « مسائل مفردات » ، نحو مائة مسألة في فنون شتى ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .

٥٣ ـ « المسائل الموصلية الثلاثة » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، والنجاشي ، وابن شهراشوب .
وذكر بروكلمان أن منها نسخة مخطوطة في مكتبة مشهد (ضمن مجموعة) .

٥٤ ـ « مسائل ميافارقين » ، ذكره ابن شهراشوب ، وذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة في النجف ، في مكتبة خاصة ، وأخرى في مكتبة مشهد (ضمن مجموعة) .

٥٥ ـ « المسائل الناصرية في الفقه » ، ذكره أبو جعفر الطوسي ، وابن شهراشوب .
وقد طبع هذا الكتاب مع كتاب «الجوامع الفقهية» لمحمد بن باقر في طهران ١٢٧٦ .

٥٦ ـ « مسألة في الإرادة » ، ذكره النجاشي .

٥٧ ـ « مسألة في دليل الخطاب » ، ذكره النجاشي .

٥٨ ـ « مسألة في التأكيد » ، ذكره النجاشي .

٥٩ ـ « مسألة في التوبة » ، ذكره النجاشي .

٦٠ ـ « مسألة في قتل السلطان » ذكره النجاشي .

٦١ ـ « مسألة في كونه تعالى عالما » ، ذكره النجاشي .

٦٢ ـ « مسألة في المتعة » ، ذكره النجاشي .

٦٣ ـ « المصباح في أصول الفقه » ، لم يتمه ذكره أبو جعفر الطوسي والنجاشي ، وابن شهراشوب .

٦٤ ـ « المقنع فى الغيبة » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، والنجاشى ، وابن شهراشوب .

٦٥ ـ « الملخص فى الأصول » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، والنجاشى ، وابن شهراشوب .

٦٦ ـ « النمو فى تفضيل الملائكة على الأنبياء » ، ذكره ابن شهراشوب .

٦٧ ـ « الموضح عن وجه إعجاز القرآن » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، والنجاشى ، وسماه « كتاب الصرفة » ، وذكره أيضا ابن شهراشوب .

٦٨ ـ « نقض الرواية ، وإبطال القول بالعدد » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، وذكره أيضا ابن شهراشوب ، وسماه « مختصر الفرائض فى قصر الرواية وإبطال القول بالعدد » وذكر بروكلمان أن منه نسخة مخطوطة فى مكتبة مشهد (ضمن مجموعة) .

٦٩ ـ « النقض على ابن جنى فى الحكاية والمحكى » ، ذكره أبو جعفر الطوسى ، وابن شهراشوب .

٧٠ ـ « نكاح أمير المؤمنين ابنته من عمر » ، ذكره ابن شهراشوب .

٧١ ـ « الوعيد » ، ذكره النجاشى .

٣ – أمالى المرتضى

وحينما يستعرض الباحث كتب العربية النفيسة التى حوت ألوان المعارف ، وزخرت بأشتات الطرائف ، وحفظت بين دفتيها نتاج القرائح ، وحقائق السير والتاريخ والأخبار ، ونصوص الشعر واللغة والغريب فإنه بلا مراء يعد منها كتاب أمالى المرتضى – أو كما يسميه مؤلفه غرر الفوائد ودرر القلائد – وينظمه فى العقد الذى يضم كتاب الكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد لابن عبد ربه ، والأغانى لأبى الفرج ، وغيرها من الكتب التى حلّقت فى سماء الآداب العربية كالنجوم ، وأرست قواعدها كالأطواد ، وعمَرت بها مجالس العلماء وسوامر الأدباء ؛ وتدارسها المتأدبون جيلا بعد جيل ؛ وتداولها النساخ ، وعُدّت فى مكتبات الدارسين من أكرم الذخائر وأنفس الأعلاق .

وهى مجالس مختلفة ، أملاها فى أزمان متعاقبة ؛ تنقل فيها من موضوع إلى موضوع ، ومن غرض إلى آخر ؛ اختار بعض آى القرآن الكريم ؛ مما يَنْبَهِمُ تأويلُه على الخاصة ، بله العامة ؛ ويدور حولها السؤال ، ويثار الاستشكال ؛ وعالج تأويلها وتوجيهها على طريقة أصحابه من المعتزلة ، أو أصحاب العدل كما كان يسميهم ؛ وحاول جهده أن يوفّق بين تأويل الآيات المتشابهة ، وما دار على ألسنة العرب من نصوص الشعر واللغة ؛ وفى هذا أبدى تفوقا عجيبا ؛ وأبان عن ذهن وقّاد ، وذكاء متلهب ، وبَصَر نافذ ؛ وأعانه فيما فسّر وأوّل ووجّه وفرةُ محفوظه من الشعر واللغة ومأثور الكلام . وكان الطابع الذى يغلب عليه عرض الوجوه المختلفة ؛ والآراء المحتملة ، مجوّزا فى ذلك إمكان الأخذ بالآراء جميعاً .

وترجع قيمة ما عرض له الشريف فى هذه المجالس من تأويل الآيات إلى أنها تُعَدُّ صورة لتفسير القرآن الكريم عند علماء المعتزلة ؛ مما لم يصل إلينا من كتبهم إلا القليل النادر .

واختار أيضا طائفة من الأحاديث التى يختلف العلماء فى تأويلها ؛ ويبدو التعارض فيما

بينها وحاول تفسيرَها وتأويلها ؛ بالمنهج الذى عالج به تأويل آى القرآن ؛ مستعيناً بشواهد الشعر واللغة ؛ موضحا مذهب أصحابه من أهل العدل ؛ مُدْليا بحججهم على مَنْ خالف تأويلهم من جماعة أهل السنة، أو أهل الجبر كما كان يسميهم ؛ وناقش ابن قتيبة وأبا عبيد القاسم بن سلام وابن الأنبارىّ فى ذلك على الخصوص .

ثم عرض لمسائل فى علم الكلام مما اشتجر فيها الرأى ، ودار حولها الجدل؛ واصطرعت الأقلام ، وأقيمت المناظرات؛ مثل القول برؤية الله ، وخلق أفعال العباد؛ وإرادة الله للقبائح، والقول بوجوب الأصلح، وقرر رأى أصحابه؛ وحاجّ عنهم ، واحتج على خصومهم؛ وكان فيما جادل وناقش رفيقا فى الجدل عفيفا فى المقال .

وأودع فى الكتاب بجانب ما بسط من تأويل الآيات والأحاديث وعرض المسائل مختاراتٍ من المصطفى المنخول من الشعر وحرّ الكلام ؛ تناولها بالشرح والنقد والموازنة ، وذكر صدرا من تراجم الشعراء والعلماء والأدباء وأصحاب الأهواء والآراء الخاصة ؛ وأورد طائفة من أشعارهم وأقوالهم ونوادرهم ، ثم استروح بذكر فيض من الطرائف النادرة ، والأجوبة الحاضرة المسكتة ، والأفاكيه الرفيعة ؛ معتمدا فيما أورده على ماوصل إليه من كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وأبى حاتم والآمدىّ وغيرهم، أو مارواه عن شيوخه، وأبى عبيد الله المرزبانىّ على الخصوص .

واختار أيضاً بعض الموضوعات التى كانت مقاصد شعراء العربية فى الجاهلية وصدر الإسلام؛ كالمدائح والأهاجى والمراثى والسير ووصف الشيب والطيف وغيرها، وأورد ما قاله الشعراء فيها ؛ ووازن بين الكثير منها، وتناولها بالنقد فى كثير من الأحيان.

وبهذه الفنون المتنوعة ؛ والفصول المختلفة ؛ والمباحث الجليلة اجتمع للكتاب ميزة كبرى بين الكتب العربية ؛ وعدّ مصدرا ينقل عنه العلماء ، ويحتج به الأدباء ؛ ويرد شرعته القارئون على ممرّ الأجيال .

* * *

ويبدو أن هذه المجالس أملاها الشريف فى داره على تلاميذه ومريديه ؛ فى أزمنة مختلفة متعاقبة ؛ لم يصل العلم إلى التاريخ الذى بدأها فيه ؛ ولكن الثابت أنه فرغ من إملائها يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة؛ كما ذكره الشريف أبو يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفرىّ فى آخر نسخته .

أما الزيادات التى فى آخر الكتاب ؛ وهى التى عرفت بتكملة الغرر فهى طائفة أخرى من المسائل التى اختارها فيما كان يعرض له فى مجالسه فيما بعد ؛ وأشار بأن تضاف إلى الكتاب ، للتشابه بينهما فى المنهج والمنحى ؛ وبهذه التكملة يتم الكتاب .

٤ — نسخ الكتاب

١ ـ نسخة كتبت فى سنة ٥٦٧ ، ووقعت فى ملك الحسين بن أبى عبد الله بن إبراهيم الخوبجانى ، وقرأها على فضل الله بن على بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن الحسين ، وأجاز له روايتها بتاريخ ٥٦٨ عنه ، عن شيخه عبد الرحيم بن أحمد بن الإخوة البغدادى عن أبى غانم العصمى عن السيد المرتضى ، وعنه أيضا عن النقيب حمزة بن أبى الأعز الحسينى عن أبى المعالى أحمد بن قدامة عن السيد المرتضى ، وعنه أيضا عن السيد المرتضى بن الداعى الحسنى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد الدوريستى . وعلى النسخة حواش كثيرة ، هى مما أملاه فضل الله على تلميذه الحسين بن أبى عبد الله الخوبجانى ، أو مما نقله من نسخته ، مقرونة برموز أصحابها ، أو غير مقرونة وعلى الصفحة الأولى من هذه النسخة رموز النسخ التى قابل فضل الله بن على نسخته عليها ، وأسماء أصحابها ، كتبت على النحو الآتى :

" س : علامة نسخة مولانا الصدر الكبير العلامة ضياء الدين تاج الإسلام ، سلطان العلماء ، أبى الرضا فضل الله بن على الحسنى الراوندى قدس الله روحه "

***

" ص : علامة نسخة أبى الصلاح التقى نجم الدين الحلبى ، رحمه الله ، وكان سمع هذا الكتاب على السيد علم الهدى رضى الله عنه بقراءة غيره "

***

" ش : علامة نسخة السيد أبى السعادات هبة الله بن على بن عبد الله بن حمزة العلوى الشجرى ، وكانت نسختة بخطه رضى الله عنه "

***

" ج : علامة نسخة الشريف أبي يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري رحمه الله ، وكان خليفة الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي رضي الله عنه والجالس مكانه، وكتب بخطه في آخر نسخته من هذا الكتاب : هذا آخر مجلس أملاه سيدنا أدام الله علوه ثم تشاغل عنه بأمور الحج ، ووقع الفراغ منه يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة "

* * *

وتبدأ هذه النسخة بصفحة فيها مقدمة الفهرست ، وبها التعريفات والرموز الخاصة التي قابل عليها صاحب النسخة واستفاد منها ، ثم يلي ذلك الفهرست ، وفيه عنوانات المجالس وموضوعاتها ، ثم صفحتان بهما نقول وأشعار ثم دعاء كتب في سنة ٧٦١ ، ثم يلي ذلك صحيفة العنوان، وهو مكتوب بالخط الكوفي الجميل المزخرف بحلية على شكل زهور ، تحتها اسم المؤلف ، داخل إطار ، بالخط النسخي الجميل ، ثم تحته إطار أكبر، به نص إجازة فضل الله ابن علي ، وفي حواشي الصحيفة بعض التملكات وإثبات قراءة كمال الدين المرتضى المرعشي علي الحسين بن أبي عبدالله الحوبجاني من أول الكتاب إلى المجلس الحادي والثلاثين ، وإجازته بتاريخ ٥٨٤ . ثم يلي ذلك أبواب الكتاب ، وعنوانات المجالس في وسط السطر بخط كبير واضح .

وفي آخر النسخة : « وافق الفراغ من نسخه في محرم سنة سبع وستين وخمسمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النصير » .

وهي مكتوبة بقلم معتاد واضح مضبوط أكثره بالشكل ، وتقع في ٣١٧ ورقة ، وعدد سطور الصفحة عشرون سطرا ، وأصلها المخطوط بمكتبة الإسكوريال برقم ١٤٥ .

وإلى صديق العلامة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي يرجع الفضل في إعانتي على تصوير نسخة منها .

وقد رمزت إلى هذه النسخة بكلمة « الأصل » وأثبت جميع ما فيها من الحواشي .

* * *

(٢) نسخة بخط محمد بن أبي طاهر بن أبي الحسين الوراق ، فرغ من كتابتها في منتصف رجب سنة ٥٨٦ برسم مرشد الدين أبي الحسن علي بن الحسين بن أبي الحسن الواراني ، وعليها قراءة للواراني على شيخه الحسن بن الحسين بن علي الدوريستي بتاريخ سنة ٥٨٧ ، بروايته عن فضل الله بن علي بن الحسين الراوندي عن الإمام عبد الرحيم بن الإخوة عن أبي غانم العصمي عن السيد المرتضى ؛ وكتب ذلك الدوريستي بخطه .

وفي آخر هذه النسخة الزيادات التي رأى السيد المرتضى إضافتها إلى الكتاب ؛ مما لم يذكر في نسخة الأصل ؛ وهي أيضا بخط محمد بن أبي طاهر بن أبي الحسين الوراق ، كتبها برسم مرشد الدين أبي الحسن الوراني المذكور في شعبان من السنة نفسها وعلى هذه النسخة ما يثبت أن الحسن بن الحسن بن الحسين انتسخ منها ومن الزيادات نسخة له .

وفيها حواش كثيرة ؛ ومنها ما يوافق ما في حواشي نسخة الأصل .

وقد فقد منها صفحة العنوان الخارجي ؛ ولعله يكون قد ألصقت بها ورقة بيضاء ، وبظهرها فاتحة الكتاب ، ورأسها حلية بالألوان وعنوانات المجالس مميزة بخط كبير واضح ، وفي آخرها اسم ناسخها وتاريخ النسخ ؛ مرة بعد المجالس ومرة بعد الزيادات . وهي مكتوبة بقلم معتاد ، مضبوطة بالشكل الكامل المتقن ؛ وعدد أوراقها ٢٤٥ ورقة وفي كل صفحة ٢٢ سطرا .

وأصل هذه النسخة مخطوط محفوظ بمكتبة فيض الله بإستانبول برقم ١٤٨٥ ؛ وهي مما

صوّره معهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة . وقد رمزت إليها بالحرف «ف» .

* * *

٣ ـ نسخة كتبت لحيدر بن محمد بن زيد بن محمد بن زيد بن عبد الله الحسيني، وعليها سماع لأبي البركات علي بن نصر بن علي بن الأعز الحسيني على حيدر المذكور مؤرخ سنة ٦١٩ .

والموجود منها مجلد واحد ينتهي بآخر المجلس الرابع والثلاثين ، وليس بآخره اسم الناسخ أو تاريخ النسخ ، ومن المؤكد أنها كتبت قبل سنة ٦١٩ ، وهو تاريخ السماع الموجود بالصفحة الأولى .

وبآخر المجلد سماع لحيدر بن محمد صاحب النسخة المذكور، بقراءة على ابن الأعز وبحضور آخرين ذكرت أسماؤهم ، بتاريخ سنة ٦٢٤ .

وقد عورضت هذه النسخة بنسخ أخرى، أشير إلى خلافها فى الحاشية بهذا الرمز (خ) .

وبها حواش يوافق الكثير منها الحواشي التي ذكرت فى الأصل. ويلاحظ أن بعض هذه الحواشي نقلت عن نسخة ابن الشجري ، ويسبقها رمزها المعروف : «ش» أحياناً ، وأحياناً بلفظ «ابن الشجري» .

وقد كتبت بالخط النسخ الجلي الواضح، وضبطت بالشكل الكامل، وعدد أوراقها ٢٨٥ ورقة وعدد سطور كل صفحة ١٣ سطرا ، وهي محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٨٣ أدب تيمور .

وقد رمزت إليها بالحرف « ت » .

* * *

٤ ـ نسخة بخط هاشم بن الحسين الحسيني ، فرغ من كتابتها فى العاشر من شعبان

سنة ١٠٦٧ ، وذكر فى آخرها أنه قابلها على الأصل الذى كتبت عنه ، وانتهى من ذلك فى السادس عشر من شعبان المذكور .

وهى أربعة أجزاء فى مجلد واحد . وتقع فى ١٨٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٢٣ سطرا ؛ كتبت بخط دقيق .

وقد رمزت إليها بالحرف «د»

* * *

٥ ـ نسخة طبعت فى طهران سنة ١٢٧٣ ، ومعها التكملة ، وعليها حواش ، يوافق بعضها ما فى نسختى الأصل، وف . ولم يذكر فيها ما يشير إلى الأصل الذى طبعت عليه ؛ إلا أنه ذكر فى حاشية ص ٢٠٠ عند آخر المجلس الرابع والعشرين : « هذا آخر المجلدة الأولى من أصل الجعفرى ـ رحمه الله » . ويؤخذ من هذا أن لها علاقة بنسخة أبى يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفرىّ ؛ وهى إحدى النسخ التى قوبلت بهما نسخة « الأصل » .

وقد رمزت إلى هذه النسخة بالحرف « ط »

٦ ـ نسخة طبعت فى مصر بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ ؛ على نفقة السيد أمين الخانجى وأحمد ناجى الجمالى ، وعليها شروح وتعليقات للسيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ثم السيد أحمد أمين الشنقيطى .

ولم يذكر فيها ما يشير إلى الأصل الذى طبعت عليه . والعنوان الذى وضع على هذه الطبعة : «أمالى السيد المرتضى» ، وبه عرف الكتاب .

وقد أشرت إلى هذه النسخة بالحرف « م »

وقد اتخذت نسخة الإسكوريال أصلا للعمل ، وأثبت نصها ، ووضعت فروق النسخ

المخطوطة الأخرى ، أما النسختان المطبوعتان ، فإني لم أذكر منهما إلا ما انفردا فيه برواية، وهو قليل .

وقد أثبت جميع حواشي الأصل ، وبعض حواشي نسختي ت ، ف . ووضعت هذه الحواشي بين أقواس تمييزا لها عما وضعت من الشرح والتعليق .

وقد بذلت ماوسع الجهد والطاقة؛ ومن الله ألتمس الجزاء فيما قصدت؛ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

مصر الجديدة ٨ شعبان سنة ١٣٧٣
١٢ إبريل سنة ١٩٥٤

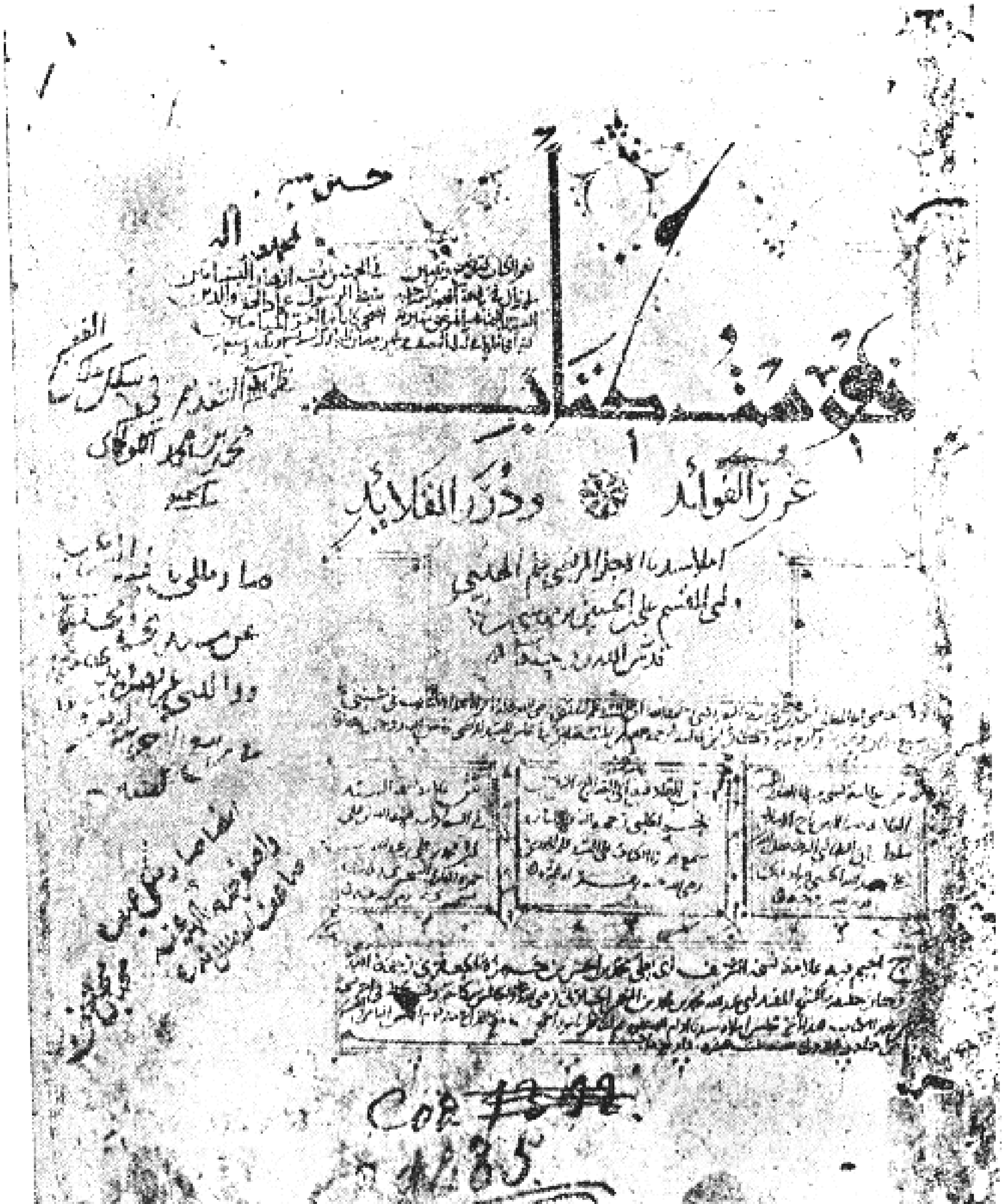
محمد أبو الفضل إبراهيم

لوحة رقم (١)



عنوان الكتاب من نسخة الأصل

لوحة رقم (٢)


غرر الفوائد ❁ ودرر القلائد

الصفحة الأولى من فهرس الأصل

لوحة رقم (٣)



وجه الورقة الثانية من نسخة الأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلس

تأويل آية

قال الشريفُ المرتضَى قدّسَ اللهُ رُوحَه : إنْ (١ سأل سائلٌ عن قول الله تعالَى ١) : [٨١] ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ . [الإسراء : ١٦] .

فى هذه(٢) الآيةِ وجوهٌ من التأويل ؛ كلٌّ منها يُبطِل الشبْهةَ الداخلةَ على المُبطِلين فيها ؛ حتى عَدَلوا بتأويلها عن وجهه ، وصرَفوه عن بابه .

أولها : أنّ الإهلاكَ قد يكون حسناً ، وقد يكون قبيحا ؛ فإذا كان مُستحَقًّا أو على سبيل الامتحان كان حسناً ، وإنما يكونُ قبيحا إذا كان ظُلْما ؛ فتعلُّق الإرادة به لايقتضِي تعلُّقَها به على الوجه القبيح ، ولا ظاهرَ للآيةِ(٣) يقتضي ذلك ؛ وإذا علِمْنا بالأدلّة تنزُّهَ القديم تعالَى عن القبائح علِمْنا أنّ الإرادةَ لم تتعلّقْ إلا بالإهلاكِ الحسَنِ ؛ وقولُه تعالَى : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ المأمورُ به محذوف ؛ وليس يجبُ أن يكونَ المأمورُ به هو الفسقَ ، وإن وقع بعده الفسقُ ؛ ويجرى هذا مجرَى(٤) قولِ القائل : أمرتُه فعصَى ، ودعوتُه فأبَى . والمرادُ أننى أمرتُه بالطّاعة ، ودعوته إلى الإجابة والقبول .

ويمكن أن يقالَ على هذا الوجه : ليس موضع الشبهة ما تكلّمتم عليه ؛ وإنما موضعُها أن يقال : أىُّ معنى لتقدّم الإرادة ؟ فإن كانت متعلّقةً بإهلاكٍ مُستحَقٍّ بغير الفسق المذكور فى الآية فلا معنى لقوله تعالَى : إذا أردنا أمرْنا ؛ لأنّ أمرَه بما يأمرُ به لايحسُن إرادته

(١ـ١) ت ، د ، ف : « قال الله جل من قائل » .   (٢) حاشية ت (من نسخة) : « لهذه » .

(٣) ش : « ولا ظاهر الآية » .   (٤) ت ، د ، حاشية الأصل (من نسخة) : « وإنما يجرى » ، وفى حاشية الأصل أيضا (من نسخة أخرى) : « وإنما هذا يجرى » .

للعقاب المستحَقّ بما تقدّم من الأفعال ، وإن كانت الإرادةُ متعلّقةً بالإهلاك المستحَقّ بمخالفة الأمر المذكور في الآية فهذا الذي تأبَوْنه، لأنه يقتضي أنه تعالى مريدٌ لإهلاك من لم يستحِقّ العقاب.

والجواب عن ذلك أنه تعالى لم يعلّق الإرادةَ إلّا بالإهلاكِ[(١)] المستحَقّ بما تقدّم من الذنوب ؛ والذى حسَّن قوله تعالى : وإذا أردنا أمرنا ... هو أنّ في تكرار

[٢ و] الأمر بالطاعة والإيمان إعْذاراً إلى العُصاة، وإنذاراً لهم، وإيجاباً وإثباتاً[(٢)] للحجة عليهم/ : حتى يكونوا متى خالفوا وأقاموا على العصيان والطغيان بعد تكْرار[(٣)] الوعيد والوعظ والإنذار مِمَّن يحِقّ عليه القول ، وتجب عليه[(٤)] الحجّة ؛ ويشهد بصحة[(٥)] هذا التأويل قولُه تعالى قبل هذه الآية : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . [الإسراء : ١٥] .

والوجهُ الثاني في تأويل الآية أن يكونَ قولُه تعالى : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ من صفةِ

١٠ القرية وصِلتها ، ولا يكون جوابا لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا ﴾ ، ويكون تقديرُ الكلام : وإذا أردْنا أن نُهلِك قريةً من صفتها أنّا أمرْنا مترفيها ففسقوا فيها[(٦)]، وتكون « إذا » على هذا الجواب لم يأت لها جواب ظاهر في الآية ، للاستغناء عنه بما في الكلام من الدِّلالةِ عليه[(٧)] ؛ ونظيرُ هذا قولُه تعالى في صفة الجنة : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ

---

(١) ت ، ف : « بإهلاك مستحق » . (٢) ساقطة من ت ، د ، ف. (٣) ت ، د : « تكرر ».
(٤) ساقطة من ف . (٥) ت ، ف : « لصحة » . (٦) في ت ، وحاشية الأصل : « ويكون كأنه قال تعالى : وإذا أردنا أن نهلك قرية مأمورا مترفوها كررنا القول عليهم ، وأعدنا الوعظ لهم ، وأمرناهم ثانيا ففسقوا فيها ، فحق عليها القول . والله أعلم بالمراد »
(٧) في ت، ف، حاشية الأصل، : « ويمكن أن يتمحل « لإذا » في الآية جواب، وهو أن تجعل الفاء في قوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾ زائدة ، وتجعل « دمرنا » جوابا لإذا ، ولا خلاف في مورد الفاء زائدة في كلام العرب ؛ حكى ابن جنى عن أبي على قال : حكى أبو الحسن عنهم : « أخوك فوجد » بمعنى أخوك وجد. ومن ذلك قولهم : زيدا فاضربه ، وعمرا فأكرم ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ، ويكون معنى الآية على هذا إخبارا عن عزة الله تعالى وقدرته على جميع ما أراد تعالى . وحجة الفاء زائدة، في بيت الكتاب :

لَا تَجْزَعِي إِنْ مُنْفِسًا أَهْلَكْتُهُ ... وَإِذَا هلكتُ فعندَ ذلِكَ فَاجْزَعِي

الفاء في « فاجزعي » زائدة » .

لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . [الزمر : ٧٣–٧٤] ، ولم يأتِ « لإذا » جوابٌ فى طولِ الكلام للاستغناء عنه[١] .

ويشهدُ أيضا بصحةِ[٢] هذا الجواب قول الهُذَلِيّ :

حتى إذا أَسْلَكُوهُمُ[٣] فى قُتَائِدَةٍ شَلاًّ كما تَطْرُدُ الجَمَّالَةُ الشُّرُدَا[٤]

فحذف جوابَ إذا ، ولم يأتِ به ، لأن هذا البيتَ آخر القصيدة[٥] .

والوجه الثالث : أن يكون ذكر الإرادة فى الآية مجازاً أو اتساعا وتنبيها على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم ، وأنهم متى أُمِرُوا فسَقوا وخالفوا ؛ وذكرُ الإرادة يجرى هاهنا مَجْرَى قولِهم : إذا أراد التاجرُ أن يفتقِر أتته النوائبُ من كل جهة ، وجاءه الخُسرانُ من كل طريق ، وقولِهم : إذا أراد العليلُ أن يموتَ خلَّط فى ما كله ، وتسرَّع إلى كل ماتتوق

(١) حاشية الأصل : « كأن التقدير : إذا جاءوها حضروها وفتحت ؛ أو سُرُّوا بدخولها ، وما أشبه ذلك ، والله أعلم » . (٢) كذا فى الأصل ، حاشية ت (من نسخة) ؛ وفى ت ، ف : « لصحة » .

(٣) د ، ف ، حاشية ت (من نسخة) : « سلكوهم » .

وسلك لغة فى أسلك ، وأورده صاحب الكشاف بهذه الرواية عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ . (٤) حواشى الأصل ، ت ، د ، ف : « البيت لعبد مناف بن ربع الهذلى ؛ فى آخر قصيدته التى أولها :

ماذَا يَغِيرُ ابنَتَىْ رِبْعٍ عويلُهما لا تَرْقدان ولا بُؤسَى لمن رَقَدَا

قتائدة : موضع ، والجمالة : أصحاب الجمال ، كالبغالة والحمارة ، وانتصاب « شلا » على المصدر ، ودل على فعل مضمر يحصل بظهوره جواب « حتى إذا سلكوهم » المنتظر ، وتلخيصه : حتى إذا أسلكوهم هذا الموضع شلوهم شلا ، يشبه طرد الشرد من الجمال إذا تزاحمت على الماء ؛ وهذا كما يقال : طردوهم طرد غرائب الإبل . ومعنى أسلكوهم جعلوا لهم مسلكا ، والسلك : إدخال شيء فى شيء تسلكه فيه ، ومنه ﴿ مَا سَلَكَكُمْ ﴾ . وروى أبو عبيدة : « الشرد » (بفتح الشين والراء) ، وقال : تقول : إبل شرد وجلب وطرد » .

وانظر الكلام على هذا البيت فى (ديوان الهذليين ٢ : ٤٢ ، وأدب الكاتب ٤٢٤ ، والاقتضاب ٤٠٢) . (٥) حاشية الأصل : « جواب الشرط جزء لا يتم المشروط دونه ؛ فإذا حذف كان أهول للكلام ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...﴾ الآية ، وكقول القائل : لو رأيت عليا بصفين ، وكقولهم : لو ذات سوار لطمتنى » .

إليه نفسُه ؛ ومعلوم أن التاجرَ لم يُرِد فى الحقيقة شيئا ، ولا العليل[١] أيضا ، لكن لمّا كان المعلومُ من حال هذا الخسرانَ ، ومن حال هذا الهلاكَ حسُن هذا الكلامُ ، واستعمِل ذكر الإرادة لهذا الوجه[٢] . وكلام العرب وَحْىٌ وإشارات واستعارات ومجازات[٣] . ولهذه الحال كان كلامُهم فى المرتبة العليا من الفَصاحة ؛ فإنّ الكلام متى خلاَ من الاستعارة[٤] ، وجرى كلُّه على الحقيقة كان بعيدا من الفصاحة ، بريًا من البلاغة ، وكلامُ الله تعالى أفصحُ الكلام.

[٢ ظ] /والوجه الرابع : أن تُحمل الآيةُ على التَّقديم والتأخير ؛ فيكون تلخيصُها : إذا أمرْنا مُتْرَفِى قريةٍ بالطاعة فعصوْا واستَحقوا العقاب أردنا إهلاكهم ؛ والتقديمُ والتأخيرُ فى الشعر وكلام العرب كثير . ومما يمكن أن يكون شاهدا لصحة هذا التأويل من القرآن قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦]، والطهارةُ إنّما تجب قبل القيام إلى الصلاة، وقولُه تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ [النساء : ١٠٢] ، وقيام الطائفة معه يجب أن يكون قبل إقامة الصلاة ؛ لأن إقامتَها هى[٥] الإتيانُ بجميعها على الكمال .

فأما قراءة مَن قرأ الآيةَ بالتشديد فقال : ﴿ أمَّرْنا ﴾[٦] ، وقراءة مَنْ قرأها بالمدّ

---

(١) كذا فى الأصل ، د ، وحاشية ت (من نسخة)، وفى ت ، ف : « المريض » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : « تصوير المجاز فى الآية على أن التقدير : إذا قرب هلاك قرية أمرنا مترفيها فسقوا ؛ وكذلك قولهم : إذ أراد المريض ... التقدير : إذا قرب موت المريض خلط ، وكذلك التاجر إذا قرب افتقاره أتته النوائب ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾؛ أى يقرب أن ينقض ؛ وإنما كنى بالإرادة عن القرب فى هذه المواضع لأن المريد للشىء، المخلى بينه وبينه — ولا مانع هناك — ما أقرب ما يقع مراده ، والله أعلم » . (٣) حاشية الأصل : « الإرادة قد تستعمل فى الجماد فضلا عن العقلاء ؛ كقوله تعالى: ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾؛ وكقول الراعى النميرى :

فِى مَهْمَهٍ قَلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا قَلَقَ الفُئُوسِ إذا أَرَدْنَ نُصُولا

(٤) كذا فى الأصل، وحاشية ت(من نسخة)، وفى ت : «وإن كان الكلام متى خلا من الاستعارة»، وفى ف : «فإن كان الكلام متى خلا من الاستعارات» . (٥) حاشية ت (من نسخة) : «هو الإتيان».

(٦) هى قراءة شاذة ، عن أبى عثمان النهدى، والليث عن أبى عمرو ، وأبان عن عاصم . (وانظر القراءات الشاذة لابن خالويه ٧٥).

والتخفيف «قال : ﴿ آمَرْنَا ﴾[١] فلن يخرُجَ ممنى قراءتيهما عن الوجوه التى ذكرناها[٢] ؛ إلا الوجه الأول ؛ فإنّ ممناه لا يليق إلا بأنْ يكون ما تضمنته الآيةُ هو الأمرالذى يُسْتَدْعَى به الفمل[٣] .

تأويلُ خبر

رِوِى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « مَنْ تعلّم القرآن ثم نسيَه لَقِىَ اللهَ تمالى وهو أجْذَم » .

قال أبو عُبيد القاسم بن سلاّم[٤] مفسّرا لهذا الحديث فى كتابه غريب الحديث : الأجذم: المقطوع اليد ، واستشهد بقول المتلمّس[٥] :

وما كنتُ إلا مثلَ قاطعِ كَفِّهِ ... بِكَفٍّ له أخرى فأصبحَ أجْذَما

وقد خطّأ عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة[٦] أبا عُبيد فى تأويله هذا الخبر وقال : الأجْذم وإن

---

(١) هى قراءة شاذة أيضا ، عن خارجة عن نافع ؛ (وانظر المصدر السابق).

(٢) حاشية الأصل : « قوله أمرنا ، بالتشديد : كثرنا ، وآمرنا ، بالتخفيف : جعلناهم أمراء ؛ وإن شئت فالعكس من ذلك ، والصحيح العكس ». (٣) ت ، د ، حاشية الأصل (من نسخة) : « يستدعى به إلى الفعل » .

(٤) هو أبو عبيد القاسم بن سلام ، اللغوى الفقيه المحدث ، ولد بهراة ، ثم ذهب إلى بغداد ، ودرس بها الأدب والحديث والفقه ، وولى القضاء بطرسوس؛ وخرج منها إلى مكة ، وسكنها حتى مات سنة ٢٢٤ . وكتابه غريب الحديث جمع فيه ما فى كتب أبى عبيدة وقطرب والأخفش والنضر بن شميل ، وذكر أحاديث كل رجل من الصحابة على حدة . قال ابن الأثير : « جمع كتابه المشهور فى غريب الحديث والآثار ، الذى صار أولا ؛ وإن كان أخيرا ؛ لما حواه من الأحاديث والآثار الكثيرة والمعانى اللطيفة والفوائد الجمة؛ فصار فيه القدوة فى هذا الشأن ، أفنى فيه عمره ؛ حتى إنه قال فيما يروى : إنى جمعت كتابى هذا فى أربعين سنة ، وهو كان خلاصة عمرى » . ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية منقولة عن نسخة مخطوطة بمكتبة كبرى لى بالآستانة . (وانظر إنباه الرواة ٣ : ١٢—٢٣ ، والنهاية لابن الأثير ١ : ٤—٥ . وكشف الظنون ١٢٠٤) . (٥) هو جرير بن عبد المسيح الضبعى ، والبيت من قصيدة له أولها:

يُعَيِّرُنِي أمِّي رجالٌ وَلَا أرَى ... أخَا كَرَمٍ إلاَّ بأنْ يتكرَّمَا

وهى فى (ديوانه ١٦٩ ، والأصمعيات ٦٤—٦٥ ، ومختارات ابن الشجرى ٢٨—١٩) ؛ وخبر القصيدة فى (الخزانة ٤ : ٢١٥ — ٢١٦). (٦) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد ببغداد ونشأ =

كان المقطوعَ اليد ؛ فإنّ هذا المعنى لا يليقُ بهذا الموضع . قال : لأنّ العقوباتِ من الله تعالى لا تكون إلا وَفْقًا للذُّنوب وبحسَبِها ، واليد لا مدخل لها فى نِسيان القرآن ، فكيف تُعاقَب فيه ! واستشهد بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، وزعم أن تأويلَ الآية أن الرِّبَا إذا أكلوه ثَقُل فى بطونهم ، ورَبَا فى أجوافهم ؛ فجعل قيامَهم مثلَ قيامِ[(١)] مَنْ يتخبَّطُه الشيطانُ تعثُّراً وتخبُّلاً . واستشهد أيضا بما رُوِى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « رأيتُ ليلةَ أُسْرِىَ بى قوماً تُقْرَضُ شِفاهُهم ، وكلّما قُرِضتْ وَفَتْ ، فقال لى جبريل : هؤلاء خطباء أمّتِك ، تُقْرَضُ[(٢)] شِفاههم ؛ لأنهم يقولون مالا يفعلون » . قال : والأجذم فى الخبر إنما هو المجذوم ؛ وإنما جازَ أنْ يُسمّى المجذوم أجْذَمَ ؛ لأن الجُذام يقطّع أعضاءه ويشذّبها ؛ والجذمُ هو القطع .

[٣ و] قال الشريف المرتضى رضى الله عنه : قد أخطأ الرجلان جميعا ، / وذهبا عن الصواب ذَهابا بعيدا ، وإن كان غلطُ ابن قُتيبة أفحشَ وأقبحَ ؛ لأنه علّل غلطَه، فأخرجه إلى أغاليطَ كثيرة ؛ ونحن نبيِّنُ معنى الخبَرِ ثم نتكلّمْ على ما أوْرَداه .

أمامعنى الخبرِ فهوظاهر لمن كان له أدنَى معرفة بمذاهب العرب فى كلامها؛ وإنما أراد عليه السلامبقوله: يحشَر أجْذَمَ؛ المبالغةَ فى وصفه بالنقصان عن الكمال، وفقد ما كان عليه بالقرآن من الزينة والجمال . والتشبيه له بالأجْذَم من حَسَنِ التشبيه وعجيبه ؛ لأن اليدَ من الأعضاء الشريفةِ التى لا يتمُّ كثير من التصرُّف ولا يُوصل إلى كثيرٍ من المنافع إلا بها ؛ ففاقدُها

= بها، وأقام بالدينور مدة فنسب إليها ، وحدث ببغداد عن إسحاق بن راهويه وطبقته ، وروى عنه ولده أحمد وابن درستويه ؛ توفى سنة ٢٧٦ ؛ وكتابه فى غريب الحديث ذكره ابن الأثير فقال : «فصنف كتابه المشهور فى غريب الحديث والآثار ؛ حذا فيه حذو أبى عبيد ، ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة فى كتاب أبى عبيد ؛ إلا ما دعت إليه حاجة من شرح وبيان واستدراك ، فجاء كتابه مثل كتاب أبى عبيد أو أكبر » . (وانظر إنباه الرواة ٢ : ١٤٣-١٤٧ ، والنهاية لابن الأثير ١ - ٥ ، وكشف الظنون ١٢٠٤) .

(١) ساقطة من ف .

(٢) هكذا ضبطت بالقلم فى الأصل ، وفى ت ، ش : « تقرض » بضم التاء وفتح القاف وتشديد الراء المفتوحة .

يفقِدما كان عليه من الكمال، وتفوتُه المنافع والمرافق التى كان يجملُ يدَه ذريعةً إلى تناوُلها؛ وهذه حالُ ناسِي القرآن ومضيِّعه[١] بعد حفظه، لأنه يفقِدما كان لابساً له من الجمال، ومستحِقّاً له من الثواب، وهذه عادة للعرب فى كلامهم معروفة؛ يقولون فيمن فقَدَ ناصرَه ومُعينَه[٢]: فلان بعد فلان أجْذَع، وقد بَقِيَ بعده أجْذَم؛ قال الفرزْدق يرْثِي مالك بن مِسْمَع[٣]:

تَضَعْضَعَ طودًا وائلٍ بعـد مالكٍ ... وأصْبَح مِنها مَعطِسُ العزِّ أجْدَعا[٤]

وإنما أراد المعنى الذى ذكَرْناه. وللعرب ملاحنُ فى كلامها[٥]، وإشارات إلى الأغراض، وتلويحات بالمعانى، متى لم يفهمْها ويسرع إلى الفطنة بها مَنْ تعاطَى تفسير كلامهم، وتأويل خطابهم كان ظالما نفسه، متعدياً طوره.

ونعود إلى الكلامِ على ما ذكره الرجلان؛ أما أبو عُبيد فإن خطأه من حيث لم يَفطُن للغرض فى الخبر، وضلَّ عن وجهه، وإلا فالأجذَمُ هو الأقطع لا محالةَ كما قال؛ إلاَّ أنه لا يليقُ بهذا الموضع، وإذا حُمِل عليه لم يُفِدْ شيئا؛ وإن كانتْ[٦] شبهتُه التى أوقعتْه فى هذا التأويل ظنّه أن ذلك يكون على سبيل العقوبة له على نسيان القرآن فليس كما ظن، لأنَّ الجذْمَ[٧] أولا ليس بعقوبة؛ لأن الله تعالى قد يَجْذِم[٨] أولياءه والصالحين من عباده، ويقطّع أعضاءهم بالأمراض، وقد يبتدئْ خَلْقَ مَنْ هو ناقص الأعضاء؛ فليس بلازم فى الجذْم أن يكون عقوبة. ثم لو كان يستحقُّ ناسي القرآنِ عقوبةً على نسيانه لكان حفظُ القرآن بأسْرِه فرضا واجبا وحتْماً لازما[٩]؛ لأن العقوبةَ لا تستحق بترك ماليس بواجب، وليس

---

(١) كذا ضبطت بالقلم فى الأصل، ت، وفى ش: «ومضيعه»، بكسر الضاد وبعدها ياء ساكنة.

(٢) فى نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «ومغيثه».

(٣) هو مالك بن مسمع الجحدرى؛ من بكر بن وائل، كان سيد ربيعة فى زمانه، وتوفى سنة ٧٣. (المعارف: ١٨٤، وجمهرة الأنساب: ٣٠١، والإصابة ٦: ١٦٤).

(٤) ديوانه: ٤١٤. (٥) حاشية ف (من نسخة): «كلامهم».

(٦) ت: «وإن كان». (٧) حاشية ت (من نسخة): «الجذام».

(٨) نسخة أبى السعادات الشجرى: «يجذّم» بضم الياء وفتح الجيم وتشديد الذال المكسورة؛ وضبطت فى ت بالوجهين معا، وفى حواشى الأصل، ت، ف: «الجذم القطع، وقد جذم (بكسر الذال) يجذم جذماً فهو أجذم، أى مقطوع اليد». (٩) حاشية الأصل: «اللازمة ممنوعة».

حفظ جميع القرآن كذلك .

[٣ ظ] وأما ابنُ قتيبة فإنه غلِط من حيث لم يفطُن للوجه / فى الخبر الذى ذكرناه ؛ من حيث ظنَّ أن العقوبةَ لا تكون إلا فى محلِّ الذَّنب ، وهذا القولُ يوجب عليه ألاَّ يُجلَدَ ظهرُ الزانى ، وتختص العقوبة بفرْجه ، وكذلك القاذف كان يجبُ أنْ يعاقَب فى لسانه دونَ سائر أعضائه؛ والخبر الذى استشهدبه حُجَّةٌ عليه، لأنا نعلمُ أنَّ اللسانَ أقوى خطأً فى باب الكلام من الشَّفة ، فلِم لمْ يُخصّ بالعقوبة[1] وحلَّتْ بالشفاه دونه ؟ ثم غلطهُ فى تأويل الآية التى أوْردها أقبحُ من كل ما تقدّم ؛ لأنه توهَّمَ أنَّ ما تضمنته الآيةُ من تخبُّط آكلِ الربا وتعثُّرِه عند القيام إنما هو فى الدنيا من حيث يَثقُل ما أكلَه فى معدته فيمنعه من النّهوض ؛ ونحن نعلم ضرورةً خلافَ ذلك ، ونجدُ كثيراً من آكلى الربا أخفَّ نهوضاً، وأسرع قياماً وتَصرُّفاً من غيرهم ؛ مِمَّن لم يأكل الربا قطّ؛ والمعنى فى الآية ما ذكره المفسِّرون من أنَّ ما وصفهم الله تعالى به يكونُ عند قيامِهم من قبورهم ، فيلحقُهم العِثار والزَّلل والتَّخبُّل على سبيلِ العقوبة لهم ، وليكونَ ذلك أيضاً أمارة لمن يعاقبهم[2] من الملائكة والخزَنة على الفرْق بين الولِىِّ والعدوّ، ومستحِقِّ الجنة ومستحِقِّ النار . وليس بمعروف ولا ظاهرٍ أن الأجْذَم هو المجذوم ؛ وردُّ ابن قتيبة معناه واشتقاقَه إلى الجذْم الذى هو القطْع يُوجب عليه أن يكونَ كلُّ داء يقطَع الجَسَد ويفرِّق أوصالَه ؛ كالجُدَرِىِّ والأكِلَة[3] وغيرها يسمَّى جُذَاما ، ويسمى مَنْ كان عليه أجْذَم ، وهذا باطل .

وأما قول الشاعر[4] :

حَرَّق قيسٌ علىَّ البلا دحتَّى إذا اضطرمَتْ أجْذَما

فليس من هذا الباب ؛ بل هو من الإجْذام الذى هو الإسراعُ ؛ فكأنه قال : لما اضطرمتْ

---

(١) ف : « فلم لم تختص العقوبة به » . (٢) ف ، وحاشية ت (من نسخة) : « ويعاينهم » (٣) فى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « الأُكلة ، بالكسر : الحكة ، والأكلة ، بالضم : اللقمة » . (٤) هو الربيع بن زياد العبسى ، من أبيات فى (الحماسة بشرح التبريزى ٢ : ٦١ ـ ٦٣)، واللسان (جذم) .

أسرع عنى ، وتباعَد منى . والإجذامُ ، بالذال المعجمة والدال غير المعجمة جميعا : الإسراع؛ فأما قول عَنْتَرة فى وَصْف الذُّباب[١] :

هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَه بِذراعِه   قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

الأجذم من صفة المكبّ[٢] لا من صفة الزّناد ؛ فكأنه[٣] قال : قَدْح المكِبِّ الأجْذَم على الزّناد ، وهذا من حَسَن التشبيه وواقِعه[٤] .

مسألة

قال الشريف المرتضى قدّس الله روحَه : كان بعضُ الشُّيوخ المتقدمين[٥] يقول : ليس بممتنِـع أن يُمَكِّنَ اللهُ تعالى من الظُّلْم مَنْ / يعلم من حاله أنه يرِدُ القيامة غير مستحِقّ [٤ و] لشيء من الأعْواض ، أو لِما يوازى القَدْر المستحقّ عليه منها ؛ فإذا أراد الانتصافَ منه تفضّل عليه بما ينقلُه إلى مستحِقّ العِوَض ، ويقول : ليس هذا ببعيد ولا مستحيل ، لأن العِوَض ليس يختص بصفةٍ تمنع من التفضّل بمثله ، ولا يَجْرِى فى ذلك مَجْرى الثواب .

---

(١) من المعلقة بشرح التبريزى ص ١٨٠ ، وقبله :

وخلاَ الذُّبابُ بِهاَ فليسَ بِبارِحٍ   غَرِداً كفعل الشّارِبِ المُتَرَنِّمِ

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « هذا من باب إجراء الصفة على غير من هى له ، كقولنا : مررت برجل حسن غلامه . (٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « كأنه » . (٤) د ، م : « من أحسن التشبيه وأوقعه » ؛ وفى حواشى الأصل ، ب ، ف : « كثر القال والقيل فى هذا الحديث ، فقال بعضهم : الأجذم : المقطوع اليد ، وقال آخرون : هو المجذوم . وفى معنى هذا الحديث سر ، ومعناه يتضح بالحديث الآخر الذى روى عنه عليه السلام : إنى تارك فيكم الثقلين ، أحدهما كتاب الله ، حبل ممدود من السماء إلى الأرض .. الحديث فلما شبه الكتاب بالحبل الذى يتعلق به ، ويجعل سبباً للتوقى من الهلاك عبر عن تاركه والغافل عنه بالأجذم ، وإنما عبر بكلمة الأجذم الشنعة ، واللفظ المستكره لأنه إذا انهام الحبل لم يمكن أن يمسك ، وإذا كانت اليد جذماء أيضا لم يمكن الإمساك ، فأراد بذلك أن الإمساك غير حاصل ، لأمر يرجع إلى اليد الممسكة لا إلى الحبل لأن الحبل باق بحاله ؛ فهذا أحسن ، والله أعلم . ومعنى النسيان هو ترك أحكامه ، والأخذ بمحارمه وحدوده ؛ ولا يريد ذهاب الحفظ » . (٥) حاشية الأصل : « أبو القاسم البلخى » .

وهو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبى البلخى ، أحد شيوخ المعتزلة ، ورأس طائفة منهم يقال لهم : الكعبية ، توفى سنة ٣١٧ . (ابن خلكان ١ : ٢٥٢) .

والمستقرّ من مذاهب الشيوخ ــ وهو الصحيح ــ أن الانتصافَ لا يجوز أن يكونَ موقوفاً على ما يُتفضَّل به ؛ لأنّ الانتصافَ واجب على الله تعالى من حيثُ خلّى بين عبادِه وبين الظلم، فلا يجوزُ أن يتعلّق إلا بأمرٍ واجب ، والتفضُّل لفاعله ألّا يفعله ، فتئول الحالُ إلى تعذّر الانتصاف . وقالوا : مَنْ يعلم الله تعالى أنه يرِد القيامة ــ ولا أعْواض له ــ يمنعه من الظلم ، ولا يمكّنه منه لهذه العلة . ويُجيزون[1] أن يمكّن من الظلم مَنْ يكون فى الحال غيرَ مستحِقّ للعوض ، أو غير مستحق للقدْرِ الذى يُوازى الظلمَ من العِوَض، بعد أن يكونَ المعلومُ من حاله أنه يرِدُ القيامة وقد استحقَّ من الأعْوَاض ما يوازِى ما عليه منها .

قال المرتضَى : وهذا القول ــ نعنى تجويزَ تمكين الظالم من الظلم ، وهو فى الحال غير مستحق للعوض ــ يَبْطُل بالعلّة التى أبطلنا بها قولَ مَنْ أجاز الانتصاف بالتفضّل ؛ لأنّا نعلمُ أن تَبْقِية المكلَّف وغير المكلَّف لا تجب ، وللقديم تعالى ألّا يفعلَها ، فلو لم يفعلها واختُرِم هذا الظالم بعد حال ظُلْمِه لكان الانتصافُ منه غيرَ ممكن . وقد تعلّق الانتصافُ على هذا القول بما ليس بواجب ؛ كما علّقه مَنْ قدمْنا حكايةَ قولِه بما ليس بواجب . وليس لهم أن يقولوا ذلك يَحْسُن ؛ لأن الله تعالى يَعْلَمُ أنّه يُبقّيه فيستحِقّ[2] أعْوَاضا ؛ لأن عليهم مثلَ ذلك إذا قيل لهم : فأجيزوا أيضاً أن يَرِد القيامة وهو لا يستحِقّ العوض ؛ ويعلم الله تعالى أنه يتفضّل عليه بما يقع به الانتصاف .

فإذا قالوا : عِلْمُ الله تعالى بأنه يتفضّل ، لا يخرج التفضُّلَ من أن يكونَ غيرَ واجب ؛ وقيل لهم : وعِلْم الله تعالى بأنه يُبقّى مَنْ لا عِوَضَ له ليستحِقّ العِوَض، لا يُخرِج التبقيةَ من أنْ تكونَ غيرَ واجبة ، فاستوَى الأمران .

والصحيحُ أن يقال : إنّه تعالى لا يمكّن من الظلم من لا عِوَض له فى الحال؛ ليستقيم الكلام ويطّرد .

(١) حاشية الأصل : « أبو هاشم وأصحابه » .
وهو أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى ، كان هو وأبوه من كبار أئمة المعتزلة؛ ولهما مقالات على مذهب الاعتزال ؛ وكتب الكلام مشحونة بمذاهبهما واعتقادهما ، توفى سنة ٣٢١ ، (ابن خلكان ١ : ٢٩٢ـ٢٩٣) .

(٢) ت، وحاشية ف (من نسخة) : « ليستحق » .

مجلس آخر *

تأويل آية

قال اللهُ تعالى[1] : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ [٤ ظ] مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وقد ظنَّ قومٌ من غَفَلة الملحدين وجُهّالهم أن الجوابَ عمّا سُئِل عنه في هـذه الآية لم يحصُلْ ، وأن الامتناع منه إنما هو لفقد العلم به ، وأن قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ تبكيتٌ وتقريع لم يقعا موقعهما ؛ وإنما هو[2] على سبيل المحاجَزة والمُدافعة عن الجواب .

وفى هـذه الآية وجوهٌ من التأويل تُبطِل ما ظنّوه ، وتدلّ على ما جهلوه ؛ أولها : أنّه تعالى إنما عَدَل عن جَوابِهم لعلْمه بأنّ ذلك أدْعى لهم إلى الصلاح فى الدِّين ، وأن الجوابَ لوصَدَر منه إليهم لازدادُوا فساداً وعِناداً ؛ إذ كانوا بسؤالهم متعنّتين[3] لا مُستفيدين ؛ وليس هذا بمنكَر ؛ لأنَّا نعلم فى كثير من الأحوال مَن[4] يسألُنا عن الشّئ أنَّ العدولَ عن جوابه أولى وأصْلح فى تدبيره .

وقد قيل إن اليهودَ قالت لـكفار قريش : سَلُوا محمداً ؛ عن الرُّوح فإنْ أجابكمْ فليس بنبيّ ؛ وإن لم يجبْـكُمْ فهو نبيّ ؛ فإنَّا نجد فى كتبنا[5] ذلك ؛ فأمَره الله بالعدول عن ذلك ليكونَ عَلَماً له ودِلالة على صدْقه ، وتـكذيبا لليهود الرادّين عليه ؛ وهذا جواب أبى علىّ محمد بن عبد الوهاب الجُبّائىّ[6] .

* ف : « مجلس ثان » ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « هذا المجلس مما افتتح به الـكتاب ، على ما وجد فى بعض النسخ » . (١) ف : « إن سأل سائل عن قوله تعالى » . (٢) ف : « هما » .

(٣) فى ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : « معنتين » ، وفى حاشية ف : « أعنت : أتى بالعنت » .

(٤) فى ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : « فيمن » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « كتابنا » . (٦) حاشية ف : « أبو على من قرية يقال =

وثانيها أن القومَ إنما سألوه عن الرّوح : هل هى محدَثة مخلُوقة أو ليست[1] كذلك ؟ فأجابهم إنها من أمر ربى ، وهو جوابُهم عما سألوه[2] عنه بعينه ؛ لأنَّه لا فرقَ بين أن يقولَ فى الجواب : إنها محدَثة مخلوقة ، وبين قوله إنها من أمْر ربّى ؛ لأنه إنما أرادَ أنها من فعله وخلقه ، وسواء على هذا الجواب أن تكونَ الرُّوح التى سألوا عنها هى التى بها قِوامُ الجَسَد أم عيسى عليه السلام ، أم جبرئيل صلى الله عليه . وقد سمَّى الله تعالى جبرئيلَ رُوحاً، وعيسى أيضاً مُسَمَّى بذلك فى القرآن .

وثالثُها أنهم سألُوا عن الرُّوحِ الذى هُوَ القرآن، وقد سَمَّى اللهُ القرآنَ رُوحاً فى مواضع من الكِتاب ؛ وإذا كان السؤال عن القرآن فقد وقع الجواب موقعَه ، لأنه قال لهم : الروحُ[3] الذى هو القرآن من أمر ربّى ، ومما[4] أنزله على نبيه صلى الله عليه؛ ليجعلَه دِلالة وعلَماً على صدْقه ، وليس من فعل المخلوقين ، ولا مِمَّنْ يدخل فى إمْكانهم ؛ وهذا جوابُ الحَسَنِ البصرىّ .

[٥ و] ويقويه قوله / تعالى بعد هذه الآية : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾. [الإسراء : ٨٦] . فكأنَّه قال تعالى : إن القرآن من أمرى وفِعْلى[5] ومِمَّا أنزلتُه عَلَماً على نبُوّة رسولى ، ولو شئتُ لرفعتُه وأزلْتُه وتصرَّفْتُ فيه ؛ كما يتصرَّف الفاعلُ فيما يفعلُه .

=لها جباه؛ وهى من رستاق كارور من ناحية الأهواز ، ويقال لأهل هذه الناحية الربعيون ؛ لأنهم كانوا استنفروا لبقاتلوا الحسين عليه السلام، فجاءوا وقد فرغ من أمره ، فطلبوا الأجرة ، فقال ابن زياد : إنكم لم تبلوا بلاء ، وأعطى كل واحد منهم ربع دينار . قال دامت أيامه : أخبرنى بذلك العراق العلوى البصرى » . وكانت وفاة أبى على هذا فى سنة ٣٠٦ . (وانظر ترجمته فى ابن خلكان : ٤٨٠ـ٤٨١) .

(١) ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « أم ليست » . (٢) ت ، ف : « سألوا عنه » .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « إن الروح » . (٤) ش : « وما أنزله » .

(٥) حاشية الأصل : « ليس فى الآية دليل على قوله : "وفعلى" ؛ كتب هذا الشيخ عبد الرحيم البغدادى رحمه الله على حواشى نسخة السيد الإمام » .

فصل

قال الشّريف المرتضى رضى الله عنه : قال أبو مُسلم محمدُ بن بحر الأصبهانيّ[١] فى قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾. [الحجر : ١٩] ؛ قال : إنما خصّ الموزونَ دونَ المكيل بالذِّكر لوجهين :

أحدها أن غايةَ المكيلِ تنتهى إلى الوزن لأن سائرَ المكيلات إذا صارتْ طعاما دخلت فى باب الوزْن وخرجت عن باب الكيل ؛ فكأنّ الوزنَ أعمُّ من الكيل.

والوجه الآخر أن فى الوزن معنى الكَيْل ؛ لأن الوزن هو طلبُ مساواةِ الشىء بالشىء ومقايستهُ إليه ، وتعديلُه به ؛ وهذا المعنى ثابتٌ فى الكيل ، فخصّ الوزن بالذِّكْر لاشتماله على معنى الكَيْل.

هذا قول أبى مُسْلِم ، ووجهُ الآية وما يشهدُ له ظاهرُ لفظِها غيرُ ما سلكه أبو مسلم ، وإنما أرادَ تعالى بالموزون المقدّرَ الواقعَ بحسب الحاجة ؛ فلا يكونُ ناقصاً عنها ، ولا زائداً عليها زيادة مُضرّة أو داخلة فى باب العبث. ونظيرُ ذلك من كلامهم[٢] قولهم : كلامُ فلان[٣] موزون ، وأفعاله مقدّرة موزونة ؛ وإنما يراد ما أشرْنا إليه ، وعلى هذا المعنى تأوّلَ المفسرون ذكرَ الموازين فى القرآن على أحدِ التأويلين ، وأنها التعديل والمساواة بين الثّواب والعقاب ، قال الشاعر[٤] :

لَهَا بَشَرٌ مثلُ الحريرِ وَمَنْطِقٌ ... رَخِيمُ الحواشى لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

والهُراء : الكثير ، والنزر : القليل ؛ فكأنه قال : إن حديثَها لا يقِلُّ عن الحاجة

---

(١) كان أبو مسلم الأصبهانى على مذهب المعتزلة ؛ وصنف التفسير على طريقتهم ، وتوفى سنة ٣٧٠ . (لسان الميزان ٥ : ٨٩).

(٢) ش : « فى كلامهم ».

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « زيد ».

(٤) فى م ، وحاشيتى الأصل ، ف : « وهو ذو الرمة » ؛ والبيت فى ديوانه : ٢١٢ .

ولا يَزيدُ عليها ؛ وهـذا يَجْرِى مَجْرَى أن تقولَ : هو موزون . وقال مالك بنُ أسماء ابنِ خارجةَ الفَزارىّ(١) :

وحديثٌ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا يَنْعَتُ الناعتون يُوزَنُ وَزْنَا(٢)
منطقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أحيا نًا وخيرُ الحديث ما كان لَحْنا

[٥ ظ] وهـذا الوجْه الذى ذكرناه أشْبهُ بمراد الله تعالى فى الآية ، وألْيقُ بفصاحةِ القرآن / وبلاغته الموفيتين(٣) على فصاحة سائر الفصحاء وبلاغتهم ؛ فأمّا قولُ الشاعر الذى استشهدنا بشعره : « وتَلْحَنُ أحيانًا » فلم يُرِد اللّحْنَ فى الإعراب الذى هو ضد الصواب(٤) ؛ وإنما أراد الكنايةَ عن الشىء والتعريضَ بذكره والعدولَ عن الإفصاح عنه ؛ على معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ . [محمد : ٣٠] ، وقول الشاعر(٥) :

ولقدْ وحيتُ لـكمْ لـكيما تفطنُوا ولَحَنْتُ لحْنًا ليسَ بالمرْتابِ(٦)

وقد قيل : إن اللحنَ الذى عُنِىَ فى البيت هو الفِطْنة وسرعةُ الفهم ؛ على ما روى عن

(١) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن الفزارى ؛ شاعر إسلامى غزل . (الشعر والشعراء ٧٠٦ـ٧٠٨) .

(٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « حديث معطوف على كلام قبله ؛ أى لها وجه، ولها حياء ، ولها حديث، أو مثل ذلك . وقوله : «ألذه» ، أى أستلذه ؛ يقال : لذذت به وتلذذته ، وقوله : « مما ينعت الناعتون » ، أى مما ينعته الناعتون . وقوله : « مما يوزن وزنا » ، أى موزونا ، فهو فى موضع الحال » .

(٣) حاشية الأصل : « الموفيتين : المشرفتين » .

(٤) حواشى الأصل ، ت ، وف : « المسألة محتملة لأنه يريد باللحن ضد صواب الإعراب ؛ لأن مقابل المنطق الصائب الملحون ، واللحن من الغوانى والفتيات غير مستكره ولا منكر ، بل قد يستحب ذلك منهن ؛ لأنه بالتأنيث أشبه ، وللشهوة أدعى ، ومع الغزل أحرى ؛ و الإعراب جد ، وليس الجد من التعشق والتغزل بشىء ، ثم ما الموجب لأن يتمحل للبيت وجه يسلبه حسنَ الطباق ؛ ولو أراد به اللاحنة التى هى الفطانة لكان ملغيا بذكر اللحن ؛ لأن اللحن فى هذا المعنى صائب ، فيذهب الاتساق بذهاب الطباق ؛ فبان لك أن المعنى هو اللحن الذى يضاد صواب الإعراب وإقامته ؛ وإن كان كذلك المعنى الثانى محتملا » .

(٥) هو القتال الكلابى ؛ والبيت فى (الأمالى ١ : ٥ ، واللسان ــ لحن) ، وقبله :

هل من معاشر غيركم أدعوهمُ فلقد سئمتُ دعاء يا لَكِلابِ!

(٦) حاشية الأصل : « الوحى : الإشارة والرسالة والكلام الخفى ؛ يقال : وحيت إليه فى الكلام ، =

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لعلَّ أحدَكُمْ أن يكونَ أَلْحَنَ بحجّتِه » أى أفطنَ لها، وأغوصَ عليها.

ومما يشهد بما ذكرناه ما أخبرنا به أبو عُبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزُبانيّ[١] قال حدّثنا أحمدُ بن عبد الله العسكريّ قال حدثنا العَنَزِيّ قال حدثنا على بن إسماعيل اليزيديّ قال أخبرنا إسحاق بن إبراهيمَ قال: تكلّمتْ هندُ بنت أسماء بن خارجة فلحنتْ، وهي عند الحجاج، فقال لها: أتلحَنين وأنت شريفة في بيت قَيْس؟! فقالت: أما سمعت قولَ أخي مالك لامرأته الأنصارية؟ قال: وما هو؟ قالت: قال[٢]:

مَنْطِقٌ صائبٌ وتَلْحَنُ أحيا نًا وخَيْرُ الحديثِ ما كان لَحْنا

فقال لها الحجاج: إنما عَنَى أخوكِ اللحنَ في القول؛ إذا كَنَى المحدّث عمّا يريد، ولم يَعْنِ اللحنَ في العربية[٣]، فأصلحِي لسانَك.

وقد ظنّ عمرو بن بحرٍ الجاحظ مثلَ هذا بعينه وقال: إن اللّحْن مستحسَن[٤] في النساء الغرائر[٥]، وليس بمُستحبٍّ منهن كلّ الصواب والتشبُّهُ بفحول الرجال، واستشهد بأبياتِ مالكٍ بعينها، وظن أنه أراد باللحن ما يخالفُ الصوابَ[٦]. وتبعه على هذا الغلط عبد الله ابن مسلم بن قُتيبة الدينوريّ، فذكر في كتابه المعروف بعيون الأخبار[٧] أبياتَ الفَزاريّ، واعتذَر بها من لَحْنٍ إن أصيب في كتابه.

قال الشريف المرتضَى رضى الله عنه: وأخبرنا المرزُبانيّ قال أخبرني محمد بن يحيي

= وأوجبت عني؛ وقوله: المرتاب، يجوز أن يكون المرتاب مصدرا كالارتياب، ويجوز أن يكون مفعولا، والتقدير: ليس بالمرتاب فيه ».

(١) هو أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني الكاتب صاحب كتاب الموشح ومعجم الشعراء وغيرهما من المصنفات؛ روى عن ابن دريد وطبقته، وكان مائلا إلى التشيع، وهو أحد شيوخ الشريف المرتضى؛ توفى سنة ٣٨٤. (ابن خلكان ١: ٥٠٧–٥٠٨).

(٢) حاشية ت (من نسخة): « قوله ».

(٣) في نسخة بحواشي الأصل، ت، ف: « الإعراب ».

(٤) في ت، ونسخة بحاشية الأصل: « من النساء ».

(٥) حاشية الأصل: « جمع غريرة؛ وهى التى لم تجرب الأمور ».

(٦) الخبر في (البيان والتبيين ١: ١٤٧).

(٧) عيون الأخبار ٢: ١٦١.

الصُّولِيّ قال حدثني يحيى بن على المنجِّم قال حدثني أبى قال : قلت للجاحظ : مثلُك فى عقلِك وعلمك بالأدب يُنشِد قولَ الفَزاريّ ويفسِّره على أنه أراد اللحنَ فى الإعراب ! وإنما أراد وصفَها بالظَّرْف والفِطْنة وأنها تُورِّى[1] بما قصدتْ له وتتنكَّبُ التصريحَ به، فقال له : قد فطِنت لذلك بعد ، فقلت[2] : فغيِّره من كتابك ، فقال : فكيف بما سارتْ به الركبان ! قال الصُّولِيّ : فهو فى كتابه على خطئِه .

* * *

[٦ و] /ومن حسَن اللحْن الذى هو التعريض والكناية ما أخبرَنا به أبو الحسن علىّ بن محمد الكاتب قال: حدَّثنا محمد بن الحسن بن دُريدٍ الأزدىّ أنّ رجلاً من بنى العَنْبَر حَصَل أسيراً فى بكر بن وائل، فسألهمْ رسولاً إلى قومه فقالوا : لا تُرسِلْ إلا بحضرتنا ؛ لأنهم كانوا عزموا على غَزْو قومِه ، فخافوا أن ينذرَهم ؛ فجِيء بعبدٍ أسود، فقال له : أتعقِل ؟ قال : نعم ؛ إنى لعاقل ، قال : ما أراكَ عاقلا ، وأشار بيده إلى الليل فقال : ما هذا ؟ فقال : هذا الليل ، قال: أراكَ عاقلا ، ثم ملأ كفَّيْه من الرَّمل فقال : كم ؟ فقال : لا أدْرى وإنّه لكثير . فقال : أيّما أكثر ؟ النجوم أم النيران[3] ؟ فقال: كلٌّ كثير، فقال : أبلغْ قومِى التحيةَ ، وقل لهم: لِيكرِمُوا فلاناً — يعنى أسيراً كان فى أيديهم من بَكر — فإنّ قومَه لى مُكرمون ، وقلْ لهم: إن العَرْفَجَ قد أدْبَى[4] ، وشكَتِ النساء ؛ وأْمُرْهم[5] أن يُعرُوا ناقتىَ الحمراء فقد أطالوا ركوبَها ، وأن يرْكبوا جملِى الأصْهب[6] ، بآية ما أكلْتُ معكم حَيْساً ، واسألوا عن خبرى أخى الحارث .

فلما أدّى العبد الرسالةَ إليهم قالوا : لقدْ جُنّ الأعور ، واللهِ مانعرف له ناقةً حمراء ولا جملا أصْهب ، ثم سرَّحوا العبد ، ودعوُا الحارث فقصّوا عليه القصّةَ ، فقال : قد أنذرَكُم ،

---

(١) ث ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « تورى عما قصدت » . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « قلت » . (٣) م : « أم التراب » . (٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « العرفج : جنس من الشوك ، وأدبى الرمث إذا أشبه ما يخرج من ورقه الدبا ، والدبا : صغار الجراد ؛ وحينئذ يصلح أن يؤكل ، والرمث : من مراعى الإبل ؛ وهو من الحمض » . (٥) فى نسخة بحواشى الأصل ، ث ، ف : « ومرهم » . (٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الأصهب : ما اختلط البياض بحمرته » .

أمّا قوله : « أذْقِ العَرْفَجَ » يريد أن الرجالَ قد استلأَموا ولبِسوا السلاحَ ، وقوله : « شَكَتِ النساء » ؛ أي اتخذنَ الشِّكاءَ[١] للسَّفَر ، وقوله : « الناقة الحمراء » ، أي ارتحلوا عن الدَّهْناء . وارْكَبُوا الصَّمَّان[٢] ؛ وهو الجملُ الأصهب[٣] . وقوله: «أَكَلتُ معكم حَيْساً» يريد أخلاطاً من الناس قد غزَوكم ، لأن الحيْس يجمع التمر والسمن والأَقِطَ . فامتثلوا ما قال ، وعرفوا لَحْنَ كلامه .

تأويل خبر *

روَى أبو عُبيدٍ القاسمُ بن سلّام في كتابه غريب الحديث ، عن أمير المؤمنين عليه السلام[٤] أنه قال : « مَنْ أحبَّنَا أهلَ البيت ؛ فليستعدَّ[٥] للفقر جِلْباباً ، أو تَجْفَافاً[٦] » .

قال أبو عُبيد : قد تأوَّل بعض الناس هذا الخبرَ على أنه أراد به الفقرَ في الدُّنيا ، قال : وليس ذلك كذلك ؛ لأنَّا نرى فيمن يحبُّهم مثلَ ما نرى في سائر الناس ، من الغنى والفقر ، ولا تمييزَ[٧] بينهما ، قال: والصَّحيح أنه أراد الفقر في يوم القيامة ، وأخرجَ الكلام مُخرَجَ الموعظة والنصيحة والحثِّ على الطاعات ، فكأنه أراد : مَنْ أحبنا فليعدّ لفقرِه يوم القيامة ما يَجْبُرُه[٨] من الثَّواب ، والقُرْب إلى الله تعالى ، والزُّلَف[٩] عنده .

(١) في حاشيتي الأصل ، ف : « جمع شكوة ، وهي السقاء الصغيرة » . (٢) حواشي الأصل ، ت ، ف : « الدهناء : هي أرض في بلاد تميم ، يمد ويقصر . والصمان : أصله الأرض الغليظة ، والصمان : موضع إلى جنب رمل عالج ؛ وقال:

حتى أتَى عَلَمَ الدَّهْنَا يُوَاعِسُهُ ... واللهُ أعلَمُ بالصَّمَّان ما جَشَمُوا

قوله : « يواعسه » ، من الوعساء ، وهي الرمل ، وهو في موضع الحال ، أي مواعساً آخذاً في اللين من الأرض ، وقوله : « ما جشموا » يجوز أن تكون « ما » استفهامية ، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ؛ وفي كلا الوجهين يكون نصباً بما دل عليه « أعلم » من الفعل » . (٣) حاشية ف : « أراد بالصمان الأرض ؛ وكنى عنها بالجمل الأصهب » . (*) ف : قبل هذا العنوان : « مجلس آخر » . (٤) ت : « صلوات الله عليه » .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « فليعد » . (٦) التجفاف ؛ بكسر التاء وفتحها : ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح ، وقد يلبسه الإنسان أيضاً . (٧) ت : « ولا تمييز » ، وفي ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « ولا تميز » . (٨) في ف ، ونسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « ما يجيره » . (٩) حاشية ت (من نسخة) : « الزلف » .

[٦ ط] قال أبو محمد عبد الله بن مُسلِم بن / قُتيبة : وجهُ الحديث خلافُ ما قاله أبو عُبيد ، ولم يُرِد إلا الفقرَ فى الدّنيا ؛ ومعنى الخبر أن مَنْ أحبّنا فليصبِرْ على التقلُّل من الدنيا والتقنُّع فيها ، وليأخذْ نفسه بالكَفّ عن أحوالِ الدنيا وأعراضِها ؛ وشبَّهَ الصبر على الفقر بالتّجفاف أو الجِلْبَاب ؛ لأنه يسترُ الفقر كما يستر الجلباب أو التّجفافُ البدن . قال : ويشهدُ لصحة هذا التأويل ما رُوى عنه عليه السلام أنه رأى قوماً على بابه ، فقال : يا قَنْبَر ، مَنْ هؤلاء ؟ فقال له قَنْبَر : هؤلاء شيعتُك ، فقال : مالى لا أرى فيهم سِيمَا(١) الشيعة ؟ قال : وما سِيما الشّيعة ؟ قال : خُمصُ البطون من الطَّوَى ، يُبْس الشفاه من الظَّما ، عُمش العيون من البكا ؛ هذا كله قول ابن قتيبة .

والوجهان جميعاً فى الخبر(٢) حَسَنان ؛ وإن كان الوجهُ الذى ذكره ابن قتيبَة أحسَن وأنصَع(٣) .

ويمكن أن يكون فى الخبر وجهٌ ثالث تشهد بصحته اللُّغة ؛ وهو أن أحدَ وجوه معنى لفظةِ الفقر أن يُحزّ أنفُ البعير حتى يَخلُص إلى العظْم أو قريبٍ منه ، ثم يُلْوَى عليه حَبْلٌ يُذَلّلُ بذلك الصَّعْب ، يقال : فقَره يفقُره فقْرا إذا فعل ذلك به ، وبعير مفْقُور وبه فَقْرة ، وكلُّ شىء حززتَه وأثّرتَ فيه فقد فقّرْته تفقيرا ؛ ومنه سُمّيت الفاقرة(٤) ، وقيل سيفٌ مُفقّر(٥) ؛ فيحمَلُ(٦) القولُ على أنه عليه السلام أراد(٦) : مَنْ أحبّنا فَليَزُمّ نفسهوليخطِمْها وليقدْها إلى الطاعات ، ويَصْرِفْها عمّا تميل طباعُها إليه من الشّهوات ، وليُذلِّلها على الصّبر عما كُرِه منها ، ومشقةِ ما أُريد منها(٧) ؛ كما يُفعلُ ذلك بالبعير الصّعْب ؛ وهذا وجه فى الخبر ثالث لم يذكَر ، وليس يجب أن يُستبعَد حمْلُ الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهدٌ

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « سيمياء » ، وفى حاشية الأصل : « سيما وسيمياء بمعنى » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « فى هذا الخبر » .   (٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « نصع الخضاب ، أى لمع وصار سواده براقا ناصعا » . (٤) حاشية الأصل : « الفاقرة : الداهية ؛ وإنما سميت بذلك لأنها كاسرة فقار الظهر ، من قولهم فقره ، إذا أصاب فقار ظهره » .   (٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : « السيف المفقر : الذى فى متنه حزوز أى خطوط منقورة » .

(٦–٦) ت : « فيحتمل القول أن يكون عليه السلام أراد » .   (٧) ط ، م : « بها »

من اللغة وكلام العرب ؛ لأن الواجبَ علىٰ مَنْ يتعاطى تفسير غريبِ الكلام والشِّعر أن يذكرَ كلَّ ما يحتمِلُه الكلامُ من وُجوهِ المعانى ؛ فيجوز[١] أن يكونَ أرادَ المخاطِبُ كلَّ واحد منها منفرِدًا ، وليس عليه العِلمُ بمراده بعينه ؛ فإن مرادَه مغيَّبٌ عنه ، وأكثرُ ما يلزَمُه ماذكرناه من ذِكر وُجوه احتمال الكلام .

فصل

قال الشريفُ المرتضَى رضى الله عنه : وممّن كان من مشهورى الشعراء ومتقدِّميهم على مذاهب أهل العدْل ذو الرُّمة ؛ واسمه غَيْلان بن عُقْبة ، وكُنْيتُه أبو الحارث ، وذو الرُّمة / [٧ و] لقَبٌ لقِّب به لبيت قالَه ، وهو قوله فى صفة الوتِد :

* أشعثِ[٢] باقى رُمّةِ التقْليدِ *

والرُّمة : القطعة البالية من الحبْل؛ يقال : حبْل أرمام ؛ إذا كان ضعيفاً بالياً ؛ وقيل إنه إنما لقِّب بذى الرُّمة لأنه كان –وهو غلام– يتفزَّع ، فجاءته أمُّه بمَنْ كتبَ له كتابا وعلَّقته عليه برُمّة من حبْل؛ فسمّى ذا الرُّمة .

ويشهد بمذهبه فى العدْل ما أخبرَنا به أبو عُبَيْد الله محمد بن عِمْران المرزبانىّ قال حدّثنا ابنُ دريْد قال حدثنا أبو عثمان الأُشْناندانىّ عن التَّوَّزىّ عن أبى عُبيدة قال : اختصم رُؤبة وذوالرُّمّة عند بِلال بن أبى بُردة، فقال رُؤبة : والله مافحَص طائرٌ أُفْحُوصا ، ولا تقَرْمَصَ سبع قُرْموصا[٣] إلاّ بقضاء من الله وقدَر ؛ فقال له ذوالرُّمة: والله ما قدَّر الله على الذِّئب أن يأكلَ حَلوبةَ[٤] عيايلَ[٥] ضرائك ؛ فقال رُؤبة : أفبقدرته أكلها؟ هذا كذبٌ

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « ويجوز » . (٢) حاشية الأصل : « بكسر الثاء؛ لأن قبله:

* وَغَيْرَ مشجوج القفا موتود * أشعث....

وفى حاشية ف : « رمة التقليد ؛ أى الرمة التى يجىء منها تقليد الوتدبها » ، والبيت فى ديوانه : ١٥٥ . (٣) فى حاشيتى الأصل ، ف « تقرمص ؛ أى اتخذ قرموصا ، وهو الموضع الذى يأوى إليه » . (٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الحلوبة: التى بها لبن يحلب ؛ وأكثر ذلك فى النوق ، وقد تستعمل فى غيرها » . (٥) فى حاشيتى ت ، ف : « عيال الرجل : من يعوله ، وواحد العيال عيل، مثل جيد وجياد وجيائد . والضريك: الضرير البائس الفقير ؛ ولا يصرف له فعل ، ولا يقال : ضركه بمعنى ضره ؛ والجمع ضرائك وضركاء » .

على الذئب ثانٍ[١] ، فقال ذو الرُّمّة : الكذِب على الذِّئب خير من الكذب على ربّ الذِّئب.

وهذا الخبر صريح فى قوله بالعدْل واحتجاجه عليه ، وبصيرتِه فيه ؛ فأمّا العيايل فهو جمع عَيِّل ، وهو ذو العِيال . والضرائك : جمع ضَرِيك وهو الفقير .

قال الشريف المرتضى رضى الله عنه : وأخبرَنا أبو عُبيد الله المرزُبانىّ قال حدّثنا أحمد ابن محمد المكىّ عن أبى العَيْناء عن الأصمعىّ عن إسحاق بن سُوَيْد قال : أنشدنى ذو الرُّمة :

وعينانِ قال اللهُ كُونا فكانتا ... فَعولانِ بالألباب ماتفعلُ الخمرُ[٢]

فقلت له : « فعولين » خبر الكون ، فقال لى : لو سبّحت رِبحتُ، إنما قلتُ: «وعينان فَعولان » وصفتهما بذلك . وإنما تحرّز ذو الرُّمة بهذا الكلام من القول بخلاف العدْل .

وقد رُوِى هذا الخبرُ على خلاف هذا الوجه ؛ أخبرنا أبوعُبيد الله المرزبانىّ قال حدثنى أحمد بن خالد النحاس[٤] قال حدّثنى[٥] محمد بن القاسم أبو العَيْناء قال حدّثنا الأصمعىّ قال : لما أنشد ذو الرُّمة قوله :

وعينانِ قال الله كُونا فكانتا ... فَعُولين بالألباب ماتفعل الخمرُ

ـ وهو يريد: كونا فكانتافعولين حيث كانتا[٦] ـ قال له عَمْرو بن عُبَيْد[٧]: ويحَك ! قلتَ عظيما، فقل : « فعولان بالألباب » ، فقال له ذوالرُّمة ، ما أبالى: أقلت هذا أم سبّحت ، فلما علِم بما ذهب إليه عمرو قال : سُبْحَان الله ! لو عنيتُ ما ظننتَ كنتُ جاهلا .

---

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « قوله « ثان » لايعنى أنه كذب على الذئب مرتين ؛ وإنما المعنى: إنك كاذب على الخلق فى أن أفعالهم ليست بقضاء من الله وقدر ؛ لأنه وإن ذكر الطائر والسبع ؛ فإنه يعنى به الخلق؛ ثم لما ذكر ذو الرمة الذئب قال رؤبة : هذا كذب على الذئب ثان لذلك الكذب الأول الذى استشهدت عليه بالطائر والسبع » . (٢) ديوانه : ٢١٣ .

(٣) الخبر فى (الأغانى ١٦ : ١١٧) ، وفيه : « لوقلت : سبحان الله ، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر؛ كان خيرا لك » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « النخاس » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « حدثنا » . (٦) ت « خبر كانتا » ؛ ولعله تحريف .

(٧) حاشية الأصل : « كان معتزليا عدليا » .

قال الشريف المرتضى رضى الله عنه : ومِمَّنْ رُوِىَ أنه كان على مذاهب أهل العدل من شعراء الطبقة الأولى أعشى[١] قَيْس بن ثعلبة ، واستشهدَ بقوله :

استأثَرَ اللهُ بالوفاءِ وبالـ ... ـعدلِ وولَّى الملامَةَ الرَّجُلَا[٢]

وممّن قيل إنه كان على مذاهب أهلِ الجبْر من المشهورين أيضا لَبيد بن ربيعة العامرىّ ، واستدلّ بقوله :

إنّ تقوى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللهِ رَيْثِى وعَجَلْ[٣]

من هداه سُبُلَ الخير اهتدَى ... ناعمَ البالِ ومَنْ شاءَ أضلّ

وإن كان لا طريقَ[٤] إلى نَسَبِ الجَبْرِ إلى مذهب لَبيد إلا هذان البيتان فليس فيهما دِلالة على ذلك ، أما قوله :

* وبإذنِ اللهِ رَيْثِى وعَجَلْ *

فيحتمل أن يريد: بعلمه ؛ كما يتأول عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ؛ أى بعلمه، وإن قيل فى هذه الآية ، إنه أراد: بتخليته وتمكينه، وإن كان لا شاهدَ لذلك فى اللغة أمكن مِثلُه فى قول لبيد ؛ فأما قوله : « مَنْ هداه اهتدى ومن شاء أضل » فيحتمل أن يكون مصروفا إلى بعض الوُجوه التى يتأول عليها الضّلال والهدى المذكوران فى القرآن ؛ مما يليق بالعدْل ولا يقتضى الإجبار ؛ اللهم إلا أن يكونَ مذهب لبيد فى الإجْبار معروفا بغير هذه الأبيات ؛ فلا يُتأوَّل لهُ هذا التأويل ؛ بل يُحمَل مرادُه على موافقة المعروف من مَذْهبه .

---

(١) حاشية الأصل : « قبيلة الأعشى » .

(٢) ديوانه ١٥٥ ؛ وفى حاشيتى الأصل ، ف : « استأثر الله ؛ تستعمل مع الباء ؛ يقال : استأثر الله به » .

(٣) ديوانه: ٣٩ .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « لا سبيل » .

مسألة

قال الشريف المرتضى رضى الله عنه : اعلمْ أن أصحابنا لمَّا استدلُّوا على نفى الرؤية بالأبصار عن الله تعالى بقوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، وبينوا أنه تعالى تمدّح بنفى الإدراك(١) الذى هو رؤيةُ البصر عن نفسه على وجه يرجع إلى ذاته ؛ فيجبُ أن يكون فى ثبوت الرؤية له فى وقتٍ من الأوقات نقص وذمّ . قال لهم مخالفوهم : كيف يتمدّح بأنه لا يُرى ، وقد يشاركه فى نفى الرؤية ماليس بممدوح؛ كالمعدومات والإرادات والاعتقاداتِ ؟ فقالوا لهم : لم يتمدّح تعالى بنفى الرؤية فقط ، وإنمـا تمدّح بنفى الرؤية عنه وإثباتِها له ، فتمدُّحه بمجموع(٢) الأمرين ؛ وليس يشاركه فى هاتين الصفتين مشاركٌ ؛ لأن الموجودات المحدَثات على ضروب ؛ منها مالا يَرى ولا يُرى كالإرادات والاعتقادات ، ومنها ما يُرى ولا يَرى كالألوان ، ومنها ما يَرى ويُرى كالإنسان وضروب الأحياء ؛ وليس فيها ما يَرى ولا يُرى ؛ فثبتت المِدْحةُ لله تعالى بمتضمَّن الآية .

[٨ و] فقال لهم المخالفون : وكيف / يجوزُ أن تكون صفةٌ لا تقتضى المِدحةَ بانفرادها ، ثم تصير تقتضيها مع غيرها ! ولئنْ جازَ هـــذا ليجوزَنَّ أن يتمدّح متمدحٌ بأنه شىءٌ عالم، أو موجود قادرٌ ؛ فإذا كان لا مِدْحةَ فى وصف الذات بأنها شىء وموجودة(٣)، وإنِ انضمتْ إلى صفة مدحٍ من حيث كانت بانفرادها لا تَقْتضى مَدْحا ، فـكذلك لا مِدحةَ فى نفى الرؤية عمّن ثبتت(٤) له ، من حيث كانت بانفرادها لا تَقْتضى مدحا .

فأجاب أصحابُنا عن هذا الـكلام بأن قالوا: ليس يمتنِـع فى الصِّفة أن تـكونَ لا تقتضى مَدْحا إذا انفردت ، وتقتضيه إذا انضمت إلى غيرها ، ومثّلوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وإنّ نفى السِّنَةِ والنَّوْم هاهنا إنمـا يكون مَدْحا إذا انتفَى عمّنْ هو بصفَة الأحياء ، وإن كان بانفراده لا يقتضى مَدْحا لمشاركة ذواتٍ كثيرة غير

---

(١) ت : « بنفى إدراك البصر » . (٢) ت : « جميع » ؛ وفى حاشيتها (من نسخة) : « فتمدح بمجموع الأمرين » . (٣) د ، ونسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « بأنها شىء موجود » .
(٤) ش : « تثبت » .

ممدوحة فيه ، وفصَلوا بين الوصف بالشيء والوجود ، وبين ما ذكروا من حيث لا تأثيرَ لهاتينك[١] الصِّفَتَيْن فى المدْح .

واعلم أنَّ صفاتِ المدح المتضمنة للإثبات ما تـكاد[٢] تفتقر إلى شرط فى كونها مدحا . وصفاتُ النفى إذا كانت مَدْحا فلابدَّ فيها من شرط ؛ وإنما افترقَ الأمران من حيثُ كان النَّفى أعمَّ من الإثبات ؛ فيدخل تحته الممدوحُ وغيرُ الممدوح ، والإثبات أشدُّ اختصاصا ؛ ألا تَرَى أنّ ما ليس بعالِم من الذّوات وليس بموجود أكثرُ مما ثبت له العلم والوجودُ منها ؟ لأنّ الأولَ لا يكون إلا غيرَ متناهٍ ، والثانى لابد أن يكون متناهياً ، فلما شمِلتْ صفاتُ النفى الممدوحَ وغيرَ الممدوح احتاجتْ إلى شرط يخصِّصها .

وأنت إذا اعتبرت سائرَ صفاتِ النّفى التى يُتَمدَّح بها وجدتَها مفتقرةً إلى الشروط ؛ ألا ترى أنّ من ليس بجاهل إنما يكون ممدوحا بهذا النفى إذا كان حيًّا ذاكرا ، ومن ليس بعاجز إنما يكون ممدوحا إذا كان أيضاً موجوداً حيا ، ومن ليس بظالم إنما يكون ممدوحا إذا كان قادراً على الظلم وله دواعٍ إليه ، ولابدَّ فى الشرط الذى يحتاج إليه فى صفات النفى حتى تـكون مَدْحاً من أن يكون أيضا إثباتا أو جارياً مجرى الإثبات ، ولا يكون نفياً لأنه إن[٣] كان نفياًلم يتخصص، وساوَى[٤] فيهالممدوحُ ماليس بممدوح ؛ مثال ذلك أنا إذا مَدَحْنا غيرَنا بأنه لا يظلم ، وشرطْنا فى هذه المِدْحة أنه لم يَدْعُه داعٍ[٥] إلى الظلم لم تحصل المِدحة ، لأنه قد يشاركه فى نفْى الظلم ونفى الدواعى إليـه ما ليس بممدوح ، فلابدَّ من شرط يجرِى مجرى الإثبات ؛ وهو أن تقول : وهو ممّن تدعوه الدواعى إلى / الأفعال ويتصرّف فيها [٨ ظ] بحسب حاجته ودواعِيه . فإذا صحّت هذه الجملة فالوجه أن نقولَ : إن المدحة فى الآية إنما تتعلق بنفى الإدراك عن القديم تعالى ، لـكن بشرط أن يكون مدرِكاً ، ولا نجعل[٦] كلّ

(١) فى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « لتينك » ، وفى حاشية ت أيضا (من نسخة أخرى): « لهاتين » .

(٢) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « لا تـكاد » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « إذا » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « وشارك » .

(٥) ت : « لم يدعه الداعى » . (٦) فى الأصل: « ونجعل » ، وصححت فى الحاشية ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « فى النسخة المقروءة على السيد رضى الله عنه : « ولا نجعل » ؛ كذا كان بخط الشجرى ، وفى نسخة س أيضا » .

واحدة من الصفتين تقتضِي المدح مجتمعا ؛ مع أنَّ كل واحدة لا تقتضيه على سبيل الانفراد. وليس بمنكَر أن يقتضي الشيء غيرَه بشرط متى وجد حصل المقتضى ، وإذا لم يحصل[١] لم يحصل مقتضاه ، ونفي السِّنَةِ والنوم والظلم عن الله تعالى إنمـا كان مدحا بشروط معروفة على نحو ما ذكرناه ؛ وهذا التلخيص فى هذا الموضع أَوْلَى وأحسم للشُّبَهِ[٢] مما تقدّم ذكره.

(١) فى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « لم يوجد » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « للشبهة » .

مجلس آخر *

تأويل آية

إن سأل سائل فقال : ما تقولون فى قوله تعالى حِكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢] ، وقال فى موضع آخر : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾[1] [القصص : ٣١] .

والثُّعبان هو الحَيَّةُ العظيمة الخِلْقة، والجانُّ الصغيرُ من الحيّات، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة ؟ وكيف يجوز أن تكونَ العصا فى حالةٍ واحدة من صفة ما عظم خَلْقُه من الحيّات، وبصفة ما صغر منها ؟ وبأىّ شىء تُزِيلون التناقضَ عن هذا الكلام ؟ .

الجواب : أول ما نقوله[2] : إن الذى ظنه السائل من كون الآيتين خبرا عن قصة واحدة باطل ؛ بل الحالتان مختلفتان ؛ فالحال[3] التى أخبر عن العصا فيها بصفة الجانّ[3] كانت فى ابتداء النبوّة، وقبل مصيرِ موسى عليه السلام إلى فِرْعون ، والحال التى صارت العصا فيها ثعبانا كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة ؛ والتلاوةُ تدلّ على ذلك ؛ وإذا اختلفت القِصّتان فلا مسألة .

على أن قوما من المفسّرين قد تعاطَوْا الجوابَ عن هذا السؤال ؛ إمّا لظنِّهم أن القصة واحدة ، أو لاعتقادهم أن العصا الواحدةَ لايجوز أن تنقلبَ فى حالتين : تارةً إلى صفة الجانّ ،

* كذا فى ت ، وفى الأصل ، ف : « مجلس آخر ثالث » .

(١) حواشى الأصل ، ت، ف : « لم يعقب : لم يرجع ؛ وقيل لم يلتفت ، وقيل لم يعطف ولم ينتظر ؛ يقال : كر على القوم وما عقب . ويرى أهل النظر أنه مأخوذ من العقب ؛ وروى عن سفيان : لم يعقب : لم يمكث ، ويقال : عقب فى الأمر إذا تردد فى طلبه مجدا ؛ وقوله تعالى : ﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ؛ أى لايحكم بعد حكمه حاكم ، والمعقب : الذى يكر على الشىء ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ ، أى للإنسان ملائكة يعقب بعضهم بعضا . وقال الفراء : ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار ؛ يعنى أنهم يتعاقبون ليلا ونهارا » .   (٢) ت ، د : « أول مانقوله فى هذا » .   (٣-٣) ت : « فالحال التى أخبر أن العصا صارت فيها بصفة الجان... » .

وتارة إلى صفة الثعبان ؛ أو على سبيل الاستظهارِ في الحجة ، وأن الحال لو كانت واحدة على ما ظُنَّ لم يكن بين الآيتين تناقضٌ ؛ وهذا الوجه أحسنُ ما تَكلَّفوا الجوابَ لأجله ؛ لأن الأولَيْن لا يكونان إلا عن غلطٍ أو غفلة ، وذكروا وجهين تزُول بكل واحدٍ منهما الشُّبهة في تأويلها :

أحدهما أنه تعالى إنما شبّهها بالثعبان في إحدى الآيتين لعظم خَلْقها ، وكِبَر جسمها ، وهَوْل منظرها؛ وشبّهها في الآية الأخرى بالجانّ لسرعة حركتها ونشاطِها وخفّتها ؛ فاجتمع لها مع أنها في جسم الثعبان وكِبَر خلقه نشاطُ الجان ، وسرعةُ حركته؛ وهذا أبْهر في باب الإعجاز ، وأبْلَغُ في خَرْق العادة ؛ ولا[1] تناقضَ معه بين الآيتين ؛ وليس يجب إذا شبّهها بالثعبان أن يكونَ لها جميعُ صفات الثعبان، ولا إذا شبّهها بالجان أن يكون لها جميعُ صفاته، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ [الدهر: ١٥، ١٦] . ولم يُرِدْ تعالى أنَّ الفضَّة قواريرَ على الحقيقة ؛ وإنما وصفَها بذلك لأنه اجتَمع لها صفاء القواريرِ وشُفُوفُها ورِقّتُها ؛ مع أنها من فضة ؛ وقد تشبّه العربُ الشيء بغيره في بعض وجوهه ؛ فيشبِّهونَ المرأةَ بالظَّبْيةِ والبقرةِ[2] ونحن نعلم أن في الظباء والبقر من الصِّفَات مالا يُستحسن أن يكون في النساء، وإنما وقع التشبيه في صفة دون صفة ، ومن وجه دون وجه[3] .

والجواب الثاني أنه تعالى لم يُرِدْ بذكر الجانّ في الآية الأخرى الحيّةَ ؛ وإنما أراد أحدَ الجنّ ؛ فكأنه تعالى خبّر[4] بأن العصا صارت ثعبانا في الخِلقةِ وعظم الجسم ؛ وكانت مع ذلك كأحد الجن في هَوْل المنظر وإفزاعِها لمن شاهدها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ .

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « فلا » . (٢) ت : « وبالبقرة » .

(٣) ت : « دون آخر » . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « أخبر » .

ويمكن أن يكون فى الآية تأويلٌ آخر استخرجناه ؛ إن لم يَزِد على الوجهين الأوَّلَين لم ينقُصْ عنهما ؛ والوجهُ فى تكلّفِنا له ما بيَّناه من الاستظهار فى الحُجَّة ، وأنّ التناقضَ الذى تُوُهِّمَ زائلٌ على كل وجه[1] ؛ وهو أنّ العصا لمَّا انقلبتْ حَيَّةً صارت أولاً بصفة الجانّ وعلى صورتِه؛ ثم صارتْ بصفة الثُّعبان ؛ على تدريج ؛ ولم تَصِرْ كذلك ضربة واحدة؛ فتتفق الآيتان على هذا التأويل، ولا يختلفُ حُكْمُهما، وتكون الآيةُ الأولى التى تتضمن ذكرَ الثعبان إخباراً عن غاية حال العصا ، وتكونُ الآيةُ الثانيةُ تتضمّن ذكرَ الحال التى ولَّى موسى فيها هارباً ؛ وهى حال انقلاب العصا إلى خِلقة الجانّ ؛ وإن كانت بعد ذلك الحال انتهتْ إلى صورة الثعبان .

فإن قيل على هذا الوجه : كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾؛ وهذا يقتضى أنها صارت ثعبانا بعد الإلقاء بلا فصل ؟ قلنا : تُفيد[2] الآية ما ظَنَّ ؛ وإنما فائدةُ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ الإخبارُ عن قرب الحال التى صارت فيها بتلك الصِّفة ؛ وأنّه لم يطل الزّمان فى مصيرِها كذلك ، ويجرى هـذا مَجرى قوله تعالى / : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] ؛ مع تباعدِ ما بين [٩ ظ]
كونِه نُطفةً وكونه خَصيماً مُبينا ، وقولهم : رَكِبَ فلان من منزله فإذا هو فى ضَيعته ، وسقط من أعلى الحائط فإذا هو فى الأرض ؛ ونحن نعلم أنّ بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زمانا، وأنّه لم يصل إليها إلا على تدريج ؛ وكذلك الهابطُ من الحائط ؛ وإنما فائدة الكلام الإخبارُ عن تقارب الزّمان ؛ وأنه لم يطل ولم يمتدّ .

---

(١) ت : « على كل حال » . (٢) ت (من نسخة) : « تقدير » .

تأويل آية أخرى

قال الشريف المرتضى رضي الله عنه : قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣] .

وقد ظنّ بعضُ مَنْ لا بصيرة له، ولا فِطْنَةَ عنده أن تأويل هذه الآية أنّ الله تعالى استخرج من ظهر آدم عليه السلام جميعَ ذريته، وهم في خَلْق الذَّرّ، فقرّرهم بمعرفته، وأشهدَهم على أنفسهم. وهـــذا التأويل ــ مع أنّ العقل يُبْطِله ويُحيله ــ مما يشهد ظاهرُ القرآن بخلافه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ، ولم يقل : من آدم ، وقال : ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ، ولم يَقُلْ : من ظهره ، وقال : ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، ولم يقل: ذُرِّيَّته؛ ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا يوم القيامة : إنهم كانوا عن ذلك غافلين ، أو يعتذروا بِشِرْكِ آبائهم ، وأنّهم نَشئوا على دينهم وسُنَّتِهم ؛ وهذا يقتضى أنّ الآية لم تتناولْ وَلَدَ آدم عليه السلام لصُلْبه ؛ وأنها إنما[1] تناولت مَنْ كان له آباء مشركون ؛ وهذا يدلّ على اختصاصها ببعض ذُرِّيَّة[2] بني آدم ؛ فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويلهم ، فأما شهادةَ العقول[3] فمن حيث لا تخلو هذه الذُّرِّيَّة التي استخرِجت من ظهر آدم عليه السلام فخوطبت وقُرِّرَتْ من أن تكونَ كاملةَ العقول، مستوفيةً لشروطِ التكليف؛ أو لا تكون كذلك[4].

فإنْ كانت بالصفة الأولى وجبَ أن يَذْكُر هؤلاء بعد خَلْقِهم وإنشائهم ، وإكمالِ عقولهم ما كانوا عليه في تلك الحال، وما قُرِّرُوا به ، واستُشْهِدوا عليه ؛ لأنّ العاقل لا ينسى ما جرى هذا المجرى ، وإن بَعُد العهدُ وطال الزمان ؛ ولهذا لا يجوزُ أن يتصرّف أحدُنا في بلدٍ من [١٠و] البلدان وهو عاقل كامل فينسَى مع بُعْدِ العَهْدِ جميعَ تصرُّفه المتقدِّم ، وسائرَ أحواله .

(١) ساقطة من ت ، ف . (٢) ت : « ولد آدم » . (٣) ت : « العقل » .
(٤) ت : « أو لا تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف » .

وليس أيضاً لتخلُّلِ الموت بين الحالين تأثير ؛ لأنه لو كان تخلّل الموت يُزيل الذكرَ لكان تخلّلُ النوم والسُّكر والجنون والإغماء بين أحوال العقلاء يُزيل ذكرَهم لِما مضى من أحوالهم؛ لأنّ سائرَ ما عددناه مما ينفى العلوم يجرى مَجْرَى الموت فى هذا الباب . وليس لهم أن يقولوا : إذا جاز فى العاقل الكاملِ أنْ ينسى ما كان عليه فى حال الطفوليّة جاز ما ذكرناه ؛ وذلك أنّا إنما أوجبنا ذكرَ العقلاءِ لِما ادّعوْه إذا كملتْ عقولُهم من حيث جرى لهم[(١)] وهم كاملو العقول ، ولو كانوا بصفة الأطفال فى تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه .

على أن تجويزَ النِّسيان عليهم ينقُضُ الغرضَ فى الآية ، وذلك أنّ الله تعالى أخبرَ بأنه إنما قرّرَهم وأشهدهم لئلا يدّعوا يوم القيامة الغفلةَ عن ذلك ، وسقوطَ الحجّة عنهم[(٢)] فيه ؛ فإذا جازَ نسيانُهم له عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالِها ، وإن كانوا على الصِّفة الثانية من فَقْد العقل وشرائط التكليف قَبُح خطابهم وتقريرُهم وإشهادهم ، وصار ذلك عبثاً قبيحاً ؛ يتعالَى الله عنه .

فإن قيل : قد أبطلتم تأويل[(٣)] مخالفيكم ، فما تأويلها الصحيح عندكم ؟ قلنا فى هذه الآية وجهان :

أحدُها أن يكون تعالى إنما عَنَى جماعة من ذُرّيّة بنى آدم خلَقهم وبلّغهم وأكمل عقولَهم ، وقرّرهم على ألسنِ[(٤)] رسله عليهم السلام بمعرفته وما يجب[(٥)] من طاعته ، فأقرّوا بذلك ، وأشهدهم على أنفسِهم به ؛ لئلا يقولوا يومَ القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ، أو يعتذروا بشرْك آبائهم . وإنما أُتِيَ مَنِ اشتبه عليه تأويلُ الآية من حيث ظنّ أنّ اسم الذرية لا يقعُ إلّا على مَنْ لم يكن كاملا عاقلا ؛ وليس الأمر كما ظنّ ؛ لأنّا نسمّى جميعَ البشر بأنهم ذرية آدم ؛ وإن دخل فيهم العقلاء الكاملون ، وقد قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) ، ت ، ف : « عليهم » . (٢) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) « عليهم » . (٣) م : « قول » . (٤) ت ، د ، حاشية ف (من نسخة) : « لسان » .
(٥) د ، ت : « وما يجب عليهم » .

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [غافر : ٨]. ولفظ الصالح لايطلق إلا على مَنْ كان كاملا عاقلاً ؛ فإن استبعدوا تأويلنا وحَمْلَنا الآيةَ على البالغين المكلَّفين ؛ فهذا جوابهم .

[١٠ ظ] والجواب الثانى أنَّه تعالى / لمّا خلقهم وركّبهم تركيباً يدلّ على معرفته ويشهد بقدرته ووجوب عبادته، وأراهم العبرَ والآيات والدَّلائل فى أنفسهم وفى غيرهم كان بمنزلة الشهيد لهم على أنفسهم ، وكانوا فى مشاهدة ذلك ومعرفته وظهوره فيهم على الوجه الذى أراده تعالى ، وتعذّر امتناعهم منه ، وانفكاكهم من دلالته بمنزلة المقرّ المعترف ؛ وإن لم يكن هناك إشهادٌ ولا اعتراف على الحقيقة ؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] ، وإن لم يكن منه تعالى قولٌ على الحقيقة، ولا منهما جواب ، ومثلُه قوله تعالى: ﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧] . ونحن نعلم أنّ الكفارَ لم يعترفوا بالكفر بألسنتهم ؛ وإنما[1] لمّا ظهر منهم ظهوراً لا يتمكّنون من دفعه كانوا بمنزلة المعترفين به ؛ ومثل هذا قولهم : جوارحى تشهدُ بنعمتك ، وحالى معترفةٌ بإحسانك . وما رُوى عن بعض الخطباء[2] من قوله : سلِ[3] الأرضَ : مَنْ شقّ أنهارَك ، وغرس أشجارَك ، وجنَى ثمارَك ؟ فإن لم تُجِبْك حِوارًا أجابتك اعتبارا .

وهذا باب كبير ، وله نظائر كثيرة فى النظم والنثر ؛ يغنى عن ذكر جميعها القدرُ الذى ذكرناه منها .

(١) د ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « وإنما ذلك » . (٢) فى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « الحكماء » . (٣) فى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « هذا من كلام الفضل بن عيسى بن أبان ، ذكره فى قصصه » .

تأويل خبر

قال أبو عُبيد القاسم بن سلّام فيما يُرْوى عن النبيّ صلى عليه وآله: «ليس مِنّا مَن لم يَتَغَنَّ بالقرآن». قال: أراد: يستغني به، واحتجّ بقولهم: تغنّيت تغنياً، وتغانيت تَغَانياً، وأنشد بيت الأعشى:

وَكُنْتُ امْرَأً زَمَناً بِالعِرَاقِ ... عفيفَ الْمُناخِ طَوِيلَ التَّغَنّْ[1]

وقول الآخر:

كِلانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ ... ونَحْنُ إذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيا[2]

واحتجّ أيضاً بقول ابن مسعود: «مَن قرأ سورة آل عمران فهو غنيّ»، أي مُسْتَغْنٍ، وبالحديث الآخر: «نِعْمَ كَنْز الصُّعْلُوك سورة آل عمران يقوم بها[3] في آخر الليل»؛ والصُّعلوك الفقير، واحتجّ بحديث آخر يرَوى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو أنه قال: «لا ينبغي لحامل القرآن أن يظنّ أنّ أحداً أُعطِيَ أفضلَ مما أُعطِيَ، لأنّه لو مَلَكَ الدنيا بأسْرِها لكان القرآنُ أفْضَلَ مما مَلَكَه». واحتجّ أيضاً بخبرٍ يرْفعه[4] عن عبد الله بن نَهِيك أنه دخل على سعد[5] بيتَه[6]، فإذا مَثال رثّ، ومتاعَ رثّ، فقال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا مَن لم يتغنَّ بالقرآن».

قال أبو عُبيد: فذِكْرُهُ المتاعَ الرثّ، والمثال الرثّ يَدُلُّ على أن التغنّيَ بالقرآن الاستغناء به

---

(١) ديوانه: ٢٢، واللسان (غنى).

(٢) نسبه صاحب اللسان فى (غنى) إلى المغيرة بن حبناء التيمي؛ وذكره المبرد (الكامل ٣: ١٤ – بشرح المرصفي) ضمن أبيات لعبد الله ابن معاوية، أولها:

رأيتُ فُضَيلًا كانَ شيئاً مُلَفَّفاً ... فكَشَّفَهُ التَّمْحِيصُ حتّى بَدَا لِيَا

وقبله:

فَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَلِيلَةٌ ... ولكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَساوِيا

(٣) حاشية الأصل: «بقراءتها».

(٤) فى نسخة بحواشي الأصل، ت، ف: «يرويه».

(٥) حاشية الأصل: «هو سعد بن أبي وقاص».

(٦) كذا فى الأصل، وحاشية ف؛ وفى د، ف، وحاشية ت (من نسخة): «فى بيته».

عن الكثير من المال والمثال هو الفِرَاش ، قال الشاعر[1] :

بِكلِّ طُوَالِ السَّاعِدَيْنِ كأنَّما　　　يَرَى بِسُرَى اللَّيْلِ المِثَالَ المُمَهَّدَا[2]

يعني الفراش . قال أبو عبيد : ولو كان معناهُ الترجيعَ لعظُمَتِ المِحْنَةُ علينا بذلك ؛ إذْ كان مَنْ لم يُرَجِّعْ بالقرآن فليس[3] منه عليه السلام .

وذكر غير[4] أبي عبيد جواباً آخر، وهو أنه عليه السلام أراد : مَنْ لم يحسِّن صوتَه بالقرآن . ولم يرجِّع[5] فيه . واحتجَّ صاحبُ هذا الجواب بحديث عبد الرحمن بن السائب قال : أتيتُ سعداً — وقد كُفَّ بصره — فسلمتُ عليه ، فقال : مَنْ أنت ؟ فأخبرتُه . فقال: مَرْحَباً يابن[6] أخي ، بلغني أنك حَسَنُ الصوت بالقرآن ، وقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «إن هذا القرآن نَزل بحُزْنٍ ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكَوْا ، فمَنْ لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا» . فقوله : «فابكوا أو تباكَوْا» دليل على أن التغنِّيَ التحنين والترجيع . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : «لا يأذنُ الله لشيء من أهلِ الأرض إلا لأصوات المؤذِّنين ، والصوت الحسن بالقرآن» . ومعنى قوله: «يأذَن» يستمعُ له؛ يقال : أذِنْتُ للشيء آذَنُ أذَناً إذا استمعتُ له ؛ قال الشاعر[7] :

صُمٌّ إذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ　　　وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسوء[7] عِندَهُمْ أَذِنوا

(١) نسبه صاحب اللسان فى (مثل) إلى الأعشى .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أى بدل سرى الليل ؛ كقولك شربت بالخمر ماء ، أى بدل الخمر » .

(٣) فى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « ليس » . (٤) د ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « وذكر عن غير أبى عبيد جواب » . (٥) ت ، د ، ف : « ويرجع » . (٦) فى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « يابن » . (٧) هو قعنب بن ضمرة ؛ أحد شعراء الدولة الأموية ، من أبيات فى (الحماسة — بشرح التبريزى ٤ — ١٢٤ ، والاقتضاب ٢٩٢ ، وشواهد المغنى ٣٢٦) ، وقبله :

إنْ يَسْمعوا رِيبةً طارُوا بها فَرَحاً　　　عَنّى وما سمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

(٧) ف : « بشر » .

وقال عدىّ بن زيد العِبادى[١] :

أيُّهَا القَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ   إنَّ هَمِّى فِى سَمَاعٍ وَأَذَنْ[٢]

والأَذن هو السّماع ، وإنما حسُن[٣] تكرير المعنى اختلافَ اللفظ . وللعرب فى هذا مذهب معروف ، ومثله :

* وَهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْىُ وَالْبُعْدُ *

فأما الدَّدَن فهو اللهو/واللعب، وفيه لغات ثلاث: دَدٌ على مثال دَم، ودَداً على مثال فَتًى، [١١ ظ]
وَدَدَن على مثال حَزَنٍ ؛ ومنه قول النبي عليه السلام: « ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ مِنِّيهْ[٤] » .

فإن قيل : كيف يُحمَل قوله : « لا يأذن الله لشىء كإذنه لكذا وكذا » على معنى الاستماع ، وهو تعالى سامع لكلّ شىء مسموع ، فأىّ معنًى للاختصاص ؟ قلنا : ليس المراد ههنا بالاستماع مجردَ الإدراك ، وإنما المراد به القبول ، فكأنه عليه السلام قال : إنّ الله تعالى لا يتقبّلُ أو يُثيب على شىء من أهل الأرض كتقبُّله وثوابه على كذا وكذا ، ومن هذا قولهم : هذا كلامٌ لا أسمعه ، وخاطبتُ فلانا بكلام فلم يسمعْه[٥] ، وإنما يريدُ نفىَ القبول لا الإدراك ، والبيتُ الذى أنشدْناه يشهد بذلك ، لأنه قال :

* وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندهم أَذِنُوا *

ونحن نعلمُ أنهم يستمِعون الذِّكْر بالخير والشر معاً من حيث الإدراك ؛ فوجْهُ الاختصاص ما ذكرناه .

---

(١) حاشية ت : « العباد قوم كانوا يخدمون النعمان فسماهم العباد وكان عدى خدامهم » ؛ وحاشية ف: «قوم اقتطعهم النعمان بخدمته ؛ فكان يقال لهم عباد النعمان ، فنسب عدى إليهم، «وكان نصرانيا» .

(٢) حاشية الأصل : « البعد أقرب من النأى » .   (٣) ش ، ف : « وإنما حسن تكرير المعنى لاختلاف اللفظ » .

(٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « قوله عليه السلام: « منيه » هذه الهاء للاستراحة ، وهى تدل على تأكد امتناعه من اللهو » . وفى جـ ، وحاشيتى ت ، ف (من نسخة) : « منى » .

(٥) فى حاشيتى ت ، ف : « ومن هذا الباب قوله : دعوت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول ؛ أى يجيب » .

وقد ذكر أبو بكر محمدُ بن القاسم الأنباريّ وَجْهاً ثالثاً فى الخبر ، قال : أراد عليه السلام: (١ مَنْ لم يتلذَّذْ بالقرآن ، ويَسْتَحْلِه، ويستعذِب١) تلاوتَه كاستحلاء أصحاب الطَّرب للغناء والْتِذاذِهم به . وسمّى ذلك تغنّياً من حيث يُفْعَلُ عنده ما يُفعَلُ عند التغنّى بالغناء ، وذكر أنّ ذلك نظيرُ قولهم : العمائم تيجانُ العرب ، والحُبا[٢] حيطانُ العرب ، والشمس حمّامات العرب[٣] ؛ وأنشد بيت النابغة :

بُكاء حَمامَةٍ تَدعُو هديلاً مُفَجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغَنّى[٤]

فشبّه صوتَها لمّا أطرب إطرابَ الغناء بالغناء ، وجعلوا العمائم لمّا قامت مقام التِّيجان تيجاناً ؛ وكذلك القولُ فى الحُبا والشمس .

وجوابُ أبى عُبيد أحْسَنُ الأجوبة وأسْلَمُها ، وجوابُ أبى بكر أبعدُها ؛ لأن التلذُّذ لا يكون إلا فى المشتَهيات ، وكذلك الاستحلاء والاستعذاب . وتلاوةُ القرآن وتَفهُّم معانيه من الأفعال الشاقة ، فكيف يكون مُلَذًّا مُشْتَهًى[٥] ؟! فإن عاد إلى أن يقول : قد تُسْتَحلَى التِّلاوة من الصوت الحزين[٦] ، قلنا : هذا رجوعٌ إلى الجواب الثانى الذى رغبتَ عنه ، وانفردتَ عند نفسك بما يخالفه .

ويمكن أن يكونَ فى الخبر وجهٌ رابع خطر لنا ، وهو أن يكون قوله عليه السلام :
/« مَنْ لم يتغنّ » من غَنِيَ الرجل بالمكان إذا طال مُقامه به ، ومنه قيل : المَغْنَى والمغانِى ، [١٢ و]
قال الله تعالى : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، أى لم يُقيموا بها ، وقال

(١-١) ف : « من لم يتلذذ بالقرآن ولم يستحله ولم يستعذب » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « جمع حبوة (بكسر الحاء وضمها معا) ، والأصل فيه الاحتباء بالسيف ، والاحتباء : شد اليدين أمام الركبتين ، والاسم الحبوة » .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أى بمنزلة هذه الأشياء » .

(٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الهديل : صوت الحمام وفرخها ، ويحتمل المعنيين ؛ أى تدعو دعاء، صوتها » ؛ والبيت فى ديوانه ٧٩ .

(٥) فى حاشيتى الأصل (من نسخة) ، ف (عن ش) : « شيء ملذ ؛ أى يحمل على الالتذاذ به ، ويقال : لذذت بالشيء ، ولذذته ، أو وجدته لذيذا ، أو عددته كذلك » .

(٦) تحت هذه الكلمة فى الأصل : « من نسخة الشجرى » ، وفى نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « الحسن » .

الأسود بن يَعْفُر[1] الإيادىّ :

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ غُنْيَةٍ ... فى ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ[2]

وقول[3] الأعشى الذى أنشده أبو عُبيد وهو :

وَكُنْتُ امْرَأً زَمَنًا بِالْعِرَاقِ ... عَفِيفَ الْمُنَاخِ طَوِيلَ التَّغَنّْ

بطول المقام أشبَه منه بالاستغناء ، لأن المُقامَ يوصَف بالطول ولا يوصَف الاستغناء بذلك، فكأنّ الأعشَى أراد : إننى كنت ملازماً لوطنى ، مقيماً بين أهلى ، لا أسافر للانتجاع والطّلب ؛ ويجرى قولُه هذا مَجرى قولِ حسّان بن ثابت الأنصارىّ :

أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمُ ... قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ[4]

أراد بقوله : « حول قبر أبيهم » أنهم ملوك لا ينتجعون[5] ، ولا يفارِقون مَحالّهم وأوطانَهم ؛ فيكون معنى الخبر على هـذا الوجه : مَنْ لم يُقِمْ على القرآن؛ فلا يتجاوزُه[6] إلى غيره ، ولا يتعدّاه إلى سواه ، ويتخِذه مَغْنًى ومنزِلا ومُقاما فليس منا .

فإن قيل : أليسَ قد يُتَعَدَّى القرآنُ إلى السُّنّة والإجماع وسائر أدلّة الشرع ؟ فكيف يُحْظَرُ علينا تعدّيه ؟ قلنا : ليس فى ذلك تَعَدٍّ للقرآن ، لأنّ القرآنَ دالٌّ على وجوب اتّباع السنّة وغيرها من أدلّة الشرع ، فمن اعتمَد بعضَها فى شىء من الأحكام لا يكون متجاوزاً للقرآن ، ولا متعديا ؛ فأمّا قولُه عليه السلام : « ليسَ مِنّا » فقد قيل فيه : إنه لا يكون على أخلاقنا ، واستُشهد ببيت النابغة :

---

(١) فى حاشيتى الأصل : « ويعفر (بضم الياء والفاء) ، ويعفر أيضا (بضم الياء وكسر الفاء) . ويعفر (بضم الياء والفاء) ينصرف لزوال شبه الفعل عنه » .

(٢) البيت من قصيدة فى المفضليات ٢١٧ ، وفى د، ف، وحاشية الأصل (من نسخة)، والمفضليات « عيشة » .

(٣) ت : « وبيت » .

(٤) ديوانه : ٨٠ ، وأولاد جفنة : ملوك غسان .

(٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أى لا يحتاجون إلى الانتجاع ؛ لهم مقيمون فى مكانهم » .

(٦) حاشية ف : « ويتجاوزه ويتخذه » ، وفى حاشية الأصل : « قال السيد : فى هـذا الكلام اضطراب، والصحيح : « فيتجاوزه ويتعداه » ؛ إلا أن تكون « لا » زائدة ؛ والمعنى : من لم يقم على القرآن بحيث لا يتجاوزه إلى غيره ، ويتعداه إلى سواه ؛ ولم يتخذه مغنى ، ويكون قوله « يتخذ » معطوفا على « يقم » .

إذَا حَاوَلْتَ فى أَسَدٍ فُجُورًا ... فإنِّى لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّى (١)

وقيل إنه أراد : ليس على دِينِنا ، وهــذا الوجهُ لا يَليق إلّا بجوابنا الذى اخترناه ، وهو بعده بجواب أبى عُبيد أَلْيق ، لأنه محالٌ أن يَخرُجَ عن دينِ النبى صلى الله عليه وملّته مَنْ لم يحسِّن صوتَه بالقرآن ، ويرجِّع فيه ، أو مَنْ لم يتلذَّذ بتلاوته ويستحْلِيها .

مَسْألة

[١٢ ظ] /اعلم أنّ أصحابَنا قد اعتمدوا فى إبطال ما ظنّه أصحابُ الرؤيةِ فى قوله تعــالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة ٢٢ ـ ٢٣] ، على وجوهٍ معروفة ، لأنهم بيّنوا أنّ النظرَ ليس يفيدُ الرؤية ، ولا الرؤيةُ من أحَدِ محتَملاته ، ودلّوا على أنّ النظرَ ينقسمُ إلى أقسامٍ كثيرة ؛ منها تقليبُ الحَدَقة الصحيحة حِيالَ (٢) المرئِىِّ طلباً لرؤيته ؛ ومنها النظرُ الذى هو الانتظار ؛ ومنها النَّظَر الذى هو التعطُّف والرّحمة ؛ ومنها النظرُ الذى هو الفِكْر والتأمّل ، وقالوا : إذا لم يكن فى أقْسام النظر الرُّؤية لم يكنْ للقوم بظاهرها تعلّق (٣) ، واحتجْنا (٤) جميعاً إلى طلب تأويلٍ للآية من غيرِ جهة الرؤية . وتأوّلها بعضُهم على الانتظار للثواب ، وإن كان المنتَظَرُ فى الحقيقة محذوفا ، والمنتظَر منه مذكوراً على عادة للعرب معروفة. وسلّم بعضُهم أن النظرَ يكون الرؤية بالبصر ، وحَمَل الآيةَ على رُؤْية أهل الجنة لِنِعم الله تعالى عليهم؛ على سبيل حذف المرئىّ فى الحقيقة . وهذا كلام (٥) مشروح فى مواضعه ، وقد بيّنّا ما يورد عليه ، وما يجابُ به عن الشُّبْهة المعترضة فى مواضعَ كثيرة .

وههنا وجه غريبٌ فى الآية حُكِىَ عن بعض المتأخرين (٦) : لا يفتقرُ معتمِدُه إلى العدول عن الظاهر ، أو إلى تقديرِ محذوف ، ولا يحتاج إلى منازعتهم فى أنّ النظرَ يحتمِل الرؤية ،

(١) ديوانه : ٧٩ . (٢) ت ، حاشية ف (من نسخة) : « فى جهة المرئى » .
(٣) ف : « التعلق » . (٤) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : « واحتاج جميعنا » .
(٥) ت ، ف : « وهذا الكلام » . (٦) فى حاشيتى ت ، ف : « يعنى به الصاحب بن عباد رحمه الله » .

أو لا يحتملها ؛ بل يصح الاعتماد عليه؛ سواءٌ كان النظرُ المذكورُ في الآية هو الانتظارَ بالقلب، أو[١] الرؤية بالعين ، وهو أن يحمَل قولُه تعالى : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ على أنه أراد به نعمةَ ربِّها ، لأن الآلاء النِّعم ، وفي واحدها أربع لغات : أَلًا مثل قفًا ، وأَلْيٌ مثل رَمْيٍ ، وإِلًى مثل مِعًى ، وإِلْيٌ مثل حِسْيٍ ؛ قال أعشى بكر بن وائل :

أَبْيَضُ لا يَرْهَبُ الهُزَالَ وَلَا   يَقْطَعُ رِحْماً وَلَا يَخُونُ إِلَا[٢]

أراد أنه لا يخون نعمة، فأراد « بإلَى ربِّها » نعمةَ ربِّها ، وأسقط التنوين للإضافة .

فإن قيل : فأىّ فرْق بين هذا الوجه وبين تأويل مَنْ حمل الآية على أنّه أريد بها[٣] إلى ثواب ربها ناظرة ، بمعنى رائية لنعمه وثوابه ؟ قلنا : ذلك الوجهُ يفتقر إلى محذوف ، لأنه إذا جعل « إلى » حرفًا / ولم يعلّقها بالربّ تعالى ، فلابد من تقدير محذوف ، وفي الجواب [١٣ و]
الذى ذكرناه لا يفتقر إلى تقدير محذوف ، لأن « إلى » فيه اسم يتعلق به الرؤية ولا يحتاج إلى تقدير غيره[٤] .

---

(١) ت . « أم »   (٢) ديوانه : ١٥٥ ، واللسان (ألى) وفي حاشيتي الأصل ، ف : « أبيض : كريم ، والهزال كناية عن قلة ذات اليد ، وخيانة النعمة أن يبخل بها » .   (٣) ف : « به » .

(٤) في حاشيتي الأصل ، ف : « الوجه الأول أحسن ، وبمجارى كلام العرب أشبه ، وفي الفصاحة أعرق ؛ وذلك أن وجه الصاحب وإن كان له محل في العربية ؛ فإن إعمال اسم الفاعل فيما قبله على هذا الوجه مما يحوج الإنسان إليه مضايق الشعر ؛ والقرآن موضع فصاحة ، ومحل فصاحة ، فالأولى غير هذا الوجه؛ والله أعلم » .

مجلس آخر

تأويل آية

إن قال قائل: ما تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٠٠] .

وظاهرُ هذا الكلام يدلُّ على أن الإيمان إنما كان لهم فعلُه بإذنه وأمره ، وليس هذا مذهبَكم؛ وإن حُمِل الإذنُ هاهنا على الإرادة اقتضى أنَّ مَنْ لم يقع منه الإيمان لم يرده الله منه ، وهذا أيضا بخلاف قولِكم . ثم جَعَلَ الرِّجس الذى هو العذاب على الذين لا يعقلون ؛ ومَنْ كان فاقدا عقله لا يكون مُكلَّفًا ، فكيف يستحقُّ العذاب ؟ وهذا بالضد من الخبر المروىّ عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « أكثرُ أهلِ الجنة البُلْه » .

الجواب، يقال له فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ وجوه :

منها أنْ يكون الإذْنُ الأمر ، ويكون معنى الكلام : إن الإيمانَ لا يقع إلا بعد أن يأذن الله فيه ، ويأمر به ، ولا يكونُ معناه ما ظنّه السائلُ من أنه لا يكون للفاعل فعلُه إلا بإذنه ، ويجرى هذا مجرى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ومعلوم أنَّ معنى قوله: ليس لها فى هذه الآية هو ما ذكرناه ، وإنْ كان الأشبهُ فى هذه الآية التى فيها ذكرُ الموت أن يكونَ المرادُ بالإذن العلم .

ومنها أن يكون الإذن هو التوفيق[1] والتيسير والتسهيل ، ولا شبهةَ فى أن الله يوفق لفعل الإيمان ويلطُف فيه ، ويسهّل السبيل إليه .

ومنها أن يكون الإذنُ العلم من قولهم : أذِنْتَ لكذا وكذا إذا سمعته وعلمته ، وآذَنْتَ فلانا بكذا إذا أعلمته؛ فتكون فائدة الآية الإخبارَ عن علْمه تعالى بسائر الكائنات، فإنه ممن

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « فى هذه » .

لا يخفى عليه الخفيّات . . وقد أنكر بعض مَنْ لا بصيرة له أن يكون الإِذْن (بكسر الألف وتسكين الذال) عبارةً عن العلم ، وزعم أن الذى هو العلم الأَذَنُ (بالتحريك) ، واستشهد بقول الشاعر[١] :

[١٢ ظ] /* إنَّ هَمِّى فى سَمَاعٍ وَأَذَنْ *

وليس الأمر على ما توهّمه هذا المتوهّم ، لأن الأَذَن هو المصدر ، والإِذن هو اسم الفعل[٢] ؛ فيجرى مجرى الحَذَر فى أنه مصدر ؛ والحِذْر (بالتسكين) الاسم على أنه لو لم يكن مسموعاً إلا الأَذَن (بالتحريك) لجاز التسكين ، مثل مَثَلٍ ومِثْلٍ وشَبَهٍ وشِبْهٍ ونظائر ذلك كثيرة .

ومنها : أن يكون الإِذن العلم ، ومعناه إعلام الله المكلَّفين بفضل الإيمان وما يدعو إلى فعله ، ويكون معنى الآية : وما كان لنفسٍ أنْ تؤمِنَ إلاّ بإعلام الله لها بما يبعثها على الإيمان ، وما يدعوها إلى فعله .

فأمّا ظنُّ السائلِ دخولَ الإرادة فى محتمَل اللفظ فباطل ؛ لأنَّ الإِذْنَ لا يحتمل الإرادة فى اللُّغة ، ولو احتملها أيضا لم يجبْ ما توهّمه ، لأنه إذا قال : إنَّ الإيمانَ لا يقع[٣] إلا وأنا مُريدٌ له لم ينفِ أن يكون مُريداً لما لم يقع ، وليس فى صريح الكلام ولا دلالته[٤] شىء من ذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فلم يَعْنِ بذلك الناقصى العقول ، وإنما أراد الّذين لم يعقِلوا ويعلَموا[٥] ما وجبَ عليهمْ علمُه من معرفة الله خالقِهم ، والاعتراف بنبوّة رسله والانقياد إلى طاعتهم ، ووصفهم تعالى بأنّهم لا يعقلون تشبيها ؛

---

(١) هو عدى بن زيد العبادى ؛ وقد تقدم البيت بتمامه منسوبا إليه فى ص ٣٣ .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « ومن هـذا الباب الصرم ؛ فإنه مصدر صرم ، والصرم ؛ بالضم اسم ذلك الفعل الذى هو القطع ؛ لا المصدر » .

(٣) د ، ف ، حاشية ت (من نسخة) : « لم يقع » . (٤) ف ، حاشية ت (من نسخة) : « ولا فى دليله » . (٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « ولم يعلموا » .

كما قال تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : ١٨] ، وكما يصفُ أحدُنا مَن لم يفطُن لبعض الأمور، أو لم يعلم ما هو مأمور بعلمه بالجنون وفقد العقل .

فأما الحديثُ الّذى أورده السائل شاهداً له فقد قيل إنه عليه وآله السلام(١) لم يُرِدْ بالبُلْهِ ذوِى الغفلة والنقصِ والجنون، وإنما أراد البُلْه عن الشرّ والقبيح ، وسمّاهم بُلْهاً عن ذلك من حيث لايستعملونه ولا يعتادونه ، لامِن حيثُ فقدوا العلم به. ووجْهُ تشبيهِ مَنْ هذه حالُه بالأبْله ظاهر ، فإنّ الأبْلَهَ عن الشيء هو الذى لا يعرض له ولا يقصد إليه ، فإذا كان المتنزّه عن الشر مُعْرِضاً عنه ، هاجرا لفعله جاز أن يوصَف بالبَلَه للفائدة التى ذكرناها ؛ ويشهد بصحة هذا التأويل قول الشاعر :

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطفْلَةٍ مَيّادَةٍ بَلْهاءَ تُطْلِعُنِى عَلَى أسْرَارِها(٢)

[١٤ و] أراد أنها بَلْهاء عن الشر والريبة ؛ وإن كانت فَطِنَةً لغيرها ؛ وقال أبو النَّجْم العِجْلىّ :

مِنْ كُلِّ عَجْزَاء سَقُوطِ البرْقعِ(٣) بَلْهاءَ لَمْ تُحْفَظْ وَلَمْ تُضَيَّعِ

أرادبالبلهاء ما ذكرناه . فأماقوله : «سَقوط البرقع» فأراد أنها تبْرُزُ وجهها ولاتستره ، ثقةً(٤) بحسنه وإدلالاً بجماله(٤) ، وقوله: «لم تُحْفَظْ» أرادأن استقامةطرائقها تُغنى عن حفظها ، وأنها لعفافها(٥) ونزاهتها غير محتاجة إلى مسدّد وموقّف ؛ وقوله: «لم تُضَيَّع» أرادأنهالم تُهمل

١٥ فى أغذيتها(٦) وتنعيمها وترفيهها فتشقَى، ومثل قوله : « سَقوط البُرْقع » قول الشاعر(٨) :

---

(١) ت : « إن النبى صلى الله عليه وآله » ، ف : « إنه صلى الله عليه وآله » .

(٢) الأضداد ص ٢٦٢ ، واللسان (بله) ــ بلا عزو . والطفلة : الناعمة ؛ وفى ت ، د ، ف : « ميالة » . (٣) اللسان (بله) .

(٤ــ٤) حاشية ت (من نسخة) : « بحسنها وإدلالا بجمالها » .

(٥) ش : « لعفافتها » ، وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « عف يعف عفا وعفة وعفافة » .

(٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الأولى فى معنى لم تضيع أنها لا تخلو من خدم يختصون بها ؛ ليكون هذا التضييع مطابقا لذلك الحفظ » . وفى حاشية ت (من نسخة) : « فى تغذيتها » .

(٧) هو عمر بن أبى ربيعة ، والبيت فى ديوانه ٣٣ .

فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلَّمْتُ أَقْبَلَتْ ... وُجُوهٌ زَهَاهَا الحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا(١)

ومثله أيضا :

بِهَا شَرَقٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ وَعَنْبَرٍ ... أَطَارَتْ مِنَ الحُسْنِ الرِّدَاءَ المُحَبَّرَا(٢)

أى رمتْ به عنها ثقة بالجمال والكمال(٣) ، ومثله ـ وهو مَليح(٤) ـ :

لَهَوْنَا بِعُنْجُولِ البَرَاقِعِ حِقْبَةً ... فَمَا بَالُ دَهْرٍ لَزَّنَا بِالوَصَاوِصِ(٥)

أراد بعنجول البراقع اللاتى بوسعن عيونَ براقعهن ثقةً بحسنهن، ومنه الطعنة النَّجْلاء، والعين النَّجْلاء ؛ ثم قال : ما بالُ دهرٍ أحوَجَنا واضطرنا إلى القِباح ، اللواتى يضيِّقْن عيونَ براقعهن لقبحهِنَّ ، والوصاوص : هى النُّقَبُ الصِّغار للبراقع؛ ومما يشهد للمعنى الأول الذى هو الوصف بالبَلَه لا بمعنى الغفلة قول ابن الدُّمَيْنة :

بِمَالِي وَأَهْلِي مَنْ إِذَا عَرَضُوا لَهُ ... بِبَعْضِ الأَذَى لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ(٦)

ـ ويروى بنفسى وأهلى ـ

وَلَمْ يَعْتَذِرْ عُذْرَ البَرِيءِ وَلَمْ تَزَلْ ... بِهِ ضَعْفَةٌ(٧) حَتَّى يُقَالَ مُرِيبُ(٨)

ومثله :

أُحِبُّ اللَّوَاتِى فِى صِبَاهُنَّ غِرَّةٌ ... وَفِيهِنَّ عَنْ أَزْوَاجِهِنَّ طِمَاحُ(٩)

(١) فى الديوان : « أشرقت » وفى حاشية ت (من نسخة) : « أسفرت » ، وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « تبرقعا » . (٢) البيت للشماخ ، ديوانه : ٢٩ . وفى حوشى الأصل ، ت ، ف : « الشرق : أثر الطيب ؛ يقال : بده من الطيب شرقة . وشرقت الشمس : اصفرت من الغروب ؛ ومنه أحمر شرق : شديد الحمرة ، وشرق الثوب بالصبغ ، ولحم شرق: لا دسم فيه » . والمحبر : المنقش .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « ثقة بجمالها وكمالها » . (٤) فى نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « حسن » . (٥) حاشية الأصل : «لزنا : أحوجنا» . (٦) الشعر والشعراء ٤٥٩ . وفى ت : « بأهلى ومالى » . (٧) ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « سكتة » .

(٨) مريب : أى بريبة . وفى حاشية الأصل . « أصل العذر أن تتعقب ذنبا ، والبرىء : لاذنب له؛ إلا أن تنصله قائم مقام العذر للمجرم ؛ فكأنه عذر مجازا » .

(٩) البيتان فى مصارع العشاق ٣٤٧ ، وعزاهما إلى بعض الأعراب ، ورواية البيت الأول فيه :

أُحِبُّ اللواتى هنَّ من وَرَقِ الصِّبا ... ومنهنَّ عن أزْواجهنَّ طِماحُ

وقال : طمح ببصره ؛ إذا رمى به ، وفى حاشية الأصل : « طماح : شماس » .

مُسِرَّاتِ حُبٍّ مُظْهِـرَاتِ عَدَاوَةٍ ... تَرَاهُنَّ كَالمَرْضَى وَهُنَّ صِحَاحُ

ومثله :

يَكْتَبِينَ اليَنْجُوجَ فى كُبَدِ المَشْـ ... ـتَى وَبُلْهٌ أَحْلَامُهُنَّ وِسَامُ[1]

أما قوله : «يكتبين» فمأخوذ من لفظ الـكِباء ، وهو العود ، أراد يتبخَّرن به ، واليَنْجُوجُ [١٤ ظ] هو/العود، وفيه ست لغات : يَنجُوج ، وأَنْجُوج ، ويَلَنجُوج ، والَنجُوج ، والَنجَج ، ويَلَنجَج .

فأما كُبَد المشْتى، فهو ضَيْقَته[2] وشدَّته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى كَبَدٍ ﴾ [البلد : ٤] ؛ وقد روى : «فى كَبَّة المشتى» والمعنى متقارب ، لأن الـكَبَّة هى الصدْمة والحملة، مأخوذ من كَبَّةِ[3] الخيل؛ وأما الوِسام فهن[4] الحِسان من الوَسامة، وهى الحُسْن .

ويمكن أن يكونَ فى البَلَهِ جواب آخر ، وهو أن يُحمَل على معنى البَلَه الذى هو الغَفْلة والنقْصان فى الحقيقة ، ويكون معنى الخبر أنَّ أكثَرَ أهلِ الجنة الذين كانوا بُلهاً فى الدنيا، فمندنا أن الله ينعّم الأطفالَ فى الجنة والمجانين والبهائم ، وإنما لم نجعلْهم بُلهاً فى الجنة وإنْ كان ما يصِلُ إليهم من النعيم على سبيل العِوَض أو التفضّل[5] لا يفتقِر إلى كمال العقل ، لأنَّ الخبر ورد بأن الأطفال والبهائم إذا دخلوا الجَنَّة لم يدخلوها إلا وهم على أفضـل الحالات وأكملِها ، ولهذا صرفنا البَله عنهم فى الجنة ، ورددناه إلى أحوال الدنيا ، وإلاّ فالعقلُ لا يمنع من ذلك كمنعه إياه فى باب الثواب والعقاب .

---

(١) البيت لأبى دؤاد الإيادى ، وهو فى الأصمعيات ٦٨ ، وفى حاشية الأصل : « أى عقولهن بله ، وهن وسام ، وواحد الوسام وسيم » .

(٢) ت : « ضيقة » ، ش : « ضيقته » ، بكسر الضاد وفى حاشيتى ت ، ف : « الضيقة : الفقر والبؤس ؛ وهو الضيق أيضا » .

(٣) فى نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « نعى » .

(٤) حاشية الأصل : « وهو ازدحامهما » .

(٥) فى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « فإن التفضل » . د : « والتفضل » .

تأويل آية أخرى

قال الله تعالى مخبراً عن يوم القيامة : ﴿ ذَلِكَ يومٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذلِكَ يومٌ مَشْهُودٌ ، وَما نُؤَخِّرُهُ إلاَّ لِأَجَلٍ معدُودٍ . يومَ يأتِ لاَ تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإِذْنِه ﴾ [هود : ١٠٣–١٠٥] . وقال فى موضع آخر : ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ . ولا يُؤْذَنُ لهمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] . وفى موضع آخر : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [الصافات : ٢٧ ، والطور : ٢٥] .

وظاهرُ هذه الآيات ظاهر الاختلاف ، لأن بعضَها يُنْبِئُ عن أنَّ النطقَ لا يقع منهم فى ذلك اليوم ، ولا يؤذَنُ لهم فيه ، وبعضُها يُنْبِئُ عن خلافه . وقد قال قومٌ من المفسِّرين فى تأويل[١] هذه الآياتِ : إن يومَ القيامة يومٌ طويلٌ مُمْتَدٌّ ، فقد يجوز أنْ يمْنَعَ النُّطْقُ فى بعضه ، ويُؤْذن لهم فى بعضٍ آخر[٢] ؛ وهذا الجواب يُضَعَّف ، لأن الإشارةَ إلى يوم القيامةِ بطُوله ، فكيفَ يجوز أن تجعل الحالات فيه مختلفة ؛ وعلى هذا التأويل يجب أنْ يكون قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ﴾ فى بعضه ، والظاهر بخلاف ذلك .

[١٠ و] والجواب السديدُ عن هذا أن يقالَ : إنما أراد الله تعالى/ نَفْيَ النُّطْق المسموع المقبول الذى يَنتفعون به ، ويكون لهم فى مثله عُذر أو حُجّة، ولم يَنْفِ النطق الذى ليست هذه حالُه ، ويجرى هذا مجرى قولهم : خَرِسَ فلان عن حُجّتِه ، وحضرنا فلانا يُناظر فلانا فلم يَقُلْ شيئاً، وإن كان الذى وُصِفَ بالخرَس عن الحجّة ، والذى نُفِيَ عنه القول قد تكلّم بكلام كثير غزير ، إلّا أنّه من حيث لم يكن فيه حجّة، ولا به منفعة جاز إطلاقُ القول الذى حكَيْناه عليه؛ ومثل هذا قول الشاعر[٣] :

---

(١) ت : « تأويلات » . (٢) ف : « فى موضع آخر » .

(٣) هو مسكين الدارى ؛ وهو ربيعة بن عامر بن أنيف ؛ والبيتان فى (معجم الأدباء ١١ : ١٣٢).

وفى حاشية الأصل : « قبلهما » :

ما ضرَّ جاراً لِى أجاورُهُ ألاَّ يكونَ لِبابِهِ سِتْرُ

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ ‏ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِدْرُ
وَيَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ‏ سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرَهُ وَقْرُ(١)

وقال الآخر :

لَقَدْ طَالَ كِتْمَانِيكَ(٢) حَتَّى كَأَنَّنِي ‏ بِرَدِّ جَوَابِ السَّائِلِي عَنْكَ أَعْجَمُ(٣)

وعلى هذا التأويل قد زالَ الاختلافُ ، لأنَّ التساؤلَ والتلاوُمَ لا حُجَّةَ فيه .. وأما قوله تعالى : ﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ، فقد قيل: إنهم غيرُ مأمورين بالاعتذار ، فكيف يعتذرون ؟ ويجاب بحمل الإذْن على الأمر ؛ وإنّما لم يُؤْمَرُوا به من حيث كانت تلك الحال لا تكليفَ فيها ، والعباد ملجئون عنـد مشاهدة أحوالهم إلى الاعتراف والإقرار . وأحسن من هـذا التأويل أن يحمَل ﴿ يُؤْذَنُ ﴾ ، على معنى أنه لا يُسْتمع لهم ، ولا يُقْبَلُ عذرهم ، والعلة فى امتناع قبول عُذْرِهم هى التى ذكرناها(٤) .

---

(١) حاشية الأصـل : « يريد به ؛ أى بقوله « بينهما » جاره وجارته ؛ لأنه ذكر الجار قبـل الجارة فى قوله : ما ضر جاراً ... البيت » ، وفى حاشية ف : « بينهما ، أى بين الجار وبين من تخاطبه ؛ والـكلام يدل على متخاطبين » . (٢) حاشية الأصل : « كتمانى أمرك وعشقك » .

(٣) فى حاشيتى ت ، ف : « بعده :

لِأَسْلَمَ مِن قَوْلِ الوُشَاةِ وَتَسْلَمِي ‏ سَلِمْتِ وَهَلْ حَيٌّ على الناسِ يَسْلَمُ

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ؛ التقدير : لا ينطقون بنطق ينفعهم ، ولا يعتذرون بعذر ينفعهم ، فيكون يعتـذرون داخلا فى حيز النفى ، ولا يمكن حمله على الإيجاب إلا إذا كان المعنى على أنهم ينطقون بنطق ينفعهم ؛ لأنه إن حمل على الظاهر كان فى الـكلام تناقض ؛ لأن التقدير إذاً : هذا يوم لا ينطقون فيعتذرون ؛ وهـذا تناقض ، لأن الاعتذار نطق ، وإن شئت كان التقدير : لا ينطقون بحال ، ولا يعتذرون ؛ لأن هناك مواقف ؛ فيكون هذا فى موقف ؛ ومثله قراءة الحسن والثقفى : ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُونَ ﴾ ، فقوله : ﴿ يَمُوتُونَ ﴾ معطوف على ﴿ لا يُقْضَى ﴾ أى لا يقضى عليهم فلا يموتون ؛ كذلك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ؛ أى فلا يعتذرون ؛ وهذا أحسن ، والله أعلم » .

تأويل خبر

رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: « لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فإنّ الدَّهْرَ(١) هُوَ اللهُ » . وقد ذكر قومٌ في تأويل هذا الخبر أنّ المرادَ به لا تَسُبُّوا الدهرَ ، فإنه لا فِعْلَ له ، وإنَّ اللهَ مصرِّفُه ومدبِّره ، فحذَفَ من الكلام ذِكْرَ المصرِّف والمدبِّر وقال : « هو الدهر » .

وفي هـذا الخبر وَجْهٌ هو أحسنُ من ذلك الذي حَكَيْناهُ ، وهو أنَّ الملحِدين ، ومَنْ نَفَى الصانِعَ من العرب كانوا يَنْسِبون ما ينزِلُ بهم من أفعال الله تعالى كالمرض والعافية ، والجدْب والخصْب ، والبقاء والفَناء إلى الدَّهْر ، جهلًا منهم بالصَّانِع جلّت عظمتُه ، ويذمُّون الدهرَ ويسبُّونه في كثيرٍ من الأحوال ، من حيث اعتقدُوا أنه الفاعلُ بهم / هذه الأفعالَ ، [١٠ ط] فنهاهم النبيُّ صلى الله عليه وآله عن ذلك وقال لهم : لا تسُبُّوا مَنْ فعل بكم هذه الأفعالَ مِمّنْ تعتقدون أنه هو الدّهر ، فإنّ الله تعالى هو الفاعل لها . وإنما قال : إنّ الله هو الدهرُ من حيث نَسَبوا إلى الدّهر أفعالَ الله ؛ وقد حكى الله تعالى عنهم قولهم : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] . وقال لَبيد :

فى قُرُومٍ سادَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ... نَظَرَ الدَّهْرُ إِلَيهِمْ فَابْتَهَلْ(٢)

أي دَعَا عليهم . وقال عمرو بن قَمِيئَةَ(٣) :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ(٤) حِجَّةً ... خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لِجَامِي(٥)

على الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وعلى العَصَا ... أَنُوءُ ثَلَاثًا(٦) بَعْدَهُنَّ قِيَامِي

رَمَتْنِي بَنَاتُ الدَّهْرِ(٧) مِنْ حَيْثُ لا أَرَى ... فَكَيْفَ بِمَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِي

---

(١) كذا في الأصل ، ح ، د ، ش . وفي ت ، ف : « فإن الله هو الدهر » .

(٢) ديوانه : ٨٠ . وفي حاشية الأصل : « قروم : جمع قرم ؛ وهو سيد وشريف وكريم ؛ وابتهل ؛ من المباهلة ، أي تضرع وذل » . (٣) الأبيات في المعمرين ٦٢ ، وحماسة البحتري ٣٢١ .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « سبعين » . (٥) في حاشيتي الأصل ، ف : يقول : « إن السنين تركتني لا أضبط أمرا ؛ فكأني مخلوع العذار » . والضمير في بها يعود إلى تسعين .

(٦) في حاشيتي الأصل ، ف : « أي ثلاث دفعات » .

(٧) في حاشيتي الأصل ، ف : « بنات الدهر : بلاياه وحوادثه » .

فَلَوْ أَنَّهَا نَبْـلٌ إِذًا لاتَّقَيْتُهَا ... وَلـكِنَّنِى أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ
إِذَا مَا رَآنِى النَّاسُ قَالُوا أَلَمْ تَـكُنْ ... جَلِيداً حَدِيدَ الطَّرْفِ غَيْرَ كَهَامِ
وَأَفْنَى وَمَا أُفْنِى مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً ... وَلَمْ يُغْنِ مَا أَفْنَيْتُ سِلْكَ نِظَامِ[١]
وَأَهْلَـكَنِى تَأْمِيـــلُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ... وَتَأْمِيلُ عَامٍ بَعْدَ ذَاكَ وَعَامِ

وقال الأصمعىّ: ذمّ أعرابىّ رجلا فقال: هو أكثر ذنوباً من الدهر؛ وأنشد الفراء[٢]:

حَنَتْنِى حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى ... كَأَنِّى خَاتِلٌ أَدْنُو لِصَيْدِ[٣]
قَصِيرُ الْخَطْوِ يَحْسِبُ مَنْ رَآنِى ... وَلَسْتُ مُقَيَّدًا أَنِّى بِقَيْدِ

وقال كُثَيِّر[٤]:

وَكُنْتُ كَذِى رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ ... وَرِجْلٍ[٥] رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتِ

وقال آخر[٦]:

فَاسْتَأْثَرَ الدَّهْرُ الْغَدَاةَ بِهِمْ ... وَالدَّهْرُ يَرْمِينِى وَمَا أَرْمِى
يَا دَهْرُ قَدْ أَكْثَرْتَ فَجْعَتَنَا ... بِسَرَاتِنَا[٧] وَوَقَرْتَ فِى الْعَظْمِ

أما قوله: وقرت فى العظم، أراد به: اتّخذتَ فيه وقراً، أو وقيرةً، والوقرُ هو الحفيرة [١٦] /العظيمة تكون فى الصّفا يستنقع فيها ماءُ المطر، والوقبُ أيضا كذلك، والوقيرة أيضا الحفيرة إلا أنّها دون الأولين فى الـكِبَر.

وكل هؤلاء الذين روينا أشعارَهم نسبُوا أفعالَ الله التى لايشاركه فيها غيره إلى الدهر، فحسن وجه التأويل الذى ذكرناه.

---

(١) فى حاشيتى الأصل، ف: «أى لم يغن ما أفنيت من العمر بشىء حتى بخيط».

(٢) البيتان فى حماسة البحترى ٣٢٣. (٣) ت، ف: «حابل»:

(٤) أمالى القالى ١: ١٠٩، من تائيته المشهورة. (٥) ف، حاشية ت (من نسخة): «وأخرى»

(٦) هو الأعشى، والبيتان فى ملحقات ديوانه ٢٥٨، وثانيهما فى اللسان (وقر) وفى حاشية الأصل: بعدهما:

وَسَلَبْتَنَا مَا لَسْتَ تُعْقِبُنَا ... يَا دَهْرُ مَا أَنصَفْتَ فِى الْحُكْمِ

(٧) حاشية الأصل: «جمع السرى، ورجل سرى، والقوم سراة».

مسألة

إعلم أن المنافعَ التي عرّض الله تبارك وتعالى الأحياء لها ثلاثٌ : منفعةُ تفضُّل ، ومنفعةُ عِوَض ، ومنفعةُ ثواب ، فأمّا المنفعةُ على سبيل التفضُّل فهي الواقعةُ ابتداءً من غير سبب استحقاق ، ، ولفاعلها أن يفعلَها ، وله ألاّ يفعلَها، وأما منفعة العِوض فهي المنفعة المستحَقة من غير مقارنة شيء من التعظيم والتبجيل لها ، وأمّا منفعةُ الثواب فهي المستحَقة على وجه التعظيم والتبجيل فمنفعة العوض تَبِين من التفضل بالاستحقاق ، والثواب يَبِين من العوض بالتعظيم والتبجيل، المصاحبين له ؛ فكأنّ التفضلَ أصلٌ لسائر المنافع من حيث يجب تقدمه وتأخر ما عداه ؛ لأنه لا سبيل للمنتفع أن ينتفع بشيء دون أن يكون حيًّا له شهوة(١) ، والابتداء بخلق الحياة والشهوة تفضّل ، فقد صحّ(٢) أنه لا سبيل إلى النفع بمنفعة العِوَض والثواب إلا بعد تقدّم التفضّل. فأمّا المنفعةُ بالثواب فهي الأصل للمنفعة بالعوض ؛ لأنّ الآلام وما جرى مجرى الآلام(٣) مما يُستحَقُّ به العوض متى لم يكن فيها اعتبار يُفضي إلى الثواب، ويستحق به لم يَحْسُن فعلُها ، وجرى عندنا مَجرى العبث ، ولهذا نقول : إن الله تعالى لو لم يكلِّفْ أحدا من المكلَّفين ما كان يحسُن منه أن يبتدئ بالآلام(٤) ، وإن عوّض عليها .

والأحياء على ضروب فمنهم من عُرِّض للمنافع الثلاث . ومنهم من عُرِّض لاثنتين، ومنهم من عُرِّض لواحدة ، والمكلَّف المعرَّض للثواب لابد أن يكون منفوعا بالتفضّل من الوجه الذي قلنا ؛ لأنه إذا خلق حيًّا وفُعِل له القدرة والشهوة والعقل وضروبُ التمكين ، فقد نُفِع بالتفضّل ، وليس يجب فيمَنْ هذه حاله أن يكون منفوعا بالعِوَض ؛ لأنّه لا يمتنع أن يخلوَ المكلَّف منّا من ألم يُحْدِثه(٥) الله به ؛ فلا يكون معرّضاً للعوض ؛ فمتى عوّض له فقد تكاملتْ فيه المنافع؛ فصار/المكلَّف مقطوعا على تعريضه لاثنتين من المنافع؛ ومُجوَّزاً تكامل [١٦ ظ] الثلاث له ؛ فأما من ليس بمكلَّف فمقطوع فيه على إحدى المنافع ، وهي التفضّل من حيث

---

(١) ش ، ومن نسخة بحاشية ت : « ذا شهوة ». (٢) ش ، ومن نسخة بحاشية ت: « وضح ».
(٣) في حاشيتي ت ، ف : « الجاري مجرى الآلام كنقص الأموال والأولاد » .
(٤) في حاشية ت (من نسخة) : « بآلام » . (٥) ت « يبتدئه » .

خُلِق حيا ، ومُمكَّن من كثير من المنافع ، ومشكوك فى تعريضه للعِوَض من الوجه الذى بيّنا . وكما قطعنا على إحدى المنافع فيه ، فنحن قاطعون أيضا على نفى التعريض للثواب عنه ، لفقد ما يوصِّل[١] إليه وهو التكليف ، ولابد فى كل حىّ محدَث أن يكون معرَّضا لإحدى هذه المنافع ، أو لجميعها ؛ وإنما أوجبْنا[٢] ذلك من جهة حكمة القديم تعالى ؛ لا من جهة أنه يستحيل[٣] فى نفسه ، وإنما قلنا إنه ليس يستحيل[٣] ؛ لأن كونه حياً وعاقلا وذا شهوة وقدرة ليس منفعةً بنفسه ، وإنما يكون منفعةً ونعمة إذا فعِل تعريضاً للنفع ؛ فأما إذا فعِل تعريضاً للضرر أو لأوجهٍ من الوجوه ، فإنه لا يكون نعمة ولا منفعةً ، وأوجبناه من جهة حكمة القديم تعالى ، لأنه إذا جُعِل الحىّ بهذه الصفات ، فلا يخلو من أن يكون أراد بها نفعَه أو ضرَّه ، أو لم يرد بها شيئا ، فإن كان الأول فهو الذى أوجبناه ، وإن كان الثانى أو الثالث فالقديم تعالى متنزِّه[٤] عنهما ، لأنَّ الثانى يجرى مجْرى الظلم ، والثالث هو العبث بعينه ، وقد يشارك القديم تعالى فى النفع بالتفضّل والعوض الفاعلون المحدَثون ، ولا يصح أن يشاركوه فى النفع بالثواب ، لأن الصفة التى يستحِق المكلّف لكونه عليها الثواب ، وهى كون الفعل شاقًّا عليه لا يكون إلاَّ من قِبَله تعالى ، وليس لأحد أن يظن فيمن يهدى إلى الدين ويرشد إلى الإيمان ، وما يستحقّ به الثواب أنه معرِّض للثواب ، وذلك أن[٥] المكلَّف قد يكون معرَّضاً للثواب ، ويصح أن يستحقه مِنْ دون كل هداية وإرشاد يقع منَّا ، ولولا الصفةُ التى جعله الله تعالى عليها لم يصح[٦] أن يستحقَّه ، فبان الفضلُ بين الأمرين ؛ على أنَّ أحدَنا وإن نفع غيره بالتفضل وبالتعريض للعوض فهذه المنافعُ منسوبة إلى الله تعالى ، ومضافةٌ إليه من قِبَل أنه لولا نِعَمه ومنافعه لم تكنْ هذه منافع ولا نعماً ؛ ألا ترى أنه لو لم يخلق

[١٧ ظ] الحياةَ والشهوةَ/ لم يكن ما يوصِل إليهما مما ذكرنا منفعةً ولا نعمة ، ولو لم يخلق المشتهَى الملذوذ لم يكن سبيلٌ لنا إلى النفع والإنعام ؛ فبان بهذه الجملة ما قصدناه .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « يوصله » . (٢) فى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « وجب » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « مستحيل » ، وحاشية ف (من نسخة) : « يستحيل » .

(٤) ت ، وحاشية ف (من نسخة) : « متنزه » . (٥) حاشية ت (من نسخة) : « لأن » .

(٦) ساقطة من ت .

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل فقال : ما تأويل قوله تبارك وتعالى مخبراً عن مهلَكِ قوم فرعون وتوريثه نعمهم : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ ؛ [الدخان : ٢٨، ٢٩] .

وكيف يجوز أن يُضيف البكاء إليهما ، وهو لا يجوز فى الحقيقة عليهما ؟ .

الجواب ، يقال له فى هذه الآية وجوهٌ أربعة من التأويل :

أوّلها أنه تعالى أراد أهلَ السماء والأرض فحذف كما حذف فى قوله: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ ؛ [يوسف : ٨٢] ؛ وفى قوله تعالى ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ؛ [محمد : ٤] وأراد أهل القرية، وأصحاب الحرب، ويجرى ذلك مجرى قولهم: السخاء حاتم ، يريدون: السخاء سخاء حاتم ؛ قال الحُطَيْئَةُ[1] :

وَشَرُّ المَنَايَا مَيِّتٌ وَسْطَ أَهْلِهِ ... كَهُلْكِ الفَتَى قَدْ أَسْلَمَ الحَىَّ حَاضِرُهْ[2]

أراد شر المنايا مِيتةُ[3] ميّتٍ؛ وقال الآخر :

---

(١) البيت فى طبقات الشعراء لابن سلام ص ٩٥ ؛ ضمن أبيات أربعة للحطيئة لم تذكر فى ديوانه . وفى حاشيتى الأصل ، ف : «قال السيد الإمام عليه السلام: طلبت هذا البيت فى شعر الحطيئة فلم أجده فيه» .

(٢) فى حواشى الأصل ، ت ، ف : «قوله : «شر المنايا» تقديره شر المنايا موت ميت فيما بين عشيرته ؛ كهلاك هذا الفتى فى حال أن أسلم الحى حاضر هذا الفتى ؛ إى أن حضاره أسلموا الحى، ولم ينصروه، ولم يمنعوا ذمارهم» .

(٣) ف ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ت : «منية» .

قَلِيلٌ عَيْبُهُ وَالعَيْبُ جَمٌّ ... وَلَـكِنَّ الغِـنَى رَبٌّ غَفُورُ[١]

أراد : غِـنَى ربٍّ غفور؛ وقال ذو الرُّمة :

لَهُمْ مَجْلِسٌ صُهْبُ السِّبَالِ أَذِلَّةٌ ... سَوَاسِيَةٌ أَحْرَارُهَا وَعَبِيدُهَا[٢]

أراد أهل مجلس ، وأما قوله : « صُهْبُ السِّبَال » فإنما أراد به الأعداء ، والعربُ تصف الأعداء بذلك ، وإن لم يكونوا صهب الأسْبِلة، وقوله : « سواسية » يريد أنهم مستوُون متشابهون؛ ولا يقال هذا إلا فى الذم .

وثانيها أنه أراد تعالى المبالغة فى وصف القوم بصِغَر القدر ، وسقوط المنزلة ؛ لأنَّ العرب إذا أخبرت عن عظَم المصاب بالهالك[٣] قالت : كُسِفَتِ الشمسُ لفقده ، وأظلم القمرُ ، وبكاه

---

(١) البيت لعروة بن الورد، وهو فى ملحقات ديوانه : ١٩٨ ، وهو فى شرح المقامات ٢ : ١٩٢ ، والبيان ١ : ٩٠ ، والعقد ١ : ٢١٢ ، وفى حواشى الأصل، ت، ف : «قال مولانا الإمام : كان السيد رضى الله عنه وهم فى معنى هذا البيت. ومعنى البيت: أن الشاعر وصف إنسانا بكثرة العيوب ؛ إلا أن ماله وغناه يستران عليه عيوبه، فكأنه قال : قليل عيبه ، يعنى يقل ظهور عيبه مع كثرة عيوبه ؛ إلا أن الغنى يسترها عليه ؛ كأنه رب غفور ستار للعيوب . ومعنى البيت على ما يوافق استشهاد السيد رضى الله عنه أنه يمدح إنسانا ويقول : قليل عيب هذا الممدوح مع كثرة العيب فى الناس ؛ ولكن الغنى عما يجر المعايب هو غنى الله تعالى . والأشبه بالبيت أن يكون هجوا ؛ كأنه يهجو إنساناً ويقول: يرى عيبه قليلا مع كثرة العيوب فيه ، والذى يقلل عيبه غناه كأنه رب غفور ، وأول القطعة :

ذَرِينِى لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّى ... رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِيرُ

وأبعدُهم وأهونُهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخيرُ

يباعِدُه النـدىّ وتَزدَرِيه ... حَلِيلَتُهُ ويَنهرُه الصغيرُ

وتلقى ذا الغنى وله جلالٌ ... يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ

قليلٌ عَيْبُه . . . . . .

(٢) ديوانه ١٠٧ وفى حاشيتى الأصل ، ف : « العرب إنما تسمى الأعداء صهب السبال ؛ لأن أعداءهم كانوا من الروم ؛ والروم صهب الأسبلة ، ثم اتسعوا فسموا كل عدو صهب السبال ؛ وإن لم يكن من الروم ، والقريب من هذا يصفون الأعداء بالزرق العيون » .

(٣) ف ، ت (من نسخة) : « بالملك » .

الليل والنهار والسماء والأرض ، يريدون بذلك المبالغةَ في عظم الأمر وشمول ضرره؛ قال جرير يرثي عمرَ بن عبد العزيز(١) :

(١) حاشية ف : « حدث إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزديّ قال : حدثنا عبدالله ابن أخت أبي الوزير عن أبي محمد الشامي : كنت غلاما في خلافة عمر بن عبد العزيز ؛ فلما أخذ عمر في رد المظالم غلظ ذلك على أهل بيته ، وعلى جميع قريش ، فكتب إليهم عبد الرحمن بن الحكم بن هشام :

فقُلْ لهشامٍ والذين تجمَّعوا بدابقَ موتوا لاسَلِمْتُمْ بدَ الدّهرِ

فأنتمْ أخذتمْ حتفَكمْ بأكفِّكمْ كباحثةٍ عن مُدْيةٍ وهيَ لاتدرِي

عَشيَّةَ بايَعْتُمْ إماماً مُخالفاً له شَجَنٌ بينَ المدينةِ والحِجْرِ

فأجابه بعضُ ولدِ مرْوان عن هشام بن عبد الملك :

لَئِنْ كانَ ماتدعُو إليه هو الرَّدَى فما أنتَ فيهِ ذا غَناءٍ ولا وَفْرِ

فأنتَ من الرِّيشِ الذُّنابَى ولم تكُنْ من الجزلة الأولى ولا وَسَطِ الظّهرِ

ونحنُ كفيناكَ الأمورَ كما كفَى أبونا أباكَ الأمْرَ في سالفِ الدّهرِ

قال القاضي : قول عبد الرحمن بن عبد الحكم في شعره هذا : « بدابق » ، فلم يصرفه ، وفي صرفه وترك صرفه وجهان معروفان في كلام العرب ، والعرب تذكره وتؤنثه ؛ فمن ذكره صرفه ؛ كما قال الشاعر :

* بدابقٍ وأينَ منِّي دابِقُ *

ومن أنثه لم يصرفه ؛ كما قال الآخر :

لَقَدْ خابَ قومٌ قلّدوكَ أمورَهمْ بدابقَ إذْ قيلَ العَدُوُّ قريبُ

وقوله :

* كباحثةٍ عن حتْفِها وهْيَ لاتدْرِي *

هذا مثل يضرب للذي يثير بجهله ما يؤديه إلى هلاكه ، أو الإضرار به ، وأصله أن ناساً أخذوا شاة ليذبحوها، فأرادوا أكلها فلم يجدوا ما يذبحونها به ؛ فهموا بتخليتها فاضطربت عليهم ، ولم تزل تثير الأرض وتبحثها بقوائمها ؛ فظهر لهم فيما احتفرته مدية فذبحوها بها ، وصارت هذه القصة مثلا سائرا . وقول المرواني : « وأنت من الريش الذنابي » يقال : ذنب الفرس وغيره، وذنابي الطائر، وذنابي الوادي وذنابته، ومذنب النهر » .

[١٧ ظ] /الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْستْ بِكَاسِفَةٍ ... تَبْكِي عليكَ نُجُومَ الليلِ وَالقَمَرَا[١]

وقال يزيد بن مفرِّغ الحِميَرِيُّ :

الرِّيحُ تَبْكِي شَجْوَهَا ... وَالْبَرْقُ يَلمعُ[٢] فى الغَمَامَهْ[٣]

وهذا صنيعهم فى وصف كل أمرٍ جلَّ خطبُه ، وعظُم موقعه ؛ فيصفون النهار بالظلام ، وأن الكواكب طلعت نهاراً لفقد نور الشمس وضوئها ؛ قال النابغة :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ والشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لاَ النُّورُ نُورٌ وَلاَ الإظْلاَمُ إظلاَمُ[٤]

وقال طَرَفة :

إنْ تُنَوِّلْهُ فَقَدْ تَمْنَعُهُ ... وَتُرِيهِ النجمَ يَجْرِي بالظهرْ[٥]

ومن هذا قولهم : لأرِيَنَّك الكواكب بالنهار، ومعناه أورِد عليك ما يُظلِم له فى عينك النهار ، فتظنُّه ليلا ذا كواكب .

فأما بيت جرير فقد قيل فى انتصاب النجوم والقمر[٦] وجوه ثلاثة : أحدها أنه أراد أن الشمسُ طالعةٌ وليست مع طلوعها كاسفةً نجومَ الليل والقمر ، لأن عُظمَ الرزء قد سلَبها ضوءها؛ فلم ينافِ طلوعُها ظهورَ الكواكب . والوجه الثانى أن يكون انتصاب ذلك كما ينتصب فى قولهم : لا أكلمك الأبد، والدهرَ، وطَوال المُسْنَدِ[٧]، وما جرى مجرى ذلك ، فكأنه أخبر

---

(١) ديوانه ٣٠٤ .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « يضحك » .

(٣) البيت من قصيدة له مطلعها :

أصَرمت حبلَكَ من أُمامَهْ ... مِن بَعدِ أيامٍ برامَهْ

قال ابن قتيبة : « وهي أجود شعره » ؛ وهي فى الأغانى ١٧ : ٥٤ — ٥٥ ، والخزانة ٢ : ٢١٣ — ٢١٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ .

(٤) ديوانه : ٧٢ .

(٥) ديوانه : ٦٠ . وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « يقول : إن تنوله هذه المرأة مرة نوالا فقد تمنعه أحيانا ، وتريه النجم ظهراً ؛ وهذا مثل للأمر الصعب » .

(٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « عظم الشىء : معظمه ، وعظمه : كبره » .

(٧) حاشية الأصل : « المسند : الزمان ؛ يقال : لا أكلمه أبد المسند » .

بأنّ الشمس تبكيه ما طلعت النجوم وظهر القمر[١]. والوجه الثالث أن يكون القمر ونجوم الليل باكين الشمس على هذا المرثىّ المفقود، فبكتهن؛ أى غلبتهنّ بالبكاء ؛ كما تقول: باكانى عبدُ الله فبكيته ، وكاثرنى فكثرْتُه ، أى غلبته وفضَلْتُ عليه .

ورابعها أن يكونَ معنى الآية الأخبارَ عن أنه لا أحدَ أخذ بثأرهم ولا انتصر لهم ، لأن العرب كانت لا تبكى على قتيل إلا بعد الأخذ بثأره، وقتل من كان بَوَاء به من عشيرة القاتل، فكنَّى تعالى بهذا اللفظ عن فقد الانتصار ، والأخذ بالثأر ؛ على مذهب القوم الذين خُوطبوا بالقرآن .

ورابعها أن يكون ذلك كناية عن أنه لم يكن لهم فى الأرض عمل صالح يرفع منها إلى السماء . ويطابق هـذا التأويل ما رُوى عن ابن عباس رحمة الله عليه / فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ [١٨ و] عَلَيْهِمُ السَّماء والأرْضُ ﴾ قيل له : أوَتبكيان على أحد ؟ فقال : نعم ، مصلاَّه فى الأرض ، ومَصْعَدَ عمله فى السماء. وروى أنسُ بن مالك عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « ما منْ مؤمن إلاّ وله بابٌ يصعد منه عمَلُه ، وبابٌ ينزل منه رزقُه ، فإذا مات بكيا عليه » ، ومعنى البكاء هاهنا الإخبار عن الاختلال بعدَه كما يقال : بكى منزلُ فلان بعده، قال ابن مقبل :

لعمْرُ أبيكِ لقدْ شاقَنى ... مكانٌ حزِنْتُ لَهُ أوْ حَزِنْ

وقال مُزَاحم العُقَيْلىّ :

بكَتْ دَارُهُمْ منْ أجلهِمْ وتهلّلتْ ... دُمُوعى فأىَّ الجَازِعينَ ألُومُ[٢]
أمُستَعبِراً يَبْكى منَ الهونِ والبِلَى ... وآخرَ يَبكى شجْوَهُ ويَهِيمُ[٣]

(١) حاشية الأصل : « قال مولانا عليه السلام : أراد هذه الصورة : الشمس طالعة ليست بكاسفة؛ ولكنها مع ذلك تبكى عليك ، وستبكى مدة طلوع النجوم والقمر » .

(٢) ديوانه ١٥ — ١٦ .

(٣) حاشية ف : « المستعبر : الذى يأتى بالعبرة ، وهى سيلان الطلب ، و«مستعبراً» بدل الجازعين . ويهيم ، أى يصير هائماً ، قال الله تعالى : ﴿ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ .

فإذا لم يكن لهؤلاء القوم الذين أخبر الله عن بَوارِهم مقامٌ صالح فى الأرض ، ولا عمل كريم يُرْفع إلى السماء جاز أن يقال : فما بكت عليهم السماء والأرض .

ويمكن فى الآية وجه خامس ، وهو أن يكون البكاء فيها كنايةً عن المطر والسُّقيا ؛ لأن العربَ تشبّه المطرَ بالبُكاء ، ويكون معنى الآية أنّ السماء لم تسقِ قبورَهم ، ولم تَجُدْ عليهم بالقَطْر ؛ على مذهب العرب المعروف فى ذلك؛ لأنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور مَنْ فقدوه من أعِزّائهم ، ويستنبتون لمواقع حُفَرِهم الزَّهْرَ والرِّياض؛ قال النابغة :

فلا زَالَ قبْرٌ بينَ تُبْنى وَجَاسِمٍ ... عليهِ منَ الوَسْمِيِّ طَلٌّ وَوَابِلُ[1]
فَيُنْبتَ حَوْذَانًا وَعَوْفًا منوّراً ... سأُتْبِعُهُ منْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائلُ[2]

وكانوا يُجرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام[3] ، ومسألة الله تعالى لهم الرضوان ، والفعل الذى أضيف إلى السماء ـ وإنْ كان لا يجوز إضافته إلى الأرض ـ فقد يصح عطفُ الأرض على السماء بأنْ يقدر لها فعلٌ يصح نسبتُه إليها ، والعرب تفعل مثل هذا؛ قال الشاعر :

يالَيْتَ زَوْجَكِ فى الوغَى ... مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا[4]

---

(١) ديوانه ٦٩ . والرواية فيه :

سَقَى الغَيْثُ قبْرًا بينَ بُصْرَى وجاسِمٍ ... بِغَيْثٍ من الوَسْمِيِّ قَطْرٌ ووابِلُ

وتبنى وجاسم: موضعان بالشام . وفى حاشيتى الأصل ، ف: « الوسمى : أول المطر ، وهو الذى يأتى فى الخريف ، والخريف عند العرب ربيع ، والربيع صيف ، والصيف قيظ » .

(٢) حاشية ف: « فينبت ، النصب فى جواب التمنى ، والحوذان: نبت ، يقال له بالفارسية مشكك ، وعوف: نبت أيضا ، ومنورا : أخرج النور » .

وقال البطليوسى شارح الديوان : « الحوذان والعوف نباتان ؛ إلا أن الحوذان أطيب رائحة ؛ وأنشد سيبويه هذا البيت بالرفع ؛ ولم يجعله جوابا ؛ أراد: وذاك ينبت حوذانا ، أى ينبت الحوذان على كل حال » .

(٣) حاشية الأصل : « قال مولانا عليه السلام عن ابن الأعرابى : إن العرب إنما تستسقى للقبور لأنها إذا سقيت وعم القطر أعشب المكان ؛ فحضره القوم للرعى ، وترحموا على الموتى » .

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « روى : « قد غدا متقلدا » ؛ وإذا روى « فى الوغى » كان « متقلدا » نصبا على الحال . وقوله : « فى الوغى » خبر ليت » .

فعطف الرمحَ على السيف ، وإن كان التقلُّد لا يجوز فيه ، لـكنه أراد حاملا رمحاً ، ومثل هذا يقدَّر في الآية ، فيقال : إنه تعالى أراد أن السماء لم تَسق قبورهم ، وأن الأرضَ لم تُعشِبْ عليها[1] ؛ وكلُّ هذا كنايةٌ عن حرْمانِهم رحمةَ الله تعالى ورضوانه . [١٨ ظ]

تأويل خبر

روَى أبو هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ أحبَّ الأعمال إلى الله عزّ وجل أدْوَمُها[2] وإن قلّ ؛ فعليكم من الأعمال بما تُطيقون ؛ فإنّ الله لا يَملُّ حتّى تَملوا » .

وفى وصفه[3] ـ عليه السلام ـ اللهَ تعالى بالمَلَلِ وجوهٌ أربعة :

أوَّلُها أنه أراد نَفْيَ المَلَلِ عنه ، وأنه لا يَملُّ أبدا ، فعلَّقه بما لا يقع على سبيل التبعيد كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف ٤٠].

وقال الشاعر :

فَإنَّـكَ سَوْفَ تَحْـكُمُ أوْ تَناهَى[4] إذَا ما شِبْتَ أوْ شابَ الغُرَابُ[5]

---

(١) د ، ف ، وحاشية ت (من نسخة) : « عليهم » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « كان فى الأصل المقروء على المصنف « أدومها » [بضم الواو] والمعروف أدومها [بفتح الواو] » .

(٣) ف ، وحاشية ت (من نسخة) : « فى صفته » .

(٤) حاشية الأصل : « تناهى : تبلغ الشيخوخة » .

(٥) حواشى الأصل ، ت ، ف : « البيت للنابغة الذبيانى ، وقبله :

فإنْ يَكُ عامِرٌ قد قالَ جَهْلاً فإنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبابُ

يهجو عامر بن الطفيل ، يقول : هو معذور فإنه شاب ، ثم قال : سوف تحكم إذا شخت ؛ أو لعلك لا تحكم أبدا ؛ حتى يشيب الغراب ، وذلك لا يكون أبدا ، وتحكم ، أى تصير حكيما ، وفعل ، بضم العين : يجىء لما يدخل على الإنسان فيصير كالطبع ؛ كقولك : سفه يسفه سفاهة ، ولم يكن سفيها فسفه . وتحكم من حكم يحكم [بضم الكاف] حكمة ؛ إذا صار حكيما » .

وانظر الديوان : ١٤ ــ ١٥ .

أراد أنكَ لا تحكُم أبداً . فإن قيل : ومِنْ أين قلتم : إن ماعلقه به لا يقعُ حتى حكمتُم بأنه أراد نفىَ المَلل على سبيل التأبيد ؟ قلنا: معلوم أنّ المَلل لا يَشمَل البشرَ فى جميع آرابهم[١] وأوطارهم ، وأنهم لا يَعرَوْن من حرص ورغبة وأمَل وطمع ، فلهذا جاز أن يعلِّق ما علِم تعالى أنه لا يكون بمللهم .

والوجه الثانى أنْ يكون المعنى أنه لا يغضَب عليكم ويطرحكم حتى تتركوا العملَ له ، وتُعرِضوا عن سؤاله ، والرغبةِ فى حاجتكم إلى جوده ؛ فسمّى الفعلين مللا ؛ وإن لم يكونا على الحقيقة كذلك؛ على مذهب العرب فى تسميتها الشىء باسم غيره إذا وافق معناه فى بعض الوجوه ، قال عدىّ بن زيد العِبادىّ :

ثمّ أضْحَوْا لَعِبَ الدّهْرُ بِهمْ ... وَكَذَاكَ الدّهْرُ يُودِى بالرِّجَالْ[٢]

وقال عَبيد بن الأبرص الأسدىّ :

سائِلْ بِنا حُجْرَ ابْنَ أمّ قَطَامِ إذْ ... ظلّتْ بِهِ السُّمْرُ الذَّوابلُ تَلْعَبُ[٣]

فنسبا اللّعب إلى الدهر والقنا تشبيهاً؛ وقال ذو الرُّمة :

وَأبيضَ مَوْشِيِّ القَميصِ نَصبْتُهُ ... على خَصْرِ مِقْلاتٍ سَفيهٍ جدِيلُها[٤]

فسمّى اضطرابَ زمامِها، وشدةَ تحركه سفهاً؛ لأن السفهَ فى الأصل هو الطيْشُ وسرعة الاضطراب / والحركة ، وإنما وَصفَ ناقته بالذكاء والنشاط . فأما قوله : «وأبيض مَوْشِيّ القميص» فإنما عَنَى بِهِ سيفَه، وقميصه: جفنُه ، والمِقلاتُ: الناقةُ التى لا يعيش لها ولد . [١٩ و]

والوجه الثالث أنْ يكون المعنى أنه تعالى لا يقطع عنكم فضلَه وإحسانه حتى تَملّوا من سؤاله ، ففِعْلهم مَلَلٌ على الحقيقة، وسمّى فِعله تعالى مللا ، وليس بملل على الحقيقة للازدواج

---

(١) حاشية الأصل : « آرابهم : جمع أرب ؛ وهو الحاجة » .

(٢) البيت فى (الأغانى ٢ : ٣٣) ؛ وفى حاشية الأصل : « أودى ، إذا هلك » .

(٣) ديوانه : ٦ ؛ والرواية فيه : « السمر النواهل » .

(٤) ديوانه ٥٠٣ ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « الجديل : زمام من الأدم » .

ومشاكلة اللفظين(١) فى الصورة، وإن اختلفا فى المعنى، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾؛ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾؛ [الشورى: ٤٠]. ومثله قول الشاعر — وهو عمرو بن كُلثوم التغلبى:

أَلاَ لاَ يَجْهلَنْ أحدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينا(٢)

وإنما أراد المجازاةَ على الجهل، لأن العاقلَ لا يفخَر بالجهل ولا يتمدّح به.

والوجه الرابع أن يكون الراوِى وهِمَ وغلِط من الضم(٣) إلى الفتح: وأنْ يكون قوله «يمَلُّ» بالضمّ لا بالفتح، وعلى هذا يكون له معنيان: أحدهما أنه لا يعاقبكم بالنار حتى تمَلوا عبادته(٤) وتُعرِضوا عن طاعته، لأن المَلّةَ هى مشتوَى الخبز؛ يقال: ملَّ الرجلُ الخُبزَةَ(٥): وغيرها يَمُلُّها ملاًّ إذا اشتواها فى الملّة. وقيل: إنَّ الجمرَ لا يقال له مَلّة حتّى يخالطه رماد؛ والمعنى الثانى أن يكون أراد أنه لا يُسْرِع إلى عقابكم(٦)، بل يحلُم عنكم ويتأنّى بكُمْ حتى تملُّوا حلمَه، وتستعجلُوا عذابَه، بركوبكم المحارم وتتايُعكم(٧) فى المـآثِم(٨).

***

(١) ت، وحاشية ف (من نسخة): «اللفظين». (٢) من المعلقة ص ٢٣٨ بشرح التبريزى.

(٣) فى الأصل: «فى الفتح إلى الضم»، وفى ت، د، ف: «من الفتح إلى الضم»، والتصويب من حواشى الأصل، ت، ف. (٤) ت، د، ف: «من عبادته».

(٥) الخبزة: العجينة توضع فى الملة حتى تنضج، وفى حاشية الأصل (من نسخة): «الخبز».

(٦) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «رفقا بكم». (٧) فى حاشيتى الأصـل، ف: «التتايع: التمادى فى الشر؛ يقال: تتايع فى الخير، وتتايع فى الشر».

(٨) حاشية ف: «قيل فى هذا الخبر إن معناه أن الله لا يمل وإن ملوا؛ ومثله قول الراجز:

نَحْنُ بنِى ضَبَّةَ لا نَفِرُّ ... حتى نَرَى جَماجمًا تَخِرُّ

يريد: لا نفر وإن خرت جماجما؛ أى لا نفر أصلا. وقول الشاعر فى بعض الروايات:

ولم تُشارِكْكِ عِندى بَعْدُ غانِيَةٌ ... لا والذى أَصبحَتْ عِندى لَهُ نِعَمُ

حتى أَمُرَّ على الشَّقْرَاء مُعْتَسِفًا ... خَلَّ النَّقَا بمَرُوحٍ لَحْمُهُ زِيَمُ

فسر ذلك على أنه لم يشاركك لا وهو حتى أمرّ على الشقراء، ولا يريد أنه إذا حل ذلك الموضع شاركتك غانية».

[قال المرتضى رضي الله عنه] : روى أنه قيل للفرزدق : هل حسدْتَ أحدا على شيء من الشعر ؟ فقال : لا ، لم أحسُدْ على شيء منه إلاّ ليلى الأخيلية في قولها[١] :

وَمُخرَّقٍ عنْهُ القميصُ تخالُهُ ... بين البيُوتِ منَ الحياءِ سَقيما[٢]
حتى إذا بَرَزَ اللِّواءُ رأيتَهُ ... تَحْتَ اللِّواءِ على الخميسِ زَعيما[٣]
لا تَقرِبَنَّ الدَّهْرَ آلَ مُطرِّفٍ ... لا ظَالِماً أبداً ولاَ مَظلوماً[٤]

ـ ويروى : « إن ظالما أبدا وإن مظلوما » ـ

على أنني قد قلت :

وَرَكْبٍ كأنَّ الريحَ تَطْلُبُ عندَهمْ ... لَهَا تِرَةً منْ جذْبِها بالعصائبِ[٥]
[١٩ ظ] /سَرَوْا يَخْبِطُونَ اللّيلَ وَهْيَ تَلُفُّهمْ ... إلى شُعَبِ الأكْوَارِ منْ كلِّ جانبِ[٦]
إذَا أبصرُوا ناراً يقُولونَ ليْتَهَا ... وَقَدْ خَصِرَتْ أيديهمُ نارُ غالبِ[٧]

وليس أبياتُ الفرزدق بدون أبياتِ ليلَى ، بل هي أجزَلُ ألفاظًا، وأشدُّ أسراً ، إلا أن أبياتَ ليلى أطبعُ وأنصع؛ وقد كان الفرزدقُ مشهورا بالحسَد على الشعر والاستكثار لقليله والإفراط في استحسان مستحسَنِه .

═ والبيتان في الحماسة بشرح التبريزي ٣ : ١٣٣ ، من قصيدة لزياد بن حمل ؛ ويعنى بالشقراء فرسه . والاعتساف : الأخذ في السير على غير هداية ولا دراية . والخل : الطريق في الرمل ، والنقا : الرمل . والمروح : النشيط ، والزيم : المكتنز اللحم » .

(١) من أبيات في (الحماسة ـ بشرح التبريزي ٤ : ١٠٠ ـ ١٠٧) ؛ مطلعها :

يأيُّهَا السَّدِمُ المُلَوِّي رأسَهُ ... لِيَقُودَ مِنْ أهلِ الحِجازِ بَرِيَّا

(٢) حاشية (من نسخة) : « وسط البيوت » ، وهي رواية الحماسة .

(٣) م : « رفع اللواء » ، وهي رواية الحماسة . والخميس : الجيش ، سمى بذلك لأنه يكون خمس كتائب ، أو خمسة صفوف : المقدمة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب ، والساق .

(٤) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « لا تقربن الدهر » ؛ وهي رواية الحماسة . وفي حاشية الأصل: « لا ظالما أبدا ؛ لأنهم لا يحتملون ظلمك ، ولا مظلوماً لأنك لا تقدر أن تنتصر منهم » .

(٥) ديوانه ١ : ٣٠ ، والترة : الثأر ، والعصائب : جمع عصابة ؛ وهي العمامة تعصب على الرأس .

(٦) حاشية الأصل : « الشعب : جمع شعبة ، أي جوانب الأكوار ، والأكوار : جمع كور ؛ وهو الرحل» . (٧) حاشية ت (من نسخة) : « آنسوا ناراً » . خصرت : بردت، وغالب أبو الفرزدق.

وقد روى أن الكُمَيت بن زيد الأسدىّ لما عرض على الفرزدق أبياتاً من قصيدته التي أولها :

أَتَصْرِمُ الحَبْلَ حَبْلَ البِيضِ أَمْ تَصِلُ ... وكيف والشَّيْبُ في فَوْدَيْكَ مُشْتَعِلُ

لما عبأْتَ لِقَوْسِ المَجْدِ أَسْهُمَهَا ... حيثُ الجدودُ على الأَحْسَابِ تَنْتَضِلُ،[1]

أَحْرَزْتَ من عَشْرِهَا تِسْعاً وَوَاحِدَةً ... فَلاَ العَمَى لكَ مِنْ رَامٍ وَلاَ الشَّلَلُ،[2]

الشَّمْسُ أُمُّكَ إِلاَّ أَنَّهَا امْرَأَةٌ ... وَالبَدْرُ أَبُوكَ إِلاَّ أَنَّهُ رَجُلُ،[3]

حسده الفرزدق ، فقال له : أنت خطيب ، وإنما سلّم له الخطابة ليخرجه عن أسلوب الشعر . ولما بهره من حُسن الأبيات وأفرط بها إعجابُه، ولم يتمكن من دفع فضلها جملة عَدَل في وصفها إلى معنى الخطابة[4] .

---

(١) في حاشيتي الأصل ، ف : « عبأت : هيأت ، والجدود ، جمع الجد ؛ وهو البخت ، وتنتضل : تناضل وترامي » . (٢) في حاشيتي الأصل ، ف : « يقال للرأى المصيب : لا عمى ولا شلل » .

(٣) في حاشيتي الأصل ، ف : « يعني أن أباك البدر وأمك الشمس ، وإلا تقرير » .

(٤) حاشية ف : « حدث إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى عن عبد الله بن إسحاق بن سلام قال : أتى الكميت باب مجلس يزيد بن المهلب يمتدحه ، فصادف على بابه أربعين شاعرا ؛ فقال للآذن : استأذن لى على الأمير ؛ فاستأذن له عليه ، فأذن له ، فقال : كم رأيت بالباب من شاعر ؟ قال : أربعين شاعرا قال : فأنت جالب التمر إلى هجر ، فقال : إنهم جلبوا دقلا ، وجلبت زاذا ، فقال : هات زاذك ، فأنشده :

هَلاَّ سَأَلْتَ مَنَازِلاً بالأَبْرَقِ ... دَرَسَتْ وكيفَ سُؤَالُ مَنْ لم يَنْطِقِ !

لَعِبَتْ بِها رِيحانِ : رِيحٌ عَجَاجَةٌ ... بالسَّافِيَاتِ من التُّرَابِ المعنق

والهيفُ رائحةٌ لَهَا بِنْتَخِهَا ... طَفَلَ المشيَ بذي حَنَاتِمَ شُرَّقِ

تصِلُ اللَّقَاحَ إلى النتاج مربَّةٌ ... لخفوقِ كَوْكَبِهَا وَإِنْ لم يَخْفِقِ

غَيَّرْنَ عهدكَ بالدِّيارِ وما يَكُنْ ... رهنَ الحوادثِ من جديدٍ يَخْلَقِ

إلاّ خوالدَ في المحلّةِ بينها ... كالطَّيْلَسَانِ مِنَ الرَّمَادِ الأَوْرَقِ

وَمُشَجَّجاً تَرَكَ الولائدُ رأسَه ... مثلَ السَّوالفِ ودمنةً كالمهْرَقِ =

وحسدُ الفرزدق على الشعر وإعجابه بجيده من أدلّ دليل على حسن نقده له وقوة بصيرته فيه ، وأنّه كان يطرَبُ للجيّد منه فضلَ طرب ، ويعجب منه فضل عجب . ويدلّ أيضاً على إنصافه فيه ، وأنه مستقلٌّ للكثير الصادر من جهته ، فإن كثيراً من الناس قد يبلغ بهم الهوى في الإعجاب والاستحسانِ لما يظهر منهم في شعر أو فضل إلى أن يسموا عن محاسن غيرهم فيستقلّوا منهم الكثير ، ويستصغروا الكبير .

ولأبيات الفرزدق التي ذكرناها خبر مشهور متداول ، أخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانيّ قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال أخبرنا أبو عبيدة عن يونس قال : دخل الفرزدق على سليمان[1] بن عبد الملك وعنده نُصيب الشاعر ، فقال له سليمان أنشِدْنِي ، فأنشده الأبيات التي تقدم ذكرها ، فاسودّ وجه سليمان وغاظه / فمُه ، وكان يظن أنه ينشده [٢٠ و]
مديحاً له ، فلمّا رأى نُصيب ذلك قال : ألا أنشدُك ؟ فأنشده :

= دارُ التي تَركَتْك غيرَ ملومةٍ دَنِفاً فإن لم تَرعَ قلبك فاشفِقِ
قد كنت قبلُ تتوقُ من هِجرانِها فاليوم إذ شَحَطَ المزارُ بها تَقِ
والحبُّ فيه حرارةٌ ومرارةٌ سائلْ بذلك من تَطعَّمَ أو ذُقِ
ماذاق بُؤسَ معيشةٍ ونعيمِها فيما مضى أحدٌ إذا لم يعشقِ

حتى بلغ إلى قوله :

مَنْ قال بتْ أخا الهموم ومَنْ يبت غَرضَ الهمومِ ونَصْبِهِنّ يُؤرَّقِ
بشِرتُ نفسي إذ رأيتُك بالغنى ووثقتُ حين سمعتُ قولَك لي ثِقِ

فأمر بالخلع عليه حتى استغاث ؛ فقال : أتاك الغوث ، ارفعوا عنه » .

(١) حاشية ف : « قيل : بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقوش ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ؛ فقرأه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو أبصرت قليل مابقي من أجلك لزهدت في طول أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ؛ واقصرت عن حرصك وحيلك ؛ وإنما يلقاك غدا ندمك ، وقد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ؛ فبان منك الولد القريب ، ورفضك الوالد والنسيب ؛ فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا في حياتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة فبكى سليمان » .

أقولُ لِرَكْبٍ قافلينَ لَقيتُهُمْ ... قَفَا ذاتِ أوْشَالٍ ومَوْلاكَ قارِبُ[١]

قِفُوا خبِّرُونى عن سُليمانَ إنّنى ... لِمعروفِهِ من أهلِ وَدَّانَ طالِبُ[٢]

فعاجُوا فأثْنَوْا بالّذِى أنتَ أهلُهُ ... ولو سكتُوا أثْنَتْ عليْكَ الحقائِبُ[٣]

فقال له سليمان : أنت أشعر أهل جِلْدَتك[٤] ؛ وفى بعض الأخبار أنّ الفرزدقَ قال ذلك فى نُصَيْب حين سأله عنه سليمان .

وروى أيضاً أنه لما أنشد نُصَيْبٌ أبياته قال له سليمان: أحسنتَ، ووصلَه[٥] ولم يصل الفرزدق فخرج الفرزدق وهو يقول:

---

(١) قفاذات أوشال : خلف هذا الموضع ؛ والأوشال : جمع وشل ، بالتحريك ؛ وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخر . وفى حاشيتى الأصل ، ف : « فى ديوانه : ذات أوشان ؛ بالنون » . وفى معجم ما استعجم للبكرى : ٢١٢ : « ذات أوشال : موضع بين الحجاز والشام » وذكر البيت . وأراد بالمولى نفسه ؛ والقارب : طالب الماء ليلا .

(٢) ودان ، بفتح الواو : قرية بين مكة والمدينة ، قريبة من الجحفة ؛ وفى حاشيتى الأصل ، ت : « يعنى أنا من أهل ودان ، وهى أرض للعرب » .

(٣) وبعده :

فقالوا تركْناهُ وفى كلِّ ليلةٍ ... يُطيفُ به من طالبى العُرْفِ راكِبُ

ولو كان فَوْقَ النّاس حَىٌّ فعالُه ... كفعلك أو للفعلِ منك مُقارِبُ

لقلنا له شِبْهٌ ولكن تعذّرَتْ ... سواكَ عن المستشفعين المطالبُ

هو البدرُ والنّاس الكواكبُ حولَه ... ولا يُشْبه البدرَ المنيرَ الكواكبُ

(٤) الخبر فى (الكامل ــ بشرح المرصفى ٢ : ٢١٧ ــ ٢١٨ ، والشعر والشعراء ٣٧٢ ــ ٣٧٣ ، واللآلى ٢٩١ ــ ٢٩٢) ، والأبيات فى (البيان والتبيين ١ : ٨٣ ، وأمالى القالى ١ : ٩٤ ، ومعجم البلدان ٨ : ٥٠٠ ؛ ولكنه لم يذكر « ذات أوشال » فى موضعها) .

(٥) حاشية ف : « حدث محمد بن أحمد عن محمد بن عبدالله عن معاذ صاحب الهروى قال: « دخلت مسجد الكوفة ، فرأيت رجلا لم أر قط أنقى ثيابا منه ، ولا أشد سوادا ، فقلت له : من أنت ؟ فقال: أنا نصيب ، فقلت : أخبرنى عنك وعن أصحابك ، فقال : جميل إمامنا ، وعمر أوصفنا لربات الحجال ، وكثير أبكانا على الأطلال والدمن ، وقد قلت ما سمعت . قلت : فإن الناس يزعمون أنك لاتحسن أن تهجو ، قال: فأقروا لى أنى أحسن المدح ؟ قلت : بلى ، قال : ولكنى رأيت الناس رجلين : رجلا لم أسأله فلاينبغى أن أهجوه ، ورجلا سألته فمنعنى ، فكانت نفسى أحق بالهجا ؛ إذ سولت لى أن أطلب منه » .

وَخَيْرُ الشِّعْرِ أَكْرَمُهُ رِجَالاً وَشَرُّ الشِّعْرِ ما قالَ العَبِيدُ[١]

ولا شبهةَ فى أنّ أبيات الفرزدق مقدمةٌ فى الجزالة والرَّصانة على أبيات نُصيب ؛ وإنْ كان نُصَيْب قد غرّب[٢] وأبدَع فى قوله :

* ولوْ سَكَتُوا أثْنَتْ عليكَ الحَقائِبُ *

إلاّ أنّ أبيات نُصَيب وقعتْ موقعها ، ووردتْ فى حال تَليق بها ، وأبيات الفرزدق جاءتْ فى غير وقتها وعلى غير وجهها ؛ فلهذا قُدِّمت أبيات نُصيب .

والفرزدق مع تقدُّمه فى الشعر وبلوغه فيه إلى الذِّرْوة العليا ، والغاية القصوى شريف الآباء ، كريمُ البيت ، له ولآبائه مآثر لا تُدْفع ، ومفاخِرُ لا تجحد . والفرزدق لقبٌ لُقِّبَ به ، وليس باسمه ، وإنما لُقِّب بذلك لجَهامة وجهه ، وغِلَظه ؛ لأنّ الفرزدقة هى القطعة الضخمة من العجين ، وقيل : إنها الخُبْزة الغليظة التى يتخذ منها النساء الفَتوتَ[٣]، واسمه هَمام بن غالب ، وكُنيته أبو فِراس ، وقيل إنّه كان يُكْنَى فى شبابه بأبى مكّية[٤] وهى أغرَب كُنْيَته[٥].

وكان شيعيًّا[٦] مائلا إلى بنى هاشم ، ونَزَعَ فى آخر عمره عما كان عليه من القذف[٧]

---

(١) فى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « أشرفه قولا » ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « يعنى أن نصيبا حبشى مملوك » . (٢) ل ، ونسخة فى حاشيتى ت ، ف : « أغرب » .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الفتوت والفتيت بمعنى » .

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « كان يكنى أبا مكية ، ومكية بنته ، وذكر ذلك فى شعر له فقال :

شاهدُ إذَا مَا كُنْتَ ذامَخْمِيَّةْ بِدارِىَ أُمُّهُ ضَبيَّةْ

صَمَخْمَخٍ مثلِ أبى مَكّيَّةْ

ــ الصمخمخ : العظيم الرأس ، وأبو مكية يعنى نفسه » .

(٥) ش : « أعرف كنيته » .

(٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « النسبة إلى الشيعة شيعى ، بكسرة صحيحة على الشين ؛ كما تنسب إلى الجيزة جيزى ، والجيزة محلة بمصر ؛ منها أبو الربيع الجيزى » .

(٧) حاشية ت (من نسخة) : « من القرف » ، والقرف : الرمى بالسوء .

والفسق، وراجع طريقةَ الدين، على أنه لم يكن فى خلال[١] فسقه منسلِخاً من الدّين جملة، ولا مُهْملا لأمرِه أصلا .

ومما يشهدُ لذلك ما أخبرَنا به علىّ بن محمد الـكاتب عن أبى بكر محمد بن يحيى الصولىّ عن أبى حفص الفلاّس عن عبد الله بن سوّار/ عن معاوية بن عبد الـكريم عن أبيه قال : [٢٠ ظ] دخلتُ على الفرزدق ، فجعلت أحادثه ، فسمعت صوت حديد يتقعقع ، فتأملت الأمر ، فإذا هو مقيّد الرِّجْل[٢] ، فسألتُه عن السبب فى ذلك ، فقال : إنى آليتُ على نفسى ألاّ أنزِع القَيْد من رجلى ، حتى أحفظَ القرآن .

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانى قال أخبرنى أبو ذَرّ القراطيسىّ قال حدثنا ابن أبى الدّنيا قال حَدّثنى الرِّياشىُّ عن الأصمعىّ عن سلام بن مسكين قال : قيل للفرزدق : عَلاَمَ تقذِف المحصَنات ؟ فقال: واللهِ ، للهُ أحبّ إلىّ من عينىّ هاتين ، أفتراه يعذّبنى بعدها[٣] ! .

وروِى أنه تعلّق بأستار الـكعبة ، وعاهد الله على ترك الهجاء، والقذْف اللّذَيْن كان ارتـكبهما ، وقال:

أَلَمْ تَرَنى عاهدتُ رَبِّى وإنّنى ... لَبَيْنَ رِتَاجٍ قائمًا ومَقامِ[٤]

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « حال » .   (٢) حاشية ت (من نسخة) : « الرجلين » .

(٣) حاشية ف : « ذكر المبرد فى كتابه قال: دخل لبطة بن الفرزدق على أبيه وهو محبوس فى سجن مالك بن المنذر بن الجارود ؛ ومالك عامل على البصرة لخالد بن عبد الله القسرى ؛ فقال له : يا أبت ؛ هذا عمر بن يزيد الأزدى ضرب آنفا ألف سوط ومات ، فشد على حمار ، فقال الفرزدق : كأنك والله بمثل هذا الحديث قد تحدثت به عن أبيك — والحسن إذ ذاك محبوس عنده — فقال له : يا أبا فراس، فما عندك إن كان ذلك ؟ فقال : والله يا أبا سعيد، لله أحب إلىّ من سمعى وبصرى ، ومن مالى وولدى ، ومن أهلى وعشيرتى؛ أفتراه يعذبنى ! فقال الحسن : كلا والله يا أبا فراس » .

وانظر الخبر فى (الكامل — بشرح المرصفى ٢ : ٧٦ — ٧٧) .

(٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الرتاج : الباب المغلق ، والباب العظيم أيضا قائما ، حال بما يدل عليه لبين » وفى ت ، د : « قائم » .

عَلَى حَلْفَةٍ لاَ أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِماً ... وَلاَ خَارِجاً مِنْ فِيَّ زُورُ كَلاَمِ (١)
أَطَعْتُكَ يا إِبْلِيسُ سَبْعِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا انْقَضَى عُمْرِي وَتَمَّ تَمَامِي (٢)
فَزِعْتُ إِلَى رَبِّي وَأَيْقَنْتُ أَنَّنِي ... مُلاَقٍ لأَيَّامِ الْحُتُوفِ حِمَامِي (٣)

وروَى الصُّولىّ عن الحسين بن الفيّاض عن إدريس بن عمران قال : جاءنى الفرزدقُ ، فتذاكرنا رحمةَ الله وَسعَتَها ؛ فكان أوثقَنا بالله ، فقال له رجل : ألك هذا الرجاء والمذهبُ وأنت تقذِف المحصَنات ، وتفعلُ ماتفعل ! فقال : أترونى لو أذنبتُ إلى أبوىّ ، أ كانا يقذفانى

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « قال مولانا السيد : خارجا ، تقديره : ولا يخرج خروجاً ؛ وذهب عيسى بن عمر إلى أنه فى موضع الحال ؛ لأن قوله : لا أشتم نصب على الحال ؛ كأنه قال : عاهدت لا شاتما ولا خارجا . وقال أبو سعيد : تقديره : عاهدت على أن أحلف لا شاتما ولا خارجا ؛ وهو حال من التاء فى عاهدت ، أو المحذوف من المصدر ؛ وهو الفاعل . وسيبويه يجعل لا أشتم جواب القسم ؛ ولا موضع له من الإعراب ، والقسم عاهدت . فقوله : ولا خارجا ، أى لا يخرج خروجا ؛ وهو معطوف على لا أشتم » .
وفى حاشية ف أيضاً : « ذكر المبرد فى كتابه الكامل فى قوله :

* ولا خارجا من فىّ زور كلام *

إنما وضع اسم الفاعل موضع المصدر ، أراد : لا أشتم الدهر مسلما ، ولا يخرج خروجا من فىّ زور كلام ؛ لأنه على هذا أقسم ، والمصدر يقع فى موضع اسم الفاعل ؛ يقال : ماء غور ، أى غائر ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ ؛ ويقال : رجل عدل ، أى عادل ، فعلى هذا جاء المصدر على فاعل ؛ كما جاء اسم الفاعل على المصدر ؛ يقال : قم قائما ؛ فيوضع موضع قولك : قم قياما ؛ قال : وكان عيسى بن عمر يقول : إنما قوله لا أشتم حال ، فأراد : عاهدت ربى فى هذه الحال ، وأنا غير شاتم ولا خارج من فىّ ... ولم يذكر الذى عاهد عليه » .

وانظر (الكامل — بشرح المرصفى ٢ : ٨١ — ٨٣) .

(٢) د ، ومن نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « تسعين » ، وفى حاشية الأصل ، ف : « أى بلغت غايتى ؛ وإضافة التمام إلى التمام ترد على معنى التأكيد كما قال الشاعر : « جن جنونها » ، والجنون لا يجن ، وإنما المرء يجن ؛ وكما قال :

جُنُونُكَ مَجْنُونٌ وَلَسْتَ بِوَاجِدٍ ... طَبِيباً يُدَاوِي مِنْ جُنُونِ جُنُونِي

(٣) ش ، ف : « فررت » ، والأبيات فى (ديوانه ٢ : ٧٧٠) .

فى تنُّور ، وتطيبُ أنفُسُهما بذلك ؟ قالا : لا ، بل كانا يَرْحمانك ، قال : فأنا والله برحمة ربِّى أوثقُ منى برحمتهما .

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانىّ قال حدثنا محمد بن إبراهيم[1] قال حدثنا عبد الله بن أبى سعد[2] الورّاق قال حدّثنى محمد بن محمد بن سليمان الطُّفاوِىّ[3] قال : حدثنى أبى عن جدى قال : شهدتُ الحسنَ البصرىّ فى جنازة النَّوار (امرأة الفرزْدق)ـ وكان الفرزدق حاضراً ـ فقال له الحسن وهو عند القبر : يا أبا فِراس ، ما أعددتَ لهذا المَضْجع ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله مذ ثمانون سنة ، فقال له الحسنُ : هذا العمودُ فأينَ الطُّنُب ! . وفى رواية أخرى أنه قال له : نِعْمَ ما أعددتَ ، ثم قال الفرزدق فى الحال :

/أخافُ وَرَاءَ القَبْرِ ـ إنْ لمْ يُعافِنى ـ   أشَدَّ منَ المَوْتِ التهاباً وَأضْيقا[4] [٢٠ و]
إذَا جاءَنى يومَ القِيامَـةِ قائدٌ   عَنيفٌ وَسوّاقٌ يَسُوقُ الفرَزْدقَا
لقدْ خابَ منْ أوْلادِ آدمَ منْ مَشَى   إلى النَّارِ مَغْلولَ القِلادَةِ أزْرقَا[5]
يُقادُ إلى نارِ الجَحيمِ مُسَرْبَلاً   سَرابيلَ قِطْرَانٍ لباساً مُحرَّقَا

قال : فرأيتُ الحسنَ يدخلُ بعضُه فى بعض ، ثم قال : حسبُك . ويقال إن رجلاً رأى الفرزدقَ بعد موته فى منامه ، فقال له ما فعلَ بك ربُّك ؟ فقال : عفا عنى بتلك الأبيات[6] .

(١) حاشية ت (من نسخة) : « محمد بن محمد بن إبراهيم » .

(٢) د ، ونسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « سعيد » .

(٣) حاشية الأصل : « الطفاوى : منسوب إلى طفاوة ؛ وهم قوم » .

(٤) الأبيات فى ديوانه ٢ : ٥٢٨ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات ؛ وفى نسخة بحواشى الأصل ، ف ، ت : « أشد من القبر » ؛ وهى رواية الديوان .

(٥) ف : « مشدودالقلائد » ، وهى رواية الديوان .

(٦) حاشية ف : « زعم بعض التميمية أن الفرزدق رئى فى النوم فقيل له : ماصنع ربك ؟ فقال : غفرلى ؛ قيل له : بأى شىء ؟ قال : بالكلمة التى نازعنيها الحسن البصرى على شفير القبر » . وفيها أيضا : « فى الكامل ، كان الفرزدق يخرج من منزله فيرى بنى تميم والمصاحف فى حجورهم فيسر بذلك ويجذل له =

وأما ما يدلُّ على تشيّعِه وميله إلى بني هاشم ما أخبرَنا به أبو عبيد الله المرزُبانيّ قال حدثني عمر بن داود العُمانيّ قال حدثنا محمد بن زكريا[1] الغَلاَبيّ قال حدثنا مهديّ بن سابق قال حدثنا أبو لبيد قال : جاء الكميتُ إلى الفرزدق فقال : ياعمّ إني قد قلت قصيدةً أريدُ أن أعرِضَها عليك ، فقال له : قل ، فأنشده :

* طَرِبْتُ وَمَاشَوْقًا إلى البِيضِ أَطْرَبُ *

فقال له الفرزدق : إلى مَنْ طربت ، ثَكِلَتْكَ أُمُّك ! فقال :

* وَلاَ لَعِباً مِنِّي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ *

ولم تُلْهِنِي دَارٌ وَلاَ رَسْمُ مَنْزِلٍ ... وَلَمْ يَتَطَرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ

= ويقول: إيه فدى لـكم أبي وأمي ! كذا والله كان آباؤكم ، قال : ونظر أبو هريرة الدوسي إلى الفرزدق فقال : مهما فعلت فقتلك الناس عليه ، فلا تقنط من رحمة الله ، ثم نظر إلى قدميه فقال : إني أرى لك قدمين لطيفين ؛ فابغ لهما موقفا صالحا يوم القيامة » .

و (انظر الـكامل — بشرح المرصفي ٢ : ٧٩) .

(١) حواشي الأصل ، ف ، ت : « الغلابي : منسوب إلى غلاب ، اسم امرأة ؛ وكان شيعيا » . وفي حاشية ف أيضا : « حدث الغلابي عن محمد بن عبد الله عن علي بن محمد قال : قال أنوشروان لبزرجمهر لما أراد قتله : إني قاتلك ؛ فتـكلم بشيء تذكر به ؛ فقال : أيها الملك ، إن الدنيا حديث حسن وقبيح ؛ فإذا استطعت أن تـكون حديثا حسنا فـكنه ، قال ابن عبد الله : وذكر هذا الـكلام لابن عائشة فقال : صدق ، هو والله من قوله تعالى : ﴿ واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ ، وأنشد ابن عائشة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّاسَ تَخْلُدُ بَعْدَهُمْ ... أَحَادِيثُهُمْ والمَرْءُ لَيْسَ بِخَالِدِ

وقال أيضا :

وإذا الفَتَى لاَقَى الحِمَامَ رَأَيْتَهُ ... لَوْلاَ الثَّنَاءُ كَأَنَّهُ لَمْ يُولَدِ

وروى محمد بن زكريا الغلابي : كان مزيد يكنى أبا إسحاق ، وكانت له نوادر ؛ فبينا هو ذات يوم جالس إذ جاءه أصحابه فقالوا : ياأبا إسحاق ، هل لك في الخروج بنا إلى العقيق ، وإلى قباء ، وإلى أحد ؛ ناحية قبور الشهداء ؟ فإن هذا يوم كما ترى طيب ؛ فقال : اليوم يوم الأربعاء ، ولست أبرح من منزلي ، فقالوا له : ماتـكره من يوم الأربعاء وفيه ولد يونس بن متى ؟ فقال : بأبي وأمي صلى الله عليه وآله ! وقد التقمه الحوت ، فقالوا : يوم نصر فيه يوم الأحزاب ، فقال : أجل ! ، ولـكن بعد إذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر » .

فقال له : إلى من طربت ؟ فقال :

وَلاَ أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرَ ، هَمُّهُ : أَصاحَ غُرابٌ أَمْ تَعَرَّضَ ثَعلَبُ[(١)]
وَلاَ السانحاتُ البارِحاتُ عَشِيَّةً أَمَرَّ سليمُ القَرْنِ أم مرَّ أعْضَبُ[(٢)]
وَلَـكِنْ إلى أهْلِ الفَضَائلِ وَالنُّهَى وَخَيْرِ بَنِي حَوَّاء ، والخيرُ يُطْلَبُ

فقال له الفرزدق : هؤلاء بنو دَارِم ، فقال الـكُمَيت :

إلى النَّفَرِ البيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ إلى اللهِ فِيما نَابَنِي أَتَقَرَّبُ

فقال الفرزدقُ : هؤلاء بنو هاشم ، فقال الـكُمَيْت :

بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النبيِّ فإنَّني بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مِرَاراً وَأَغْضَبُ[(٣)]

فقال له الفرزدقُ : والله لو جُزْتَهم إلى سواهم لذهب قولُك باطلا . [٢١ ظ]

ومما يشهدُ لذلك ما أخبرَنا به أبو عبيد الله المرزُبانيّ قال حدثنا الحسن بن محمد قال حدَّثني جدّي يحيى بن الحسن العلويّ قال حدَّثنا الحسين بن محمد بن طالب قال : حدَّثني غير واحد من أهل الأدب أن عليّ بن الحسين عليهما السلام حجّ فاستجهَرَ[(٤)] الناس جمالَه ، وتشوَّفوا له ، وجعلوا يقولون : مَنْ هذا ؟ فقال الفرزدقُ :

---

(١) ت ، د ، حاشية الأصل (من نسخة) : « في المتن ، قال المرتضى رضي الله عنه : يجب الوقوف على الطير » ، ثم يبدأ « بهمه » ليعلم الفرض » . والزجر هنا : التيمن أو التشاؤم بالطير وغيره .

(٢) السانح من الطير : مامر من مياسرك إلى ميامنك ، والبارح عكسه ، وكان العرب يتيامنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح ، والأعضب : مكسور القرن ، وفي ت ، ف بعد هذا البيت : « فقال : إلى من طربت لاأم لك ! فقال الـكميت ... »

(٣) في حاشيتي الأصل ، ف : « أعني بني هاشم ، أو إلى بني هاشم » .

(٤) حواشي الأصل ، ت ، ف : « يقال : جهرت الرجل واستجهرته ؛ إذا رأيته عظيم المرآة ، وما أحسن جهر فلان ! أي مايجتهر من هيئته وحسن منظره ؛ وقيل : اجتهر ؛ أي حلهم بجماله على أن يجهروه عليه السلام ، أي يدركوا جهره » .

هــذا ابنُ خَيرِ عبادِ اللهِ كُلِّهمُ   هَذا التقيُّ النقيُّ الطّاهِرُ العلَمُ
هــذا الذي تَعرِفُ البطحاءُ وَطأتَه   وَالبَيتُ يَعرِفُهُ والحِلُّ وَالحَرَمُ(١)
إذَا رأتْهُ قُرَيْشٌ قالَ قائلُها   إلى مكارمِ هذا يَنتهِي الكَرَمُ
يَكادُ يُمسِكُهُ عِرفانَ راحَتِه   ركنُ الحَطيمِ إذَا ما جاءَ يَستلِمُ(٢)
يُغضِي حَياءً ويُغضَى منْ مَهابَتِهِ   فما يُكلَّمُ إلاّ حِينَ يَبتَسِمُ(٣)
أيُّ القبائلِ لَيستْ في رِقابِهمُ   لأوَّليّـةِ هَذا أوْ له نِعَمُ
من يَعرِفِ اللهَ يعرفْ أوّلِيّةَ ذا   فالدِّينُ من بَيْتِ هذا نالَه الأُمَمُ(٤)

---

(١) البطحاء: أرض مكة المنبطحة، والحل، بالكسر: خارج المواقيت من البلاد، والحرم: ما بين المواقيت المعروفة؛ وأراد بهما أهل الحل والحرم.

(٢) الحطيم: الجدار الذي عليه ميزاب الكعبة، وانتصب «عرفان» على أنه مفعول له، أي يكاد يمسكه ركن الحطيم؛ لأنه عرف راحته. ويستلم، يعني يلمس الحجر الأسود.

(٣) حواشي الأصل، ت، ف: روى أبو الفرج في كتاب الأغاني الكبير هذا البيت: يغضي ... وبيتا آخر وهو:

بكفِّهِ خَيزُرانٌ ريحها عَبِقٌ   من كفِّ أروَعَ في عِرنينِهِ شَمَمُ

للحزين الكناني، قال: مدح بهما الحزين عبد الله بن عبد الملك، وقد حج، وكان أبوه عبد الملك قد وصاه بألا يحجب الحزين لخبث لسانه، ووصفه له بهيئته، فدخل عليه وأنشده البيتين. قال أبو الفرج: والناس يروون هذين البيتين في أبيات الفرزدق التي مدح بها زين العابدين عليه السلام».

وقد ذكر أبو تمام في (الحماسة ـ بشرح التبريزي ٤: ١٦٧ـ١٦٩) الأبيات منسوبة إلى الحزين الليثي. وانظر تفصيل الخبر وتحقيق نسبة الأبيات في (الأغاني ١٤: ٧٤ـ٧٧).

(٤) حاشية ف: «وروي أنه كان عبد الملك بن مروان لما سمع هذا من الفرزدق قال له: أو رافضي أيضا أنت! فقال الفرزدق: إن كان حب آل محمد رفضا فأنا هذاك، فقال عبد الملك: قل فيّ مثل ما قلته فيه، وعليّ أن أضعف عطاءك، فقال الفرزدق: وتجيئني بأب مثل أبيه وأم مثل أمه؛ حتى أقول فيك مثل ما قلته فيه؛ أتقول هذا ولا تستحي من الله عز وجل! مر حتى تسقط اسمي من الديوان جملة، فأسقط عطاءه. فبلغ ذلك علي بن الحسين عليهما السلام، فبعث إليه، فلما أتاه قال: يا أبا فراس؛ خذ مني جميع ما أملكه، ولك الفضل بعد ذلك؛ وما كافأتك بعد! فقال: يا ابن رسول الله، ما قلته فيك لرجاء مثوبة؛ وإن ثوابي على الله، وما أؤمله فيكم عند الله عز وجل أحب إلي من ملك عبد الملك؛ فقال: فكم كان عطاؤه الذي حرمته؟ قال: ألف ومائتان في السنة، فوزن له ثمانية وأربعين ألفا، عطاء أربعين سنة، فأخذها وانصرف».

وفى رواية الغَلابىّ أن هِشام بن عبد الملك حج فى خلافة عبد الملك — أو الوليد — وهو حديث[١] السن، فأراد أن يستلم الحجرَ، فلم يتمكن من ذلك لتزاحم الناس عليه، فجلس ينتظر خَلْوَةً؛ فأقبل على بن الحسين عليهما السلام، وعليه إزار ورداء، وهو مِن أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم ريحاً، بين عينيه سجّادة، كأنها رُكْبَة عَنز، فجعل يطوف بالبيت، فإذا بلغ الحجر تنحَّى الناس له حتى يستلمه، هيبة له وإجلالا. فغاظ ذلك هشاما، فقال رجل من أهل الشام لهشام: مَنْ هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه — لئلا يرغب فيه أهل الشام. فقال الفرزدق — وكان هناك حاضراً —: لكنى أعرِفه، وذكر الأبياتَ، وهى أكثرُ مما رويناه؛ وإنما تركناها[٢] لأنها معروفة.

قال: فغضِب هشام، وأمر بحبس الفرزدق بعُسْفان، بين مكّة والمدينة، وبلغ ذلك علىّ بن الحسين عليهما السلام، فبعث إلى الفرزدَق باثنى عشر ألف درهم وقال: اعذِرنا يا أبا فِراس، [٢٢ و]
فلو كان عندنا فى هذا الوقت أكثر منها لوصلناك به، فردّها الفرزدق وقال: يابن رسول الله، ما قلتُ الذى قلت إلا غضبا لله ورسوله، وما كنتُ لأُرْزَأ[٣] عليه شيئا؛ فردها إليه وأقسم عليه فى قبولها وقال له: قد رأى الله مكانك، وعلِم نيَّتك، وشكر لك، ونحن أهلَ بيت إذا أنفذنا شيئاً لم نرجع فيه؛ فقبِلها، وجعل الفرزدق يَهْجُو هِشاما وهو فى الحبس؛ فما هجاه به قوله:

تُحَبِّسُنى بينَ المدينةِ والّتى ... إليها رقابُ النّاسِ يَهْوِى مُنِيبُها[٤]
يُقلِّبُ رَأْساً لم يكنْ رأسَ سَيِّدٍ ... وعَيْناً لَهُ حَوْلاءَ بادٍ عُيوبُها

(١) د، ف، حاشية ت (من نسخة): « حدث السن ».

(٢) حاشية ت (من نسخة): « تركنا أكثرها ».

(٣) ت: « لأرزأك ». وفى حاشية ف: « يقال: مارزأته شيئا؛ أى لم آخذ منه شيئا ».

(٤) ديوانه ١: ١٠، وفى حاشية الأصل (من نسخة): « يحبسنى »، وحاشية ف (من نسخة): « قلوب الناس يهوى »؛ وهى رواية الديوان.

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل فقال : ماعندكم فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾؛[هود:١١٨، ١١٩].

وظاهرُ هذه الآية يقتضى أنه تعالى ماشاء أن يكونوا أمة واحدةً وأن يجتمعوا على الإيمان والهدَى؛ وهذا بخلاف ماتذهبون إليه؛ ثم قال: ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ فلا يخلو من أن يكون عَنَى أنه للاختلاف خلَقَهم، أو للرحمة ؛ ولا يجوز أن يعنى الرحمة ؛ لأن الكناية عن الرحمة لا تكون بلفظة «ذلك» ؛ ولو أرادها لقال : ولتلك خلقهم ، فلما قال ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ كان رجوعه إلى الاختلاف أولى . وليس يَبْطُلُ حملُ الآية على الاختلاف من حيث لم يكن مذكوراً فيها؛ لأن الرحمةَ أيضا غير مذكورة فيها، وإذا جعلتم قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ دالاًّ على الرحمة فكذلك قوله : ﴿ مُخْتَلِفِينَ ﴾ دالٌّ على الاختلاف ؛ على أن الرحمةَ هى رقةُ القلب والشفقة ؛ وذلك لا يجوز على الله تعالى ، ومَتَى تُعُدِّىَ بها ما ذكرناه ، لم يُعْنَ بهـا إلا العفو وإسقاط الضرر ، وما جرى مجراه[1] عن مستحقّه ، وهذا مما لا يجوز أن يكونوا مخلوقين له على مذهبكم، لأنه لو خلقَهم للعفو لماحسُنَ منه عقاب المذنبين ومؤاخذة المستحقين.

الجواب ، يقال له : أماقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فإنما عَنى به المشيئة التى ينضمّ إليها الإلجاء ، ولم يَعْنِ /المشيئةَ على سبيل الاختيار ، وإنما أراد تعالى أن يخبرَنا عن قدرته ، [٢٢ ظ] وأنه ممن لا يغالَب ، ولا يعصَى مقهوراً ؛ من حيث كان قادراً على إلجاء العبيد ، وإكراههم على ما أراد منهم .

فأما لفظة « ذَلِكَ » فى الآية فحَمْلُها على الرحمة أَوْلَى من حملها على الاختلاف ؛ لدليل

(١) د ، حاشية ت (من نسخة) : « مجراهما » .

العقل وشهادة اللفظ ، فأما دليل العقل فمن حيثُ علمنا أنّه تعالى كَرِه الاختلاف ، والذّهاب عن الدين ، ونهى عنه ، وتوعّد عليه ، فكيف يجوز أن يكون شائيًا له ، ومُجزِيًا(١) بخلق العباد إليه .

وأما شهادةُ اللفظ فلأنَّ الرحمةَ أقربُ الى هذه الكناية من الاختلاف ، وحمل اللفظ على أقربِ المذكورين إليها أوْلَى في لسان العرب .

فأما ما طعَن به السائل ، وتعلّق به من تذكير الكناية ، وأنّ الكناية عن الرحمة لا تكون إلا مؤنثة فباطل ، لأن تأنيثَ الرحمة غير حقيقي ، وإذا كُنِيَ عنها بلفظ التذكير كانت الكنايةُ على المعنى ، لأن معناها هو الفضل والإنعام ؛ كما قالوا : سرّني كلمتك ، يريدون سرّني كلامك ، وقال الله تعالى: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ ؛ [الكهف: ٩٨] ؛ ولم يقل «هذه» ، وإنما أراد هذا فضلٌ من ربي ؛ وقالت الخنساء :

فذَلِكِ يا هِنْدُ الرَّزِيَّةُ فاعْلَمِي ... وَنيرانُ حَرْبٍ حِينَ شَبَّ وَقُودُها(٢)

أرادت الرُّزْء ؛ وقال امرؤ القيس :

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ ... كَخُرْعُوبَةِ البانَةِ المُنْفَطِرْ(٣)

فقال : « المنفطر » ولم يقل المنفطرة ، لأنه ذهب إلى الغصن ؛ وقال الآخر :

هَنِيئًا لِسَعْدٍ ما اقْتَضَى بعد وَقْعَتِي(٤) ... بِناقَةِ سَعْدٍ وَالعَشِيَّةُ بارِدُ

فذكّر الوصف : لأنه ذهب إلى العشيّ ؛ وقال الآخر :

قامَتْ تُبَكِّيهِ على قَبْرِهِ ... مَنْ لِيَ مِنْ بَعْدِكَ يا عامِرُ(٥)

---

(١) في حاشيتي الأصل ، ف : « الإجراء يستعمل في المنكر المذموم ؛ يقال : أجرى عليه فعله ، ولا يقال إلا في الشر » .

(٢) ديوانها : ٥٩ .

(٣) ديوانه : ٨ . البرهرهة : الرقيقة الجلد ، والرؤدة : الرخصة الناعمة ، والخرعوبة : القضيب الغض ، والمنفطر : المنشق .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « وقفتي » .

(٥) البيتان في العقد ٣ : ٢٥٩ ، و ٥ : ٣٩٠ ؛ ونسبهما لأعرابية على قبر ابن لها يقال له عامر .

تَرَكْتَنِى فى الدَّارِ ذَا غُرْبَةٍ[(١)] قَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرُ

فقال: « ذا غربة » ولم يقل ذات غربة ، لأنه أراد شخصا ذا غُرْبة ؛ وقال زياد الأعجم :

[٢٣ و] / إِنَّ الشَّجَاعَةَ والسَّمَاحَةَ ضُمِّنَا قَبْرًا بِمَرْوَ على الطَّرِيق الواضحِ[(٢)]

فقال: «ضمنا» ولم يقل ضُمِّنَتَا ؛ قال الفرّاء: لأنه ذهب إلى أنّ السماحة والشجاعة مصدران، والعرب تقول : قِصارةُ الثوب يُعجبُنى ؛ لأن تأنيث المصادر يرجع إلى الفعل ، وهو مذكر .

وقال الفرزدق :

تَجُوبُ بِنَا الفَلَاةَ إلى سَعِيدٍ إذَا ما الشَّاةُ فى الأَرْطَاةِ قَالَا[(٣)]

فذكّر الوصف ، لأنه أراد التيس؛ فأما الأرطاةُ فهى واحدة الأرْطَى ، وهى[(٤)] شجر يَنْبُتُ فى الرمل تستظل بظلاله الظباء من الحرّ ، وتأوى إليه ، قال الشماخ :

إِذَا الأَرْطَى تَوَسَّدَ أَبْرَدَيْهِ خُدُودُ جَوَازِئٍ بِالرَّمْلِ عِينِ[(٥)]

(١) فى العقد : « لى وحشة » .

(٢) اللآلئ ٩٢١ ؛ وبعده :

فإذا مَرَرْتَ بِقَبْرِهِ فاعْقِرْ بِهِ كُومَ الجِلَادِ وكلَّ طِرْفٍ سَابِحِ

وفى ت ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « إن السماحة والشجاعة » .

(٣) ديوانه ٢ : ٦١٢ ، وروايته : « فروحت القلوص إلى سعيد » .

(٤) فى نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « وهو » .

(٥) ديوانه ٩٤ ، وفى حاشية ت (من نسخة) : « توسط أبرديه » ، وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « قبله :

إليكَ بَعَثْتُ رَاحِلَتِى تَشَكَّى هُزَالًا بعدَ مَقْحِدِها السَّمِينِ

إذ بَرَكَتْ على شَرَفٍ وألقتْ عَسِيبَ جِرَانِهَا كَعَصَا الهَجِينِ

إذا الأَرْطَى . . . .

القحد : أصل السنام ، والشرف : المجد من الأرض ، وعسيب جرانها : صفحة العنق ، والهجين : الراعى ، والجوازئ : التى اكتفت بالرطب عن الماء ، وأبردا الأرطى : الغداة والعشى ؛ وقال خالد بن كلثوم : أبرداه : ظلاه ؛ الظل بالغداة والفئ بالعشى ؛ وقال ابن دريد : معناه أن البقرة تتوسد بالغداة الأرطى الذى يلى المغرب ، فإذا دارت الشمس دارت معها إلى ناحية المشرق تتوسد الغصون التى مالت عنها الشمس » . والعين : جمع عيناء ؛ وهى الواسعة العين .

وقوله: «قالا» من القَيْلولة لا من القول، على أن قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ كما يدلّ على الرحمة يدلّ أيضاً على «أن يرحم» ، فإذا جعلنا الكناية بلفظة «ذلك» عن أن يرحم كان التذكير في موضعه ؛ لأن الفعلَ مذكر، ويجوز أيضاً أن يكون قوله تعالى ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ كناية عن اجتماعهم على الإيمان ، وكونهم فيه أمة واحدة ؛ ولا محالةَ أنّه لهذا خلقهم ؛ ويطابق هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ؛ [الذاريات: ٥٦] .

وقد قال قوم في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ معناه أنه لو شاء أنْ يُدخِلهم أجمعين الجنة ، فيكونوا في وصول جميعهم إلى النعيم أمة واحدة ، وأجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ؛ [السجدة: ١٣]. في أنه أراد: هداها إلى طريق الجنة ، فعلى هذا التأويل أيضاً يمكن أن ترجع لفظة « ذلك » إلى إدخالهم أجمعين إلى الجنة ، لأنه إنما خلقهم للمصير إليها والوصول إلى نعيمها .

فأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ فمعناه الاختلافُ في الدين والذهاب عن الحق فيه بالهوى والشبهات .

وذكر أبو مسلم ابن بحر في قوله : ﴿ مُخْتَلِفِينَ ﴾ وجهاً غريباً وهو أن يكون معناه أن خلَف هؤلاء الكافرين يخلُف سلَفهم في الكفر ، / لأنه سواء قولُك : خالَف بعضُهم بعضاً، [٢٣ ظ] وقولُك : اختلفوا[1] ، وسواء قولُك : قتَل بعضُهم بعضاً ، واقتتلوا ؛ ومنه قولُهم : لا أفعلُ كذا ما اختلفَ العصران والجديدان ، أي جاء كلٌّ واحد منهما بعد الآخر .

فأمّا الرحمةُ فليست رقةَ القلب كما ظنه السائل ، لكنها فعل النِّعم والإحسان ، يدلّ على ذلك أنّ مَنْ أحسنَ إلى غيره ، وأنعم عليه يُوصف بأنه رحيم به ، وإنْ لم يُعلَم منه رقةُ قلب عليه ، بل وصفهم بالرحمة مَنْ لا يعهدون منه رقّةَ القلب أقوى من وصفهم الرقيق القلب بذلك ؛ لأنّ مشقةَ النعمة والفضل والإحسان على مَنْ لا رقّةَ عنده أكثر منها على الرقيق القلب ، وقد علمنا أنّ مَنْ رقّ قلبه لو امتنع من الإفضال والإحسان لم يوصف بالرحمة ، وإذا أنعم

(١) حاشية الأصل : « سمي الاختلاف اختلافاً لأن الكلام يخالف بعضه بعضاً » .

وُصِف بذلك ، فوجب أن يكون معناها ما ذكرناه ؛ على أنه لا يمتنع أن يكون معنى الرحمة فى الأصل ما ذكرتم[١] ، ثم انتقل بالتعارف إلى ما ذكرناه كنظائره . وقد وصف الله تعالى القرآنَ بأنه هُدًى ورحمة من حيث كان نعمة ، ولا يتأتّى فى القرآن ماظنوه[٢] ؛ وإنما وصفت رقة القلب بأنها رحمة ؛ لأنّها ممّا تجاوره الرحمةُ التى هى النعمة فى الأكثر ، وتوجد عنده ، فحلّ محلّ وصف الشهوة بأنّها محبة لمّا كانت توجدُ عندها المحبة فى الأكثر ؛ وليست الرحمةُ مختصةً بالعفو ؛ بل تستعمل فى ضُروب النِّعَم ، وصنوف الإحسان ؛ ألا ترى أنّا نصِفُ المنعِمَ على غيره ، المحسِنَ إليه بالرحمة ، وإن لم يُسقط عنه ضرراً ، ولا تجاوز له عن زَلّة ؛ وإنما سمى العفوُ عن الضرر وما جرى مجراه رحمةً من حيث كان نعمة ؛ لأنّ النعمةَ بإسقاط الضرر تجرى مجرى النعمة بإيصال النفع ، فقد بانَ بهذه الجملة معنى الآية ، وبطلانُ ما ضمنه السائل سؤاله .

فإن قيل : إذا كانت الرحمةُ هى النعمةَ ، وعندكم أن نِعَمَ الله تعالى شاملةٌ للخلق أجمعين ، فأىُّ معنًى لاستثناء ﴿ مَنْ رَحِمَ ﴾ من جملة المختلفين إن كانت الرحمة هى النعمة ؟ وكيف يصحّ اختصاصها بقوم دون قوم وهى عندكم شاملة عامّة ؟

قلنا : لا شبهةَ فى أنّ نِعَم الله شاملة للخلق أجمعين ؛ غيرَ أنّ فى نِعَمِه أيضاً ما يختصُّ بها بعضُ العباد[٣] ، إما لاستحقاق ، أو لسبب يقتضى الاختصاص / فإذا حملْنا قوله تعالى : [٢٤ و]
﴿ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ على النعمة بالثواب ، فالاختصاص ظاهر ، لأن النعمةَ به لا تكون إلا مستحَقّة ، فمن استحقّ الثواب بأعماله وَصل إلى هذه النعمة ، ومَنْ لم يستحقّه لم يصل إليها .

وإن حملْنا الرحمة فى الآية على النعمة بالتوفيق للإيمان واللطف الذى وقع بعده فعل الإيمان كانتْ هذه النعمةُ أيضاً مختصّة ، لأنّه تعالى إنما لم يُنعم على سائر المكلّفين بها ؛ من حيثُ

---

(١) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : ماذكر .

(٢) س : « ظنوه » .

(٣) ت : « الخلق » .

لم يكن فى معلومه تعالى أنّ لهم توفيقاً، وأنّ فى الأفعال مايختارون عنده الإيمان؛ فاختصاص هذه النعم ببعض العباد لايمنع من شُمول نِعَمٍ أُخَرَ لهم؛ كما أن شمولَ تلك النعمِ لا يمنع من اختصاص هذه .

تأويل خبر

روَى أبو مسعود البدرىّ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « ممّا أدركَ النـاسُ من كلام النبوّة الأولى إذا لم تَسْتَحْىِ فاصنع[1] ما شئت » .

وفى هذا الخبرِ وجوهٌ من التأويل ثلاثة :

أحدُها أن يكونَ معناه : إذا عملتَ العملَ للهِ جلّ وعزّ وأنت لا تستحيِي من الناظرين إليك ، ولا تتخوّفهم[2] أن ينسُبوكَ فيه إلى الرياء صنعتَ ما شئت ، لأن فكرَكَ فيهم ومراقبتَك لهم يَقْطعانِك عن استيفاء شروطِ عملِك، ويمنعانِك من القيام بحدوده وحقوقِه ؛ وإذا اطّرحتَ الفِكرَ توفّرت على استيفاء عملك .

والوجه الثـانى أنّ مَنْ لم يَسْتَحْىِ من المعايرِ والمخازى والفضائح صنَع ما شاء ، والظاهر[3] ظاهرُ أمرٍ ، والمعنى معنى تغليظٍ وإنكار ؛ مثل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ؛ [فصلت : ٤٠]، وقوله عزوجل: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ؛ [الكهف: ٢٩]؛ وهذا نهايةُ التغليظ والزجرِ والإخبار عن كِبَرِ[4] الذنب فى اطّراح الحيـاء ؛ ويجرى مجرى قولهم : بعدَ أن فعلَ فلان كذا فليفعل مايشاء ، وبعدَ أن أقدم على كذا فليُقدم على ماشاء؛ والمعنى المبالغةُ فى عِظَم ما ارتـكبه ، وقبحِ[5] ما اقترفه .

والوجه الثالث أن يكونَ معنى الخبر إذا لم تفعل ما تستحيِي منـه فافعل ما شئتَ ؛

(١) حاشية ت (من نسخة) : « فافعل » .
(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « خاف وتخوف بمعنى » .
(٣) حاشية ت (من نسخة) : « فالظاهر » .
(٤) حاشية ت (من نسخة) : « عظم الذنب » .
(٥) ت ، د ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « وقبيح » .

فكأنَّ معنى[1] الخبر إذا لم تفعلْ قبيحاً فافعل ما شئت ، لأنه لا قبيحَ[2] من ضروب القبائح إلا والحياء يصاحبه ، ومن شأْنِ فاعلِه إذا قُرِّع به أن يَستحييَ منه ، فمتى جانب [٢٤ ظ] /الإنسانُ ما يستحَى منه من أفعاله فقد جانبَ سائرَ القبائح ، وما عدا القبيحَ من الأفعال فهو حسن .

ويجرى هذا مَجرى خبرٍ روى فيما أظن عن نبينا عليه السلام أن رجلا جاءه[3] فاسترشده إلى خَصْلة يكون فيها جِمَاع الخير ، فقال له عليه السلام : « أشترطُ عليكَ ألّا تكذِبَني ، ولن أسألَك[4] ما وراءَ ذلك » ، فبان على الرجل تَرْكُ الكذب خاصّة ، والمعاهدةُ على اجتنابه دونَ سائر القبائح ، وشرَط على نفسه ذلك ، فلمّا انصرف جعل كلّما همّ بقبيح يفكّر[5] ويقول : أرأيتُ لو سألني عنه النبي صلى الله عليه وآله ما كنتُ قائلا له ، لأنني إن صدقتُه افتضحتُ ، وإن كذبتُه نقضتُ العهدَ بيني وبينه ؛ فكان ذلك سبباً لاجتنابه لسائر القبائح[6] ، وهكذا معنى الخبر الذى تأوّلناه ؛ لأن فى اجتناب ما يُستَحى منه اجتناباً لسائر القبائح .

---

(١) م : « المعنى » . (٢) م : « لاضرب » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « أتاه » .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « عما » .

(٥) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « يفكر » ؛ بإسكان الفاء وكسر الكاف.

(٦) حاشية ف : « قال السيد الإمام ضياء الدين : وفى رواية أخرى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأسلم ثم قال : أنا أوخذ من الذنوب بما ظهر ، وأنا أستتر بخلال أربع : الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب؛ فأيتهن أحببت تركت ، قال : دع الكذب ؛ فلما تولى من عند النبي صلى الله عليه وآله هم بالزنا ؛ فقال : يسألنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإن جحدت نقضت ماجعلت ، وإن أقررت حددت ، ثم هم بالسرقة ثم بشرب الخمر ؛ فتفكر فى مثل ذلك ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يارسول الله ، تركتهن أجمع . قال السيد : إنما كتبت هذه الرواية هاهنا ؛ لأن هذه مفصلة ، وتلك مجملة ، ولأنى رأيت السيد غير محقق فيما أورده » .

تأويل خبر آخر

روى محمد بن الحنفيّة رحمة الله عليه عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام قال: كان قد كُثِّر على مارِية القِبْطيّة أم إبراهيم فى ابن عم لها قِبطِيّ كان يزورها ، ويختلف إليها ، فقال لى النبي صلى الله عليه وآله : « خذ هذا السيف وانطلق ، فإن وجدتَه عندها فاقتله ». قلت : يا رسول الله ، أكون فى أمرك إذا أرسلتنى كالسِّكّة[1] المحمّاة ، أمضى لما أمرتَنى ، أم الشاهدُ يَرى ما لا يَرى الغائب؟ فقال لى النبي صلى الله عليه وآله : « بل الشاهدُ يَرى ما لا يَرى الغائب » . فأقبلتُ متوشحاً[2] بالسيف ، فوجدتُه عندها ، فاخترطتُ السيفَ ، فلما أقبلت نحوه عرَف أنى أريده ، فأتى نخلة فرقِيَ إليها ، ثم رمى بنفسه على قفاه ، وشغَر برجليه ، فإذا إنه أجبُّ أمسح ، ماله مما للرجال قليل ولا كثير ، قال : فغمدتُ السيف ورجعت إلى النبي صلى الله عليه وآله فأخبرته ، فقال : « الحمدُ لله الذى يصرف[3] عنّا أهلَ البيت » .

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : فى هذا الخبر أحكام وغريب ، ونحن نبدأ بأحكامه ، ثم نتلوها بغريبه .

فأول ما فيه أن لقائل أن يقول : كيف يجوز أن يأمرَ الرسول عليه السلام بقتل رجل على التُّهَمَة[4] بغير بينة ولا مايجرى مجراها؟ والجواب عن ذلك أن القِبْطِيَّ جائز أن يكون من أهل/العهد الذين أخِذ عليهم أن تجرى فيهم[5] أحكامُ المسلمين، وأن يكون الرسول عليه السلام [٢٠ و]
تقدم إليه بالانتهاء عن الدخول إلى مارية، فخالف وأقام على ذلك ، وهذا نقضٌ للعهد، وناقض

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « السكة : الحديدة التى تكون على طرف آلة الفدان ، والفدان آلة الأكرة » . (٢) توشحت بالسيف ؛ إذا تقلدته .

(٣) حاشية ت من نسخة : « صرف » ، و د : « صرف عنا الرجس أهل البيت » ، و ط ، م : « يصرف عنا الرجس أهل البيت » . (٤) فى حواشى الأصل ، ت ، ف : « التهمة ؛ بالتحريك هو الصحيح » . (٥) حاشية ت (من نسخة) : « عليهم » .

العهد من أهل الكفر مؤذِنٌ بالمحاربة ؛ والمؤذِنُ بها مستحقٌ للقتل .

فأما قوله : « بل[1] الشاهد يَرى ما لا يَرَى الغائب[1] » فإنما عنى به رؤية العلم لا رؤية البصر لأنه لا معنى فى هذا الموضع لرؤية البصر ، فكأنه عليه وآله السلام قال : بل الشاهد يعلم ؛ ويصحّ له من وجه الرأى والتدبير ما لا يصحّ للغائب ؛ ولو لم يقل ذلك لوجب قتلُ الرجل على كل حال ، وإنما جاز منه عليه الصلاة والسلام أن يخيّر بين قتله والكفّ عنه ، ويفوض الأمر فى ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام من حيثُ لم يكن قتله من الحدود والحقوق ، التى لا يجوز العفو عنها ، ولا يسعُ إلا إقامتها ، لأن ناقض العهد ممّنْ إلى الإمام القائم بأمر[2] المسلمين إذا قدرَ عليه قَبل التوبة أن يقتلَه ، أوأنْ يمنّ عليه .

ومما فيه أيضا من الأحكام اقتضاؤه أن مجردَ أمرِ الرسول صلى الله عليه وآله لا يقتضى الوجوبَ ، لأنه لو اقتضَى ذلك لما حسُنَت مراجعتُه ولا استفهامه ؛ وفى حسْنها ووقوعها موقعها دلالة[3] على أنها لا تقتضى ذلك .

ومما فيه أيضا من الأحكام دلالتُه على أنه لا بأس بالنظر إلى عورة الرجل عند الأمر يَنْزِل فلا يوجد من النظر إليها بدّ إمّا لحدّ يقام ، أو لعقوبة تَسقط ، لأن العلم بأنه أمْسح أجَبّ لم يكن إلا عن تأمّل ونظر ، وإنما جاز التأمل والنظر لتبيين : هل هو ممّنْ يكون منه ما قُرِف به أو لا ، والواجب على الإمام فيمَن شُهد عليه بالزنا ، وادّعى أنه مجبوب أن يأمرَ بالنظر إليه ، وتبيين أمره ، وبمثله أمر النبى صلى الله عليه وآله فى قتل مُقاتلة بنى قُرَيْظة ، لأنه أمر أن ينظروا إلى مُؤْتَزَر ، وكلّ مَن أشكل عليهم أمره ، فمن وجدوه قد أنبتَ قتلوه ، ولولا جواز النظر إلى العورة عند الضرورة لما قامت شهادة الزنا ؛ لأن من رأى رجلا مع امرأة واقعاً عليها متى لم يتأملْ أمرَهما حقّ التأمل لم تصحّ شهادته ، ولهذا قال النبى

(١ـ١) حاشية ت (من نسخة) : « بل لا يرى الشاهد ما يرى الغائب » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « بأمور » .

(٣) ط : « وفى حسنها ووقعها دلالة .. » ، م : « وفى حسنها ووقعها موقعها » .

صلى الله عليه وآله لسعد بن عبادة ، وقد سأله عمّنْ وَجَد مع امرأته رجلا ، أيقتله ؟ / فقال [٢٠ ظ] صلى الله عليه وآله : لا، حتى يأتى بأربعة شهداء، ولو لم يكن الشهداء إذا حضروا تعمّدُ النظر إلى عورتيهما لإقامة الشهادة كان حضورُهم كغَيْبتهم ، ولم تقمْ شهادة الزّنا ؛ لأنّ من شرطها مشاهدة العضو فى العضو كالمِيل فى المُكْحلة .

فإن قيل : كيف جازَ لأمير المؤمنين الكفُّ عن القتل ، ومِنْ أى جهةٍ آثره لما وجده أجبّ ، وأىّ تأثيرٍ لكونه أجبّ فيما استحقّ به القتل وهو نقض العهد ؟ قلنا : إنه عليه السلام لما فُوِّضَ إليه الأمر فى القتل والكفّ كان له أن يقتلَه على كلّ حال ، وإنْ وجَده أجبّ؛ لأنّ كونَه بهذه الصفة لا يُخرجه من نقض العهد ، وإنما آثَر الكفَّ الذى كان إليه ، ومفوّضاً إلى رأيه ، لإزالة التهمة والشك الواقعين فى أمر مارية، ولأنه أشفق من أن يقتله ، فيتحقّق الظنّ ويلحق بذلك العار ، فرأى عليه السلام أن الكفّ أولَى لما ذكرناه.

فأمّا غريب الحديث[١] فقوله : «شَغَر [٢]برجليه» يريد رفعهما[٢]، وأصلُه فى وصف الكلب إذا رفع رجله للبول ، فأما نكاح الشِّغار[٣] ـ وقد قيل الشَّغار بالفتح ـ فهو أن يزوِّج الرجلُ مَنْ هو وَلِىٌّ لها من بنتٍ أو أختٍ غيرَه ، على أن يزوجه بنتَه أو أختَه بغير مهر . وكان أحدُ العرب فى الجاهلية يقول للآخر: شاغِرْنِى ؛ أى زوّجنى حتى أزوِّجك ؛ وأظنه مأخوذاً من الشَّغْر الذى هو رفع الرجل ، لأن النكاح فيه معنى الشَّغْر ، فسمّى هذا العقد شِغارا ومشاغرة ، لإفضائه فى كل واحد من المزوِّجين[٤] إلى معنى الشَّغْر ، وصار اسما لهذا النكاح كما قيل فى الزنا سِفاح ، لأن الزانيَيْن يتسافحان الماء ، أى يسكُبانه ، والماء هو النُّطفة، ويمكن أن يكون أيضا الماء الذى يغتسلان به ، فكُنِّى بذلك عن الزناء[٥] ثم صار اسمًا له وعلمًا عليه .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « الخبر » . (٢ ـ ٢) حاشية ت (من نسخة) : « برجليه يريد رفعهما » . (٣) ت ، ف : « الشفار ، بالكسر » . (٤) ت ، ف : « المتزوجين » .

(٥) حاشية ف : « الزنا والزناء كلاهما صحيح » .

ومن الشِّعْر الذى هو رَفعُ الرجل قول زياد لابنة معاوية ، وكانت عند ابنه ، فافتخرتْ يوما عليـه ، وتطاولتْ ، فشكاها إلى أبيه زياد ، فدخل عليها بالدِّرّة يضربُها ، ويقول لها أشَنْراً وفَخْراً ! وأما قولُ الفرزدق :

شَغَّارَةٍ تَقِذُ الفَصِيلَ بِرِجْلِها فَطَّارَةٍ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ[1]

[٢٦ و] / فإنه من غريب شعره ، وفسره قال : معنى «شغارة» أنها ترفع رجلها للبول ، وقوله : «تَقِذُ الفصيل برجلها» ، أى تَرْكُله وتدفعهُ عن الدنوّ إلى الرّضاع ، ليتوفّر اللبن على الحلْب ، وأراد « بتقذه »[2] ، أى تبالغ فى إيلامه وضربه ، ومنه الموقوذة[3] ؛ فأما قوله : « فطّارة لقوادم الأبكار » ، فالفَطْرُ هو الحلْب بثلاث أصابع ، والقوادم هى الأخلاف ، وإنما خصّ الأبكار بذلك ؛ لأنّ صغر أحلافها يمنع من حلبها ضَبًّا[4] ، والضبُّ هو الحلْب بالأصابع الأربع[5] ؛ فكأنه لا يمكن فيها لقِصَر أخلافها إلا الفَطْرُ ؛ ومعنى البيت تعييرُه نساءَ جرير بأنهنّ راعيات ، وذلك مما تُعَيَّرُ به العربُ النساء ؛ ألا ترى إلى قوله قبل هذا البيت :

كَمْ عَمَّةٍ لكَ يا جَرِيرُ وخَالَةٍ فَدْعاءَ قد حَلَبَتْ علىَّ عِشَارِى[6]

كُنا نُحَاذِرُ أنْ تُضِيعَ لِقَاحَنَا وَلَهًا إذا سَمِعَتْ دُعاءَ يَسَارِ[7]

ثم تلا ذلك بقوله : شغارة ...

قال سيدنا المرتضى أدام الله علوه : وعندى أن قوله «شغّارة» كناية عن رفع رجلها للزناء ، وهو أشبه بأن يكونَ مرادَه فى هـذا الموضع ، ألا ترى أنه قد وصفها بالوَلَه ، وترْكِ

---

(١) ديوانه ٢ : ٤٥٢ .

(٢) ف حاشية ت (من نسخة) : « تقذ » .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الموقوذة : الشاة التى يرميها الراعى بالعصا فتموت » .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « ضفا ؛ والضف هو الحلب » .

(٥) م : « الأربع كلها » .

(٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الفدع : اعوجاج فى الرند ، وعلى تتعلق بمحذوف ، كأنه قال : متخففة علىّ ، أو قائمة علىّ » ، والعشار : جمع عشراء ؛ وهى الناقة التى أتى عليها من وضعها عشرة أشهر » .

(٧) فى حاشيتى الأصل ، ف : « اللقاح : جمع لقحة ؛ وهى الناقة الحديثة العهد بالنتاج » .

حفظ اللقاح عند سماعها دعاء يَسار ؛ ويَسار اسمٌ لراع ؛ فكأنه قد وصفها بالوَلَه إلى الزّنا والإسراع إليه، وترك حفظ ما استُحفِظتْهُ من اللقاح؛ فالأشبه أن يكون قوله: «شَغارة» ـمع كونه عقيب البيت الذى ذكرناهـ محمولا على ما أشرنا إليه .

فأما قولهم : ذهبوا شغَرَ بغَرَ فليس من هذا فى شىء، وإنما يُراد به أنهم ذهبوا متفرّقين متشتّتين ، ومثله ذهبوا عَباديد وعَبابيد ، وشَماليل وشَمارِير وأيادى[1] سبا ؛ كلّ ذلك بمعنى واحد . ٥

وأما قوله: «فإذا أنه أجبّ»، فيعنى به المقطوعَ الذكَر ؛ لأن الجَبَّ هو القطع ؛ ومنه بعير أجَبّ إذا كان مقطوع السَّنام : وقد ظن بعضُ مَنْ تأول هذا الخبر أن الأمْسَحَ ههنا هو القليلُ لحم الألْيَة ، كالأرْصَع والأرْسَح والأزل[2] ، وهذا غلط، لأن الوصفَ بذلك لا معنى له فى الخبر ، وإنما أراد تأكيد الوصف له بأنه / أجبّ، والمبالغة فيه، لأن قوله : «أمْسَح» يفيد أنه مصْطلِم[3] الذَّكَر ، ويزيد على معنى أجبّ زيادة ظاهرة . [٢٦ ظ]

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانىّ قال حدثنى القاسم بن الحسين الورّاق قال حدثنا سليمان ابن داود الطُّوسىّ قال حدّثنا سوّار بن عبد الله القاضى عن الأصمعىّ قال : دخلتُ على

---

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أيادى ، يجوز أن تكون نصباً على الحال ، وعلى المصدر أيضا ؛ فإذا كان حالا كان التقدير : تفرقوا أمثال أيادى سبا ، وإذا كان مصدرا فالتقدير : تفرقوا تفرق أولاد سبا » . وفى حواشى الأصل ، ت ، ف أيضا : « يقال تفرقوا أيادى سبا ، وفى معناه قولان : أحدهما أنه سبأ بن يشجب، والأيادى : الأولاد ، وفيه إنه من السبى ، ووزنه فعل ؛ وحينئذ ينصرف ، وإنما صار الأولاد أيادى ؛ لأنه يستعان بهم كما يستعان بالأيادى ، والأيادى جمع الجمع ، يد وأيد وأياد » .

(٢) حاشية ف : « الأرصع والأرسح والأزل : قليل لحم الورك » .

(٣) حاشية ف . « مصطلم : مقطوع الذكر » .

الرشيد[1] فى الليل ، فتذاكرنا أحوالَ القمر ، فقلت : العرب تقول للقمر إذا كان ابنَ ليلة: ماأنت ابنَ ليلة[2]؟ قال:رضاعُ سُخَيْلَة،حلَّ أهلُها برُمَيْلَة. قيل له:ماأنت[3] ابنَ ليلتين؟ قال:حديثُ أُمَتَيْن، بكذِب ومَيْن. قيل له : ما أنت ابنَ ثلاث ؟ قال : قليل اللُّبَاث ـ وقيل أيضاً : حديثُ فَتَيات ، غيرِ جدٍّ مؤتلفات ـ قيل له : فما أنت ابنَ أربع ؟ قال : عتمةُ أمّ رُبَع ـ وقيل: عَتَمةُ أم الرُّبَع[4] ـ غيرِ جائع ولا مُرْضَع . قيل له : فماأنت[5] ابنَ خمس ؟ قال : عَشَاءُ خَلِفات قُعْس ـ ويقال : حديث وأُنْس ، ويقال : سرْ ومَسْ[6] ـ قيل له : ما أنت[7] ابنَ ست ؟ قال سرْ وبِتْ ـ وقيل : تحدَّث[8] وبِت ـ قيل له : ما أنت[9] ابنَ

(١) حاشية ف : « حدث عبيد الله بن محمد التيمى قال : أراد الرشيد سفرا ؛ وأمر الناس أن يتأهبوا لذلك ، وأعلمهم أنه خارج بعد الأسبوع ؛ فمضى الأسبوع ولم يخرج ، فاجتمعوا إلى المأمون يسألونه أن يستعلم ذلك ؛ ولم يكن الرشيد يعلم أن المأمون يقول الشعر ؛ فكتب إليه المأمون :

يا خيرَ مَنْ خبَّتِ المطيُّ بهِ ... ومَنْ تقدَّى بسرجِهِ فرسُ
هلْ غايةٌ فى المسيرِ نعرِفُها ... أمْ أمرُنا فى المسيرِ مُلْتَبِسُ
ماعِلْمُ هـذا إلاَّ إلى مَلِكٍ ... مِنْ نورِهِ فى الظَّلامِ يُقْتَبَسُ
إنْ سِرْتَ سارَ الرَّشادُ مُتَّبِعاً ... وإن تقفْ بالرَّشادِ يحتبِسُ

فقرأها الرشيد وسرَّ بها ، ووقع فيها : يابنيَّ ، ماأنت والشعر ! أما علمت أن الشعر أرفع حالات الدنى ، وأقل حالات السرى ! والمسير إلى ثلاث إن شاء الله .

ـ قول المأمون فى شعره : « ومن تقدى بسرجه فرس » ، تقدى أى استمر ؛ كما قال ابن قيس الرقيات :

تَقَدَّتْ بِى الشَّهْبَاءُ نحوابنِ جَعْفَرٍ ... سواءٌ عليها ليلُها ونهارُهـا

أى استمرت وجرت قاصدة إليك » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أى أستفهمك عن نفسك فى حال كونك ابن ليلة » .

(٣) ط ، م : « فما أنت » . (٤) د ، حاشية ف (من نسخة) : « أم ربع » .

(٥) ت ، د : « ماأنت » .

(٦) فى حاشيتى ت ، ف : « مس ، أى ليكن سيرك مساء للضوء » .

(٧) ط ، م : « فما أنت » .

(٨) ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « حدث » .

(٩) د ، ت، ف : « قيل : ماأنت » . ط ، م : « قيل فما أنت » .

سبع؟ قال دَلْجَة(١) ضَبُع(٢) — وقيل هُدًى لأنسٍ(٣) ذي الجَمْع، وقيل: حديث جَمع، وقيل: يُضْفَرُ في النِّسْع(٤)، وقيل: يُلْتَقَطُ في الجَزْع — قيل: ما أنت ابنَ ثمان؟ قال: قمرٌ إضْحِيان(٥). قيل: له: ما أنت ابنَ تسع؟ قال منقطع الشِّسْع — وقيل يُلْتَقَطُ في الجَزْع، وقيل: الوَدْعُ(٦)، وقيل عَشِيّة أهل جَمْع — قيل له: ما أنت ابنَ عشر؟ قال: ثُلُث الشهر، — وقيل: مُحَنِّقُ الفجر، وقيل: أؤدّيك إلى الفجر، وقيل: أبادر الفجر — قيل له: ما أنت ابنَ إحدى عشرة(٧)؟ قال: أطلُع عِشاء، وأُرى بُكْرة — وقيل: أغيبُ بِسُحْرة — قيل: له ما أنت ابنَ اثنتي عشرة؟ قال: مُؤْنِق للبَشَر(٨)، بالبدو والحَضَر. قيل: ما أنت ابنَ ثلاث عشرة؟ قال: قمرٌ باهر، يَعْشَى له الناظر؛ قيل له: ما أنت ابنَ أربعَ عشرة؟ قال: مُقتَبَلُ الشباب، أُضِيء مُدْجِناتِ(٩) السَّحاب — وقيلَ مُضِيءٌ(١٠) للسحاب — قيل له: ما أنت ابنَ خمسَ عشرة؟ قال: تمّ الشَّباب، وانتصف الحِساب.

(١) س: «بضم الدال»، ت: «بضم الدال وفتحها معا».

(٢) في نسخة بحاشيتي ت، ف: «الضبع».

(٣) ج، س: «لأنس ذي الجمع»، بتنوين السين.

(٤) النسع: سير مضفور مثل الأعنة.

(٥) ت، س: «قمر إضحيان»، بالإضافة؛ وفي حاشية الأصل (من نسخة): «قمر أضحيان»، بضم الهمزة. وفي حواشي الأصل، ت، ف: «قمر إضحيان وليلة ضحيانة، بالكسر؛ هو المعروف الصحيح».

(٦) الودع: خرز أبيض يخرج من البحر؛ معروف.

(٧) في حاشيتي ت، ف: «يقال: إن مابعد العشر موضوع لم يرو عن قدماء العرب».

(٨) في نسخة بحاشيتي ت، ف: «مونق البشر».

(٩) حاشية ف: «أضيء مدجنات السحاب؛ التقدير: السحاب المدجنات؛ وهذا من باب مايقال له إضافة الصفة إلى الموصوف في الظاهر؛ كقول: مررت بحسان النساء، وجسام الرجال؛ أي النساء الحسان والرجال الجسام».

(١٠) ت، ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «مضيء السحاب».

قيل له: ماأنت[١] ابنَ ست عشرة ؟ قال : نَقَص[٢] الخلقَ ، بالغرب والشرق . قيل له : ما أنت ابنَ سبع عشرة ؟ قال : أمْكَنْتِ المُقْتَفِرَ القِفْرَةَ[٣] . قيل له ما أنت ابنَ ثمانى عشرة[٤]؟ قال : قليل البقاء ، سريع الفناء . قيل له : ماأنت ابنَ تسعَ عشرة ؟ قال : بطىء الطلوع / بيّن الخشوع . قيل : ما أنت ابنَ عشرين ؟ قال : أطلُع بسُحْرَةٍ ، وأضىء [٢٧ و] بالبُهْرة[٥] — وقيل : ثم أهَجِّر[٦] بالبُهْرة — قيل : ما أنت ابنَ إحدى وعشرين ؟ قال : كالقَبَس ، يُرَى بالغَلَس . قيل : ما أنت ابنَ اثنين وعشرين ؟ قال : لا أطلُع إلا رَيْثما أُرى . قيل : ما أنت ابنَ ثلاث وعشرين ، قال : أطلُع فى قُتْمة ، ولا أجْلُو الظُّلْمة . قيل له : ما أنت ابنَ أربع وعشرين ؟ قال: لا قمرٌ ولا هلال . قيل : ماأنت ابنَ خمس وعشرين ؟ قال : دنا الأجل، وانقطع الأمل . قيل : ما أنت ابنَ ست وعشرين ؟ قال : دنا مادنا، فلا يُرى مِنِّى إلا شَفَا. قيل: ماأنت ابنَ سبع وعشرين ؟ قال : أطلع بَكِراً، ولا أُرى ظهرا . قيل : ما أنت ابنَ ثمان وعشرين ؟ قال : أسبق شُعاع الشمس . قيل : ما أنت ابنَ تسع وعشرين ؟ قال : ضُئَيلٌ صغير ، فلا يرانى إلا البصير . قيل : ما أنت ابنَ ثلاثين ؟ قال : هلال مُسْتَنِير[٧] .

قال الأصمعىّ : ثم قلتُ للرشيد : يقال إنه لا يحفظ هذا الحديثَ من الرجال إلا عاقل ،

(١) ت ، ف : « قيل ماأنت » . (٢) م : « ناقص الخلق » .

(٣) حاشية ف (من نسخة) : « القفرة » .

(٤) فى نسخة حاشيتى الأصل ، ف : « ثمان عشرة » .

(٥) فى حاشيتى الأصل ، ف « البهرة : نصف الليل ؛ يقال ابهار الليل ؛ إذا انتصف ، وبهرة كل شىء وسطه » . س : « البهرة البهرة : الوسط من كل شىء ، وكأنه إشارة إلى نصف النهار ؛ ويدل عليه ذكر التهجير ؛ والله أعلم » .

(٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « معنى قوله : « أهجر بالبهرة » ، أى أطلع نصف الليل ، واستعمل الهجير ؛ وهو نصف النهار فى الليل استعارة » .

(٧) ف ، وحاشية ت (من نسخة) : « مستسر » ، وفى نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « مستسر » ، وفى حاشية ف : « مستسر ، من السرار ؛ وهو آخر الشهر » . وفى حاشية الأصل أيضا (من نسخة) : « مستبين » .

فقال: خذه عليّ، قلت: هاتِ، فأعاده حتّى بَلغ: «قيل له: ما أنت ابنَ ثمان؟ قال: قرْنُ أضحِيان».

أما قوله: «رَضاع سُخَيْلة» أراد تصغيرَ سَخْلة، والمعنى أنّ القمرَ يبقَى بقدْر مايَنزل قوم، فتضعُ شاتُهم سَخْلة، ثم تُرْضِعها ويَرْحلون، فبقاؤه بالأفُق بمقدارِ هذا الزمان. وقوله: «حَلَّ أهلُها برُمَيْلة» أظنّ أنّ المعنى فيه الإخبارُ عن قلة اللَّبَاث وسرعة الانتقال؛ لأن الرَّملَ ليس بمنزل مُقام للقوم؛ لأنهم كانوا يختارون في منازلهم جَلَدَ[1] الأرضِ وهَضْبَها والأماكنَ التي لاتستولي السيولُ عليها، فخصَّ الرُّمَيْلة لهذا المعنى. وقوله «حديثُ أمتَيْن، بكذبٍ ومَيْن» يريدأن بقاءه قليل بمقدارماتَلتَقي الأمَةُ الأمَةَ، فتكذِبُ لها حديثاً ثم تفترقان. وقوله: «حديث فتياتٍ، غير جِدٍّ مؤتلفات»، أراد أنه يَبْقَى بقاء فتيات اجتمعن على غير ميعاد، فتحادثن ساعة ثم انصرفن غيرَ مؤتلفات. وقوله «عتمة أم رُبَع[2]»، يقال: عتَّمتْ إبلُه إذا تأخرتْ عن العَشاء، ومن هذا سمِّيتْ صلاة العَتمَة؛ لأنها آخرُ الوقت في العِشاء، وقوله «أم رُبَع» يعني الناقة، وهو تأخير حَلْبها؛ يريد أن بقاءه بمقدار ماتُحْلَب[3] ناقة لماولدتْه في أول الربيع/؛ وهو أول النِّتاج، والولد في هذا الوقت يُسَمَّى رُبَعاً، إذا كان ذكراً، [٢٧ ظ] فإن كان أنثى قيل رُبَعة، فإن كان في آخر النِّتاج قيل هُبَع للذكر وللأنثى هُبَعة. وقوله: «عَشاء خَلِفاتٍ قُعْس»؛ فالخلفات اللواتي قد استبان حَمْلهن، واحدتها خَلِفة، وهي المخاض؛ ولاواحدَ للمخاض من لفظها[4]، وإنما قال: «عَشاء خَلِفات»؛ لأنها لا تَمْشي إلى أن يغيبَ القمر في هذه الليلة، والقَعْساء الداخلة الظَّهر الخارجة البطن. وقوله: «سِرْ وبِتْ» يريد أنه لايبقى إلا بقدْر «ما يَبيت الإنسان ثم يسير»، يريد أنه يبقى بقدر مايسير الإنسان ثم يبيت،

---

(١) الجلد من الأرض: الصلب المستوى.

(٢) ط، م: «أم الربيع». (٣) في نسخة بحاشيتى ت، ف: «حلب ناقة».

(٤) كذا في ش، وفي ج: «لفظه».

(٥-٥) من نسخة بحاشيتى الأصل، في «ما يسير الإنسان ثم يبيت»

فقلب المعنى لأنه يسير فى الضوء .

وقوله : « قرنٌ إضحيانٌ » ؛ أى ضاحٍ وبارز ، ويقال : «قرنٌ إضحيانٌ » بالتنوين فيهما جميعاً ، و « قرنُ إضحيانٍ » بالإضافة ، ومنه قيل : ليلة إضحيانة ، إذا كانت نقيّةَ البياض . وقوله : « منقَطَع الشِّسع » ، أراد أنه يبقى بقدر ما تبقَّى شِسْع من قِدٍّ يُمشى به حتى ينقطع. وقوله : « يُلتَقط فىَّ الجَزْع » ،أى أنه مضىء أبلج ، لو انقطعتْ مِخْنَقة فتاة فيها شذُورٌ مفصّلة بجَزْع ماضاع منها شىء لضيائه ونقائه . وقوله : « أضىء بالبُهْرَةِ » ، يعنى به وسط الليل ، لأن بُهْرَة الشىء وسطه . وقوله : « أمكنت المقتفرَ القِفْرَة » ؛ فالمقتفر الذى يتبع الآثار ، ومقتفراته مواضعه التى يقصدها[1] .

---

(١) فى نسخة بحاشية الأصل ، ت : « وقفرته : موضعه الذى يقصده » .

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ [الإسراء: ٧٢] فقال: كيف يجوز أن يكونوا فى الآخرة عمياً ، وقد تظاهر الخبر عن الرسول عليه وآله السلام بأنّ الخلق يُحشرون كابُدِئوا سالمين من الآفات والعاهات ، قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ [الأعراف : ٢٩]،وقال عزّ وجل: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾؛ [الأنبياء : ١٠٤]،وقال جلّ وعلا: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾؛ [ق : ٢٢].

الجواب ، يقال فى هذه الآية أربعة أجوبة[1]:

أحدها أن يكون العمى الأول إنما هو عن تأمّل الآيات ، والنظر فى الدّلالات والعبَر التى أراها الله المكلَّفين فى أنفسهم وفيما يشاهدون ، ويكون العمى الثانى هو عن الإيمان بالآخرة ، والإقرار / بما يُجازَى به المكلَّفون فيها من ثواب أو عقاب ، وقد قال قوم: [٢٨ و]
إن الآية متعلّقة بما قبلها من قوله تعالى : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾؛ [الإسراء : ٦٦] إلى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾؛ [الإسراء: ٧٠]،ثم قال بعد ذلك : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ؛ يعنى[2] فى هذه النعم ، وعن هذه العبر ، فهو فى الآخرة أعمى ؛ أىْ هو عمّا غُيِّبَ عنه من أمر الآخرة أعمى ، ويكون قوله : ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ كناية عن النِّعم لا عن الدنيا ويقال : إن ابن عباس رحمة الله عليه سأله سائل عن هذه الآية فقال له: اتلُ ماقبلها، ونبّهه على التأويل الذى ذكرناه .

---

(١) م : « أوجه » .　　(٢) د ، ف ، حاشية ت (من نسخة) : « يعنى عن هذه النعم » .

والجواب الثانى: ﴿ مَنْ كانَ فِى هَذِهِ ﴾ يعنى الدنيا ﴿ أَعْمَى ﴾ عن الإيمان بالله والمعرفة بما أوجب عليه المعرفة به ؛ فهو فى الآخرة أعمى عن الجنة والثواب؛ بمعنى أنه لا يُهْتَدَى إلى طريقيهما[١]، ولا يوصَل إليهما ، أو عن الحجة[٢] إذا سوئل[٣] ووُوقف ، ومعلوم أن مَنْ ضلّ عن معرفة الله تعالى والإيمان به يكون فى القيامة منقطعَ الحجة ، مفقود المعاذر .

والجواب الثالث: أن يكون العَمَى الأول عن المعرفة والإيمان ، والثانى بمعنى المبالغة فى الإخبار عن عِظَم ماينالُه[٤] هؤلاء الكفار الجهال من الخوف والغم والحزن الذى أزاله الله عن المؤمنين العارفين بقوله: ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾؛ [يونس : ٦٢] ، ومن عادة العرب أن تُسمِّىَ مَنِ اشتد همُّه وقَوِىَ حزنه أعمَى سخين العين ، ويصفون المسرور بأنه قرير[٥] العين ، قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾؛ [السجدة: ١٧].

والجواب الرابع: أن العمى الأول يكون[٦] عن الإيمان ، والثانى هو الآفة فى العين على سبيل العقوبة؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾؛ [طه : ١٢٤ ـ ١٢٦] . ومَن يُجيب بهذا الجواب يتأول قوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ
[٢٨ ظ] خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ على أن المعنى / فيه الإخبار عن الاقتدار وعدم المشقة فى الإعادة ؛ كما أنها معدومة فى الابتداء ، ويجعل ذلك نظيرا لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ[٧] عَلَيْهِ ﴾؛ [الروم : ٢٧] ، ويتأول قوله تعالى ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ على أن معناه الإخبار عن قوة المعرفة ، وأن الجاهل بالله فى الدنيا يكون عارفا به فى الآخرة ؛ والعرب

---

(١) ت ، ف : « طريقهما » . (٢) ت ، ف : « يفقد الحجة » . حاشية الأصل من نسخة : « لفقد الحجة » . (٣) ت ، حاشية ف (من نسخة) : « سئل ووقف » .

(٤) فى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « ماينال » . (٥) ت ، د ، ف : « أنه » .

(٦) ساقطة من ف . (٧) حاشية ف : « أهون هاهنا بمعنى الهين ، وإن حمل على المبالغة فهو على مجاز كلام العرب » .

تقول: فلان بصير بهذا الأمر ؛ وزيد أبصر بكذا من عمرو ، ولا يريدون إبصارَ العين ، بل العلمَ والمعرفة ؛ ويشهد بهذا التأويل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، أى : كنتَ غافلا عما أنت الآن عارف به ، فلما أنْ كشفْنا عنك الغطاء بأنْ أعلمناك وفعلنا فى قلبك المعرفة عرفت وعلمت .

فأما الخبر الذى تُدَّعى روايته فهو خبر واحد ، ولا حجة[1] فى مثله ؛ وإذا عرف لفظه ربما أمكن تأوله على مايطابق هذا الجواب ، ومَنْ[2] ذهب إلى الأجوبة الأُوَل يحمل العمى الأول والثانى معاً غير الآفة فى العين ، فإن عورض بقوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾[3] تأوّله على العمى عن الثواب أو عن الحجة ، وقال فى قوله تعالى: ﴿ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ إن معناه : كنت بصيراً فى اعتقادى وظنّى ، من حيث كنت أرجو الهداية إلى الثواب وطريق الجنة .

والمحصَّل من هذه الجملة أنه لا يجوز أن يُرَاد بالعمى الأول والثانى جميعا الآفة فى العين ؛ لأنه يؤدى إلى أن كلّ مَنْ كان مئوف[4] البصر فى الدنيا ؛ من مؤمن وكافر وطائع وعاصٍ يكون كذلك فى الآخرة ، وهذا باطل وبمثله يبطل أن يراد بلفظة ﴿ أَعْمَى ﴾ الثانية المبالغة بمعنى أفعل من فلان ، ويبطله أيضا أن العمى الذى هو الخِلْقة لا يُتعجب منه بلفظة «أفعل» وإنما يقال : ما أشدّ عماه ! ولا يجوز أن يُراد بالعمى الأول العين[5] والثانى العمى عن الثواب والجنة أو الحجة ، لأنا نعلم أنّ فيمن[6] عميتْ عينُه فى الدنيا مَنْ يستحق الثواب ، ويوصل إليه ، ولا يجوز أن يراد بالأول والثانى العمى عن المعرفة والإيمان ، لا على طريقة[7] المبالغة والتعجب / ولا على غير ذلك ؛ لأنا نعلم أنّ الجهال بالله تعالى ، المعرضين فى الدنيا عن معرفته [٢٩ و]

(١) ت ، وحاشية ف (من نسخة) : « واحد لاحجة » . (٢) فى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « يذهب » . (٣) فى حاشيتى ت ، ف : « روى نافع عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله : يحشر الناس يوم القيامة كما ولدتهم أمهاتهم حفاة عراة . وفى حديث آخر : غرلا ؛ والأغرل : الأكلف ؛ ورواه غيره : أن ناسى القرآن يحشر يوم القيامة أعمى » . (٤) المئوف : الذى أصابته الآفة ، وفى م : « مكفوف » . (٥) ف ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « عمى العين » (٦) ت ، حاشية ف (من نسخة) : « ممن » . (٧) حاشية ت (من نسخة) : « طريق » .

لا يجوز أن يكونوا فى الآخرة كذلك ؛ فضلا أن يكونوا على أبلغ من هذه الحالة لأن المعارف فى الآخرة ضرورية ، يشترك فيها جميع الناس ، فلم يبق بعد الذى أبطلناه إلا ما دخل فى الأجوبة . وعلى الأجوبة الثلاثة الأول إذا أريد بأعمى الثانية المبالغة والتعجب كان فى موضعه ؛ لأن عمى القلب وضلاله يتعجب منه بلفظة « أفعل » وإن لم يجز ذلك فى عمى الجارحة

ولمن أجاب بالجواب الرابع ألاّ يحمل قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ لفظة تعجب ، بل يحمله إخباراً عن عَمَاهُ من غير تعجّب ، وإن عطف عليه بقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ ويكون تقدير الكلام : ومَنْ كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وهو أضل سبيلا[١] .

فإن قيل : ولمَ أنكرتم التعجب من الخِلَق بلفظة « أفعل » ؟ . قلنا : قد قال النحويون فى ذلك : إن الألوان والعيوب لا يُتعجَّب منها بلفظ التعجّب وإنما يُعْدَلُ فيها إلى أشدّ وأظهر وما جرى مجراها ؛ قالوا : لأن العيوب والألوان قد ضارعت الأسماء ، وصارت خِلْقَةً كاليد والرِّجْل ونحو ذلك ؛ فلا يقال : ما أسوده وما أعوره ، كما لا يقال : ما أيداه[٢] وما أرجله ؛ ويقال : ما أشدّ سواده ! كما يقال : ما أشدّ يده ورجله ! واعتلوا بعلة أخرى ، قالوا : إن الفعل من الألوان والعيوب على «افعلّ» و «افعالّ» ، نحو احمرّ واعورّ واحولّ واحوالّ ، والتعجب لا يدخل فيما[٣] زاد على ثلاثة أحرف من الأفعال ؛ ألا ترى أنه لا يدخلُ فى انطلق واستخرج ودحرج لزيادته على ثلاثة أحرف[٤] ؟

---

(١) حاشية ت ، ف : « لو ذكر رحمه الله المبالغة فى الموضعين لكان صوابا ، لأن أفعل فى التعجب فعل ؛ وهو هاهنا اسم كالمبالغة ؛ أولا ترى أنا نقول فى التعجب « ما أحسن » والتقدير : شىء أحسنه » .

(٢) فى حاشيتى ت ، ف : « إنما يبنى التعجب من الأفعال دون الأسماء واليد والرجل أسماء » .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « على ما زاد » .

(٤) حاشية ف : « إنما امتنعت صورة التعجب فى الرباعى ؛ لأن فعل التعجب يكون أبداً أربعة أحرف ؛ أحدها ألف النقل والثلاثة الفعل ؛ فإذا أدخلت على الرباعى لم يكن بد من طرح أحد الحروف ، ولا يمكن ذلك لأن كلها أصول فيها ؛ إذ التعجب يختص الثلاثى فحسب » .

فإن قيل لهم فقد قالوا : عوِرتْ عينُه وحوِلَتْ ، قالوا : هذا منقول من «افعلّ» وهو في الحكم زائد على ثلاثة أحرف، يدلّ على ذلك صحة الواو فيه ؛ كما صحت في اسودّ وابيضّ ولولا أنه منقول منه لاعتلت الواو، فقلت: عارتْ وحالت ، كما قيل : خاف وهاب.

وحكي عن الفرّاء في ذلك جوابان : أحدهما أنّ «أفعل» في التعجب فيه زيادة على وصف قبْله إذا قال القائل أفضل وأجل، فهو أزيد في الوصف من جميل وفاضل ، فلم يقولوا: ما أبيض زيداً ! لئلا يسقط / التزيد[1] ، ولا يكون قبل أبيض وصف يزيد أبيضُ عليه ، يخالف لفظُه [٢٩ ظ] لفظَه ؛ كما خالف أفضل وأجل فاضلا وجميلا ، فلما فاتهم في أبيض وأحمر علَم التزيد[2] أدخلوا عليه ما تَبين الزيادة فيه ، وقالوا : ما أظهر حمرةَ زيد : وما أشد سواد عمرو ! لأن «أظهر» يزيد على ظاهر ، و«أشد» يزيد على شديد[3] .

والجواب الآخر أنّ التعجب مبنيّ على زيادةٍ فصلح أن يتقدّمها نقص وتقصير عن بلوغ التناهي ، فقالوا : ما أعلم زيداً ! ليدلّوا على زيادة علمه ؛ لأنهم في قولهم: عالم وعليمٌ لم يبلغوا في التناهي مبلغ «أعلم» ، ولم يقولوا : ما أبيض زيداً ! لأن البياض لا تأتي[4] منه زيادة بعد نقص ، فعدلوا إلى التعجب بأشدّ وأبيَن وما جرى مجراها ، وهذا الجواب ليس بسديد؛ لأنّ الألوان قد تتأتى فيها الزيادة بعد نقص ، وقد تدخل فيها المفاضلة ، ألا ترى أنّ ما حلّه قليلُ أجزاء البياض يكون أنقص حالا في البياض مما حلّه الكثير من الأجزاء !

والجواب الأول الذي حكيناه عن الفرّاء أصوبُ ، وإن كان ماقدمناه عن البصريين هو المعتمد[5] وقد أنشد بعضهم معترضا على ماذكرناه قول الشاعر :

(١) في نسخة بحاشيتي ت ، ف : « التزايد » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « المزيد » .

(٣) في حاشيتي ت ، ف: « متقرر في علم الأصول أن السواد لايكون أزيد في كونه سواداً من سواد آخر؛ وإنما تتكاثر الأجزاء ، فيقال : هذا أشد سواد من ذلك » .

(٤) في نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « لاتتأتى » .

(٥) حاشية ف : « قال ابن الشجري : هذان الوجهان متقاربان ، والسيد يفضل الأول ، ولا أدري مابينهما ، إلا أن الأول اعتبار باللفظ والثاني اعتبار بالمعنى » ، وفي حاشية ت : « الجواب الأول مشتمل على نق للمبالغة في أبيض ، والعلة ألا يسقط التزيد ، ، والجواب الثاني مشتمل على طرف من ذلك الجواب ؛ إلا أنه يقول إنما لايقال أبيض على طريق المبالغة ؛ لأن التزايد في البياض لايتأتى » .

يَالَيْتَنِي مِثْلُكِ فِى البَيَاضِ … أَبيضُ مِنْ أُخْتِ بَنِى إِبَاضِ[١]

وأنشدوا أيضاً قول الشاعر[٢] :

أمَّا المُلوكُ فأَنْتَ اليَوْمَ الأَمُهُمْ … لُؤْماً وَأَبْيَضُهُمْ سِرْبالَ طَبَّاخِ

فأما البيت الأول فإن أبا العباس المبرّد حَمَله على الشذوذ ، وقال: إنّ الشاذّ النادر لايطعَن فى المعمول عليه، والمتفق على صحته ، ويجوز أيضاً أن يقال فى البيت الثانى مثلُ ذلك ، وقد قيل فى البيت الثانى إنّ أبيض َفيه ليس هو الذى للمفاضلة ، وإنما هوأفعل الذى مؤنثه فعلاء، كقولك أبيض وبيضاء ؛ ويجرى ذلك مَجرى قولهم هو حَسَنُ[٣] القوم وجهاً ، وشريفُهم[٣] خُلُقًا ؛ فكأنّ الشاعرَ قال :[٤] ومبيِّضهم ، فلما أضافه انتصبَ مابعده لتمام الاسم ، وهذا أحسنُ من حَمْله على الشذوذ[٥] .

ويمكن فيه وجه آخر وهو أنّ أبيض فى البيت وإن كان فى الظاهر عبارة عن اللون فهو فى المعنى / كناية عن اللؤم والبخل ، فحمل لفظُ التعجب على المعنى دون اللفظ ، [٣٠ و]

---

(١) البيت فى اللسان (بيض) ، وروايته فيه :

جَارِيَةٌ فى دِرْعِهَا الفَضْفَاضِ … أَبْيَضُ من أُخْتِ بَنِى إِبَاضِ

وفى حاشية ف : « أبيض ، بالرفع على تقدير : أنت أبيض ، وبالفتح على أنه حال من أنا أو أنت . وإباض : اسم رجل » .

(٢) فى حاشيتى ت ، ف : « قال السيد المرتضى رضى الله عنه : هو لطرفة ؛ وإنما أراد ذمه بقلة القرى فى بيته ، فطباخه نقى الثوب » .

والبيت فى ديوانه : ١٠ ، وروايته فيه :

إنْ قلتَ نَصْرٌ فنصرٌ كانَ شرَّ فَتًى … قِدْمًا وأَبيضَهم سِرْبَالَ طَبَّاخِ

وهو أيضاً فى اللسان (بيض) ، وروايته فيه :

إذا الرِّجَالُ شَتَوْا واشْتَدَّ أكْلُهُمُ … فأَنْتَ أَبْيَضُهُمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ

(٣-٣) حاشية ت (من نسخة) : « هو أحسن القوم وجها وأشرفهم خلقا » .

(٤) حاشية ف : « مبيضهم ؛ أى أبيضهم ، لابمعنى المبالغة » .

(٥) حاشية ف : « تحقيق ماقدره السيد أن يكون أبيضهم سربال طباخ » ليس معناه التعجب ، والمعنى مبيضهم سربال طباخ ، ويؤول المعنى إلى أن سربال طباخه أبيض فحسب ولا يعنى أنه أشد بياضا من سربال غيره » .

ولو أراد بأبيضهم بياضَ الثوب ونقاءه على الحقيقة لما جاز أن يتعجب بلفظة «أفعل»، فالذى جوّز تعجُّبه بهذه اللفظة ماذكرناه .

فأما قول المتنبي :

ابْعَدْ بَعِدْتَ بَيَاضاً لَابَيَاضَ لَهُ ... لأَنْتَ أَسْوَدُ فى عَيْنِى منَ الظُّلَمِ [1]

فقد قيل فيه إن قوله : «لأنت أسْوَدُ فى عينى» كلام تام، ثم قال : «مِنَ الظلم» أى من جملة الظُّلَم؛ كما يقال: حُرّ من أحرار [2]، ولئيم من لِئام؛ أى من جُملتهم، وقال الشاعر [3] :

وَأَبْيَضُ مِنْ مَاءِ الحديدِ كَأَنَّهُ ... شِهَابٌ بَدَا وَاللَّيلُ دَاجٍ عَسَاكِرُهْ

كأنه قال: وأبيض كائن من ماء الحديد، وقوله : «من ماء الحديد» وصف لأبيض، وليس يتّصل به كاتصال «من» بأفضل فى قولك : هو أفضل من زيد، ولفظة «من» فى بيت المتنبي مرفوعة الموضع، لأنها وصف لأسود؛ وإذا أريد المفاضلة والتعجب كانت منصوبة الموضع بأسود [4] كما تقول زيد خير منك، فمنك فى موضع نصب بخير، كأنه قال : قد خارك بخيرك، أى فضلك فى الخير؛ وهذا التأويل المذكور فى بيت المتنبي يمكن أن يقال فى قول الشاعر :

* أبيضُ من أُخْتِ بَنى إِباضِ *

ويحمل على أنه أراد من جملتها ومن قومها، ولم يرد التعجب وتأوُّله على هذا الوجه أولى من حَمْله على الشذوذ، فأما قول المتنبى :

* ابْعَدْ بعِدتَ بياضاً لابياضَ له *

(١) ديوانه ٤ : ٣٥ ؛ وهو يخاطب الشيب، وقبله

ضَيْفٌ أَلَمَّ بِرأسِى غيرَ مُحْتَشِمِ ... والسَّيفُ أَصْدَقُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللِّمَمِ

(٢) ش، ف، وحاشية ت (من نسخة) : «حر من الأحرار ولئيم من اللئام» .

(٣) البيت فى شرح العكبرى لبيت المتنبي، أورده من غير عزو .

(٤) حاشية ف : «إذا قلت زيد أضرب من عمرو كان الجارمع المجرور فى موضع النصب على المعهود من حال الجار والمجرور؛ لأنه على تقدير : غالب زيد عمرا فى الضرب فغلبه؛ فيكون إذا «من عمرو» فى موضع النصب؛ لأنه فى معنى المفعول على ماذكرنا» .

فالمعنى الظاهر للناس فيه أنه أراد : لا ضياء له ولا نور ولا إشراق ، من حيث كان حُلولُه محزنا مؤذنا بتقضي الأجل ؛ وهذا لَعمرى معنى ظاهر ؛ إلا أنه يمكن فيه معنى آخر ؛ وهو أنّه يريد إنك بياضٌ لا لونَ بعده ، لأن البياض آخر ألوان الشعر ، فجعل قوله : « لا بياض له » بمنزلة قوله : لا لونَ بعده ، وإنما سوّغَ ذلك له أنّ البياضَ هو الآتى بعد السّواد ، فلما نفى أنْ يكونَ للشيب بياضٌ كان نفياً لأن يكون بعده لون .

وقد اختلف القراء فى فتح الميم وكسرها من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ /فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾، فقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو بفتح الميمين معا ، وقرأ عاصم [٣٠ ظ] فى رواية أبى بكر وحمزة والكِسائىّ بكسر الميم فيهما معا[١]، وفى رواية حفص عن عاصم : لا يكسرها ، وكسر أبو عمرو الأولى وفتح الأخيرة: ولكل وجه، أما مَنْ تركَ إمالةَ الجيم ؛ فإن قوله حسن ، لأن كثيراً من العرب لا يُميلون هذه الفتحة ، وأما مَنْ أمال الجيم فوجه قوله أن ينحو بالألف نحو الياء ، ليعلم أنها تنقلب إلى الياء[٢]، وأما قراءة أبى عمرو بإمالة الأولى وفتح الثانية فوجهُ قوله أنّه جعل الثانية أفعل من كذا مثل أفضل من فلان، وإذا جعلها كذلك لم تقع الألف فى آخر الكلمة؛ لأنّ آخرها إنما هو من كذا ، وإنما تحسن الإمالة فى الأواخر ، وقد حذف من « أفعل » الذى هو للتفضيل الجارُّ والمجرور جميعا، وهما مرادان فى المعنى مع الحذف ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ؛ [طه:٧] ؛ المعنى وأخفى من السر ، فكذلك قوله تعالى :﴿ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾، أى أعمى منه فى الدنيا ، أو أعمى من غيره ، ويقوى هذه الطريقة ما عطف عليه من قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾، فكما أن هذا لا يكون إلا على « أفعل من كذا » كذلك المعطوف عليه .

---

(١) ت ، ونسخة بحاشيتى ت ، ف : « جميعا » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « على هذا الوجه لا تميل بحال ؛ إلا إذا كانت الكلمة من بنات الياء ؛ فأما إذا لم تكن من بنات الياء فلا تميل ، والأعمى أصله عمى ، فهو إذاً من بنات الياء » .

تأويل خبر

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كَبِدِها مثلَ الأُسطُوان من الذَّهب والفضة ، فيجيءُ القاتلُ فيقول في مثل هذا : قتلتُ ، ويجيءُ القاطع الرَّحِم[1] فيقول في مثل هذا : قطعتُ رَحِمِي ، ويجيء السارق فيقول في مثل هذا : قُطِعَتْ يدي ، ثم يتركونه ولا يأخذون منه شيئاً » .

معنى « تَقيءُ » أي تخرج مافيها من الذهب والفضة ، وذلك من علامات قُرْب الساعة ، وقوله : « تَقيءُ » تشبيه واستعارة من حيث كان إخراجا وإظهاراً ؛ وكذلك تسميتُه[2] مافي الأرض من الكنوز « كِبَداً » تشبيهاً[3] بالكَبد التي في بطن البعير وغيره ؛ وللعرب في هذا مذهب معروف ؛ قال مُرّة بن مَحْكان[4] السَّعدِيّ يصف قِدْراً نصبها للأضياف :

لها أزِيزٌ يُزِيلُ اللحمَ أزْمَلُهُ ... عن العِظَام إذا مااستَحْمِشَت غَضَبا[5]

تَرْمِي الصَّلاةَ بِنَبْلٍ غيرِ طائِشَةٍ ... وَفْقاً إذا آنَسَتْ من تحتِها لَهَبا[6] [٣١ و]

فوصفها بالغضب تشبيهاً واستعارة ، فأما الأزِيزُ فهو الغَلَيان ، والعرب تقول : لجوفه أزِيزٌ مثل أزِيزِ المِرجل ، والأَزْمَلُ : الصوت ، واستَحْمَشَتْ ، أيْ غضبت ؛ يقال : حَمَشَه أي أغضبه ، وقال النابغة الجَعْدِيّ في معنى الاستعارة :

(١) ف ، ونسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « الرحم » .

(٢) د ، وحاشية ت (من نسخة) : « تسمية » .

(٣) ش ، ونسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « تشبيه » .

(٤) ضبط بالقلم في ت بفتح الميم ، وفي ف بالفتح والكسر معا .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « استحمشت » ، بالبناء للمجهول وفي حاشيتي ت ، ف « أحمشت الرجل وحمشته ؛ أي أغضبته فاحتمش واستحمش ، والحمشة الاسم كالحشمة ؛ واحتمش الديكان : اقتتلا » . وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « قبله :

نَصَبْتُ قِدْرِي لهم والأرضُ قد لَبِسَتْ ... من الصَّقِيعِ مُلاءً جِدَّةً قُشُبا

ملاء : جمع ملاءة ، قشبا : جمع قشيب ؛ وهو الجديد » .

(٦) في حاشيتي الأصل ، ف : « الصلاة : جمع صال . غير طائشة : غير مخطئة . وفقاً ، أي رميا وفقا ؛ شبه ما ترى به النار من نفيانها بالنبل ؛ أي كلما اشتدت النار تحت القدر اشتد غليها بقدر اشتداد النار تحتها » .

سَأَلَتْنِي عَنْ أُنَاسٍ هَلَكُوا ... شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلْ[1]

فوصَفَ الدهرَ بالأكل والشرب تشبيها واستعارة . وقال قوم : معنى البيت شرب أهلُ الدهر بمدهم وأكلوا .

واختلف أهل اللغة في الأفلاذ ، فقال يعقوب بن السِّكِّيت : الفِلْذ لا يكون إلا للبعير ، وهو قطعة من كَبِده[2] ، ولا يقال فِلْذ الشاة ، ولا فِلْذ البقرة ، ويقال : أعطنى فِلْذاً من الكبد ، وفِلْذة من الكَبِد ، قال أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ وَيُرْوِى شُرْبَهُ الغُمَرُ[3]

الغُمَرُ : القَدَح الصغير ؛ وقال يعقوب : ولا يقال : أعطنى حُزَّةً من سَنام ولا من لحم ، وإنما الحزَّة في الكبد خاصة ؛ فإذا أرادوا ذلك من السَّنام واللحم قالوا : أعطنى[4] حِذْيَةً من لحم ؛ وهى القِطْعة الصغيرة ، وفِلْقَةً من سنام ، وقال الطُّوسِيّ[5] عن أبي عبيد عن الأصمعيّ قال : يقال: أعطنى حُذْيَةً[6] من لحم ، وحُزَّةً من لحم ؛ إذا كانت مقطوعة طولا ، فإذا كانتْ مجتمعةً قلت : أعطنى بَضْعةً من لحم ، وهَبْرةً من لحم ، ووَذْرَةً من لحم .

ومثل هذا الحديث قوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ ؛ [الزلزال : ٢] . معناه أخرجت مافيها من الكنوز ، وقال قوم : عَنَى به الموتى ، وأنها أخرجتْ موتاها ، فسمى

---

(١) ت ، د ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « بأناس » .

(٢) حاشية الأصل : « ذكر ابن الشجرى : الفلذ كبد البعير خاصة ؛ وليس بقطعة من الكبد ؛ وكذا ذكره ابن السكيت » .

(٣) من قصيدة له يرثى بها المنتشر بن وهب الباهلى ، أولها :

إنى أتيتُ بِشَىْءٍ لا أُسَرُّ بِهِ ... من عَلْوَ لاعجبٌ فيه ولا سَخَرُ

وهى في (أمالى اليزيدى ١٣ ــ ١٨ ، وجمهرة الشعر ٢٨٠ ــ ٢٨٣ ، والأصمعيات ٣٢ ، ٣٥ ، والكامل ــ بشرح المرصفى ٨ : ٢١١ ــ ٢١٢) ويذكرها المؤلف فيما بعد .

(٤) ش ، س : « حذية » ؛ بضم الحاء وكسرها .

(٥) حاشية ت : « أبو الحسن على بن عبد الله الطوسى » .

(٦) كذا ضبط بالقلم في الأصل ، ت ، ف ، وفى الحواشى : « المعروف : الحذية ، بالكسر ؛ وهى القطعة من اللحم على الطول . والحذوة (مثلثة الحاء) : العطية » .

تعالى الموتى ثِقْلاً[1] تشبيها بالحَمْل الذى يكون فى البطن ، لأن الحَمْل يسمى ثِقْلا ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ ؛ [الأعراف : ١٨٩] . والعرب تقول : إن للسيد الشجاع ثِقْلاً على الأرض ، فإذا مات سقط عنها بموته ثِقْلٌ ، قالت الخنساءُ ترثى أخاها صَخْراً :

أَبَعْدَ ابْنِ عمرٍو من آل الشريـ ـدِ حَلَّتْ بِهِ الأَرْضُ أثْقَالَهَا[2]

معناه أنه لما مات حلّ عنها بموته ثِقْل لسُؤدُده[3] وشرفه ، وقال قوم : معنى « حلّت » [٣١ ظ] زَيَّنَتْ موتاها به ، وهو مأخوذ من الحِلْيَة ؛ وقال الشَّمَرْدل اليَربوعىّ يرثى أخاه :

وَحَلَّتْ بِهِ أَثْقَالَهَا الأَرْضُ وَانْتَهَى لِمَثْوَاهُ مِنْهَا وَهْوَ عَفٌّ شَمَائِلُه[4]

وروى هشام بن المنذر[5] قال : قال زُهير بن أبى سُلمى المُزَنىّ بيتاً ثم أكْدَى ، ومرّ به النابغة الذُّبيانىّ فقال له : يا أبا أُمامة ، أجِزْ ، قال : ماذا ؟ قال :

تَزالُ الأَرْضُ إِمَّا مِتَّ خِفًّا وَتَحيا مَاحَيِيتَ بِها ثَقِيلاً[6]
نَزَلْتَ بِمُسْتَقَرِّ العِزِّ مِنْهَا . . . .

فماذا قال ؟ فأكْدَى والله النابغة أيضا ، وأقبل كعب بن زهير وهو غلام ، فقال له

---

(١) فى نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « أثقالا » .

(٢) ديوانها ٢٠١ .

(٣) ت ، ج ، ف : « بسؤدده » .

(٤) البيت من قصيدة مذكورة (فى أمالى اليزيدى ٣٢ — ٣٤ ، والأغانى ١٢ : ١١٣ — ١١٤ ، وأبيات منها فى ابن أبى الحديد ٤ : ٣٨٣ ، وحماسة ابن الشجرى ٨٣) وفى حاشيتى الأصل ، ف : شمائله : أخلاقه ، والواحد شمال ، بالكسر ، قال الشاعر :

* وَمَا لَوْمِى أَخِى مِنْ شِمَالِيَا *

(٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : « نسخة ابن قدامة : وروى أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال قال زهير » . والذى فى الأصل يوافق ش ، س . وفى م : « أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب » .

(٦) ت ، د ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « تراك » ، وفى حاشيتى الأصل ، ت : « يقول : إن مت صارت الأرض خفيفة بموتك ، وإن تحيا بقيت ثقيلة » .

أبوه : أَجِزْ يا بُنىّ ، فقال : ماذا ؟ فأنشده البيت الأول، ومن الثانى قوله : « يَسْتَقِرُّ المرْ منها » ؛ فقال كعب :

* فتمنَعُ جانِبَيْها أنْ يَزُولا *

فقال زُهير : أنت والله ابنى .

وإنما خَصَّ الكَبِد من بين ما يشتمل عليه البطن ، لأنه من أطايب الجزور ، والعرب تقول : أطايب الجَزور : السَّنام ، والمِلْحاء[1]، والكَبِد .

* * *

قال سيدنا الشريف الأجلّ المرتضى ، أدام الله علوّه : وإنى لأستحسِن قولَ الخنساء[2] ، وقد قيل لها : ما مدحتِ أخاكِ حتَّى هَجَّنْتِ[3] أباك، فقالت :

جارَى أباهُ فأقْبَلا وَهُمَا ... يَتَعاوَرانِ مُلاءَةَ الحُضْرِ[4]
حتّى إذَا نَزَتِ القُلُوبُ وَقَدْ ... لُزَّتْ هُناكَ العذْرُ بالعُذْرِ[5]
وَعلا هُتافُ الناسِ : أيُّهمَا ؟ ... قال المُجِيبُ هُناكَ : لا أَدْرِى
بَرَزَتْ صفيحةُ وَجهِ وَالدِهِ ... وَمَضَى على غُلَوائِهِ يَجْرِى
أوْلَى فأَوْلَى أنْ يُساوِيَهُ ... لوْلاَ جَلالُ السِّنِّ وَالكِبَرِ
وَهُمَا كأنّهما وقَدْ بَرَزَا ... صَقْرانِ قدْ حطَّا إلى وَكْرِ

(١) الملحاء : وسط الظهر ؛ مابين الكاهل إلى العجز .

(٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « كانت الخنساء كثيرة المدح لأخيها ، فقيل لها : قد فضلته على أبيك ، فقالت هذه الأبيات » . وهى فى (زهر الآداب ، ٤ : ٦٧ وحماسة ابن الشجرى ١٠٤ ، والبيت الأول فى خزانة الأدب ٣ : ٢٧٧) .

(٣) ف ، ونسخة بحاشيتى ت ، الأصل : « هجوت » ، وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : «وروى : ما أبنت أخاك حتى هجنت أباك » .

(٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « بارى أباه ، نعنى أخاها ، ويتعاوران : يتداولان ، والحضر العدو » .

(٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : « نزت : ارتفعت ، ولزت : لصقت ، يعنى ؛ حتى تحرك قلوب النظارة ، والعذر : جمع العذار ؛ يعنى عذارى فرسيهما فى التسابق ؛ وهو استعارة » .

ويقال : إنه قيل لأبى عُبيدة : ليس هذه الأبيات فى مجموع شعر الخنساء ، فقال أبو عبيدة : العامّة أسقطُ من أن يُجاد عليها بمثل ذلك .

ولَعَمْرِى إنها قد بلغت فى مدح أخيها من غير إزراء على أبيها / النهايةَ ، لأنها جعلت [٣٢ و] تَقَدُّمَ أبيه له عن قُدْرة منه على المساواة ، وعن غير تقصير منه، وإنما[1] أفْرَج له عن السبق معرفةً بحقه ، وتسليما لـكُبْرِه وسنه ، وكأنّ الخنساء نظرتْ فى هذا المعنى إلى قول زهير يصف حمار وحش[2] :

فَشَجَّ بها الأَماعِزَ فَهْىَ تَهْوِى هُـوِىَّ[3] الدَّلْو أسلمَها الرِّشاءُ[4]
فَلَيْسَ لَحاقُهُ كَلَحاقِ إلْفٍ وَلا كَنَجائِها منـهُ نَجاءُ[5]
يُقَدِّمُهُ إذا اختَفَلَتْ عليها تَمامُ السِّنِّ منـهُ وَالذَّكاءُ[6]

ويشبه أن يكون الـكُميت أخذ من الخنساء قولَه فى مَخْلَدِ بن يزيد بن المهلّب :

ما إنْ أرَى كأبيكَ أدركَ شأْوَهُ أحَدٌ ومِثْلَكَ طالبًا لم يُلْحَقِ
تَتَجاذَبانِ ؛ لهُ فَضيلةُ سِنِّهِ وتَلَوْتَ بعدُ مُصَلِّيًا لم تُسْبَقِ[7]

---

(١) ت : « وإنه » . (٢) الأبيات فى ديوانه : ٦٧ — ٦٩ . (٣) ضبطت فى ت بضم الهاء وفتحها معا . (٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « أى شج الحمار بالأتن الأماعز ، أى علا الأماعز بهن ، والأمعز : الأرض الصلبة ، وكذلك المعزاء ، والهوىّ : السقوط إلى أسفل ، وكذلك الهوىّ فى السير . وبعد هوى من الليل ؛ أى هزيع ؛ وقيل : الهوى [بالضم] الارتفاع » .

(٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : « يقول : ليس يلحق شىء فى السرعة كما يلحق الحمار فى سرعته ، والمراد بالإلف صاحبه . ولا كنجائها ؛ أى ليس شىء ينجو كنجائها ، أى ليس شىء ينجو كنجاء الأتان ؛ أى لايهرب هارب كهربها ، ولايلحق لاحق كلحوقه » .

(٦) احتفلت : اجتهدت وتأهبت ؛ ورواية الديوان :

يُفَضِّلُهُ إذَا اجْتَهَدَتْ عَلَيهِ تَمامُ السِّنِّ مِنْهُ والذَّكاءُ

(٧) د ، ش ، ونسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « تتجاريان » ؛ وفى حاشيتى الأصل ، ف : « قوله تتجاذبان ، فى موضع الحال من قوله : « ماإن أرى كأبيك » ، ومثلك ، أى ما رأيت مثلك ومثل أبيك فى حال تجاذبهما وتجاريهما فى المجد والشرف . وقوله : « له فضيلة سنه » جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر ؛ المعنى يقول : إن سبقك أبوك فلا غرو ، فإنه لم يسبق قط ، وإن سبقته فأنت جدير بالسبق » .

إنْ تَنْزِعَا ولَهُ فَضِيلَةُ سَبْقِهِ … فَبِمِثْلِ شَأْوِ أبيكَ لَمْ يُتَعَلَّقِ
وَلَئِنْ لَحِقْتَ بِهِ على ما قدْ مَضَى … مِنْ بُعْدِ غَايَتِهِ فَأَحْجِ وَأَخْلِقِ

ويشبه هذا المعنى قولُ المؤمَّل بن أُمَيْل الكوفىّ المحاربىّ يمدح المهدىّ فى حياة المنصور:

لَئِنْ فُتَّ المُلُوكَ وَقدْ تَوَافَوْا … إلَيْكَ مِنَ السُّهُولَةِ وَالوُعُورِ [(١)]
لَقَدْ فَاتَ الملوكَ أبُوكَ حتَّى … بَقُوا مِنْ بَيْنِ كابٍ أوْ حَسِيرِ [(٢)]
وَجِئْتَ وَرَاءَهُ تَجْرِى حثِيثاً … وَمَا بِكَ حَيْثُ تَجْرِى من فُتُورِ

---

(١) خبر هذه الأبيات فى أمالى الزجاجى : ٦٠ — ٦٢ : « وفد المؤمل بن أميل على المهدى بالرى فامتدحه ، فأمر له بعشرين ألف درهم ؛ فاتصل الخبر بالمنصور ؛ فكتب إليه يعذله ويقول : إنما كانت سبيلك أن تأمر للشاعر بعد أن يقوم ببابك سنة بأربعة الآف درهم ؛ وكتب إلى كاتبه بإنفاذ الشاعر إليه ، فسأل عنه فقيل له : قد شخص إلى مدينة السلام، فكتب إلى المنصور بخبره، فأنفذ المنصور قائداً من قواده إلى النهروان يتصفح وجوه الناس ؛ حتى وقع بيده المؤمل ، فأتى به المنصور ، فقال له : أتيت غلاماً غراً فخدعته ! قال : نعم‌ياأمير المؤمنين ! أتيت غلاماً غراً كريما فخدعته فانخدع لى ؛ فكأن ذلك أعجبه، فقال له : أنشدنى ما قلت فيه ؛ فأنشده :

هُوَ المَهْدِىُّ إلاَّ أنَّ فيه … مَشَابِهَ صورةِ القمرِ المنيرِ
تشابَهَ ذا وذا فهُمَا إذا ما … أنارا مُشْكِلانِ على البَصِيرِ
فهذا فى الظَّلام سراجُ نارٍ … وهذا فى النَّهار سِراجُ نورِ
ولكنْ فَضَّلَ الرَّحمنُ هذا … على ذا بالمنابِرِ والسَّريرِ
وبالمُلْكِ العزيزِ فذا أميرٌ … وماذا بالأميرِ ولا الوزيرِ
ونَقْصُ الشَّهرِ يُخمد ذَا وهَذا … مُنيرٌ عند نُقصان الشُّهورِ
فيا بن خليفةِ اللهِ المصفَّى … به تعلى مُفاخَرةُ الفخورِ
لئن فت الملوك . . . . .

فقال : أحسنت ، ولكن لايساوى عشرين ألف درهم ، ثم قال : أين المال ؟ فقال : هاهوذا ، قال ياربيع : أعطه منه أربعة آلاف درهم ، وخذ الباقى ، ففعل ؛ فلما صارت الخلافة إلى المهدى رفع المؤمل إليه يذكر قصته ، فضحك ، وأمر برد المال إليه ، فرد » .

(٢) الكابى : المتغير اللون ، والحسير : المعيى .

فقالَ النَّاسُ ما بينْ ذَيْنِ إلّا   بمَنْزِلَةِ الخَلِيقِ مِنَ الجَدِيرِ (١)

فإنْ سَبَقَ الـكَبيرُ فأهْلُ سَبْقٍ   لهُ فَضْـلُ الـكَبيرِ على الصَّغيرِ

وإنْ بَلَغَ الصَّغيرُ مَدَى كَبيرٍ   فقدْ خُلِقَ الصَّغيرُ مِنَ الـكَبيرِ

ومن هذا المعنى قول الشاعر :

جِيادٌ جرَتْ فى حَلْبَةٍ فتفاضَلَتْ   على قَدَرِ الأسْنانِ والعِرْقُ واحدُ (٢)

ومما له بهذا المعنى بعضُ الشَّبه ، وإن لم يُذكر فيه السِّن وتفضيل الـكَبِير قول زُهير :

[٣٢ ظ] / هُوَ الجَوَادُ فإنْ يلْحَقْ بشأوِهِما   على تـكاليفِهِ فمِثلُهُ لَحِقا (٣)

أو يَسبِقاهُ على ما كانَ مِنْ مَهَلٍ   فمِثْلُ ما قدَّما مِنْ صالِحٍ سَبَقا

وروى أنه عُرِضت على جعفر (٤) بن يحيى بن خالد البَرْمَكىّ جارية شاعرة ، فأراد أن يبلوَها فقال لها : قولى فى معنى بيتَىْ زهير اللذين ذكرناها ، فقالت :

---

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أى لم يكن بينك وبين أبيك من الفرق والتفاوت إلا مثل ما بين الخليق والجدير ، ومعناهما واحد » .

(٢) حاشية الأصل : « أى على الـكبر والطعن فى السن . والعرق : الأصل » .

(٣) البيتان فى ديوانه : ٥١ — ٥٢ ؛ وقبلهما :

يَطْلُبُ شأْوَ امْرَأيْنِ قَدَّمَا حَسَنًا   نالَا الملوكَ وبَذَّا هَذِهِ السُّوَقا

والشأو : الغاية ، وأراد بالمرأين أباه وجده .

(٤) حاشية ف « قيل : لما قتل جعفر بن يحيى وصلب بباب الجسر ، رأسه فى ناحية ، وجسده فى ناحية ، مرت به امرأة على حمار فاره ، فوقفت عليه ثم نظرت إلى الناس فقالت بلسان فصيح : والله لئن صرت اليوم آية ؛ لقد كنت فى المـكارم غاية ؛ ثم أنشأت تقول :

ولما رأيتُ السَّيْفَ خالطَ جَعْفَراً   ونادَى مُنادٍ للخليفَةِ فى يحيى

بكيتُ على يحيى وأيقنتُ أنَّما   قُصارى الفتى يوماً مفارقَةُ الدُّنيا

وما هِيَ إلّا دَوْلَةٌ بعدَ دَوْلَةٍ   تُخَوِّلُ ذا نُعْمَى وتُعْقِبُ ذا بَلْوَى

إذا أنزلتْ هـذا منازلَ رِفْعَةٍ   من الملك حطَّتْ ذا إلى غايةٍ سُفْلَى

ثم حركت الحمار ؛ فكأنها كانت ريحاً لم تعرف » .

بَلَغْتَ ـ أو كِدْتَ ـ يحيى أو لَحِقْتَ بهِ ... فنِلْتُمَا خالداً فى شأْوِ مُسْتَبِقِ

لَـكِنْ مَضَى وتَلا يحيى فأنتَ لهُ ... تالٍ تَمَهَّلْتَ دُونَ الرَّكْضِ بالعَنَقِ[1]

ومن أحسَنِ ماقيل فى المساواة والمقاربة ـ وهو داخل فى هذا المعنى، مناسب له ـ قول عبّاد ابن شِبْل :

إذا اخترْتَ مِن قومٍ خِيارَ خِيارِهمْ ... فـكُلُّ بَنِى عبدِ المَدَانِ خِيـارُ

جرَوْا بعِنَانٍ واحدٍ فَضْلُ بَيْنِهم ... بأنْ قِيلَ قدْ فاتَ المِذارَ عِذارُ[2]

وقول الـكُميت بن زيد :

مُصَلٍّ أباهُ لهُ سابِقٌ ... بأن قيلَ فاتَ العِذارُ العِذارا[3]

ومثله قولُ العتّابىّ ـ وهو مليح[4] جداً :

كما تَقَاذَفُ جُرْدٌ فى أعنّتها ... سبْقاً بآذانها مَرّاً وبالعُذُرِ[5]

وأول مَن سبق إلى هذا المعنى زُهير فى قوله يصف مطاردَةَ البازى القطاة[6] ومقاربتَه لها :

دُونَ السَّماءِ وفوْقَ الأرْضِ قدْرُهُما ... عِندَ الذُّنابَى فلا فَوْتٌ ولا دَرَكُ[7]

وقد لَحَظ أبو نواس هذا المعنى فى قوله يمدحُ الفضلَ بن الربيع ، ويذكر مقاربتَه لأبيه فى الفضل[8] والسؤدُد :

---

(١) ش ، وحاشية ت (من نسخة) : « تعلل » . وفى حاشيتى الأصل ، ف : « العنق دون الركض ، أى أنك تتعلل بالعنق إبقاء وحشمة لأبيك وجدك ، ولو مرت ركضا لسبقتهما » .

(٢) العذار من اللجام : ماسال على خد الفرس .

(٣) المصلى : الثانى من خيول السبق .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « حسن » .

(٥) ج ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « تقاذف » ، بفتح الفاء . وفى حاشيتى الأصل ، ف : « تقاذف ، أى تتسابق فى عنان واحد ، على حد واحد ؛ لاتسبق إحداها على الأخرى إلا بأذن أو بعنان » . وفرس أجرد ؛ قصير الشعر رقيقه .

(٦) د ، حاشية ت (من نسخة) : « للقطاة » .

(٧) ديوانه : ١٧٤ ، الذنابى : الذنب ، وفى حاشيتى ت ، ف : « عند الذنابى مستأنف ، أى الصقر عند ذنابى القطاة » .

(٨) ف ، ونسخة بحاشية ت : « والمجد » .

ثُمَّ جرَى الفَضْلُ فاتَنِى قُدُماً ... دُونَ مَداهُ مِنْ غَيْرِ تَرْهِيقِ (١)
فقيلَ راشا سهماً يُرَادُ بهِ ال ... غايةُ والنَّصْلُ سابقُ الفُوقِ (٢)

ويشاكل ذلك قولُ البحترىّ فى ابن أبى سعيد الثَّغْرِىّ :

جَدٌّ كجَدِّ أبى سعيدٍ إنَّهُ ... تَرَكَ السِّماكَ كأنه لَمْ يُشْرِفِ (٣)
قاسَمْتَهُ أخلاقَهُ وهْىَ الرَّدَى ... لِلْمُعْتَدِى، وهْىَ النَّدَى لِلْمُعْتَفِى
/ فإذا جرَى مِنْ غايةٍ وجرَيْتَ مِنْ ... أُخرى التَقَى شأْواكُما فى المَنْصَفِ [٣٣ و]

ويشبهه أيضاً قوله :

وإذا رأيتَ شمائلَ ابنَىْ صاعِدٍ ... أدَّتْ إليكَ شمائلَ ابنَىْ مَخْلَدِ (٤)
كالفَرْقَدَيْنِ إذا تأمَّلَ ناظِرٌ ... لمْ يَعْلُ موضِعُ فَرْقَدٍ عن فَرْقَدِ

فأما قول الخنساء: «يتعاوران مُلاءة الحُضْر»، فهى تعنى بالمُلاءة الغبار، وإنّ عدىّ بن الرِّقاع كأنه نظر إليها فى قوله يصف حماراً وأتانا :

يَتَعاوَرانِ مِنَ الغُبارِ مُلاءةً ... بَيْضاءَ مُحْدَثَةً هُمَا نَسَجاها (٥)

(١) ديوانه: ٩١، وفى حاشيتى الأصل، ت: «أى من غير مداناة أو لحوق».
(٢) راش السهم: وضع عليه الريش، والنصل: حديدة السهم، والفوق: موضع الوتر من السهم.
(٣) ديوانه ٢ : ١٢٢، وفى حاشيتى الأصل، ف: «أى جد كجد أبى سعيد مذكور، أى جعل السماك غير عال؛ كأنه قد علاه وفاقه».
(٤) فى حاشيتى الأصل، ف: «يسوى بين ابنى صاعد وابنى مخلد»، والبيتان فى ديوانه ١ : ١٧٢، وروايته: «... شمائل ابن محمد».
(٥) البيتان من قصيدته التى مطلعها :

ماهاجَ شوقَكَ من مَغانِى دِمْنَةٍ ... ومنازلٍ شَغَفَ الفُؤادَ بِلاهَا

وهى فى الطرائف الأدبية: ٩٢ـ٩٧، والبيتان فى (معانى العسكرى ٢ : ٣١، وحماسة ابن الشجرى: ٢٧٦ـ٢٧٧، ومعجم المرزبانى ٢٥٣، وشرح المختار من شعر بشار ٣١٧، وزهر الآداب ٤ : ٦٨، ومجموعة المعانى: ٢٠٣). ويتعاوران؛ أى تصير الغبرة للعير مرة، وللأتان مرة.

تُطْوَى إذا وَطِئَا مَكاناً جاسِيًا ... وإذا السَّنابِكُ أَسْهَلَتْ نَشَرَاها(١)

وهذا المعنى ، وإن كان هو معنى الخنساء بعينه فقد زاد فى استيفائه عليها زيادة ظاهرة، صار من أجلها بالمعنى أحقَّ منها . وقد ابتدأ بهذا المعنى رجلٌ من بنى عُقيل فقال من قصيدة(٢) :

يُثيرانِ مِنْ نَسْجِ التُّرابِ عليهما ... قَميصَيْنِ أَسْمالًا ويَرْتَدِيانِ

---

(١) الجاسى : الغليظ من الأرض ، وأسهلت : صارت إلى سهولة الأرض .

(٢) أبيات منها فى الخزانة ٣ : ٢٧٦ ، منسوبة إلى ابن مقبل ، وفى زهر الآداب ٤ : ٦٨ منسوبة لأعرابى من بنى عقيل .

وقبله :

قِفَارٌ مَرَوْرَاةٌ يَحارُ بِهَا القَطَا ... ويُضْحِى بِهـا الجأْبَانِ يَفْتَرِقَانِ

المروراة : المفازة التى لاشىء فيها ، والجأبان : مثنى جأب ؛ وهو الحمار الغليظ من حمر الوحش ، وأراد بالجأبين الذكر والأنثى .

مجلس آخر

تأويل آية *

إن سأل سائل عن قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ؛ [يوسف ١٨].

فقال: كيف وصف الدم بأنه كذِب، والكذبُ من صفات الأقوال لا من صفات الأجسام؟ وأىّ معنى لوصفه الصبرَ بأنّه جميل؟ ومعلوم أنّ صبرَ يعقوب عليه السلام على فقد ابنه يوسف لا يكون إلا جميلًا ؟ ولِمَ ارتفع الصبر ؟ وما المقتضى لرفعه ؟

والجواب، يقال له : أمّا ﴿ كَذِبٍ ﴾ فمعناه أنّه مكذوب فيه وعليه ، مثل قولهم : هذا ماءٌ سَكْبٌ وشراب صَبٌّ ؛ يريدون مصبوبا ومسكوبا ؛ ومثله : ماءٌ غَوْرٌ ، ورجل صَوْمٌ ، وامرأة نَوْحٌ[1] ، قال الشاعر :

تَظَلُّ جِيادُهُمْ نَوْحًا عليهمْ ... مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفونا[2]

أراد بقوله : « نَوْحًا » أى نائحة عليهم ، ومثله : ما لفلان معقول ؛ يريدون عقلا ، وما له على هذا الأمر مجلود ، يريدون جلَدا[3] ، قال الشاعر :

---

* ورد هذا العنوان فى ت ، ف، ولم يرد فى سائر الأصول .

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الوصف بالمصدر يفيد قوة ذلك الفعل ؛ كقولهم : رجل صوم ؛ يعنى أنه لكثرة صومه كأنه صار بكليته صوما ، ومن ذلك : ماء سكب وصب » .

(٢) صفونا : جمع صافن ؛ والصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر ، والبيت لعمرو بن كلثوم ، من المعلقة ، وروايته فيها :

تَرَكْنا الخَيْلَ عاكِفَةً عليْه ... مُقَلَّدَةً أعِنَّتَها صُفونا

(وانظر المعلقات ــ بشرح التبريزى : ٢١٧) .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « بين السيد رضى الله عنه أنه كما يكون بمعنى المفعول ؛ فقد يكون المفعول بمعنى المصدر ؛ وهما متداخلان فى هذا المعنى ؛ فإذا كان المفعول بلفظ المصدر فلأن المفعول الحقيقى هو المصدر ، ألا ترى أنك إذا قلت : ضربت زيدا ففعلك على الحقيقة هو الضرب لا زيدا ، وإذا جاء المصدر بمعنى الفاعل فلأنه سبب له ؛ والفعل له طرفان: أحدهما إلى المفعول ، والآخر إلى الفاعل » .

[٣٣ ظ] / حتَّى إذا لَمْ يَتْرُكوا لِعِظامِهِ ... لَحْماً ولا لِفُؤَادِهِ مَعْقُولا

وأنشد أبو العباس ثعلب :

قَدْ والذي سَمَكَ السَّماءَ بِقُدْرَةٍ ... بَلَغَ العَزَاءُ وأُدْرِكَ المَجْلودُ

وقال الفرّاء وغيره : يجوز فى النحو : « بدم كَذِباً » بالنصب على المصدر ؛ لأنّ ﴿ جاءوا ﴾ فيه معنى كَذبوا كَذِباً ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ [العاديات : ١] فنصب ضَبْحًا[١] على المصدر ؛ لأن العادياتِ بمعنى الضابحات ، وإنما كان دماً مكذوباً فيه ؛ لأن إخوةَ يوسفَ[٢] ذبحوا سَخْلة ، ولطخوا قميصَ يوسف بدمها ، وجاءوا أباهم بالقميص، وادّعوا أكلَ الذئب له ، فقال لهم يعقوب[٢] : يا بَنِيّ ، لقد كان هـذا الذئب رفيقاً حين أكل ابنى ، ولم يُخَرِّقْ قميصه ؛ قالوا : بل قتله اللصوص ، قال : فكيف قتلوه وتركوا قميصه ، وهُمْ إلى قميصه أحوجُ منهم إلى قتله !. وقد قيل : إنه كان فى قميص يوسف ثلاثُ آيات : حين قُدَّ قميصه من دُبُر ، وحين أُلقِيَ على وجه أبيه فارتد بصيراً، وحين جاءوا عليه بدم كَذب ؛ فتنبه أبوه على أنّ الذئب لو أكله لخرّق قميصه[٣] .

وأما وصف الصبر بأنه جميل، فلأن الصبرَ قد يكون جميلا وغير جميل ، وإنما يكون جميلا إذا قُصِد به وجهُ الله ، وفُعِل للوجه الذى وَجب ، فلما كان فى هذا الموضع واقعاً على الوجه المحمود صحّ وصفُه بذلك . وقد قيل إنه أراد صبراً لا شكوى فيه ولا جَزَع ، ولو لم يصفه بذلك لَظُنَّ مصاحبةُ الشكوى أو الجزع له . وأما ارتفاع قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فقد قيل إن المعنى : فشأنى صبرٌ جميل ، أو الذى أعتقده صبر جميل[٤] . وقال قطرب : معناه فصبرى صبر جميل ؛ وأنشدوا :

---

(١) الضبح : صوت يسمع من جوف الفرس حال العدو . (٢) ت : « يوسف عليه السلام » .

(٣) فى حاشيتى ت ، ف : « قال السيد المرتضى رضى الله عنه : وقد قرئ : ﴿ بِدَمٍ كَدِبٍ ﴾ وهو الدم المسفوح » . (٤) فى حاشيتى ت ، ف : « يجوز أن يكون « صبر » مبتدأ وخبره محذوف ، ويحتمل أن يكون « صبر » مبتدأ و« جميل » خبره » ، وفى حاشية ف أيضا : « وهو وإن كان نكرة يقوم مقام المعرفة ؛ وذلك أن أى صبر كان فهو المراد » .

شَكا إلىَّ جَملى طولَ السُّرَى ... يا جَملى ليسَ إلىَّ المُشْتكَى
الدِّرهمانِ كَلَّفانِى ما تَرَى(١) ... صبرٌ جميلٌ فكِلانا مُبْتَلى

معناه : فليكنْ منك صبر جميل . وقد رُوى أن فى قراءة أُبَىّ : ﴿ فَصَبْرًا جَمِيلًا ﴾ بالنصب ، وذلك يكون على الإغراء(٢) ، والمعنى فاصبرى يانفس صبراً جميلًا ، قال ذو الرُّمة :

أَلَا إنَّما مَىٌّ ـ فصبراً ـ بَلِيَّةٌ ... وقدْ يُبْتَلَى الحُرُّ الكريمُ فيَصْبِرُ(٣)

وقال الآخر :

أَبَى اللهُ أنْ تَبْقَى لحىٍّ بَشاشةٌ ... فصَبْرًا على ما شاءهُ اللهُ لى صَبْرَا

تأويل خبر

/فى الحديث أن قيسَ بن عاصم قال : أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وآله فقال : « هذا [٢٤ و] سيِّد أهلِ الوبر » ؛ فقلت : يا رسول الله ، ما المالُ الذى ليست علىَّ فيه تِبِعةٌ من طالب ولا ضيف ؟ فقال عليه السلام : « نِعْمَ المالُ أربعون ، والكُثْر ستون ، وويلٌ لأصحاب المئين! إلا مَنْ أعطَى الكريمةَ ، ومنح الغَزِيرةَ(٤) ، ونحرَ السَّمينة ، فأكل وأطعم القانع والمُعْتَرّ » ـ وفى رواية أخرى : « إلا مَنْ أعطى من رِسْلِها ، وأطرق فَحْلَها ، وأفقر ظهرَها ، ومنح غزيرتَها ، وأطعم القانعَ والمعترّ » ؛ قلت : يارسول الله : ما أكرمَ هذه الأخلاق وأحسنَها ! إنه لا يُحَلُّ بالوادى الذى فيه إبلى من كثرتها . فقال : « فكيف(٥) تصنع فى المطيمة »(٦) ؟ قلت : أعطِى البَكْر ، وأعطى الناب . قال : « فكيف تصنع فى المِنْحَة ؟ » ، قلت : إنى لأمنح المائة . قال : « فكيف(٥) تمطى الطَّروقة ؟ » ، قلت : يغدو الناس بإبلهم فلا يوزَع

(١) هذا البيت ورد فى ت ، وحاشية ف .
(٢) حاشية ف : « معنى الإغراء أن يغريه القائل بالتزام الذى أشار إليه ؛ كقولهم : عليك به » .
(٣) ديوانه : ٢٢٥ .
(٤) الغزيرة كثيرة اللبن .
(٥) ت ، د ، حاشية ف (من نسخة) : « كيف » .
(٦) ف ، حاشية الأصل (من نسخة) « المطية » .

رجل عن جمل يخطمه[١] فيمسكه مابدا له، حتى يكون هو الذى يردُّه. وفى الرواية الأخرى قال: « فكيف تصنع فى الإطراق ؟ »، قلت: يغدو الناس فمَنْ شاء أن يأخذ برأس بعير ذهب به. قال: «فكيف تصنع فى الإفقار؟»، قلت: إنى لأُفْقِرُ النابَ المُدْبِرة والضَّرَع[٢] الصغيرة، قال: « فكيف تصنع فى المَنيحة؟ » قلت: إنى لأمنَح فى السنة المائة، قال: «فمالُكَ أحبُّ إليك أم مالُ مواليك ؟ »[٣]، قلت: لا، بل مالى، قال: «فإنَّ مالَك ما أكلتَ فأفنيتَ، وأعطيتَ فأمضيتَ». وفى الرواية الأخرى: « ولبست فأبليتَ، وسائره لمواليك »، قلت: لا جرَم! والله لئن رجعت لأُقِلَّنَّ عددها. فلما حضره الموت جمع بنيه فقال: يا بنىَّ خذوا عنى، فإنكم لن تأخذوا عن أحد هوأنصحُ لكم منى، لا تنوحوا علىَّ فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يُنَحْ عليه، وقد سمعتُه ينهى عن النياحة، وكفِّنونى فى ثيابى التى كنت أُصلِّى فيها، وسوِّدوا أكابرَكم، فإنكم إذا سوَّدتم أكابرَكم لم يزل لأبيكم فيكم خليفةٌ، وإذا سوَّدتم أصاغركم هان أكابرُكم على الناس، وزهِدوا فيكم، وأصلحوا مِنْ[٤] عيشكم؛ فإن فيه غنى عن طلب إلى الناس، وإياكم والمسألة؛ فإنها آخر[٥] كسب المرء، وإذا دفنتمونى فأخْفُوا قبرى عن بكر بن وائل، فقد كانت بيننا خُماشات فى الجاهلية، فلا آمَنُ سفيهاً منهم أن يأتى / أمراً يدخل عليكم عيباً[٦] فى أبيكم[٧]. [٣٤ ظ]

---

(١) ت، وحاشية ف (من نسخة) : « يختطمه ».

(٢) رواية ابن الأثير فى النهاية (ضرع) : « إنى لأفقر البكر الضرع ، والناب المدبر ، أى أعيرهما للركوب ؛ يعنى الجمل الضعيف ، والناقة الهرمة » .

(٣) حاشية ف : « المولى من يليك ؛ من ابن العم والمعتق ؛ ويليك ؛ أى يقربك ، وأصل الولى القرب .

(٤) م : « وأصلحوا عيشكم » ، وحاشية ف (من نسخة) : « وأصلحوا من أمر عيشكم » .

(٥) ف ، ونسخة بحاشيتى الأصل، ت « أخس » .

(٦) من نسخة بحاشيتى ت ، ف : « عيبا » .

(٧) الخبر بهذه الرواية فى (الفائق ٣ : ١٣٠) ، وفى رواية أخرى فيه أيضا : « وإذا مت فغيبوا قبرى من بكر بن وائل ، فإنى كنت أناوشهم فى الجاهلية — ورُوى : أهاوشهم — وروى أغاولهم » .

فأما قوله : « الكُثْرُ سِتّون » فمعناه الكثير ، تقول العرب : نسأل الله الكُثْر ، ونعوذ به من القُلّ ؛ أي نسأله الكثير ، ونعوذ به من القليل ؛ وقال الشاعر :

فإنّ الكُثْرَ أعياني قديماً ... ولم أُقْتِرْ لَدُنْ أنّى غُلامَ[1]

وقال الآخر :

وقدْ يَقْصُرُ القُلُّ الفتَى دُونَ هَمِّهِ ... وقدْ كانَ لوْلاَ القُلُّ طَلاَّعَ أنْجُدِ[2]

والكريمة، يعنى بها كرائمَ ماله . و«أمنح الغزيرة»، أي أعطيها مَنْ يحلُبها ويردّها ، ومن ذلك الحديث : «العاريةُ مُؤَدّاة ، والمِنْحَةُ[3] مردودة ، والزعيم [4] غارم ، والدَّيْن مقضِى[4] » فالمِنْحة الناقة أو الشاة يدفعها الرجل إلى مَنْ يحلبها وينتفع بلبنها ثم يردها عليه ، والزعيم : الكفيل ، ويقال له أيضا القبيل[5] والصَّبير والحميل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ ؛ [يوسف : ٧٢] ، قال الشاعر :

فلَسْتُ بآمِرٍ فيها بسِلْمٍ ... ولكنّى على نفسى زَعيمُ[6]

وقال آخر :

قلتُ كَفَى لكِ رَهنٌ بالرِّضا ... فازْعَمى يا هِنْدُ قالتْ قدْ وَجَبْ[7]

معناه اكفُلِى ، ويروى : «فاقبلى» ، من القبيل الذى هو الكفيل أيضا .

---

(١) البيت فى اللسان (كثر) ، ونسبه إلى رجل من ربيعة ، وفى حاشيتى ت ، ف : «أى لم أكن قبل مكثرا ولا مقترا ، يصف حاله بالتوسط ، والإقتار : الفقر » .

(٢) البيت فى اللسان (قلل) ، ونسبه إلى خالد بن علقمة الدارمىّ ، وأنشد قبله :

ويل امِّ لذّاتِ الشّبابِ معيشه ... معَ الكُثْرِ يُعطاه الفتَى المُتْلِفُ النَّدِى

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « المنيحة » ، وهى والمنحة بمعنى .

(٤ ـ ٤) حاشية ت (من نسخة) : « والدين مقضى ، والزعيم غارم » .

(٥) القبيل : الكفيل والعريف ، وقد قبل يقبل قبالة ؛ أى يكفل .

(٦) حاشية ف : « معناه لاأملك إلا نفسى » .

(٧) البيت لعمر بن أبى ربيعة ؛ وهو فى ديوانه ٢٧٨ ، وفى حاشية ف : « أى ضمنت وحلفت على نفسى ألا أجاوز رضاك ، فافعلى مثله » .

وقال الفرّاء : القانع هو الذى يأتيك فيسألك ؛ فإن أعطمتَه قبل ، والمعترّ : الذى يجلس عندالذبيحة ، ويُمسك عن السؤال ، كأنّه يُعرّض فى المسألة ولا يصرّح بها، يقال قنِع الرجل قَناعة إذا رضى ، وقَنَع قُنُوعاً إذا سأل .

فأما قوله : «لا جرم» فقال قوم : معنى جَرَم كسب ، وقالوا فى قوله تعالى: ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ [النحل : ٦٢] ، أنّ « لا » ردٌّ على الكفار ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ بمعنى كسب قولهم أنّ لهم النار ، وقال الشاعر :

نَصَبْنا رَأْسَهُ فى رَأْسِ جِذْعٍ بما جَرَمَتْ يَدَاهُ وما اعتَدَيْنا(١)

أى : بما كسَبَت . وقال آخرون : معنى «جَرَم» حَقّ ، وتأول الآية بمعنى حَقَّق قولُهم أن لهم النار ؛ وأنشدوا :

ولقدْ طَعَنْتُ أبا عُيَيْنَةَ طَعْنةً جَرَمَتْ فَزارةُ بعدَها أنْ يَغْضَبُوا(١)

أراد : حَقّقت فَزارةُ ، وروى الفرّاء « فزارةَ » ، بالنصب على معنى كسبت(٢) الطعنةُ

[٣٠ و] فزارةَ الغضبَ / ، وقال الفراء : لاجرم فى الأصل مثل لا بُدَّ ، ولا محالةَ ، ثم استعملته العرب فى معنى حقّاً ، وجاءت فيه بجواب الأيمان ، فقالوا : لا جرَم لأقومنّ ؛ كما قالوا : والله لأقومَنّ ، وفيها لغات ، يقال : لا جَرَم ، ولا جُرْمَ ، بضم الجيم وتسكين الراء ، ولا جَرَ ، بحذف الميم ، ولا ذا جَرَم ؛ قال الشاعر :

إنّ كِلَاباً والذِى لَا ذَا جَرَمْ(٣) لأَهْدِرَنَّ اليومَ هَدْراً فى النَّعَمْ(٤)

* هَدْرَ المُعَنّى(٥) ذِى الشّقاشِقِ اللَّهِمْ(٦) *

(١) البيت فى اللسان (جرم) ، ونسبه إلى أبى أسماء بن الضريبة. (٢) د : « أكسبت » .

(٣) البيت فى اللسان (جرم) من غير عزو . (٤) لأهدرن : لأصوتن ؛ من الهدير ، وهو تردد صوت البعير فى حنجرته . (٥) حاشية ت (من نسخة) : « المغنى » .

(٦) حواشى الأصل ، ت ، ف : المعنى : الذى يدخل العنق من الإبل ؛ وهى الحظيرة ؛ وذلك أن الفحل اللئيم إذا هاج حبس حتى لايضرب فى النوق الكرام ، ومنه قول الوليد بن عقبة :

قَطَعْتُ الدهرَ كالسَّدِمِ المُعَنَّى تُهدّرُ فى دِمِشْقَ فلا تَرِيمُ

=

والناب : الناقة الهرمة ، وجمعها نِيب ، ومثلُها الشارف ، قال الشاعر :

لاَ أَفتأُ الدَّهرَ أَبكيهمْ بأَرْبعَةٍ ... ما اجترّتِ النِّيبُ أوْ حَنّتْ إلى بَلَدِ[(١)]

ويقال للبعير أيضا إذا كبر عَوْدٌ ، وللأنثى عَوْدة ، قال الشاعر :

عَوْدٌ عَلَى عَوْدٍ مِنَ القِدَمِ الأُوَلْ ... يَموتُ بالتَّرْكِ ويَحْيَا بالعَمَلْ[(٢)]

وهذا من أبيات المعاني ، ومعناه بعيرٌ عَوْد على طريق متقادم ، وسُمِّيَ الطريقُ بأنه ● عَوْد لتقادمه تشبيها بالبعير ، وقوله :

* يموت بالترك ويحيا بالعمل *

أراد أنه إذ سُلِكَ وطُرِق ظهرت أعلامه ، ووضحت طرقُه ، واهتدى سالكه لسلوكه ، ولم يَضِلّ عن قصده ، فكان هذا كالحياة له ، وإذا لم يُسْلَك طمست آثارُه ، وامَّحَتْ[(٣)] معالمه ، فلم يهتدِ فيه راكب لقصْد ، وكان ذلك كالموت له .

فأما « الخُماشات » فهى الجنايات والجراحات ، : قال ذو الرُّمة يذكر الحمار والأُتُن :

رَبَاعٍ لهـا مُذْ أَوْرَقَ العودُ عندَهُ ... خُماشاتُ ذَحْلٍ ما يُرَادُ امتِثالُها[(٤)]

= وأصله « الظنن » ؛ فقلبت إحدى النونات ياء ، كقولك : تظنيت ، وفى التنزيل : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ، والشقاشق : جمع شقشقة ؛ وهى كالرئة تخرج من فم البعير إذا هاج واغتلم ، واللهم : الذى يلتهم كل شيء ؛ أى يبتلع ، وفرس لهم : سريع ؛ كأنه يلتهم الأرض .

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : لا أفتأ ؛ أى لا أزال أبكيهم بأربعة ؛ أى بأربعة شئون ؛ وهى مجارى الدمع من الدماغ ؛ ومثله قول الآخر :

* جُودِي بأَرْبعةٍ على الجَرّاحِ *

وقيل بأربعة آماق من موق العين ، واجترت : إذا أكلت الجرة ، والجرة : ما يخرجه البعير من بطنه ليمتلعه .

(٢) البيتان فى اللسان (عود) ، ونسبهما إلى بشير بن النكث .

(٣) من نسخة بحاشيتى ت ، ف : « أنهجت » ؛ أى بليت .

(٤) ديوانه : ٥٣٣ ؛ وفى حاشيتى ت ، ف : « الرباع من الغنم ماله أربع سنين ، ومن الحافر ماله خمس سنين ، ومن الخف ماله سبع سنين والجمع ربع ، وقد أربع » .

يريد بقوله : «مارادامتثالها» ، أي ما راد اقتصاصها ، يقال : أمثِلْنى من هذا الرجل ، وأقِدْنى وأقِصَّنى بمعنى واحد .

فأما قوله: «لايُوَرَّع» ، أى لا يحبَسُ ، ولا يمنع ، يقال ورَّعت الرجل توريعا إذا منعته وكففته ، والوَرِع هو المتحرج(١) المانع نفسه مما تدعوه إليه ، يقال وَرِعَ ورَعاً ورعةً ؛ قال لبيد :

أَكُلَّ يَوْمٍ هامَتِى مُقَزَّعَهْ(٢) ... لا يَمْنَعُ الفِتْيانَ مِنْ حُسْنِ الرِّعَهْ(٣)

ويقال : ما ورّع أن فعل كذا وكذا، أي ما كَذَبَ(٤) ،فأما الوَرَع بالفتح فهو الجبان.

[٣٠ ظ] وأما الطَّرُوقة / فهى التى قد حان لها أن تُطرَق ، وهى الحِقّة . وقوله فى الرواية الأخرى « إلا مَنْ أعطى من رِسلها» فالرِّسْل اللبن . والإفقار : هو أن يُركِبها الناس، ويحملهم على ظهورها ، مأخوذ من فِقَر الظهر ، والإطراق : للفحول هو أن يبذلها لمن يُنْزيها على إناث إبله. وذكرُ الإطراق فى هذه الرواية أحبُّ إلىّ من الطَّروقة لأنه قد تقدم من قوله: «إنه يعطى الناب والبَكرَ والضرعَ والمائة » فلا معنى لإعادة ذكر الطَّروقة . وقوله فى الجواب «يغدُو الناسُ فلا يورِّع رجلٌ عن جمل يخطمه فيُمسكه قائداً له(٥) ثم يردُّه » لا يحتمل غير الإطراق، ولا يليق بمعنى الطَّروقة .

* * *

وكان قيس بن عاصم شريفاً فى قومه ، حليما ويكنى أبا على ، وكان الأحنف بن قيس يقول :

---

(١) ت : « هو الرجل المتحرج » .

(٢) من أرجوزة فى ديوانه ٧ـ٨ ، وفى حاشيتى الأصل، ف : « المعنى : أ كل يوم أحارب وألبس المغفر حتى ذهب شعر مقدم رأسى ، والأقزع : الأصلع ؛ إلا أن الأقزع الذى أدى صلعه إلى وسط رأسه » .

(٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « يمكن أن يكون المعنى إن هامته المقزعة التى قزعتها أعداؤه تركت الفتيان من قبيلته على حسن الرعة والتحرج . وهذا الحديث خارج مخرج التذمم » .

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « قوله : ما كذب [بالتخفيف] أى مالبث أن فعل كذا ، وما كذّب [بالتشديد] ، أى ماجبن ، وحمل فلان فما كذّب [بالتشديد] أيضا ، أى صدق الحملة فى الحرب » .

(٥) ت ، د ، ف ، حاشية الأصل من نسخة : « مابداله » .

إنما تعلمت الحلمَ من قيس بن عاصم ؛ أُتِي بقاتل ابنه فقال : رَعَبْتم الفتى ، وأقبل عليه فقال : يا بُنيّ لقد نقصتَ عددَك ، وأوهنتَ رُكْنَك ، وفتَتَّ في عضُدِك ، وأشمتَّ عدوَّك ، وأسأتَ بقومك ؛ خلّوا سبيله ؛ وما حَلّ حُبْوته ، ولا تغيّر وجهه .

وقال ابن الأعرابيّ : قيل لقيس : بماذا سُدْتَ ؟ فقال بثلاث : بَذْلِ الندى ، وكفّ الأذى ، ونصْر المولى .

وذكر المدائنيّ قال : كان قيس بن عاصم يقول لبنيه : إياكم والبغْي ، فما بَغَى[1] قوم قط إلاّ قَلّوا وذَلّوا . وكان الرجل من بنيه يَظلِمه بعضُ قومه فينهى إخوتَه أن ينصرُوه .

وقيس بن عاصم هو الذي حَفَزَ الحوفزانَ[2] بن شريك الشيبانيّ بطعنة في يوم جَدود[3] ، فسمي الحارثُ الحوفزانَ ؛ وقال سَوّار بن حَيّان[4] المِنْقرِيّ[5] :

ونحنُ حَفَزْنا الحَوْفزَانَ بطَعنةٍ سَقَتْه نَجيعاً من دَمِ الجَوْفِ أشكَلاَ[6]
وحُمْرانَ قَسْراً أنْزَلَتْهُ رِماحُنا فعالجَ غُلاًّ في ذِراعَيْهِ مُثْقَلاَ[7]

---

(١) ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « فإنه مابغى » . (٢) حفزه ، أي طعنه من خلفه ، وفي اللسان عن التهذيب أن الحوفزان لقب لجرار من جرارى العرب ؛ وكانت العرب تقول للرجل إذا قاد ألفا جراراً .

(٣) حواشي الأصل ، ت ، ف : « جدود : موضع فيه ماء يسمى بالكلاب ، وكانت فيه وقعة مرتين ؛ ويقال للكلاب الأول يوم جدود ؛ وهو لتغلب على بكر بن وائل »

(وانظر خبر يوم جدود في العقد ٥ : ١٩٩ — ٢٠١ ، وابن الأثير ١ : ٣٧٢) .

(٤) كذا ضبط بالقلم في جميع الأصول ، وضبطه ابن السيد في الاقتضاب ص ١٣٩ : « بحاء مكسورة غير معجمة وباء معجمة بواحدة » ، والبيان في (الأغاني ١٢ : ١٤٧ ، وابن الأثير ١ : ٣٧٢ ، واللآلي ٢٠٦ ، واللسان — حفز ، شكل) .

(٥) م : « ... المنقري في ذلك » .

(٦) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « كسته نجيعا » ، والشكلة : حمرة يخالطها بياض ؛ ويسمى الدم أشكل للحمرة والبياض المختلطين فيه .

(٧) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « مقفلا » ؛ وهو حمران بن عمرو بن بشر بن عمرو ؛ وكان على شيبان وذهل واللهازم ؛ حينما خرجوا لقتال بني يربوع .

وفى يوم جَدود يقول قَيْس بن عاصم :

جَزَى اللهُ يَرْبُوعًا بأسوإ سَعْيِها ... إذا ذُكِرَتْ فى النّائباتِ أُمورُها[١]
ويومَ جَدُودٍ قدْ فَضَحْتُمْ ذِمَارَكُمْ ... وسالَمْتُمْ والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها
[٣٦ و] / سَتَحْطِمُ سَعْدٌ والرِّبابُ أُنوفَكُمْ ... كَما حَزَّ فى أنفِ القَضِيبِ جَرِيرُها

القضيب : الناقة المقتضَبة الصعبة ؛ وفى قيس يقول عَبْدَة بن الطبيب :

عليْكَ سَلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصِمٍ ... ورحمتُهُ ما شاءَ أنْ يترَحَّما[٢]
سلامُ امرِئٍ جَلَّلْتَهُ مِنكَ نِعْمَةً[٣] ... إذَا زَارَ عنْ شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّما
فما كانَ قيسٌ هُلْكُهُ هلكَ واحِدٍ ... ولـكِنَّهُ بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما[٤]

* * *

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : ذاكرنى بعضُ الأصدقاء بقول أبى دَهْبَل الجُمحِىّ وهو يعنى ناقته :

---

(١) الأبيات فى (الأغانى ١٢ : ١٤٧) .

(٢) الأبيات فى (الأغانى ١٢ : ١٤٨ ، والحماسة — بشرح التبريزى ٢ : ٢٨٠—٢٨٦) .

(٣) رواية التبريزى :

* تَحِيَّةَ مَنْ غَادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى *

(٤) قال التبريزى فى شرحه لهذا البيت : « يجوز أن يروى « هلك » بالنصب وبالرفع ؛ فإذا نصبته كان هلكه فى موضع البدل من قيس ، وهلك ينتصب على أنه خبر كان ؛ كأنه قال : فما كان هلك قيس هلك واحد من الناس ؛ بل مات لموته خلق كثير ؛ وإذا رفعته كان هلكه فى موضع المبتدأ وهلك واحد فى موضع الخبر ، والجملة فى موضع النصب على أنه خبر كان ، ويشبه هذا البيت قول امرئ القيس :

فَلَوْ أنَّها نَفْسٌ تَموتُ سَوِيَّةً ... ولـكِنَّها نَفْسٌ تُساقِطُ أنفُسا

إذا رويت « تساقط » بضم التاء » .

وَأبرَزْتُها مِنْ بَطْنِ مكَّةَ بَعدَما أَصاتَ المُنادِي بالصَّلاةِ فأعْتَما(١)

وسألني إجازةَ هذا البيت بأبيات تنضم إليه وأجمل الكناية فيه كأنها كناية عن امرأة لا عن ناقة، فقلت في الحال :

فطيَّبَ مَسراها المَقامُ وضوَّأتْ بإشراقِها بينَ الحَطيمِ وزَمْزَما(٢)

فيارَبِّ إنْ لقَّيْتَ وَجهاً تَحيَّةً فحَيِّ وُجُوهاً بالمَدينةِ سُهَّما(٣)

تَجافَينَ عن مَسِّ الدِّهانِ وطالما عَصَمْنَ عن الحِنَّاءِ كَفّاً ومِعْصَما

وكَمْ مِنْ جَليدٍ لا يُخامِرُهُ الهَوَى شَنَنَّ عليه الوَجْدَ حتَّى تَتَيَّما(٤)

أَهانَ لهُنَّ النَّفْسَ وهْيَ كَرِيمةٌ وأَلْقى إليهِنَّ الحَدِيثَ المُكَتَّما

تَسَفَّهْتَ لمَّا أَنْ مَرَرْتَ بدارِها وعُوجِلْتَ دُونَ الحِلْمِ أَنْ تتحلَّما(٥)

---

(١) أصات: نادى، وأعتم : دخل في العتمة ؛ والبيت من قصيدة جيدة ؛ ذكر منها أبو الفرج هذه الأبيات :

ألَا عَلِقَ القَلْبُ المُتيَّمُ كُلْثُمَا لجاجاً ولم يلزمْ من الحب مَلْزَما

خرجتُ بها من بطن مكةَ بعدَما أصاتَ المنادى بالصلاة فأعْتَمَا

فما نام من راعٍ ولا ارتدَّ سامِرٌ من الحيِّ حتى جاوزتْ بي يَلَمْلَمَا

ومرت ببطن الليث تهوى كأنما تبادِرُ بالإدْلاجِ نَهْباً مُقَسَّما

وجازتْ على البَزْواءِ والليلُ كاسِرٌ جناحين بالبَزْواءِ وَرْداً وأدْهَما

فما ذرَّ قرنُ الشمس حتى تبينتْ بِعُلْيَبَ نخلاً مُشرفاً أو مخيَّما

ومرّتْ على أشطان رَوْنَق بالضُّحا فما خَزَّرَت للماء عَيْناً ولا فَماَ

وما شربتْ حتى ثنيتُ زِمامَها وخِفْتُ عليها أن تخِرَّ وتَكْلَمَا

فقلتُ لها قد بِنْتِ غيرَ ذَميمةٍ وأصبحَ وادى البِرْكِ غيثاً مُدَيَّما

(وانظر الأغاني ٦ : ١٦٣ ، ومعجم البلدان ٦ : ٢١٢–٢١٣ ، والشعر والشعراء ٥٩٧) .

(٢) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « فطيب رياها » . وضوأت : أضاءت .

(٣) سهما : جمع سائم ؛ وهو المتغير الوجه . (٤) شنن: صبين . (٥) م : « وقفت بدارها » .

فعُجْتُ تَقَرَّى دَارِساً مُتنكراً ... وتَسأَلُ مَصْرُوفاً عن النُّطقِ أعْجَما[1]
ويومَ وَقَفْنا للوَداعِ وكلُّنا ... يَعُدُّ مُطِيعَ الشَّوْقِ مَنْ كانَ أَحْزَما
نُصِرْتُ بِقَلْبٍ لا يُعَنَّفُ في الهَوَى ... وعينٍ متى استَمْطَرْتُها قَطَرَتْ دَمَا[2]

وكان أبو دَهْبَل[3] من شعراء قريش ، وممن جمع إلى الطبع التجويد ، واسمه وهب بن زَمْعَة بن أُسَيْد[4] / بن أُحَيْحَة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح ، واسمه تيم ابن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤيّ بن غالب ، وكان اسم جُمَح تَيْماً ، واسم أخيه زيداً ؛ وهما ابنا عمرو بن هُصَيص ، فاستبقا إلى غاية ، فمضى تَيْمٌ عن الغاية ، فقيل جَمَحَ تيمٌ فسمى جُمح ، ووقف عليها زيد فقيل سَهَمَ[5] زيدٌ ، فسمى سهماً[6] ؛ فأما كُنيته فهي مشتقة من الدَّهْبَلة ، وهي المشي الثقيل ، يقال دَهْبَل الرجل دَهْبَلة إذا مشى ثقيلا . [٣٦ ظ]

أخبرنا أبو عُبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزُبانيّ قال حدثني محمد بن إبراهيم قال: حدثنا أحمد بن يحيى النحويّ قال حدثنا عبد الله بن شبيب قال : قيل لأبي عمرو بن العلاء ما يعجبكَ من شعر أبي دَهْبل الجُمَحِيّ ؟ فقال قوله :

يا عَمْرَ حُمَّ فِراقُكُمْ عَمْرَا ... وعَزَمْتِ مِنَّا النَّأْيَ والهَجْرا[7]
يا عَمْرَ شيخُكِ وهوَ ذو شَرَفٍ ... يَرْعَى الذِّمارَ ويُكْرِمُ الصِّهْرا[8]
واللهِ ما أَحبَبْتُ حُبَّكُمُ ... لا ثَيِّباً خُلِقَتْ ولا بِكْرا[9]

---

(١) في حاشيتي الأصل ، ف : تقري : « تتبع ؛ أراد تتقرى ؛ وهو تتفعل من قولك : قروت الأرض والشيء ؛ إذا تتبعته » . (٢) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « مطرت دما » .

(٣) وانظر ترجمة أبي دهبل في (الشعر والشعراء ٥٩٦–٥٩٩ ، والاشتقاق ٨١ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ١١٧ ، والأغاني ٦ : ١٤٩–١٦٥) .

(٤) في س : « أسيد » ، بفتح الهمزة وكسر السين .

(٥) « سهم » ، بالفتح : تغير وجهه ، و« سهم » ، بالبناء للمجهول : غلب ؛ وضبط في ت : بهما معا .

(٦) حاشية ف : سهم : « قبيلة من باهلة ، ومن قريش أيضا » .

(٧) الأبيات في (الأغاني ٦ : ١٥٣) ، وفي حاشية الأصل (من نسخة) « وعزمت مني » .

(٨) شيخك ؛ يعني أباها (٩) حاشية ف : « تقدير البيت : ما أحببت ثيبا ولا بكرا كحبي إياكم » .

إنْ كانَ هذَا السِّحْرُ مِنْكِ فَلا ... تُرْعِي عليَّ وَجَدِّدِي السِّحْرَا(١)

إحدَى بني أَوْدٍ كَلِفْتُ بِهـا ... حَمَلَتْ بِلاَ تِرَةٍ لنا وِتْرَا

وتَرَى لها دَلاًّ إذَا نَطَقَتْ ... تَرَكَتْ بناتِ فؤادِهِ صُعْرَا(٢)

كتَسَاقُطِ الرُّطَبِ الجَنِيِّ مِنَ الـ ... أَقْناء لا نَثْرًا ولا نَزْرَا(٣)

ومَقالةٍ فيكُمْ عَرَكْتُ لها ... جَنْبِي أُرِيدُ بِها لكِ العُذْرا

ومُرِيدُ سِرِّكُمُ عَدَلْتُ بِهِ ... عَمَّا يُحاوِلُ مَعْدِلاً وَعْرَا

قالتْ يُقِيمُ لنا لِنَجْزِيَهُ ... يومًا فخَيَّمَ عندَها شَهْرَا

ما إنْ أُقِيمُ لِحَاجةٍ عَرَضَتْ ... إلا لأُبْلِيَ فِيكُمْ عُذْرا

وإذا هَمَمْتُ بِرِحْلةٍ جَزِعَتْ ... وإذا أَقَمْنا لَمْ تُفِدْ نَقْرَا(٤)

إنِّي لأَرْضَى ما رَضِيتِ بِهِ ... وأرَى لِحُسْنِ حَدِيثِكُمْ شُكْرَا

[٣٧ و] /وروَى أبو عمرو الشيبانيّ لأبي دَهْبل:

يا ليتَ مَنْ يَمْنَعُ المَعْرُوفَ يَمْنَعُهُ ... حتى يَذُوقَ رجالٌ غِبَّ ما صَنَعوا(٥)

ولَيْتَ رِزْقَ رِجالٍ مِثْلُ نائِلِهِمْ ... قُوتٌ كَقُوتٍ ووُسْعٌ كالذِي وَسِعُوا(٦)

ـ ويروى: «ضِيقٌ كَضِيقٍ ووسع كالذى اتسعوا».

ولَيتَ لِلنَّاسِ خَطًّا في وُجُوهِهِمُ ... تَبِينُ أخلاقُهُمْ فيهِ إذا اجتَمَعوا

ولَيْتَ ذا الفُحْشِ لاقَى فاحِشًا أبدًا ... ووَافَقَ الحِلْمُ أهلَ الحِلْمِ فاتَّدَعُوا(٧)

---

(١) الإرعاء: الإبقاء؛ كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت.

(٢) فى حاشيتي الأصل، ف: «أي أسراره مائلة إليها».

(٣) الأقناء: جمع قنو؛ وهو غصن النخل.

(٤) حواشي الأصل، ت، ف: «نقرا؛ أي قليلا؛ وهو صويت يسمع من وقع الإبهام على الوسطى؛ يقال: ما أعطاه نقرا ونقرة؛ أي شيئا؛ ولا يستعمل إلا فى النفى».

(٥) الأبيات فى المؤتلف والمختلف ١١٧.

(٦) حاشية ف: «يجوز أن يكون «قوت» خبر المبتدأ؛ أي هو قوت؛ ويجوز أن يكون بدلا من مثل نائلهم».

(٧) حاشية ف: «فاتّدعوا: فاستراحوا».

ولأبي دَهْبل في قتل الحسين بن علي صلوات الله عليهما :

تَبِيتُ النَّشاوَى مِنْ أُمَيَّةَ نُوَّمًا ... وبالطَّفِّ قَتْلَى ما يَنامُ حَمِيمُها[1]
وما ضَيَّعَ الإسلامَ إلَّا عِصَابَةٌ ... تأمَّرَ نَوْكاها ودَامَ نَعيمُها[2]
وصارَتْ قناةُ الدِّينِ في كَفِّ ظالِمٍ ... إذا مالَ مِنها جانِبٌ لا يُقيمُها

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزباني قال حدثنا محمد بن إبراهيم قال حدثنا أحمد بن يحيى قال: روَى أبو عمرو الشيباني لأبي دَهْبل قال — ويقال إنها للمجنون :

أأَتْرُكُ لَيلَى لَيسَ بَيني وبَيْنَها ... سِوَى لَيْلةٍ إنِّي إذاً لَصَبُورُ[3]
هَبُوني امرأً مِنكم أضَلَّ بعيرَهُ ... لهُ ذِمَّةٌ إنَّ الذِّمامَ كَبيرُ
ولَلصَّاحِبُ المَتْرُوكُ أعظَمُ حُرْمَةً ... على صاحِبٍ مِنْ أنْ يَضِلَّ بَعيرُ[4]
عَفَا اللهُ عَنْ لَيلى الغَدَاةَ فإنَّها ... إذا وَلِيَتْ حكمًا عليَّ تَجُورُ

وروى أبو عمرو الشيباني لأبي دَهْبل — وقد رواه أبو تمام في الحماسة له[5]:

أقولُ والرَّكْبُ قدْ مالَتْ عَمائِمُهُمْ ... وقدْ سَقَى القومَ كأسَ النَّشْوَةِ السَّهَرُ[6]
ياليتَ أنِّي بأثوابي وراحِلَتي ... عبدٌ لأهلِكِ طُولَ الدَّهرِ مُؤْتَجَرُ[7]
إنْ كانَ ذا قَدَرٌ يُعْطِيكِ نافِلَةً ... مِنّا ويَحْرِمُنَا ما أنصفَ القَدَرُ ![8]

(١) الأبيات في (الأغاني ٦ : ١٦٢ ، ومعجم البلدان ٦ : ٥٢) ، والطف : أرض في ضاحية الكوفة، كان فيها مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ، وحميمها : أقرباؤها .

(٢) في الأغاني ومعجم البلدان : « وما أفسد الإسلام ... » .

(٣) الأبيات في الأغاني (٦ : ١٦٤ ، وديوان الحماسة — بشرح التبريزي ٣ : ٢٧٢—٢٧٣).

(٤) حاشية ف : « أضللت بعيري إذا شذ عنك وذهب ، وضللت الطريق إذا شذذت عنه وذهبت » .

(٥) الحماسة — بشرح التبريزي ٣ : ٢٩٦—٢٩٧ . (٦) الحماسة : « كأس النشوة » .

(٧) حاشية الأصل (من نسخة) : « هذا الشهر مؤتجر » ، وهي رواية الحماسة .

(٨) وورد بعد هذا البيت في الحماسة :

جِنِّيَّةٌ أو لَهَا جِنٌّ يعلِّمُها ... رمْيَ القلوبِ بقوسٍ مالها وَتَرُ

وأخبرنا المرزبانيّ قال أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال: مثل قول أبي دَهْبل: [٣٨ ظ]

ولوْ تركونا لا هدى اللهُ أمرَهُمْ ... فلمْ يَأْجِموا قولاً مِنَ الشّرِّ يُنْسجِ(1)
لأوْشَكَ صَرْفُ الدّهْرِ تفريقَ بينِنا ... وهلْ يَستقيمُ الدّهرُ والدّهرُ أعوَجُ!

قولُ العجّاج لرؤبة ابنه يشكوه لما استطال عمره، وتمنى موته:

لمّا رآني أُرْعِشَتْ أطرافي(2) ... استعْجَلَ الدهرَ وفيهِ كافِ
يَخْتَرِمُ الإلْفَ عنِ الأُلّافِ

قال ومثله:

عَدِمْتُ ابنَ عَمٍّ لا يَزالُ كأنّهُ ... وإنْ لمْ أتِرْهُ مُنْطَوٍ لي على وِتْرِ
يُعِينُ على الدّهْرِ والدّهرُ مُكْتفٍ ... وإنْ أستعِنْهُ لا يُعِنّي على الدّهرِ

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه: ومثل الجميع قولُ أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر:

إلى كمْ يكونُ العَتْبُ في كلّ ساعةٍ ... وكمْ لا تَمَلّينَ القَطيعةَ والهَجْرا
رُوَيدَكِ إنّ الدهرَ فيهِ كِفايةٌ ... لِتفريقِ ذاتِ البينِ فانتظِري الدّهرا

(1) من قصيدة في (الأغاني ٦: ١٥١–١٥٢، والشعر والشعراء ٥٩٨–٥٩٩)، ومطلعها:

تطاولَ هـذا اللّيلُ ما يتبَلّجُ ... وأعيتْ غَواشي الهَمّ ما تتفرّجُ

(2) ديوانه: ٣٩.

مجلس آخر

تأويل آية *

إن سأل سائل فقال : ما وجهُ التَّكرار فى سورة الكافرين، وما الذى حَسّنَ إعادة النفى لكونه عابدا ما يعبدون ؛ وكونهم عابدين ما يعبد ، وذكرُ ذلك مرة واحدة يُغنى . وما وجه التكرار أيضا فى سورة الرحمن لقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؛ [سورة الرحمن].

الجواب، يقال له: قد ذكر ابن قتيبة فى معنى التكرار فى سورة الكافرين وجها ، وهو أنْ قال : القرآن لم ينزل دَفعة واحدة ؛ وإنما كان نزوله شيئا بعد شىء ، والأمر فى ذلك ظاهر ، فكأنّ المشركين أتوا النبى صلى الله عليه وآله فقالوا له: استلِم[1] بعضَ أصنامنا حتى نؤمن بك؛ ونصدّقَ بنبوتك، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم: ﴿ لاَ أَعبدُ ما تَعْبُدُونَ . وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ، ثم غبروا مدة من الزمان وجاءوه / فقالوا له : اعبدْ بعضَ آلهتنا ، واستلم [٣٢ و] بعضَ أصنامنا يوماً أو شهراً أو حولا، لنفعل مثلَ ذلك بإلهك، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم: ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾؛ أى إن كنتم لا تعبدون إلهى إلا بهذا الشرط فإنكم لا تعبدونه أبداً .

وقد طعن بعض الناس على هذا التأويل بأن قال : إنه يقتضى شرطاً وحذفاً لا يدل عليه ظاهر الكلام ، وهو شَرْطُهُ فى قوله : ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ؛ وإذا كان ما نفاه عن نفسه من عبادته ما يعبدون مطلقاً غير مشروط ، فكذلك ما عطفه عليه . وهذا الطعنُ غير صحيح ، لأنه لا يمتنع إثباتُ شرط بدليل ، وإن لم يكن فى ظاهر الكلام ، ولا يمتنع عطف المشروط على المطلق بحَسَب قيام الدلالة .

وعن هذا السؤال ثلاثة أجوبة ؛ كلٌّ واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة .

---

* لم يذكر فى الأصل ، وأثبته من ت .

(١) حاشية ف : « من استلام الحجر ، وهو التمسح ، ويقال : استلأم الحجر ، والأصل ترك الهمز ، لأنه من السلمة ؛ وهى الحجر ؛ إلا أن استلأم الحجر جرى فى كلامهم مهموزا » .

أولها ماحُكِىَ عن أبى العباس ثعلب أنه قال: إنمـا حَسُن التكرار؛ لأن تحت كلٍّ لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى، وتلخيص الـكلام : قل : يأيها الـكافرون : لا أعبد ما تعبدون الساعة وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى هذه الحال أيضا ، فاختَصَّ الفعلان منه ومنهم بالحال ، وقال من بعد : ولا أنا عابد ما عبدتم فى المستقبل ، ولا أنتم عابدون ماأعبد فيما تستقبلون ، فاختلف(١) المعانى وحَسُن التكرار لاختلافها ، ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب(٢) مختصةً بمَنِ المعلوم من حاله(٣) أنه لايؤمن . وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت فى أبى جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد ؛ والمستهزئون هم : العاص ابن وائل السَّهمىّ ، والوليد بن المغيرة، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وعدىّ ابن قيس .

والجواب الثانى وهو جواب الفراء أن يكون التكرار للتأكيد ؛ كقول المجيب مؤكداً : بلَى بلى ، والممتنع مؤكداً : لا لا ؛ ومثله قول الله تعالى: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ [التكاثر : ٣ ، ٤] ، وأنشد الفراء :

وكائنْ وكمْ عِندِى لهُمْ مِنْ صَنِيعةٍ أيادِىَ ثَنَّوها علىَّ وأوْجَبوا

وأنشد أيضاً :

كَمْ نِعْمةٍ كانتْ لـكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ

وقال آخر :

/ نَعَقَ الغُرابُ ببيْنِ لُبْنَى غُدْوَةً كَمْ كَمْ وكَمْ بفِراقِ لبنَى يَنْعَقُ(٤) [٣٨ ظ]

وقال آخر :

(١) ط : « فاختلفت المعانى » .
(٢) ساقطة من ط ، م .
(٣) ساقطة من ت ، م .

أَرَدْتُ لِنَفْسِيَ بَعْضَ الأُمُورِ   فَأَوْلَى لِنَفْسِيَ أَوْلَى لَهَا ![1]

والجواب الثالث ـ وهو أغربها ـ أنى لا أعبد الأصنام التى تعبدونها ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ؛ أى : أنتم غير عابدين الله الذى أنا عابده إذ أشركتم به، واتخذتم الأصنام وغيرها معبودةً من دونه أو معه، وإنما يكون عابداً له مَنْ أخلص له العبادة دون غيره، وأفرده بها؛ وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾؛ أى لست أعبد عبادتكم، وما فى قوله : ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ فى موضع المصدر كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾؛ [الشمس: ٦، ٧]، أراد : وطَحْيِه إياها وتسويته لها، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ [غافر : ٧٥] ، يريد: بفرحكم ومرحكم ؛ قال الشاعر :

يَا رَبْعَ سَلَّامَةَ بِالْمُنْحَنَى   بِخَيْفِ سَلْعٍ جَادَكَ الْوَابِلُ[2]
إِنْ تُمْسِ وَحْشاً فبما قد تُرَى   وأنتَ مَعْمُورٌ بِهَا آهِلُ[3]

أراد فبرؤيتك معموراً آهلاً ، ومعنى قوله : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ ، أى لستم عابدين عبادتى على نحو ما ذكرناه ، فلم يتكرر الكلام إلا لاختلاف المعانى .

وتلخيص ذلك أن النبى صلى الله عليه وآله قال للكفار لا أعبد آلهتكم ، ومَنْ تدعونه من دون الله ، ولا أنتم عابدون إلهى ، فإن زعمتم أنكم عابدون إلهى فأنتم كاذبون، إذ كنتم من غير الجهة التى أمركم بها تعبدونه ، فأنا لا أعبُد مثلَ عبادتكم ، ولا أنتم ما دمتم على ما أنتم عليه تعبدون مثل عبادتى .

---

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : «أولى لك : كلمة تحذير ، قال الأصمعىّ : معناه قاربك ما تكره ، والولى : القرب ، وقد وليه يليه. وقال ثعلب : أصح ماذكر فى « أولى » قول الأصمعىّ ، وقد قيل فيه غير ذلك ، وكان محمد بن الحنفية عليه السلام إذا مات جار له يقول : أولى لى ! كدت أكون السواد المخترم » .

(٢) المحنى : حيث ينحنى السيل ؛ أى يميل . والخيف : ما انحدر عن الجبل وارتفع عن السيل ، وبه سمى خيف منى . وسلع : يطلق على جملة مواضع فى ديار باهلة وأسد .

(٣) وحشا : خاليا ، وبما ترى ؛ أى بما كنت قد ترى ، وآهل : ذو أهل ؛ وفى حاشية ف : « وأنت معمور بها ، يجوز أن يتعلق « بها » بمعمور وبآهل جميعا » . وفى د ، م : « بهآهل » .

فإن قيل : أما اختلاف المعبودين فلا شبهةَ فيه ، فما الوجهُ فى اختلاف العبادة ؟ قلنا : إنه صلى الله عليه وآله كان يعبد مَنْ يخلص له العبادة ولا يشرك به شيئا ، وهم يشركون ، فاختلفتْ عباداتهما(١) ، ولأنه أيضا كان يتقرّب إلى معبوده بالأفعال الشرعية التى تقع على وجه العبادة ، وهم لا يفعلون تلك الأفعال ، ويتقربون بأفعال غيرها ، يعتقدون جهلا أنها عبادة وقُرْبة .

[٣٩ و] / فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، وظاهر هذا الكلام يقتضى إباحتَهم المقام على أديانهم ؟ قلنا فى هذا ثلاثة أجوبة: أولها أن ظاهر الكلام وإن كان ظاهره إباحة فهو وعيــد ومبالغة فى النهى والزجر ؛ كما قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾؛ [فصلت : ٤٠] . وثانيها أنه أراد لكم جزاء دينكم ، ولى جزاء دينى ، فحذف الجزاء لدلالة الكلام عليه، وثالثها أنه أراد لكم جزاؤكم ولى جزائى؛ لأن نفس الدين هو الجزاء ؛ قال الشاعر :

إذَا ما لقُونا لقيْناهُمْ ودنَّاهُمْ مِثلَ ما يُقرِضونا

فأما التكرار فى سورة الرحمن فإنما حَسُن للتقرير بالنِّعم المختلفة المعدَّدة ، فكلما ذكَرَ نعمة أنعم بها قرَّر عليها(٢) ، ووبَّخ على التكذيب بها ؛ كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسِنْ إليكَ بأن خولتُك الأموال ! ألم أحسِن إليك بأن خلصتُك من المكاره ! ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ! فيحسُن منه التكرير(٣) لاختلاف ما يقرره به ، وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، قال مهلهل بن ربيعة يرثى أخاه كليباً(٤) :

(١) ف ، حاشية ت (من نسخة) : « عباداتهما » .

(٢) ت ، ف : « بها » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « التكرار » .

(٤) من قصيدة مشهورة ، مطلعها :

أليلتنا بذى حُسُمٍ أنيرى إذا أنتِ انقضيتِ فلا تَحُورى

وهى فى (أمالى القالى ٢ : ١٢٩–١٣٣) وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « قبل هذا البيت :

وهَمَّامُ بنُ مُرَّةَ قدْ تَرَكْنا عليهِ القَشْعَمانِ مِنَ النُّسورِ

على أنْ ليسَ عِدْلاً مِنْ كُلَيبٍ　　إذا طُرِدَ[١] اليتيمُ عن الجَزُورِ[١]
على أنْ ليسَ عِدْلاً مِنْ كُلَيبٍ　　إذا ما ضِيمَ جِيرانُ المُجيرِ
على أنْ ليسَ عِدْلاً مِنْ كُلَيبٍ　　إذا رَجَفَ العِضاهُ مِنَ الدَّبُورِ[٢]
على أنْ ليسَ عِدْلاً مِنْ كُلَيبٍ　　إذا خَرَجَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدُورِ
على أنْ ليسَ عِدْلاً مِنْ كُلَيبٍ　　إذا ما أُعْلِنَتْ نَجْوَى الأُمورِ
على أنْ ليسَ عِدْلاً مِن كُلَيبٍ　　إذا خِيفَ المَخُوفُ مِنَ الثُّغُورِ
على أن ليس عِدْلاً من كُلَيبٍ　　غَدَاةَ تلاتِلِ الأَمْرِ الكَبِيرِ[٣]
على أن ليسَ عِدْلاً من كُلَيبٍ　　إذا ما خامَ جارُ المُسْتَجِيرِ[٤]

وقالت ليلى الأخيليّة تَرْثِي توبة بن الحُمَيِّر :

/ لنِعمَ الفتى يا توبَ كُنتَ إذا التقتْ　　صُدُورُ الأعالي واستَشالَ الأسافِلُ[٥] [٣٩ ظ]
ونِعْمَ الفَتى يا تَوْبَ كُنتَ ولم تكُنْ　　لتُسْبَقَ يوماً كُنتَ فيهِ تُحاوِلُ[٦]

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « اللئيم » .

وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « قال مهلهل فى هذه القطعة قبل هذا البيت مرثية أخيه ؛ وهو الذى ثارت لأجله حرب البسوس ؛ وكان سبب تلك الحرب أن كليبا رمى ضرع ناقة البسوس ، فانتظم ضرعها ، فقتل كليب ، وبقيت الحرب فيهم أربعين سنة ، وكان فى أواخر تلك الحروب يوم التحلاق ، وعلى أن ليس عدلا ؛ يعنى : ليس همام عدلا من كليب ؛ ويقال : عندى غلام عدل غلامك [بكسر العين] وهذا المال عدل غلامك [بالفتح] ؛ أى قيمته ؛ قال الفراء : العدل [بالفتح] : ما عادل الشيء من غير جنسه ، والعدل [بالكسر] المثل » . (٢) رجف : تحرك حركة شديدة ، والعضاه : كل شجر له شوك ؛ وفى حاشية الأصل : « أى كان الزمان شتاء » .

(٣) التلاتل : الشدائد ، وفى ت ، ف : « بلابل » ، وفى الأصل ذكر الوجهان معا ، وفى الحاشية : « البلابل : الفتن ، والتلاتل : الشدائد ، وفى شعره بالتاء » .

(٤) خام : جبن ، وفى نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « خار » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « فى ديوانها : « الموالى » ، وهى رواية ف أيضا .

(٦) ف ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « تجاول » ، وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « فى نسخة شعرها :

ونِعْمَ الفَتى يا توبَ كُنْتَ قديمةً　　على الخيلِ تُمْرِيها ونِعْمَ المُنازِلُ

وقديمة ؛ أى مدة قديمة ، ويجوز أن تكون قديمة بمعنى قدامة . وتمريها ، تحلبها الجرية .

وَنِعْمَ الفَتى يا تَوْبَ كُنتَ لِخائفٍ ... أتاكَ لِكَيْ يُحْمى ونِعْمَ المُجامِلُ(١)
ونِعْمَ الفَتى يا تَوْبَ جاراً وصاحباً ... ونِعْمَ الفَتى يا تَوْبَ حينَ تُفاضِلُ(٢)
لَعَمْرِي لأنتَ المَرْءُ أبكي لِفَقْدِهِ ... بِجِدٍّ ولَوْ لامَتْ عليهِ العَوَاذِلُ
[لَعَمْرِي لأنتَ المَرْءُ أبكي لِفَقْدِهِ ... ويَكْثُرُ تَسْهِيدِي لهُ لا أُوائِلُ](٣)
لَعَمْرِي لأنتَ المَرْءُ أبكي لِفَقْدِهِ ... ولَوْ لامَ فيهِ ناقِصُ الرأْيِ جاهِلُ(٤)
لَعَمْرِي لأنتَ المَرْءُ أبكي لِفَقْدِهِ ... إذا كَثُرَتْ بالمُلْحَمِينَ التلاتِلُ(٥)
أَبَى لكَ ذَمَّ الناسِ يا تَوْبُ كُلَّما ... ذُكِرْتَ أُمورٌ مُحْكَماتٌ كَوامِلُ
أَبَى لكَ ذَمَّ الناسِ يا تَوْبَ كُلَّما ... ذُكِرْتَ سَماحٌ حينَ تأْوِى الأرامِلُ
فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ إنَّما ... لَقِيتَ حِمامَ المَوْتِ والموتُ عاجِلُ
ولا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبُ إنها ... كَذاكَ المَنايا عاجِلاتٌ وآجِلُ
ولا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ والتقتْ ... عليكَ الغَوادِي المُدْجِناتُ الهَواطِلُ(٦)

فخرجت فى هذه الأبيات من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعانى التى عددناها على نحو ما ذكرناه(٧).

---

(١) كذا فى الأصل ، ف ؛ وفى ت : « المحامل » ، وفى حاشيتها : « المحامل ؛ من الحمالة ؛ وهى الدية » .

(٢) ف ، وحاشية ت (من نسخة) : « تناضل » ، وحاشية الأصل (من نسخة) : تقاتل » .

(٣) زيادة من م وحاشيتى ط ، ف .

(٤) م : « ناقص العقل » .

(٥) ت : « البلابل » ، وفى حاشية ف : « الملحم : الذى أشرف على القتل ؛ فكأنه جعل لحما ، والتلاتل : جمع تلتلة ، وهى مضاعف من الرباعى ، يقال : تلة وتلتلة ؛ كما يقال : كبة وكبكبة ؛ قال تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ ، والتلاتل : الأمور العظام » .

(٦) المدجنات : السحائب المظلمة ، والهطلان : تتابع المطر والدمع .

(٧) حاشية ف : « فى الجليس والأنيس : من أعجب ما روى فى قصتهما أن ليلى الأخيلية بعد موت توبة تزوجت ، ثم إن زوجها بعد ذلك مرّ بقبر توبة وليلى معه ، فقال لها : يا ليلى ؛ هل تعرفين هذا القبر ؟ فقالت : لا ، فقال : هذا قبر توبة فسلمى عليه ، فقالت : امض لشأنك ؛ فما تريد من توبة وقد بليت عظامه ؟ =

وقال الحارث بن عُباد ــ :

قرِّبا مَرْبطَ النَّعامةِ منّي ... لَقِحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ(١)

ثم كرر قوله : «قرِّبا مربط النعامة» في أبيات كثيرة من القصيدة للمعنى الذى ذكرناه.

وقالت ابنة عم للنعمان بن بشير ترثى زوجها :

وحدّثنى أصحابُه أنّ مالِكاً ... أقامَ ونادَى صَحْبُهُ برَحيلِ
وحدّثنى أصحابُه أنّ مالِكاً ... ضَرُوبٌ بنَصْلِ السَّيفِ غيرُ نكُولِ
وحدّثنى أصحابُه أنّ مالِكاً ... جَوَادٌ بما فى الرَّحْلِ غيرُ بَخِيل
وحدّثنى أصحابُه أنّ مالِكاً ... خَفيفٌ على الحُدّاثِ غيرُ ثقيل
[٤٠ و] / وحدّثنى أصحابُه أنّ مالِكاً ... صَرُومٌ كَماضى الشَّفْرَتَينِ صقيلِ

وهذا المعنى أكثر من أن نحصيَه . وهذا هو الجواب عن التكرار فى سورة المرسلات بقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

= قال : أريد تكذيبه؛ أليس هو الذى يقول :

وَلَوْ أنّ لَيْلَى الأخيليّة سَلّمتْ ... علىَّ ودونى تُرْبَةٌ وصَفَائِحُ
لسَلّمتُ تسليمَ البشاشة أوزَقَا ... إليها صَدًى من جانبِ القبرِ صائحُ

فواقه ، لابرحت أو تسلمى عليه ؛ فقالت : «السلام عليك يانوبة ورحمك الله ، وبارك لك فيما صرت إليه ؛ فإذا طائر قد خرج من القبر حتى ضرب صدرها ، فشهقت شهقة فماتت ، فدفنت إلى جانب قبره ، فنبتت على قبره شجرة ، وعلى قبرها شجرة ، فطالتا والتفتا » .

(١) مربط ؛ ضبطت بالقلم فى الأصل ، بالفتح والكسر معا ، وفى حاشية ف : «ما كان على فعل يفعل ، بالضم فالمصدر والموضع منه مفعل بالفتح ، وما كان على فعل يفعل بالكسر فالمصدر مفعل ، بالفتح ، والموضع مفعل ، بالكسر ، وما كان على يفعل بالفتح فكلاهما فيه بالفتح» . وفى حاشية الأصل : «الحيال : ألا تحمل الناقة أو الفرس ؛ يعنى أن الحرب لقحت بعد أن كانت لاتحمل » .

وقد ورد هذا البيت فى (أمالى القالى ٣ : ٢٦) ، وبعده :

لم أكُنْ من جُناتِها عَلِمَ اللّـ ... ـهُ وإنّى بحرِّها اليَوْم صالِ
قربا مَرْبَطَ النعـــامة منى ... إن بَيْعَ الكِرام بالشِّسْعِ غالِ

فإن قيل: إذا كان الذى حسَّن التكرار فى سورة الرحمن ما عدّده من آلائه، ونعمه فقد عدّ فى جملة ذلك ما ليس بنعمة، وهو قوله: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ [آية: ٣٥]، وقوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾(١) [آية: ٤٣، ٤٤]. فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وليس هذا من الآلاء والنعم؟ قلنا: الوجهُ فى ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة فذكرُه ووصفه والإنذار به من أكبر النعم، لأن فى ذلك زجراً عمّا يُستحقُّ به العقاب وبَعثاً على ما يُستحق به الثواب، فإنما أشار بقوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، بعد ذكر جهنم والعذاب فيها إلى نعمته بوصفها والإنذار بعقابها، وهذا مما لا شبهة(٢) فى كونه نعمة.

فصل

قال سيدنا الشريف الأجلّ المرتضى ذو المجدين أدام الله علوّه: وكما أنه كان فى الجاهلية وقبل الإسلام وفى ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم، ويستنزلون الرزقَ من غير رازقهم أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه، وضرب لهم الأمثال، وكرّر عليهم البيناتِ والأعلام، فقد نشأ بعد هؤلاء جماعة ممن يتستَّر بإظهار الإسلام ويحقن بإظهار شعاره والدخول فى جملة أهله دمَه ومالَه زنادقة مُلْحِدُون، وكفار مشركون؛ فمنهم(٣) عِزُّ الإسلام عن المظاهرة والمجاهرة، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة؛ وبليةُ هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ، لأنهم يُدْغِلون فى الدين، ويموّهون على المستضعفين، بجأشٍ رابط، ورأى جامع؛ فِعْلَ من قد أمِن الوحشة، ووَثِق بالأنسة، بما يظهره(٤) من لباس الدين، الذى هو منه على الحقيقة عارٍ، وبأثوابه غير متوارٍ، كما يحكى أنّ عبد الكريم بن أبى العوجاء، قال لما قبض عليه محمد بن سليمان، وهو والى الكوفة من قِبل

(١) حاشية ف: «الحميم: الماء الحار، والآنى: الذى بلغ نهايته».

(٢) ش: «وهذا لا شبهة». (٣) ش: «فمنعهم». (٤) ش: «فيما يظهره».

[٤٠ أ] المنصور، وأحضره / للقتل، وأيقن بمفارقة الحياة[1]: لئن قتلتمونى لقد وضعتُ فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة[2].

والمشهورون من هؤلاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والحادون: حَمَّاد الراوية، وحمّاد ابن الزِّبرقان، وحمّاد عَجْرد؛ وعبد الله بن المقفع، وعبد الكريم بن أبى العوجاء، وبشار بن بُرْد، ومُطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثىّ، وصالح بن عبد القدوس الأزدِىّ، وعلىّ بن خليل الشَّيبانى، وغير هؤلاء ممن لم نذكره؛ وهم وإن كان عددهم كثيراً فقد أقلهم الله وأذلهم[3] بما شهدت به دلائله الواضحة، وحججُه اللائحة على عقولهم من الضعف، وآرائهم من السُّخف.

ونحن نذكر من أخبار كلّ واحدٍ ممن ذكرناه وتهمته فى دينه نُبذة[4]، ونومئُ فيها إلى جملة[5]. والذى دعانا إلى التشاغل بذلك ـ وإن كانت عنايتنا بغيره أقوى ـ مسئلةُ مَنْ نرى إجابته، ونؤثر موافقته، فتكلفناه له ومن أجله، مع أنه غير خالٍ من فائدة ينفعُ علمها، ويُتأدب بروايتها وحفظها.

* * *

أما الوليد[6] فكان مشهورا بالإلحاد، متظاهراً بالعناد، غير محتشم فى اطّراح الدين أحداً،

---

(١) حاشية ت (من نسخة): «الدنيا».

(٢) حاشية الأصل (من نسخة): «موضوعة».

(٣) فى ت، د: «وأذلهم وأرذلهم».

(٤) نبذة، بفتح النون وضمها. (٥) فى ت، د: «جملة كافية».

(٦) حواشى الأصل، ت، ف: «هو الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان؛ ويكنى أبا العباس، قتله يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان المتولى لذلك عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وكانت ولايته الملعونة سنة وشهرين ونيفا وعشرين ليلة، وقتل وقد بلغ من السن اثنتين وأربعين سنة، وقتل معه ولداه الحكم وعثمان، وكان يقال لهما الجملان». وانظر أخبار الوليد فى (الأغانى ٦: ٩٨ ـ ١٣٧، والعقد ٤: ٤٥٢ ـ ٤٦٣).

ولا مراقب فيه بشراً ؛ وفي الحديث أنه وُلِدَ لأخي أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله غلام فسمّوْه الوليد ، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «سمّيتموه بأسماء فراعنتكم ! ليكونَنّ في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لَهُوَ شرٌّ على هذه الأمة من فرعون على قومه». قال الأوزاعيّ: فسألت الزُّهريّ عنه فقال : إن استُخلِف الوليد بن يزيد ، وإلاّ هو الوليد بن عبد الملك .

أخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانيّ قال : حدّثني محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا محمد بن يزيد النحويّ قال : كان الوليدُ بنُ يزيدَ بن عبد الملك قد عزَم على أنْ يبنيَ فوق البيت الحرام قُبّة يَشرب عليها الخمور ، ويُشرِف على الطّواف ، فقال بعض الحَجَبة[١]: لقد رأيتُ المجوسيّ البنّاء فوق الكعبة ؛ وهو يقدّر مواضع أركان القبة ، فلم نُمسِ[٢] تلك الليلة حتى وافى الخبرُ بقتل الوليد .

وأخبرنا أبو عُبيدالله المرزبانيّ قال أخبرني عبدُالله بن يحيى العسكريّ / عن أبي إسحاق [٤١ و] الطّلحيّ قال أخبرني أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل عن أبي العالية عن بعض أهل العلم قال : قال يزيد بن الوليد ـ وهو الملقّب بالناقص[٣] لما ولّى : نشدتُ الله رجلاً سمع شيئاً من الوليد إلا أخبر به ! فقام ثوْر بن يزيد فقال : أشهد لَسمعتُه[٤] وهو يقول :

اسقياني وابنَ حَرْبٍ واستُرانا بإزارِ
واتْرُكا مَنْ طلَبَ الجنّة يَسْعَى في خَسارِ
سأسوسُ النّاسَ حتى يرْكَبوا دِينَ الحِمارِ[٥]

وأخبرنا المرزُبانيّ قال: أخبرني أحمد بنُ خالد النخّاس قال: حدثنا محمد بن مكحول قال:

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « بعض الطواف » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « فلم تمض » .

(٣) ش: « الملقب الناقص » ، وفي حواشي الأصل، ت ، ف : « قيل له الناقص لأنه كان نقص أعطياتهم » .

(٤) ش : « لقد سمعته » .

(٥) في حاشيتي الأصل ، ف : « أي حتى ينزو بعضهم على بعض كما تتنازى الحمير » .

نَشَر الوليدُ بنُ يَزيد يوماً المصحَف ، وكان خطُّه كأنّه أصابع ، وجعل يَرميه بالسهام وهو يقول[١] :

تُذَكِّرُنى الحِساب ولَسْتُ أدرِى ... أحَقًّا ما تقولُ مِنَ الحِسابِ

فقُل للهِ يَمنَعُنى طَعامى ... وقُلْ للهِ يمنَعُنى شَرابِى

• قال سيدنا الشريف الأجلّ المرتضى أدام الله علوه : ويلَه من هــذه الجرأة على الله ويلًا طويلا ! وما أقدرَ الله أن يمنعه طعامه وشرابه وحياته ! وما أولاه اللعينَ بأليم العذاب وشديد العقاب! لولا ما تمّ به المحنةُ ، وينتظِم به التكليف ؛ من تأخير المستحِق من الثواب والعقاب ، وتبعيدهما من أحوال الطاعات والمعاصى .

أخبرنا أبو عُبيد الله المرزبانىّ قال: حدثنى أحمد بن كامل قال : كانالوليد بن يزيد زِنديقاً وإنه فَتَح[٢] المصحف يوماً فرأى فيــه : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ؛ [إبراهيم: ١٥] ، فاتخذ المصحف غرَضاً ورماه بالنَّبْل حتى مزّقه ؛ وهو يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبّارٍ عَنيدٍ ... فها أنا ذاكَ جبّارٌ عَنيدُ

فإنْ لاقَيْتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ ... فقُلْ يا ربِّ خرَّقَنى الوَليدُ[٣]

* * *

(١) ت : « وهو يقول » .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « افتتح » .

(٣) حاشية ف : «أخبر أبوحاتم عن العتبىّ قال : كان الوليد بن يزيد قد نظر إلى جارية من أحيا النساء يقال لها : سفرى ، فجن بها ، وجعل يراسلها وتأبى عليه ؛ حتى بلغه أن عيدا للنصارى قد قرب ، وأنها ستخرج فيه ، وكان فى موضع العيد بستان حسن ، وكان النساء يدخلنه ، فصانع الوليد صاحب البستان أن يدخله فينظر إليها ؛ فأجابه ، وحضر الوليد وقد تقشف وغير حليته ، ودخلت سفرى البستان ، فجعلت تمشى حتى انتهت إليه ، فقالت لصاحب البستان : من هذا ؟ قال لها : رجل مصاب ، فجعلت تمازحه وتضاحكه حتى اشتفى من النظر إليها ومن حديثها ؛ فقيل لها : ويلك ! أتدرين من ذلك الرجل ؟ قالت : لا ، =

وأما حمّاد الراوية فكان مُنسلِخاً من الدين ، زارياً على أهله ، مُدْمِناً لشرب الخمور وارتكاب الفجور .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : كان مُنقِذ بن زياد الهلاليّ ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد ، وحفص بن أبي وَدَّة[1] ، وقاسم بن زُنْقُطَة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبي فروة ، وحمّاد عجرد / وعليّ بن الخليل ، وحمّاد بن أبي ليلى الراوية ، وحمّاد بن الزِّبرقان ، ووالبة بن الحُبَاب ، وعُمارة بن حمزة بن ميمون ، ويزيد بن الفيض ، وجميل بن محفوظ المهلّبيّ ، وبشار ابن بُرْد المرعَّث ، وأبان اللاحقيّ ؛ يجتمعون على الشُّرب وقولِ الشعر ، ويهجو بعضُهم بعضاً ، وكلٌّ منهم مُتَّهَمٌ في دينه[2] . [٤١ ظ]

= فقيل لها : الوليد بن يزيد ؟ وأعاقشف حتى ينظر إليك ؟ فجئت بعد ذلك ، وكانت عليه أحر منه عليها ، فقال الوليد في ذلك :

أضحى فؤادُكَ يا وَليدُ عَميدَا ... صَبًّا قديمًا للحسان صَيُودا

من حُبِّ واضحةِ العَوارض طَفلةٍ ... برزتْ لنا نحو الكنيسة عيدَا

ما زلتُ أرمُقها بعينيْ وَامقٍ ... حتى بَصُرْتُ بها تُقَبِّلُ عودا

عودَ الصَّليبِ ، فويحَ نفسي مَنْ رأى ... منكمْ صليبا مثلَه مَعْبُودا !

فسألتُ ربِّي أن أكونَ مَكانهُ ... وأكونَ في لَهَبِ الجَحِيمِ وَقُودَا

قال القاضي : لم يبلغ مدرك الشيبانيّ هذا الحد من الخلاعة ؛ إذ قال في عمرو النصراني :

يا ليتَني كُنْتُ له صليبا ... فكنتُ معه أبداً قريبا

أُبصرُ حُسْنا وأَشمُّ طيبا ... لا واشياً أخشَى ولا رَقيبا

فلما ظهر أمره وعلمه الناس قال :

ألا حبّذا سفْري وإن قيل إنّني ... كَلِفْتُ بنصرانيّة تَشْربُ الخمْرَا

يهونُ عليّ أنْ تظلَّ نهارَها ... إلى اللّيلِ لا أولَى نُصلِّي ولا عَصْرا

(١) ش : « ودة » ، بفتح الواو ، وضبط في الأصل بالفتح والضم معا .

(٢) حاشية ف : « حدث أبو الحسن بن راهويه قال : صلى يحيى بن معلى الكاتب ـ وكان في مجلس فيه أبو نواس ، ووالبة بن الحباب ، وعلي بن الخليل ، والحسين بن الخليع ـ صلاة ، فقرأ فيها =

وعمل يونس بن أبي فَرْوة كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام بزعمه، وصار به إلى ملك الروم ، فأخذ منه مالًا . وقال أحمد بن يحيى النحويّ قال رجل يهجو حمّاد الراوية :

نِعْمَ الفَتى لو كانَ يَعْرِفُ ربَّهُ ... ويُقيمُ وَقْتَ صَلاتِهِ حَمّادُ
بَسَطَتْ مَشافِرَهُ الشَّمولُ فأنْفُهُ ... مِثْلُ القَدُومِ يَسُنُّها الحَدَّادُ
وابيَضَّ مِن شُرْبِ المُدامةِ وجْهُهُ ... فَبَياضُهُ يومَ الحِسابِ سَوادُ
لا يُعْجِبَنَّكَ بَزُّهُ ولِسانُهُ ... إنَّ المَجُوسَ يُرَى لها أسْبادُ(١)

وكان حمّاد مشهوراً بالكذب في الرواية وعمل الشعر ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ودسّه في أشعارهم ؛ حتى إن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حمّاد الشعرَ ، لأنه كان رجلا يقدِر على صنعته فيدس في شعر كل رجل منهم(٢) مايشاكِلُ طريقتَه ، فاختلط لذلك الصحيحُ بالسقيم ؛ وهذا الفعل منه ، وإن لم يكن دالاً على الإلحاد فهو فسقٌ وتهاون بالكذب في الرواية(٣).

* * *

وأما حمّاد بن الزِّبرقان فهذه طريقتُه في التخرُّم(٤) والتهتك ؛ أخبرنا أبو الحسن عليّ

=﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فغلط ، فلما سلم ، فقال أبو نواس :

أكْثَرَ يَحْيَى غَلَطاً ... في «قُلْ هُوَ اللهُ أحَدْ»

فقال والبة :

قامَ طويلًا ساكِتاً ... حَتَّى إذا أعْيا سَجَدْ

فقال علي بن الخليل :

يَزْحِرُ في مِحْرابِهِ ... زَحِيرَ حُبْلَى للوَلَدْ

فقال الحسين بن الخليع :

كأنَّما لِسانُهُ ... شُدَّ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَدْ

(١) حاشية الأصل : « جمع سبد ؛ وهو المال ، وهما كناية عن الثياب والالباس » . (٢) ساقطة من م . (٣) توفي حماد الراوية سنة ١٥٥ . (وانظر ترجمته في ابن خلكان ١ : ١٦٤—١٦٥) .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « الفجور » ، وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « التخرم : التهتك ، وهو أيضا التدين بدين الخرمية ؛ وهم أهل التناسخ » .

ابن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دُرَيد قال أخبرنا الأشنانْدانيّ قال : دعا حمّاد بن الزبْرِقان(١) أبا الغول النّهْشَلِيّ إلى منزله وكانا يتقارضان(٢) ، فانتهره أبو الغول ، فلم يزل المفضّل به حتى أجابه ، وانطلق معه ، فلما رجع إلى المفضّل قال : ما صنعتَ أنت وحماد ؟ قال : اصطلحنا على ألا آمرَه بالصلاة ، ولا يدعونى إلى شرب الخمر ، وأنشد المفضّل قوله :

* نِعْمَ الفتى لو كان يعرف رَبّه *

وذكَر الأبيات التى تقدّمت فى الرواية الأخرى منسوبة إلى هجاء حماد الراوية .

* * *

فأما حمّاد عجْرَد فشهرتُه فى الضّلالة / كشهرة الحَمّادَين ، وكان يُرْمَى مع ذلك بالثَّنْويَة . [٤٢ و]
أخبرنا أبو عُبيد الله المرزبانىّ قال حدثنى علىّ بن عبد الله الفارسىّ قال أخبرنى أبى قال حدّثنى ابن مَهْرُويه(٣) قال حدثنى علىّ بن عبد الله بن سعد قال حدّثنى السّرىّ بن الصّباح الكوفىّ قال : دخلت على بشّار بالبصرة ، فقال لى : يا أبا علىّ ، أما إنّى قد أوجعتُ صاحبَكم ، وبلغت منه — يعنى حمّاد عجْرَد — فقلت : بماذا يا أبا مُعاذ ؟ فقال : بقولى فيه :

يا ابنَ نِهْيَا رَأْسٌ علىَّ ثَقيلُ   واحتِمالُ الرَّأْسَيْنِ خَطْبٌ جليلُ
فادْعُ غيْرِى إلى عِبادةِ رَبَّيْـــنِ   فإنى بواحـدٍ مَشْغولُ

فقلت لِمَ(٤) أدعُه فى عماه ؟ ثم قلت له : قد بلَغ حماداً هذا الشعر ، وهو يَرْويه على خلاف هذا قال : فما يقول ؟ قلت يقول :

فادْعُ غيْرِى إلى عِبادة رَبَّيْـــنِ   فإنى عنْ واحدٍ مَشْغولُ

قال فلما سمعه أطرق وقال : أحسنَ واللهِ ابنُ الفاعلة ! ثم قال : إننى لا أحتشِمك ، فلا تُنْشِدْ أحداً هذين البيتين ؛ وكان إذا سئِل عنهما بعد ذلك قال : ما هما لى !

(١) انظر ترجمته ومراجعها فى (إنباه الرواة ١ : ٣٣٠-٣٣٢) . (٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : «يتقارضان : يتجازيان ؛ ويقال ذلك فى الخير والشر جميعا ، أى يقرض بعضهم بعضا الهجاء» .
(٣) س : «مهرويه» ، بفتح الميم وسكون الهاء وضم الراء وبعدها واو ساكنة وياء مفتوحة» .
(٤) م : «لن أدعه» .

وأخبرنا المرزُبانيّ قال أخبرني عليّ بن هارون عن عمه يحيى بن عليّ عن عمر بن شبّة قال حدّثني خَلاّدٌ الأرقطُ قال قال بشار: بلغني أن رجلا كان يقرأ القرآن وحمّاد يُنشد الشعر، فاجتمع الناس على القارئ فقال حمّاد: علام تجتمعون؟ فوالله ما أقول(١) أحسنَ مما يقول! فمقته الناس على هذا.

• وروى ابن شَبّة عن أبي عُبيدة قال: كان حماد عجْرَد يُعيِّر بشاراً بالقبح؛ لأنه كان عظيم الجسم، مجدوراً، طويلا، جاحظ العينين، قد تغشّاهما لحم أحمر؛ فلما قال حماد فيه:

واللهِ ما الخِنْزِيرُ في نَتْنِه ... بِرُبْعِهِ في النَّتْنِ أو خُمْسِهِ
بَلْ رِيحُهُ أطْيبُ مِنْ رِيحِهِ ... ومَسُّهُ ألْيَنُ مِنْ مَسِّهِ
ووَجهُهُ أحْسَنُ مِنْ وَجهِهِ ... ونَفْسُهُ أفْضَلُ مِنْ نَفْسِهِ
وعُودُهُ أكْرَمُ مِنْ عُودِهِ ... وجِنْسُهُ أكْرَمُ مِنْ جِنْسِهِ

[٤٢ ظ] / فقال بشار: وَيلي على الزّنديق! لقد نَفَثَ بما في صدره، قيل: وكيف ذاك؟ قال: ماأراد الزّنديق إلا قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ [التين: ٤]، فأخرج الجحودَ بها مخرج هجائي، وهذا خبث من بشار وتغلغل شديد لطيف.

وأول من جعل نفي الإلحاد تأكيداً للوصف به، وأخرج ذلك مخرج المبالغة مُساور الوراق في حمّاد عجرد فقال:

لوْ أنَّ ماني ودَيْصاناً وعُصْبَتَهُمْ ... جاءوا إليكَ لَمَا قُلْناكَ زِنديقُ
أنتَ العِبادَةُ والتّوحيدُ مُذْ خُلِقَا ... وذَا التّزَنْدُقُ نيرَنْجٌ مَخارِيقُ(٢)

* * *

فأما ابن المقفع(٣) فإنّ جعفرَ بن سليمان رَوَى عن المهديّ أنه قال: ما وجدتُ كتاب

(١) ش: «لا أقول». (٢) توفي حماد عجرد سنة ١٦١؛ (وانظر ترجمته في ابن خلكان ١: ١٦٥–١٦٦) (٣) حاشية ف: «هو الذي يقول:

قَدْ سَلِمَ السَّاكِتُ الصَّمُوتُ ... كلامُ راعِي الكلامِ قوتُ
لا تُفْشِ سِرّاً إلى جِدارٍ ... فربَّما نَمَّتِ البُيوتُ
واعَجباً لامرئٍ ضحوكٍ! ... مُسْتَيْقِنٍ أنَّهُ يَمُوتُ

زَنْدَقَةٌ قط إلاّ وأصله ابن المقفع . روى ابنُ شبّة قال : حدّثني مَنْ سمِع ابنَ المقفع وقد مرّ ببيت نار المجوس[1] بعد أن أسلم ، فلمحه وتمثّل :

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزّلُ ... حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ[2]
إنّى لأمْنَحُكَ الصُّدُودَ وإنّنى ... قسماً إليكَ مَعَ الصُّدُودِ لأميَلُ[3]

وروى أحمد بن يحيى ثعلب قال : قال ابن المقفع يرثى يحيى بن زياد — وقال الأخفش : والصحيح أنه يرثى بها ابنَ أبى العوجاء :

رُزِئْنا أبا عَمْرو ولا حَىَّ مِثلُهُ ... فللهِ رَيْبُ الحادِثاتِ بِمَنْ وَقَعْ !
فإنْ تكُ قَدْ فارقتنا وتركتنا ... ذوِى خَلَّةٍ ما فى انسدادٍ لها طَمَعْ
لقدْ جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنا لكَ أنّنا ... أمِنّا على كُلِّ الرَّزايا من الجَزَعْ

قال ثعلب : البيت الأخير يدلّ على مذهبهم فى أن الخيرَ ممزوجٌ بالشر ، والشرّ ممزوج بالخير .

وأخبرنى علىّ بن محمد الكاتب قال أخبرنى محمد بن يحيى الصولىّ قال حدّثنى المغيرةُ بن محمد المهلّبىّ من حفظه قال حدثنا خالد بن خِداش قال : كان الخليل بن أحمد يحب أن يرى

---

(١) ش : « نار » للمجوس .

(٢) حاشية الأصل : « هذان البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن أبى الأفلح حمى الدبر ، وكان حمى الدبر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبلى ذات يوم بلاء حسنا فاستطفن المشركون عليه ، ولما قتل أراد المشركون أن يمثلوا بجثته ، وكان قبل المحاربة ، قد رفع يديه وقال : اللهم احفظ جثتى من المشركين ، فلما قتل رحمه الله بعث الله جماعة من النحل ، فلم تزل عنده تحميه حتى هجم عليه الليل ، فجاء سيل فاحتمله ، فلم ير المشركون جثته » .

والبيتان من قصيدة له يمدح فيهما عمر بن عبد العزيز ؛ وهى فى (الأغانى ١٨ : ١٩٦—١٩٧) وأبيات منها فى الخزانة (١ : ٢٤٨) ؛ وهى عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية . وأتعزل : أتجنب وأكون بمعزل ، والعدا : جمع عدو ؛ يقال بالضم والكسر .

(٣) أمنحك : أعطيك ؛ والبيت من شواهد الكافية ، على أن « قسما » تأكيد للقسم المفهوم من قوله : « إنى لأمنحك الصدود » .

عبدَ الله بن المقفع ، وكان ابنُ المقفع يحب ذلك ، فجمعهما عبَّاد بن عبَّاد المهلبيّ فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهنّ ، فقيل للخليل : كيف رأيتَ عبد الله ؟ قال : ما رأيتُ مثله ، وعلمُه أكبر من عقله ، / [٤٣ و] وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : ما رأيتُ مثلَه ، وعقله أكبرُ من علمه . قال المغيرة : فصدَقا ، أدّى(١ عقلُ الخليلِ الخليلَ إلى أن مات أزهد الناس١) ،

وجهلُ ابنُ المقفع أدّاه إلى أن كتب أمانًا لعبد الله بن عليّ فقال فيه : ومتى غدَر أميرُ المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ، ودوابُّه حُبُس(٢) ، وعبيدُه أحرارٌ ، والمسلمون في حِلٍّ من بيعته . فاشتد ذلك على المنصور جدًا وخاصةً أمر البيعة ، وكتب إلى سفيان بن معاوية المهلبيّ وهو أمير البصرة من قِبَله بقتله ، فقتله .

وكان ابنُ المقفع مع قلّة دينه جيّد الكلام ، فصيحَ العبارة ، له حكم وأمثال مستفادة ؛ من ذلك ما رُوِى من أن يحيى بن زياد الحارثيّ كتب إليه يلتمسُ معاقدة الإخاء والاجتماع على المودّة والصفاء ، فأخّرَ جوابه ، فكتب إليه كتابا آخر يستَرْثيه ، فكتب إليه عبد الله : إنّ الإخاء رِقٌّ ؛ فكرهتُ أنْ أملِّكَك رِقّي قبل أنْ أعرِف حُسْنَ ملَكتِك .

وكان يقول : « ذَلِّلْ نفسَك بالصبر على الجار السوء ، والمشير السوء ، والجليس السوء ، فإنّ ذلك لا يكاد يُخطِئُك » .

وكان يقول : « إذا نزل بك أمرٌ مُهِمّ فانظر ؛ فإنْ كانَ مما له حيلةٌ فلا تعجِز ، وإن كان مما لا حيلةَ فيه فلا تجزَعْ » .

ودعاه عيسى بن عليّ إلى الغداء فقال : « أعزّ الله الأميرَ ! لستُ يومى للكرام أكيلا » ، قال : ولم ؟ قال : «لأنى مزكوم والزُّكْمة قبيحة الجوار ، مانعة من عشرة الأحرار » .

وكتب إلى بعض إخوانه : « أمّا بعد ، فتعلّم العلمَ ممّن هو أعلم به منك ، وعلِّمه مَنْ

(١—١) حاشية الأصل (من نسخة) : « فإن عقل الخليل أداه إلى أن مات أزهد الناس » .

(٢) الحبس ، بالضم : ما وقف ؛ وهو جمع الحبيس ؛ وفى الحديث : « ذلك حبيس فى سبيل الله » ، أى موقوف على الغزاة ، يركبونه فى الجهاد .

أنت أعلمُ به منه ، فإنك إذا فعلتَ ذلك علِمْتَ ما جَهلت ، وحفظت ما علِمت » .

وقال لبعض الكتّاب : « إياكَ والتتبُّعَ لِوَحْشِىّ الكلام طمعاً فى نَيْل البلاغة ، فإن ذلك هو العِىُّ الأكبر » .

وقال لآخر : « عليك بما سَهُلَ من الألفاظ ، مع التجنُّب لألفاظ السِّفْلة » .

وقيل له : ما البلاغة ؟ فقال : « التى إذا سمِعَها الجاهلُ ظنَّ أنه يُحسِنُ مثلَها » .

وقال : « لا تحدِّثْ مَنْ تخافُ تكذيبَه ، ولا تسألْ مَنْ تخاف مَنْعه ، ولا تَعِدْ بما لا تقدر على[1] إنجازه ، ولا تَضْمَن ما لا تثِقُ بالقدرة عليه ، ولا تَرْجُ ما تُعنَّفُ برجائه ، ولا تُقْدِم[2] على ما تخاف العجز عنه » .

[٤٣ ظ] وقال لبعض إخوانه / : « إذا صاحبتَ ملِكاً فاعلم أنهم قد يُنْسَبون إلى قلة الوفاء ، فلا تُشْعِرَنَّ قلبَك استبطاءه ، فإنه لم يشعرْ أحدٌ قلبَه إلّا ظهر على لسانه إن كان سخيفاً[3] ، وعلى وجهه إن كان حليماً » .

وكان يقول : « إنّ مما سخَّى بنفس العالِم عن الدنيا علمه بأن الأرزاقَ لم تُقْسَمْ فيها على قدر الأخطار »[4] .

* * *

فأما ابن أبى العَوْجاء فقد ذكرنا ما رُوِىَ من اعترافه بدسّه فى أحاديث النبى صلى الله عليه وآله أحاديثَ مكذوبة . ورُوِى أنه رأى عِدْلًا قد كُتِب عليه آيةُ الكرسىّ فقال لصاحبه : لِمَ كتبتَ هذا عليه ؟ فقال : لئلا يُسْرق ، فقال : قد رأينا مصحفاً سرِق ! .

ولبشّار فيه :

قُلْ لِعَبْدِ الكريمِ يابنَ أبى العَوْ جاء بِعْتَ الإسلامَ بالكُفْرِ مُوقا[5]

---

(١) ش : « ولا تعد بما لا تقدر عليه » .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « لا تتقدم » .

(٣) حاشية ث (من نسخة) : « سفيها » .

(٤) توفى ابن المقفع سنة ١٤٢ ، وانظر ترجمته وأخباره فى كتاب أمراء البيان (١ : ٩٩-١٢٩)

(٥) الأبيات فى الأغانى (٣ : ٢٠) ، و الموق : الحمق فى غباوة .

لا تُصَلِّى ولا تَصومُ فإنْ صُمْـ ... تَ فبَعْضَ النَّهارِ صوماً رقيقا[١]
لا تُبالى إذا أصَبْتَ من الخَمْـ ... رِ عَتيقاً ألّا تكُونَ عَتيقا
لَيْتَ شِعْرى غداةَ حُلِّيتَ فى الجُنْـ ... دِ حَنيفاً حُلِّيتَ أمْ زِنْدِيقا[٢]

* * *

فأمّا بشّار بن بُرْد فرَوَى المازنىّ قال : قال رجل لبشّار : أتأكلُ اللحم وهو مباين لديانتك؟ ــ يذهبُ إلى أنه ثَنَوِىّ[٣] ــ فقال بشار : إنّ هــذا اللحم يدفع عنّى شرَّ هذه الظلمة .

قال المبرّد : ويروَى أنّ بشاراً كان يتعصّب للنار على الأرض ، ويصوِّبُ رأىَ إبليس فى الامتناع عن السجود ، ورُوِى له :

النّارُ مُشرِقةٌ والأرْضُ مُظلِمةٌ ... والنّارُ مَعْبودةٌ مُذْ كانتِ النّارُ

ورَوَى بعضُ أصحابه قال : كنا إذا حضرتِ الصلاةُ نقومُ إليها، ويقعد بشار ، فنجعل حَوْلَ ثيابه[٤] تراباً ؛ لننظر : هلْ يصَلِّى ، فنعودَ والترابُ بحاله ولم يَقُمْ إلى الصّلاة .

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدّثنى على بن عبـد الله الفارسىّ قال : أخبرنى أبى قال : حدّثنى ابن مَهْرُويَهْ عن أحمد بن خلّاد قال : حدثنى أبى قال: كنت أكلّم بشاراً وأردُّ عليه سوءَ مذهبه بميله إلى الإلحاد ، فكان يقول : لا أعرِف إلا ما عاينتُ أو عاينه مُعاين ؛ وكان الكلامُ يطولُ بيننا ، فقال لى : ماأظنُّ الأمرَ[٥] يا أبا مَخْلدٍ إلا كما يقال: إنه خذْلان؛ ولذلك أقول :

---

(١) : ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « رفيقا » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « المحلى : العارض للجيش ، أى أن العارض إذا كتب اسمه كتبه مسلما أو زنديقا » .

(٣) الثنوية : فرقة من الكفرة تزعم بإثنينية الإله ؛ إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة ، وانظر (الملل والنحل للشهرستانى ١٤٣ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ١ : ١٩٨ــ١٩٩) .

(٤) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) « حوالى ثوبه » .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « ماأظن ماالأمر ... » .

[٤٤ و]

/ طُبِعتُ على ما فىَّ غيرَ مُخيَّرٍ ... هَوَاىَ ولو خُيِّرْتُ كُنتُ المُهذَّبا
أُرِيدُ فلا أُعطَى وأُعطَى ولم أُرِدْ ... وغُيِّبَ عنّى أنْ أنالَ المُغيَّبا
وأُصرَفُ عن قَصدِى وعِلمى مُبصِرٌ ... فأُمسِى وما أعقَبْتُ إلّا التعجُّبا

قال الجاحظ : كان بشّار صديقاً لواصل بن عطاء الغزّال قبل أن يُظهر مذاهبه المكروهة ، وكان بشّار مدَح واصلَ بن عطاء ، وذكر خُطبته التى نزع منها الراء[(١)]، وكانت على البديهة فقال :

تكلّفَ القَولَ والأقوامُ قد حَفَلوا ... وحبّرُوا خُطَباً ناهيكَ مِنْ خُطَبِ !
فقامَ مُرْتجلًا تَغلِى بَداهتُهُ ... كِمرْجَلِ القَينِ لمّا حُفَّ باللّهبِ[(٢)]
وجانَبَ الرّاءَ لم يَشعُرْ بهِ أحدٌ ... قَبلَ التصفُّحِ والإغراقِ فى الطّلبِ

ومثل ذلك قول بعضهم فى واصل بن عطاء :

ويجعَلُ البُرَّ قَمحًا فى تكلُّمِهِ ... وجانَبَ الرّاءَ حتّى احتالَ للشّعَرِ
ولمْ يَقُلْ مَطرًا والقَوْلُ يُعجِلُهُ ... فعاذَ بالغَيْثِ إشفاقًا مِنَ المَطَرِ

فلما أظهر بشار مذاهبه هتف[(٣)] به واصل ، وقام بذكره وتكفيره وقعد ، فقال بشار فيه :

مالى أُشايِعُ غزّالًا له عُنُقٌ ... كنِقْنِقِ الدَّوِّ إنْ وَلَّى وإن مَثَلا[(٤)]
عُنْقَ الزّرافةِ ما بالى وبالُكُم ... تُكَفِّرُونَ رِجالًا أكفَرُوا رَجُلا[(٥)]

---

(١) نشرها الأستاذ عبد السلام هارون فى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات .

(٢) حاشية الأصل : (من نسخة) : « فقال مرتجلا » ؛ والقين فى الأصل : الحداد ؛ ثم قيل لكل عامل بالنار : قين ، وأراد بالقين هاهنا الصباغ » .

(٣) هتف به : فضحه ، والهتاف فى الأصل الصياح .

(٤) النقنق بكسر النونين : ذكر النعام ، والدو والدوية والداوية : الفلاة .

(٥) حواشى الأصل ، ت ، ف : « عنق ، نصب على الذم ؛ شبه واصلا بالزرافة ، والزرافة : الحيوان المعروف ، وعنقه أصحابه ؛ يقال : هم إليه عنق ؛ أى متتابعون » .

فلما تتابَع على واصل ما يشهد بإلحاده قال عند ذلك : أمَا لهذا الأعمى الملحِد ! أما لهذا المشنَّف المكتَنَى(١) بأبى معاذٍ مَنْ يقتله ! أما والله لولا أنَّ الغِيلة سجيةٌ من سجايا الغالية لدسستُ إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله على مَضْجعه ، أو فى يوم حَفْلِه ، ثم كان لا يتولّى ذلك إلّا عُقَيْلىّ أو سَدُوسىّ ، فعدل واصل بن عطاء من الضرير إلى الأعمى ، ومن الكافر إلى الملحِد ، ومن المرعّث إلى المشنّف ، ومن بشّار إلى أبى معاذ ، ومن الفِراش إلى المضْجَع وزاد قوم فقالوا : ومنْ أرسلتُ إلى دسست ، ومِن يبقر إلى يبعَج ، ومن داره إلى منزله ، ومن المغيرية(٢) إلى الغالِيَة / ، والأول أشبهُ بأن يكون مقصوداً ، وما ذَكَرْتُ(٣) ثانيا قد يتفق استعماله من غير عدول عن استعمال الراء . [٤٤ ظ]

فأما قوله : « لا يتولّى ذلك إلا عُقَيلى -(٤) أو سَدُوسىّ »(٤) فلأن بشاراً كان مولًى لهم ، وذكرُه بنى سَدوس لأن بشاراً كان ينزل فيهم . فأما لقبُ بشّار بالمرعّث فقد قيل فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه لقب بذلك لبيت قاله وهو :

قالَ رِيمٌ مُرَعّثٌ ‌ ‌ ‌ ‌ ساحِرُ الطَّرْفِ والنَّظَرْ
لَسْتَ واللهِ نائِلى(٥) ‌ ‌ ‌ ‌ قُلْتُ أو يَغْلِبَ القَدَرْ

والقول الثانى أنّه كان لبشّار ثوبٌ له جيبان : أحدُهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فكان إذا أراد لُبسه يضمّه عليه ضمّاً ، من غير أن يدخل رأسه فيه ، فشبِّه استرسال الجيبين وتدلّيهما بالرّعاث ، وهى القِرَطة ، فقيل : المرعّث ، وقال أبو عبيدة : إنّما سمّى المرعّث لأنه كان يلبس فى صباه رِعاثاً ، وهذا هو القول الثالث .

وكان بشّار مقدما فى الشعر جداً حتى إن كثيراً من الرّواة يُلحِقه بمن تقدّم عصره عليه

(١) ت ، د ، حاشية الأصل (من نسخة) : « المكنى » .
(٢) المغيرية : فرقة من غلاة الشيعة ، أصحاب المغيرة بن سعيد العجلى ، وكان مولى خالد بن عبد الله القسرى ، وادعى النبوة لنفسه . (وانظر مفاتيح العلوم ٢٠ ، والفرق بين الفرق ٢٢٩) .
(٣) حاشية ت (من نسخة) : « وما ذكر » .
(٤ـ٤) ساقط من م .
(٥) ت ، ج ، ش : « نائل » .

من المجوّدين . وأخبرنا المرزبانيّ عن محمد بن يحيى الصوليّ قال حدثنا محمد بن الحسين اليشكريّ[(١)] قال : قيل لأبي حاتم : مَنْ أشعر الناس ؟ قال الذي يقول :

وَلها مَبْسِمٌ كَثَغْرِ الأَقاحي … وحَديثٌ كالوَشْيِ وَشْيِ البُرُودِ
نَزَلَتْ في السَّوادِ مِنْ حَبَّةِ القلـ … ـبِ ونالَتْ زِيادَةَ المُسْتَزِيدِ
عندَها الصَّبْرُ عَنْ لِقائِي وعندي … زَفَراتٌ يأْكُلْنَ صَبْرَ الجَليدِ

ـ يعني بشاراً ؛ قال : وكان يقدّمه على جميع الناس ، ولما قال بشار :

بَني أُمَيَّةَ هُبُّوا طالَ نَوْمُكُمُ … إنَّ الخَليفَةَ يَعقوبُ بن دَاوُدِ[(٢)]
ضاعَتْ خِلافَتُكُمْ يا قَوْمِ فالتَمِسُوا … خَليفَةَ اللهِ بَيْنَ الزِّقِّ والعُودِ[(٣)]

فبلغ ذلك المهديّ فوجد عليه ، وكان ذلك سبب قتله[(٤)] .

---

(١) من نسخة بحاشيتى ت ، ف : « محمد الحسن السكرى » .

(٢) هو أبو عبد الله يعقوب بن داود وزير المهدى ، (وانظر أخباره وتفصيل أسباب قتله ، فى الفخرى ١٦٠ــ١٦٣). (٣) ت ، ج ، د ، ف : « الناى والعود » .

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « كان حماد عجرد قال فى بشار :

لهُ مُقْلَةٌ عَمْياءُ واسْتٌ بَصِيرَةٌ … إلى الأَيْرِ مِنْ تَحْتِ الثِّيابِ تُشِيرُ

فقال بشار : ــ وكتب بها إلى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان حماد يعلم ولده :

يا أبَا الفَضْـلِ لا تَنَمْ … وَقَعَ الذِّئْبُ في الغَنَمْ
إنَّ حمّادَ عَجْرَدٍ … إنْ رأى سَوْءَةً هَجَمْ
بينَ فَخْذَيْهِ حَرْبَةٌ … في غِلافٍ من الأَدَمْ
كُلَّما غِبْتَ ساعَةً … يَجْمَجَ الميمَ بالقَلَمْ

فقال العباس : مالى ولبشار ! اصرفوا حماداً عنى ، فقال حماد : لقد فرق بنى وبين رزقى بشعره ، وسوف أفرق بينه وبين حياته بشعر أقوله ، فقال :

بَني أُمَيَّةَ هُبُّوا طَالَ نَومُكمُ … إنَّ الخليفَةَ يَعْقُوبُ بنُ دَاوُدِ
ضَاعَتْ خِلافتكُم يا قومِ فالتَمِسُوا … خليفةَ اللهِ بَيْنَ الزِّقِّ والعُودِ

ونسبهما إلى بشار ، فبلغ ذلك المهدي فقتله » وكان مقتل بشار سنة ١٦٧ . (وانظر ترجمته ومراجعها فى الشعر والشعراء : ٧٣٣ــ ٧٣٦) .

مجلس آخر

فأما مطيع بن إياس الكنانيّ(١) فأخبرنا أبو عُبيد الله المرزبانيّ عن عليّ بن هارون عن عمه يحيى بن / عليّ عن أبي أيوب المدنيّ عن أحمد بن إبراهيم الكاتب قال أخبرني أبي قال: رأيت بنتاً لمطيع بن إياس قد أُتيَ بها في أول أيام الرشيد ، فأقرّت بالزّندقة وقرأتها وتابت، وقالت : هذا شيء علمنيه أبي ، فقبل الرشيد توبتها ، وردها إلى أهلها . [٤٥ و]

وقال محمد بن داود بن الجراح في أخبار مطيع بن إياس أنه كان يرمَى بالزّندقة ، وروى أنه لما حضرته الوفاة أحاط به أهل بيته ، فأقبلوا يقولون له : قل يا مطيع : لا إله إلا الله ، فلا يقول حتى إذا صارت نفسُه في (٢ ثغرته كرَّ يتنفس ٢) ، ثم أهوى إلى الكلام ، فقالوا له : قل لا إله إلا الله ، فتكلم كلاما ضعيفاً فتسمّعوا له ، فإذا هو يقول :

لَهْفَ نَفْسِى على الزَّمانِ وفى أىّ زَمَانٍ دَهَتْنِىَ الأَزْمانُ
حينَ جاءَ الرَّبيعُ واستُقْبِلَ الصَّيْـــفُ وطابَ الطِّلاءُ والرَّيحَانُ(٣)

قال المرزُبانيّ : وهذا الحديثُ يرويه(٤) الهيثم بنُ عديّ ليحيى بن زياد.

* * *

فأما يحيى بن زياد الحارثيّ(٥) فهو يحيى بن زياد بن عُبيد الله بن عبد الله بن عبد المَدَان

(١) انظر مطيع بن إياس وأخباره في (الأغاني ١٢ـ ٧٥ ـ ١٠٥) .

(٢ـ٢) ت ، د ، ف : « ثغرته تنفس » ، ومن نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « في ثغرة نحره تنفس » . ط : « في ثغراته تنفس » .

(٣) الطلاء : الخمر .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « رواه » .

(٥) انظر يحيى بن زياد في (معجم الشعراء للمرزباني ٤٩٧ ـ ٤٩٨) .

ابن الديان الحارثيّ الـكوفيّ . وزياد بن عبيد الله هو خال أبي العباس السّفاح ، ويكـنى يحيي أبا الفضل ، وكان يُعرف بالزِّنديق : وكانوا إذا وصفوا إنسانا بالظَّرف قالوا : هو أظرف من الزِّنديق ـ يعنون يحيي ـ لأنه كان ظريفاً ، وهذا المعنى قصَد أبو نواس بقوله :

* تِيهِ مُغَنٍّ وظَرْفُ زِنْدِيقِ *(١)

قال الصولىّ : وإنما قال ذلك لأن الزِّنديق لا يَرِعُ عن شيء(٢) ولا يمتنع مِمّن يُدْعَى(٣) إليه ، فنسبه إلى الظَّرف لمساعدته على كل شيء ، وقلة خلافه .

وروى أنه قيل ليحيي بن زياد ـ وهو يجود بنفسه ـ قل : لا إله إلا الله ، فقال :

* لم يَبقَ إلاَّ القَتْبُ والجلاجِلُ(٤) *

ثم أغمِى عليه ، فلما أفاق أعيد عليه القول فقال :

* وبازِلٌ تَغلى به المَرَاجِلُ *(٥)

وروى محمد بن يزيد قال : قال مطيع بن إياس يرثى يحيي بن زياد ـ وكانا جميعاً مرميَّين بالخروج عن الملة :

يا أهلِ بَـكُّوا لقلبيَ القَرِحِ ... ولِلدُّموعِ الهَوامِلِ السُّفُحِ(٦)

راحوا بيَحْيَي إلى مُغَيَّبَةٍ ... فى القبْرِ بيْنَ التُّرابِ والصُّفُحِ(٧)

---

(١) ديوانه : ٨٩ ، وصدره :

* وَصِيفُ كَأْسٍ مُحَدِّثُه مَلِكٌ *

(٢) فى حاشيتى ت ، ف : « يقال : ورع يرع ورعا ، ورعة ، فهو ورع ؛ أى تقى » .

(٣) م : « لايدع شيئا » .

(٤) ت ، ش ، ف : « والخلاخل » ، د: « القرط والخلاخل » . والقبط : الرحل ؛ وهو للنساء يشد على الهودج . وفى حاشيتى الأصل : « القبط : قتب يأخذ جميع ظهر البعير » .

(٥) البازل : البعير إذا كان فى التاسعة ؛ سمى بذلك لأنه يبزل نابه ؛ أى ينشق .

(٦) ت ، ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « السواكب » .

(٧) الصفح : جمع صفيحة ؛ وهى الحجارة العراض .

[٤٠ ظ] /راحُوا بيَحْيَى ولو تُساعدُنى الأَ ... أقدارُ لم يَبْتَكِرْ ولم يَرُحِ (١)
يا خيرَ مَنْ يحسُنُ البُكاءُ له الـ ... ـيومَ ومَنْ كانَ أمسِ للمِدَحِ
قدْ ظَفِرَ الحُزْنُ بالسُّرُورِ وقدْ ... أُدِيلَ مَكْرُوهُنا مِنَ الفَرَحِ

ولمطيع يرثيه :

انظُرْ إلى الموْتِ كيفَ بادهَهُ ... والموْتُ مِقْدامةٌ على البُهَمِ (٢)
لوْقدْ تَدَبَّرْتَ ما صَنَعْتَ بهِ ... قَرَعْتَ سِنًّا عليهِ مِنْ نَدَمِ
فاذْهَبْ بمَنْ شئتَ إذْ ذَهَبْتَ بهِ ... ما بَعْدَ يحيى للرُّزْءِ مِنْ ألَمِ

* * *

وأمّا صالح بن عبد القدُّوس فكان متظاهرا بمذاهب الثَّنوية ، ويقال إن أبا الهذَيل العلاَّف ناظره فقطعه ، ثم قال له : على أىّ شىء تعزم ياصالح ؟ فقال : أستخير الله وأقول بالاثنين ، فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرتَ لا أمّ لك !!

وروى أنّ أبا الهذيل ناظره فى مسألة مشهورة فى الامتزاج الذى ادّعوه بين النور والظلمة فأقام عليه الحجة فانقطع ، وأنشأ يقول :

أبا الهُذَيل هَدَاكَ اللهُ يا رَجُلُ ... فأنتَ حقًّا لَعمرِى مُعْضِلٌ جَدِلُ

وروى أنّه رُؤِىَ يصلى صلاةً تامة الرّكوع والسجود ، فقيل له : ماهذا ومذهبك معروف ! قال : سنّة البلد ، وعادة الجسد ، وسلامة الأهل والولد .

ويقال إنّه لما أراد المهدىّ قتلَه على الزندقة دعا إليه بكتاب وقال له : اقرأ هذا ، قال : وما هو ؟ قال : كتاب الزّندقة ، قال صالح : أوتعرفه أنت يا أمير المؤمنين إذا قرأتَه ؟ قال : لا ، قال : أفتقتلُنى على مالا تعرف ! قال: فإنى أعرفه ، قال صالح: فقد عرفته ولستَ بزنديق؛ وكذلك أقرؤه ولستُ بزنديق .

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « لم تبتكر ولم ترح » .
(٢) البهم : جمع بهمة ؛ وهو الشجاع .

وذكر محمد بن يزيد المبرّد قال : ذكر بعض الرواة أنّ صالحاً لما نوظر فيما قُذِف به من الزندقة بحضرة المهديّ قال له المهديّ : ألستَ القائل فى حفظك ماأنت عليه :

رُبَّ سِرٍّ كتمتُهُ فكأنّى   أخْرَسٌ أو ثنى لِسانِىَ خَبْلُ

/ولو أنّى أبديتُ لِلنّاسِ عِلْمى   لم يَكُنْ لى فى غيرِ حَبْسِىَ أُكْلُ [٤٦ و]

قال صالح : فإنى أتوب وأرجع ، فقال له المهديّ : هيهات! ألست القائل :

والشّيخُ لا يَترُكُ أخلاقَهُ   حتّى يُوارَى فى ثرَى رَمْسِهِ

إذا ارْعَوَى عاوَدَهُ جَهْلُهُ(١)   كذِى الضَّنَى عادَ إلى نُكْسِهِ(٢)

ثم قدّم فقتل ، ويقال إنه صلبه على الجسر ببغداذ .

ومن شعره(٣) وهو فى الحبس :

خرَجْنا مِنَ الدُّنيا ونحنُ مِنَ أهلِها   فلَسْنا مِنَ الأحْياءِ فيها ولا المَوْتَى

إذا دَخَلَ السَّجّانُ يوماً لِحاجةٍ   عَجِبْنا وقُلْنا جاءَ هذا مِنَ الدُّنيا

ونَفْرَحُ بالرُّؤيا فجُلُّ حَدِيثِنا   إذا نحنُ أصبَحْنا الحديثُ عَنِ الرُّؤيا(٤)

---

(١) ف ، حاشية ت (من نسخة) : « عاد إلى جهله » .

(٢) حاشية الأصل : « عاد إلى نكسه ؛ أى عاد إلى غيه رجوع الناقه من المرض » .

(٣) وردت هذه المقطوعة فى إنباه الرواة ١ : ٦٢ ، ومعجم الأدباء ٣ : ١٥٥ ، منسوبة إلى صالح ابن عبد القدوس ، وفى المحاسن والأضداد ٤٥–٤٦ منسوبة إلى عبد الله بن معاوية ، وفى عيون الأخبار ١ : ٨١–٨٢ ، من غير عزو ، وورد منها البيت الأول والثانى فى رسالة الغفران ٢ : ١٤٢ منسوبين لولد صالح ، وفى مقدمة اللزوميات : ٢٧ منسوبين لرجل كان فى السجن على عهد ملوك بنى العباس ، يقال إنه من ولد صالح بن عبد القدوس ، ومطلعها :

إلَى اللهِ أشْكُو إنّهُ مَوْضِعُ الشّكْوَى   وفِى يَدِهِ كَشْفُ المَضَرَّةِ والبَلْوَى

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « هذا المعنى للأحنف العكبرىّ وإن كان قريب اللفظ :

وأعلمُ فى المَنامِ بكلِّ خَيْرٍ   فأُصْبِحُ لا أراهُ وَلا يرانِى

وإنْ أبصرتُ شَرّاً فى منامى   لقيتُ الشَّرَّ من قبلِ الأذانِ

فإنْ حَسُنَتْ لم تأتِ عَجْلَى وأبْطأَتْ ... وإنْ قَبُحَتْ لم تَحْتَبِسْ وأتَتْ عَجْلَى
طَوَى دُونَنا الأخبارَ سِجْنٌ مُمنَّعٌ ... لهُ حارِسٌ تَهْدَا العُيونُ ولا يَهْدَا
قُبِرْنا ولم نُدْفَنْ فنحنُ بِمَعْزِلٍ ... من النّاسِ لا نُخْشَى، فنُغْشَى ولا نَغْشَى
ألا أحَدٌ يأوِي لأهْلِ مَحَلَّةٍ ... مُقِيمينَ في الدُّنيا وقدْ فارَقوا الدُّنيا

قال سيدنا الشريف المرتضى ذو المجدين أدام الله علوّه : وأظنّ أن ابنَ الجَهْمِ لَحظ قولَ صالح : « فنُغشى ولا نَغْشَى [(١)] » في قوله يصف الحبس :

بيتٌ يُجَدِّدُ لِلكريمِ كَرامةً ... ويُزَارُ فيهِ ولا يَزُورُ ويُحْفَدُ [(٢)]

* * *

وأما عليّ بن الخليل فذكر محمد بن داود قال : كان عليّ بن الخليل – وهو مولى يزيد بن مَزْيَد الشَّيْبانيّ ، ويكنَى أبا الحسن ، وهو كوفيٌّ – مُتَّهماً بالزّندقة ، فطلبه الرشيد عنـد قتله الزنادقةَ ، فاستتر طويلا ، ثم قصد الرَّقة[(٣)] وبها الرشيد ، فمدحه ومدح الفضل بن الربيع .

وروى[(٤)] أنّه لما قعد الرشيد للمظالم بالرَّقة حضر شيخٌ حَسَنُ الهيئة ، حَسَنُ الخِضاب ، معه قصيدة ، فأشار بها ، فأمر الرشيدُ بأخذها منه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحْسَنُ قراءةً لها من غيري ، / فأْذَنْ لي في قراءتها ، ففعل ، فقال : إني شيخ كبير ، ولا آمنُ [٤٦ ط]

(١) حواشي الأصل ، ت ، ف : « حمله السيد رضي الله عنه على أن قوله : « فنغشى ... » كلام مستأنف ، وأن الغشيان واقع ، والبيت الذي ذكر أنه نظر إليه يدل على ذلك ؛ ومراد الشاعر غير هذا ... رواية أصلح ؛ وهو أن يكون « نغشى » منصوبا بإضمار أن بعد الفاء التي تجيء بعد النفي ، ويكون غشيان الناس إياهم منفيا » .

(٢) يحفد : يخدم ، وفي م : « يحمد » ، والبيت من قصيدة قالها في الحبس حين حبسه المتوكل ؛ وهي في ديوانه ص ٤٥ ، والمحاسن والأضداد ٤٣ ، وأولها :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليسَ بضائِرِي ... حَبْسِي وأيُّ مُهنَّدٍ لَا يُغْمَدُ

(٣) الرقة : مدينة مشهورة على الجانب الأيسر للفرات بولاية حلب ؛ وهي وطن ربيعة الرقي الشاعر المشهور .

(٤) الخبر في (الأغاني ١٢ : ١٣–١٤) .

الاضطراب إذا قمت ، فإنْ رأيتَ أن تأذنَ لى فى الجلوس فعلتَ ، فقال : اجلس ، فجلس ، ثم أنشأ يقول :

يا خيرَ مَنْ وَخَدَتْ بأَرْحُلهِ   نجُبُ الرِّكابِ بِمَهمَهٍ جَلْسِ (١)
تَطوى السَّباسِبَ فى أزِمَّتِها   طَىَّ التِّجارِ عَمائمَ البِرْسِ (٢)
لمَّا رأتكَ الشَّمسُ طالعةً   سَجَدَتْ لوجهِكَ طَلْعَةُ الشَّمسِ
خيرُ الخلائفِ (٣) أنتَ كلُّهمُ   فى يومِكَ الماضى وفى أمسِ
وكذاكَ لا تنفكُّ خيرَهُمُ   تُمسى وتُصبِحُ فوقَ ما تُمسى
مِنْ عُصْبةٍ طابَتْ أَرُومتُها   أهلِ العفافِ ومُنْتَهَى القُدْسِ
فوقَ النُّجومِ فُروعُ نَبْعَتِهمْ   ومعَ الحضيضِ منابتُ الغَرْسِ
إنّى رَحَلْتُ إليكَ مِنْ فَزَعٍ   كانَ التَّوكّلُ عِندَهُ تُرْسى
ما ذاكَ إلّا أنَّنى رَجُلٌ   أصْبُو إلى بَقَرٍ منَ الإنْسِ
بَقَرٍ أوانِسَ لا قُرُونَ لها   يَقْتُلْنَ بالتَّطويلِ والحَبْسِ
وأُجاذِبُ الفِتْيانَ بَيْنَهُمُ   صَهْباءَ مِثْلَ مُجاجةِ الوَرْسِ
لِلماءِ فى حافاتِها حَبَبٌ   نَظْمٌ كَطَىِّ صحائفِ الفُرْسِ (٤)
واللهُ يَعْلَمُ فى بَقِيَّتِهِ   ما إنْ أضَعْتُ إقامةَ الخَمْسِ

فقال له هارون : مَنْ أنت ؟ قال : علىّ بن الخليل الذى يقال إنه زِنديق ، قال : أنت آمِن ، وكتب إلى حَمْدُويه ألّا يعرض له .

ومن تركْنا ذكرَهُ من هؤلاء أكثر ممن ذكرناه ، وإنما اعتمدْنا من كان بهذه البليّة

---

(١) وخدت : أسرعت ، ونجب : جمع نجيب ، وهو وصف للناقة الخفيفة السريعة ، والمهمه : البلد القفر ، والجلس : الغليظ من الأرض .

(٢) السباسب : جمع سبسب ؛ وهى الفلاة ، والتجار : جمع تجر ، وتجر : جمع تاجر ؛ كقولهم : صاحب وصحب وصحاب ، والبرس : القطن .

(٣) م : « الخلائق » .

(٤) حاشية الأصل : « ذكر س : الحباب طرائق الماء ، والحبب ما يعلو المائعات من النفاخات » .

أشهر ، وأمرُه فيها أظهر ، وأوردنا مع ذلك قليلا من كثير ، وجملةً من تفصيل .

* * *

وإذ قد ذكرنا جملة من أخبار أهل الضلالة ، والمتقادين للجهالة ، حَسَبَ ما سئلنا ، فنحن نُتبعها بشيء من أخبار أهل التوحيد والعدل ، ومُلَحِ حكاياتهم ، ومستحسن ألفاظهم ، [٤٧ و] لِيُعلَمَ الفرق بين من رَبِحَتْ / بَيْعَتُه ، وبين من خسِرَت صفقَتُه ، فقد سئلنا أيضا ذلك .

اِعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ وخُطبه ، فإنها تتضمّن من ذلك مالا زيادة عليه ، ولا غايةَ وراءه ، ومَنْ تأمل المأثور في ذلك من كلامه عِلم أنّ جميع ما أسهب المتكلمون من بعدُ في تصنيفه وجمعه ، إنما هو تفصيل لتلك الجمل ، وشرح لتلك الأصول ، ورُوِي عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام من ذلك ما يكاد لا يحاط به كثرة ، ومن أحب الوقوف عليه ، وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير ، الذى في بعضه شفاء للصدور السقيمة ، ونِتاج للعقول العقيمة ؛ ونحن نقدّم على مانريد ذكرَه شيئا مما رُوِي عنهم في هذا الباب .

فمن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام(١) وهو يصف الله تعالى : «بمضادّته(٢) بين الأشياء عُلِم أنْ لا ضدّ له ، وبمقارنته بين الأمور عُلِم أن لاقرين له ، ضادّ النور بالظلمة ، والخشونة باللين ، واليبوسة بالبلل ، والصَّرَد(٣) بالحَرور ؛ مؤلّف بين متعادِياتِها(٤) ، مفرّق بين متدانياتها » .

---

(١) ت : « ... عليه السلام أنه قال وهو يصف ... » .

(٢) في حاشيتي الأصل ، ف : « أي بنصب المضادة بين الضدين يستدل على أن لاضد له ؛ لأن من يقدر على ذلك لابد أن يكون متوحداً بصفات الجلال ، التي تحيل أن يكون للموصوف بها ضد » .

(٣) في حاشيتي ت ، ف : « الصرد : البرد ؛ وهوفارسي معرب ، يقال : يوم صرد وصرد [بسكون الراء وفتحها] ، وصرد الرجل [بكسر الراء] يصرد صردا [بفتحها] » .

(٤) ف ، ونسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « متباعداتها » .

وروى عنه عليه السلام أنه سئل : بِمَ عرفت ربك ؟ فقال : بما عرّفني به، قيل : وكيف عرّفك؟ فقال: «لا تشبهه صورة، ولا يُحَسّ بالحواسّ الخمس، ولا يقاس بقياس الناس». وقيل له عليه السلام : كيف يحاسِب الله الخلق؟ فقال : كما يرزقهم ، فقيل : كيف يحاسبهم ولا يرونه؟ فقال : كما يرزقهم ولا يرونه .

وسأله رجل فقال : أين كان ربُّك قبل أن يخلُقَ السماء والأرض ؟ فقال عليه السلام : أين سؤالٌ عن مكان ، وكان الله ولا مكان .

وروى عن أبي عبد الله الصادق[١] عليه السلام أنه سأله محمد الحلبيّ فقال له : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه؟ قال : نعم رآه بقلبه ، فأما ربُّنا جلّ جلاله فلا تدركه أبصارُ الناظرين ، ولا تحيط به أسماعُ السامعين .

وروى صفوان بن يحيى قال: دخل أبو قرّة المحدّث على أبي الحسن الرّضا[٢] عليه السلام فسأله[٣] عن أشياء من الحلال والحرام والأحكام والفرائض ، حتى بلغ إلى التوحيد ، فقال له أبو قرّة : إنا رُوِّينا أن الله تعالى قسم الكلام والرؤية ، فقسم لموسى الكلامَ ، ولمحمد صلى الله عليه وآله الرؤية ، فقال الرِّضا عليه السلام : فمَن المبلّغُ عن الله تعالى إلى الثقلَين: الجنّ والإنس أنه لا تدركه الأبصار ، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء ؟ أليس محمد عليه السلام نبياً صادقاً؟ قال: بلى ، قال : فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرُهم أنه جاء من عند الله تعالى يدعوهم إليه بأمره ، ويقول : لا تدركه الأبصار ، ولا يحيطون به علما ، وليس كمثله شيء ، ثم يقول:

---

(١) هو الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ، ولد بالمدينة سنة ٨٠ ، وروى عن أبيه وجده القاسم وطبقتهما ، وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتابا في ألف ورقة يتضمن رسائله ؛ وتوفى سنة ١٤٨ ، ودفن بالبقيع ؛ (شذرات الذهب ١ : ٢٢٠) .

(٢) هو الإمام أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ثامن الأئمة الاثنى عشر ، توفى بطوس سنة ٢٠٤ ، وصلى عليه المأمون ؛ ودفن بجانب الرشيد . (شذرات الذهب ٢ : ٦) . (٣) حاشية ت (من نسخة) : «فسأله» .

سأراه بعيني وأحيط به علماً ؛ أما تستحيون ما قدرت الزنادقة أنْ ترميه بهذا أن يكونَ يأتي عن الله تعالى بشيء ، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر ! قال أبو قرّة : فإنه يقول: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾؛ [النجم : ١٣ ، ١٤] ، فقال عليه السلام : ما بعد هذه الآية يدلّ على ما رأى؛ حيث يقول: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾؛ [النجم : ١١] ، يقول ما كذب فؤادُ محمد ما رأت عيناه ، ثم أخبر بما رأى ، فقال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾؛ [النجم : ١٨] ، وآياتُ الله غير الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾؛ [طه : ١١٠] ، فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم. فقال أبو قرّة : فتُكذِّب بالرؤية؟ فقال الرضا عليه السلام : إذن القرآن كذّبها ، وما أجمع عليه المسلمون أنه لا يُحاط به علما ، ولا تدركه الأبصار ، وليس كمثله شيء .

وأتى أعرابيّ أبا جعفر محمد بن عليّ عليهما السلام[1] فقال له : هل رأيتَ ربّك حين[2] عبدتَه ؟ فقال : لم أكنْ لأعبدَ شيئاً لم أره ، فقال : كيف رأيته ؟ فقال : لم تره الأبصارُ بمشاهدة العِيان ، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان ؛ لا يدرَك بالحواس ، ولا يقاس بالنّاس ، معروفٌ بالآيات ، منعوت بالعلامات ، لا يجورُ في قضيّته ؛ هو الله الذي لا إله إلا هو . فقال الأعرابيّ : الله أعلم حيثُ يجعل رسالاته !

وروي أنّ شيخاً حضر صِفّين مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: أخبرْنا يا أمير المؤمنين [٤٧ ظ] عن مسيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء من الله تعالى وقدَر ؟ قال له : / نعم يا أخا أهل الشام ، والذي فلَق الحبّة، وبرأ النّسمة ، ما وطِئنا موطِئاً ، ولا هبطْنا وادياً ، ولا علونا تلْعة إلا بقضاء من الله وقدَر ، فقال الشاميّ : عند الله أحتسِب عنائي يا أمير المؤمنين ، وما أظنُّ أن لي أجراً في سعْيي إذ كان الله قضاه عليّ وقدّره ! فقال له عليه السلام : إن الله قد أعظم

---

(١) هو الإمام أبو جعفر محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم ؛ أحد الأئمة الاثنى عشر ؛ توفي ببغداد سنة ٢٢٠ ؛ (شذرات الذهب ٢ : ٤٨) .

(٢) ش : « حتى » .

لكُم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون ، وعلى مقامكم وأنتم مقيمون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرَهين ، ولا إليها مضطرين ، ولا عليها مجبَرين .

فقال الشامىّ : وكيف ذاك والقضاء والقدَر ساقانا ، وعنهما كان مسيرُنا وانصرافُنا ؟ فقال له عليه السلام : يا أخا أهلِ الشام ، لعلّك ظننت قضاء لازما ، وقدَرًا حتمًا ؛ لوكان ذلك كذلك لبطل الثوابُ والعقاب ، وسقط الوعدُ والوعيد ، والأمرُ من الله والنهى ، وما كان المحسِن أوْلَى بثواب الإحسان من المسئ ، والمسئ أوْلَى بعقوبة الذنب من المحسِن ؛ تلك مقالة عَبَدة الأوثان ، وحزب الشيطان ، وخُصَماء الرحمن ، وشهداء الزور ، وقدَريّة هذه الأمة ومجوسها ؛ إنّ الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّف يسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُطَعْ مكرِها ، ولم يُعْصَ مغلوبا ، ولم يكلّف عسيراً ، ولم يرسِل الأنبياء لعباً ، ولم ينزّل الكتبَ إلى عباده عبثا ، ولا خلَق السموات والأرض وما بينهما باطلا ؛ ذلك ظنّ الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار !

قال الشامىّ : فما القضاء والقدَر الذى كان مسيرُنا بهما وعنهما ؟ قال : الأمر من الله بذلك والحكم ، ثم تلا : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ؛ [الأحزاب : ٣٨] ، فقام الشامىّ فرِحا مسروراً لمّا سمع هذا المقال ، وقال : فرّجت عنى فرّج الله عنك يا أمير المؤمنين ، وأنشأ يقول :

أنتَ الإمامُ الّذِى نَرْجُو بطاعَتِهِ ... يومَ الحِسابِ مِنَ الرّحمنِ غفرانا[(١)]
أوضَحْتَ مِنْ أمرِنا[(٢)] ما كانَ مُلتَبِساً ... جَزاكَ رَبُّكَ بالإحسانِ إحْسانا[(٣)]

وروِىَ أنّ أبا حنيفة النعمان بن ثابت قال : دخلتُ المدينةَ ، فرأيت أبا عبد الله [جعفر ابن علىّ][(٤)] عليه السلام ، فسلّمت عليه ، وخرجت من عِنده ، فرأيت[(٥)] ابنَه موسى[(٦)] عليه السلام

---

(١) حاشية ف : « فى رواية * يوم النشور من الرحمن رضوانا * » .
(٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « أوضحت من ديننا » .
(٣) حاشية ف : « فى رواية : * جزاك ربك عنا فيه إحسانا * » .
(٤) تكملة من ث . (٥) ث ، ش : « فأتيت » .
(٦) هو المعروف بموسى الكاظم ، أحد الأئمة الاثنى عشر ؛ توفى سنة ١٨٣ ؛ (شذرات الذهب ١ : ٣٠٤)

[٤٨ و] فى دِهْليزه، قاعداً فى مكتبه، /وهو صغيرُ السن فقلتُ له : أين يُحدِثُ[1] الغريبِ إذا كان[2] عندكم وأراد ذلك ؟ فنظر إلىَّ ثم قال : يتجنَّبُ شطوطَ الأنهار ، ومساقط[3] الثمار ، وأفنيةَ الدور ، والطرق النافذة ، والمساجد ، ويضع ويرفع بعد ذلك حيث شاء . قال : فلما سمعتُ هذا القول نَبُلَ فى عينى ، وعظُمَ فى قلبى . فقلتُ له : جُعِلتُ فداك ! فممَّن المعصية ؟ فنظر إلىَّ ثم قال: اجلس حتى أخبرَك ، فجلست ، فقال : إنَّ المعصيةَ لابدَّ أن تكون من العبد أو من ربه ، أو منهما جميعاً ؛ فإن كانتْ من الله تعالى فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده ، ويأخذه بما لم يفعله ، وإن كان منهما فهو شريكه ؛ والقوىّ أوْلَى بإنصاف عبده الضعيف ، وإن كانت من العبد وحدَه فعليه وقعَ الأمر ، وإليه توجَّه النهى ، وله حق الثواب والعقاب ، ووجبت الجنة والنار ، قال: فلما سمعتُ ذلك قلتُ : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ [آل عمران : ٣٤] .

وقد نُظِم هـذا المعنى شعراً فقيل :

لم تَخْلُ أفعالُنا اللاتى نُذَمُّ لها ... إحْدَى ثلاثِ خِلالٍ حينَ نأتيها
إمّا تفرَّدَ بارِينا بِصَنْعَتِها ... فيَسقُطُ اللَّوْمُ عنّا حينَ نُنْشِيها
أو كانَ يَشْرَكُنا فيها فيَلْحَقُهُ ... ما سوفَ يَلْحَقُنا مِنْ لائمٍ فيها
أو لم يكُنْ لإلهى فى جِنايَتِها ... ذَنْبٌ فما الذَّنْبُ إلّا ذَنْبُ جانِيها[4]

* * *

وأحدُ مَنْ تظاهر من المتقدمين بالقول بالعدل، الحسنُ بن أبى الحسن البصرىّ ، واسم أبيه يَسار ، من أهل مَيْسان ، مولى لبعض الأنصار ، وكان اسم أمه خَيْرة ، مملوكة لأمّ سلَمة زوج النبى صلى الله عليه وآله ، ويقال إن أمّ سلمة كانتْ تأخذ الحسن إذا بكى فتسكِّته بثديها،

(١) حاشية ت (من نسخة) : « يضع » .

(٢) م : « الرجل » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « ومسقط » .

(٤) فى حواشى الأصل ، ت ، ف : « زيادة فى آخر هذه القطعة :

سَيَعْلَمُونَ إذَا الْمِيزَانُ شَالَ بِهِمْ ... أَهُمْ جَنَوْهَا أَمِ الرَّحْمنُ جَانِيهَا
ــ من الجن ــ » .

فكان يَدِرّ عليه ، فيقال إنّ الحكمة التي أوتيها الحسن من ذلك ، وبلغ الحسنُ من السن تسعا وثمانين سنة .

فمن تصريحه بالعدل ما رواه عليّ بن الجعْد[1] قال : سمعت الحسن يقول : مَنْ زعم أن المعاصيَ من الله عز وجلّ جاء يوم القيامة مسودًّا وجهه ، ثم قرأ : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : ٦٠] . وقال داود بن أبي هِنْد : سمعت الحَسَن يقول : كلُّ / شيء بقضاء وقَدَر[2] إلا المعاصي . [٤٨ ظ]

وكان الحَسَن بارِعَ الفصاحة ، بليغ المواعظ ، كثيرَ العلم . وجميعُ كلامه في الوعظ وذم الدنيا أو جلّه مأخوذٌ لفظاً ومعنًى ، أو معنًى دون لفظ ؛ من كلام أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، فهو القُدوة والغاية[3] .

فمن ذلك قولُه عليه السلام : « شيئان أحدُهما مأخوذٌ من الآخر ، أحدُهما أكثر شيء في الدنيا ، والآخَر أقلُّ شيء في الدنيا : العِبَر والاعتبار » .

وقوله عليه السلام : « مَثَلُ الدنيا والآخرة ، مثلُ المشرق والمغرب ، متى ازددتَ من أحدهما قرباً ، ازددت من الآخر بُعداً » .

وقوله : « شتّان بين عملين : عملٍ تذهب لذّتُه ، وتبقى تَبِعَتُه ، وعملٍ تذهب مُؤْنَتُه ويبقى أجره » .

وقوله في وصف الدنيا : « ما أصِفُ من دارٍ أولُها عناء ، وآخرها فَناء ، في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب ، مَنْ صَحّ فيها أمِنَ[4] ، ومَنْ فرّط فيها ندم ، ومن استغنى

(١) حواشي الأصل ، ث ، ف : « علي بن الجعد لم يلق الحسن ؛ فإن عليا مات سنة ثلاثين ومائتين ، والحسن مات سنة عشر ومائة ، وولد عليّ بن الجعد سنة أربع وثلاثين ومائة . قال القتيبي : عليّ بن الجعد مولى أم سلمة المخزومية ، امرأة أبي العباس أمير المؤمنين ، وولد سنة ست وثلاثين ومائة ، ومات ببغداد سنة ثلاثين ومائتين ، وفيها مات عبد الله بن طاهر » .

(٢) حاشية ث (من نسخة) : « بقضاء الله وقدره » . (٣) ث : « فهو في ذلك القدوة والغاية » .

(٤) حاشية ف : « قوله : من صح فيها أمن ، يعني أن الإنسان إذا صح جسمه أمن الأهوال الدنيوية والأخروية ، وإذا مرض ندم على التقصير » .

فيها فُتِن ، ومَن افتقر فيها حَزِن » .

وقوله فى كلام له : «فيأيها الذامّ للدنيا، والمغتل[١] بغرورها ، متى استذمّت[٢] إليك؟ بل متى غرّتك ؟ أبمصاجع آبائك من الثرى ؟ أم بمنازِل أمّهاتك من البِلَى ؟ كَمْ مرّضتَ بكفّيك ؟ وكم عالجتَ بيديك ؟ تبتغى لهم الشفاء ، وتستوصِف لهم الأطبّاء ؛ مثّلتْ لك بهم الدنيا نفسَك ، وبمصرعِهم مصرعَك » .

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : وهذا باب إن ولجْناه اغترفنا من ثَبَج[٣] بحْر زاخر ، أو شُؤْبوبِ[٤] غمامٍ ماطر ؛ وكلُّ قولٍ فى هذا الباب لقائل إذا أضِيفَ إليه ، أو قُويِسَ به كان كإضافة القطْرة إلى الغَمْرة[٥] ، أو الحَصاة إلى الحرَّة[٦] ، وإنما أشرنا إليه إشارة ، وأومأنا إليه إيماء ، ثم نعود إلى ما كنا فيه .

روى أن أعرابياً سمع كلامَ الحسن البصرىّ فقال : المؤمن فصيح إذا لَفَظ ، نصيح إذا وَعَظ .

وروى أن الحسن تلا يوماً : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾؛ [الأحزاب : ٧٢] ، ثم قال : « إنَّ قوماً غَدَوا فى المطارف[٧] العِتاق ، والعمائم الرّقاق ، يطلبون الإمارات ، ويضيّعون الأمانات، يتعرّضون للبلاء وهم منه فى عافية ؛ حتى إذا أخافوا مَنْ فوقهم من أهل العِفّة ، وظلموا مَنْ تحتهم من أهل الذّمة أهزلُوا[٨] دينهم ، وأسمنُوا بَراذِينهم ، ووسّعوا دورَهم ، وضيّقوا قبورَهم ؛ ألم ترَهُمْ قد جدَّدُوا / الثياب ، [٤٩ و]

(١) ت ، ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « المغتر » .

(٢) حاشية الأصل : « قوله عليه السلام استذمت ، أى فعلت ما يلام عليه » .

(٣) ثبج البحر : وسطه أو معظمه . (٤) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٥) الغمرة : الماء الكثير الذى يغمر من خاض فيه .

(٦) الحرة : أرض سوداء ذات حصى .

(٧) المطارف : جمع مطرف ؛ وهو كساء من خز ذو أعلام .

(٨) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « هزلوا » .

وأخْلَقوا الدين، يتّكي أحدُهم على شماله، فيأكلُ من غير ماله؛ طعامُه غَصْب، وخَدَمُه سُخْرة؛ يدعو بحُلْوٍ بعد حامض، وبحارٍّ بعد بارد، ورطبٍ[١] بعد يابس؛ حتى إذا أخذتْه الكِظّة، تجشّأ من البَشَم، ثم قال: يا جارية، هاتي حاطوماً (يعني هاضوما) يهضِمُ الطّعام؛ يا أُحَيمِق! لا والله لن تَهضِم إلا دينَك، أين جارُك! أين يتيمُك! أين مسكينُك! أين ما أوصاك الله عزّ وجلّ به!».

وذَكَر يوما الحجاجَ فقال: «أتانا أُعَيمِش أُخَيفِشُ، له جُمَيمَةٌ يُرَجِّلُها، وأخرج إلينا بَنانا قِصاراً، والله ما عَرِق فيها عِنان في سبيل الله، فقال: بايعوني، فبايعناه، ثم رَقِيَ هذه الأعوادَ ينظرُ إلينا بالتصغير، وننظر إليه بالتعظيم؛ يأمرنا بالمعروف ويجتنِبُه، وينهانا عن المنكر ويرتكبه».

وروى عيسى بن عمر قال: قال الحسنُ: «إنّ هذه القلوب طُلَعة[٢] فاقدَعوها، فإنّكم إنْ تُطيعوها تنزِعُ بكم إلى شرّ غاية، وحادثوا هذه النفوسَ، فإنها سريعة الدُّثور».

قال عيسى بن عمر: فحدّثتُ بذلك أبا عمرو بن العلاء، فعجِب من فصاحته.

وكان يقول في بعض كلامه: «ما يشاء أن ترى أحدَهم أبيضَ بضًّا، يَملَخ في الباطل مَلْخًا، ينفض مِذرَوَيه ويقول: هأنذا فاعرِفوني».

قال: فالبضّ، هو الرَّخْص اللّحم، وليس هو من البياض على ما يظنّه قوم؛ لأنه قد تكون الرّخاصة مع الأُدْمة. وأما قوله «يملَخ» فإن المَلْخ هو التَّثنّي والتكسّر، يقال مَلَخ الفرس إذا لعب[٣]؛ قال رُؤْبة يصف الحمار:

* مُعْتَزِمُ التَّجْلِيحِ مَلّاخُ المَلَقْ[٤] *

(١) ف، ونسخة بحاشيتي ت، ف: «ورطب».
(٢) الطلعة: الكثيرة التطلع إلى الشيء؛ أي أنها كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها، قال في اللسان: «وبعضهم يرويه بفتح الطاء وكسر اللام، وهو بمعناه، والمعروف الأول».
(٣) في اللسان (ملخ) وحاشيتي ت، ف: «يملخ في الباطل ملخا؛ أي يمر فيه مرا سريعا».
(٤) الاعتزام: المضي على جهة واحدة، والتجليح: شدة الإقدام، والملق: ما استوى من الأرض. =

والمذروان[١] : فرعا الأليتين : قال عنترة :

أَحَوْلِي[٢] تَنْفُضُ اسْتُكَ مِذْرَوَيْهَا لِتَقْتُلَنِي فَهَأَنَذَا عُمَارَا

هذا قول أبي عبيد ؛ وقال ابنُ قتيبة ردًّا عليه : ليس المِذْرَوَان فَرْعَيِ الأَلْيَتين حَسْبُ؛ بل هما الجانبان من كل شيء ؛ تقول العرب : جاء فلان يضرب أَصْدَرَيْهِ ، ويضرب عِطْفَيْه ، وينفض مِذْرَوَيْهِ ، وهما مَنْكِباه. وذَكَرَ أنه سمِعَ رجلا من فصحاء العرب يقول : قنَّع الشيب مِذْرَوَيْه ، يريد جانبي رأسه ، وهما فَوْداه ، وإنما سمّي بذلك ، لأنّهما يَذْرَيان ؛ أي

= وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : وقبله :

* إِذَا تَتَلَاّهُنَّ صَلْصَالُ الصَّعَقْ *

ـ أي تلا الحمار الأتن ، والصلصال : الصوت ، والصعق : شدة الصوت ؛ وحمار صعق : شديد الصوت ، وبعده :

* يَرْمِي الجَلَامِيدَ بِجُلْمُودٍ مِدَقّْ *

والبيت من أرجوزته التي مطلعها :

* وقاتِمِ الأَعْماقِ خاوِي المُخْتَرَقْ *

وهي في (ديوانه ١٠٤ــ١٠٨) ، وأبيات منها مشروحة في (الخزانة ١ : ٣٨ــ٤٤) .

(١) حاشية ف : «قوله المذروان» أي أطراف الأليتين ، وليس يثنى على واحد هو مذرى ، خلافا لما يقوله أبو عبيد ؛ إذ لو كان ذلك كذلك لـكان مذريان ؛ لأن الواو إذا وقعت رابعة فصاعدا قلبت ياء قياسا [illegible] ألا ترى إلى المذرى الذي يذرى به الطعام إذا ثني يقال «مذريان» ؛ فقوله : «مذروان» [illegible] الأليتين ، كذا ورد عنهم في صورة التثنية ، وإن لم يكن تثنية لواحد مذكور » .

(٢) ت ، د ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « أحولي » ، وهو يخاطب عمارة بن زياد العبسي وكان [illegible] أنه يقول لقومه : [illegible] أكثرتم ذكر هذا العبد ؛ وددت أني لقيته خاليا حتى يعلم أنه عبد ؛ وبعده :

مَتَى مَا تَلْقَنِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفْ رَوانِفُ أَلْيَتَيْكَ وَتُسْتَطَارَا

والروانف أعلى الأليتين ؛ والبيتان من قطعة في (حماسة ابن الشجري : ٨ ، واللآلي ٤٨٣ ، والخزانة ٣ : ٢٦٢) .

بَشيبان ، والمذْرَى والذُّرْوة[1] الشيب ، قال : وهـذا أصل الحرف ، ثم استعير للمنكبين ، والألْيتين ، والطرفين من كل شيء ، قال أمية بن أبى عائذ الهُذَلىّ يذكر قوساً :

على عَجْسِ هَتَّافة المذْرَوَيْـــنِ زَوْرَاء مُضْجَعَة فى الشِّمَالِ[2]

أراد قوساً ينبض[3] طرفاها . قال : فلا معنى لوصف الرجل الذى ذكره الحسَنُ بأنه يحرك أَلْيَتَيْهِ ؛ ولا من شأن من يبذَخ[4] ويتيه على نفسه ويقول : هأنذا فاعرفونى أن يحرّك أَلْيَتَيْه ؛ وإنما أراد أنه يضرب عِطفَيْهِ ، وهذا مما يوصَف به المرِح المختال ، وربما قالوا : جاءنا يَنْفُض مِذْرَوَيْه ، إذا تهدّد وتوعد ، لأنه إذ تكلم وحرّك رأسه نفض قُرُونَ فَوْدَيْه ، وهما مِذْرواه .

قال سيدنا الشريف الأجل المرتضى أدام الله علوّه : ليس الذى ذكره أبو عبيد ببعيد ، لأن من شأن المختال الذى يُزْهَى بنفسه أن يهتزّ ويتثنّى ، فتتحرك أعطافه وأعضاؤه ؛ ومِذرواه من جملة ما يهتزّ ويتحرّك ، لأنّهما بارزان من جسْمِه ، فيظهر فيهما الاهتزاز ، وإنما خُصَّ المِذروان[5] بالذِّكر مع أن غيرها يتحرك أيضا ، على طريق التقبيح على هذا المختال والتهجين لفعله . وقول ابن قتيبة ليس من شأن مَنْ يبذَخ أن يحرّك أَلْيَتَيْه ليس بشيء ، لأن الأغلبَ من شأن المختال البذّاخِ الاهتزازُ وتحريكُ الأعطاف ؛ على أن هذا يلزمه فيما قاله ، لأنه ليس

---

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : العجب من ابن قتيبة كيف خلط المهموز بالمعتل ، وإنما هو الذرأ بالهمز شيب مقدم الرأس ، وقد ذرِئ يذرأ ، ورجل أذرأ وامرأة ذرآء ؛ وهى الذرءة ، وأعجب من ذلك أنه ذكره فى إصلاح غلط أبى عبيد » . وفى حاشية ف أيضا : « الذرأ : هو شيب مقدم الرأس ؛ وهو مهموز لاغير ، وأصل المذروين ينبغى أن يكون من ذرو الريح ، وقد صح أنه إذا كان بمعنى الشيب كان ذرأ ، مهموزا ، فلو كان من الذرءة التى هى الشيب لكان مذرأين » .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ١٨٥ . والعجس : مقبض القوس ، وهتافة المذروين ؛ أى لطرفيها صوت نبض ، وزوراء : معوجة .

(٣) الإنباض : التصويت .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « يتبذخ » .

(٥) ش : « خص المذروين » .

من شأن كل متوعِّد أنْ يحرِّك رأسه ، و يَنفُض مذرويْه ؛ فإذا قال : إن ذلك فى الأكثر قيل له مثله .

وكان الحسن يقول : « يا بن آدم ، جمًا جمًا ، سرْطًا سرطًا(١) ، جَمْعًا فى وعاء ، وشدًّا فى وِكاء ، وركوبَ الذَّلول ، ولُبس اللَّيِّن ؛ حتى قيل مات ، فأفضى والله إلى الآخرة ، فطال حسابه » .

وكان يقول : « مسكينُ(٢) ابن آدم ، مكتوم الأجل ، مكنون العِلل ؛ أسير جوع ، صريع شِبَع ، إنْ مَنْ تؤلمه البَقَّة ، وتقتله الشَّرْقة ، لبادِي الضَّعف ، فريسة الحتف » .

وكان يقول : « ما أطال أحد الأمل ، إلا أساء العمل » .

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز : « أما بعد ، فإن طول البقاء إلى فناء ، فخذْ من فنائك الذى لا يبقى ، لبقائك الذى لا يفنى ، والسلام » .

وكان يقول : « إذا رأيت رجلا ينافس فى الدنيا فنافسْه فى الآخرة » . وسأله رجل : ما حالك ؟ فقال : بأشدّ حال ، ما حالُ مَنْ أصبح وأمسى ينتظر الموت ، ولا يدرى ما يفعل الله به !! .

[٥٠ و] / وكان يقول : « يابن آدم ، بُسِطَتْ لك صحيفة ، ووكِّل بك ملكان كريمان ، يكتبان عملك فأمْلِل ما شئت ، وأكثر وأقلل » . وفى خبر آخر : « ووكِّل بك ملكان كريمان ، ريقك مدادها ، ولسانك قلمهما » .

روى أبو بكر الهذلىّ قال : لما وفد(٣) عمرُ بن هبيرة واليًا على العراق نزل واسطا ، فبعث

---

(١) السرط : البلع .

(٢) حواشى الأصل ، ت . ف : يجوز : « مسكينُ ابن آدم » ، ويكون قد حذف التنوين لالتقاء الساكنين ؛ من باب قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدُ اللّٰهُ الصَّمَدُ﴾ ، وقول الشاعر :

عمرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومِهِ ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

(٣) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « قدم » .

إلى الشعبيّ وإلى الحسن البصريّ ، فقال لهما : إن يزيد بن عبد الملك عَبْدٌ أخذ الله ميثاقَه ، وانتجبه لخلافته ، وقد أخذ بنواصينا ، وأعطيناه عهودنا ومواثيقنا وصفْقة أيدينا ، فوجب علينا السمعُ والطاعة ، وإنه بمثنى إلى عِراقكم غيرَ سائل إياه ، إلا أنه لا يزال يبعث إلينا في القوم نقتلهم ، وفي الضِّياع نقبضها ، أو في الدور نهدمها ، فنوليه من ذلك ما ولّاه الله ، فما تريان ؟ فأما الشعبيّ فقال قولا فيه بعضُ اللين ؛ وأما الحسن فإنه قال له : يا عمر ، إني أنهاك عن الله أن تتعرض له ، فإن الله مانعُك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله ؛ إنه يوشك أن ينزل إليك[1] مَلَك من السماء ، فيستنزلك من سريرك ، ويُخرِجك من سَعة قصرك إلى ضيق قبرك ؛ ثم لا يوسِّعه عليك إلا عملك ، إنّ هذا السلطان إنما جُعِل ناصراً لدين الله ، فلا تركبوا دينَ الله وعباد الله بسلطان الله تُذِلُّونَهم به ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق جلّ وعزّ. وذكر عن الشعبيّ أنه قال : كان والله الحسنُ أكرمَنا عليه .

وروى أبو بكر بن عياش قال : قال مسلمة بن عبد الملك للحسن : عِظْني فقال : إذا نزلت عن المِنبر فاعمل بما تكلمت به ، فقال : عظني ، فقال : أوُلّيت قط ؟ فقال : نعم ، قال : فما كنت تحب أن يؤتَى إليك فأتِه إلى مَنْ وَلِيته .

وعن ثابت البُنانيّ قال : قال رجل للحسن : آخذ عطائي أم أدَعه حتى آخذَه من حسناتهم يوم القيامة ؟ فقال له : قم ويحك خذ عطاءك ! فإن القوم مفاليس من الحسنات يوم القيامة .

وولد للحسن غلام ، فهنأه بعضُ أصحابه ، فقال الحسن : « نحمد الله على هِبَتِه ، ونستزيده من نعمه ، ولا مرحبا بمن إن كنتُ غنياً أذهلني ، وإن كنت فقيرا أتعبني ؛ لا أرضى بسَعْيي له سعياً ، ولا بكَدّي له في الحياة كدًّا ، أشفِقُ عليه من الفاقة بعد وفاتي ، وأنا في حالٍ لا يصل إليّ / من همّه حَزَن ، ولا من فرحه سرور » . [٥٠ ظ]

وكان الحسن يقول : « لو لم يكن من شؤم الشَّراب إلا أنه جاء إلى أحبِّ خلق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه » ــ يعني العقل .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « أن يرسل عليك ملكا » .

وعزّى جاراً له يهودياً فقال: «جزاك الله عن مصيبتك بأعظم ما جازى به أحدا من أهل ملّتك». وهذا تخلُّصٌ منه مليح، لأنه لم يَدْعُ له بالثواب الذى لا يستحقه الكفّار، وأراد بالجزاء العِوض الذى يستحقه الكافر مع استحقاق العقاب.

وكان الحسن يقول: «ليس للفاسق المعلِن بالفسق غِيبة، ولا لأهل الأهواء والبدع غيبة، ولا للسلطان الجائر غيبة».

وقال فى قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال العلم، ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾؛ [البقرة: ٢٠١] قال: الجنة.

وخرج الحسن فى جنازة معها نوائح، فقال له رجل: أما ترى يا أبا سعيد هذا؟ وهمّ الرّجل بالرجوع، فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسنا أسرع ذلك فى دينك.

وذكرت عنده الدنيا فقال:

أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ ... إنّ اللّبيبَ بمثلها لا يُخدَعُ

وكان يتمثّل:

اليومَ عِندَكَ دَلُّها وحَدِيثُها ... وغدًا لغيرِكَ كفُّها والمِعْصَمُ[1]

وعن أبى عبيدة قال: لما فرغ الحجّاج من خضراء[2] واسط نادى فى الناس أن يخرُجوا فيدْعوا له بالبركة، فخرج الناس، وخرج الحسن، فاجتمع عليه الناس، فخاف أهلَ الشام على نفسه أن يقتلوه، فرجع وهو يقول: قد نظرنا يا أخبث الأخبثين، وأفسق الفاسقين،

(١) حاشية ف: «قبله:

لا تَأْمَنَنْ أنثى حَيَاتَكَ واعْلَمَنْ ... أنَّ النِّسَاءَ وَمَا لَهُنَّ مُقَسَّمُ

وبعده:

كالبيت يُصْبِح خالياً من أهْلِهِ ... ويَحُلُّ بَعْدَكَ فيه مَنْ لاتعلمُ

(٢) حاشية الأصل: «خضراء واسط: بنية كان ابتناها الحجاج»، وفى م: «قصر واسط».

فأما أهلُ السماء فمقتوك ، وأما أهلُ الأرض فمرُوك ، ثم قال : أبَى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على أهلِ العلم لَيبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . ثم انصرف وبلغ الحجاجَ ذلك فقال : يا أهلَ الشام ـ وهم حوله : آللهِ[(١)] ليقومَنَّ[(٢)] عُبَيد من عبيد أهل البصرة ، ويتكلم فىَّ بما يتكلم ، ولا يكونُ عند أحد منكم تغيير ولا نكير ! قالوا : ومَنْ ذاك أصلحك الله ! اسقِنا دمه ، فقال : علىّ به ، وأمر بالنِّطع والسيف فأحضرا ، ووجّه إليه ، فلما دنا الحسن من الباب ، حرَّك شفتيه والحاجب ينظر إليه ، فلما دخل قال له الحجاج : هاهنا ، وأجلسه قريبا من فرشه ، وقال له : ما تقول فى علىّ وعثمان؟ قال : أقول قولَ مَنْ هو خير منى عند مَن هو شرٌّ منك ، قال موسى عليه السلام لفرعون إذ قال له : ﴿ مَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى ﴾ ؛ [طه : ٥١ ـ ٥٢] ؛ عِلْمُ علىّ وعثمان عند الله تعالى ، فقال له الحجاج : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ثم دعا بغالية فغلّل بها لحيته ، فلما خرج الحسن اتّبعه الحاجب ، فقال : يا أبا سعيد ، لقد دعاك لغير ما فعل بك ، ولقد أحضر السيف والنِّطع ، فلما أقبلتَ رأيتك قد حرّكت شفتيك بشىء ، فما قلت ؟ قال : قلت يا عُدّتى عند كُرْبتى ، ويا صاحبى عند شدّتى ، ويا ولىّ نعمتى ، ويا إلهى وإله آبائى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ارزقنى مودّته ، واصرف عنى أذاه ومعرّته ؛ ففعل ربى عز وجل ذلك .

وكان الحسن يقول : ما زال النفاقُ مقموعاً حتى عُمِّم هذا عمامة ؛ وقُلِّد سيفاً . ـ يعنى الحجاج .

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « هم كثيرا مايتصرفون فى القسم ؛ وذلك لكثرة تردده فى كلامهم فتارة يحذفون الفعل ، كقولك بالله ، وأخرى يحذفون خبر المبتدأ ، كقولك لعمرى ، وتارة يحذفون حرف القسم من غير عوض ، كقولك : الله لأفعلن ؟ بالنصب ، والله لأفعلن بالجر ، وتارة يحذف الحرف عن عوض ، كقولك آلله ، وهالله » .

(٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « لابد من النون فى صحبة اللام فى جواب القسم ؛ وحذفها ضعيف ؛ ومع ضعفه جائز ؛ كقولك : والله ليقوم زيد ، والفصيح بالنون ؛ وإنما تجرى ذلك فيه لأن الغرض بالقسم التوكيد ؛ فينبغى أن يكون مؤكدا » .

وروى أبو بكر الهذلىّ أنّ رجلا قال للحسن: يا أبا سعيد ، إن الشيعةَ تزعُم أنك تُبغض عليًّا عليه السلام ، فأكبَّ يبكى طويلا ، ثم رفع رأسه فقال : لقد فارقَكم بالأمس رجلٌ كان سهماً من مرامى رَبّنا عز وجل على عدوِّه ، ربّانِيُّ هـذه الأمة ، ذو شرفها وفضلها ، وذو قرابة من النبى صلى الله عليه وآله قريبة ، لم يكن بالنُّوَمة عن أمر الله ، ولا بالغافل عن حق الله ، ولا بالسَّروقة من مال الله ، أعطى القرآن عزائمَه فيما له وعليـه ، فأشرف منها على رياضٍ مونقة ، وأعلام بينة ، ذلك ابن أبى طالب يا لُكَع ! وكان الحسن إذا أراد أن يحدِّث فى زمن بنى أمية عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال أبو زينب .

وشهد الحسن جِنازة فقال : إنّ أمراً هذا [١] آخره لَينبغى أن يُزْهد فيه ، وإن أمراً هذا أوّله لَينبغى أن يُحْذَرَ منه [١] . وعن حُميد الطويل قال : خطب رجل إلى الحسن ابنَته ، وكنت السَّفيرَ بينهما ـ فرضِيَه ، وأراد أن يزوجَه فأثنيتُ عليه ذاتَ يوم وقلت : وأزيدُك يا أبا سعيد ، إنّ له خمسين ألفا ، قال : أقلت له خمسون ألفا ! ما اجتمعتْ من حلال ـ قلت : يا أبا سعيد ، إنه والله ما علمت لوَرِع مُسْلِم ، فقال : إن كان جَمَعها من حلال ، لقد ضَنَّ بها عن حقٍّ ! لا يجرى بينى وبينه صِهرٌ أبدا .

وقيـل لعلىّ بن الحسين عليهما السلام : قال الحسنُ البصرىّ ليس العَجب ممّن هلك كيف هَلَك ، وإنما العجب ممن نجا كيف نجا ! فقال عليه السلام : أنا أقول: ليس العَجَب ممّن نجا كيف نجا؛ إنما العجب ممن هلَك كيف هلك مع سَعَة رحمة الله!

وأتى عليه السلام يومًا الحسن البصرى وهو يقصّ عند الحِجْر فقال : أرَضِى يا حَسن نفسَك للموت؟ قال: لا ، قال: فعملَك للحساب ؟ قال : لا ؛ قال : فَثَمَّ دار للعمل غيرُ هذه الدار ؟ قال: لا، قال : فلله فى أرضه معاذ غيرُ هذا البيت؟ قال : لا ، قال : فلِمَ تَشْغَلُ الناسَ عن التَّطْواف [٢] .

(١ ــ ١) م : « إن امرأ هذا أوله لينبغى أن يحذرمنه ، وإن امرأ هذا آخره لينبغى أن يزهد فيه » .
(٢) كذا فى الأصل ، ت ، ج ، ش ، ف ، وفى نسخة بحاشيتى ت ، ف : « الطواف » .
وكانت وفاة الحسن البصرى سنة ١١٠ ؛ (وانظر ترجمته فى ابن خلكان ١ : ١٢٨ ــ ١٢٩) .

مجلس آخر

وممن تظاهرَ بالعدْل واشتَهر به واصلُ بن عطاء الغزّال ، ويكنَى أبا حُذيفة ، وقيل : إنه مولًى بنى ضَبَّة ، وقيل : مولًى بنى مخزوم ، وقيل : مولى بنى هاشم .

وروِى أنه لم يكن غزّالا ، وإنما لقِّب بذلك ، لأنه كان يكثِر الجلوسَ فى الغزّالين ، وقيل : إنه كان يجلِس فى الغزالين عند رضيع له يعرف بأبى عبدالله الغزّال . وذكر المبرّد : أنّ[1] واصلا كان يَلزم الغزالين ، ليعرفَ المتعففات من النساء ، فيصرفَ صدقتَه إليهن[2] ، ولقِّب بذلك كما لقِّب أبو سلمة حفص بن سليمان بالخلّال ، وهو وزير أبى العباس[3] السفّاح ، ولم يكن خلّالا ، وإنما كان منزله بالكوفة بقرب الخلّالين ، وكان يجلس عندهم فسمى خلّالا ، ومثله أبو علىّ الجِرمازىّ[4] ، وهو مولًى لبنى هاشم ، وإنما لقِّب بذلك لأنه كان ينزل فى بنى الحِرْماز ، وإبراهيم بن يزيد الخُوزِىّ ، وليس بخوزِىّ ، ولكنه كان ينزل[5] بمكة بشِعْب الخُوز ، وأبو سعيد المَقبُرِىّ ، لأنه نزل[6] المقابر .

وكان واصلٌ ألثغَ فى الراء ، قبيح اللُّثْغة ؛ [7]فكان يخلِّص من كلامه الراء[7] ، يعدِل عنها فى سائر محاوراته ، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك فى أخبار بشار بن برد[8] .

---

(١) انظر الكامل بشرح المرصفى ٧ : ١١٤ . (٢) فى الكامل : « فيجعل صدقته لهن » .

(٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال هو الذى قيل فيه :

إنّ الوزيرَ وزيرَ آلِ محمد ... أوْدَى فمن يَشْناكَ كان وزيرا

إنّ السَّلامةَ قد تَبِينُ وربما ... كان السُّرورُ بما كرِهْتَ جديرَا

وكان يميل إلى أهل البيت عليهم السلام » . وانظر أخباره فى الفخرى : ١٣٣ .

(٤) هو أبو على الحسن بن على الحرمازى ؛ أعرابى راوية ، وكان أيضا شاعرا ، والحرماز : أبو حى من تميم ؛ وهو الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم ؛ (وانظر الفهرست : ٤٨) .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « منزله » .

(٦) حاشية ت (من نسخة) : « ينزل بالمقابر » .

(٧ــ٧) حاشية ت (من نسخة) : « فكان يخلص كلامه من الراء » .

(٨) انظر ص ١٣٩ــ١٤٠ من هذا الجزء .

وذكر أبو الحسن البرذعيّ المتكلم أن إنساناً سأل عمرو بن عُبيد أو غيره عن شيء في القَدَر بحضرة واصل بن عطاء ، فتكلّم السائل بشيء أغضب عمرًا ، فأجابه عمرو بجواب لم يَرْضَه واصل ، فقال له واصل : إياك وأجوبةَ الغضب فإنها مندمة ، والشيطانُ يكون معها ، وله في تضاعيفها هَمْزة(١) ، وقد أوجب الله جلّ وعز على نبيه / عليه السلام أن يستعيذَ من [٥٢ و] همزات الشيطان، وأن يكونوا معه بقوله:﴿ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾؛ [المؤمنون:٩٧]؛ إلى خاتمة الآية، (٢وقلّما شاهدتُ أحداً أجاب فتثبتَ في جوابه٢) ، (٣وما يُطلِق به لسانَه٣) فلحقَه لوم .

قال البرذعيّ : انظر إلى واصل كيف كلّم عَمراً ، فأخرج الراء من كلامه، فقال في موضع « والشيطان يحضرها » : « يكون معها » . وقال : « قد أوجبَ الله على نبيه » ، ولم يقل: «أمره». وقال:«وأن يكونوا معه» بدلا من قوله.«ويحضروه»ثم قال : « إلى خاتمة الآية » ولم يقل : «.إلى آخر الآية » .

قال سيدنا الشريف المرتضى أيّده الله : ومما لم يذكره البرذعيّ أنه عدَل عن افتتاح الآية من أجل الراء أيضاً، لأن أولها: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾؛ ولولا قصدُه إلى العدول لكان ذكرُها واجباً من ابتدائها(٤)؛ لاسيما وفي ابتدائها تعليم وتوقيف على كيفية دعائه والاستعاذة به .

وقيل إن رجلا قال له : كيف تقول أسرِج الفرس ؟ قال : ألْبِد الجواد.

وقال له آخر : كيف تقول : ركِبَ فرسه ، وجرّ رمحه ، قال : استوَى على جواده ، وسحب عامله .

وذكر أبو الحسين الخياط أن واصلا كان من أهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وآله، ومولده سنة ثمانين ومات سنة إحدى وثلاثين ومائة .

---

(١) حواشي الأصل ، ت ، ف : « همز الشيطان وسوسته وغلبته على العقل » .

(٢–٢) نسخة بحاشية ت : « وقلما شاهدت أحداً أجاب فتثبت في جوابه » .

(٣–٣) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « وما ينطلق به لسانه » .

(٤) ش : « من حيث ابتدأ بها » .

وكان واصل ممّن لقِيَ أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيّة وصحبَه ، وأخذ عنه ، وقال قوم: إنه لقى أباه محمداً عليه السلام، وذلك غلط؛ لأن محمداً توفى سنة ثمانين أو إحدى وثمانين، وواصل وُلد فى سنة ثمانين .

وواصل هو أول من أظهر المنزلة بين المنزلتين ؛ لأن الناس كانوا فى أسماء أهل الكبائر من أهل الصلاة على أقوال ؛ كانت الخوارج تسمّيهم بالكفر والشرك ، والمرجئة تُسَمِّيهم بالإيمان ، وكان الحسن وأصحابه يسمُّونهم بالنفاق ، فأظهر واصل القولَ بأنّهم فُسّاق غير مؤمنين ، ولا كفار ، ولا منافقين.

وكان عمرو بن عُبيد من أصحاب الحسن وتلاميذه ، فجُمِع بينه وبين واصل ليناظره فيما أظهر من القول بالمنزلة بين المنزلتين ، فلما وُقِفوا على الاجتماع ذُكر أن واصلا أقبل ومعه جماعة من أصحابه إلى حلْقة الحسن ، وفيها عمرو بن عبيد جالس ، فلما نظر إلى واصل، وكان / فى عنقه [٥٢ ظ] طول واعوجاج قال : أرى عُنُقاً لا يفلِح صاحبُها ! فسمع ذلك واصل فلما سلّم عليه قال له : يابن أخى ، إن من عابَ الصنعة عاب الصانع ، للتعلق الذى بين الصانع والمصنوع(١) ؛ فقال له عمرو بن عبيد : يا أبا حُذَيفة ، قد وعظتَ فأحسنت ، ولن أعودَ إلى مثل الذى كان منى .

وجلس واصلٌ فى الحلْقة ، وسُئِل أن يكلّم عمراً فقال واصل لعمرو : لِمَ قلت إنّ مَنْ أتى كبيرةً من أهل الصلاة استحق اسم النفاق ؟ فقال عمرو: لقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ؛ [النور : ٤] ، ثم قال فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ؛ [التوبة : ٦٧] ، فكان كلّ فاسق منافقاً ؛ إذ كانت ألفُ ولام المعرفة موجودتين فى الفاسق ؛ فقال له واصل: أليسَ قد وجدتَ الله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ؛ [المائدة : ٤٥] ، وأجمع أهلُ العلم على أنْ صاحبَ

(١) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « بين الصنعة والصانع » . ومن نسخة بحاشية ت أيضا : « بين الصنيعة والصانع » .

الـكبيرة يستحق اسم ظالم ؛ كما يستحق اسم فاسق؛ فالّا كفّرت صاحبَ الـكبيرة من أهل الصلاة بقول الله تعالى : ﴿ وَالْـكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾؛ [البقرة : ٢٥٤] ، فعرّف بألف ولام التعريف اللتين فى قوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، كما قال فى القاذف: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ ، فسمّيتُه منافقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ! فأمسك عمرو ، ثم قال له واصل : ياأباعثمان ؛ أيّما أولَى أن يُستعمل فى أسماء المحدِثين من أمّتنا؟ ما اتفق عليه أهلُ الفِرق من أهل القبلة ، أو ما اختُلِف فيه؟ فقال عمرو : بل ما اتفقوا عليه أولَى ، فقال له واصل : ألست تجدُ أهلَ الفرَق على اختلافهم يسمّون صاحب الـكبيرةِ فاسقاً ، ويختلفون فيما عدا ذلك من أسمائه ؛ لأن الخوارجَ تسميه مشركا فاسقاً ، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً ! ــ قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : يعنى بالشيعة الزّيدية[(١)] ــ والحسنُ يسميه منافقاً فاسقاً ، والمرجئة[(٢)] تسميه مؤمناً فاسقاً ؟ فاجتمعوا على تسميته بالفسق ، واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه ، فالواجب أن يُسمَّى بالاسم الذى اتُّفق عليه وهو الفسق ؛ لاتفاق المختلفين عليه ، ولا يسمى بما عدا ذلك من الأسماء التى
[٥٣ و] اختلف فيها ، فيكون صاحب الـكبيرة / فاسقاً ، ولا يقال فيه إنه مؤمنٌ ولا منافقٌ ولا مشركٌ ولا كافر نعمة[(٣)] ، فهذا أشبهُ بأهل الدين .

فقال له عمرو بن عُبيد : مابينى وبين الحقّ عداوة ، والقولُ قولُك، فليشهدْ علىَّ مَنْ حضر أنى تارك المذهب الذى كنت أذهب إليه ؛ مِنْ نفاق صاحب الـكبيرة من أهل الصلاة ،

---

(١) الزيدية : ثلاث فرق ؛ الجارودية والسليمانية ، والإبترية ؛ يجمعها القول بإمامة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ فى أيام خروجه فى زمان هشام بن عبد الملك ؛ (وانظر الفرق بين الفرق : ١٦ ، والملل والنحل للشهرستانى ٨٧ ، ومفاتيح العلوم ٢١) .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « المرجئة فى القدم غير الذين لايؤيدون العقاب ؛ بل هم الذين كان يؤخرون عليا عليه السلام عن غيره من الصحابة ؛ والإرجاء : التأخير » .

وانظر (الفرق بين الفرق ١٩ ، والملل والنحل للشهرستانى ٧٨ ، ومفاتيح العلوم ٢٠ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٥٧٨) .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « ولا كافر » .

قائلٌ بقول أبي حُذَيفة فى ذلك ، وأنّى قد اعتزلت مذهبَ الحسن فى هذا الباب . فاستحسنَ الناس هذا من عَمْرو .

وقيل إنّ اسمَ الاعتزال إنما اختُصّتْ به[١] هذه الفرقة لاعتزالهم مذهب الحسن بن أبي الحسن فى تسمية مُرْتكِب الكبيرة من أهل الصلاة بالنفاق ؛ وحُكى غير ذلك .

وقيل إن قَتادة بمدموت الحسن البصرى كان جَلَسَ مَجلسه ، وكان هو وعمرو بن عُبيد جميعاً رئيسين متقدّمين[٢] فى أصحاب الحسن ، فجرت بينهما نَفرة ، فاعتزل عمرو مجلس قَتادة ، واجتمع عليه جماعة من أصحاب الحسن ، فكان قَتادة إذا جلس مجلسه سأل عن عمرو وأصحابه فيقول : ما فعلتِ المعتزلة ؟ فسمُّوا بذلك .

قال سيدنا الشريف المرتضى ذو المجدين أدام الله علوه : أما ما ألزَمه واصل بن عطاء[٣] لعمرو بن عبيد أولاً فسديدٌ لازم[٤] ، وأما ما كلّمه به ثانيا فغير واجب ولا لازم ؛ لأن الإجماع وإن لم يوجد فى تسمية صاحب الكبيرة بالنفاق أو غيره من الأسماء كما وجد فى تسميته بالفسق فغيرُ ممتنع أن يسمَّى بذلك لدليل غير الإجماع ، ووجودُ الإجماع فى الشيء وإن كان دليلا على صحته ، فليس فقدُه دليلا على فساده؛ وواصل إنما ألزم عمراً أن يعدِل عن التسمية بالنفاق للاختلاف فيه ، ويقتصرَ على التسمية بالفسق للاتفاق عليه ، وهذا باطل ، ولو لزم ما ذكره للزمه أن يقال : قد اتفق أهلُ الصلاة على استحقاق صاحب الكبيرة من أهل القبلة الذمَّ والعقاب ، ولم يتفقوا على استحقاقه التخليد فى العقاب ، أو نقول إنهم اجمعوا على استحقاقه العقاب ، ولم يجمعوا على فعل المستحَق به ، فيجب القول بما اتفقوا عليه ، ونفى ما اختلفوا فيه . فإذا قيل استحقاقه[٥] للخلود ، أو فعل المستحِق به من العقاب ، وإن لم يجمعوا عليه ،

---

(١) ت : « إنما اختص » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « مقدمين » .

(٣) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « عمرو بن عبيد » .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « واجب » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « استحقاق الخلود » .

[٥٣ ظ] فقد علم بدليل غير الإجماع؛ قيل له مثلُ ذلك فيما عوّل عليه ، وبطل على كل حال أن يكون الاختلاف في القول دليلاً على وجوب الامتناع منه ، وهذا ينتقض بمسائل كثيرة ذكرُها يطول .

على أنّ المقدمة التي قدمها لا تشبه ما ألزم عليها ، لأن الإجماع أولى من الاختلاف فيما يتعارض ويتقابل ، والإجماع والاختلاف في الموضع الذي كلم عليه واصل عمرًا في مكانين ؛ لأن الإجماع هو على تسميته بالفسق ، والاختلاف هو في تسميته بما عداه من الأسماء ، فلا تعارضَ بينهما ؛ وله أن يأخذ بالإجماع في موضعه ، ويعوّل فيما الاختلاف فيه على دلالة غير الإجماع ، لأن فقد الإجماع من القول لا يوجب بطلانه .

وحكى أن واصلا كان يقول : أراد الله من العباد أن يعرفوه ثم يعملوا، ثم يعلّموا ، قال الله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ ، فعرّفه نفسه، ثم قال: ﴿ اخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾؛ [طه: ١٢]، فبعد أنْ عرّفه نفسَه أمره بالعمل . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ـ يعني صدقوا ـ ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ . وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ . ﴾ علموا وعملوا وعلّموا .

وروى المبرّد قال: حُدِّثت أن واصل بن عطاء أقبل في رُفقة فأحسّوا بالخوارج ، وكانوا قد أشرفوا على العطَب ، فقال واصل لأهل الرفقة: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم ، فقالوا : شأنَك ، فقال الخوارج له : ما أنت وأصحابُك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ، ويقيموا حدوده ، فقالوا : قد أجرناكم ؛ قال : فعلّمونا أحكامه ، فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول : قد قبلت أنا ومن معي ، قالوا : فامضوا مصاحَبين فإنكم إخواننا؛ قال لهم: ليس ذلك لكم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾؛ [التوبة : ٦] ، فأبلغونا مأمننا ، فساروا بأجمعهم حتى بلغوا الأمن[1] .

---

(١) الكامل ـ بشرح المرصفي ٧ : ٧٩ .

وحكى أنّ محمداً وإبراهيم ابنىْ عبد الله بن الحسن كانا ممن دعاهما[1] واصل إلى القول بالعدل ، فاستجابا له ، وذلك لما حجَّ واصل ، ودعا الناس بمكة والمدينة[2].

وحكى أبو القاسم البلخيّ أنّ عبد الله قال لابنه محمد : كلّ خصالك محمودة يابنىّ إلا قولك بالقدَر ، قال : ياأبَهْ ، أفَتَنىَّ[3] أقدِر على تَركه / أولا أقدر على تركه[3]؟ فورد الكلام على رجل عاقل فقال : لا عاتبتُك عليه أبدا . قال أبو القاسم : يقول إن كنت أقدر على تركه فهو قولى، وإن كنت لا أقدر فلمَ تعاتبنى على شىء لا أقدر عليه . [٥٠ و]

* * *

فأما عمْرو بن عبيد فيكنى أبا عثمان، مولى لبنى العَدَوِيّة ، من بنى تميم ، قال الجاحظ : هو عمْرو بن عبيد بن باب . وباب نفسُه من سَبْى كابُل؛ من سبى عبد الرحمن بن سَمُرَة ، وكان باب مولًى لبنى العَدَويّة قال : وكان أبوه عُبيد شُرْطياً ، وكان عمرو متزهداً، فكانا إذا اجتازا معاً على الناس قالوا : هذا شرُّ الناس أبو خيْر الناس ، فيقول عُبيد : صدقْتمُ؛ هذا إبراهيم ، وأنا تارخ .

قال علىّ بن الجَعْد : وهو عبيد بن باب ، وكان بوّابا للحَكم بن أيوب ، قال : وكان باب مُكارياً، له دكّان معروف يقال له دكّان باب ، وكان فارسياً، وللفرزدق معه خبر مشهور تركنا ذكره لشهرته وفُحش فيه.

وذكر أبو الحسين الخيّاط أن مولِدَ عمْرو بن عبيد وواصل بن عطاء جميعا فى سنة ثمانين ، قال: ومات عمرو بن عبيد فى سنة مائة وأربعٍ وأربعين؛ وهو ابن أربع وستين سنة .

روِىَ أنّ عمراً استأذن على المنصور ، فدخل عليه الربيع[4] فقال له : بالباب رجلٌ

(١) حاشية ت (من نسخة) : « ممن دعاهم » .

(٢) وانظر ترجمة واصل فى (معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٦—٢٤٧ ، وابن خلكان ٢ : ١٧٠ ، وفوات الوفيات ٢ : ٢٩٥—٢٩٦ ، ولسان الميزان ٦ : ٢١٤—٢١٥ ، وعيون التواريخ وشذرات الذهب — وفيات سنة ١٣١) . (٣—٣) ساقط من م .

(٤) هو الربيع بن يونس بن محمد ، حاجب أبى جعفر المنصور ، ووزيره بعد أبى أيوب المدريانى . توفى سنة ١٧٠ ، (وانظر ترجمته وأخباره فى ابن خلكان ١ : ١٨٠—١٨٦) .

قال: إني عمرو بن عبيد، وكانت على المنصور جُبّة يمانية محققة(1)، فقال: ويلك يا ربيع! عمرو بالباب؟ قال: نعم، قال: هاتِ لي قميصاً أبيض، فأتاه به، فألقاه عليه، ثم قال: دُرْ من خلفي؛ فغط الجبة وازْرُرْ عليّ. قال الربيع: ولم أكن أرى أحداً يوقّره المنصور حتى رأيت عمرو بن عبيد. فدخل عليه رجل آدمُ مربوع الكِدْنة(2)، بين عينيه أثر السجود، حَسَن الأدب، حسن اللسان؛ كأنه لم يزل مع الملوك في توقيره للخليفة، وإعظامه إياه، قال: فسلّم، فاجتذبه المنصور ليجلس معه فأبى، وطرح نفسه بين يديه، فسأله واحتفى(3) به، فلما أراد عمرو القيام قال له: عِظْني يا أبا عثمان وأوجز، قال له: إنّ ما في يدك لستَ بوارثه عن أحد، وإنما هو شيء صار إليك، وقد كان في يدِ غيرك قبلك، ولو دام لك لبقي في يد الأول، والسلام. وروى الأصمعيّ قال: قال مَطَر الوراق لعمرو بن عبيد: إني لأرحمك مما يقول الناس فيك، فقال عمرو: أتسمعُني(4) أقول فيهم شيئا؟ قال: لا، قال: فإياهم فارحم!

[٥٤ ظ] / وقال خالد بن صفوان لعمرو بن عبيد: لم لا تأخذ منّي فتقضيَ ديناً إن كان عليك، وتصلُ رحمك؟ فقال له عمرو: أما دينٌ فليس عليّ، وأما صِلَةُ رَحمي فلا يجب عليّ، وليس عندي. قال: فما يمنعك أنْ تأخذَ منّي؟ قال: يمنعني أنه لم يأخذ أحدٌ من أحد شيئا إلاّ ذلّ له، وأنا والله أكره أن أذلّ لك.

ويقال إن ابن لَهيعَة أتى عمرو بن عبيد في المسجد الحرام، فسلّم عليه، وجلس إليه، وقال له يا أبا عثمان ما تقول في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾؛ [النساء: ١٢٩] ؟ فقال: ذلك في محبّة القلوب التي لا يستطيعها العبد ولم يكلّفها(5)، فأما العدل بينهن في القِسمة من النفس والكسوة والنفقة فهو مُطيق لذلك، وقد كلّفه بقوله

(1) حاشية الأصل: «محققة، يعني أن نسبتها إلى اليمن صحيحة». وفي م: «مخففة».
(2) الكدنة: غلظ اللحم على الجسم.
(3) حاشية ت (من نسخة): «وأحفى به».
(4) ت: «أفسمعتني».
(5) ت: «ولا تكلفها».

تعالى: ﴿ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ فيما تطيقون ﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ ؛ بمنزلة مَنْ ليست أيِّمًا ، ولا ذات زوج . فقال ابن لَهِيعة: هذا والله هو الحق .

ويقال إن عمرو بن عبيد أتى يونس بن عبيد يعزّيه عن ابن له ، فقال له : إن أباك كان أصلَك ، وإن ابنَك كان فرعاك ، وإن امرأً ذهب أصله وفرعه لحَرِيٌّ أن يقلّ بقاؤه . وقيل إن عبد الله بن عبد الأعلى أخذ هذا المعنى فقال :

صَحِبْتُكَ قَبلَ الرُّوحِ إذْ أنا نُطْفَةٌ   تُصانُ فما يَبْدُو لعَيْنٍ مَصُونُها
أرَى المَرْءَ دَيْنًا لِلْمَنَايا وما لَها   مِطالٌ إذا حَلَّتْ بِنَفْسٍ دُيونُها
فماذا بَقاءُ الفَرْعِ مِنْ بَعدِ أصْلِهِ   سَتَلْقَى الذي لاقَى الأُصولَ غُصونُها

وأول من سبق إلى هذا المعنى امرؤ القيس في قوله :

فبَعْضَ اللَّوْمِ عاذِلَتِي فإنِّي   سَتُغْنِينِي التَّجارِبُ وانْتِسابِي[(١)]
إلى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَتْ عُرُوقِي   وهــذا المَوْتُ يَسْلُبُنِي شَبابِي

وأخذ ذلك لبيد في قوله :

فإنْ أنتَ لم تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فانْتَسِبْ   لعلَّكَ تَهْدِيكَ القُرُونُ الأوائِلُ[(٢)]
فإنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنانَ والِدًا   ودُونَ مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ العَوَاذِلُ[(٣)]

[٥٥ و] / وأخذه أيضاً في قوله :

تَوَدُّ ابنَتَايَ أنْ يَعِيشَ أبُوهُما   وهَلْ أنا إلاّ مِنْ رَبِيعةَ أو مُضَرْ[(٤)]

ونظر إليه محمود الوراق وإبراهيم بن العباس الصوليّ ؛ أما محمود ففي قوله :

إذا ما انْتَسَبْتَ إلى آدمٍ   فَلَمْ يَكُ بَيْنَكُما مِنْ أبِ
وجازَتْ سِنُوكَ بِكَ الأرْبَعِينَ   وصِرْتَ إلى الجانِبِ الأجْنَبِ

---

(١) ديوانه : ١٣٣ .   (٢) ديوانه : ٨٨ .

(٣) حاشية الأصل : « وجد بخط ابن السكيت رحمه الله : فلتزعك ، ولتزعك (بضم الزاي في الثانية وفتحها في الأولى) ؛ وهو من زاع يزوع بمعنى وزع ، وفلتزعك من الروع ، ووزع من الكف » .

(٤) ديوانه : ١ : ٢٨ .

ودَبَّ البياضُ خلالَ السَّوادِ فأصبحتَ فى شيبةِ الأشهبِ
وكيفَ تؤمِّلُ طولَ الحياةِ إذا كانَ حلمُكَ لمْ يعزُبِ

وأما إبراهيم فى قوله :

نعَى نفسى إلىَّ أبى وخبَّرَ أينَ منقلَبى(١)
لموْعظةٍ رآها فى أبيهِ كما رأيتُ أبى

وكأن أبا نواس لحظ هذا المعنى فى قوله :

وما النّاسُ إلّا هالكٌ وابنُ هالكٍ وذُو نسبٍ فى الهالكينَ عريقِ(٢)
إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشّفتْ لهُ عنْ عدُوٍّ فى ثيابِ صديقِ

(١) ديوانه ١٦٨-١٦٩ . (٢) ديوانه : ١٩٢ .

مجلس ١٢ آخر

قال: رُوِى أنّ عمرو بن عُبيد دخل على معاوية بن عمرو الغَلَابِىّ وهو يجود بنفسه فقال له: إنّ الله تعبّدكَ فى حال الصحة بالعمل بجوارحك وقلبك، ووضعَ عنك فى هذه الحالِ عملَ الجوارح، ولم يكلّفك إلا العملَ بقلبك، فأعطِه بقلبك ما يجبُ له عليك.

ورُوِىَ أنّ قوماً اجتمعوا إلى عمرو بن عبيد، فتذاكروا السَّخاء فأكثروا فى وصْفِه، وعمرو ساكت، فسألوه عمّا عندَه فقال: ما أصبتمْ صفتَه؛ إنّ السخىّ مَنْ جاد بماله تبرُّعاً، وكَفَّ عن أموال الناس تورُّعاً.

وذكر إسحاق بن الفضل الهاشمىّ قال: إنى لَعلَى باب المنصور يوماً، وإلى جنْبى عُمارة[1] بن حمزة، إذْ طلَع عمرو بن عُبيد على حِمار، فنزل عن حماره، ثم دفع[2] البساط برِجْله وجلس دونه، فالتفتَ إلىّ عُمارة فقال: لا تزال / بَصْرَتُكم ترمينا منها بأحمق؛ [٥٦ ظ] فما فصَل كلامَه مِنْ فيه حتى خرج الربيع وهو يقول: أبو عثمان عَمْرو بن عُبيد! قال: فوالله ما دلَّ على نفسه حتى أُرشِد إليه، فاتّكأه[3] يده، ثم قال له: أجِبْ أميرَ المؤمنين جُعِلتُ فداكَ! فمرّ متوكّئاً[4] عليه؛ فالتفتَ إلىّ عُمارة فقال: إنّ الرجلَ الذى استخْمَقْت[5]

---

(١) هو عمارة بن حمزة بن ميمون، من ولد عكرمة مولى عبد الله بن العباس؛ أحد الكتاب البلغاء، وكان سخيا جوادا، وله أخبار مأثورة فى الكرم والجود والتيه، قلده أبو العباس السفاح ضياع آل مروان، وقلده أبو جعفر المنصور ديوان خراج البصرة ونواحيها. (وانظر ترجمته وأخباره فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى: ٩٠، ١١٠، ١٢٥، ١٣٣، ١٤٧، وتاريخ بغداد ١٢: ٢٨٠ـ ٢٨٠).

(٢) ش، وحاشية ت (من نسخة): «رفع».

(٣) حواشى الأصل، ت، ف: «أتكأه يده؛ كأنه جعله متكئا عليها، وأصل التاء فى هذه الكلمة بالواو؛ يقال: أوكأت فلانا إذا جعلت له متكئا».

(٤) من نسخة بحواشى الأصل، ت، ف: «متكئا».

(٥) ف، وحاشية ت (من نسخة): «استحمقته».

قد أُدخِل وتُرِكْنا ، فقال : كثيراً ما يكون ذلك ، فأطال اللُّبث ، ثم خرج الربيع وهو متوكِّئٌ عليه ، والربيع يقول : يا غلام ، حِمار أبي عثمان ، فما برح حتى أُتِي بالحمار ، فأقرَّه على سرْجه ؛ وضمّ إليه نَشَر(١) ثوبه ، واستودعه الله .

فأقبل عُمارة على الربيع فقال : لقد فعلتم اليومَ بهذا الرجلِ ما لو فعلتموه بولىّ عهدكم لَقضيتم ذِمامه . قال : فما غاب عنك مما فُعِل به أكثرُ وأعجب ، قال عُمارة : فإن اتَّسعَ لك الحديثُ فحدِّثنا .

فقال الربيع : ماهو إلا أن سَمِع الخليفةُ بمكانه ، فما أمهلَ حتى أمرَ بمجلِس ففُرِش لُبُودًا ، ثم انتقل إليه والمهدىّ معه عليه سَوادُه وسيفُه ؛ ثم أذِن له ، فلما دخلَ عليه سلَّم بالخلافة ، فردَّ عليه ومازال يُدْنيه حتى أتكأه فخِذَه وتحفَّى به ، ثم سأله عن نفسِه وعن عِياله، يُسمِّيهم رجلا رجلا ، وامرأة امرأة ، ثم قال : ياأباعثمان، عظنا فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (٢بسم الله الرحمن الرحيم٢) : ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ ؛ [الفجر: ١-٣] ، ومرّ فيها إلى آخرها ، وقال: إنّ ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد ، قال: فبكى بكاءً شديداً؛ كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة ، ثم قال : زِدْنِي، فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشترِ نفسَك منه ببعضها ، واعلم أن هذا الأمرَ الذى صارَ إليك إنما كان فى يدِ مَن كان قَبلك ، ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى مَن هو بعدَك ، وإنى أحذِّرك ليلةً تمخَّضُ(٣) صبيحتُها عن يوم القيامة . قال : فبكى أشدَّ من بكائه الأول حتى رَجَفَ جَنْباه .

وفى رواية أُخرى أنه لما انتهى إلى آخر السورة قال : إنّ ربَّكَ لبالمِرصاد لمن عمل مثل عملهم، أن يُنزِلَ به مثل ما نزل بهم ، فاتّق الله ، فإنّ من وراء بابك نيراناً تأجَّج من الجَوْرِ ،

---

(١) النشر ، بالتحريك : المنتشر من كل شىء .

(٢-٢) ساقط من ط ، ف ، م .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « تتمخض » .

ما يُعمل فيها بكتاب الله ولا بسنّة رسول الله[١] . فقال : يا أبا عثمان ؛ إنا لنكتب إليهم فى الطّوامير[٢] ، / نأمرهم بالعمل بالكتاب والسنّة، فإن لم يفعلوا فما عسى أن نصنع ! فقال له : [٥٦ و] مثلُ أذن الفأرة يُجزيك من الطّوامير ، آللهِ تكتب إليهم فى حاجة نفسك فينفذونّها ، وتكتب إليهم فى حاجة الله فلا ينفذونها؛ إنّك والله لو لم ترض من عمّالك إلا بالعدل إذاً لتقربَ إليك به مَنْ لا نيّةَ له فيه .

قال سيدنا أدام الله علوّه : رجعنا إلى نَسق الحديث، فقال له سليمان بن مجالد: رِفقًا بأمير المؤمنين ، فقد أتعبتَه منذ اليوم، فقال له : بمثلك ضاع الامر وانتشر ، لا أبالَكَ ! وماذا خِفتَ على أمير المؤمنين أن بكى من خشية الله ! .

وفى رواية أخرى أنّ سليمان بن مجالد لما قال له ذلك رفع عمرو رأسه فقال له : من أنت؟ فقال أبو جعفر : أوَ لا تعرفه ياأبا عثمان؟ قال : لا، ولا أبالى ألاّ أعرفه ! فقال : هذا أخوك سليمان بن مجالد ، فقال : هذا أخو الشيطان ، ويلك يابن أم مجالد! خَزَنْتَ نصيحتك عن أمير المؤمنين، ثم أردت أن تحولَ بينه وبين من أراد نصيحته ! ياأمير المؤمنين؛ إنّ هؤلاء اتخذُوك سلّماً لشهواتهم، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرُك يحلب، فاتّق الله فإنك ميتٌ وحدَك، ومحاسب وحدك، ومبعوث وحدك ، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئاً! فقال له المنصور: ياأباعثمان؛ أعنّى بأصحابك أستعِنْ بهم، فقال له: أظهر الحق يتّبعك أهله، قال : بلغنى أن محمد بن عبدالله ابن الحسن[٣] كتب إليك كتابا ، قال: قدجاءنى كتاب يشبه أن يكون كتابَه ، قال : فبماذا أجبته ؟ قال : أو لست قد عرَفتَ رأيى فى السيف أيام كنت تختلف إلينا ؟ وإنى لا أراه ، قال : أجل ! ولكن تحلف لى ليطمئن قلبى ! قال : لئن كذبتُك تقيّة لأحلفنّ لك تقيّة ، قال له : أنت الصادق البارّ ، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم ، تستعين بها على زمانك ؛

(١) م : « رسوله » .   (٢) الطوامير : جمع طومار ؛ وهو الصحيفة .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ؛ الملقب بالنفس الزكية ؛ وكان من أفضل أهل بيته ؛ علماً وفقهاً وشجاعة وجوداً ؛ قتله أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ ؛ (وانظر ترجمته وأخباره فى مقاتل الطالبيين ٢٣٢–٢٩٩) .

فقال : لا حاجة لى فيها ، قال المنصور والله لتأخذنّها ، قال : والله لا أخذتُها ، فقال له المهدى : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فترك المهدىَّ وأقبل على المنصور وقال : مَن هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابنى محمد ، وهو المهدىّ وهو ولى العهد ، فقال : ⁽¹واللهِ لقد سميتَه أسماء ما استحقها بعمل⁽¹⁾، وألبسته لَبوساً ماهو من لَبوس الأبرار / ولقد مهّدْتَ له أمراً أمتعُ ما يكون به [٥٦ ظ] أشغلَ⁽²⁾ ما تكون عنه ! ثم التفت إلى المهدىّ فقال : نعمْ يابن أخى ، إذا حلف أبوك حلف عمُّك ؛ لأن أباك أقدر على الكفّارة من عمك؛ قال المنصور : يا أبا عثمان ، هل من حاجة؟ قال: نعم ، قال ما هى ؟ قال : ألا تبعثَ إلىَّ حتى آتيك؛ قال : إذاً⁽³⁾ لا نلتقى ، قال : عن حاجتى سألتنى ، ثم ودّعه ونهض ؛ فلما ولّى أتبعه بصره وأنشأ يقول :

كلُّكمْ طالبُ صيْدْ كلُّكمْ ماشٍ رُوَيْدْ⁽⁴⁾
غيْرَ عمرِو بنِ عُبَيْدْ

ورُوِىَ أن هشام بن الحكم قدم البصرة فأتى حلقة عمرو بن عبيد فجلس فيها وعمرو لا يعرفه ، فقال لعمرو : أليس قد جعل الله لك عينين ؟ قال: بلى ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأنظر بهما فى ملكوت السموات والأرض فأعتبر ، قال : وجعل لك فماً ؟ قال : نعم ، قال : ولم ؟ قال : لأذوق الطعوم⁽⁵⁾ ، وأجيبَ الداعى ؛ ثم عدّد عليه الحواس كلها ، ثم قال : وجعل لك قلباً ؟ قال : نعم : قال : ولم ؟ قال: لتؤدى إليه الحواسُّ ما أدركتْه ، فيميزَ بينها ، قال :

(١ـ١) ت : « والله لقد سميته اسماً مااستحقه بعمل » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : « قوله : « أمتع » مبتدأ ، و « أشغل » نصب على الحال ؛ وهو ساد مسد خبر المبتدأ كقولك : أخطب مايكون الأمير قائما » .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ت : « إذا انتصب « إذاً » لم يكن الفعل الذى بعدها معتمدا على ماقبلها ؛ يقول لك القائل : أنا أكرمك ؛ فتقول : إذاً أحبك ؛ فإن قلت: أنا إذا أحبك رفعت ؛ لاعتماده على الابتداء الذى هو أنا ؛ وكذلك : إن تكرمنى [بالجزم] إذا أكرمك ، وإذا وقعت على فعل الحال ألغيت أيضا ؛ تقول لمن يحدث بحديث : إذا أظنك كاذبا ؛ فتخبر عن حال الظن » .

(٤) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « يمشى رويد » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « المطعوم » .

فأنت لم يرْضَ لك ربُّك تعالى إذ خلق لك خمسَ حواس حتى جعل لها إماماً ترجع إليه ؛ أترْضى(١) لهذا الخلق الذين(٢) جشأبهم العالَم ألاّ يجعل لهم إماماً يرجعون إليه ؟ فقال له عمرو : ارتفعْ حتى ننظر فى مسألتك ، وعرفه ؛ ثم دار هشام فى حَلَق البصرة فما أمسى حتى اختلفوا .

وروى أبو عُبَيدة قال : دخل عمرو بن عبيد على سليمان بن علىّ بن عبد الله بن العباس بالبصرة فقال له سليمان : أخْبِرنى عن صاحبك ــ يعنى الحسن ــ حين يزعُم أن علياً عليه السلام قال : « إنى وددتُ أنى كنت آكل الحشَفَ بالمدينة ولم أشهد مشهدى هذا » يعنى : يوم صِفّين، فقال له عمرو بن عبيد : لم يقل هذا ؛ لأنه ظنّ أن أمير المؤمنين عليه السلام شاك، ولكنه يقول : ودّ أنه كان يأكل الحشَف بالمدينة ، ولم تكن هذه الفتنة ؛ فقال : فقوله فى عبد الله بن العباس : « يُفْتِينا فى القمْلة والقُمَيْلة ، وطار بأموالنا فى ليلة » ؟ فقال له : وكيف يقول هذا، وابن عباس رحمة الله عليهما لم يفارق علياً حتى قُتِل وشهد صُلح الحسن؟ وأىّ مالٍ يجتمع فى بيت المال بالبصرة مع حاجة علىّ عليه السلام إلى الأموال / وهو يفرِّغ بيت مال [٥٧ و] الكوفة فى كل خميس ويَرُشُّه؟ قالوا : إنه كان يَقيل فيه، فكيف يترك المال يجتمع بالبصرة؟ وهذا باطل .

قال الجاحظ : نازع رجل عمرو بن عبيد فى القَدَر فقال له عمرو : إن الله تعالى قال فى كتابه مايزيل الشّكّ عن قلوب المؤمنين فى القضاء والقدر قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾؛ [الحجر : ٩٢ ــ ٩٣] ، ولم يقل : لَنسألنهم عما قضيتُ عليهم أو قدرتُه فيهم، أو أردتُه منهم، أو شئتُه لهم ؛ وليس بعد هذا الأمر إلاّ الإقرار بالعدل أو السكوت عن الجور الذى لا يجوز على الله تعالى .

(١) ت : « فكيف يرضى ... » . (٢) ت : « والذى »

قال خلاد الأرقط : حدّثني زميلُ عمرو بن عبيد قال : سمعتهُ في الليلة التي مات[١] فيها يقول : اللّهم إن كنتَ تعلم أنه لم يعرض لي أمران قطُّ ؛ أحدهما لك فيه رضاً ، والآخر لي فيه هوًى إلاّ قدّمتُ رضاك على هواي فاغفر لي .

ومرّ أبو جعفر المنصور على قبره بمَرّان ـ وهو موضع على ليال من مكة على طريق البَصْرة ـ فأنشأ يقول :

صلّى الإلهُ عليكَ مِنْ مُتَوَسِّدٍ قبراً مَرَرْتُ بِهِ على مَرّانِ
قَبْرًا تَضمَّنَ مُؤْمِناً مُتَخَشِّعاً عَبَدَ الإلهَ ودَانَ بالفُرْقانِ[٢]
وإذا الرِّجالُ تَنَازَعوا في شُبْهَةٍ فَصَلَ الخِطابَ بِحِكْمَةٍ وَبيانِ
فلَوَانَّ هذَا الدَّهرَ أبْقَى صالِحًا أبْقَى لنا عَمْرًا أبا عُثْمانِ

* * *

فأما أبو الهذيل العلاّف فهو محمد بن الهُذَيْل بن عُبيد[٣] الله بن مكحول العبدىّ وقال أبو القاسم البلخىّ : هو من موالى عبد القيس ، وولد فى سنة أربع وثلاثين ومائة ، وقال أبو الحسين الخياط : ولد سنة إحدى وثلاثين ومائة ، وقيل : إنه توفى فى أول أيام المتوكل سنة خمس وثلاثين ومائتين وسِنّه مائة سنة .

قال البرذعىّ : لحق أبا الهذيل فى آخر عمره خَرَفٌ ؛ إلاّ أنه لم يكن يذهب عليه معرفة المذهب والقيام[٤] بحجته ، وكُفّ بصره قبل وفاته ؛ وأخذ أبو الهذيل الكلام عن عثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء .

[٥٧ ظ] وقيل إنّ أبا الهذيل فى حداثته بلَغه أن / رجلا يهودياً قدم البصرة ، وقطع جماعةً من متكلميها ، فقال لعمه : ياعمّ ، امض بى إلى هذا اليهودىّ حتى أكلّمه ، فقال له عمه : يابنىّ ،

---

(١) توفى عمرو بن عبيد سنة ١٤٤ ، وانظر ترجمته أيضا فى (ابن خلكان ١ : ٣٨٤ـ٣٨٥ ، والمعارف ٢١٢ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ١٦٦ـ١٨٨) .

(٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « بالقرآن » .

(٣) ت : « ابن عبد الله » .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « ولا القيام » .

كيف نكلمه وقد عرفت خَبَرَه ، وأنه قطع مشايخ المتكلمين ! فقال : لابدّ من أن تمضيَ بي إليه ، فمضى به قال : فوجدتُه يقرِّر الناس على نبوّة موسى عليه السلام ، فإذا اعترفوا له بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن تُجْمِع على ما تدّعونه ؛ فتقدّمت إليه ، فقلت : أسألك أم تسألني؟ فقال : بل أسألك ، فقلت: ذاك إليك ، فقال لي: أتعترف بأنّ موسى نبيّ صادق ، أم تنكر ذلك فتخالف صاحبَك ؟ فقلت له : إن كان موسى الذي تسألني عنه هو الذي بشّر بنبيّي عليه السلام، وشهد بنبوّته، وصدّقه فهو نبيّ صادق، وإن كان غير مَن وصفتُ؛ فذلك شيطان لا أعترف بنبوّته؛ فورد عليه ما لم يكن في حسابه . ثم قال لي: أتقول إن التوراةَ حق؟ فقلت: هذه المسألة تجري مَجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التي تسألني عنها هي التي تتضمنُ البِشارةَ بنبيّي عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكنْ كذلك فليستْ بحقّ ، ولا أُقرُّ بها .

فبُهِت وأُفحِم ولم يدْر ما يقول ، ثم قال لي : أحتاج أن أقول لك شيئاً بيني وبينك ، فظننتُ أنه يقول شيئاً من الخير، فتقدمتُ إليه فسارّني فقال لي: أمّك كذا وكذا ، وأمّ مَنْ علّمك لا يكْني، وقدّر أني أثِبُ به ، فيقولُ : وثَبُوا بي، وشغَبوا عليّ، فأقبلتُ على مَنْ كان في المجلس فقلت : أعزكم الله! ألستُم قد وقفتمْ على سؤاله[1] إيايَ ، وعلى جوابي إياه؟ قالوا : بلى! قلت : أفليْس عليه أن يَرُدّ جوابي أيضاً؟ قالوا : بلى ، قلت لهم: فإنه لما سارّني شتَمني بالشتم الذي يوجبُ الحدّ ، وشتَم مَنْ علّمني ، وإنما قدّرَ أنني أثِب عليه ، فيدّعي أننا واثبناه ، وشغَبنا عليه ، وقد عرّفتكم شأنه بعد الانقطاع ، فانصروني ، فأخذتْه الأيدي من كل جهة ، فخرج هارباً من البصرة .

وعن أبي العيناء قال : قال لي أبو الهُذَيل : ما معنى الخسْف ؟ فقلت : أن تنقلِب الأرضُ؛ أعلاها أسفلَها ، فقال : إلّا يَكُنْ هذا اليوم بالأرض فإنه لَبِالنّاس .

وقال أبو الهذيل : قال لي المعذّل بن غيلان العبديّ ، وكان من سادات عبد القيس ، وكان يجتمع إليه أهلُ النظر : يا أبا الهُذَيل ، إنّ في نفسي شيئاً من قول القوم في الاستطاعة ،

(١) ث ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « مسألته ».

[٥٨ و] فبيَّن لى / ما يذهب بالرّيب عنى ، فقال : خبِّرْنى عن قول الله تعالى : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؛ [التوبة:٤٢]، هل يخلو من أن يكونَ أكْذبَهُمْ لأنّهم مستطيعون الخروج[1] [2]وهمْ تاركون له ، فاستطاعة الخروج فيهم وليس يخرجون ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى هم يستطيعون الخروج[2] وهم يكذبون فيقولون: لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على هذا الوجه، أو يكون على وجه آخر : يقول : ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى إن أعطيتُهم الاستطاعةَ لم يخرجوا ؛ فتكون معهم الاستطاعةُ على الخروج ولا يخروجون ؛ وعلى كلّ حال ؛ قد كانت الاستطاعةُ على الخروج ولا يكون الخروج ، ولا يُعقل للآية معنى ثالث غيرالوجهين اللذين وصفنا[3] .

وحكى سليمان الرّقى أنّ أبا الهذيل لمّا ورد سُرَّ مَن رأى نزل فى غرفة إلى أن يُطلب له دارٌ تصلح له ، قال : فمررت به فقلت له : يا أبا الهذيل، أتنزل فى مثل هذا المنزل ! فأنشدنى:

يقولونَ زَيْنُ المَرْءِ بِاَئِنٌ رَحْلُهُ … ألا إنَّ زَيْنَ الرَّحْلِ يا مَىُّ راكِبُهْ

وعن مُجالد[4] قال : رأيت رجلا ، وقد سأل أبا الهُذيل وهو فى الورّاقين بقصر وضّاح فقال له : مَنْ جَمَع بين الزانِيَيْن؟ فقال له : يابن أخى ، أمّا بالبصرة فإنهم يقولون : القوادون ؛ ولا أحسب أهلَ بغداد يخالفونهم على هذا القول ، فما تقول أنت ! قال : فخجل الرجلُ وسكت .

وقال أبو الهذيل : قلتُ لرجل ممّنْ ينفى الحركة ـ ولم يسمِّه ، وزعم قوم أنه الأصمّ ـ : خبّرْنى عن قول الله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾؛ [النور: ٢]، وذكر القاذف فقال : فَاجْلِدُوهُ ثمانين جلدة[5]، فأيُّهما أكثر؟ فقال : حدٌّ[6]

---

(١) ت: « الخروج » (٢ـ٢) ساقط من م . (٣) ت، ج ، ش : « اللذين ذكرنا » .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « عن أبى مجالد » .

(٥) يشير الى قوله تعالى « ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾؛ [النور : ٤ » . (٦) حاشية ت (من نسخة) : « جلد الزانى » .

الزّانى ، قلت : بكَمْ ، قال : بعشرين ، قلت : فحدِّثنى[1] عن الجلد ، أهو يَدُ الجلّاد ؟ قال: لا ، قلتُ : أفهو السَّوطُ ؟ قال: لا ، قلت : فهو ظهر المجلود ؟ قال: لا ، قلت: أفهو الانفِراجُ الذى بين السَّوْط وظهر المجلود ؟ قال : لا ، قلت : أفَثَمَّ شىء غير هذا هو الجَلْد ؟ قال : لا ، قلت : فإنما تقولُ أنّ لا شىء أكثرُ من لا شىء بعشرين! فانقطع .

وقال أبو الهذيل : قلت لمجوسىّ : ما تقول فى النار ؟ قال : بنت الله ، قلت : فالبقَر ؟ قال: ملائكة الله ؛ قصَّ أجنحتَها ، وحطّها / إلى الأرض يُحرث عليها ، فقلت : فالماء ، قال : نُور [٥٨ ظ] الله ، قلت : فما الجوعُ والعطش ؟ قال : فَقْر الشيطان وفاقتُه ، قلت : فمَنْ يحمِلُ الأرضَ ؟ قال : بَهمن الملك ، قلت : فما فى الدنيا شرٌّ من المجوس ، أخذوا ملائكةَ الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ، ثم شووْها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فَقْر الشيطان وفاقته ، ثم سلحُوها على رأس بَهمن المَلَك أعزّ ملائكة الله! فانقطع المجوسى ، وخجِل مما لزمه .

ودخل أبو الهذيل يوماً على الحسن بن سهل بفم الصِّلْح[2] ، وعنده فتى قد رفَع مجلسه ، فقال أبو الهذيل : مَنْ هـذا الفتى الذى قد رَفعه الأمير ، لنوفّيَه بمعرفته حقَّه ؟ قال : رجل من أهل النجوم ، قال : مِن أهل صناعة الحِساب أم الأحكام ؟ قال : الأحكام ، قال : ذلك عملٌ يَبْطل ، أفأسألُه ؟ قال : سلْ فأخذ أبو الهذيل تفاحةً من بين يديه وقال : آكُلُ هذه التفاحةَ أم لا ؟ قال : تأكلها ، فوضعَها أبو الهذيل وقال : لست آكُلُها ، قال : فتعيدها إلى يدك وأعيد النظر ، فوضعها وأخـذ غيرَها ، فقال له الحسن : لِمَ أخذت غيرها ؟ قال : لئلا يقولَ لى : لا تأكلها فآكلها خلافاً عليه فيقول لى : قد أصبتُ فى المسألة الأولى .

وقال النعمان الثّنَوى يوماً لأبى الهذيل : دُلَّ على حدوث العالم بغير الحركة والسكون ، فقال له أبو الهُذَيْـل : مثلُك مثلُ رجلٍ قال لخَصْمِه : احضُر معى إلى القاضى ولا تُحضِرْ بيِّنتك .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « فخبرنى » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : « فم الصلح : موضع قريب من واسط » .

وذكر محمد بن الجَهم[١] صاحب الفرّاء قال : رأيت أبا الهذيل وقد جاء إلى الديوان فى أيام المأمون فسأل سهل بن هرون بن راهِيُون أن يكتب له كتابا فى حاجة له إلى حَفْصَوَيْه صاحب الجيش ، ونهض أبو الهذيل؛ فأملى علىّ سهل بن هرون :

إنَّ الضَّميرَ إذا سألْتُكَ حاجةً ... لأبى الهُذَيل خِلافُ ما أُبدِى
فإذا أتاكَ لحاجةٍ فامدُدْ لهُ ... حَبْلَ الرَّجاء بمُخْلَف الوَعْدِ
وأَلِنْ لهُ كَنَفاً ليَحسُنَ ظَنُّهُ ... فى غـــيرِ مَنْفَعَةٍ ولا رِفْدِ
حتى إذا طالَتْ شَقاوَةُ جَدِّهِ ... ورَجَا الغِنَى فاجْبَهْهُ بالرَّدِّ
وإنِ استَطَعْتَ لهُ المَضَرَّةَ فاجتَهِدْ ... فيها يَضُرُّ بأَبلَغِ الجَهْدِ
[٥٩ و] / وانظُرْ كلامى فيــهِ فازمِ بهِ ... خَلفَ الثُّرَيَّا منكَ فى البُعْدِ[٢]
وكذاكَ فافعَلْ غيرَ مُحتَشِمٍ ... إنْ جِئتُ أسألُ فى أبى الهِندِى[٣]

قال سيدنا المرتضى أدام الله تأييده : ويشبه هذا المعنى ماأخبرنا به أبو عبيد الله المرزُبانىّ قال : حدثنى محمد بن أبى الأزهر قال : حدثنا أبو الميناء قال : كان لى صديقٌ فجاءنى يوماً فقال لى : أريد الخروجَ إلى فلان العامل ، وأحببت أن تكون معى إليه وسيلة ، وقد سألتُ مَنْ صديقه ، فقيل لى : أبو عثمان الجاحظ ، وهو صديقك ، فأحب أن تأخذ لى كتابه إليه بالعناية ، قال : فصرت إلى الجاحظ ، فقال لى : فى أىّ شىء جاء أبو عبدالله ؟ فقلت: مُسَلِّماً وقاضياً الحقّ ، وفى حاجة لبعض أصدقائى وهى كذا وكذا ، فقال : لا تشغَلْنا الساعة عن المحادثة ، فإنى فى غد أوجِّه إليك بالكتاب ، فلما كان من الغد وَجَّه إلىَّ بالكتاب مختوماً فقلت لابنى: وجِّهْ هذا الكتاب إلى فلان ، ففيه حاجتُه ، فقال لى : إنّ أبا عثمان بعيدُ الغَوْر فينبغى أن تفضّه وتنظر مافيه ، ففعل فإذا فى الكتاب : « كتابى إليك مَعَ مَنْ لا أعرفه ،

---

(١) حاشية الأصل : « محمد بن الجهم السمرى » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : « أى أخف كلامى هذا » .

(٣) حاشية ت : « أبو الهندى اسم رجل كان خاصا به وملازما له » .

وقد كلمني فيه مَنْ لا أُوجِب حقّه ، فإن قضيتَ حاجته لم أحمَدْك ، وإن رددتَه لم أذُمّك » . فلما قرأت الكتاب مضيتُ من فوري إلى الجاحظ ، فقال : يا أبا عبد الله ، قد علمتُ أنك أنكرت ما في الكتاب ، فقلت : أو ليس موضع نكِرة ! فقال : لا ، هذه علامة بيني وبين الرجل فيمن أعتني به ، فقلت : لا والله ، ما رأيتُ رجلاً أعلمَ بطبعك وما جُبِلْتَ عليه من هذا الرجل ! ـ أعني صاحب الحاجة ـ أعلمت أنّه لما قرأ الكتاب قال : أمّ الجاحظ عشرة آلاف ، وأمّ مَن يسأله... فقلت : ياهذا ؟ أتشتم صديقنا ؟ فقال : هذه علامتي فيمن أشكُره !

وفي رواية أخرى أنّ أبا العيناء سلّم الكتاب إلى صاحب الحاجة وقال له : فضَّ الكتاب ، فقال : إنه مختومٌ فقال : طِينةٌ أهونُ من ظِنّة .

* * *

قال سيدنا المرتضى أدام الله علوّه : وأظن أنّ أبا العيناء تنبّه على فضّ الكتاب وقراءته بخبر طَرَفة بن العبد والمتلمّس الضُّبَعِيّ[1] ، وذاك أنهما وَفَدا على عمرو بن هند ونادماه ، واحتظيا به ، ثم أفضى الأمر إلى أنْ هجاه كلٌّ واحد منهما وعرّض به بالشعر المشهور[2] فحَنِقَ عليهما ، وهمّ بقتلهما ، ثم أشفقَ من ذلك ، وأراد قتلهما بيدِ غيره ، وكان علَى طرَفَة أحْنَق ، فعلم أنه إن قتله هجاه المتلمّس : فكتب لهما كتاباً إلى البحرين ، وقال لهما : إني قد كتبت لكما بصِلة ، فاشخَصَا لقبضها ؛ فخرجا من عنده ، والكتابان في أيديهما ، فمرّا بشيخ جالس على ظهر الطريق ، مُتَكشِّفاً يتبرز ، ومعه كِسرة خبز يأكل منها ، ويتناول القملَ من ثيابه فيقصَمه ، فقال أحدهما لصاحبه : ما رأيت أعجبَ من هذا الشيخ ! فسمع الشيخ مقالته فقال : وما ترَى من عجبي[3] ! أُدْخِلُ طَيِّباً ، وأخرِج خبيثاً ، وأقتل عدواً ، وإنّ أعجبَ مني لَمَنْ يحمِل حتفَه بيده ، وهو لا يدرى ! فأوجس المتلمّس في

---

(١) في حاشيتي الأصل ، ت : « هو من بني ضبيعة بن ربيعة ، واسمه جرير بن عبد العزى ، وقيل ابن عبد المسيح » .

(٢) انظر تفصيل الخبر وأبيات الهجاء في (الأغاني ٢١ : ١٢٧ ، والشعر والشعراء ١٣١ـ١٣٢ ، و ١٣٧ـ١٣٨ ، ومعجم البلدان ٧ : ٢٠٨ ، والخزانة ١ : ٤١٢ـ٤١٧ ، ٤٤٦ ، و ٣ : ٧٣ ومجمع الأمثال ١ : ٣٥٠ـ٣٥٢ وديوان طرفة : ٥ـ٦ ، وديوان المتلمس ١٧٢ـ ١٧٦) .

(٣) م : « عجب » .

نفسِه خِيفة ، وارتاب بكتابه ، ولقِيَه غلام من أهل الحِيرة ، فقال له : أتقرأ يا غلام ؟ قال : نعم ، ففضَّ خاتَمَ كتابه ، ودفعه إلى الغلام فقرأه ، فإذا فيه : «إذا أتاك المتلمِّس فاقطع يديْه ورجليه ، وأصلِبه حيًّا».

فأقبل على طرفة فقال له : تعلَمَنْ[١] والله لقد كتبَ فيك بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الغلام يقرؤه عليك ، فقال : كلاَّ ، ما كان ليجسُر على قومى بمثل هذا ، ولم يلتفت إلى قول المتلمِّس ، فألقى المتلمِّس كتابه فى نهر الحِيرة ، وقال :

قَذَفْتُ بها بالثِّنْىِ مِنْ جَنْبِ كافِرٍ ... كذلكَ أَقْنُو كُلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ[٢]
رَضِيتُ لهـا بالماء لَمَّا رأيْتُها ... يَجولُ بها التيارُ فى كُلِّ جَدْوَلِ

كافر : نهر بالحيرة ، وأقنو : أقتنى ، والقِطّ : الـكتاب : والتيَّار : معظم الماء وكثرته .

وقال المتلمِّسُ أيضا :

مَنْ مُبْلِغُ الشُّعراء عَنْ أَخَوَيْهِمُ ... نَبأً فتصْدُقُهُمْ بذاكَ الأَنفُسُ[٣]
أَوْدَى الَّذِى عَلِقَ الصَّحِيفةَ مِنهما ... ونَجا حِذَارَ حِبائِهِ المتلمِّسُ
أَلْقَى صَحِيفَتَهُ ونَجَّتْ كُورَهُ ... وَجْناءُ مُجْمَرَةُ المناسِمِ عِرْمِسُ[٤]
عَيْرانَةٌ طَبَخَ الهَواجِرُ لَحْمَها ... فكأَنَّ نُقْبَتَها أَدِيمٌ أَمْلَسُ[٥]
أَطَرَفَةَ بنَ العَبْدِ إنَّكَ حائنٌ ... أَبِساحةِ المَلِكِ الهُمامِ تَمَرَّسُ !
أَلْقِ الصَّحِيفةَ لاَ أَبا لكَ إنَّهُ ... يُخْشَى عليكَ مِنَ الحِباءِ النِّقْرِسُ

(١) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : «تعلم».

(٢) ديوانه : ١٧٦ . (٣) الأبيات فى ديوانه ١٩١—١٩٢ ، والخزانة ٣ : ٧٣ والأغانى ٢١ : ١٢٧ وأخوام : طرفة والمتلمس . (٤) الوجناء : الناقة الصلبة ؛ مشتقة من الوجين ؛ وهى الأرض الصلبة ، ومجمرة : مجتمعة ، والمناسم : جمع منسم ، ومنسما خف البعير كالظفرين فى مقدمه ؛ بهما يستبان أثر البعير الضال . والعرمس فى الأصل : الصخرة ؛ شبهت بها الناقة ؛ ورواية الديوان :

أَلْقَى صحيفتَه ونجّتْ كورَه ... عَنْسٌ مداخَلةُ الفَقارةِ عِرْمِسُ

(٥) العيرانة : الناقة الصلبة التى تشبه عير الوحش لقوتها ، والنقبة هاهنا : اللون .

النقرس هاهنا : الداهية ، ومضى طرفة بكتابه إلى البحرين، فأمر به المعلّى بن حَنَش[(١)] العبْدِىّ فقتِل ؛ فقال المتلمس[(٢)] :

عصَانا[(٣)] فما لاقى رَشادا وإنّما ... تَبيّنُ[(٤)] فى أمرِ الغَوِىّ عَوَاقِبُهْ
فأصبحَ محمولاً على ظَهْرِ آلةٍ ... تَمُجُّ نَجِيعَ الجوْفِ مِنهُ تَرَائِبُهْ
فإلاّ تَجَلّلْهَا يُعالوكَ فوقَها ... وكيفَ تُوقَّى[(٥)] ظَهرَ ما أنتَ راكبُهْ !

ولحِقَ المتلمّس ببلاد الشام ، وهجا عمراً ، وبلغه أن عمراً يقول : لئن وجده بالعراق ليقتلنَّه ، فقال :

آليْتَ حَبَّ العِرَاقِ الدّهرَ أطعَمُهُ ... والحَبُّ يأكُلُهُ بالقَرْيَةِ السُّوسُ[(٦)]

وجرى المثل بصحيفة المتلمّس ، فقال الفرزدق يذكر الشعراء الذين أورثوه أشعارهم[(٧)] :

وَهَبَ القَصائِدَ لى النّوَابِغُ إذْ[(٨)] مَضَوْا ... وأبو يَزِيدَ وذُو القُرُوحِ وجَرْوَلُ
وأخُو بَنى قَيسٍ وهُنَّ قَتَلْنَهُ ... ومُهَلْهِلُ الشُّعَرَاءِ ذَاكَ الأوّلُ

يعنى بالنوابغ : النابغة الذُّبيانى والجَعْدِىّ ، ونابغة بنى شيبان ، ويعنى : بأبى يزيد المخبّل السَّعْدِىّ، وجَرْوَل هو الحطيئة، وذو القروح امرؤ القيس، وأخو بنى قيس هو طرفة . ومعنى قوله : «وهن قتلنه» ، يعنى : القصائد التى هجا بها عمرو بن هند ، ويقال إن صاحب المتلمس وطرفة فى هذه القصة هو النعمان بن المنذر ، وذلك أشبه بقول طَرفة :

أبَا مُنْذِرٍ كانَتْ غُرُوراً صَحِيفَتى ... ولمْ أُعطِكم فى الطَّوْعِ مالى ولا عِرْضِى[(٩)]
أبا مُنْذِرٍ أفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بَعضَنَا ... حَنَانَيْكَ[(١٠)] بعضُ الشّرِّ أهوَنُ مِنْ بَعْضِ

وأبو منذرٍ هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند ، وقد مدح طرَفة النعمانَ فلا يجوز أن يكون عمرو قتله ، فيشبه أن تكون القصّة مع النعمان .

---

(١) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « حنش » . (٢) ديوانه : ١٩٣ـ١٩٤ .
(٣) حاشية ت (من نسخة) : « عصانى » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « يبين » .
(٥) ش : « توقى » ، بكسر القاف المشددة . (٦) ديوانه : ١٨٠ ؛ و « حب » ، منصوب على نزع الخافض ؛ والبيت من شواهد (الكتاب ١ : ١٧) ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل : « فى القرية » . (٧) ديوانه ٢ : ٧٢٠ . (٨) حاشية الأصل : « من نسخة » : « كلهم » .
(٩) ديوانه : ٤٨ . (١٠) حاشية الأصل : « حنانيك ؛ أى تحننا بعد تحنن » .

مجلس آخر ١٣

وكان أبو سهل بِشر[1] بن المعتمِر من وُجوه أهل الكلام ، ويقال إن جميعَ معتزلةِ بغداد كانوا / من مستجيبيه . [٦٠ ظ]

وقال أبو القاسم البلخىّ : إنه من أهل بغداذ ، وقيل : من أهلِ الكوفة ، وذكر الجاحظ أنه كان أبرصَ .

وحُكِى أنّه كان يوماً فى مجلسه ، وعنده أصحابُه ومعه مُجْبِر يسألهم ويقول: أنتم تحمَدون الله على إيمانكم ؟ وهم يقولون : نعم ، فيقول لهم : فكأنّه يحبُّ أن يُحمَد على مالم يفعل ، وقد ذمّ ذلك فى كتابه ، فيقولون له : إنما ذمّ مَن أحب أن يُحمَد على ما لم يفعل ؛ ممّنْ لم يعِنْ عليه ، ولم يَدْعُ إليه ؛ وهو يشغِّب إذ أقبل ثُمامة[2] بن أشرس ، فقال بِشْر للمجبِر: قد سألتَ القومَ وأجابوك ، وهذا أبو معن فاسأله عن المسألة فقال له : هل يجب عليك أن تحمَدَ الله على الإيمان ؟ قال: لا ، بل هو يحمَدُنى عليه ، لأنه أمرنى به ففعلتُه ، وأنا أحمَده على الأمر به ، والتقوية عليه ، والدعاء إليه ؛ فانقطع المجبِر . فقال بشر : شَنُعَتْ فسهلت .

قال الجاحظ : وكان بِشرٌ يقعُ فى أبى الهذَيل ، وينسُبُه إلى النفاق ، فقال وهو يصفه : أبو الهُذيل لَأَنْ يكون لايعلم ، وهو عندالناس يَعلم أحب إليهمن أن يعلم، ويكون عند الناس لايعلم، ولأَنْ يكونَ من السِّفْلة، وهو عند الناس من العِلْية أحبُّ إليه من أنْ يكونَ من العِلْية، وهو عندالناس من السِّفْلة ، ولأن يكون نبيلَ المنظر ، سخيفَ المخبر أحبُّ إليه من أن يكونَ نبيلَ المَخبر ،سخيفَ المنظر ؛ وهوبالنفاق أشدُّ عُجْباً منه بالإخلاص، ولَباطلٌ مقبولٌ أحبُّ إليه من حق مدفوع .

---

(١) بشربن المعتمر ؛ انتهت إليه رياسة المعتزلة ببغداد ؛ وتوفى سنة ٢١٠ . (لسان الميزان ٢ : ٣٣) .

(٢) ثمامة بن الأشرس النميرى ؛ مولى بنى نمير ؛ كان زعيم القدرية فى زمن المأمون والمعتصم والواثق، وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال ؛ توفى سنة ٢١٣ ؛ (لسان الميزان ٢ : ٨٣ ، والفرق بين الفرق ١٠٢) .

ولبشر أشعار كثيرة ، يحتج فيها على أهل المقالات . وذكر الجاحظ أنه لم يرَ أحداً أقوى[1] على المخمَّس والمزدوج[2] على ما قوِيَ عليه بشر ، وأنه كان أكثرَ في ذلك وأقدرَ من أبان اللاحقي[3] ، وهو القائل :

إنْ كُنتَ تَعلَمُ ما أقو   لَ وما تقولُ فأنتَ عالِمْ
أو كُنتَ تَجهَلُ ذا وذا   كَ فكُنْ لأهْلِ العلْمِ لازِمْ
أهـلُ الرِّياسةِ مَنْ يُنـ   ـازِعُهُمْ رِياستَهُمْ فظالِمْ
سَهِرَتْ عُيونُهُمُ وأنْـ   ـتَ عنِ الَّذي قاسَوْهُ حالِمْ
لا تَطْلُبَنَّ رِياسَـــةً   بالجَهلِ أنتَ لها مُخاصِمْ
/ لوْلا مَقامُهُمُ رأيـ   ـتَ الدِّينَ مُضطَرِبَ الدَّعائمْ [٦١ و]

* * *

فأما أبو إسحق إبراهيم بن سيّار النظّام ؛ فإنه كان مقدَّماً في العلم بالكلام ، حسَنَ الخاطر ، شديدَ التدقيق والغوص على المعاني ؛ وإنما أدّاه إلى المذاهب الباطلة التي تفرّد بها واستشنِعَتْ منه تدقيقه وتغلغله . وقيل : إنه مولى الزياديين من ولد العَبيد ، وإن الرِّقَّ جرى على أحد آبائه .

وقيل للنظّام : ما الاختصار ؟ فقال : الذي اختصاره فسادٌ . وقال لرجل : أتعرِف فلاناً المجوسيَّ ؟ فقال : نعم ، ذاك الذي حلق وَسَط رأسِه ، كما يفعلُ اليهوديّ ، فقال النظّام : لا مجوسيَّ عرفت ، ولا يهوديَّ وصفْت .

قال الجاحظ وذكر عبدالوهاب الثقفيّ فقال : هو أحلى من أمْنٍ بعد خوفٍ ، وبُرْءٍ بعد سقَمٍ ،

---

(١) حاشية الأصل : « من نسخة » : « قوى » .

(٢) حاشية الأصل : « المخمس من الشعر : ما كان خمسة مصارع مقفاة ، يخالفها الخامس أو يوافقها ، والمزدوج : هو المثنوى » .   (٣) هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق ؛ شاعر مكثر ؛ وأكثر شعره مزدوج ومسمط ؛ (وانظر الفهرست ١٦٣) .   (٤) هو أبو إسحاق بن سيار النظام البصرى ، شيخ الجاحظ ، وأحد رءوس المعتزلة ؛ وإليه تنسب الفرقة النظامية ؛ (وانظر آراءه في الفرق بين الفرق ١١٣) .

وخِصْبٍ بعد جَدْب ، وغنًى بعد فقرٍ ، وطاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصْل[(١)] الدائم ، مع الشباب الناعم ؛ وللنظّام شعر كثير صالح ، فمنه :

يا تارِكِى جَسَدًا بغيرِ فُؤادِ   أسْرَفْتَ فى الهُجْرانِ والإبْعادِ
إنْ كانَ يمنَعُكَ الزِّيارَةَ أعيُنٌ   فادْخُلْ علىَّ بِعِلّةِ العُوَّادِ
كَيْما أراكَ وتِلكَ أعظَمُ نِعمةٍ   مَلَكَتْ يَداكَ بها منيعَ قِيادِى
إنّ العُيونَ على القُلوبِ إذا جَنَتْ   كانت بَلِيَّتُها على الأجسادِ

وله :

تَوَهَّمَهُ[(٢)] طَرْفى فآلَمَ خَدَّهُ   فكان[(٣)] مكانَ الوَهْمِ مِنْ نَظَرِى أثَرُ
وصافَحَهُ قلبى فآلَمَ كَفَّهُ   فمِنْ صَفْحِ قلبى فى أنامِلِه عَقْرُ
ومَرَّ بقلبى خاطِرًا فجَرَحْتُهُ   ولَمْ أرَ خَلْقًا[(٤)] قطُّ يجرَحُهُ الفِكْرُ
يَمُرُّ فمِنْ لِينٍ وحُسْنٍ تَعَطُّفٍ   يُقالُ بهِ سُكْرٌ وليسَ بهِ سُكْرُ

ويقال إن أبا العتاهية ، قال : أنشدت النظام شعراً :

إذا هَمَّ النَّديمُ لهُ بلَحْظٍ   تَمَشَّتْ فى محاسِنِه الكُلُومُ

فقال : ينبغى أن ينادم هذا أعمى .

قال سيدنا المرتضى أدام الله علوّه : وأبيات النظام تتضمّن معنى بيت أبى العتاهية ، ولسنا ندرى أيّهما أخذ من صاحبه ، والنظّام يكرر هذا المعنى / [٦١ ظ] كثيراً فى شعره ، فمن ذلك قوله :

رَقَّ فلوْ بُزَّتْ سَرابِيلُهُ   عَلَّقَهُ الجوُّ مِنَ اللُّطفِ[(٥)]
يَجْرَحُهُ اللَّحْظُ بتَكْرارِهِ   ويَشْتَكِى الإيماءَ بالطَّرْفِ

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « الوصال » .   (٢) ف ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « تأمله » .   (٣) من نسخة بحاشية ت : « نصار » .   (٤) من نسخة بحاشية الأصل : « جسما » .   (٥) حاشية ت : « يعنى أن فى سرابيله ثقلا واعتمادا باقيا ، فلو بزت لعلقه الجو » .

وحكى أن أبا النظام[١] جاء به وهو حدَث إلى الخليل بن أحمد ، ليعلّمه، فقال له الخليل يوماً يمتحنه ، وفى يده قدَح زجاج : يابنىّ ، صفْ لى هذه الزجاجة ، فقال : أبمدح أم بذم ؟ قال : بمدح ، قال : نعم ، تُرِيكَ القَذَى ، لا تقبل الأذى ، ولا تستر ماورا ؛ قال : فذمّها ، قال : سريعٌ كسرُها ، بطىءٌ[٢] جبرُها ، قال : فصِفْ هـذه النخلة ، وأومأ إلى نخلة فى داره ، فقال : أبمدح أم بذم ؟ قال : بمدح ، قال : هى حُلْو مجتناها ، باسقٌ منتهاها ، ناضر أعلاها ؛ قال : فذمّها قال: هى صَعْبة المرتقَى، بعيدةُ المجتنَى ، محفوفةٌ بالأذى ؛ فقال الخليل: يا بنىّ ، نحن إلى التعلّم منك أحوج .

قال سيدنا المرتضى أدام الله علوّه : وهـذه بلاغة من النظّام حَسنة ، لأن البلاغة هى وصف الشيء ذمّا أو مدحاً بأقصى ما يقال فيه .

***

وشبيه بهـذا المعنى خبر لَبيد[٣] المشهور فى هِجائه[٤] البقْلَة ، التى امتحِنَ بهجائها ، واختبِر بذمها ، فقال فيها أبلغَ ما يقال فى مِثْلها ، وذلك أن عُمارة وأنَسًا وقَيْسًا والربيعَ بنى زياد العبسيين وفدوا على النعمان بن المنذر ، ووفد عليه العامريون بنو أم البنين[٥] ، وعليهم أبو البَراء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب، وهو ملاعبُ الأسنّة، وكان العامريون ثلاثين رجلا،

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « كان النظام شاعرا فصار متكلما ، وبالعكس منه أبو نواس » .

(٢) من نسخة بحاشية ت : « بعيد » .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « كان لبيد صحابيا مخضرما ، وبقى بعد رسـول الله صلى الله عليه وآله زمانا ، وكان مستبصرا حسن الطريقة ، وكان لا يقول الشعر بعد إسلامه ويقول : عوضنى الله البقرة وآل عمران والمخضرم : الذى أدرك الجاهلية والإسلام » .

وانظر الخبر ضمن ترجمة لبيد وذكر نسبه وأخباره فى (الأغانى ١٤ــ٩٠ــ٩٨، والخزانة ٤ : ١١٧ ، ومجالس ثعلب ٤٤٩ــ٤٥٠، وشعراء النصرانية ٧٩٠ ، والعمدة ١ : ٢٧ ، والحيوان ٥ : ١٧٣) .

(٤) من نسخة بحاشية ت : « وهجائه » .

(٥) هى فاطمة بنت الخرشب الأنمارية ؛ إحدى المنجبات من العرب ؛ وكان يقال لبنيها الكملة ؛ روى أن عبد الله بن جدعان لقيها وهى تطوف بالكعبة ؛ فقال لها : نشدتك الله برب هذه البنية ! أى بنيك أفضل ؟ قالت : الربيع ؛ لابل عمارة ؛ لابل أنس ؛ ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل » ، (وانظر الأغانى ١٦ : ١٩) .

وفيهم لَبِيدُ بنُ ربيعةَ بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وهو يومئذ غلام له ذُوابة ، وكان الربيعُ ابن زياد العبسيّ ينادم النعمان ، ويَكْثُرُ عنده ، ويتقدم على مَنْ سواه ، وكان يُدْعى الكامل، لشَطاطه[1] وبياضه وكماله .

فضرب النعمان قُبَّةً على أبي بَراء ، وأجرَى عليه وعلى مَنْ كان معه النُّزْلَ ، فكانوا يحضُرون النعمان لحاجتهم ، فافتخروا يومًا بحضرته ، فكاد العبسيون يغلبون العامريين ، وكان الربيع إذا خلا بالنعمان طعن فيهم ، وذكر معايبَهم ؛ ففعل ذلك مراراً لعداوته لبني جعفر ؛ لأنهم كانوا أسروه ، فصدّ النعمانُ عنهم حتى نزع القبة عن أبي بَراء ، وقطع / النُّزْل ، ودخلوا عليه يوماً فرأوا منه جفاءً ، وقد كان قبل ذلك يكرمهم ، ويقدّم مجالسهم ، فخرجوا من عنده غِضاباً ، وهَمُّوا بالانصراف، ولَبيد في رِحالهم يحفظُ أمتعتهم ، ويغدو بإبلهم فيرعاها ، فإذا أمسى انصرف بها . [٦٢ و]

فأتاهم تلك الليلة وهم يتذاكرون أمر الربيع، فقال لهم: ما كنتم[2] تتناجون؟ فكتموه ، وقالوا له : إليك عنا ، فقال : أخبروني ، فلعلّ لكم عندي فرَجاً ، فزجروه ، فقال : والله لا أحفظ لكم متاعا ، ولا أسْرَح لكم بعيراً[3] أو تخبروني ؟ وكانت أم لبيد عَبْسية في حِجْر الربيع ، فقالوا له : خالُك قد غلَبنا على الملك، وصدّ[4] عنا وجهه ، فقال : هل تقدرون أن تجمعوا بيني وبينه غدا حين يقعد الملك فأرجزَ به رجزاً مُمِضّا مؤلمًا ، لا يلتفت إليه النعمان بعده أبداً؟ قالوا له: وهل عندكَ ذلك؟ قال: نعم، قالوا: فإنّا نبلوكَ بشتم[5] هذه البقلة ــ وقدامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق، لاصقةٌ فروعها بالأرض، تدعى التَّربة ــ فاقتلعها من الأرض وأخذها بيده ، وقال: «هذه البقلة التَّربة التفِلة الرذْلة ، التي لا تذكي ناراً ، ولا تؤهل دارا ، ولا تستر جارا، عودها ضئيل ، وفرعها ذليل، وخيرها قليل، بلدها شاسعٌ ونبتها خاشع، وآكلها

(١) حاشية الأصل : « الشطاط هو استواء القامة وحسنها ، والشطط : الخلاف والجدل » .

(٢) حاشية الأصل : « مالكم » . (٣) من نسخة بحاشيتي ت : « إبلا » .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « وأصدعنا » . (٥) حاشية ت (من نسخة) : « فاشتم » .

جائع ، والمقيم عليها قانع ؛ أقصر البقول فرعاً ، وأخبثها مرعى وأشدها قلعاً ، فحرْباً[١] لجارها وجدعا ! القوابى[٢] أخا بني عبس ، أرجعه عنكم بتعس وَنكْس ، وأتركه من أمره فى لبس» . فقالوا له : نصبح ونرى فيك رأينا .

فقال لهم عامر : انظروا إلى غلامكم هذا، فإن رأيتموه نائما فليس أمره بشىء، إنما تكلّم بما جرى على لسانه ، وإن رأيتموه ساهراً فهوصاحبكم، فرمقوه بأبصارهم ، فوجدوه قد ركب رَحْلا يكدِم واسطته ؛ حتى أصبح فلما أصبحوا ، قالوا : أنت والله صاحبه ، فحلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حُلّة ، وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان فوجدوه يتغدّى ومعه الربيع ، ليس معه غيره ، والدار والمجالس مملوءة ، بالوفد فلما فرغ من الغداء أذن للجعفريين فدخلوا عليه ، والربيع إلى جانبه ، فذكروا للنعمان حاجتهم ، فاعترض الربيع فى كلامهم ، فقام لبيد : وقد دهَن أحد شِقّىْ رأسه ، وأرخَى إزاره ، وانتعل نعلا واحدة ـ وكذلك / [٦٢ ظ]
كانت الشعراء تفعل فى الجاهلية إذا أرادت الهجاء ـ فمثل بين يديه ، ثم قال :

يارُبَّ هَيْجا هِىَ خيْرٌ مِنْ دَعَهْ[٣] إذْ لا تزَالُ هامَتِى مُقَزَّعَهْ
نَحْنُ بَنِى أُمِّ البَنِينَ الأَرْبَعَهْ ونَحْنُ خيرُ عامِرِ بنِ صَعْصَعَهْ
المُطْعِمونَ الجَفْنَةَ المُدَعْدَعهْ[٤] والضَّارِبُونَ الهامَ تَحْتَ الخَيْضَعَهْ

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « لحربا » [بفتح الراء] ، وفى حاشية ت (من نسخة) : « لخزيا » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « فأألفوا » . (٣) الأرجوزة فى ديوانه ١ : ٧ ـ ٨ ، وقبل هذا البيت فى رواية ثعلب :

* لا تَزْجُرِ الفِتْيانَ عَنْ سُوءِ الرِّعَهْ *

والرعة : حالة الأحمق التى رضى بها . (٤) كذا فى ت ، وفى الأصل ، د ف : « المذعذعة » بالذال المعجمة . وفى حاشية الأصل : « حقه « المدعدعة » بالدال غير المعجمة ؛ وهى المملوءة ، والدعدعة تحريك المكيال ونحوه ليسع الشىء ، ودعدعت الشىء ملأته ، وجفنة مدعدعة أى مملوءة ، قال لبيد أيضا يصف ما بين النقيا من السيل :

فدَعْدعا سُرّةَ الرَّكاء كما دَعْدَعَ ساقى الأعاجم الغَرَبا

ـ والركاء : واد معروف ، أما الذعذعة ؛ فهو التفريق ؛ ولم يسمع فى معنى الملء بالذال ، والله أعلم » .

مَهْلاً أَبَيْتَ اللَّعْنَ لاَ تَأْكُلْ مَعَهْ ... إِنَّ اسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ
وإنَّهُ يُدْخِلُ فيها إصبعَهْ ... يُدْخِلُها حتَّى يُوارِي أَشْجَعَهْ
كأنَّهُ يَطْلُبُ شيئاً ضَيَّعَهْ

فلما فرغ لبيد التفتَ النعمان إلى الربيع يرمقه شَزْراً ، وقال : كذلك أنت؟ قال : كذب والله ابن الحِمق اللئيم ! فقال النعمان : أفّ لهذا الطعام ، لقد خَبَّثَ علىّ طعامى ! فقال الربيع: أبيتَ اللعن ! أما إنى قد فعلت بأمه ـ لا يكنى، وكانت فى حِجْرِه ـ فقال لبيد : أنت لهذا الكلام أهل ، أما إنها من نسوة غير فُعل ، وأنت المرء قال هذا فى يتيمته(١) .

قال سيدنا أدام الله علوّه : وجدت فى رواية أخرى : أما إنها من نسوة فُعُل، وإنما قال ذلك لأنها كانت من قوم الربيع ، فنسبها إلى القبيح ، وصدّقه عليه تهجينا له ولقومه .

فأمر الملك بهم جميعاً فأخرجوا ، وأعاد على أبى بَرَاء القُبة ، وانصرف الربيع إلى منزله، فبعث إليه النعمان بضعفِ ما كان يحبوه به ، وأمره بالانصراف إلى أهله ، فكتب إليه :وإنى قد تخوّفت أن يكون قد وقع فى صدرك ما قال لَبيد ، ولست برائم حتى تبعث إلىّ مَنْ يجردنى ، ليعلم مَنْ حضرك من الناس إنى لست كما قال ، فأرسل إليه : إنك لست صانعاً بانتفائك مما قال لبيد شيئاً ، ولا قادراً على ردّ ما زلّت به الألسن ، فالحق بأهلك ؛ ثم كتب إليه النعمان فى جملة أبيات جواباً عن أبيات(٢) كتبها إليه الربيع مشهورة :

---

(١) من نسخة بحاشية الأصل ، ت : « ربيته » .

(٢) الأبيات برواية صاحب الأغانى :

لئن رحلتُ رِحالِى إنَّ لى سَعَةً ... مامثلُها سَعَةٌ عَرْضاً ولا طُولا
بحيث لو وزَنَتْ لَخْمٌ بأجمعِها ... لم يَعْدِلوا رِيشةً من ريش سَمويلاَ
تَرعى الروائمُ أحرارَ البُقولِ بهاَ ... لامثلَ رعيكُمُ ملحاً وغَسْويلاَ
فابْرُقْ بأرضِكَ يانُعمانُ مُتَّكِئاً ... مع النِّطَاسِيِّ يوماً وابنِ توفيلاَ

قدْ قيلَ ذلكَ إنْ حقًا وإنْ كذِبًا ... فما اعتِذارُكَ مِنْ شَيْء إذا قيلا!(١)

وأخبرنا بهذا الخبر أبوعبيد الله المرزُبانيّ قال حدّثنا محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرنا/ [٦٢ و] أبوحاتم عن أبي عبيدة ، وأخبرنا به أيضا المرزُبانيّ قال حدثني محمد بن أحمد الكاتب قال: حدثنا أحمد بن عُبيد بن ناصح النحويّ قال : أخبرنا محمد بن زياد بن زبّان عن الكلبيّ عن عبدالله بن مسلم البَكّاويّ(٢) ـ وكان قد أدرك الجاهلية ـ وفي حديث كل واحد زيادة على الآخر، ولم نأت بجميع الخبر على وجهه ، بل أسقطنا منه ما لم نحتجْ إليه ، وأوردنا ما أوردنا منه بألفاظه .

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : أما قوله : « نَحْنُ بني أم البنين » فإنه نَصَبٌ على المدح ، والعرب تنصب على المدح والذم جميعاً . وأم البنين هي بنت عمرو بن عامر بن ربيعة ابن صَعْصَعة ، وكانت تحت مالك بن جعفر بن كلاب ، فولدت له منه عامر بن مالك مُلاعب الأسنَّة ، وطُفيل بن مالك فارس قُرْزل ، وهو أبو عامر بن الطُّفيل ، وقرزُل فرس كانت له ، وربيعةَ بن مالك أبا لبيد ، وهو ربيع المقترين ، ومعاويةَ بن مالك معوِّد الحكّام ، وإنما سمى معوّد الحكام بقوله :

أُعوِّدُ مِثلَها الحُكّامَ بَعدي ... إذا ما الحَقُّ في الأشياعِ نابا

---

(١) البيت من مقطوعة ذكرها صاحب الأغاني ؛ وهي :

شرِّد برحْلِكَ عني حيثُ شئتَ ولا ... تُكثِرْ عليَّ وَدَعْ عنك الأباطيلا

فقدْ ذُكِرتَ بشيء لستُ ناسيَه ... ماجاورَتْ مصرُ أهلَ الشام والنيلا

فما انتفاؤك منهُ بعد ما جَزِعتْ ... هوجُ المطيِّ به نحو ابن سَمْويلا

قَدْ قيلَ ذلكَ إن حقًّا وإن كذِبًا ... فما اعتذارُكَ من قولٍ إذا قيلا!

فالحق بحيثُ رأيت الأرض واسعةً ... وانشر بها الطارفَ إن عرضًا وإن طولا

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « البكائي » .

وولدتْ عُبَيْدَةَ الوضّاح ؛ فهؤلاء خمسة ، وقال لبيد : « أربعة » ، لأن الشعر لم يمكنه من ذلك[١] .

وأما الجفنة الدَّعْدَعَة[٢] فهي المملوءة . وأما الخَيْضَمة ، فإن الأصمعيّ يذكر أن لبيداً قال : « تحت الخَضَمة » ؛ يعني الجلبة ، فسوّته الرواة . وقيل : إن الخَيْضَمة أصوات وقع السيوف ، والخَيْضَمة أيضاً البيضة التي تُلبَس على الرأس ، والخَيْضمة الغُبار ، والقول يحتمل كلّ ذلك .

وأما : « أبيت اللعن » ، فإن أبا حاتم قال : سألتُ الأصمعيّ عنه فقال : معناه أبيتَ أن تأتيَ من الأمور ما تُلعَن عليه .

وأما : « الأشاجع » ؛ فهي العروق والعصب الذى على ظهر الكفّ .

وقد روى : * أكل يوم هامتى مُقَزَّعة *

والقَزَع : تساقُط بعض الشعر والصوف وبقاء بعضه ، يقال : كبش أقزع ونعجة قَزْعاء .

* * *

فأما الجاحظ فهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، مولًى لأبي القلمّس عمرو بن قِلْع الكِنانيّ ثم الفُقَيْمِيّ . وذكر المبرِّد أنه ما رأى أحرَص على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاضي ؛ فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع في يده كتاب قرأه من أوله إلى آخره ، أيّ كتاب كان . وأما الفتح / بن خاقان[٣] فإنه كان يحمل [٦٣ ظ]
الكتاب في خُفّه ، فإذا قام بين يدي المتوكل للبول أو للصلاة أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضعَ الذى يريده ، ثم يصنع مثلَ ذلك في رجوعه إلى أن يأخذَ

---

(١) قال صاحب الخزانة (٤ : ١٧٤) : قول السيد المرتضى : إن لبيدا إنما قال أربعة وهم خمسة لضرورة الشعر ؛ هذا قول الفراء ؛ وهو قول فارغ ؛ والصواب كما قال ابن عصفور في الضرائر : لم يقل إلا أربعة وهم خمسة على جهة الغلط ؛ وإنما قال ذلك لأن أباه كان قد مات وبقي أعمامه وهم أربعة » .

(٢) في الأصل : « المدعدعة » ، وصوابه من ت ؛ وانظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩١ ، من هذا الجزء .

(٣) هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل ؛ قتل معه سنة ٢٤٧ ؛ (النجوم الزاهرة ٢ : ٣٢٥) .

مجلسه . وأما إسماعيل بن[١] إسحاق فإني ما دخلتُ عليه قطُّ إلّا وفي يده كتاب ينظر فيه ، أو يقلّب الكتبَ لطلب كتاب ينظر فيه .

قال البَلْخِيّ : تفرّد الجاحظ بالقول بأن المعرفة طِباع ، وهي مع ذلك فعل للعباد على الحقيقة ، وكان يقول في سائر الأفعال إنها تنسب إلى العباد على أنها وقعت منهم طباعاً ، وأنها وجبت بإرادتهم ، وليس بجائز أن يبلغ أحدٌ فلا يعرف الله تعالى ؛ والكفار عنده بين معاندٍ وبين عارفٍ قد استغرقه حبُّه لمذهبه وشغفه به وإلفه وعصبيته ؛ فهو لا يشعر بما عنده من المعرفة بخلافه .

وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك الزيات[٢] ، وكان منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد ، للعداوة التي كانت بين أحمد ومحمّد ، فلما قُبض على محمد بن عبد الملك الزيات هرب الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خِفْت أن أكون ثانيَ اثنين إذ هما في التنُّور ! يريد : ما صُنع بمحمد بن عبد الملك من إدخاله تنوراً فيه مسامير ، كان هو صنعَه ليعذِّب الناس فيه ، فعُذّب به حتى مات .

وروى انه أُتِيَ بالجاحظ بعد موت ابن الزيات وفي عنقه سلسلة ، وهو مقيَّد في قميص سَحَل ، فلما نظر إليه ابن أبي دؤاد قال : والله ما علمتُك إلاّ متناسياً للنعمة ، كفورا للصنيعة ، معدناً للمساوئْ ، وما فُتّني باستصلاحي[٣] لك ، ولكنّ الأيام لا تُصلح منك لفساد طويّتك ، ورداءة دَخِيلتك[٤] ، وسوء اختيارك ، وغالب طبعك ؛ فقال الجاحظ : خفِّضْ عليك أيدك الله ! فوالله لأنْ يكونَ لك الأمر عليَّ خيرٌ من أن يكون لي عليك ، ولأن أُسيء وتُحسن أحسنُ في الأحدوثة عنك من أن أُحسن فتُسيء ، ولأن تعفوَ عني في حال قُدْرتك

(١) هو إسماعيل بن إسحاق القاضي البصري الفقيه المالكي ؛ صنف في القراءات والفقه ؛ وكان إماما في العربية ؛ قال المبرد : هو أعلم بالتصريف مني ؛ وتوفي سنة ٢٨٢ ؛ (شذرات الذهب ٢ : ١٧٨) .

(٢) هو محمد بن عبد الملك بن أبان ، المعروف بابن الزيات ؛ كان وزير المعتصم ، وله شعر سائر جيد ، وديوان رسائل ، وتوفي سنة ٢٣٣ ؛ (ابن خلكان ٢ : ٥٤) .

(٣) حاشية الأصل : « أي ما فوتني استصلاحك ، والباء للتعدية » .

(٤) ت : « داخلتك » .

أجلُ بك من الانتقام منى ، فقال ابن أبي دؤاد : قبحَك الله ! فوالله ما علمتك إلاّ كثيرَ تزويق اللسان ، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ، ثم اصطغنتَ فيه النفاق والكفر ؛ ياغلام صِرْ به إلى الحمام، وأمِط عنه الأذى. فأخِذت عنه السلسلة/والقيد ، وأدخل الحمام، وأميط عنه الأذى، [٦٤ و] وحُمل إليه تختٌ من ثياب وطويلة وخفّ ، فلبس ذلك، ثم أتاه فصدّره فى مجلسه ، ثم أقبل عليه، وقال : هات الآن حديثك ياأبا عثمان !

وقال المبرّد: سمعت الجاحظ يقول: احذر مَنْ تأمن؛ فإنك على حذَرٍ ممن تخاف.

وقال الجاحظ : قلت لأبي يعقوب الخُرَيمي الشاعر : مَن خَلَق المعاصي؟ قال : الله، قلت: فمن عذّب عليها ؟ قال : الله ، قلت : فلم ؟ قال : لا أدرى والله !

وكان الجاحظ يقول : ينبغى للكاتب أن يكون رقيقَ حواشي الكلام ، عذبَ ينابيعه ، إذا حاور سدّد سهمَ الصواب إلى غرَض المعنى .

وقال: لاتكلِّم العامة بكلام الخاصة، ولا الخاصة بكلام العامة .

وقال سَوّار بن أبي شُراعة : كنتُ عند الجاحظ، فرآنى أكتب خطاً رديئاً فى ورق رديء متقارب السطور ، فقال لى : ما أحسِبك تحبُّ ورثتك ، فقلت : وكيف ذاك ؟ قال: لأنى أراك تُسيء بهم فيما تخلّفه !

وذكر أبو العباس المبرّد قال : سمعت الجاحظ يقول لرجل آذاه : أنت والله أحوجُ إلى هوان من كريم إلى إكرام ، ومِن علمٍ إلى عمل ، ومن قدرة إلى عفو ، ومن نعمة إلى شكر .

وقال المبرّد قال لى الجاحظ يوما : أتعرف مثل قول إسمعيل بن القاسم .

ولا خيرَ فيمَنْ لا يُوطِّنُ نفسَهُ ... على نائباتِ الدّهرِ حينَ تنوبُ

فقلت : نعم ، قول كُثيِّر ، ومنه أخذ :

فقلتُ لها يا عزُّ كلُّ مُصيبةٍ ... إذَا وُطِّنتْ يوْماً لها النّفْسُ ذَلّتِ

وروى يموتُ بن المزرّع لخاله عمرو بن بحر الجاحظ فى الجمّاز[1] يهجوه :

نَسَبُ الجمّازِ مَقْصُورٌ إليهِ مُنْتَهاهُ
تَنتَحِى الأحسابُ بالنّاسِ ولا تَعْدُو قَفاهُ
يَتَحاجَى مَنْ أبو الجَمّازِ فيهِ كأبَاهُ
ليس يَدْرِى مَنْ أبو الجَمّازِ إلاَّ مَنْ يَرَاهُ

/ أخبرنا المرزبانىّ قال: أخبرنا علىّ بن هرون قال أنشدنى وكيع قال أنشدنى أبو العيناء [٦٤ ظ] قال أنشدنى الجاحظ لنفسه فى الخضاب :

زُرْتُ فَتاةً مِنْ بنى هِلالِ فاستَعْجَلَتْ إلىَّ بالسُّؤالِ
مالى أراكَ قانِئَ السِّبالِ كأنما كَرَعْتَ فى جِرْيالِ[2]
ما يَبْتَغِى مِثْلُكَ مِنْ أمْثالى تَنَحَّ فَدَاى ومِنْ حِيالى

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه: قوله : « كأنما كَرَعْتَ فى جِرْيالِ » مليح قوىّ، ولا يشبه شعرَ الجاحظ للينه وضعف كلامه .

وذكر أبو العيناء قال حدثنى إبراهيم بن رياح قال أنشدنى الجاحظ يمدحُنى :

بَدَا حِينَ أثْرَى بإخوانِهِ فَفَلَّلَ عنهمْ شَباةَ العَدَمْ
وذَكَّرَهُ الحَزْمُ رَيْبَ الزَّمانِ فبادَرَ بالعُرْفِ قَبْلَ النَّدَمْ

قال إبراهيم : فذاكرتُ بهما أحمد بن أبى دؤاد فقال : قد أنشدنيهما يمدحنى بهما ، ثم لقيت محمد بن الجهم فقال : قد أنشدنيهما يمدحنى بهما ، وقال يموت بن المزرّع : سمعت خالى الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضلُ قول أبى نواس :

---

(١) الجماز : لقب له ؛ ومعناه الوثاب ؛ واسمه محمد بن عمرو بن عطاء ؛ شاعر أديب بصرى ؛ وكان ماجنا خبيث اللسان ذا نادرة ؛ وكان أكبر سنا من أبى نواس ؛ دخل بغداد فى أيام المتوكل ؛ وقد أعجب به المتوكل يوما فأمر له بعشرة آلاف درهم ؛ فأخذها وانحدر ، فمات فرحا بها ؛ (تاريخ بغداد ٣ : ١٢٥ـ١٢٦) .

(٢) الكرع : أن يشرب الرجل بفيه من النهر ، والجريال : صفوة الخمر .

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَدْلَجُوا ... بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ(١)
مَسَاحِيبُ مِنْ جَرِّ الزِّقَاقِ عَلَى الثَّرَى ... وَأَضْغَاثُ رَيْحَانٍ: جَنِيٌّ وَيَابِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ ... وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لَحَابِسُ
وَلَمْ أَدْرِ مَنْ هُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَتْ بِهِ ... بِشَرْقِيِّ سَابَاطَ الدِّيَارُ الْبَسَابِسُ(٢)
أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا ... وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرَحُّلِ خَامِسُ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهًا تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ(٣)
[٦٠ و] / فَلِلْخَمْرِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ... وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

قال الجاحظ: فأنشدتُها أبا شعيب القَلّال(٤) فقال: يا أبا عثمان، لو نُقِر هذا الشعر لطَنَّ! قلت: ويلك! ما تفارق الجرار والخزف حيث كنت!.

قال سيدنا أيده الله: أخذ أبو نواس قوله:

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ هُمْ غَيْرَ مَا شَهِدَتْ بِهِ ... بِشَرْقِيِّ سَابَاطَ الدِّيَارُ الْبَسَابِسُ

من قول أبي خِراش الهُذَليّ:

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ ... سِوَى(٥) أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضِ

ويقال إن أبا خِراش أوّل مَن مدح مَنْ لا يعرفه، وذلك أن خِراش بن أبي خِراش أُسِر هو وعروة بن مرة، فطرح رجل من القوم رداءه على خِراش حين شغِل القوم بقتل عروة ونجّاه. فلما تفرغوا له قال: أفلت منّي، ويقال: بل رآه في الأَسْر رجلٌ من بني عمه، فألقى عليه رداءه لِيُجيرَه به، وقال له: النجاء ويلك! فقال أبو خِراش في ذلك:

حَمِدْتُ الإلهَ(٦) بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا ... خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

---

(١) ديوانه: ٢٩٥، والكامل ـ بشرح المرصفي ٧: ٤٠. (٢) البسابس: الخوالي، وساباط: موضع ببلاد فارس. (٣) تدريها: تختلها. (٤) حاشية ت: «أبو شعيب هذا صقر بن عبد الرحمن القلال». (٥) ت: «ولكنه». (٦) الأبيات من قصيدة في (ديوان الهذليين ٢: ١٠٧ــ١٠٨، وأمالي القالي ١: ٢٧١، ديوان الحماسة ٢: ٢٨٠ــ٢٨٤، والشعر والشعراء ٦٤٧ــ٦٤٨).
(٧) من نسخة بحاشية ت: «إلهي».

فأقسمت لا أنسى قتيلاً رُزِئتُهُ   بجانبِ قُوسَى(1) مامَشيتُ على الأرضِ
على أنّها تعفو الكُلُومُ وإنّما   نُوَكَّلُ بالأدنى وإنْ جلَّ مايَمضِي
ولمْ أدرِ مَنْ ألقَى عليهِ رِدَاءَهُ   سِوى أنّهُ قدْ سُلَّ عنْ ماجدٍ مَحْضِ

وأخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانِيّ قال حدثنى إبراهيم بن محمد بن شهاب قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن عمر البرذعىّ المتكلم قال: صِرْتُ إلى منزل الجاحظ فى أول ماقدِمْتُ من بلدى، وقد اعتل علته التى فُلِج فيها، فاستأذنتُ عليه، فخرج إلىَّ خارجٌ من منزله، فقال لى: يقول لك: وما تصنعُ بشِقٍّ مائل، ولُعاب سائل! فانصرفت عنه.

وذكر يموت بن المزرّع قال: وجّه المتوكل فى السنة التى قُتِل فيها أن يُحمَل إليه الجاحظ من البصرة، وسأله الفتحُ ذلك، فوجدَه لافضلَ فيه(2)، فقال لمن أراد حمله: وماتصنع بامرئٍ ليس بطائل، ذى شِقٍّ/مائل، ولعاب سائل، وفَرْج بائل، وعقل زائل، ولون حائل! . [٦٠ ظ]

وذكر المبرد قال: سمعت الجاحظَ يقول: أنا من جانبي الأيسر مَفْلوج، فلو قرِض بالمقاريض ماعلمتُ، ومن جانبي الأيمنِ مُنْقَرِسٌ، فلو مرَّ به الذباب لآلَمْتُ، وبى حصاة لاينسرح لى البول معها، وأشد ماعلىَّ ست وتسعون!

وقال يوماً لمتطبب يشكو إليه علته: قد اصطلحتِ الأضداد إلى جسدى، إن أكلت بارداً أخذ برجْلى، وإن أكلت حاراً أخذ برأسى. وتوفى فى سنة خمس وخمسين ومائتين.

---

(1) كذا ضبط فى ت؛ بضم القاف وفتح السين؛ وضبط فى معجم البلدان بفتح القاف وسكون الواو؛ وزان «سكرى»، وهى بلد بالسراة.

(2) حاشية الأصل: «من نسخة»: «لافضل عنده».

مجلس آخر [١٤]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ؛ [البقرة : ١٧٧].

فقال : كيف ينفِي كونَ تولية الوجوه إلى الجهات من البرّ ، وإنما يُفعل ذلك في الصلاة، وهي برّ لامحالة ؟ وكيف خبّر عن البرّ «بمَنْ» والبرُّ كالمصدر ، و«مَن» اسم مَحْضٌ ؟ وعن أىّ شيء كَنَى بالهاء في قوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾؟ وماالمخصوصُ بأنها كناية عنه وقد تقدمت أشياء كثيرة ؟ وعلى أىّ شيء ارتفع ﴿ الْمُوفُونَ ﴾؟ وكيف نصب ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ ، وهم معطوفون على الموفين ؟ وكيف وحّد الكناية في مواضع وجَمَعها في أخر ؟ فقال : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ و ﴿ آتَى الْمَالَ ﴾ و ﴿ أَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾، ثم قال: ﴿ وَالْمُوفُونَ ﴾، و﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ ؟.

يقال له : فيا ذكرتَه أوّلاً جوابان :

أحدُهما أنّه أراد تعالى : ليس الصّلاة هي البرّ كلّه ؛ لكنه ماعُدِّد في الآية من ضروب الطاعات وصنوف الواجبات ، فلا تظنوا أنكم إذا توجّهتم إلى الجهات بصلاتكم ، فقد أحرزتُمُ البرَّ بأسره ، وحزتموه بكماله ، بل يبقى عليكم بعد ذلك معظمُه وأكثره .

والجواب الثاني أن النّصارى لما توجّهوا إلى المشرق ، واليهود إلى بيت المقدس، واتخذوا

هاتين الجهتين قبلتين ، واعتقدوا فى الصلاة إليهما أنهما / برٌّ وطاعة خلافاً على الرسول صلى [٦٦ و] الله عليه وآله أكذبَهم الله تعالى فى ذلك ، وبيَّن أن ذلك ليس من البر ، إذ كان منسوخاً بشريعة النبى صلى الله عليه وآله؛ التى تلزم الأسود والأبيض ، والعربى والعجمىّ ، وأن البرّ هو ما تضمنتْه الآية .

فأما إخباره «بمن» ففيه وجوه ثلاثة :

أولها أن يكون معنى «البرّ» ههنا البارّ وذا البرّ ، وجعل أحدَها فى مكان الآخر؛ والتقدير: ولكنّ البارّ مَنْ آمن بالله؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ ؛ [الملك : ٣٠] ، يريد غائرا ، ومثل قول الشاعر :

تَرْتَعُ مارَتَعَتْ حتّى إذا ادَّكَرَتْ … فإنّمـا هِىَ إقبالٌ وإدْبارُ (١)

أراد أنها مقبلة مدبرة ، ومثله :

تَظَلُّ جيادُهُمْ نَوْحاً عليهِمْ … مُقلَّدَةً أعِنَّتَها صُفُونا (٢)

أراد نائحة عليهم ، ومثله قول الشاعر :

هَرِيقِى مِنْ دموعهما سِجاماً … ضُبَاعَ (٣) وجاوِبى نَوْحاً قِياما

والوجه الثانى أن العرب قد تُخْبِر عن الاسم بالمصدر والفعل ، وعن المصدر بالاسم ، فأمّا إخبارهم عن المصدر بالاسم فقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ ، وقول العرب : إنما البِرُّ الذى يصل الرحمَ ويفعل كذا وكذا ، وأما إخبارُهم عن الاسم بالمصدر والفعل فمثل قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما الفِتْيانُ أنْ تَنْبُتَ اللِّحَى … ولـكِنَّما الفِتْيانُ كُلُّ فَتى نَدِ (٤)

(١) البيت للخنساء ؛ ديوانها : ٧٨ ، والكامل — بشرح المرصفى ٨ : ١٧٦ ، واللسان ١٩ : ١٣٠ ، وتاج العروس ٨ : ٧٣ ، وخزانة الأدب ١ : ١٣٨ ، وهو فى وصف بقرة وحشية ، وقبله :

فما عجولٌ على بَوٍّ تُطِيفُ بهِ … لَهَا حنينانِ إصغارٌ وإكبارُ

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم ؛ من المعلقة — بشرح التبريزى : ٢١٧ ؛ وانظر ص ١٠٥ من هذا الجزء .

(٣) ضباع : اسم امرأة ؛ وأصله : « ضباعة » .   (٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « مقرر =

فجعل « أن تنبتَ » وهو مصدر خبرًا عن الفتيان .

والوجه الثالث أن يكون المعنى : ولكن البرَّ برُّ مَنْ آمنَ ؛ فحذف البرّ الثانى ، وأقام « مَنْ » مَقامه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ ؛ [البقرة : ٩٣]، أراد: حبّ العجل، قال الشاعر :

وكيفَ تُواصِلُ مَنْ أصبحتْ　　　خُلَالَتُهُ كأبي مَرْحَبِ (١)

أراد : كخُلالة أبي مَرْحَبِ ؛ وقال النابغة :

[٦٦ ظ] /وقدْ خِفْتُ حتّى ما تَزِيدُ مخافتى　　　على وعِلٍ فى ذِى المَطَارَةِ عاقلِ (٢)

أراد على مخافة وَعِلٍ . وتقولُ العرب : بنو فلان يطؤُهم الطريق ، أى أهل الطريق . وحُكِيَ عن بعضهم: أطيبُ النّاس الزُّبْد ، أى أطيبُ ما يأكلُ (٣) الناس الزُّبد ، وكذلك قولهم: حَسِبْتُ صَباحى زيداً ، أى صَباحَ زَيد ، وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ ؛ [النور: ٦١] ، أى ليس على مَنْ أكل مع الأعمى حرج، وفى قوله تعالى: ﴿وَرَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾، [الكهف : ٢٢] ، وذكروا أنه كان راعياً يَتبعهُمْ .

فأما مَن كنى عنه بالهاء فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ ففيه وجوه أربعة :

== فى الصناعة أن يكون المبتدأ والخبر هو هو ؛ أو مايقوم مقام ذلك ويجرى مجراه ؛ وهو احتراز من قولك مثلا : أبويوسف أبو حنيفة ؛ يعنى يقوم مقامه ؛ فإذا كان كذلك فالواجب أن يكون الجزءان من المبتدأ والخبر جثتين أو حدثين ؛ حتى لاينخرم هذا الأصل الذى أصلوه ؛ فإذا وجدت شيئا من ذلك قد اختلف فإنما هو على ضرب من الاحتمال والمجاز ؛ كقولك : الهلال الليلة ؛ لأن التقدير حدوث الهلال الليلة ؛ كأن التقدير : حدوث الهلال وقع الليلة ؛ فالواقع هو الحدوث ، والحدوث هو الواقع . والبيت المستشهد به ، التقدير فيه : لعمرك مافتوة الفتيان ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، والتقدير : مافتوة الفتيان نبتة اللحى » .

(١) خلالته : مودته ، وأبو مرحب كناية عن الظل ، والبيت للنابغة الجعدى ، وقبله :

وبعضُ الأخلاَّءِ عندَ البلا　　　ءِ والرُّزْءِ أرْوغُ من ثَعْلَبِ

وانظر اللسان (رحب) .

(٢) ديوانه : ٦٤ ، ومعجم البلدان ٨ : ٨٤ . وذو المطارة : اسم جبل ؛ وعاقل : متحصن ، وفى حواشى الأصل، ت ، ف : « يمكن أن تجعل « ما » فى البيت زيادة، والتقدير : حتى تزيد : ويمكن أن يكون على القلب ؛ أى ماتزيد مخافة وعل على مخافتى ؛ وهو كثير ، والوعل : الضأن الوحشى » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « ماأكل الناس » .

أولُها : أن تكون الهاء راجعةً على المال الذى تقدم ذكرُه ، ويكون المعنى : وآتى المالَ على حبِّ المال ، وأضيف الحب إلى المفعول ، ولم يذكر الفاعل : كما يقول القائل : اشتريت طعامى كاشتراء طعامك ، والمعنى كاشترائك طعامك .

والوجه الثانى أن تكون الهاء راجعةً إلى ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل ، ولم يذكر المفعول لظهور المعنى ووضوحه .

والوجه الثالث أن تَرجِعَ الهاء إلى الإيتاء الذى دلَّ ﴿ آتَى ﴾ عليه، والمعنى: وأعطى المال على حبِّ الإعطاء ، ويجرى ذلك مجرى قول القُطامىِّ :

هُمُ المُلوكُ وأبناء المُلوكِ لَهُم[1]   والآخِذُونَ بِهِ والسَّاسةُ الأُوَلُ[2]

فكنّى بالهاء عن الملك ، لدلالة قوله : « الملوك » عليه ، ومثله قول الشاعر :

إذَا نُهِىَ السَّفيهُ جَرَى إليه   وخالَفَ والسَّفيهُ إلى خِلَافِ[3]

أراد : جرى إلى السَّفَه الذى دلَّ ذِكْرُ السفيه عليه .

والوجه الرابع: أن تكون الهاء ترجع إلى الله تعالى ؛ لأن ذكره تعالى قد تقدم ، فيكون المعنى: وآتى المال على حبِّ الله ذوِى القربَى واليتامى. فإن قيل: فأىُّ فائدة فى ذلك ، وقد علمنا الفائدة فى إيتاء المال مع محبته والضَّنِّ به ، وأن العطيةَ تكون أشرفَ وأمدحَ ، فما الفائدةُ فيما ذكرتموه ؟ وما معنى محبة الله ، والمحبة عندكم هى الإرادة ، والقديم تعالى لا يصح أن يراد ؟ .

قلنا : أما المحبة عندنا فهى الإرادة ، إلاَّ أنهم يستعملونها كثيراً مع حذف متعلّقها مجازاً
[٩٧ و] وتوسعاً ، فيقولون : فلان يحب زيداً، إذا أراد منافعه ، ولا يقولون : زيد / يريد عمراً ؛ بمعنى

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « هم » .   (٢) جمهرة الأشعار : ٣١٦ ؛ وهو آخر قصيدته التى مطلعها :

إنا محيّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ   وإنْ بَلِيتَ وإنْ طَالَتْ بكَ الطِّوَلُ

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « الخلاف » ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « المخلاف » .

أنه يريد منافعه ، لأن التعارُف جرى فى استعمال الحذف والاختصار فى المحبة دون الإرادة ، وإن كان المعنى واحداً .

وقد ذُكِر أن لقولهم: زيد يحب عمراً مزيةً على قولهم: يريد منافعه، لأن اللفظ الأول ينبئ عن أنه لا يريد إلا منافعَه ، وأنه لا يريد شيئاً من مضاره ، والثانى لا يدلُّ على ذلك ، فحصَلت له مزيةٌ ؛ وعلى هذا المعنى نَصِفُ الله تعالى بأنه يحب أولياءه والمؤمنين من عباده ؛ والمعنى فيه أنه يريد لهم ضروب الخير ، من التعظيم والإجلال والنعم ؛ فأما وصف أحدِنا بأنه يحب اللهَ تعالى فالمعنى فيه أنه يريد تعظيمَه وعبادته والقيام بطاعته ، ولا يصحّ المعنى الذى ذكرناه فى محبة العباد بعضِهم بعضاً ؛ لاستحالة المنافع عليه . ومَنْ جوّز عليه تعالى الانتفاع لا يصحُّ أيضا أن يكونَ محباً له على هذا المعنى ، لأنه باعتقاده ذلك قد خرج من أن يكون عارفاً به ، فمحبته فى الحقيقة لا تتعلّق به ولا تتوجه إليه ؛ كما نقول فى أصحاب التشبيه : إنّهم إذا عبدوا مَن ِاعتقدوه إلها فقد عبدوا غير الله تعالى .

فأما الفائدة فى إعطاء المال مع محبة الله تعالى فهى ظاهرة ؛ لأن إعطاء المال متى قارنَته إرادةُ وجه الله وعبادته وطاعته استُحِقّ به الثواب ، ومتى لم يقترن به ذلك لم يستحق الفاعلُ به ثواباً ، وكان ضائعا . وتأثيرُ ما ذكرناه أبلغ من تأثير حبّ المال والضَّنّ به ؛ لأن المحبَّ للمال / الضنينَ به متى بذله وأعطاه ، ولم يقصد به الطاعة والعبادة والقربة لم يستحق به شيئاً [٦٧ ظ] من الثواب ؛ وإنما يُؤثّر حُبُّه للمال فى زيادة الثواب؛ متى حصل ما ذكرناه من قصد القُربة والعبادة ، ولو تقرب بالعطية ، وهو غيرُ ضنين بالمال، ولا محبّ له لاستحقّ الثواب . وهذا الوجه لم نُسبق[١] إليه فى هذه الآية ، وهو أحسن ما قيل فيها .

وقد ذُكِر وجه آخر ؛ وهو أن تكون الهاء راجعةً إلى ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ أيضا ، وينتصب ذوِى القربى بالحبّ ، ولا يجعل « لآتى » منصوباً لوضوح المعنى ، ويكون تقدير الكلام : وأعطى المال فى حال[٢] حبه ذوِى القربى واليتامى ، على محبّتهِ أياهم : وهذا الوجه ليس فيه

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « لم يسبق » . (٢) ت « على حبه » ، وفى حاشية ت أيضا (من نسخة) : « على حال حبه » .

مَزية فى باب رجوع الهاء التى وقع عنها[1] السؤال ، وإنما يتبين مما تقدم بتقدير انتصاب ذوِى القربى بالحب ، وذلك غير ما وقع السؤال عنه ؛ والأجوبةُ الأول أقوى وأولى .

فأما قوله: ﴿ وَالْمُوفُونَ ﴾ ، ففى رفعه وجهان :

أحدها أنْ يكون مرفوعاً على المدح ؛ لأنَّ النعتَ إذا طالَ وكثُر رُفِع بعضُه ، ونُصِبَ بعضُه على المدح ؛ ويكون المعنى : وهم الموفون بعهدهم، قال الزجّاج : وهذا أجودُ الوجهين.

والوجه الآخر أن يكونَ معطوفاً على ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ ، ويكون المعنى : ولـكنَّ ذا البرِّ وذوِى البرِّ المؤمنون والموفون بعهدهم .

فأما نصب ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ ففيه وجهان :

أحدها المدْح ، لأن مذهبهم فى الصفات والنعوت إذا طالتْ أن يعترضوا بينها[2] بالمدح أو الذم ، ليميِّزُوا الممدوح أو المذموم ويفردوه ، فيكون غيرَ متبع لأول الـكلام ؛ من ذلك قولُ الخِرنق بنت بدر بن هِفّان :

لا يَبْعَدَنْ قومى الَّذينَ هُمُ سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُزْرِ[3]
النَّازِلينَ بكُلِّ مُعْتَرَكٍ والطَّيِّبينَ مَعاقِدَ الأُزْرِ

فنصبتْ ذلك على المدح ، وربما رفعوهما جميعاً ، على أن يتبع آخرُ الـكلام أولَه ؛ ومنهم مَنْ ينصب « النازلين » ويرفع « الطيبين » ، وآخرون يرفعون « النـازلين » وينصبون « الطيبين » ؛ والوجه فى النصب والرفع ما ذكرناه ، ومن ذلك قول الشاعر، أنشده الفراء :

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمامِ ولَيْثِ الـكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ
وذَا الرَّأْيِ حينَ تَغُمُّ الأُمورُ بذاتِ الصَّليلِ وذاتِ اللُّجُمْ

فنصب « ليث الـكتيبة وذا الرأى » على المدح . وأنشد الفرّاء أيضاً :

---

(١) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : «عنها» .

(٢) ش ، حاشية ت (من نسخة) : « فيها » . (٣) ديوانها : ١٢ ، واللآلى ٥٤٨ ، ونوادر أبى زيد ١٠٨ ، والـكامل ــ بشرح المرصفى ٦ : ١٠٨ .

فَلَيتَ التى فيها النُّجومُ تَوَاضَعَتْ على كُلِّ غَثٍّ مِنهُمُ وسَمِينِ
غُيوثُ الحَيَا فى كُلِّ مَحْلٍ ولَزْبَةٍ أُسُودُ الشَّرَى يَحْمِينَ كُلَّ عَرِينِ(١)

ومما نصب على الذم قوله :

سَقَوْنِى الخَمْرَ ثمّ تَكَنَّفُونِى عُدَاةَ اللهِ مِنْ كَذِبٍ وزُورِ(٢)

والوجه الآخر فى نصب : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أن يكون معطوفاً على ذوِى القربى ، ويكون المعنى : وآتى المال على/ حبه ذوى القربى والصابرين ؛ قال الزجّاج : وهذا لايصلح إلّا أن [٦٨ و]
يكون ﴿والموفُون﴾ رُفِعَ(٣) على المدح للمضمَرِين ، لأن ما فى الصلة لايعطَف عليه بَعْدَ العطف على الموصول ، وكان يقوى الوجه الأول .

وأما توحيد الذِّكْر فى موضع وجمعُه فى آخر ؛ فلأن ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ لفظه لفظ الوَحْدة ، وإن كان فى المعنى للجميع(٤) فالذِّكْر الذى أتى بعده موحَّداً أُجرِيَ على اللفظ ، وما جاء من الوصف بعد ذلك على سبيل الجمع مثل قوله تعالى: ﴿ وَالْمُوفُونَ ﴾ ، ﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴾ فعلَى المعنى .

وقد اختلفتْ قراءة القرّاء(٥) السبعة فى رفع الراء ونصبها من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ ﴾ ، فقرأ حمزة وعاصم فى رواية حفص ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ ﴾ بنصب الراء ، وروى هُبَيْرَةُ عن حفص عن عاصم أنه كان يقرأ بالنصب والرفع ، وقرأ الباقون بالرفع ، والوجهان جميعا حسنان ؛ لأنّ كلّ واحد من الاسمين : اسم ليس وخبرها معرفة ، فإذا اجتمعا فى التعريف

---

(١) اللزبة : الشدة ، والشرى : مأسدة بناحية الفرات . (٢) البيت لعروة بن الورد ، ديوانه : ٤٨ ؛ وهو فى (الكتاب ١ : ٢٥٢) ؛ من أبيات يصف فيها ما كان من فعل قوم امرأته حين احتالوا عليه وسقوه الخمر ؛ حتى أجابهم إلى مفاداتها ؛ وكانت سبية عنده ؛ (وانظر الخبر والأبيات فى الأغانى ٣ : ٧٥ــ٧٧ ــ طبعة دار الكتب المصرية) . (٣) ش ، وحاشية ت (من نسخة) : « رفعا » . (٤) من نسخة بحاشيتى ت ، الأصل : « للجمع » .
(٥) ت : « القرأة » .

تكافأا فى جواز كون أحدهما اسما والآخر خبراً ؛ كما تتكافأ النكرات[١] .

وحجة مَن رفع «البرُّ» أنه : لأنْ يكون «البرُّ»[٢] الفاعلَ أولى ؛ لأنّه ليس يشبه الفعل ، وكونُ الفاعل بعد الفعل أولى من كون المفعول بعده ؛ ألا ترى أنّك إذا قلتَ : قام زيد ، فإن الاسم يَلِى الفعل . وتقول : ضرب غلامَه زيدٌ ، فيكون التقديرُ فى الغلام التأخير ، فلولا أن الفاعل أخصُّ بهذا الموضع لم يجز هذا ؛ كما لم يجزْ فى الفاعل : ضرب غلامُه زيداً ، حيث لم يجز فى الفاعل تقديرُ التأخير ؛ كما جاز فى المفعول به ، لوقوع الفاعل موقعَه المختص به .

وحجة مَن نصب « البرّ » أن يقول : كون الاسم أن وصلتَها أَوْلَى لشَبَهها بالمضمر فى أنها لا توصف ، كما لا يوصف المضمر ؛ فكأنه اجتمع مضمرٌ ومظهر ؛ والأَولَى إذا اجتمعا أن يكون المضمرُ الاسم من حيث كان أذهبَ فى الاختصاص من المظهر .

* * *

حدثنا أبو القاسم عُبيد الله بن عثمان بن يحيى بن جَنِيقا الدقاق قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الحكيمىّ الكاتب قراءةً عليه قال أملى علينا أبو العباس أحمد بن يحيى النحوىّ ثعلب قال أخبرنا ابن الأعرابىّ قال قال ابن الكلبىّ : لمّا كان بعدَ يومِ الهَباءة جاور قَيْس ابن زهير النَّمِر بن قاسط فقال لهم : إنى / قدْ جاورتُكم واخترتُكم ، فزوّجونى امرأةً قد [٦٨ ظ] أدّبها الغِنى ، وأذلّها الفقر ، فى حَسَب وجمالٍ ؛ فزوّجوه ظَبْية بنت الكَيِّس النَّمِرِىّ . وقال لهم : إنَّ فىّ خلالًا ثلاثاً ؛ إنى غيورٌ ، وإنى فَخورٌ ، وإنى أَنِف ، ولست أفخَر حتى أبْدَأ ، ولا أغار حتى أرى ، ولا آنف حتى أُظْلَم .

فأقام فيهم حتى وُلِد له ، فلما أراد الرحيل عنهم قال : إنى موصيكم بخِصال ، وناهيكم عن خِصال ؛ عليكم بالأناة ، فإن بها تُنال الفرصة ، وتَسْويدِ من لا تعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء ؛ فإنّ به يعيش الناسُ ، وبإعطاء مَنْ تريدون إعطاءه قَبْلَ المسألة ، ومَنْعِ مَنْ تريدون

---

(١) حاشية ت : « لا يجوز أن يكون اسم ليس وخبرها نكرتين ؛ فلا أدرى كيف يتكافأان ! ولعله يريد التكافؤ فى غير هذا الموضع » . (٢) ت : « الاسم » .

منعه قبل الإلحاح ، وإجارَة الجار على الدهر ، وتنفيس المنازل عن بيوت الأيامَى[١] ، وخَلْطِ الضَّيف بالعيال ؛ وأنهاكم عن الرِّهان؛ فإنّ[٢] به ثَكِلْتُ مالكاً أخى ، والبغى ، فإنّه قتل زهيراً أبى ، وعن الإعطاء فى الفُضول فتعجِزوا عن الحقوق ، وعن الإسراف فى الدِّماء ، فإنّ يوم الهَباءة ألزمنى العارَ حَقَّه ، ومنع[٣] الحُرَم إلّا من الأكفاء ؛ فإن لم تصيبوا لها[٤] الأكفاء فإن خيرَ مناكحها القبور ، أو خيرَ منازلها؛ واعلموا أنّى كنت ظالماً مظلوماً ؛ ظلمنى بنو بدر بقتلِهم مالكاً أخى ، وظلمتهم بأنْ قتلت مَنْ لا ذنب له .

قال سيدنا المرتضى أدام الله علوّه : أما قوله : « أنهاكم عن الرِّهان » فأراد المراهنة فى سِباق الخيل ، وذلك أنّ قيس بن زهير راهن حُذيفة بن بدر الفَزاريّ على فرسَيْه : داحِسٍ والغبراء ، وفرسيْ حُذيفة : الخطّار والحنْفاء ـ وقال بعضُ بنى فَزارة : بل قُرْزُل والحنْفاء ـ وكان قيسٌ كارهاً لذلك ؛ وإنما هاجه بينهما بعضُ بنى عبد الله بن غطفان ـ وقيل : بل رجل من بنى عبس ـ والخبر فى شرح ذلك مشهور[٥]؛ ثم وقع الاتفاق على السِّباق، وجعلوا الغاية من واردات[٦] إلى ذات الإصاد[٧] ، وجعلوا القَصَبة[٨] فى يد رجل من بنى ثعلبة بن سعد ، يقال له حُصين ، وبيد رجل من بنى العُشَراء من بنى فزارة ، وملئوا البركة ماء ، وجعلوا السابقَ أوّلَ الخيل يكْرَع فيها . ثم إنّ حُذَيفة بن بدر وقيس بن زهير أتيا المَدَى الذى أرسلت الخيل منه[٩] ينظران إليها وإلى خروجها ؛ فلما أُرْسِلَتْ عارضاها ، فقال حذيفة : خدعتُك

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « اليتامى » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « فإنى » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « وعليكم بمنع الحرم » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « لهن » . (٥) هو خبر الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء ؛ وهى تشمل يوم المريقب ، ويوم ذى حسا ، ويوم اليعمرية ، ويوم الهباءة ، ويوم الفروق ، ويوم قطن ، ويوم غدير قلهى ، وانظر تفصيل الخبر وما قيل فيه من الشعر فى (العقد ٥ : ١٥٠ـ١٦٠ ، والأغانى ١٦ : ٢٣ـ٣٢ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٣٠٦ـ٣٠٨ ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزى ١ـ٢٩٧ـ٢٩٨ ، ٣ : ٣٤ـ٤٢ ، وابن الأثير ١ : ٣٤٣ـ٣٥٠ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٥١ـ٦١ ، وشرح العيون ٨٩ـ٩١ ومعجم البلدان ـ إصاد ، هباءة ، وشرح النقائض ٨٣ـ١٠٨) . (٦) واردات : موضع عن يسار طريق مكة . (٧) ذات الإصاد : ردهة فى ديار عبس . (٨) حاشية ت (من نسخة) : « القضبة » وهو تحريف (١) حاشية الأصل (من نسخة) : « فيه » .

ياقيس ، فقال قيس : « تَرْكُ الخِداعِ مَنْ أجرَى من مائة » ؛ يعنى من مائة غلوة ، فأرسَلها مثلا ، ثم / ركَضا ساعة، فجعلت خيلُ حذيفة تتقدّمُ خيلَ قيس ، فقال حذيفة : سُبِقْتَ يا قيس ؛ فقال قيس : « جَرْىُ المذكِّيات غِلاب » ، فأرسلها مثلا ـ والمذكِّيات : المسانُّ من الخيل[١] ـ وروى : « غِلاء » كما يُتغالى[٢] بالنَّبـل. ثم ركَضا ساعة، فقال حُذَيفة : إنّك لا تَرْكُضُ مَرْكَضاً ، سُبِقَتْ خيلُك ؛ فقال قيس : « رُوَيدَ يعلُون الجَدَد » ، فأرسلها مثلا وروى : « يَعْدُون الجَدَد » ، أى يتعدَّيْن الجَدَد إلى الوَعْث[٣] . [٦٩ و]

وقد كان بنو فَزارة أكْمَنوا بالثَّنِيّة كميناً لينظروا ؛ فإن جاء داحسٌ سابقاً أمسكوه وصدّوه عن الغاية ؛ فجاء داحسٌ سابقاً ، فأمسكوه، ولم يعرِفوا الغبراء وهى خَلْفه مُصَلِّيَة حتى مضت الخيلُ ، وأسهلَتْ من الثَّنِيّة، ثم أرسلوه فتمطّرَ[٤] فى آثارها، فجعل يبدُرها[٥] فرساً فرساً ، حتى انتهى إلى الغاية مصلِّيّاً[٦] ، وقد طَرَح الخيلَ غيرَ الغَبْراء ، ولو تباعدت الغايةُ سبَقها[٧] . فاستقبلتْها بنو فَزارة فلَطموها ، ثم حَلّئوها[٨] عن البِرْكَة ، ثم لطموا داحساً ، وقد جاءا متواليَيْن ، ثم جاء حُذيفة وقيس فى آخر الناس ، وقد دفعتْهم بنو فَزارة عن سبْقِهم ، ولطموا فرسَيْهم[٩] ، وجرى من الخُلْف فى أخذ السبق ماقد شرحتْه الرواة .

وقد قيل فى بعض الروايات : إن الرهان والسَّبْق[١٠] كان بين حَمَل بن بدر وبين قيس، وفى ذلك يقول قيس :

---

(١) أى أن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوته ،وفى مجمع الأمثال (١ : ١٤٤) : « يجوز أن يراد أن ثانى جريه أبداً أكثر من باديه وثالثه أكثر من ثانيه ؛ فكأنه يغالب بالثانى الأول وبالثالث الثانى ؛ فجريه أبداً غلاب » . (٢) حاشية الأصل : « المغالاة : الرمى فى الهواء » .

(٣) الجدد : الأرض الصلبة ، والوعث : السهلة . (٤) يقال : تمطرت الخيل إذا ذهبت مسرعة .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « يندرها » ، أى يسقطها .

(٦) المصلى من الخيل : التالى للسابق . (٧) ت : « لسبقها » .

(٨) حلئوها عن البركة ؛ أى منعوها من ورد الماء . (٩) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « فرسيهما » . (١٠) ش ، ونسخة بحاشية الأصل : « السباق » .

كما لاقيتُ مِنْ حَمَلِ بنِ بَدْرٍ ... وإخوته على ذاتِ الإصادِ
هُمُ فَخَرُوا عليَّ بغيرِ فَخْرٍ ... وردُّوا دُونَ غايته جَوادِي
وقدْ دَلَفُوا إليَّ بفِعْلِ سَوْءٍ ... فألفَوْنِي امْهُمْ صَعْبَ القِيادِ[1]
وكُنتُ إذا مُنِيتُ بخَصْمِ سَوْءٍ ... دَلَفْتُ لهُ بداهيةٍ نآدِ[2]

ثم إن قيساً أغارَ على عوف بن بدر فقتله وأخذ إبله ، فبلغ ذلك بنى فَزارة فهمُّوا بالقتال، فحمل الربيع بن زياد العبسيّ دِيَةَ عوف، مائةَ عُشَرَاءَ مُتْلِيةٍ[3] .

ويقال إن قيساً قتل ابناً لحُذَيْفَة، يقال له مالك، وأن حذيفة كان أرسله إليه يطلبُ منه السَّبَق[4]، فطعنه فدقّ صُلْبَه ، وإن الربيع بن زياد حمل ديتَه مائة عُشَراء ، فسكن الناس عن القتال .

ثم إن مالك بن زهير نَزل موضعاً يقال له اللُّقَاطة[5] / قريبا من الحاجر ، ونكح امرأة يقال [٦٩ ظ] لهـا مُلَيكَة بنت حارثة، من بنى غراب من فَزارة ، فبلغ ذلك حذيفة بن بدر ، فدسّ إليه فُرساناً فقتلوه ، وكان الربيع بن زياد العبسيّ مجاوراً لحُذَيفة بن بدر، وكانت تحت الربيع مُعاذة بنت بدر ، فلما وقف على الخبر قال :

نامَ الخَلِيُّ وما أُغَمِّضُ[6] حارِ ... مِنْ سَيِّئِ النَّبأِ الجَلِيلِ السَّارِي
مِنْ مِثْلِهِ تُمْسِي النِّساءُ حَوَاسِراً ... وتَقُومُ مُعْوِلَةً مع الأسْحارِ[7]

---

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الدلوف : تقارب الخطو ؛ مثل مشى الشيوخ ؛ ولا يستعمل إلا فى الذم » . (٢) نآد: صعبة . (٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « العشراء : الناقة التى يأتى على حملها عشرة أشهر ؛ فتكون أقوى بولدها ؛ وجمعها : عشار . ومتلية ؛ أى تتلوها أولادها » .

(٤) السبق : المال المخاطر عليه . (٥) اللقاطة : موضع قريب من الحاجر ؛ من منازل بنى فزارة ذكره ياقوت ؛ وقال إنه قتل فيه مالك بن زهير .

(٦) رواية الحماسة : « لم أغمض » ، والتغماض : النوم بعينه .

(٧) م : « تمشى » ؛ قال التبريزى : « وتمسى أجود ؛ لأن طبقه : « وتقوم معولة مع الأسحار » ، فكأنه قال : « تمسى حواسر وتصبح بواكى » ، « وحواسرا » ؛ أى يأتى عليهن المساء وقد طرحن خمرهن ؛ فعل النساء يصبن بكبار قومهن.

مَنْ كانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مالِكٍ ... فَلْيأْتِ نِسْوَتَنا بِوَجْهِ نَهارِ(١)
يَجِدِ النِّساءَ حَواسِراً يَنْدُبْنَهُ ... يَضْرِبْنَ أَوْجُهَهُنَّ بالأَسْحارِ(٢)
قَدْ كُنَّ يَخْبَأْنَ الوُجُوهَ تَسَتُّراً ... فاليَوْمَ حِينَ بَدَوْنَ لِلنُّظَّارِ(٣)
أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مالِكِ بنِ زُهَيْرٍ ... تَرْجُو النِّساءُ عَواقِبَ الأَطْهارِ(٤)
ما إنْ أَرَى فى قَتْلِهِ لِذَوِى الحِجَى ... إلاَّ المَطِىَّ تُشَدُّ بالأَكْوارِ(٥)
ومُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفَةً ... يَقْذِفْنَ بالمُهُراتِ والأَمْهارِ(٦)
ومُساعِراً صَدَأُ الحَدِيدِ عليهِمُ ... فكأَنَّما طُلِىَ الوُجُوهُ بِقارِ(٧)

***

فأمَّا مقتل زُهَيْر بن جَذِيمة العبسىّ أبى قيس ، فاختلفت الرُّواةُ فى سببه ، فيقال إنّ هَوازن

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « تقد عليه ذكر الإتيان مع النسوة » ؛ ورواية المرزوق فى الحماسة : « فليأت ساحتنا » ، قال : وأكثر من رأيناه يروى : « فليأت نسوتنا » ؛ ورأيت الأستاذ الرئيس أبا الفضل بن العميد يقول : إنى لأتعجب من أبى تمام مع تكلفه رم جوانب مايختاره من الأبيات ، وغسله من درن الألفاظ ، كيف ترك تأمل قوله : « فليأت نسوتنا » ؛ وهذه لفظة شنيعة » ؛ ووجه النهار : صدره. (٢) ت : « بالأسحار » ، وهى رواية الحماسة ، وفى د. ونسخة بحاشية الأصل : « بالأسيار ».

(٣) ف ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « برزن » ؛ وهى رواية الحماسة . ت : « قد أبرزن ».

(٤) المراد بعواقب الأطهار مراجعة الأزواج إلى أزواجهن بعقب أطهارهن ؛ وفى حواشى الأصل ، ت ، ف ، تعليقا على قوله : « زهير » ، بإسكان الياء : « جعل عروض الضرب الثانى من الكامل مقطوعة ، وردها من متفاعلن إلى فعلاتن » ؛ وهذا الحذف يسميه المتأخرون القطع ، وسماه الخليل الإقعاد ؛ وسماه ابن قتيبة الإقواء ؛ لأنه نقص من عروضه قوة ، (وانظر العمدة ١ : ٩٤ ، والشعر والشعراء ٤٣ ، وشروح سقط الزند ١١٤٦) . (٥) رواية الحماسة — بشرح التبريزى : « لذوى النهى » . وتشد بالأكوار ، أى تشد عليها الأكوار . (٦) المجنبات هنا : الخيل تجنب إلى الإبل فى الغزو . والعذوف والعذوفة أدنى ما يؤكل ، ورواية الحماسة : « عذوفا » ، والمهرات : جمع مهرة ؛ قال التبريزى فى معنى البيتين : « ما أرى فى قتل مالك بن زهير رأيا لذوى العقول ؛ إلا أن تركب الإبل وتجنب الخيل ، ويسار بها سيرا عنيفا ؛ حتى ترى أجنتها ، فتبلغ بنا إلى عدونا ، فنغير عليهم ، ونسفك دماءهم » .

(٧) المساعر : جمع مسعر ، والمسعر : هو الشجاع ؛ كأنه آلة فى إسعار الحرب وإيقادها ؛ وصدأ الحديد آت من اتصالهم بالدروع ولبسها .

ابن منصور كانت تؤتى الإتاوة زهيرَ بن جَذِيمة ، ولم تَكْثُرْ عامر بن صعصعة بَعْد ، فهم أذِلَّ من يدٍ فى رحمٍ ، فأتت عجوز من هوازن زهيرَ بن جَذيمة بسمْنٍ فى نِحْى ، واعتذرت إليه ، وشكَت السنين اللّواتى تتابعت على الناس، فذاقه فلم يرضَ طعمَه، فدَعَّها — أى دفعها — بقوس فى يده عُطُل⁽¹⁾، فى صدرها ، فسقطت فبدَتْ عورتُها ، فغضبت من ذلك هَوازن، وحقَدته إلى ما كان فى صدرها⁽²⁾ من الغيظ، وكانت يومئذ قد أَمِرتْ بنو عامر بن صعصعة — أى كثرت — فآلى جعفر بن كلاب فقال : والله لأجعلنّ ذراعى هذه وراء عنقه⁽³⁾ حتى أَقتل أو يُقتل⁽⁴⁾؛ وفى ذلك يقول خالد بن جعفر :

أَرِيغُونى إراغَتَكُمْ فإنى ... وحَذْفةَ كالشجَى تحتَ الوَريدِ⁽⁵⁾
[٧٠ و] /مُقَرَّبةً أُواسيها بنفْسى ... وأُلحِفُها رِدَائى فى الجَليدِ
لَعَلَّ الله يُمْكِنُنى عليهـا ... جِهارًا مِنْ زُهَيرٍ أو أُسِيدِ
فإمَّا تَثقَفُونى فاقتُلُونى ... فمَنْ أَثقَفْ فليسَ إلى خلودِ⁽⁶⁾

ويقال بل كان السبب فى ذلك أن زهيرَ بن جَذِيمة لما قتَلَ فى غَنِىّ مَنْ قتَل بابنه شأس وافَى عُكاظ ، فلقيه خالد بن جعفر بن كلاب — وكان حَدَثًا — فقال : يا زهير ، أما آن لك أن تَشْتَفِى وتَكُف ! — يعنى مما قَتل بشأس — فأغلظ له زهير وحقره ، فقال خالد : اللهم أمكِنْ يدِى هذه الشعراء القصيرة من عُنق زهير بن جَذِيمة ، ثم أعنّى عليه ، فقال زهير : اللهم أمكِنْ يدى هذه البيضاء⁽⁷⁾ الطويلة من عُنُق خالد، ثم خلِّ بيننا ، فقالت قريش : هلكتَ

(١) قوس عطل : لاوتر عليها . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « صدورها » .

(٣) حاشية ت (من نسخه) : « من وراء » .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « أو أقتله » . (٥) أريغونى : أى اطلبوا إلى ، والشجا : مااعترض فى الحلق من عظم وغيره وفى حاشيتى ت ، ف : « حذفة : اسم فرس خالد ؛ وذكره الجوهرى فى صحاح اللغة ، ويتخيل للناظر فيه أن يكون معنى حذفة حذيفة بن بدر وقوله : « كالشجا تحت الوريد » شبه نفسه بالشجا ، وجعل حذفة كالوريد ؛ و « مقربة » فى البيت الثانى مفعول « اريغونى » فرسا مقربة، والله أعلم » . (٦) إما تثقفونى ؛ أى إما تصادفونى؛ وفى اللسان : ثقفته ثقفا ؛ أى صادفته ؛ وأنشد :

فإمَّا تَثقَفُونِى فاقتُلُونِى ... فإنْ أَثقَفْ فسوفَ تَرَوْنَ بالِى

(٧) ت : « الشهباء » .

واللهِ يا زهير ، قال: أنتم والله الذين لا عِلْمَ لهم . ثم أجمع خالد بن جعفر على قَصْد زُهير وقَتْله .

واتَّفق نُزُولُ زهير بالقرب من أرض بنى عامر ، وكانت تُماضر بنت عمرو بن الشَّريد امرأةَ زهير بن جَذِيمة وأمَّ ولده ، فمرَّ به أخوها الحارث بن عمرو بن الشريد، فقال زهير لبَنِيه: إنَّ هذا الحمار لَطَليعةٌ عليكم فأوثقوه، فقالت أختهُ لبَنِيها : أيزوركم خالُكم فتُوثقونه؟ وقالت تماضر لأخيها الحارث بن عمرو بن الشريد : إنه[(١)] ليريبُنى اكْتِئانك وقُروتُك ـ والاكْتِئان الغَمّ ، والقُروت[(٢)] السكوت ـ فلا يأخذنَّ فيك ما قال زهير ، فإنه رجل بَيْذارة غَيْذارة شَنُوءة . ـ قال الأثرم : البَيْذارة : الكثير الكلام ، والغَيْذارة : السَّيِّئُ الخلق ـ ثم حلبوا له وطباً ، وأخذوا عليه يميناً ألاّ يُخبِر[(٣)] عليهم ، ولا يُنْذِر بهم أحداً ؛ فخرج الحارث حتى أتى بنى عامر ، فقعد إلى شجرة يجتمع إليها بنو عامر ، وألقى الوطبَ تحتها والقوم ينظرون ، ثم قال : أيتها الشجرة الذليلة ، اشربى من هذا اللبن ، وانظرى ما طعمه . فقال قوم : هذا رجل مأخوذ عليه ، وهو يخبركم خبرا ، فذاقوا اللبن فإذا هو حلوٌ لم يقرُص بعد ، فقالوا : إنه يخبرنا أن مطلبنا قريب ، فركب خالد بن جعفر بن كلاب ومعه جماعة ، وكان راكبا فرسه حذْفة ، فلقوا زهيرا ، فاعتنق خالد زهيرا ، وخرّا عن فرسيهما ، ووقع خالد فوق زهير ونادى : يا بنى عامر، اقتلونى والرجل، واستغاث زهير ببَنِيه ، فأقبل إليه ورقاء بن زهير يشدُّ[(٤)] بسيفه، فضرب خالدا ثلاث ضربات ، فلم تُغنِ شيئا ، وكان على خالد دِرْعان قد ظاهر بينهما ، ثم ضرب جُندج رأس زهير فقتله ، ففى ذلك يقول وَرْقاء بن زهير :

رأيتُ زُهَيْرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ ... فأَقبلْتُ أَسْعَى كالعَجُولِ أُبادِرُ[(٥)]

[إلى بطلَيْنِ يَنهضانِ كلاهما ... يُريدانِ نَصْلَ السَّيفِ والسيفُ دائرُ][(٦)] [٧٠ ظ]

(١) ت : « إنى » . (٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « قرت الدم يقرت قروتا إذا مات تحت الجلد ؛ وقرت إذا تغير من حزن يصيبه ، والقروت : السكون » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « ألا يخبر عنهم » . (٤) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « يشدّ » . (٥) العجول من النساء والإبل : الواله التى فقدت ولدها .

(٦) تكملة من ت ، والأغانى ، والعقد .

فَشَلَّتْ يَمِينِى يَوْمَ أَضْرِبُ خَالِدًا ... وَيَمْنَعُهُ مِنِّى الحَدِيدُ المُظَاهِرُ(١)
فَيَالَيْتَ أَنِّى قَبْلَ(٢) ضَرْبَةِ خَالِدٍ ... وَيَوْمَ زُهَيْرٍ لَمْ تَلِدْنِى تُمَاضِرُ!

***

فأما خبر الهَبَاءة فإن بنى عبس وبنى فَزارة لما التقوا إلى جَنْب جَفْر الهباءة(٣) فى يوم قائظ، فاقتتلوا — ولخبرهم شرح طويل معروف — استجار حُذيفة ومَنْ معه بجَفْر الهباءة ليتبرد(٤) فيه، فهجم عليه القوم، فقال حذيفة يابنى عبس، فأين العَوْد(٥)؟ وأين الأحلام؟ فضرب حَمَل بن بدر بين كتفيه وقال: «اتق مأثور القول بعد اليوم»، فأرسلها مثلا، وقتل قِرْواش ابن هُنَىّ حذيفة بنَ بدر، وقتل الحارثُ بن زهير حَمَلا، وأخذ منه ذا النون، سيف مالك بن زهير أخيه، وكان حمل بن بدر أخذه من مالك بن زهير يوم قتل، فقال قيس فى ذلك:

تَعَلَّمْ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيْتًا ... عَلَى جَفْرِ الهَبَاءَةِ لَا يَرِيمُ
وَلَوْلَا ظُلْمُهُ مَازِلْتُ أَبْكِى ... عَلَيْهِ الدَّهْرَ مَا طَلَعَ النُّجُومُ
وَلَكِنَّ الفَتَى حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ ... بَغَى وَالبَغْىُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ(٦)
أَظُنُّ الحِلْمَ دَلَّ عَلَىَّ قَوْمِى ... وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الحَلِيمُ
وَمَارَسْتُ الرِّجَالَ وَمَارَسُونِى ... فَمُعْوَجٌّ عَلَىَّ وَمُسْتَقِيمُ

وقال قيس أيضا:

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرٍ ... وَسَيْفِى مِنْ حُذَيْفَةَ قَدْ شَفَانِى
فَإِنْ أَكُ قَدْ بَرَدْتُ بِهِمْ غَلِيلِى ... فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلَّا بَنَانِى(٧)

(١) العقد، ونسخة بحواشي الأصل، ت، ف: «ويمنعه». ويراد بالحديد هنا الدرع؛ ويقال: ظاهر الدرع؛ إذا لأم بعضها على بعض. (٢) حاشية ت (من نسخة): «يوم ضربة خالد».

(٣) الهباءة: أرض فى بلاد غطفان؛ وجفر الهباءة: مستنقع فيها.

(٤) حاشية ت (من نسخة): «ليبترد».

(٥) حاشية الأصل: «يقال سودد عود، أى قديم». (٦) حاشية الأصل (من نسخة): «مصرعه وخيم». (٧) حاشية ت من نسخة: «شفيت بهم»، وروى ياقوت بعد هذا البيت:

فَلَا كَانَتِ الغَبْرَا وَلَا كَانَ دَاحِسٌ ... وَلَا كَانَ ذَاكَ اليَوْمُ يَوْمَ دَهَانِى

مجلس آخر [١٠]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً/ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؛ [البقرة : ١٧١] . [٧١ و]

فقال : أيُّ وجهٍ لتشبيهِ الذين كفروا بالصائح[١] بالغنم ، والكلامُ يدلُّ على ذمِّهم ووصفِهم بالغفلة وقلّة التأمل والتمييز ، والنّاعِقُ بالغنم قد يكونُ مميِّزاً متأمِّلاً مُحصِّلاً ؟

يقال له في هذه الآية خمسةُ أجوبة :

أولها أن يكون المعنى : مَثَلُ واعظِ الذين كفروا والداعي لهمْ إلى الإيمان والطاعة كَمَثَلِ الراعي الذي ينعِق بالغنمِ وهي لا تعقِلُ معنى دعائه ، وإنما تسمعُ صوتَه ولا تفهم غرضَه ؛ والذين كفروا بهذه الصِّفة لأنهم يسمعون وعظَ النبي صلى الله عليه وآله ودعاءه وإنذارَه فينصرفون[٢] عن قبول ذلك ، ويُعْرِضون عن تأمّله ، فيكونون بمنزلة مَنْ لم يعقلْه ولم يفهمْه ؛ لاشتراكهما في عدم الانتفاع به . وجازَ أن يقومَ قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مقامَ الواعظ والداعي لهم ؛ كما تقول العرب : فلان يخافك خوفَ الأسد ؛ والمعنى كخوفه[٣] الأسد ، فأضافَ الخوفَ إلى الأسد وهو في المعنى مضاف إلى الرجل ، قال الشاعر :

فلَسْتُ مُسَلِّماً ما دُمْتُ حيًّا ... على زَيْدٍ بتَسْليمِ الأميرِ

أراد بتسليمي على الأميرِ ، ونظائرُ ذلك كثيرة .

والجواب الثاني أن يكونَ المعنى : ومثَلُ الذين كفروا كمثل الغنمِ التي لا تفهم نِداء الناعق ، فأضافَ الله تعالى المَثلَ الثاني إلى الناعق ؛ وهو في المعنى مضافٌ إلى المنعوق به ،

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « الناعق » ، وفي ت : « الصائح : الناعق » .
(٢) حاشية ت (من نسخة) : « فيضربون » . (٣) م : « كخوفه من الأسد » .

على مذهب العرب فى قولها : طلعتِ الشِّعرى ، وانتصب العُود على الحِرْباء[1] ، والمعنى وانتصب الحِرْباء على العُود ؛ وجاز التقديم والتأخير لوضوح المعنى ؛ وأنشد الفرّاء :

إنَّ سِراجاً لَكريمٌ مَفخَرُهْ تَحْلَى بِهِ العَيْنُ إذا ما تَجْهَرُهْ[2]

معناه يَحْلَى بالعين ؛ فقدّم وأخّر . وأنشد الفراء أيضاً :

كانتْ فَرِيضَةُ ما تَقُولُ كما كانَ الزِّناءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ

المعنى كما كان الرَّجم فريضةَ الزِّنا ، وأنشد أيضاً :

وقدْ خِفْتُ حتّى ما تَزِيدُ مَخافَتِى على وَعِلٍ فى ذِى المَطارَةِ عاقِلِ[3]

[٢١ ظ] /أراد ما تزيد مخافة وعِلٍ على مخافتى ، ومثله :

* كأنَّ لَوْنَ أرْضِهِ سَماؤُهُ[4] *

أراد كأنّ لون سمائه أرضه ، ومثله :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أجْمَعُ[5]

أراد مُدخِلِ رأسه الظلّ ، وقال الراعى :

فَصَبَّحَتْهُ كِلابُ الغَوْثِ يُؤْسِدُها مُسْتَوضِحُونَ يَرَوْنَ العَيْنَ كالأثَرِ[6]

يريد أنهم يرون الأثر كالعين ؛ وقال أبو النجم :

(١) الحرباء : حيوان كالمظاءة ؛ يدور مع الشمس . (٢) يقال حلى فلان بعينى وفى عينى إذا أعجبك ؛ والبيتان فى اللسان (حلا) ، وفى م : « تجلى » ، تصحيف .

(٣) البيت للنابغة ، وقد مر ذكره ص ٢٠٢ ، وانظر ما سبق فى تفسيره . (٤) الرجز لرؤبة ، وقبله : * ومهمه مغبرة أرجاؤه * (٥) البيت من شواهد (الكتاب ١ : ٩٢) ؛ قال الأعلم : « الشاهد فيه إضافة مدخل إلى الظل ، ونصب الرأس به على الاتساع والقلب ، وكان الوجه أن يقول : مدخل رأسه الظل ؛ لأن الرأس هو الداخل فى الظل ، والظل المدخل فيه ؛ وهو وصف هاجرة قد ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه فى ظل كناسه لما يجد من شدة الحر ، وسائره بارز للشمس » . (٦) يذكر ثورا ، والغوث : قبيلة من طيّ ، ويؤسدها : يغريها ؛ ومستوضحون : صيادون نظرون : هل يرون شيئا ؛ يقال استوضح الرجل ، إذا نظر ليرى شبحا أو أثرا ، يريد أن أثر الصيد عندهم إذا رآه يكون بمنزلة الصيد نفسه لا يخفى عليهم . (وانظر معانى الشعر لابن قتيبة ٢٤٢ ، ١١٩٣)

* قَبْـلَ دُنُوِّ الأُفْقِ مِنْ جَوْزَائِهِ *

فقلب، وقال العباس بن مرداس:

فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي ومالي ... ولا آلوهُ إلّا ما يُطيقُ

أراد فديت بنفسي نفسه، وقال ابن مقبل:

ولا تَهَيَّبُنِي المَوْمَاةُ أَرْكَبُها ... إذا تَجاوَبَتِ الأصداءُ بالسَّحَرِ[1]

أراد لا أتهيّب الموماة؛ وهذا كثير جدًّا[2].

والجواب الثالث أن يكون المعنى: ومثل الذين كفروا ومثلُنا، أو مثلهم ومثلُك يا محمد كمثل الذي ينعِق؛ أي مثلُهم في الإعراض ومثلُنا[3] في الدعاء والتنبيه والإرشاد كمثل الناعق بالغنم، فحذف المثل الثاني اكتفاء بالأول؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾؛ [النحل: ٨١]، أراد الحر والبرد، فاكتفى بذكر الحر من البرد، وقال أبو ذؤيب:

عَصَيْتُ إليها القَلْبَ إنّي لأَمْرِها ... مُطيعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلابُها[4]

أراد أرشدٌ أم غيّ، فاكتفى بذكر الرشد لوضوح الأمر.

والجواب الرابع أن يكون المراد: ومَثَلُ الذين كفروا في دعائهم الأصنام التي يعبدونها من دونِ الله وهي لا تعقِل ولا تفهم، ولا تضرّ ولا تنفع كمثَل الذي ينعِق دعاء ونداء بما

---

(١) معاني ابن قتيبة ١٢٦٤، واللسان ـ هيب؛ يقال: تهيبني الشيء بمعنى تهيبته أنا؛ كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت. والموماة: المفازة؛ والأصداء: جمع صدى؛ وهو البوم.

(٢) حاشية ت: «ومن المقلوب قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾، وإنما هو: تنوء العصبة بها، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾؛ يريد مخلف رسله وعده؛ وإنما جرى الباب في كلام العرب اتساعا في الظاهر؛ لأن المعنى فيه لا يشكل».

(٣) د، حاشية ت (من نسخة): «ومثلك».

(٤) ديوان الهذليين ١: ٧١؛ والرواية فيه:

عَصَانِي إلَيْهَا القَلْبُ إنّي لِأَمْرِهِ ... سَمِيعٌ فما أدري أَرُشْدٌ طِلابُها

لا يسمع صوتَه جملة ، والدعاء والنداء على هذا الجواب ينتصبان بينعِق ، وإلّا توكيدٌ لـلكلام؛ ومعناها الإلغاء ؛ قال الفرزدق :

[٧٢] هُمُ القومُ إلّا حيثُ سَلُّوا سيوفَهُمْ ... وضَحَّوْا بلحمٍ مِنْ مُحِلٍّ ومُحرِمِ[1]

والمعنى : هم القوم حيث سلُّوا سيوفهم .

والجواب الخامس أن يكون المعنى : ومَثَل الذين كفروا في دعائهم الأصنام[2] وعبادتِهم لها واسترزاقِهم إياها كمثلِ الرّاعى الذى ينعِق بالغنم ويناديها ؛ فهي تسمع دعاءه ونداءه ولا تفهم معنى كلامه ، فشبّه مَنْ يدعوه الـكفار من المعبودات دون الله جلّ اسمه بالغنم ، من حيث لا تعقل الخطاب ولا تفهمه ، ولا نفعَ عندها فيه ولا مضرّة .

وهـذا الجواب يقارب الذى قبله ، وإن كانت بينهما مزيّة ظاهرة ؛ لأن الأولَ يقتضى ضربَ المثل بمـا لا يسمع الدعاء ولا النداء جملة ، ويجب أن يكون مصروفاً إلى غير الغنم وما أشبهها مما يسمَع وإن لم يفهمْ . وهذا الجوابُ يقتضى ضربَ المثل بما يسمع الدعاء والنداء وإن لم يفهمهما ، والأصنام من حيث كانت لا تسمع النداء[3] جملة يجب أن يكون داعيها ومناديها أسوَأ حالًا من منادى الغنم . ويصحّ أن يصرف إلى الغنم وما أشبهها مما يشارك فى السماع ، ويخالف فى الفهم والتمييز .

وقد اختلف الناس فى « يَنْعِقُ » فقال أكثرهم : لا يقال نَعَق ينعِق إلّا فى الصّياح بالغنم وحدَها ؛ وقال بعضهم نَعَق ينعِق بالغنم والإبل والبقر ؛ والأول أظهر فى كلام العرب ؛ قال الأخطل :

فانعِقْ بضأنِك يا جريرُ فإنّما ... منّتْك نفسُك فى الخلاء ضلالا[4]

(١) ديوانه ٢ : ٧٦٠ ، وفى ت ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « حين » ، وفى حاشية الأصل أيضا : « نظير هذا فى مورد « إلا » للتوكيد دون الاستثناء قولهم : « أسألك إلا غفرت لى » .

(٢) م : « للأصنام » . (٣) ت : « الدعاء والنداء » ، ف : « الدعاء » .

(٤) ديوانه : ٥٠

ويقال أيضاً: نَعَقَ الغراب ونَغَقَ؛ بالغين المعجمة؛ إذا صاح من غير أن يمدّ عنقه ويحركها؛ فإذا مدها وحرّكها ثم صاح قيل: نَعَب، ويقال أيضاً: نَعَب الفرس ينعَب وينعِب نَعْباً ونعيباً ونَعَباناً، وهو صوته؛ ويقال: فرسٌ مِنْعَبٌ، أي جواد، وناقة نَعّابة؛ إذا كانت سريعة.

تأويل خبر

رُوِيَ أن النبي صلى الله عليه وآله خرج مع أصحابه إلى طعام دُعُوا إليه[1]؛ فإذا[2] بالحسين عليه السلام، وهو صبيّ يلعب مع صبية في السِّكّة، فاستَنْتَل رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمامَ القوم، فطفِق الصبيُّ يفِرُّ مرّةً هاهنا، ومرّةً هاهنا، ورسول الله صلى الله عليه وآله يُضاحِكه، [3]ثم أخذه[3]، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى / تحت فأس رأسه، [٧٢ ظ] وأقنَعَه فقبّله، وقال: «أنا من حُسَيْنٍ وحسينٌ منّي، أحبَّ اللهُ مَنْ أحبَّ حُسيناً، حُسينٌ سِبْطٌ من الأسباط».

قال الشريف أدام الله علوّه: معنى استَنْتَل تقدّم، يقال: استَنْتَل الرجلُ استِنْتالاً، وابرنتى ابرنتاء[4]، وابرنذع ابرنذاعاً؛ إذا تقدم، هكذا ذكره ابنُ الأنباريّ.

ووجدت بعضَ المتقدمين في علم اللغة يحكي في كتاب له قال: تقول: "استنتلتُ الأمر استنتالا إذا استعددتَ له، واستنتَل الرجلُ تفرّد من القوم، ويقال: استنتَل أشرف". والمعاني تتقارب، والجميع يليق بكل واحد منها. وحكَى هذا الرجل الذي ذكرناه في كتابه في ابْرَنْتَأَ وابرنذع أيضاً أنه من الاستِعْداد.

فأما السِّكّة، فهي النازل المصطفّة، والنخل المصطف.

(١) ت، د: «له». (٢) في حاشيتي الأصل، ف: «تقول خرجت فإذا زيد على الطريق؛ إذا بمعنى الوقت؛ والتقدير: خرجت والوقت وقت حضور زيد على الطريق؛ وكذلك أكرمك إذ أنت صديق؛ ليست إذ لما مضى من الزمان؛ بل هي تعليلية، والتقدير: أكرمك لأنك صديق».
(٣–٣) ساقط من م. (٤) ص: «ابرنتأ».

ومعنى طفِق ما زال ، قال الشاعر :

طَفِقَتْ تَبكى وأُسْعِدُها فكلانا ظاهرُ الكَمَدِ[1]

وفأسُ الرأس : طرف القَمَحْدُوَةِ[2] المشرف على القفا .

ومعنى «أقنمه» رفعه ، هكذا ذكر ابنُ الأنبارىّ . وقال غيرُه : يقال أقنع ظهرَه إقناعًا إذا طأطأه ثم رفعه برفق .

فأما الأسباط فأصلها فى ولد إسحاق عليه السلام كالقبائل فى بنى إسماعيل عليه السلام؛ وقال ابن الأنبارىّ : هم الصِّبْيَة والصِّبْوَة ، بالياء والواو معًا .

* * *

حدثنا أبوالقاسم عبدالله بن عثمان بن يحيى بن جَنيقا قال أخبرنا أبوعبيد الله محمد بن أحمد الحكيمىّ قراءةً عليه قال أملى علينا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال أخبرنا ابن الأعرابىّ أنه قيل لابنة الخُسّ : ما مائة من المعز ؟ قالت : « مويْلٌ يشِفُّ الفقْر من ورائه ، مالُ الضعيف ، وحرْفَةُ العاجز » . قيل لها : فما مائة من الضأن ؟ قالت : « قرية لا حِمَى بها » . قيل: فمامائة من الإبل؟ قالت: «بخٍ[3] ! جَمال ومال، ومُنَى الرجال»، قيل لها : فما مائة من الخيل؟ قالت : «طَغْىٌ عند من كانت ، ولا توجد». قيل : فمامائة من الحُمُر ؟ قالت: «عازبة الليل، وخزْى المجلس ، لا لَبنٌ فيحْلَب ، ولاصوف فيُجَزّ[4] ، إنْ رُبط عيرُها دَلَّى[5]، وإن أُرْسِل وَلّى[6]» .

وبهذا الإسناد عن ابن الأعرابىّ قال:قيل لابنة الخُسّ ــ والخُصّ والخُسْف ، قال : كل ذلك يقال ــ : ماأحسنُ شيء؟ قالت: « غادية ، فى أثر سارية ، فى نبخاء قاوية » ــ قال :/نبخاء : [٢٣ و]
أرض مرتفعة ، لأن النبات فى موضع مشرف أحسن ــ وقالوا أيضاً : «نَفْخاء» ، أى رابية ،

(١) ت : « الجلد » . (٢) القمحدوة : الهنة الناشرة فوق القفا وأعلى القذال خلف الأذنين .

(٣) «ت، ج : « بخ بخ » ، بتنوين الخاء . (٤) د : « فيجز » . (٥) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « أدلى » . (٦) ت : « وإن أرسلته » ، و الخبر فى المزهر ٢ : ٥٤٥ .

ليس بها رمل ولا حجارة ، قال : والجمع النّفاخى[١]، ونبتُ الرابية أحسنُ من نبت الأودية، لأن السيلَ يصرعُ الشجرَ فيقذفه فى الأودية ، ثم يُلقى عليه الدِّمَن[٢] .

قال الشريف أدام الله علوّه : ومما يدل أن نبتَ الرابية أحسنُ قولُ الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيها مُسْبِلٌ هَطِلُ[٣]

وقال كُثَيِّر :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها[٤]

---

(١) فى حاشيتى ت ، ف : « قال الجوهرى : النبخاء : الأكمة ، والنفخاء من الأرض مثل النبخاء ، وأخوت الدار وقويت ؛ أى خلت » . (٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الدمن : جمع دمنة ؛ وهو مايتلبد من التراب والقش وكبار العيدان ؛ والخبر فى (مجالس ثعلب ٣٤٣ ، والمخصص ١٠ : ١٤٣ ، واللسان ــ نبخ ، نفخ) . (٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « بعده :

يُضَاحِكُ الشمسَ مِنْهَا كَوكَبٌ شَرِقٌ ... مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

يوماً بأطيبَ مِنْهَا نَشْرَ رائحةٍ ... وَلاَ بأحْسَنَ مِنْهَا إذ دنا الأُصُلُ

ــ كوكب الشىء : معظمه ، والنبت إذا عم وكثر قيل اكتهل ، وقوله : « إذا دنا الأصل » ، يعنى أن الزهر إذا كان فى الأصيل كان أحسن لبعد عن برد الغداة » . والأبيات فى ديوانه : ٤٣ :

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « الجثجاث والعرار : نبتان ، وبعده :

بأطيبَ من أردانِ عَزّةَ مَوْهِناً ... وقد أُوقِدَتْ بالمندل الرطب نارُها

وللبيتين قصة ؛ وهى أن كثيرا أقبل ذات يوم راكبا ، فاعترضت له فى الطريق عجوز قد أوقدت فى روثة ، تضجر عليها كثير ، وتأفف فى وجهها ؛ فقالت : أنت القائل :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا

بِأَطْيَبَ مِنْ أَرْدَانِ عَزّةَ مَوْهِنًا ... وَقَدْ أُوقِدَتْ بِالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نَارُهَا

قال : نعم ؛ قالت : والله لو أوقد بالمندل على هذه الروثة لطابت ! هلا قلت كما قال سيدك ومولاك امرؤ القيس :

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلّمَا جِئْتُ طَارِقاً ... وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ !

فانكسر كثير وخجل . وقيل إنه أعطاها مطرفا كان معه وقال: « استريه على » ؛ (وانظر ديوان امرئ القيس ٧٣ ، وديوان كثير ١ : ٩٢).

نحضًا الحزن للمعنى الذى ذكرنا .

* * *

وبهذا الإسناد عن ابن الأعرابىّ قال : العرب تقول جاءنا بطعامٍ لا يُنادَى وَلِيدُه ؛ إذا جاء بطعامٍ كثير لا يُراد فيه زيادة ، ووقع فى أمر لايُنادَى وليدُه ؛ يقول لايُدْعَى إليه الصبيان ، ولا يستعان إلا بكبار الرجال فيه .

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوه : وفى ذلك قولان آخران ؛ أحدهما عن الأصمعىّ قال : أصلُه من الشدة تصيب القوم حتى تَذْهلَ المرأة عن ولدها فلا تُناديه لما هى فيه ، ثم صار مثلا لكل شدة ، ولكل أمرٍ عظيم . والقول الآخر عن الكِلابىّ قال : أصله من الكثرة والسَّعَة ، فإذا أهوى الوليدُ إلى شىء لم يُزْجَرْ عنه حَذَرَ الإفساد ، لسَعَةِ مامْ فيه ، ثم صار مثلا لكل كثرة ؛ قال الفرّاء : وهذا القول يُستعان به فى كل موضع يراد به الغاية ، وأنشد :

لقدْ شَرَعَتْ كفًّا يَزيدَ بنِ مَزْيَدٍ ... شَرائعَ جُودٍ لاَ يُنَادَى وَلِيدُها

* * *

وبالإسناد الذى تقدم عن ابن الأعرابىّ قال : دخل وَدْفَةُ(١) الأسدىّ على معن بن زائدة الشَّيبانىّ فقال : إن رأيتَ أكرمك الله أن تضَمَّنى من نفسك بحيث وضعتُ نفسى من رَجائك ؛ فإنك قد بلغتَ حالاً لو أعتقنى الله فيها بكرمك من تنصُّف(٢) الرجال بعدك لم يكن كثيراً ، وإنّى قد قدَّمتُ الرجاء ، وأحسنت الثناء ، ولزمت الحِفاظ ، ثم أنشأ يقول :

يا مَعْنُ إنكَ لمْ تُنعِمْ على أحَدٍ ... فشَابَ نُعْماكَ تَنْغِيصٌ ولاَ كَدَرُ

/ فانظرْ إلىَّ بطَرْفٍ غيرِ ذِي مَرَضٍ ... فرُبَّما صَحَّ لى مِن طَرْفِكَ النَّظرُ [٢٣ ظ]

أيّامَ وَجهُكَ لى طَلْقٌ يُخَبِّرُنى ... إذَا سكَتَّ بمـا تُخْفِي وتَضطَمِرُ

ومِنْ هَوَاكَ شَفيعٌ ليس يُغْفِلنى ... وإنْ نأيتُ وإنْ قلَّتْ بِىَ الذِّكَرُ

---

(١) ودفة ؛ بالفاء ، وضبط فى الأصل ، ت بفتح الدال وإسكانها معا .

(٢) حاشية ت ، ف : « التنصف : الخدمة ؛ يقال تنصفه إذاخدمه ، والنصيف : الخادم » .

قدْ كنتَ أثرْتَ عِنْدِي مرَّةً أثراً ... فقدْ تقاربَ يَعفو ذلكَ الأثرُ

فاجبرْ بفضلِكَ عظماً كُنتَ تَجبُرُهُ ... واجمعْ بفعلِكَ ماقدْ كادَ ينتشرُ[1]

ما نازَعَ العُسْرُ فى اليُسرِ مُذْ عَلِقَتْ ... كَفّى بحَبْلِكَ إلاّ ظَفِرَ اليُسْرُ

وقدْ خَشيتُ وهذا الدّهرُ ذُو غِيَرٍ ... بأنْ يُدالَ لِطُولِ الجَفْوَةِ العُسُرُ[2]

وأيّما[3] كانَ مِنْ عُسْرٍ ومَيسَرةٍ ... فإنَّ حَظَّكَ فيهِ الحَمدُ والشُّكرُ

فقال معن : أوَ ما كُنّا أعطيناكَ شيئاً ؟ قال : لا ، قال : أمّا الذهبُ والفِضّة فليسا عندنا، ولكنْ هاتِ تختاً[4] من ثيابي بأعلام؛ فدفعه إليه، وقد كان تحمّل عليه[5] بابن عيّاش وحبيبِ بن بُدَيْل ، فأعطاهما معه تختين ، وقال : غرّمتني يا وَدْفَةَ تختَيْ ثياب! .

قال سيدنا الشريف أدام الله علوّه : وكان معن بن زائدة جواداً شجاعاً شاعراً ، ويكنّى أبا الوليد ، وهو معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مَطَر بن شَريك بن عمرو بن مَطَر ، وهو أخو الحَوْفزان بن شريك، وكان معن من أصحاب ابن هُبَيرة[6]، فلما قتل رثاه معن فقال:

ألا إنّ عيناً لَمْ تَجُدْ يومَ وَاسِطٍ ... عليكَ بجاري دَمعِها لَجمودُ[7]

عَشيّةَ قامَ النائحاتُ وشُقّقَتْ ... جُيوبٌ بأيدِي مأتمٍ وخُدودُ[8]

فإنْ تُمْسِ [9]مَهجورَ الفِناءِ فطالما[9] ... أقامَ بهِ بعدَ الوُفودِ وُفودُ

فإنكَ لمْ تَبْعُدْ على مُتعهِّدٍ ... بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرابِ بَعيدُ[10]

(١) ت : « بفضلك » .   (٢) حاشية ت (من نسخة) : « بطول الجفوة » .

(٣) م : « وإن ما » .   (٤) التخت : وعاء تصان فيه الثياب :

(٥) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « إليه » ، وتحمل إليه ؛ أى تشفع .

(٦) حواشي الأصل ، ت ف : «قتل ابن هبيرة السفاح » .   (٧) حواشي الأصل ، ت ، ف : « روى أبو تمام هذه القطعة في الحماسة لأبي عطاء السندي » . (وانظر ديوان الحماسة بشرح التبريزي ٢ : ٢٩٥ــ٢٩٦) .   (٨) حاشية الأصل : « المأتم : جماعة النساء للعزاء » .

(٩ــ٩) م : « مهجور الجناب فطالما » ، ورواية الحماسة : « مهجور الجناب فربما » ؛ قال التبريزى : والرواية المختارة : « وربما » بالواو ؛ وذلك أن جواب الشرط من قوله : « فإن تمس مهجور الفناء » « فإنك لم تبعد على متعهد » ، ويصير : « ربما أقام » بيان الحال فيما تقدم من رياسته » .

(١٠) أى على متعهد يتعهدك بالذكر والبكاء .

أخبرنا أبو عُبيد الله المرزُبانيّ قال أخبرنى يوسف بن يحيى المنجّم عن أبيه قال حدثنى محمد بن القاسم بن مَهْرويه قال حدثنى أبو زيد بن الحكم بن موسى قال حدثنى أبى قال : كان معن بن زائدة / من أصحاب يَزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان مستتراً ، حتى كان يومَ الهاشمية[1] ، [٧٤ و] فإنه حَضَر وهو معتمٌّ متلثّم ، فلما نظر إلى القوم وقد وَثبوا على المنصور تقدّم فأخذ بلجام بغلته ، ثم جعل يضربهم بالسيف قدّامه ، فلما أفرجوا له وتفرّقوا عنه قال له : مَنْ أنت وَيْحك ! قال : أنا طَلِبتُك مَعْنُ بن زائدة . فلما انصرف المنصور حَباه وكساه ورتّبه ، ثم قلّده اليمن ، فلما قدم عليه من اليمن قال له : هِيه يامعن ! تعطى مَرْوان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على أن قال لك :

مَعْنُ بنُ زائدةَ الّذِي زِيدَتْ بِهِ ... شَرَفًا على شَرَفٍ بنو شَيْبانِ
إنْ عُدَّ أيّامُ الفَعالِ فإنّما ... يوْماهُ : يومُ نَدًى ويومُ طِعانِ

فقال : كلّا يا أمير المؤمنين ، ولكن أعطيتُه على قوله :

ما زِلْتَ يومَ الهاشميةِ مُعلِنًا ... بالسّيفِ دُونَ خليفةِ الرَّحمنِ
فمنَعْتَ حَوْزَتَهُ ، وكُنتَ وِقاءه ... مِنْ وَقْعِ كلِّ مُهنَّدٍ وسِنانِ

فقال له : أحسنت يامعن !

وفى خبر آخر أنّه دخل على المنصور ، فقال له : ويلك[2] ! ماأخانٌ مايقال فيك من ظُلمك لأهل اليمن واعتسافِك إيّاهم إلاّ حقًّا ! قال : وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلغنى أنك أعطيت شاعراً كان يلزمك ألفَىْ دينار ، وهذا من السرف الذى لا شىء مثله ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنما أعطيته من فُضول مالى وغلاّت ضِياعى وفَضَلات[3] رِزْقى ، وكففتُه عن عِرضى ، وقضيتُ الواجبَ من حقِّه علىّ وقصدِه إلىّ وملازمتِه لى ، قال : فجعل أبو جعفر ينكُت بقضيب فى يده الأرضَ ولم يعاوِدْهُ القول .

---

(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة ، والحيرة (ابن خلكان ٢ : ١٠٩) .
(٢) ت : « ويلك يامعن ! » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « وفضالات » .

وأخبرنا المرزُبانىّ قال أخبرنى علىّ بن يحيى عن عبد الله بن أبى سعد الورّاق عن خالد ابن يزيد بن وهب بن جرير عن عبد الله[1] بن محمد المعروف بعفّار من أهل خُراسان ـ وكان من ولاة الرشيد ـ قال : حدّثنى معن بن زائدة قال : كنا فى الصّحابة سبعمائة رجل ، فكنا ندخل على المنصور فى كلّ يوم ، قال: فقلت للربيع : اجعلنى فى آخر مَنْ يدخل عليه ، فقال لى: لستَ بأشرفهم فتكونَ فى أولهم ، ولا بأخسّهم نسبا فتكونَ / فى آخرهم ، وإن مرتبتك [٧٤ ط] لَتشبه[2] نسبك. قال: فدخلتُ على المنصور ذات يوم، وعلىّ دُرّاعة فَضْفاضة، وسيفٌ حَنَفِىّ[3] أقرع بنعله الأرض ، وعمامة قد أسدلتُها من قدامى وخلفى ، فسلّمت عليه وخرجت ، فلما صرت عند السّتر صاح بى : يا معن ! صيحةً أنكرتُها ، فلبيته فقال : إلىّ ، فدنوت منه ، فإذا به قد نزل عن فراشه إلى الأرض، وجثا على ركبتيه، واستلّ عموداً من بين فراشين، واستحال لونه، ودَرّتْ أوداجه ، وقال : إنك لَصاحبى يوم واسط ، لا نجوتُ إن نجوتَ منى ! قال : قلت: يا أمير المؤمنين، تِلك نُصرتى لباطلهم، فكيف نُصرتى لحقك ؟ قال: فقال لى : كيف قلت؟ فأعدتُ عليه القول، فما زال يستعيدنى حتى ردّ العمود إلى مستقره ، واستوى متربعاً ، وأسْفَر لونه وقال : يامعن ، إن باليمن هَنَاتٍ ، قلت : يا أمير المؤمنين ، « ليس لمكتوم رأى » ـ وهو أول مَنْ أرسلها مثلا ـ فقال: أنت صاحبى ، فاجلس ، قال: فجلست ، وأمر الربيع بإخراج كل مَنْ كان فى الدار ، وخرج الربيع، فقال لى: إنّ صاحبَ اليمن قد همّ بالمعصية، وإنى أريد أن آخذه أسيراً ، ولا يفوتَنى شىء من ماله ، قلت : ولّنى اليمن وأظهر أنك قد ضممتنى إليه ، ومُرِ الربيع أن يزيح عِلّتى فى كل ما أحتاج إليه ، ويخرجَنى فى يومى هذا لئلاّ ينتشر الخبر ، قال : فاستلّ عهدا من بين فِراشين ، فوقّع فيه اسمى وناولنيه ، ثم دعا الربيع فقال : يا ربيع ، إنا قد ضممنا مَعْناً إلى صاحب اليمن ، فأزِح علّته فيما يحتاج إليه من السلاح

(١) حاشية ت (من نسخة) : « عبيد الله » .
(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « كنسبة نسبك » .
(٣) السيوف الحنفية : نوع منها ينسب إلى الأحنف بن قيس ؛ لأنه أول من أمر باتخاذها ، والقياس أحنفية ؛ (القاموس) .

والكُراع، ولا يُعيِي إلاّ وهو راحل، قال : ثم ودَّعني فودعته، وخرجت إلى الدَّهليز، فلقيني أبو الوالي فقال : يا معن، أعْزِزْ عليّ أن تُضمّ إلى ابن أخيك ! قال : فقلت له : إنّه لا غضاضة على الرجل يضمُّ سلطانه إلى ابن أخيه . وخرجت إلى اليمن، فأتيت الرجل ، فأخذته أسيراً ، وقرأت عليه العهد ، وقعدت في مجلسه .

وروَى عمر بن شبّة قال : اجتمع عند معن بن زائدة ابنُ أبي عاصية وابنُ أبي حفصة والضَّمْرِيّ، فقال: لِيُنْشِدْني كلُّ واحد منكم أمدحَ بيت قاله فيّ ، فأنشده ابنُ أبي حفصة :

مَسَحَتْ رَبِيعةُ وَجهَ مَعْنٍ سابِقاً ... لمَّا جَرَى وجَرَى ذَوُو الأَحْسابِ

[٧٠ و] / فقال له معن : الجواد يمرّ فَيُمْسَح وجهُه من الغبار والعَرَق وغيرهما .
وأنشده الضَّمرِيّ :

أنت امْرُؤٌ هَمُّكَ المَعالى ... ودُونَ مَعروفِكَ الرَّبيعُ

ـ ويروى : « ودون معروفك الربيع » ـ

وشَأْنُكَ الحَمدُ تَشتَرِيهِ ... يُشِيعُهُ عَنكَ ما يُشِيعُ (١)

فقال له : ما أحسن ما قلت ! إلاّ أنك لم تُسَمِّني ولم تذكُرْني ، فمن شاء انتحله .
وأنشدَه ابنُ أبي عاصية :

إنْ زالَ مَعْنُ بني زيادٍ (٢) لمْ يَزَلْ ... لِلندى إلى بَلَدٍ بَعِيرُ مُسافِرِ (٣)

ففضّله عليهم .

وروِي أنّه أُتِيَ معنُ بن زائدة بثلاثمائة أسير ، فأمر بضرب أعناقهم ، فقال له شاب منهم : يا أخا شيبان (٤)، نُناشدك الله أن تقتلنا عطاشا ! فقال : اسقوهم ماء ، فلما

(١) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « من يشيع » .
(٢) حاشية ت (من نسخة) : « شريك » . (٣) في حاشيتي الأصل ، ف : « التقدير : إن زال معن بني زياد لم يزل للندى بعير مسافر إليه ؛ يعني أن عفاته بعد زواله يتودعون ولا يسافرون لعدم من يقصد » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « يا أخا بني شيبان » .

شربوا قال : يا أخا شيبان ، نناشدك الله أن تقتل أضيافك ! فقال : أطاقوهم .

وذكر أحمد بن كامل أن الخوارج قتلت معن بن زائدة بسجستان فى سنة إحدى وخمسين ومائة[1] .

وروى أن عبد الله بن طاهر كان يوما عند المأمون ، فقال له : ياأبا العباس ، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ قال : أميرُ المؤمنين أعرَفُ بهذا منى . قال : قُلْ على كلِّ حال ، قال عبدُ الله : أشعرهم الذى يقول فى معن بن زائدة :

أيا قبرَ مَعنٍ كُنتَ أوّلَ حُفْرَةٍ ... مِنَ الأرْضِ خُطّتْ لِلسَّماحةِ مَضجعا[2]
أيا قبرَ مَعنٍ كيفَ وارَيتَ جُودَهُ ... وقدْ كانَ منهُ البَرُّ والبحرُ مُترَعا
بلَى قدْ وَسِعتَ الجُودَ والجُودُ مَيّتٌ ... ولوْ كانَ حَيًّا ضِقْتَ حتّى تَصَدّعا

والأبيات للحسين بن مُطَيْر الأسدِىّ ، وهى تزيد على هذا المقدار ، وأولها :

ألِمّا بِمَعنٍ[3] ثُمّ قُولا لِقَبرِهِ ... سَقَتْكَ الغَوادِى مَرْبَعًا ثُمّ مَرْبَعا

وفيها :

فتى عِيشَ فى مَعرُوفِهِ بَعدَ مَوْتِهِ ... كما كانَ بَعدَ السَّيلِ مَجراهُ مَرْتَعا
ولمّا مَضى مَعنٌ مَضَى الجودُ وانقضَى ... وأصبحَ عِرْنِينُ المكارِمِ أجْدَعا

(١) وانظر ترجمة معن وأخباره فى (تاريخ بغداد ١٣ : ٢٣٥—٢٤٤ ، وابن خلكان ٢ : ١٠٨—١١٢) . (٢) الأبيات فى (ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ٢ : ٢٩٠—٢٩٢) ، وهى أيضا فى تاريخ بغداد وابن خلكان . (٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « ألما على معن » .

مجلس آخر ١٦

تأويل آية

[٧٥ ظ] قال سيدنا الشريف الأجلّ ذو المجدين / أطال الله بقاءه : إن سأل سائلٌ فقال: ما الوجهُ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ؛ [آل عمران : ٢١] ، وفي موضع آخر: ﴿ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ ؛ [النساء : ١٥٥] ؛ وظاهرُ هـذا القول يقتضي أنّ قتلَهم قد يكون بحق . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ ؛ [المؤمنون : ١١٧] . وقوله : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ؛ [الرعد : ٢] ، وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ [البقرة : ٤١] ، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ ؛ [البقرة : ٢٧٣] ؛ والسؤالُ عن هذه الآيات كلِّها من وجهٍ واحد وهو الذي تقدم .

الجواب ، أنّ للعرب فيما جرى هـذا المجرى من الكلام عادةً معروفةً ، ومذهباً مشهوراً ، عند مَنْ تصفَّحَ كلامَهم وفهِم عنهم . ومرادُهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده ؛ فمن ذلك قولهم : فلان لا يُرْجَى خيرُه ؛ ليس يُريدون أنّ فيه خيرًا لا يُرْجَى ، وإنما غرضُهم أنّه لا خيرَ عنده على وجه من الوجوه ؛ ومِثْلُه : قلّما رأيتُ مثلَ هذا الرجل ، وإنما يُريدون أنّ مثلَه لم يُرَ لا قليلا ولا كثيرا ؛ وقال امرُؤُ القَيْس :

على لاحِبٍ لا يُهتَدَى بِمَنارِه[1] … إذا سافَهُ العَوْدُ الدِّيافيُّ جَرْجَرا[2]

يصف طريقاً ؛ وأراد بقوله : « لا يُهتَدَى بمنارِه » أنه لا منارَ له فيُهتَدَى بها .

---

(١) من نسخة بحاشية الأصل : « بمنارة » .

(٢) ديوانه : ١٠١ ، واللاحب : الطريق المنقاد الذي لا ينقطع . والمنار : جمع منارة ؛ وهي العلامة التي تجعل بين الحدين ؛ ورواية الديوان : « النباطي » .

والعَوْد : المسِنُّ من الإبل ، والدِّيافيّ : منسوبٌ إلى دِياف ، قرية بالشام مَعْروفة[١] .
وسافَهُ : شمّه[٢] ، والجرْجَرة مثلُ الهدير ؛ وإنّما أراد أنّ العَوْد إذا شمّه عرفه فاستبعده ، وذكَرَ ما يلحقُه فيه من المشقّة ، فجرْجَر لذلك ؛ وقال ابن أحمر :

لا تُفزِعُ الأرْنَبَ أهْوَالُها ... ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ

أراد : ليست بها أهوال فتفزِع الأرنبَ ؛ وقال النّابغة :

يَحُفُّهُ جانِبا نِيقٍ وتُتْبِعُهُ ... مِثلَ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ مِنَ الرَّمَدِ[٣]

أراد : ليس بها رمَدٌ فتُكْحَلُ له ؛ وقال امرُؤ القيس أيضا[٤] :

وصُمٌّ حَوَامٍ ما يَقِينَ مِنَ الوَجَى ... كأنَّ مكانَ الرِّدْفِ مِنهُ على رَالِ

/ يصف حوافرَ فرسه . وقوله : « مايَقِينَ منَ الوَجَى » فالوَجَى هو الحفا ، و « يَقِين » ؛ [٢٦]
أي يَتَوَقَّيْن ، يقال : وَقَى الفرسُ إذا هاب المشي ، فأراد أنه لا وجَى بحوافره فيتهيّبْن الأرض من أجله ، والرألُ : فرخ النعام ، وشبّه إشراف عَجُزِه بعجُز الرّأل ؛ وقال الآخر[٥] :

---

(١) ت : « وهى قرية » ، وفى معجم البلدان : « وقيل من قرى الجزيرة ، وأهلها نبط الشام » .

(٢) م : « شمه وعرفه » .

(٣) حاشية ت : « الهاء فى يحفه للحمام ، والنيق : أرفع موضع فى الجبل ، ومثل الزجاجة عين المرأة التى وصفها » ، وفى حاشية الأصل : « وقبله :

واحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاةِ الحيِّ إذ نَظَرَتْ ... إلى حَمَامٍ سِرَاعٍ وارِدِ الثَّمَدِ
قالتْ ألا لَيْتَمَا هــذا الحَمامُ لَنَا ... إلى حمامتنا ونصفَهُ فَقَــدِ

ـ والثمد : الماء القليل » .

وفتاة الحى : هى بنت الخس ، عن الأصمعى ، وعن أبى عبيدة : زرقاء اليمامة . وذكر أبو حاتم أنه كان لها قطاة ، ومر بها سرب من القطا بين جبلين ؛ فقالت : ليت هذا الحمام لى ، ونصفه إلى حمامتى فيتم لى مائة ؛ فنظروا فإذا هى كما قالت ، وأرادت بالحمام القطا ، وكانت جملة الحمام ستا وستين » . وانظر الأبيات وشرحها فى ديوان النابغة ـ بشرح البطليوسى ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) ت ، وحاشيتى الأصل ، ف « يصف فرسا ، وقبله :

سَلِيمُ الشَّظَا عَبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا ... له حَجَبَاتٌ مشرِفَاتٌ على الفَالِي

ـ الشظا : عظم مستدق لاصق بعظم الذراع . والحجبة على الورك ، وهما حجبتان مشرفتان على الخاصرتين لجمهما بما حواليهما . والفالى يعنى به الفائل ؛ فقلبه ، والفائل : لحم على خربة الورك ؛ وانظر الديوان : ٦٥ .

(٥) هو أعشى باهلة ؛ من قصيدة يرثى بها المنتشر بن وهب .

لا يَغمِزُ السّاقَ مِنْ أيْنٍ ولا وَصَبٍ ... ولا يَعَضُّ على شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ[(١)]

أرادَ : ليس بساقِه أيْنٌ ولا وصَبٌ فيغمِزها من أجلهما ؛ وقال سُوَيد بن أبي كاهل :

مِنْ أُناسٍ لَيْسَ مِنْ أخلاقِهِمْ ... عاجِلُ الفُحْشِ ولا سُوءُ الجَزَعْ[(٢)]

ولم يُرِدْ أنّ في أخلاقهم فُحشاً آجلاً[(٣)] ولا جَزَعاً[(٤)] ؛ وإنما أراد نفيَ الفحش والجزع عن أخلاقهم . ومثل ذلك قولهم : فلان غير سريع إلى الخنا ، وهم يريدون أنّه لا يقرَبُ الخنا، لا نفيَ الإسراع حَسْبُ . وقال الفرزدق وهو يهجو ابْنَيْ جعفر بن كلاب ، ويعيّرهم بقتلى منهم أصيبوا في حروبهم، فحماتِ النساءُ هؤلاء القتلى حتى أتين بهم الحىّ[(٥)] :

ولمْ تأتِ عِيرٌ أهلَها بالّذى[(٦)] أتتْ ... بِهِ جَعفراً يومَ الهُضَيْباتِ عِيرُها[(٧)]

أتتْهُمْ بِعِيرٍ لم تكُنْ هَجَرِيّةً ... ولا حِنطةَ الشامِ المَزِيتَ خَمِيرُها

يعنى أنَّ العيرَ إنما تحمل التمر أوالطعام إلى الحى، فحملت عِيرُ هؤلاء القوم القتلى، وقوله: « لم تكنْ هَجَرِيّة » ؛ أى لم تحمل التمر ، وذلك لكثرة التمر بهَجَر ، ثم قال : «ولا حنطة الشام المزيتَ خميرُها » ، ولم يرِدْ أن هناك حنطة ليس في خميرها زيت ؛ لكنه أراد أنها لم تحمل تمراً ولا حِنطة ، ثم وصف الحِنْطَة وما يجعل في خميرها من الزيت.

(١) كذا في جميع الأصول ؛ وهو يوافق ما في اللآلى : ٧٥ ، والكامل ـ بشرح المرصفى ٨ : ٢١٢ ؛ ورواية جمهرة الأشعار ٢٨٢ ؛ وفى ملحقات ديوان الأعشى ٢٦٨ :

لا يَتأرّى لِما في القِدْرِ يَرْقُبُهُ ... ولا يَعَضُّ على شُرْسوفِهِ الصَّفَرُ

لا يغمِزُ السّاقَ مِنْ أيْنٍ ولا وَصَبٍ ... ولا يَزالُ أمامَ القومِ يَقْتَفِرُ

وهى توافق رواية المؤلف فيما بعد . والتأرى : التحبس والمكث ، والصفر : حية في البطن تعض الشرسوف إذا جاع صاحبه . ولا يغمز الساق : لا يحنيها والاقتفار : أن يؤكل الخبز قفارا .

(٢) المفضليات : ١٩٥ . (٣) ت ، د : « فحشا عاجلا ولا آجلا » .

(٤) ت ، د ، ف : « ولا جزعا غير سيء » . (٥) ديوانه ٢ : ٤٥٩ .

(٦) ت ، د ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « كالذى » . (٧) الهضيبات : موضع كان فيه يوم من أيام العرب ؛ هو يوم طخفة ؛ ذكره البكرى في معجم ما استعجم : ١٢٥٤ ، وأورد البيت .

وعلى هذا يقع تأويل[١] الآيات التى وقع السؤال عنها ، لأنه تعالى لما قال : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ دلّ على أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق ، ثم وصف[٢] القتل بما لابد أن يكون عليه من الصفة ، وهى وقوعه على خلاف الحق؛ وكذلك : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ ، إنما[٣] هو وصف لهذا الدعاء ، وأنه لا يكون إلا عن غير برهان[٣] . وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ وجهه أيضا أنه لو كان هناك عَمَدٌ لرأيتموه ، فإذا نفى رؤية العمد نفى وجود العمد ؛ كما قال : « لا يُهْتَدَى [٧٦ ظ] بمناره » ، أى لا منار له من حيث عُلم أنه لو كان له منار لاهْتُدِى به ، فصار نفىُ الاهتداء بالمنار نفيا لوجود المنار . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ تغليظ وتأكيد فى تحذيرهم الكفر ، وهو أبلغ من أن يقول : « ولا تكفروا به » ، ويجرى مجرى قولهم : فلان لا يسرع إلى الخنا ؛ وقلّما رأيت مثله إذا أرادوا به تأكيد نفى الخنا ونفى رؤية مثل المذكور . وكذلك قوله: ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ ، معناه لا مسألة تقع منهم ، ومثل الأول: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ؛ والفائدة أن كل ثمن لها لا يكون إلا قليلا ، فصار نفى الثمن القليل نفيا لكل ثمن ، وهذا واضح بحمد الله ومنّه .

(١) حاشية ت (من نسخة) : « وتأويل » .   (٢) حاشية ت (من نسخة) : « وإنما وصف » .

(٣ـ٣) ساقط من م .

بَابٌ

فى ذكر شيء من أخبار المعمَّرين وأشعارهم ومستحسن كلامهم

أحد المعمَّرين الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد[١] بن مالك بن أُدَدٍ[٢] المَذْحِجىّ، ومذحِج[٣] هى أم مالك بن أددٍ، نسب ولد مالك إليها، وإنما سُمِّيَتْ مَذْحِجاً[٤] لأنها وُلِدَتْ على أَكَمة تسمى مَذْحِجاً، واسمها مُدلَّة بنت ذى مَنْجَشان[٥].

قال أبو حاتم السجستانىّ : جَمَع الحارث[٦] بن كعب بنيه لما حضرتْه الوفاة فقال : «يا بَنِى ، قد أتى علىّ ستون ومائة سنة ، ما صافحت بيمينى[٧] يمين غادر ، ولا قنَّعْتُ[٨] نفسى بخُلَّة فاجر ، ولا صَبَوْتُ بابنة عمٍّ ولا كَنَّة ، ولا طَرَحَتْ عندى مُومِسة قِناعها ، ولابحْتُ لصديق بسرٍّ ، وإنى لَعلى دين شعيب النبى عليه السلام، وما عليه أحد من العرب غيرى، وغير أسَد بن خُزَيمة ، وتميم بن مُرّة ، فاحفظوا وصيَّتى، وموتوا على شريعتى: إلهكم فاتقوه يكفِكم المهمّ من أموركم ، ويُصلح لكم أعمالكم ؛ وإياكم ومعصيته[٩]، لايَحِلّ بكم الدَّمار ، ويُوحِشُ منكم الدِّيار . يا بَنِىّ ، كونوا جميعا ولا تفرقوا فتكونوا شِيَعا ، وإنَّ موتاً فى عزٍّ خيرٌ من حياةٍ فى ذلٍّ وعجزٍ، وكُلُّ ماهو كائن كائن ، وكلٌّ جميع إلى تَباين . الدهر [١٠] صَرْفان : فصرفُ رخاء ، وصرفُ بَلاء [١٠] ، واليوم يومان : فيومُ حَبْرَة ، ويوم

(١) كذا فى جميع الأصول ، وفى حاشية الأصل : « ذكر س : هذا سهو ، وهو كعب بن عمرو ابن علبة بن جلد بن مالك . ووعلة وخالد تصحيف وغلط » .

(٢) فى حاشية الأصل ، ت : « صرفت العرب « أددا » ، ولم يجعلوه من باب عمر وزفر » .

(٣) حاشية الأصل : « ذكر س : قال أبو جعفر محمد بن حبيب : مذحج هى أخت مدلة ، واسمها مدلة بنت منجشان بن كلة بن زدمان ، من حمير » . (٤) حاشية ت : « بخط ش : الصواب ألا اصرف مذحج للتأنيث والتعريف » . (٥) س : « مهجشان » ، ت : « منجشان » .

(٦) لم يذكر فيما طبع من أخبار المعمرين لأبى حاتم . (٧) حاشية ت (من نسخة) : « ماصافحت يمنى » . (٨) حاشية ت (من نسخة) : « قنعت » ، بإسكان التاء .

(٩) ت : « ومعصية الله » . (١٠ — ١٠) ش : « والدهر ضربان : فضرب رخاء ، وضرب بلاء » .

عَبْرَة ، والناس رجلان : فرجل معك ورجل عليك ، وتزوّجوا الأكفاء ، وليستعملْنَ في طِيبِهن الماء ، وتجنّبوا / الحمقاء ؛ فإنّ ولدها إلى أفْنٍ ما يكون ، إلّا أنه لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف القومُ أمكنوا عدوّهم منهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ؛ والتفضّل بالحسنة يقِى السيئة ، والمكافأة بالسيئة الدخول فيها . العمل السوءُ يُزيل النعماء ، وقطيعة الرَّحِم تُورث الهمّ ، وانتهاك الحرمة يُزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يعقب النَّكد ، ويمحق العدد ، ويخرب البلد ، والنصيحة تجرّ الفضيحة ، والحقد يمنع الرِّفْد ، ولزوم الخطيئة يعقب البلية ، وسوء الرِّعة يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين» ؛ ثم أنشأ يقول : [٧٧ و]

أكَلْتُ شَبابِي فأفْنَيْتُهُ ... وأفْنَيْتُ بَعْدَ دُهُورٍ دُهورا
ثلاثةُ أهلِينَ صاحَبْتُهُمْ ... فبادُوا وأصبَحْتُ شيخاً كَبيرا
قَليلَ الطَّعامِ عَسيرَ القِيامِ ... قدْ تَرَكَ الدَّهرُ خَطْوِي قَصيرا
أبِيتُ أُراعي نُجُومَ السَّماءِ ... أُقَلِّبُ أمْرِي بُطُوناً ظُهوراً

قوله : « ولا صبوْتُ بابنة عم ولا كَنّة » ، الصَّبْوة هي رقّة الحُبّ ، (١ والكَنّة . امرأة أخي الرجل وامرأة ابن أخيه ١) .

فأما الموسة ، فهي الفاجرة البغيّ ، وأراد بقوله : « إنها لم تطرَحْ عنده قناعها » أي لم تَتَبذّل (٢) عنده وتتبسّطُ ، كما تفعل مع من يريد الفجور بها .

وقوله : « فيوم حَبْرَة ويوم عَبْرَة » ، فالحبرة : الفرح والسرور ، والعَبْرة تكون من ضِدّ ذلك ؛ لأنّ العَبْرة لا تكون إلّا من أمر محزن مؤلم .

وأما الأفْن ، فهو الحُمْق ؛ يقال : رجل أفين ؛ إذا كان أحمق ؛ ومثل من أمثالهم : « وِجْدانُ الرقين ؛ يُغطّي على أفْن الأفين » ، أي وِجْدانُ المال يغطّي على حُمْق الأحمق ، وواحدُ الرِّقين رِقَة ، وهي الفضة .

(١ ـ ١) حاشية الأصل (من نسخة) « والكنة هي امرأة ابن الرجل وامرأة أخيه » .

(٢) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « لم تبتذل » .

فأما قوله : « النصيحة تجر الفضيحة » ، فيشبه أن يكون معناه أنَّ النَّصيحَ إذا نَصح لمن لا يقبل نصيحَته ، ولا يُصْغِي إلى موعظتِه فقد افتضحَ عنده ؛ لأنه أفضى إليه بسرِّه ، وباح بمكنون صدره .

فأما « سوء الرِّعة » ، فإنه يقال : فلان حَسَن الرِّعة والتورُّع ، أىْ حَسَنُ الطريقة .

* * *

ومن المعمَّرين المستوغِرُ ، وهو عَمْرو بن رَبيعـة بن كعب بن سعد بن زَيْد مَناة بن تميم ابن مُرّ بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مُضر .

وإنما سمِّىَ المستوغِر ببيت قاله ، وهو :

[٧٢ ظ] / يَنِشُّ المـاءُ فى الرَّبَلاتِ مِنْها نَشِيشَ الرَّضْفِ فى اللَّبَنِ الوَغِيرِ(١)

الرَّبَلَات : واحدتُها ، رَبَلة ، ورَبْلة ، بفتح الباء وإسكانها ، وهى كلّ لحمة غليظة ؛ هكذا ذكر ابن دريد .

والرَّضْف : الحجارة المحماة ، وفى الحديث : « كأنه على الرَّضْف » ؛ واللبن الوغير : لبن تُلْقَى فيـه حجارة مُحْماة ثم يشرب ، أُخِذَ من وَغْرةِ الظهيرة ، وهى أشدُّ ما يكون من الحرّ ؛ ومنه : وَغِرَ صدْر فلان يَوْغَرُ وغْراً ، إذا التهب من غضبٍ أو حقد .

وقال أصحابُ الأنساب : عاش المستوغِر ثلاثمائة سنة وعشرين ، وأدرك الإسلام أو كاد يدرك أوّله .

وقال ابن سلام : كان(٢) المستوغِر قديمًا ، وبقى بقاء طويلا حتى قال :

وَلقدْ سَئِمْتُ مِنَ الحياةِ وطُولِها وعَمِرْتُ(٣) مِنْ عَدَدِ السِّنينَ مِئِينا
مائةٌ أتَتْ مِنْ بعدِها مائتانِ لى وازْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ الشُّهورِ سِنِينا
هلْ ما بَقَى(٤) إلاَّ كَما قدْ فاتَنا يومٌ يَكُرُّ وليـلةٌ تَحدُونا

(١) ت : « ذى الربلات » ، د : « بالربلات » والبيت فى اللسان (وغر) ، والمعمرين ٩ — ١٠ .
(٢) طبقات الشعراء : ٢٩٠ — ٣٠ . (٣) فى الطبقات : « وازددت » .
(٤) بقى ؛ بالألف ، يريد بقى ، بالياء : لغة طائية .

وهو القائل :

إذا[1] ما المرءُ صَمَّ فلم يُكَلَّمْ[2] وأَوْدى سَمْعُهُ إلاّ نِدايا[3]
ولاعَبَ بالعَشِيِّ بَنِي بَنِيهِ كفِعْلِ الهِرِّ يحترشُ العَظايا
يُلاعِبُهُمْ ووَدُّوا لو سَقَوْهُ مِنَ الذِّيفانِ مُتْرَعَةً مِلايا[4]
فلا ذاقَ النَّعيمَ ولا شَرابًا ولا يُشْفَى مِنَ المَرَضِ الشِّفايا

أراد بقوله : « صَمَّ فلم يكلم » ، أي لم يسمع ما يكلَّم به ، فاختصر ؛ ويجوزُ أن يريدَ أنه لم يكلَّم لليأس من استماعه فأُعْرِض عن خطابه لذلك . وقوله : « وأودى سمعُه إلّا نِدايا » أرادَ أنَّ سمعَه هلك؛ إلّا أنه يسمعُ الصوتَ العالي الذي ينادَى به .

وأما قوله : « ولاعب بالعشيِّ بني بنيه » ، فإنّه مبالغة في وصفه بالهَرَم والخَرَف ، وأنه قد تناهَى إلى ملاعبة الصبيان وأُنسِهم به . ويشبه أن يكون خَصَّ العشيَّ بذلك لأنّه وقت رواح الصبيان إلى بيوتهم واستقرارهم فيها .

وقوله : « يحترش العظايا » ؛ أي يصيدُها ، والاحتراشُ أن يقصد الرجل إلى جُحْر [٧٨ و] الضَّب فيضربَه بكفّه ليحسبه الضب أفْعَى ، فيخرج إليه فيأخذه ، يقال : حَرَشْتُ الضَّبَّ ، واحترشتُه ؛ ومن أمثالهم : « هذا أجلُّ من الحَرْش » ، يضرب عند الأمر يُستعظم ، ويُتكلم بذلك على لسانِ الضب . قال ابن دريد : قال الضب لابنه : اتَّقِ الحَرْش ، قال : وما الحَرْش ؟ قال : إذا سمعتَ حركةً بباب الجُحْر فلا تخرج ؛ فسمع يومًا وقع المِحْفار فقال: يا أَبَهْ ، أهذا الحَرْش ؟ فقال : « هذا أجلُّ من الحَرْش » ؛ فجُعل مثلا للرجل إذا سمع الشيء الذي هو أشدُّ مما كان يتوقّعه .

---

(١) الأبيات في طبقات الشعراء : ٣٠ ، وحماسة البحترى ٣٢٤ (ورواها همزية) ، ومعجم الشعراء : ٢١٣ ، وفي حاشية الأصل : « ذكر من قال : « قرأت بخط عبد السلام البصرى رحمه الله أن هذه القطعة : إذا ما المرء ... لعسكلان بن ذى كواهن الحميرى » .

(٢) في الطبقات ومعجم الشعراء « فلم يناجى » .

(٣) في حاشية الأصل ، ت : « إنما قلب الهمزة في ندايا وشفايا وغيرها ياء لأنه لو قال : شفاءا لكانت تحصل همزة يكتنفها ألفان ، والألف قريب من الهمزة ، فإذا اجتمع ألفان مع همزة صار كأنه قد حصل قريب من الهمزتين ؛ فلما كان كذلك أبدل من الهمزة ياء » .

والذَّيفان: السُّم . والعظايا : جمع عَظاية، وهى دوَيبة صغيرة معروفة[١] .

* * *

وأحدالمعمَّرين دُوَيد بن زيد بن نَهْد بن زيد بن ليث بن سُود[٢] بن أسلُم[٣] بن ألحافِ[٤] ابن قُضاعة بن مالك بن مرة بن مالك بن حِمْيَر .

قال أبو حاتم : " عاش دُوَيد بن زيد أربعمائة سنة وستا وخمسين سنة " قال ابن دُريد : لما حضرتْ دوَيد بن زيد الوفاة ـ وكان من المعمَّرين، قال : ولا تَعدُّ العرب معمَّراً إلا مَن عاش مائة وعشرين[٥] سنة فصاعدا ـ قال لبنيه : « أوصيكم بالناس شراً ، لا ترْحَموا لهم عَبرة ، ولا تُقيلوهم[٦] عَثْرَة ، قَصِّرُوا الأعنّة ، وطوِّلوا[٧] الأسنّة ، واطْعُنوا[٨] شزْراً ، واضربوا هبْراً ؛ وإذا أردتم المحاجزة ، فقبل المناجزة ، والمرء يعجِز لاالمحالةُ ، بالجِدِّ لا بالكَدِّ . التجلُّد ولاالتبلُّد ، والمنية ولا الدَّنِية . لا تأسَوْا على فائت وإن عزَّ فقدُه ، ولا تَحِنُّوا إلى ظاعنٍ وإن أَلِفَ قُرْبُه ، ولاتطمعوا فتطبَعُوا ، ولا تَهنُوا فتخرَعوا ، ولا يكون[٩] لكم المثلُ السوء؛ إنَّ الموصَّيْنَ بنو مَهْوان . إذا مِتُّ فارحَبوا[١٠] خطَّ مضجعى ، ولا تضَنُّوا علىَّ برُحب الأرض، وماذلك بمؤدٍّ إلىَّ روْحاً[١١]؛ ولكن راحةُ نفسٍ[١٢] خامرها الإشفاق». ثم مات.

قال أبو بكر بن دريد فى حديث آخر إنه قال :

---

(١) وانظر أخبار المستوغر فى المعمرين: ٩، وطبقات الشعراء: ٢٩ــ٣٠، ومعجم الشعراء: ٢١٣ــ٢١٤

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « سويد » . (٣) حاشية الأصل : « بضم اللام » .

(٤) حاشية الأصل : « ألحاف ، بقطع الألف كأنه جمع لحف ؛ كذا وجدته مضبوطا فى النسخة المقروءة على ابن خروزاذ الجيرى ؛ وهو الصحيح ، والحاف موصولا أيضا يقال » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « مائة وستا وعشرين » . (٦) ت : « ولا تقيلوا لهم » .

(٧) ت : «وأطولوا» . (٨) حاشية ت : طعن بالرمح يطعن [بضم العين] ، وباللسان يطعن [بفتح العين] . (٩) ش : « ولا يكن » . (١٠) حاشية ت : « بخط ش : « فأرحبوا » ، بالقطع وكسر الحاء . (١١) حاشية ت (من نسخة) : « نفعا » . (١٢) حاشية الأصل (من نسخة): « حاجة نفس » .

اليومَ يُبْنَى(١) لِدُوَيْدِيَتُهْ يَارُبَّ نَهْبٍ(٢) صالحٍ حَوَيْتُهْ

ورُبَّ قِرْنٍ(٣) بَطَلٍ أرْدَيْتُهْ ورُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُهْ

ومِعصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيْتُهْ لو كانَ لِلدَّهرِ بِلًى أبْلَيْتُهْ

أو كانَ قِرْنِي واحِداً كَفَيْتُهْ

ومن قوله أيضا :

[٧٨ ظ] / ألقَى علىَّ الدهرُ رِجْلاً ويَدَا والدَّهرُ ما أصلحَ يوماً أفْسَدَا

يُفسِدُ ما أصلحَه اليومَ غدا

قوله : «اطعُنوا شَزْراً ، واضرِبُوا هَبْراً» ، معنى الشَّزْرِ أن يطعُنه من إحدى ناحيتيه ، يقال: فَتَلَ الحبلَ شَزراً إذا فتلهعلى الشمال، والنظر الشَّزْر: نظرٌ بمؤْخِرِ العين؛ وقال الأصمعىّ: نظر إلىّ شَزْرا إذا نظر إليه من عَنْ يمينه وشِماله ، وطعنه شَزْرا كذلك .

وقوله : « هبراً » ، قال ابن دريد : يقال هبرتُ اللحمَ أهبُرُه هَبراً إذا قطعته قطعاً كِبارا ، والاسم الهَبْرة والهُبرة ، وسيف هبَّارٌ وهابرٌ ، واللحم هَبيرٌ ومهبورٌ . والمحَالة : الحيلة(٤) .

وقوله : « بالجَدِّ لا بالكَدِّ » ؛ أى يدرِك الرجل حاجتَه وطلبته بالجَدّ ، وهو الحظ والبخْت ، ومنه رجل مجدودٌ ، فإذا كسرت الجيم فهو الانكماش فى الأمر والمبالغة فيه .

وقوله : « التجلد ولا التبلد » ؛ أى تجلَّدوا ولا تبلَّدوا .

وقوله : « فَتَطْبَعوا » ، أى تدَنَّسوا ، والطَّبَعُ الدنس ، ويقال طَبِعَ السيفُ يطبَع طَبَعاً ، إذا رَكِبه الصَّدَأ ؛ قال ثابت قطنة(٥) العتكىّ :

لاَ خيرَ فى طَمَعٍ يُدْنِى إلى طَبَعٍ وغُفَّةٌ مِن قَوامِ العَيْشِ تكفِينى(٦)

(١) حاشية ف (من نسخة) : « يدنى » . (٢) النهب : الغنيمة تنتهب .
(٣) القرن : الذى يلقاك ليقاومك . (٤) فى حاشيتى الأصل ، ت : « قد قيل إن المحالة يعنى بها الآلة التى يستقى عليها ، وهى مثل البكرة » . (٥) حاشية ت : « ويقال : قطبة » .
(٦) الغفة : البلغة من العيش ؛ كذا ذكره صاحب الفدان واستشهد بالبيت .

وقوله : « ولا تهنوا فتخرعوا »؛ فالوهن الضعف ، والخَرَع والخَرَاعة: اللين ، ومنه سميت الشجرة الخِرْوَع للينها، وقوله : «إنّ الموصّيْن بنو سهوان»؛ فالموصَوْن جمع موصًّى، وبنو سَهْوان ضرب به مثلا ، أى لا تكونوا ممن تقدم إليهم فسهَوْا وأعرضوا عن الوصية ، وقالوا : إنه يُضرَب هذا المثل للرجل الموثوق به ذمة؛ ومعناه أن الذين يحتاجون أن يوصَّوْا بحوائج إخوانهم هم الذين يسهون عنه لقلة عنايتهم ؛ وأنت غير غافل ولا ساه عن حاجتى .

وقوله : « فارحبوا »؛ أى أوسعوا، والرُّحب السعة ، والرَّوْح : الراحة .

وقوله فى الشعر : « ورب غَيْل »؛ فالغَيل الساعدُ الممتلئ . والمعصم : موضع السُّوار من اليد[1] .

* * *

ومن المعمَّرين زهير بن جناب بن هُبَل بن عبد الله بن كِنانة بن بكر بن عوف بن عُذْرة بن زيد اللات بن رُفيدة بن ثَوْر بن كلب بن وبرة بن تَغْلِب بن حلوان بن عمران بن ألحافِ بن قُضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير .

[٧٩ و] /قال أبو حاتم : " عاش زهيرُ بن جَناب مائتى سنة وعشرين سنة ، وأوقع مائتى وقعة ، وكان سيداً مطاعاً شريفاً فى قومه ، ويقال : كانت فيه عشْرُ خِصال لم يجتمعن فى غيره من أهل زمانه ، كان سيدَ قومه ، وشريفَهم ، وخطيبَهم ، وشاعرَهم ، ووافدَهم إلى الملوك ، وطبيبَهم — والطبُّ فى ذلك الزمان شرف — وحازِىَ قومِه — والحُزاة الكُهّان — وكان فارسَ قومه ، وله البيت فيهم ، والعدد منهم " .

وأوصى بنيه فقال : « يابنى ، قد كبِرتْ سنّى ، وبلغتُ حَرْساً من دهرى ، فأحكمتنى التجارِب، والأمورُ تجربةٌ واختيال؛ فاحفظوا عنى ماأقول وعُوه ، إياكم والخور عند المصائب، والتواكلَ عند النوائب ، فإنّ ذلك داعيةٌ للغم ، وشماتةٌ للعدو ، وسوء ظن بالرّب .

---

(١) وانظر ترجمة دويد وأشعاره فى (طبقات الشعراء ٢٧ــ٢٨ ، والمعمرين ٢٠ــ٢١ ، والمختلف والمؤتلف من الشعراء ١١٤ــ١١٥ ، والاشتقاق ٣٢١ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٠ ، والقاموس ــ دود).

وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سَخِر قومٌ قطّ إلّا ابتُلوا ، ولكن توقّوها ، فإنما الإنسان فى الدنيا غرض تَعاوره الرّماة ، فمقصِّرٌ دونه ومجاوزٌ لموضعه ، وواقعٌ عن يمينه وشماله؛ ثم لابدّ أنّه مصيبه» .

قوله : « حَرْساً من دهرى » ، يريد طويلا منه ، والحَرْس من الدّهر : الطويل ؛ قال الراجز :

* فى سَنْبةٍ عشنا بذاك حَرْساً *

السَّنْبَة : المدة من الدهر . والتواكل : أن يكِل القومُ أمرَهم إلى غيرهم ، من قولهم : رجلٌ وَكِلٌ ، إذا كان لا يكفى نفسَه ، ويَكِلُ أمرَه إلى غيره ؛ ويقال : رجل وُكَلَة تُكَلَة .
والغرض : كلّ ما نصبتَه للرمى . وتعاوره ، أى تداوله .

قال سيدنا الشريف أدام الله علوّه : وقد ضمّن ابنُ الرومى[١] معنى قول زهير بن جناب : « الإنسان فى الدهر غَرَض تعاوره الرماة ، فمقصِّر دونَه ومجاوزٌ له ، وواقع عن يمينه وشماله ، ولابدّ أن يصيبه » أبياتاً ، فأحسن كلّ الإحسان ؛ والأبيات :

كَفَى بِسِرَاجِ الشَّيْبِ فى الرَّأْسِ هادِيا ... لِمَنْ قدْ أَضَلَّتْهُ[٢] المَنَايا لَيَالِيا
أمِنْ بَعْدِ إبداءِ المَشيبِ مَقاتِلى ... لِرَامِى المَنَايا تحسَبِينَ ناجيا
غَدَا الدَّهرُ يَرْمِينى فتَدْنو سِهامُهُ ... لِشَخصِىَ[٣] أَخلِقْ أنْ يُصِبْنَ سَوَادِيا
وكانَ كَرَامِى اللّيلِ يَرْمِى ولا يَرَى ... فلمّا أضاء الشَّيبُ شَخصى رَمانيا

[٧٩ ظ] أما البيت الأخير ، فإنه أبدَع فيه وغرّب[٤] ، وما علمتُ أنّه سُبِق إلى معناه ؛ لأنّه جعلَ الشباب كالليل الساتر على الإنسان ، الحاجز بينه وبينَ مَنْ أراد رميه لظلمته

---

(١) حاشية الأصل : « كان ابن الرومى متشيعا ، وكان منافقا الشعر واللغة ؛ بحيث يقول لتلامذته : اعرضوا شعرى على ثعلب ، فما أنكر من نحوه فخذوه ، وما أنكر من لغته فلا تلفتوا إليه ؛ فإنى أعلم منه باللغة » .
(٢) ش : « لمن من أضلته » . حاشية ت (من نسخة) : « له من أضلته » .
(٣) ت ، ونسخة بحاشية الأصل : « لشخصى وأخلق » .
(٤) ت : « وأغرب » .

والشيبَ مبديًا لمقاتله، هاديًا إلى إصابته لضوئه وبياضه ، وهذا فى نهاية حسن المعنى .

وأراد بقوله : « رمانى » أى أصابنى ؛ ومثله قول الشاعر :

فلمَّا رَمَى شَخصِى رَمَيتُ سَوَادَهُ ولابدَّ أنْ يُرْمَى سَوَادُ الَّذِى يَرْمِى

وكان زهيرُ بن جَناب على عهد كُلَيب وائل ، ولم يكن فى العرب أنطقُ من زهير ولا أوْجَه عند الملوك ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهنًا، ولم تَجْتَمِع قُضاعة إلّا عليه وعلى رزاح ابن ربيعة .

وسمع زهيرٌ بعضَ نسائه تتكلّم بما لا ينبغى لمرأة تتكلم[1] به عنـد زوجها ، فنهاها فقالت له : اسكتْ عَنى وإلّا ضربتُك بهذا العمود ، فوالله ما كنت أراك تسمع شيئًا ولا تعقِله، فقال عند ذلك :

أَلَا لَقَوْمٍ لا أرَى النَّجْمَ طالِعًا ولا الشَّمسَ إلاَّ حاجَتى بيَمينى
مُعَرِّبَتى عِنـدَ القَفا بعَمودِها يـكُونُ نـكيرِى أنْ أقولَ ذَرِينى
أمِينًا على سِرِّ النِّسـاءِ ورُبَّما أكونُ على الأسرارِ غيرَ أمِينِ
فلَلموتُ خيرٌ مِن حِداجٍ[2] مُوَطَّإٍ مَعَ الظَّعْنِ لا يأتِى المَحَلَّ لِحِينِ

وهو القائل :

أَبَنِىَّ إنْ أهلِكْ فقدْ أوْرَثْتُكُمْ مَجداً بَنِيَّهْ
وتَرَكْتُكُمْ أرْبابَ سا دَاتٍ زِنادُكُمْ ورِيَّهْ
مِن كُلِّ ما نالَ الفَتى قدْ نِلْتُهُ إلّا التَّحِيَّهْ
ولقَدْ رَحَلْتُ البازِلَ الـ ـكَوْماءَ ليسَ لها وَلِيَّهْ
وخَطَبْتُ خُطْبَةَ حازِمٍ غيرِ الضَّعيفِ[3] ولا العَيِيَّهْ

---

(١) ت : « أن تتكلمه » . (٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : « الحدج : مركب من مراكب النساء ؛ كالمحفة ؛ وجمعه أحداج وحدوج ؛ والحداجة لغة فيه ؛ عن يعقوب ، والجمع الحدائج » .

(٣) حاشية ت (من نسخة): « لا بالضعيف » .

فالموتُ خيرٌ للفتى   فليهلكنْ وبه بقيّةْ
مِن أن يُرى الشيخَ البجا   لَ وقد يُهادَى بالعشيّةْ

[٨٠] و

وهو القائل :

ليتَ شِعري والدهرُ ذُو حَدَثانٍ   أيَّ حِينٍ مَنيّتِي تلقانِي!
أسُباتٌ على الفِرَاشِ خُفاتٌ   أمْ بكَفَّيْ مُفَجِّعٍ حرّانِ[1]!

وقال حين مضت له مائتا سنة من عمره :

لقدْ عُمِّرتُ حتى ما أبالي   أحَتْفِي في صباحي أمْ مَسائِي!
وحُقَّ لِمَنْ أتتْ مائتانِ عاماً   عليهِ أنْ يَمَلَّ مِنَ الثَّوَاءِ

قوله : « مُعزبتي » يعني امرأته ، يقال : معزَبة الرجل وطَلّته وحَنّته ؛ كل ذلك امرأته .

وقوله : « أمينا على سرّ النساء » ، السرّ : خلافُ العَلانية ، والسرُّ أيضا : النكاح ، قال الحُطيئة :

ويَحرُمُ سِرُّ جارتِهمْ عليهمْ   ويأكُلُ جارُهُمْ أنفَ القِصاعِ[2]

وقال امرؤ القيس :

ألاَ زَعَمَتْ بَسْباسةُ اليومَ أنني   كَبِرْتُ وألاَّ يُحْسِنُ السِّرَّ أمثالي[3]

(١) حاشية الأصل : « السبات ، أصله النوم ، ويريد به الموت ، وقد قيل : النوم موت خفيف، والموت نوم ثقيل ؛ يقول : ليت شعري : أالموت حتف أنفي على فراشي ، أم يقتلني متأثر عطشان إلى دمي! » .

(٢) ديوانه : ٩٣ ؛ وفي حاشية الأصل : « أنف القصاع أول ما يغرف من القدر فيكون أدسم » ، وفي شرح الديوان : « يقول : يؤثرون جارهم بالطعام على أنفسهم ، فيأكل صفوة طعامهم قبلهم ، وأنف كل شيء أوله . (٣) ديوانه : ٣٢ » ، وقد ضبط قوله : « لايحسن » ، بالضمة والفتحة معا ، في الأصل ، ت ، وفي حاشيتيهما : « الرفع على إضمار الهاء ، والنصب على اللفظ » ، وفي حاشية الأصل (من نسخة) : « وألا يشهد » .

وكلا زهير يحتمل الوجهين جميعاً ، لأنه إذا كَبِر وهرِم لم تهيَّبْه النساء أن (١) يتحدَّثن بحضرته بأسرارهن (١)، تهاونا به ، أو تعويلا على ثِقَل سمعه ، وكذلك هَرَمه وكِبَرُه يُوجبان كونَه أمينا على نكاح النساء لعجزه عنه .

وقوله: « حِداجٌ مُوَطَّأ »، الحِداج (٢) : مَرْكَبٌ من مراكب النساء ، والجمع أحداج وحُدوج .

والظُّعُنُ والأظعان: الهوادِج ، والظعينة المرأة فى الهودَج ؛ ولا تُسمَّى ظعينة حتى تكون فى هَوْدج ، والجمع ظعائن ؛ وإنما خبّر عن هَرَمه ، وأن موته خيرٌ من كونه مع الظُّعُن فى جملة النساء .

وقوله: « زنادكم وريَةٌ »؛ الزِّناد: جمع زَنْدٍ وزَنْدَة ، وهما عودان يُقدَحُ بهما النار ، وفى أحدهما فُروض، وهى ثُقَب؛ فالتى فيها الفروض هى الأنثى ، والذى يُقْدح بطرَفه هو الذَّكَر، ويسمى الزَّند الأب ، والزَّندة الأم . وكَنَى « بزنادكم وريَة » عن بلوغهم مآربَهم ؛ تقول العرب : ورِيَتْ بك زِنادى ؛ أى نلتُ بك ما أحب من النُّجْح والنجاة ، ويقال للرجل الكريم: وارِى الزِّناد .

[٨٠ ظ] /فأما التحية، فهى المُلْك ، فكأنه قال : مِنْ كلِّ ما نال الفتى قد نلتهُ إلا المُلك ؛ وقيل التحية هاهنا: الخلود والبقاء .

والبازل : النَّاقة التى بلغت تسع سنين ، فهى أشدُّ ما تكون ، ولفظُ البازل فى الناقة والجمل سواء .

والكَوْماء : العظيمة السَّنام . والوَلِيَّة : برذعة تُطْرَح على ظهر البعير تَلِى جلده .

والبَجال: الذى يُبَجِّلُه قومُه ويعظّمونه . وقوله : « يهادَى بالعشية »، أى يماشيه الرجال فيُسندونه لضعفه . والتهادِى: المشى الضعيف.

(١–١) ت : « تتحدث بحضرته بأسرارها »

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : « القياس حدج [بضمتين] فى جمع حداج؛ إلا أن يكون نادرا ؛ كظروف فى جمع ظريف » .

وقوله: « أَسْبَاتَ » ، فالسُّبات : سكون الحركة ، ورجل مسبوت ، والخُفات : الضعف أيضا ، يقال : خَفَتَ[١] الرجل إذا أصابه ضَعْف من مرض أو جوع .

والمفجَّع : الذى فُجِع بولَدٍ له أو قرابة . والحرّان : العطشان الملتهب[٢] ، وهو هاهنا المحزون على قتلاه .

ومما روى لزهير بن جَناب :

إذَا ماشِئْتَ أنْ تَسْلَى حبيباً ... فأكْثِرْ دُونَه عَدَدَ اللَّيالى
فما سَلَّى حَبيبَكَ مِثْلُ نَأْىٍ ... وما أبْلَى جَدِيدَكَ كابْتِذَالِ[٣]

---

(١) ش : « خفت » ؛ بالبناء للمجهول . (٢) ش : « المحترق » .

(٣) وانظر ترجمة زهير بن جناب وأشعاره وأخباره فى (أخبار المعمرين ٢٤–٢٩ ، والمؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء ١٣٠ ، وطبقات الشعراء : ٣٠ ، والأغانى ٢١ : ٦٣–٦٨ ، والشعر والشعراء ٣٣٩–٣٤٢ ، وتاريخ ابن الأثير ١ : ٢٩٩–٣٠١) .

مجلس آخر [١٧]

ومن المعمَّرين ذو الإصبع العَدوانيّ ، واسمه حُرثان بن مُحَرِّث بن الحارث بن ربيعة ابن وَهْب بن ثعلبة بن ظَرِب بن عمرو بن عِياذ[١] بن يَشْكُر بن عَدوان . وهو الحارث بن عمرو بن قَيْس بن عَيلان بن مضر[٢] .

وإنما سُمى الحارث عَدْوان ، لأنه عَدَا على أخيه؛ فهمّ[٣] بقتله ، وقيل : بل فقَأ عينه ، وقيل : إن اسمَ ذو الإصبع مُحرِّث بن حُرثان، وقيل : حُرثان بن حُوَيرث ، وقيل : حرثان ابن حارثة، ويكنّى أباعدوان .

وسبب لقبه بذى الإصبع أنّ حية نهشتْه على إصبعه فشَلّتْ ، فسمى بذلك . ويقال : إنه عاش مائة وسبعين سنة . وقال أبو حاتم: إنه عاش ثلاثمائة سنة .

وهو أحد حكّام العرب فى الجاهلية . وذكر الجاحظ أنه كان أثْرَم[٤] وروى عنه :

لاَ يَبْعَدَنْ عَهدُ الشباب ولاَ ... لَذَّاتُهُ ونَباتُهُ النضِرُ[٥]
لولاَ أولئك ما حَفَلْتُ متى ... عُولِيتُ فى حَرَجٍ[٦] إلى قبرى

---

(١) ش : « عباد بن يشكر » . (٢) حاشية الأصل : « قال ش : هو قيس عيلان؛ وليس بقيس بن عيلان ، وهو لقب للناس بن مضر، والناس أخو إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وقيل : عيلان اسم فرسه فنسب إليه ، وقيل: بل عيلان لقب مضر بن نزار ، لأنه يقال قيس بن عيلان ؛ قال زفر بن الحارث :

أَلاَ إنَّما قيس بن عَيْلاَنَ بَقَّةٌ ... إذا وَجَدَتْ ريحَ العَصيرِ تغنّتِ

(٣) ش : « فهم قتله » . (٤) حاشية الأصل : « الأثرم : الذى سقطت مقادم أسنانه » .

(٥) فى حاشية الأصل ، ت : « إن جررت النضر بدلا من الهاء فى « نباته » تخلصت من الإقواء ؛ ولك أن تقول : « النضرى » منسوبا كقوله : « والدهر بالإنسان دوارىّ » ، ويجوز أن يعطف على الشباب » .

(٦) حاشية ت (من نسخة) : « حرجى » والحرج : سرير الموتى .

/ هَزِئَتْ أُثَيْلَةُ أَنْ رَأَتْ هَرَمِي ... وَأَنِ انْحَنَى لِتَقَادُمٍ ظَهْرِي [٨١ و]

وكان(١) لذى الإصبع بنات أربعٌ ، فعرَض عليهنّ أن يزوّجهنّ فأبين وقُلْن : خِدْمَتُك وقربُك أحبُّ إلينا . ثم أشرف عليهنّ يوماً من حيث لا يرينه ، فقلن : لِتقُل كلُّ واحدةٍ منّا ما فى نفسها ، فقالت الكبرى :

أَلاَ هَلْ أراها مَرَّةً وَضَجِيعُهَا ... أَشَمُّ كَنَصْلِ السَّيْفِ عَيْنُ مُهَنَّدِ(٢)
عَلِيمٌ بِأَدْوَاءِ النِّساءِ وَأَصْلُهُ ... إِذَا ما انتمَى مِنْ سِرِّ أَهْلِى وَمَحْتِدِى(٣)

ويروى « من أهل سِرِّى، ومن أصل سرّى ومحتدى » .

فقلن لها : أنتِ تريدينَ ذا قرابة قد عرفتِه . ثم قالت الثانية :

أَلاَ لَيتَ زَوْجِى مِن أُنَاسٍ أُولِى عدًى(٤) ... حَديثُ الشَّباب طَيِّبُ الثَّوْبِ(٥) وَالعِطْرِ

ويروى : « أولى غنى » .

لَصُوقٌ بِأَكْبادِ النِّساء كأنّهُ ... خليفةُ جانٍ لا يَنامُ على وِتْرِ(٦)

ويروى : « لا ينام على هَجْرِ » .

فقلن لها : أنت تريدين فتًى ليس من أهلك . ثم قالت الثالثة :

---

(١) الخبر فى الأغانى ٣ : ٩٤—٩٦ (طبع دار الكتب المصرية) ، ومع شرحه فى الكامل — بشرح المرصفى ٥ : ٩٤—١١١ ، مع اختلاف فى الرواية ونسبة الأبيات

(٢) حاشية ت (من نسخة) :

أَلا هَلْ أَراهَا لَيْلَةً وضَجِيعُها ... أَغَرُّ كَنَصْلِ السَّيْفِ غَيْرُ الْمُهَنَّدِ

ورواية الأغانى :

أَلَا هَلْ أَرَاهَا لَيْلَةً وَضَجِيعُها ... أَشَمُّ كَنَصْلِ السَّيْفِ غَيْرُ مُبَلَّدِ

(٣) رواية الأغانى : « طبيب بأدواء النساء » ، ورواية الكامل : « بأدواء النساء كأنه »

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « ذوى غنى » ، وهى رواية الأغانى والكامل .

(٥) رواية الكامل : « طيب النشر » ، ورواية الأغانى : « طيب الريح » .

(٦) حاشية ت (من نسخة) : « خليفة جان » .

أَلاَ لَيْتَهُ يُكْسَى الجَمالَ نَدِيُّهُ(١) ... لَهُ جَفْنَةٌ تَشْقَى بِها المَزُّ(٢) والجُزُرُ
لَهُ حَكَمَاتُ الدَّهرِ مِنْ غيرِ كِبْرَةٍ ... تَشِينُ؛ فلاَ فانٍ ولاَ ضَرَعٌ غُمْرُ

فقلن لها: أنت تريدين سيدا شريفاً.

وقلن للرابعة: قولى، فقالت: لا أقول شيئا، فقلن لها: ياعدوةَ الله، علمتِ مافى أنفسنا ولا تعلمينَنَا مافى نفسك! فقالت: «زوج من عود خيرٌ من قعود»؛ فمضت مثلا.

فزوجهن أربعتهن، وتركهن حولاً، ثم أتى الكبرى فقال: يا بُنيّة، كيف ترين زوجك؟ قالت: خيرُ زَوج، يكرمُ الحليلة، ويُعْطِى الوسيلة. قال: فما مالُكم؟ قالت: خير مال، الإبل نَشرب ألبانها جُرَعاً — ويروى: «جُرَعا»، بالراء غير المعجمة — ونأ كل أحمانها مُزَعاً، وتحملنا وضيفَنا(٣) معاً؛ فقال: يا بنيّة، زوج كريمٌ، ومال عميمٌ.

ثم أتى الثانية فقال: يا بُنَيَّة، كيف زوجُك؟ قالت: خيرُ زَوجٍ، يُكرم أهلَه، ويَنسى فَضْله، قال: وما مالُكم؟ قالت: البقر تألف الفِناء، وتملأ الإناء، وتُودِك(٤) السقاء، ونساء مع النساء(٥)، فقال لها: حظيتِ وبَظيتِ(٦).

ثم أتى الثالثة فقال: يا بنية، كيف زوجك؟ قالت: لا سمحٌ بذِرٌ(٧)، ولا بخيل حَكِر(٨)

---

(١) رواية الأغانى:

* أَلاَ لَيْتَهُ يَمْلاَ الجِفَانَ لِضَيْفِهِ *

ورواية الكامل:

* ألا ليته يعطى الجمال بديئةً *

(٢) فى الأغانى: «الذيب».

(٣) حاشية ت (من نسخة): «وضعفنا». (٤) حاشية ت (من نسخة): «تودك»، بتشديد الدال مكسورة؛ وكذا ضبطت بالقلم فى الكامل. (٥) ش: «مع نساء»، وهى رواية الأغانى والكامل. (٦) حاشية ت (من نسخة): «رضيت».

(٧) بذر: يبسط ماله بالبذر؛ وهو وصف للمبالغة. (٨) حكر: هو الذى لايزال يحبس سلعته حتى يبيع بالكثير من شدة حكره.

قال: فما مالُكم؟ قالت: المِعْزى، قال: وما هى؟ قالت: لو كُنّا نُوَلِّدُها فُطُماً، ونسلخها أُدُماً — ويروى: «أَدَماً» بالفتح — لم نَبْغِ بها نَعَماً. فقال لها: جِذْوةٌ[1] مُغْنِية — ويروى: جَذْوَى[2] مُغْنِية.

ثم أتى الصغرى فقال: كيف زوجُكِ؟ قالت: شرُّ زَوْج؛ يُكرِمُ نفسَه، ويُهين عِرسَه؛ قال: فما مالُكم؟ قالت: شرُّ مال، قال: وما هو؟ قالت: الضأنُ، جُوفٌ لا يشبَعْن، وهِيمٌ لا يَنقَعْن، وصمٌّ لا يسمعن، وأمرُ مُغْوِيَتِهن يَتَّبِعْن. فقال أبوها: «أشبَه امرؤٌ[3] بعضَ بَزِّه»، فمضتْ مثلا.

أما قول إحدى بناته فى الشعر: «أشمّ»، فالشمَمُ هو ارتفاع أرنبة الأنف وورودها؛ يقال: رجل أشمُّ، وامرأة شماء، وقوم شمّ، قال حسان بن ثابت:

بِيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِّرَازِ الأَوَّلِ[4]

والشَّمَمُ: الارتفاع فى كل شىء؛ فيحتمل أن يكون حسانُ أراد بشُمّ الأنوف ما ذكرناه من ورود الأرنبة؛ لأن ذلك عندهم دليل العِتْق والنجابة. ويجوز أن يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعُدهم عن دنايا الأمور ورذائلها؛ وخَصَّ الأنوفَ بذلك؛ لأن الحَمِيَّةَ والغضب والأَنَف[5] فيها؛ ولم يُرِد طول أنفهم؛ وهذا أشبهُ بأن يكون مرادَه؛ لأنه قال: «بيض الوجوه» ولم يُرِد بياض اللون فى الحقيقة، وإنما كَنَى بذلك عن نقاء أعراضهم، وجميل أخلاقهم وأفعالهم؛ كما يقول القائل: جاءنى فلان بوجه أبيض، وقد بيَّض فلانٌ وجهَه بكذا وكذا، وإنما يعنى ما ذكرناه. وقول المرأة: «أشمّ كنصل السيف» يحتمل الوجهين أيضا. وقول حسان «من الطراز الأول»، أى أفعالهم أفعال آبائهم وسلفهم، وأنهم لم يُحدِثوا أخلاقاً مذمومة لا تشبه نِجارهم وأصولَهم. وقولها: «عين مهنَّد»؛ أى هو المهنّد بعينه، كما يقال: هذا هو بعينه، وعين

(١) حاشية ت (من نسخة): «حذوة».

(٢) حاشية ت (من نسخة): «حذوى».   (٣) حاشية ت (من نسخة): «أشبه امرأ بعض بزه»، والبز فى الأصل: متاع البيت من الثياب خاصة؛ كنى به عن الضأن؛ وهى متاع؛ والمثل يضرب للمتشابهين أخلاقا.   (٤) ديوانه: ٨٠.   (٥) حاشية ت (من نسخة): «والأنفة».

الشيء نفسه . وعلى الرواية الأخرى : «غير مهنَّد» أى ليس هو السيف المنسوب إلى الهند فى الحقيقة ، وإنما هو يُشبهه فى مضائه . وقولها : «من سرّ أهلى» ، أى من أكرمهم وأخلصهم ، يقال : فلان فى سرّ قومه ، أى فى صميمهم وشرفهم ، وسرُّ الوادى : أطيبُه ترابًا. والمحتِد : الأصل .

[٨٢ و] وقول الثانية : «أولى عِدًى»/ فإنّما معناه أن يكون لهم أعداء ، لأنّ مَن لا عدوّ له هو الفَسْل الرذْل الذى لا خيرَ عنده ، والكريمُ الفاضل من الناس هو المحسّد المعادَى[1] .

وقولها : «لصوقٌ بأكباد النساء» تعنى فى المضاجعة ، ويحتمِل أن تكون أرادت فى المحبة والمودّة ، وكنَّتْ بذلك عن شدّة محبّتهن له ، وميلهن إليـــه ، وهو أشبه . وقولها : «كأنه خليفةُ جانٍ» أى كأنه حيّة لِلُصُوقِه ، والجان : جنس من الحيات[2] ، تخففت لضرورة الشعر .

وقول الثالثة : «يكـنّى الجالَ نديُّه» فالندىّ هو المجلس . وقولها : «له حَـكَمات الدهر» تقول : قد أحكَمته التجاربُ ، وجعلته حكيما . فأما الضَّرَع فهو الضعيف . والغُمْر : الذى لم يجرب الأمور .

وقول السكبرى : «ويكرم الحليلة ، ويعطى الوسيلة» ، فالحليلة هى امرأة الرجل ، والوسيلة الحاجة . وقولها : «تَشرَب ألبانها جُزَعًا» فالجُزَع جمع جُزْعة ، وهو الماء القليل يبقى فى الإناء ، وقولها : «مُزَعًا» ، المُزْعة : البقية من دَسَم ، ويقال : ماله جُزْعة ولا مُزْعة ، هكذا ذكر ابنُ دريد ، الضمّ فى جُزْعة ، ووجدت غيره يكسرها فيقول جِزْعة ، وإذا كسرتَ فينبغى

(١) حاشية ت : «الأولى أن يكون العدى هاهنا الغرباء ؛ لما تقدم من : استدلالهن ؛ وهو قولهن «فتى ليس من أهلك» .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ت : «لأن يكون من الجناية أحسن وأقرب إلى الصواب ، ويكون من باب قوله :

* إذا لَمْ أجْنِ كُنْتَ مِجَنّ جانِ *

أن يكون « تشرب ألبانها جزَعاً » وتكسير المِزْعَة أيضا لِزدوج الكلام ، فتقول : « ونأ كل لُحمانها مِزَعاً » ، قال : المِزْعة، بالكسر : هى القطعة من الشحم ، والمِزْعة بالكسر أيضا من الرِّيش والقُطن وغير ذلك ، كالمِزْقَة من الخِرق ، والتَّمزيع : التقطيع والتشقيق ؛ يقال إنه ليكاد يتمزّع من الغيظ ، ومَزَع الظَّبْىُ فى عَدْوه يَمْزَع مَزْعا ؛ إذا أسرع ، وقوله : «مال عميم» : ، أى كثير .

وقول الثانية : « تُودِكُ السِّقاء »، من الوَدَك الذى هو(١) الدَّسم .

وقول الثالثة: «نُوَلِّدُها فطُمًا» ، الفُطُم : جمع فَطِيم، وهو المقطوع من الرَّضاع. وقولها : «نسلَخها أُدُماً»، فالأُدُم : جمع إدام ، وهو الذى يؤكل ؛ تقول : لو أنا فطمناها عند الولادة وسلخناها للأُدْم من الحاجة لم نبغ بها نَعماً . وعلى الرواية الأخرى : أَدَماً ، من الأديم . وقوله : « جِذْوة مُغْنِية » ، فالجِذْوة : القطعة .

وقول الصغرى : «جُوْفٌ لا يَشبَعْن » ، الجُوف : جمع جَوْفاء ، وهى العظيمة الجوْف . والهيم: العِطاش ، ولا ينقَعن؛ أى لا يَرْوَين ، ومعنى قولها: « وأمر مُغْوِيتهن يَتْبَعْن »، لأنّ القطيع من الضأن يمر على قنطرة فتزِلّ واحدةٌ فتقع فى الماء ، فيقعنَ كُلُّهنّ إتباعا لهـا ، [٨٢ ظ]
والضأن يوصَف / بالبلادة .

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دُرَيد قال أخبرنا أبو حاتم عن أبى عُبيدة عن يونس. قال ابن دريد وأخبرنا به العُكْلىّ عن أبى خالد(٢) عن الهيْثم بن عَدِىّ عن مِسْعَر بن كِدام قال حدثنى سعيدُ بن خالد الجَدَلىّ قال : لما(٣) قدِم عبدُ الملك ابن مروان الكوفة بعد قَتْل مُصْعَب ، دعا الناسَ على فرائضهم(٤) ، فأتيناه فقال :

(١) حاشية الأصل : « بخط ابن الشجرى على الحاشية : وجدت فى بعض الروايات : « تودل السقاء » باللام مأخوذ من الأدل ؛ وهو اللبن الحامض » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « عن أبى خالد » .

(٣) الخبر فى الأغانى ٣–٩١–٩٢ ؛ (طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) ت : « إلى فرائضهم » ، والفرائض : العطايا .

(١مَن القومُ ؟ فقلنا : جَديلة١) ، فقال : جَديلة عَدْوَان ؟ قلنا : نعم ، فتمثّل عبد الملك :

عَذِيرَ الحَيِّ مِنْ عَدْوَا ... نَ كانُوا حيّةَ الأَرْضِ(٢)
بَغَى بَعْضُهُمُ بَعضاً ... فلَمْ يَرْعَوا على بَعضِ
ومِنْهُمْ كانتِ السادَا ... تُ والمُوفُونَ بالقَرْضِ
ومِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي ... فلاَ يُنْقَضُ ما يَقْضِي
ومِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُ النا ... سَ في السُّنَّةِ والفَرْضِ(٣)

ثم أقبل على رجلٍ كُنّا قدّمناه أمامنا جَسِيمٍ وَسيم ، فقال : أيُّكم يقول هذا الشعر ؟ فقال : لا أدري ، فقلت أنا مِن خلفه : يقوله ذو الإصبع ، فتركني وأقبل على ذاك الجسيم فقال : وما كان اسمُ ذي الإصْبع ؟ فقال : لاأدري ، فقلت أنا من خلفه : حُرثان ، فأقبل عليه وتركني ، فقال : لِمَ سمّي ذا الإصبع ؟ فقال : لا أدري ، فقلت : أنا من خلفه نَهشَتْه حيّة في إصبعه ، فأقبل عليه وتركني فقال : مِنْ أيّكم كان ؟ فقال : لا أدري ، فقلت أنا من خلفه من بني ناجٍ ، فأقبل على الجسيم فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة(٤) ، ثم أقبل عليّ فقال : كم عطاؤك ؟ قلت : أربعمائة (٥) فقال : يا بن الزُّعيزعة ، حطّ من عطاء هذا ثلاثمائة ، وزدها في عطاء هذا ، فرُحتُ وعطائي سبعمائة وعطاؤه أربعمائة .

وفي رواية أخرى أنه قال له : من أيّكم كان ؟ فقال : لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : من بني ناجٍ ، الذي يقول فيهم الشاعر :

وأما بنو ناجٍ فلاَ تَذْكُرَنَّهمْ ... ولاَ تُتْبِعَنْ عَيْنَيكَ مَنْ كانَ هالِكا
(٦إذَا قُلتَ مَعروفا لِتُصْلحَ بينهم٦) ... يَقولُ وُهَيْبٌ لاَ أُسالِمُ(٧) ذَالِكا

(١ـ١) ت : « ممن القوم ؟ فقلنا : من جديلة » . (٢) حاشية الأصل : « عذير : مصدر يقوم مقام الاستفهام ؟ والتقدير : من يعذرهم ؟ » . (٣) قال أبو الفرج : « قوله « ومنهم من يجيز الناس » ؛ فإن إجازة الحج كانت لخزاعة ، فأخذتها منهم عدوان » ، وانظر القصيدة في الأغاني مع اختلاف الرواية وعدد الأبيات . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « سبعمائة درهم » . (٥) حاشية ت (من نسخة) « أربعمائة درهم » . (٦ـ٦) حاشية ت : « إذا قلت معروفا لأصلح بينهم » ، وهي توافق رواية الأغاني . (٧) م : « لاأسلم » .

ويروى « لا أحاول ذلـكا » .

/فأضحى كظَهْرِ العوْدِ[1] جُبَّ سَنامُهُ   تَحُومُ عليهِ الطيرُ أحدَبَ بارِكا [٨٣ و]

وقد رُويت هذه الأبيات لذى الإصبع أيضا :

ومن أبيات ذى الإصبع السائرة قوله :

أُكاشرُ ذَا الضِّغْنِ المُبَيَّنِ مِنهمُ   وأضحكُ حتّى يَبْدُوَ النَّابُ أجمَعُ[2]
وأُهدِنُهُ بالقوْلِ هَدْناً ولوْ يرَى   سَرِيرَةَ ما أُخْفِى لَباتَ يُفَزَّعُ

ومعنى « أُهْدِنه » أُسكّنه .

ومن قوله أيضا :

إذَا ما الدَّهرُ جرَّ على أُناسٍ   شَرَاشِرَهُ أناخَ بآخَرِينا[3]
فقُلْ للشَّامِتِينَ بنا أفِيقُوا   سَيلقَى الشَّامِتُونَ كما لَقِينا

ومعنى « الشراشر » هاهنا الثقل ، يقال ألقَى عليه شَراشره وجَراميزَه ، أى ثِقْله .

ومن قوله :

ذَهَبَ الَّذِينَ إذَا رَأَوْنِى مُقْبِلاً   هشُّوا إلىَّ ورَحَّبوا بالمُقْبِلِ
وهُمُ الَّذِينَ إذَا حَمَلْتُ حَمَالَةً[4]   ولَقِيتُهُمْ فكأنَّنِى لمْ أحمِلِ

ومن قوله وهى مشهورة[5] :

---

(١) العود هنا : المسن من الإبل ، ورواية للأغانى : « الفحل » . ورواية أخرى : « فأضحوا كظهر العود » ، وبعده :

فإنْ تَكُ عَدْوانُ بن عمرو تفرَّقَتْ   فقد غَنِيَتْ دَهْراً مُلوكا هُنالـكا

(٢) البيتان فى حماسة البحترى ١٤٠ ، ونسبهما إلى معن بن أوس .

(٣) نسب البيتان فى الشعر والشعراء : ٤٥٠ ، والحماسة ٣ : ١٩١ ، وعيون الأخبار ٣ : ١١٤ ، للفرزدق ؛ وفى حماسة البحترى : ١٤٩ نسبا إلى مالك بن عمرو الأسدى .

(٤) الحمالة : الدية .   (٥) القصيدة فى المفضليات ــ بشرح ابن الأنبارى ٣٢١ـ٣٢٧ ، والأمالى ١ : ٢٥٤ــ٢٥٧ ، والخزانة ٣ : ٢٢٦ــ٢٢٨ ، وشرح شواهد المغنى : ١٤٧ـ١٤٨ ، وأبيات معانى الشعر والشعراء ٦٨٩ ؛ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .

لِيَ ابنُ عَمٍّ على ما كانَ مِنْ خُلُقٍ ... مُختلِفانِ فأَقلِيهِ ويَقْلِينِي[1]
أَزْرَى بنا أَنَّنا شالَتْ نَعامَتُنا ... فَخالَني دُونَه بلْ خِلتُه[2] دُونِي
لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أَفضَلْتَ في حَسَبٍ ... عَنّي ولا أنتَ دَيّاني فتَخْزُوني[3]
إنّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ ... عن الضيوفِ ولا خَيْرِي بِمَمْنُونِ[4]
ولا لِساني على الأَدْنَى بِمُنطَلِقٍ ... بالفاحشاتِ ولا أُغْضِي على الهُونِ
ماذا عليَّ وإن كُنتُمْ ذَوِي رَحِمِي[5] ... الاَّ أُحِبَّكُمُ إذ[6] لم تُحِبُّوني
يا عَمْرُو إلاَّ تَدَعْ[7] شَتْمِي ومَنقَصَتِي ... أَضْرِبْكَ حيثُ[8] تَقُولُ الهامَةُ اسْقُوني
وأنتُمُ مَعْشَرٌ زَيْدٌ[9] على مائةٍ ... فأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ طُرًّا فَكِيدُوني
لا يُخرِجُ القَسْرُ مِنّي غيرَ مأْبِيَةٍ ... ولا أَلِينُ لِمَنْ لا يَبْتَغِي لِينِي[10]

[٨٣ ظ] قوله « شالتْ نعامتُنا »، معناه تنافَرْنا[11]، فضَرَبَ النعامَ مثلاً؛ أي لا أطمئن إليه[11]، ولا يطمئن إليَّ ، يقال: شالتْ نعامة القوم إذا جَلَوْا[12] عن الموضع.

وقوله : « لاهِ ابنُ عمك » ؛ قال قوم : أراد لِلّهِ ابنُ عمك. وقال ابن دريد : أقسم وأراد اللهِ ابنِ عمك . وقوله: « عنّي » أي عليَّ[13]، والدَّيّان: الذي يلي أمرَه. ومعنى: «فتَخْزُوني» أي تسوسني .والهُون : الهَوَان .

---

(١) حاشية الأصل : «أي نحن مختلفان». (٢) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : « وخلته » ؛ وهي رواية الأمالي وأزرى بنا : قصر بنا . (٣) لا أفضلت ؛ أي ما بلغت بفضل .

(٤) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « عن الصديق » ، وممنون : منقطع ؛ أي لا أقطع عنه فضلي .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « رحم » . (٦) ش : « إن »

(٧) حاشية الأصل (من نسخة) : « إن لم تدع » . (٨) م : « حتى » .

(٩) زيد : زيادة . (١٠) حاشية الأصل (من نسخة) بعد هذا البيت :

كُلُّ امْرِئٍ صائِرٌ يَوْماً لِشِيمَتِهِ ... وإنْ تَخَلَّقَ أخْلاقاً إلَى حِينِ

(١١–١١) ت : « قصرت لا أطمئن إليه » . (١٢) حاشية ت (من نسخة) : « أجلوا » .

(١٣) في حاشيتي الأصل ، ت : « الأحسن أن يقدر هاهنا قول يعلق «عن» به ؛ هكذا هو عند المحققين » .

وقوله : « أضربْك حيثُ تقول الهامةُ اسقونى » ، قال الأصمعىّ : العطش فى الهامة، فأراد أضربك فى ذلك الموضع ، أى على الهامة حتى تعطش . وقال آخرون : العرب تقول : إن الرجل إذا قُتِل خرجت من رأسه هامة تدورُ حولَ قبره، وتقول: اسقونى، اسقونى! فلا تزال كذلك حتى يؤخذ بثأره ؛ وهذا باطلٌ؛ ويجوزُ أن يَعنيَه ذو الإصبع على مذاهب العرب .

وقوله : « لا يُخْرِج القسْرُ منّى غيرَ مَأبِيَة » ، فالقَسْر : القهر، أى إن أخِذْتَ قَسْرًا ، لم أزْدَدْ إلاّ إباءً(١) .

* * *

ومن المعمَّرين مَعْدِى كَرِبَ الْحِمْيَرِىّ، من آل ذى رُعَيْن« قال ابن سلاّم : "وقال مَعْدى كربَ(٢) الحِميرىّ ـ وقد طال عمره :

أرانى كلّما أفنيْتُ يوماً ... أتانى بَعْدَهُ يومٌ جَديدُ
يَعُودُ بَياضُهُ(٣) فى كلّ فَجْرٍ ... ويأبى لى شَبابى ما يَعُودُ

* * *

ومن المعمّرين الربيع بن ضُبَع(٤) الفَزَارىّ، ويقال إنه بَقِى إلى أيام بنى أمية. ورُوِى أنّه دخلَ على عبد الملك بن مروان فقال له : ياربيعُ ، أخْبِرْنى عمّا أدركتَ من العُمْر والمَدَى، ورأيت من الخطوب الماضية ، قال : أنا الذى أقول :

هأنذا آملُ الخُلُود وقدْ ... أدْرَكَ عَقْلى ومَوْلِدِى حُجُرَا(٥)

فقال عبد الملك : قد رويتُ هذا من شعرك وأنا صبي ، قال : وأنا القائل :

(١) وانظر ترجمة ذى الإصبع وأخباره وأشعاره فى (الاشتقاق ١٦٣ ، والمعمرين ٩٠ ، والأغانى ٣ : ٢ــ١١ ، واللآلئ ٢٨٩ــ٢٩٠ ، والخزانة ٢ : ٤٠٦ــ٤٠٩ والشعر والشعراء ٦٨٨ــ٦٩٠) .

(٢) حاشية الأصل : « معدى كرب ، بالفتح ، ويكون معدى مضافا إلى كرب » .

(٣) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « ضياؤه » . (٤) ت : « ضبع » بالتنوين ، وفى حاشية الأصل : « ونسخة مقروءة من كتاب سيبويه ــ وقد قرئ على أبى على الفارسى رحمه الله ــ وفى أخرى مقروءة على ابن أخته أبى الحسين : الربيع بن ضبع ، منونا بآخره » . (٥) حاشية الأصل : « حجر أبو امرئ القيس » .

إِذَا عَاشَ الفَتى مِائَتَيْنِ عاماً فقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ والفَتَاءُ[١]

قال: قد رويتُ هذا من شعرك وأنا غلام، وأبيك يا ربيع، لقد طلبك[٢] جَدٌّ غير عاثر، ففصِّل لى عمرك، قال: عشتُ مائتى سنة فى فترة عيسى عليه السلام، وعشرين ومائة فى الجاهلية، وستين سنة / فى الإسلام. قال: أخبرنى عن فتية من قريش متواطئى الأسماء، قال: سلْ عن أيّهم شئتَ، قال: أخبرنى عن عبد الله بن العباس، قال: فَهْمٌ وعِلْمٌ، وعَطاءٌ جَذْمٌ[٣]، ومِقْرًى ضَخْمٌ. قال: فأخبرنى عن عبد الله بن عمر قال: حِلْم وعلم، وطولُ كَظْم، وبُعْدٌ من الظُّلْم. قال: فأخبرنى عن عبد الله بن جعفر، قال: ريحانةٌ طيِّبٌ ريحُها، لَيِّنٌ مَسُّها، قليل على المسلمين ضرُّها. قال: فأخبرنى عن عبد الله بن الزُّبير، قال: جَبَلٌ وَعْر، ينحدر[٤] منه الصَّخْر. قال: لله دَرُّك يا ربيع! ما أعرفك بهم! قال: قَرُبَ جِوارى، وكَثُرَ استخبارى. [٨٤ و]

قال سيدنا الشريف الأجلّ المرتضى أدام الله علوّه: إن كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكونَ سؤالُ عبد الملك له إنما كان فى أيام معاوية، لا فى أيام ولايته، لأن الربيع يقول فى الخبر: «عشت فى الإسلام ستين سنة»[٥]، وعبد الملك وُلّى فى سنة خمس وستين من الهجرة، فإن كان صحيحاً فلابد مما ذكرناه؛ فقد رُوِى أن الرَّبيع أدرك أيام معاوية؛ ويقال: إن الربيع لما بلغ مائتى سنة قال:

---

(١) البيت من شواهد الرضى على الكافية، وهو فى (الخزانة ٣: ٣٠٦)، أورده شاهدا على أنه قد يفرد مميز المائة وينصب؛ وأورده سيبويه فى موضعين: الأول فى باب الصفة المشبهة بالفاعل وذكر أسماء العدد وعملها فى الأسماء؛ (الكتاب ١: ١٠٦)، والثانى فى باب كم (١: ٣٠٦). وأورده ابن قتيبة فى (أدب الكاتب: ٢٩٥)، فى باب «أسماء يتفق لفظها وتختلف معانيها»، قال: «والفتاء من السن ممدود، وروى البيت، وذكره البطليوسى فى الاقتضاب: ٢٦٩، وأورد بيتين بعده.

(٢) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «لقد طار بك».

(٣) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «حذم»، بالحاء، وأصل الحذم الإسراع.

(٤) حاشية الأصل (من نسخة): «يتحدر منه»، وفى حاشية ت (من نسخة): «يتحدر عنه».

(٥) ت: «حجة».

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِيَّ بَنِى رَبِيعٍ … فَأَشْرَارُ الْبَنِينَ لَكُم فِدَاءُ(١)
بِأَنِّى قَدْ كَبِرْتُ وَدَقَّ عَظْمِى … فَلاَ تَشْغَلْكُمُ عَنِّى النِّسَاءُ
وَإِنَّ كَنَائِنِى لَنِسَاءُ صِدْقٍ … وَمَا آلَى بَنِىَّ وَلاَ أَسَاءُوا(٢)
إِذَا كَانَ(٣) الشِّتَاءُ فَأَدْفِئُونِى … فَإِنَّ الشَّيْخَ يَهْدِمُهُ الشِّتَاءُ
وَأَمَّا حِينَ يَذْهَبُ كُلُّ قُرٍّ … فَسِرْبَالٌ خَفِيفٌ أَوْ رِدَاءُ
إِذَا عَاشَ الْفَتَى مِائَتَيْنِ عَاماً … فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ(٤) وَالْفَتَاءُ

وقال حين بلغ مائتين وأربعين سنة :

أَصْبَحَ مِنِّى الشَّبَابُ قَدْ حَسَرَا(٥) … إِنْ يَنْأَ(٦) عَنِّى فَقَدْ ثَوَى عُصُرَا
وَدَّعَنَا قَبْلَ أَنْ نُوَدِّعَهُ … لَمَّا قَضَى مِنْ جِمَاعِنَا وَطَرَا
هَا أَنَا ذَا آمُلُ الْخُلُودَ وَقَدْ … أَدْرَكَ عَقْلِى(٧) وَمَوْلِدِى حُجُرَا
أَبَا امْرِئِ الْقَيْسِ هَلْ سَمِعْتَ بِهِ! … هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذَا عُمُرَا
/ أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ … أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا [٨٤ ظ]

---

(١) المقطوعة فى (شرح أدب الكاتب للجواليقى ٢٦٦، والمعمرين ٦–٧، وذيل الأمالى : ٤ : ٢٠٤، والخزانة ٣ : ٣٠٦). قال الجواليقى : «قوله : "فأشرار البنين لكم فداء"، وصفهم بالبر»، وفى الخزانة : «أنذال البنين». (٢) الكنائن : جمع كنة؛ بالفتح والتشديد؛ وهى امرأة الابن والأخ؛ يريد أنهن نعم النساء، وفى حاشية ت (من نسخة) : «ألى»، بتشديد اللام قال : «وهو الصحيح؛ ومعنى «ألى»، قصر فى قول بعضهم، واللغة الأخرى «ألا»، عتقا؛ يقال : ألا الرجل يألو؛ إذا قصر وفتر؛ فأما «آلى» فى البيت فلا وجه له؛ لأنه بمعنى حلف، ولا معنى له هاهنا». وفى المعمرين لأبى حاتم : «ويروى : «وما ألى»، والمألية : التقصير، ومن قال : «وما آلى» فالمعنى ماأقسموا ألا يبرونى»، وروى عن أبى عمرو الشيبانى قال : سألت القاسم بن معن عن قوله :

* وما ألّى بنىّ وما أساءوا *

قلت : أبطئوا، قال : ماتدع شيئا ! وانظر اللسان (ألا). (٣) كان هاهنا تامة، لااسم لها ولا خبر، وفى المعمرين : «جاء». (٤) فى الاقتضاب : «التخيل»، وقال فى شرحه : التخيل : الخيلاء، ويروى : «المسرة»، ويروى : «المروءة». (٥) فى حاشيتى الأصل، ت : «يقال : حسر البعير يحسر إذا أعيا، وتحسر واستحسر كذلك، وحسرته أنا، يتعدى ولا يتعدى».

(٦) ت : «بان عنى». (٧) ش : «سنى»، وفى م : «عقلى».

والذِّئبَ أخشاهُ إنْ مَرَرْتُ به ... وَحْدِي وأخشى الرِّياحَ والمَطَرَا

مِنْ بَعـدِ ما قُوَّةٍ أُسَرُّ[(١)] بِها ... أصبحتُ شيخاً أُعالِجُ الكِبَرَا[(٢)]

قوله : « عطاء جَذْم » أي سريع، وكلّ شيء تسرّعت فيه فقد جذَمته ، وفي الحديث: « إذَا أذَّنْتَ فترسَّل ، وإذا أقمت فاجْذِمْ » ، أي أسرع . والقِرى : الإناء الذي يُقْرَى فيه .

وقوله : « فما آلى بَنِيّ ولا أساءوا » ، أي لم يقصّروا ، والآلي : المقصّر[(٣)] .

(١) حاشية ت من نسخة : « أنوء » . (٢) وردت هذه الأبيات في حماسة البحتري : ٣٢٢ ، ونوادر أبي زيد ١٠٨ ؛ ونقل صاحب الخزانة (٣ : ٣٠٩) عن ابن السيد في شرح الجمل قال : « روى الرواة أن الربيع بن ضبع عاش حتى أدرك الإسلام، وأنه قدم الشام على معاوية بن أبي سفيان ومعه حفدته، ودخل حفيده على معاوية فقال له : اقعد ياشيخ ؛ فقال له : وكيف يقعد من جده بالباب ؟ فقال له معاوية : لعلك من ولد الربيع بن ضبع ، فقال: أجل ؛ فأمره بالدخول ، فلما دخل سأله معاوية عن سنه فقال :

أقفرَ من مَيّةَ الجريبُ إلى الزُّ ... جَّيْنِ إلاّ الظباءَ والبَقَرا

كأنّها دُرَّةٌ مُنعَّمَةٌ ... من نِسوةٍ كُنَّ قبلها دُرَرَا

أصبحَ مِنّي الشبابُ مبتكِراً ... إن يَنْأَ عنّي فقدْ ثَوَى عُصُرَا

إلى آخر الأبيات المتقدمة ؛ فقرأ معاوية، ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ .

(٣) وانظر ترجمة الربيع بن ضبع وأخباره وأشعاره في (المعمرين ٦ ــ ٧ ، واللآلي ٨٠٢ ، والخزانة ٣ : ٣٠٦ــ٣٠٩ ، والإصابة ٢ : ٢٠٩).

مجلس آخر [١٨]

ومن المعمَّرين أبو الطَّمحان القَيْنِيّ ، واسمُه حنظلةُ بن الشَّرْقِيّ ، من بنى[(١)] كِنانة ابن القَيْن ؛ قال أبو حاتم : " عاش مائتي سنة ، فقال فى ذلك :

حَنَتْنى حانياتُ الدَّهرِ حتَّى　　كأنى خاتِلٌ[(٢)] أدنُو لِصيْدِ
قَصيرُ الخَطْوِ يَحسِبُ مَنْ رآنى　　ـ ولَستُ مُقيَّدًا ـ أنِّى بقَيْدِ "

ويروى : « قريب الخطو » .

قال أبو حاتم : " حدثنى عِدّة من أصحابنا أنهم سمعوا يونس بن حبيب يُنشد هـذين البيتين ، ويُنشد أيضاً :

تَقارَبَ خَطْوُ رِجْلِكَ يا سُوَيْدُ[(٣)]　　وقَيَّدَكَ الزَّمانُ بشرِّ قَيدِ "

وهو القائل :

وإنِّى مِنَ القوْمِ الذينَ هُمُ هُمُ　　إذا ماتَ منهمْ مَيِّتٌ قامَ صاحِبُهْ[(٤)]
نُجُومُ سَماءٍ كلّما غابَ كَوْكَبٌ　　بَدا كَوْكَبٌ تأوى إليهِ كَواكِبُهْ
أضاءتْ لهمْ أحسابُهُمْ ووُجوهُهمْ　　دُجَى اللّيْلِ حتّى نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُه
وما زالَ مِنْهم حَيثُ كانَ مُسَوَّدٌ[(٥)]　　تَسيرُ المَنايا حيثُ سارَتْ كتائبُهْ[(٦)]

ومعنى البيتين الأوّلين يشبه قولَ أوْس بن حجر :

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « من كنانة » . (٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « حابل » .
(٣) ت ، ش : « يادويد » . (٤) ش : « منهم سيد » .
(٥) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « حيث كانوا متوج » . (٦) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « ركائبه » .

إذا مُقْرَمٌ مِنّا ذَرا حدُّ نابِهِ ... تَخَمَّطَ فِينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ (١)

[٨٠ و] / ولطُفيلٍ الغَنَوِيِّ مثل هذا ، وهو :

كوَاكبُ دَجْنٍ كلَّما انقضَّ كوكبٌ ... بَدَا وانجلَتْ عنه الدُّجنَّةُ كوكبُ (٢)

وقدأخذ الخُرَيميّ هذا المعنى فقال:

إذا قمَرٌ مِنّا تَغَوَّرَ أو خَبَا ... بدَا قمرٌ فى جانِبِ الأُفقِ يَلمَعُ

ومثل ذلك :

خِلاَفةُ أهلِ الأرضِ فِينا وِراثةٌ ... إذا مات منا سيّدٌ قامَ صاحبُه

ومثله :

إذا سيِّدٌ منا مَضَى لِسبيلِهِ ... أقامَ عَمودَ المُلْك (٣) آخرُ سيِّدُ

وكأنَّ مزاحماً العقيليّ نظر إلى قول أبي الطمحان :

* أضاءتْ لهمْ أحسابُهم ووُجوهُهُمْ *

فى قوله :

وُجوهٌ لوَأنَّ المُدْلجِينَ اعتَشَوْا بِهـا ... صَدَعْنَ الدُّجَى حتَّى تَرَى الليلَ يَنجَلِى (٤)

ويقارب ذلك قول حُجَيّة بن المضرِّب الـكِنْدِيّ :

أضاءتْ لهُمْ أحسابُهمْ فتضاءلَتْ ... لنورِهِمُ الشَّمسُ المُضيئةُ والبَدْرُ (٥)

وأنشد محمد بن يحيى الصولىّ فى معنى بيتى أبي الطِّمحان :

(١) ديوانه : ٢٧ ، واللسان (خمط) وفى حاشيتى الأصل ، ت : « ذرا الشيء : سقط ، وذروته : طيرته . وتخمط الفحل : إذا انتفخ عند الهيام » . (٢) ديوانه : ١٩ (٣) حاشية ت (من نسخة) « الدين » . (٤) ديوانه : ٦ ، مجالس ثعلب : ٢٧٢ . (٥) من أبيات ذكرها القالى فى (الأمالى ١ : ٥٣ ـ ٥٤) ، وقال : « يمدح فيها يعفر بن زرعة ، أحد الأملوك أملوك ردمان » ؛ وأولها :

إذا كنتَ سائِلاً عنِ المَجْد والعُلاَ ... وأينَ العطاء الجَزْلُ والنَّائِـلُ الغَمْرُ

فنقِّبْ عن الأملوكِ واهتِفْ لحِميَرٍ ... وعِشْ جارَ ظِلٍّ لاَيُغالِبُهُ الدَّهْرُ

والأملوك : قبيلة من حمير ، وردمان : مدينة باليمن » .

مِن البِيضِ الوجوهِ بنى سِنانٍ لوَ انَّكَ تستضىءُ بهم أضاءوا[١]

هُمُ حلُّوا من الشَّرفِ المُعلَّى ومِن كَرَمِ العَشيرةِ حيثُ شاءوا[٢]

فلو أنَّ السَّماء دَنَتْ لمَجْدٍ ومكرُمةٍ دَنَت لهمُ السَّماءُ[٣]

وأبو الطمحان القائل:

إذا كانَ فى صـدْرِ ابنِ عمِّـكَ إحْنةٌ فلا تَستَثِرْها سوفَ يَبدو دَفينُها[٤]

وهو القائل :

إذَا شاءَ راعِيها استقَى مِن وَقيعةٍ كعَيْنِ الغُرَابِ صَفوُها لم يُكَدَّرِ[٥]

ويروى : «صفيُه لم يُـكَدَّر» ، والوقيعة : المستنقع فى الصخرة للماء ، ويقال للماء إذا زل[٦] من صخرة فوقع / فى بطن أخرى ماء الوقائع ، وأنشدوا لذى الرُّمة : [٨٥ ظ]

ونِلنا سِقاطاً مِن حديثٍ كأنهُ جَنَى النَّحلِ ممزُوجاً بماءِ الوقائعِ[٧]

ويقال للماء الذى يجرى على الصخر ماءُ الحَشْرج، وللماء الذى يَجرى بين الحصى والرمل ماء المفاصل ، وأنشدوا لأبى ذؤيب :

---

(١) من أبيات ثمانية، نسبها أبو تمام إلى أبى البرج القاسم بن حنبل المرىّ ؛ يقولها فى زفر بن أبى هاشم ابن مسعود بن سنان ؛ وأولها :

أرَى الخُلاَّنَ بَعْدَ أبى حَبيبٍ وحُجْرٍ فى جَنابِهِمُ جفـاءُ

وهى فى الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ١٩٧ــ١٩٨ ، وأبيات منها فى الحيوان ٢ : ١ــ٢ ، والمؤتلف والمختلف ٦٢ ، ومعجم المرزبانى ٣٢٣ . (٢) فى الحماسة : «حسب العشيرة» .

(٣) فى الحماسة : «لـكرم السماء» . (٤) البيت فى اللسان (أحن) ، نسبه إلى الأقيبل القينى ؛ وذكر قبله :

مَتى ما يَسُؤْ ظَنُّ امرئٍ بصَديقِهِ يُصَدِّقْ بَلاغاتٍ يَجِئْهُ يَقينُها

وهو أيضا بهذه النسبة فى المؤتلف والمختلف : ٢٣ ؛ وفى القالى ١ : ١٦ ؛ من غير عزو .

(٥) ت : «كعين الذباب» ، قال: وذكر فوقها : «وهو اسم موضع» وعين الغراب يضرب بها المثل فى الصفاء . (٦) ت : «عن صخرة» . (٧) ديوانه : ٣٥٨ .

مطافيلَ أبكارٍ حديثٍ نِتاجُها ... يُشابُ بماءٍ مِثلِ ماءِ المَفاصِلِ[1]

وأنشد أبو محلِّم السعديّ لأبي الطَّمحان :

بُنيَّ إذا ما سامَكَ الذُّلَّ قاهرٌ ... عزيزٌ فبعضُ الذُّلِّ أبقى وأحرزُ[2]

ولا تَحمَ[3] مِن بَعضِ الأُمورِ تعزُّزاً ... فقد يُورِثُ الذُّلَّ الطويلَ التعزُّزُ

وهذان البيتان يُرويان لعبد الله بن معاوية الجعفرىّ .

ورُوِىَ لأبي الطَّمحان أيضا في مثل هذا المعنى :

يا رُبَّ مَظلِمةٍ[4] يوماً لَطيتُ لها ... تَمضى علىَّ إذا ما غابَ نُصّارِى[5]

حتّى إذا ما انجَلَتْ عنّى غَيايَتُها ... وَثَبْتُ فيها وُثوبَ المُخدِرِ الضّارِى[6]

* * *

ومن المعمَّرين عبدُ المسيح بن بُقيلة الغسّانىّ ، وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس ابن حيان بن بُقيلة ، وبُقيلة اسمه ثَعلبة، وقيل الحارث ؛ وإنما سمّى بُقيلة لأنه خرج في بُرْدين أخضرين على قومه ، فقالوا له : ما أنت إلا بُقَيلة ، فسمى لذلك .

وذكر الكلبىّ وأبو مِخْنَف وغيرُهما أنه عاش ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، وأدرك الإسلام فلم يُسلم ، وكان نصرانياً .

وروى أن خالد بن الوليد لما نزل على الحِيرة ، وتحصَّن منه أهلُها أرسل إليهم: ابعثوا إلىَّ رجلاً من عقلائكم ، وذوى أسنانكم[7] . فبعثوا إليه بعبد المسيح بن بُقيلة ، فأقبل يمشى

---

(١) حاشية الأصل : «قبله :

وإنَّ حديثاً مِنكِ لو تَبذُلينَهُ ... جَنَى النَّحلِ في ألبانِ عُوذٍ مطافِلِ

«مطافيل أبكار» ، بدل من قوله : «عوذ مطافل» ، ومطافل: جمع مطفل ؛ وهى التى معها ولدها» . وانظر ديوان الهذليين ١ : ١٤٠ . (٢) حاشية ت (من نسخة) : «وأتقى وأحرز» .

(٣) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : «ولا تحن» . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : «مظلمة» ، بضم الميم . (٥) ش : «أنصارى» . (٦) الغياية : كل ما أظل الإنسان فوق رأسه . وانظر ترجمة أبى الطمحان وأخباره وأشعاره فى (الشعر والشعراء ٣٤٨ — ٣٤٩ ، والمعمرين ٥٧ ، والاشتقاق ٣١٧ ، والمؤتلف والمختلف ١٤٩ — ١٥٠ ، والأغانى ١١ : ١٢٥ — ١٢٨ ، واللآلى ٣٣٢ ، والإصابة ٢ : ٦٦ ، والخزانة ٣ : ٤٢٦) . (٧) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : «أنسابكم» .

حتى دنا من خالد ، فقال له : اِنْعَمْ صباحاً أيها الملك ! قال : قد أغنانا الله عن تحيّتك هذه ، فمن أين أقصى أثرك أيها الشيخ ؟ قال : مِنْ ظهر أبي ، قال : فمن أين خرجت ؟ قال من بطن أمي ، قال : فعلام أنتَ ؟ قال : على الأرض ، قال : ففيم أنت ؟ قال: في ثيابي ، قال : أتعقل ـ لا عقلت؟ قال : إي والله / وأقيّد، قال : ابنُ كم أنت ؟ قال : ابنُ رجل واحد ، قال [٨٦ ظ] خالد : ما رأيت كاليوم قطُّ ، إني أسأله عن الشيء [١] وينحو في غيره [١] ، قال : ما أجبتك إلاّ عما سألتَ ، فسَلْ عمّا بدا لك .

قال: أعربٌ أنتم أم نبيط[٢]؟ قال: عرب استنبطنا ، ونبيط استعربنا ، قال: أفحربٌ أنتم أم سِلْم ؟ قال : بل سِلْم ، قال : فما هذي الحصونُ ؟ قال : بنيناها للسَّفيه[٣] نحذر منه حتّى يجيء الحليم فينهاه ، قال : كَمْ أتى لك ؟ قال : ستون وثلاثمائة سنة ، قال : فما أدركت ؟ قال : أدركت سفن البحر تَرْفأ[٤] في هذا الجرف ، ورأيت المرأة تخرج من الحيرة ، وتضع مِكْتَلها على رأسها ، لا تَزَوَّد إلاّ رغيفاً واحداً حتى تأتي الشام ، ثم قد أصبحتْ خراباً يباباً، وذلك دأب الله في البلاد والعباد .

قال ـ ومعه سَمٌّ ساعة يقلّبه في كفّه ـ : فقال له خالد : ما هذا في كفِّك؟ قال : هذا السّم ، قال: ماتصنع به ؟ قال : إن كان عندك ما يُوافق قومي وأهل بلدي حمِدت الله وقبلته، وإن كانت الأخرى لم أكن أول مَن ساق إليهم ذلاًّ وبلاء، أشربه فأستريح من الدنيا ، فإنما بَقِيَ من عمري اليسير ، قال خالد : هاته ، فأخذه ثم قال : بسم الله وبالله رب الأرض والسماء، الذي لايضر مع اسمه شيء ، ثم أكله ، فتجللته غشية، ثم ضرب بذقنه في صدره طويلا، ثم عَرِق فأفاق ، كأنما أُنْشِطَ من عقال .

فرجع ابن بُقيلة إلى قومه فقال : جئتُكم من عند شيطان، أكل سَمَّ ساعة فلم يضرَّه،

(١ـ١) حاشية ت (من نسخة) : « وينحو بي إلى غيره » .

(٢) ت : « نبط » ، وهو بمعنى النبيط : « وفي حاشية الأصل : « وأصل النبط قوم كانوا يستنبطون الماء ويحتفرون الآبار للعرب ؛ فقيل لأهل السواد النبيط » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « لسفيه » . (٤) في حاشية الأصل ، ت : « أرفأت السفينة : قربتها من الشط ، وذلك الموضع مرفأ » .

صانعوا القوم وأخرجوهم عنكم ، فإن هذا أمر مصنوع[1] لهم ، فصالحوهم[2] على مائة ألف درهم ، وأنشأ ابن بُقَيْلة يقول :

أَبَعْدَ المُنذِرِينَ أَرَى سَوَاماً ... تَرَوَّحُ بالخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ ![3]
[أَبَعْدَ فَوَارِسِ النُّعمانِ أَرْعَى ... مَرَاعِيَ نَهْرِ مُرَّةَ فالحَفِيرِ !][4]
تَحَامَاهُ فَوَارِسُ كُلِّ قَوْمٍ ... مخافةَ ضَيْغَمٍ عالِى الزَّئِيرِ
وصرنا بَعْدَ هُلْكِ أَبِى قُبَيْسٍ ... كَمِثْلِ الشَّاءِ فى اليَوْمِ المَطِيرِ

ـ يريد أبا قابوس ، فصغر ، ويروى « كمِثْلِ المَعْز » ـ

تَقَسَّمُنا القَبَائِلُ مِن مَعَدٍّ ... عَلانِيَةً كأَيْسارِ الجَزُورِ[5]
نُؤَدِّى الخَرْجَ بعدَ خَراجِ كِسْرَى ... وخَرْجٍ مِنْ قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ
كَذَاكَ الدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِجالٌ ... فيومٌ مِن مَساءةٍ[6] أو سُرُورِ

[٨٦ ظ] /ويقال إن عبد المسيح لما بنى بالحيرة قصرهُ المعروف بقصر بنى بُقَيْلة قال :

لقد بَنَيْتُ للحدثانِ حِصْناً ... لَوَانَّ المرءَ تنفعه الحُصُونُ
طَوِيلَ الرَّأْسِ أقعَسَ مُشْمَخِرًّا ... لأَنواعِ الرِّياحِ به حَنِينُ[7]

ومما يروى لعبد المسيح بن بُقيلة :

والنَّاسُ أبناءُ عَلاَّتٍ فمَنْ عَلِموا ... أنْ قد أقلَّ فمَجْفُوٌّ ومهجورُ[8]
وهُمْ بَنُونَ لأُمٍّ إنْ رَأَوْا نَشَباً ... فذاكَ بالغَيْبِ محفوظٌ ومَخْفُورُ

وهذا يشبه قول أوس بن حجَر :

---

(١) حاشية الأصل : « أى كأن الله صنعه لهم » . (٢) ت ، د : « فصانعوهم » .
(٣) الأبيات فى معجم البلدان : ٣ : ٤٨٥ ، وفى حاشية ت (من نسخة) « تروح » ، بفتح الحاء ، والخورنق والسدير : موضعان بالحيرة . (٤) تكملة من ت . (٥) معجم البلدان : « كأنا بعض أجزاء الجزور » . (٦) حاشية الأصل (من نسخة) : « من مساءة أو سرور » .
(٧) م : « أنين » . (٨) قال فى اللسان (علل) : « أبناء علات ، يستعمل فى الجماعة المختلفين » ، واستشهد بالبيتين ؛ وأصله فى الأولاد تختلف أمهاتهن . وفى حاشية الأصل : « بنو العلات : بنو الضرائر » ؛ وفى م : « فمجفو ومحفور » ؛ وهى رواية اللسان .

بَنِى أمِّ ذى المالِ الكثيرِ يرَوْنَهُ ـــ وإنْ كانَ عَبداً سيِّدَ الأمرِ جَحفلاَ(١)
وهُمْ لمُقِلِّ المالِ أولادُ عَلَّةٍ ـــ وإن كانَ مَحْضاً فى العُمومةِ مُخْوِلاَ

وذُكِرأنَّ بعض مشايخ أهل الحيرة خرج إلى ظهرها يختطُّ ديراً(٢)، فلما احتفر موضع الأساس ، وأمعن فى الاحتفار أصاب كهيئة البيت(٣) ، فدخله فإذا رجلٌ على سرير من رخام(٤)، وعند رأسه كتابة : «أنا عبد المسيح بن بُقَيْلة

حَلَبتُ الدهرَ أشطرَهُ حَياتى ـــ ونِلْتُ مِنَ المُنَى بُلَغَ المَزِيدِ(٥)
وكافَحْتُ الأُمورَ وكافَحَتْنِى ـــ فلم أحفِلْ بمعضِلةٍ كَئُودِ
وكِدْتُ أنالُ فى الشَّرَفِ الثُّرَيَّا ـــ ولـكنْ لا سبيلَ إلى الخُلودِ(٦)

* * *

ومن المعمَّرين النابغة الجَعْدىّ ، واسمه قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة بن جَعْدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصعة ، ويكنى أبا لَيلى .

وروى أبو حاتم السجستانىّ قال : كان النابغة الجعدىّ أسنَّ من النابغة الذُّبيانىّ ، والدليل على ذلك قوله :

تذَكَّرْتُ والذِّكرى تَهيجُ على الهوى ـــ ومِنْ حاجةِ المَحْزُونِ أنْ يَتذَكَّرا(٧)
نَداماىَ عِندَ المُنْذِرِ بن مُحَرِّقٍ ـــ أرَى اليومَ مِنْهُم ظاهِرَ الأرضِ أقْفَرا
/ كُهولٌ وفِتيانٌ كأنَّ وُجوهَهمْ ـــ دَنانيرُ مِمَّا شِيفَ فى أرضِ قَيْصَرا [٨٧ و]

(١) ديوانه : ٢٢ ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « سيد الملك » . ويقال : رجل جحفل ؛ أى سيد عظيم القدر ؛ ذكره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت . وفى حاشيتى الأصل ، ت : « قبله :

وإنى وَجَدْتُ الناسَ إلاَّ أقلَّهُمْ ـــ خِفافَ العهودِ يكثرونَ التنقُّلاَ

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « داراً » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « الكهف » .
(٤) ش : « زجاج » . (٥) حاشية الأصل : « أى البلغ من المزيد » .
(٦) وانظر ترجمة عبد المسيح بن بقيلة أيضا فى المعمرين ٣٧ـ٣٨ .
(٧) من قصيدة طويلة ، ٧٦ بيتا ، ذكرها صاحب جمهرة الأشعار فى ٣٠١ـ٣٠٧ .

فهذا يدلُّ على أنه كان مع المنذر بن محرِّق ، والنابغة الذُّبيانيّ كان مع النعمان بن المنذر ابن محرق " .

قوله : « شيف » يعني جُلّي ، والمشوف المجلوّ .

ويقال : إن النابغة غَبَرَ ثلاثين سنة لايتكلَّم(١) ، ثم تكلم بالشعر ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة بأصبهان ، وكان ديوانه بها ، وهو الذي يقول :

فمَن يَكُ سائلاً عنّي فإنّي ... من الفِتيانِ أيامَ الخُنانِ

ـ وأيام الخُنان : أيام كانت للعرب قديمة ، هاج بها فيهم مرض في أنوفهم وحلوقهم ـ

مَضَتْ مِائةٌ لعامِ وُلِدْتُ فيـهِ ... وعَشْرٌ بَعدَ ذاكَ وحِجَّتانِ(٢)

فأبقَى الدّهرُ والأيامُ مِنّي ... كما أبقَى مِنَ السَّيفِ اليَماني

تَفَلَّلَ وهوَ مأثورٌ جُرَازٌ ... إذا جُمِعَتْ بقائمِهِ اليَدانِ(٣)

وقال أيضا في طول عمره :

لبِستُ أناساً فأفنَيْتُهُمْ ... وأفنَيْتُ بَعدَ أناسٍ أناسا

ثلاثةَ أهلِـينَ أفنَيْتُهم ... وكانَ الإلهُ هوَ المُستآسا

---

(١) حاشية الأصل : « أي لايتكلم بالشعر ، وسميت القصيدة كلة » .

(٢) في حاشيتي الأصل ، ت : « ذكر المبرد في قول النابغة :

عَلَى حينَ عاتبتُ المشيبَ عَلَى الصِّبَا ... وقلتُ ألَمّا أصْحُ والشيبُ وازِعُ

أنه يجوز في « حين » النصب والجر . وذكر بعض المتأخرين أنه إذا أضيف الظرف إلى المبنى لم يجز فيه إلا النصب ، وإنما يجوز الجر إذا أضيف إلى المعرب ؛ كقوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ ، و ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ ، وقول النابغة : « لعام ولدت فيه » لايحتاج إلى « فيه » بل هو كالزيادة المستغنى عنها ؛ لأنه إذا أضيف « العام » إلى « ولدت » كان المضاف إليه مع المضاف في حكم الشيء الواحد ؛ فلا يحتاج إلى العائد ؛ بخلاف أن تكون الجملة صفة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ ؛ وكأنه للبيان والتحقيق ، على تقدير : « لعام ولدت » ، ثم أضمر : « ولدت » ، أخرى ، والجار والمجرور يتعلق بولدت المضمر » . وانظر الكامل ـ بشرح المرصفي ٢ : ٢٢٠

(٣) مأثور : باق أثره . والجراز : الماضي النافذ في الضريبة . وانظر طبقات الشعراء : ١٠٤

معنى المستآس : المتاض[١] .

وروى عن هشام بن محمد الكلبيّ أنه عاش مائة وثمانين سنة .

وروى ابن دريد عن أبي حاتم في موضع آخر أن النابغة الجَعْديّ عاش مائتي سنة، وأدرك الإسلام، وروى له:

قالت أُمامةُ كم عَمِرتَ زَمانةً ... وذَبحتَ مِنْ عِتَرٍ على الأوثانِ !

ـ العتيرة[٢] : شاة تذبح لأصنامهم في رجب في الجاهلية ـ

ولقدْ شَهِدْتُ عُكاظَ قَبلَ مَحَلِّها ... عنها وكُنْتُ أُعَدُّ مِنْ فتيان[٣]

والمُنذِرَ بن مُحَرِّقٍ في مُلْكهِ ... وشَهِدْتُ يومَ هَجائنِ النُّعمانِ[٤] .

(١) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « المستعاض » ، وهو من العوض .

(٢) حاشية الأصل : « العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة » . (٣) ش : « فيها » ، وفي حاشية الأصل : « محلها فيها ؛ أي نزولها في عكاظ ، ومحلها عنها ، أي نزولها فيما عداءكاظ ، و « عن » لما عدا الشيء وجاوزه » . (٤) حواشي الأصل ، ت ، ف : « هو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو ابن عدي بن ربيعة بن نصر اللخمي . وعمرو بن عدي هو ابن أخت جذيمة بن مالك الأبرش ؛ وقيل له الأبرش والوضاح لبرص به ؛ وكان يقال لامرئ القيس أبي المنذر محرق ؛ وفيهم يقول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل مُحَرِّقٍ ... ـ تركوا مَنازِلَهمْ ـ وبَعْدَ إيادِ

والنعمان بن امرئ القيس هو النعمان الأكبر ؛ ويقال إن أنوشروان بن قباذ هو الذي ملكه ؛ وقيل ملكه قباذ . والنعمان هذا هو الذي بنى الخورنق ؛ وهو الذي لبس المسوح وتزهد وساح في الأرض، ثم ملك أخوه المنذر بن امرئ القيس ؛ ملكه أنو شروان ، وأمه من النمر بن قاسط ؛ ويقال لها ماء السماء لجمالها ، وأبوها عوف بن جشم . ومن الأزد رجل يقال له ماء السماء أيضا ؛ وهو عامر أبو عمرو بن عامر، وعمرو هو الذي يقال له مزيقياء ثم ملك المنذر بن المنذر بن امرئ القيس ، ثم ملك عمرو بن هند مضرط الحجارة ؛ وهو محرق أيضا لأنه أحرق من بني دارم ثمانية وتسعين رجلا ، وكلهم مائة برجل من البراجم وبامرأة نهشلية ؛ ولذلك قيل : « إن الشقي وافد البراجم » . ثم ملك بعده النعمان بن المنذر بن امرئ القيس ؛ وكان يكنى أبا قابوس ؛ وهو صاحب النابغة الذبياني ؛ وكان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، ومحرق أيضا لقب الحارث بن عمرو ، ملك الشام من آل جفنة ؛ وهو أول من حرق العرب في ديارهم . وامرأة هجان ؛ أي حرة كريمة لم يعرفها الإماء ، من نسوة هجان ؛ قال أبو زيد : والهجان من الإبل : البيض ؛ يوصف به الواحد والجمع ؛ فإذا كان واحداً فهو مثل كتاب ، وإذا كان جمعا فهو مثل كلاب ؛ ويقال ناقة هجان وبعير هجان، والجمع على هجائن أيضا، وهجائن النعمان معروفة ؛ وهي نجائبه ؛ =

وعَمِرْتُ حتى جاء أحمدُ بالهدَى وقَوارِعٍ تُتلى مِنَ القُرْآنِ(١)

[٨٧ ظ] / ولَبِسْتُ مِنْ إسلامٍ ثوبا واسعاً مِنْ سَيْبِ لاَ حَرِمٍ ولا مَنَّانِ(٢)

وله أيضاً فى طول عمره :

المَرْءُ يَهْوَى أن يَعِيـــشَ وطُولُ عيشٍ ما يَضُرُّهْ(٣)
تَفنَى بَشاشتُهُ ويَبـــقَى بَعد حُلوِ العيشِ مُرُّهْ
وتَتابعُ الأيامِ حتَّى لا يَرَى شيئاً يَسرُّهْ
كم شامِتٍ بى إنْ هَلَكْـــتُ وقائلٍ للهِ دَرُّهْ !

ويروى أن النابغة الجَعدىّ كان يفتخر ويقول : أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنشدته :

بَلَغْنا السَّماءَ مَجدُنا وجُدُودُنا وإنَّا لنَرْجو فوْقَ ذلكَ مَظهرا

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » قال : الجنة يا رسول الله ، فقال : « أجل إن شاء الله » ، ثم أنشدته :

فلا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم تَكُنْ لَهُ بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرا
ولا خَيرَ فى جَهلٍ إذا لم يكنْ لهُ حليمٌ إذا ما أوْرَدَ الأَمْرَ أصدَرا

فقال صلى الله عليه وآله : « لا يفضض الله فاك! » ، وفى رواية أخرى : « لا يُفْضَضْ فوك! » فيقال: إن النابغة عاش عشرين ومائة سنة، لم تَسْقُط له سنٌّ ولا ضِرْس . وفى رواية أخرى عن بعضهم قال : فرأيته وقد بلغ الثمانين تَرِفُّ غروبه، وكان كلما سقطت له ثنية نبتت له أخرى مكانها ، وهو أحسن الناس ثغرا .

معنى تَرِفّ تبرق ، وكأن الماء يقطر منها .

= وكان يقال لها عصافير النعمان لخفتها فى سيرها . وفى كلام حسان بن ثابت : « فما حسدت أحداً حسدى النابغة حين أمر له النعمان بن المنذر بمائة ناقة بريشها من نوق عصافيره، وبجام وآنية من فضة ، وكانوا إذا حبا الملك بعضهم بنوق يغرزون فى أسنمتها ريش النعام ؛ ليعلم أنها حباء الملك » .

(١) القوارع من القرآن : آيات الوعد والوعيد .

(٢) الرجل الحرم : المانع . (٣) س : « قد يضره » .

قال المرتضى أدام الله علوّه : ومما يشاكلُ قوله: «إلى الجنة» فى جواب قول النبى صلى الله عليه وآله: «أين المطهر يا أبا ليلى» — وإن كان يتضمّنُ العكسَ من معناه — ما رُوِىَ من دخول الأخطل على عبد الملك بن مروان، مستغيثاً من فعل الجحّاف السُّلمىّ ، وأنه أنشده :

لقــدْ أوقعَ الجَحّافُ بالبِشْرِ وقْعةً ... إلى اللهِ مِنها المُشتـكَى والمُعوَّلُ،⁽١⁾

/ فإنْ لم تُغيّرها قُرَيشٌ بِمُلكِها ... يكنْ عن قُرَيشٍ مُستمازٌ وَمَزْحَلُ⁽٢⁾ [٨٨ و]

فقال عبد الملك له : إلى أين يا بنَ الأَخْناء ؟ فقال : إلى النار ، قال : لو قلتَ غيرها لقطعت لسانك .

فقوله : « النار » تخلُّص مليحٌ على البديهة ، كما تخلَّص الجعدىّ بقوله : «إلى الجنة» .

وأول قصيدة الجعدىّ الذى ذكرنا منها الأبيات :

خليلَىَّ عُوجَا ساعةً وتَهجَّرا⁽٣⁾ ... ولُوما على ما أحدثَ الدهرُ أو ذَرا

ولاَ تَسألاَ ، إنَّ الحياةَ قَصيرةٌ ... فَطيرا لِرَوعاتِ الحَوادِثِ أوْ قِرَا

وإنْ كانَ أمرٌ لاَ تُطيقانِ دَفعهُ ... فلاَ تجزَعا مِمـا قَضى اللهُ واصبِرَا

ألمْ تَعلَما أنَّ المَلاَمةَ نفعُها ... قَليلٌ إذا ما الشئُ وَلّى فأدْبَرَا⁽٤⁾

لوَى اللهُ عِلمَ الغَيبِ عَمّن سَواءهُ ... ويَعْلَمُ منهُ ما مضى وتأخّرا

وفيها يقول :

وجاهَدْتُ حتّى ما أُحِسُّ ومَن مَعى ... سُهيلاً إذا ما لاحَ ثمّ تغوّرا

يريد: إنى كنت بالشام ، وسُهيل لا يكاد يُرى هناك ، وهذا بيت معنى . وفيها يقول :

ونحنُ أُناسٌ لا نُعوِّدُ خَيلَنَا ... إذا ما التقينا أَن تَحيدَ وتَنفرا

---

(١) ديوانه: ١٠٠ والطبقات: ٤١٢ ، والبشر : جبل بالجزيرة ، يمتد من عرض الفرات إلى أرض الشام ، وهو الجحاف بن حكيم السلمى ، وانظر خبره وقصة يوم البشر فى الأغانى ١١ : ٥٥ — ٦٠ .

(٢) يقال : امتاز القوم إذا تنحى عصابة منهم ناحية ، وكذلك استماز ؛ ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت . والمزحل : الموضع الذى يزحل إليه ؛ أى يتنحى ويتباعد . وانظر اللسان (ميز — زحل) .

(٣) التهجر : السير فى الهاجرة .   (٤) حاشية ت : « بعده :

يَهيجُ اللحاء والملامَةَ ثم ما ... يقرِّب مِنّا غيرَ ما كانَ قُدِّرا

وتُنكِرُ(١) يومَ الرَّوْعِ ألوانَ خَيلِنا   مِنَ الطّعْنِ حتّى تَحسِبَ(٢) الجَوْنَ أشقرا
وليسَ بمَعْرُوف لنا أنْ نَرُدَّها   صِحاحاً ولاَ مُستَنكَرٍ(٣) أنْ تُعقَّرَا

وأخبرنا المرزُبانيّ قال أنشدنا عليّ بن سليمان الأخفش قال أنشدَنا أحمد بن يحيى قال : أنشدنا محمد بن سلاّم وغيره للنابغة الجعديّ :

تَلومُ على هُلْكِ البَعيرِ ظَعينتِى   وكنتُ على لوْمِ العوَاذِلِ زَارِيا(٤)
ألَمْ تَعلَمى أنى رُزِئْتُ مُحارِباً(٥)   فمالكِ مِنـه اليومَ شَىْءٌ ولاَ ليا
ومن قَبلهِ ما قدْ رُزِئْتُ بوَحْوَحٍ(٦)   وكانَ ابنَ أمِّى والخَليلَ المُصافيا
فتًى كَمُلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنهُ   جَوادٌ فمـا يُبقِى مِنَ المالِ باقيا(٧)
فتًى تَمَّ فيـه ما يسرُّ صَديقَهُ   على أنَّ فِيهِ ما يَسوءُ الأعاديا

ـ ويروى : « فتًى كان فيه ما يسرّ » ـ

أشَمُّ طَويلُ(٨) السّاعدَينِ سَمَيدَعٌ   إذَا لمْ يَرُحْ لِلمجْدِ أصبَحَ غاديا

السميدع : السيد .

ومما يروى للنابغة الجعديّ :

عُقَيليَّةٌ أوْ مِن هِلالِ بن عامرٍ   بذِى الرِّمْثِ منْ وادِى المنارِ خِيامُها(٩)
إذَا ابتَسَمَتْ فى اللَّيـلِ واللَّيـلُ دُونَها   أضاءَ دُجَى الليلِ البهيمِ ابتسامُها

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « وتنكر » ، بالبناء للمجهول . (٢) حاشية ت (من نسخة) « ويحسب الجون » ، بالبناء للمجهول . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « ولا مستنكرا » بالعطف على المعنى . (٤) من أبيات يرثى فيها أخاه لأمه ، وقد ذكرت متفرقة فى ديوان الحماسة ٣ : ١٩ ، والخزانة ٢ : ١٢ــ١٣ ، وشرح شواهد المغنى : ٢٠٩ والأمالى ٢ : ٢ ، واللآلى : ٦٣٧) .

(٥) هو محارب بن قيس بن عدس ؛ كان من أشراف قومه . (٦) هو وحوح بن عبد الله ؛ قال أبو عبيد البكرى : « هو أخو النابغة لأمه » .

(٧) رواية البيت فى ت :

فتى كَمُلتْ أخلاقُهُ غَيرَ أنّهُ   جَوَادٌ فَمَا يَبقَى من المالِ باقيَا

(٨) حاشية ت (من نسخة) : « طوال الساعدين » . (٩) ش : « وادى المياه » .

وذكر الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء قال: سئل الفرزدق بن غالب عن الجعديّ فقال: صاحب خُلقان؛ يكون عنده مُطرَف بألف دينار، وخمار بواف[١].

قال الأصمعيّ: وصدق الفرزدق، بينا[٢] النابغة في كلام أسهلُ من الزلال وأشد من الصخر إذ لان فذهب، ثم أنشد له:

سَمَا لكَ همٌّ ولمْ تَطْرَبِ　　وبتَّ ببثٍّ ولمْ تَنصَبِ
وقالت سُلَيمَى أرى رأسَهُ　　كناصيةِ الفرَسِ الأشهبِ
وذَلكَ مِنْ وَقَعَاتِ المَنونِ　　فَفيئي إليكِ ولاَ تَعْجَبي
أَتيْنَ على إخْـوَتي سبعةٌ[٣]　　وعُدْنَ على رَبْعِيَ الأقربِ

ثم يقول فيها بعدها:

فأَدْخَلكَ اللهُ بَرْدَ الجنا　　نِ جَذْلانَ في مَدْخَلٍ طَيِّبِ

فلان كلامُه؛ حتى لو كان أبو الشمقمق قال هذا البيت كان رديئاً ضعيفاً.

قال الأصمعيّ: وطريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لانَ، ألا ترى أنّ حسان بن ثابت كان علَا في الجاهلية والإسلام، فلما أدخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وآله وحمزة وجعفر[٥] عليهما السلام/ وغيرهما لان شعره[٤]! [٨٩ و]

(١) حاشية ت (من نسخة): «من كلامهم: مطرف بآلاف، وخمار بواف؛ أي بدرهم واف».
(٢) حاشية ت: «بينا وبينما يتلقيان بالفعل؛ ولا يتلقيان بإذا؛ هذا هو الفصيح العالي، كقوله:

* فبيناه يَشْرِي رَحْلَهُ قال قائل *

وكقوله:

بينما نحنُ بالبلاكِثِ فالقا　　عِ سِراعاً والعيسُ تَهْوِي هُوِيّاً
خطرتْ خطرة على القَلْبِ مِنْ ذِكْـــــراكِ وَهْناً فما استطعتُ مُضيّاً

(٣) ش: «إخوة سبعة»، بالجر والتنوين فيهما. (٤) ش: «فيها». (٥) وانظر ترجمة النابغة الجعدي وأخباره وأشعاره في (الشعر والشعراء ٢٤٧–٢٥٥، والاستيعاب ٣٢٠–٣٢٥، وأسد الغابة ٥: ٢–٤، والإصابة ٦: ٢١٨–٢٢١، والمعمرين ٦٤–٦٦، والأغاني ٤: ١٢٧–١٣٩، والخزانة ١: ٥٩–٥١٥، والمؤتلف والمختلف: ١٩١، ومعجم الشعراء: ٣٢١، واللآلي: ٢٤٧).

١٩

مجلس آخر

مسألة

تتعلق بما ذكرناه . إن سأل سائلٌ فقال : كيف يصحُّ ما أوردتموه ، من تطاوُلِ الأعمار وامتدادِها ، وقد علمتم أنّ كثيراً من الناس ينكر ذلك ويُحيله ويقول : إنه لاقدرةَ عليه ، ولا سبيلَ إليه؛ وفيهم[1] مَن ينزل في إنكاره درجة فيقول : إنه - وإن كان جائزاً من طريق القدرة والإمكان - فإنه مما يُقطَع على انتفائه ؛ لكونه خارقاً للعادات ؛ وإنّ العادات[2] إذا وثّق الدليلُ بأنّها لا تنخرقُ إلاّ على سبيل الآية[3] والدّلالة على صدق نبي من الأنبياء عليهم السلام عُلم أن ما رُوى من زيادة الأعمار على العادة باطل مصنوع لا يُلتفَت إلى مثله .

الجواب، قيل له : أما مَن أبطلَ تطاولَ الأعمار من حيث الإحالة ، أو أخرجه عن[5] باب الإمكان فقولُه ظاهرُ الفساد ، لأنه لو عَلم ما العمرُ في الحقيقة ، وما المقتضى لدوامه إذا دام، وانقطاعِه إذا[6] انقطع لعَلِم من جواز امتداده ما علمناه. والعمر هو استمرار كونِ مَنْ يجوز أن يكون حياً وغير حيّ حيا . وإن شئتَ أن تقول : هو استمرار كون الحيّ الذى لكونه على هذه الصفة[7] ابتداء حيا .

وإنما شرَطْنا الاستمرار ؛ لأنه يَبْعُد أن يوصَفَ مَن كان حالةً واحدة حيًّا بأنّ له عمراً ؛ بل لابدَّ من أن يُراعوا في ذلك ضرباً من الامتداد والاستمرار ، وإن قلّ .

وشرَطْنا أن يكونَ ممّنْ يجوز أن يكون غير حيّ ، أو يكون لكونه حياً ابتداء لئلا[8] يلزم عليه القديم[8] تعالى ؛ لأنه تعالى جلّتْ عظمتُه ممن لا يُوصَف بالعمر ؛ وإن استمر كونُه

(١) ت : « منهم » . (٢) ت : « ولأن العادات » . (٣) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « الإبانة » . (٤) ت : « جميع ماروى » . (٥) م : « من باب الإمكان » .
(٦) ت : « متى انقطع » . (٧) م : « الصفات » . (٨-٨) حاشية ت (من نسخة) : « احترازاً من أن يلزم عليه القديم تعالى » .

حياً؛ وقد علمنا أن المختصَّ بفعل الحياة هو القديم تعالى، وفيما تحتاج إليه الحياة من البنية والمعانى ما يختص به عزوجل ، ولا يدخل إلاّ تحت مقدوره ؛ كالرّطوبة ومايجرى مجراها؛ فمتى فعل القديمُ تعالى الحياةَ وما تحتاج إليه من البنية ـ وهى مما يجوز عليه البقاء ـ وكذلك ما تحتاج إليه فليست(١) تنتفى إلا بضد يطرأ عليها ، أو بضدٍّ ينفى ما تحتاج إليه؛ والأقوى أنه لا ضدّ لها فى الحقيقة(٢)؛ وإنما ادّعى قوم أنّه ما يحتاج إليه ، ولو كان للحياة ضدّ على الحقيقة لم يُخِلّ بما نقصده / فى هذا الباب . [٨٩ ظ]

فمهما لم يفعل القديمُ تعالى ضدّها ، أوضدّ ما تحتاج إليه ، ولا نقضَ ناقضٌ بنيةَ الحى استمرّ كون الحى حيا . ولو كانت الحياة لا تبقى على مذهب مَن رأى ذلك لكان ماقصدناه صحيحاً ، لأنه تعالى قادر على أن يفعلها حالا فحالاً ، ويوالى بين فعلها وفعل ما تحتاج إليه، فيستمرُّ كون الحىّ حيّاً .

فأما ما يعرِض من الهرَم بامتدادِ الزمان وعلوِّ السن وتناقصِ بِنْية الإنسان ، فليس مما لابدّ منه ، وإنما أجْرَى الله تعالى العادةَ بأنْ يَفعل ذلك عند تطاولِ الزمان ولا إيجابَ هناك، ولا تأثيرَ للزمان على وجه من الوجوه ، وهو تعالى قادرٌ على أن يفعل ما أجرى العادة بفعله، وإذا ثبتتْ هذه الجملة ثبتَ أنّ تطاولَ العمر مُمكِن غيرُ مستحيل ، وإنما أُتِى من أحالَ ذلك من حيث اعتقد أنّ استمرارَ كون الحى حياً مُوجَب عن طبيعة وقوّة لها مبلغٌ من المادة ، متى انتهتا إليه (٣انقطعتا، واستحال أن تدوما٣). ولو أضافوا ذلك إلى فاعلٍ مختارٍ متصرِّف لخرج عندهم من باب الإحالة .

فأما الكلامُ فى(٤) دخول ذلك فى العادة أو خروجه عنها ، فلا شكّ فى أن العادةَ قد جرت فى الأعمار بأقدارٍ متقاربة يُعَدُّ الزائد عليها خارقاً للعادة ؛ إلا أنه قد ثبت أنّ العادة قد تختلف فى الأوقات وفى الأماكن أيضاً ، ويجب أن يُراعى فى العادة إضافتُها إلى مَنْ هى عادة له فى المكان والوقت .

(١) حاشية ت (من نسخة) : « فليس بنتفى » . (٢) ت : « وربما » .

(٣ـ٣) ت : « بطل واستحال أن تدوما » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « على ذلك » .

وليس يمتنع أن يقلّ ما كانت العادةُ جاريةً به على تدريج؛ حتى يصير حدوثُه خارقاً للمادة بغير خلاف ، ولا يكثر[1] الخارق للمادة ، حتى يصيرَ حدوثُه غير خارق لها على خلاف فيه.
وإذا صح ذلك لم يمتنع أن تكونَ العاداتُ فى الزمان الغابرِ كانت جاريةً بتطاوُل الأعمار وامتدادِها ، ثم تناقصَ ذلك على تدريج ، حتى صارت عادتنا الآن جارية بخلافه ، وصار مابلَغ مبلغَ تلك الأعمار خارقاً للعادة ؛ وهذه جملة فيما أردناه كافية .

(١) ش : « وأن يكثر » .

باب

في الجوابات الحاضرة المستَحسنة التي يُسمِّيها قوم المسكتة

/ اعلم أنّ أجوبة المحاورة والمناظرة إنّما تُستحسن وتُؤثَر إذا جمعتْ مع الصواب سرعةَ [٩٠ و] الحضور ؛ فكمْ من جواب أتى بعد لأيٍ ، ووَرد بعد تقاعس، فلم يكُنْ له في النفوس وقع ، ولا حلّ من القلوب محل الحاضر السريع ؛ وإن كان المتثاقل أعرَق في نسب الإصابة ، وآخذَ بأطراف الحجّة ، ولهذا قيل : أحسَنُ النّاس جواباً وأحضرُهم قريش ، ثم العرب ، وإنّ الموالي تأتي أجوبتُها بعد فكرة ورويّة .

وقد مُدِح الجوابُ الحاضر بكل لسان ، فقال صُحارٌ العبديّ لمعاوية بن أبي سفيان ـ وقد سأله عن البلاغة ـ فقال : أنْ تُصيبَ فلا تُخطئْ ، وتُسرع ولا تبطئْ ، ثم اختصر ذلك فقال : لا تُخطئْ ولا تُبطئْ .

ولطول الفِكْرة والإغْراق في الرويّة مذهب وأوان لا يُحمد فيهما[1] التسرُّع والتعجل، كما لا يُحمَد في أوَانِ السرعة التثاقُل والتأيُّد ؛ وإنما تحمَد السرعة في أجوبة المحاوَرة والمناظرة ، وتُراد الفِكْرة والروِيّة للآراء المستخرَجة والأمور المستنبَطة ؛ التي على الإنسان فيها مُهْلة ، وله في تأملها فُسْحة ، ولا عيبَ عليه ممها في إطالة التأمل ، وإعادة التصفُّح ؛ ولهذا قال الأحنف ابن قيس بصفِّين : أغبُّوا الرأي ، فإن ذلك يكشِف لكم عن مَخْضه .

وقال عبد الله بن وهب الراسبيّ لما أراده الخوارج على الكلام حين عقدوا له : لا خيرَ في الرأي الفَطير ، والكلام القَضيب .

وشُووِر ابن التوءم الرَّقاشي[2] فأمسك عن الجواب وقال : ما أحِبُّ الخبز إلّا بائتا .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « فيه » .   (٢) حاشية ت (من نسخة) : « الرؤاسي » .

فأماقولهم : ثلاثٌ يُعرَفْنَ في الأحمق : سرعةُ الجواب ، وكثرةُ الالتفات ، والثقة بكل أحد ؛ فمحمولٌ على إسراعه بالجواب عند الرأي والمشاورة ، والأحوالِ التي يستحب فيها التأيُّد والتثبُّت ، أو على الإسراع من غير تحصيلٍ ولا ضبط ؛ وذلك مذمومٌ لا إشكالَ فيه . ثم نعود إلى ما قصدناه .

روى أنّ بعضَ أزواج النبي صلى الله عليه وآله سألته : متَى يعرف الإنسان ربّه فقال : « إذا عرَف نفْسه » . وقال له صلى الله عليه وآله رجلٌ : إني أكره الموت ، فقال : « ألكَ مال ؟ » ، قال : نعم ، قال : « قدِّم مالَك؛ فإن قَلْبَ كلِّ امرئٍ عند ماله » .

وقال يهوديٌّ لأمير المؤمنين عليه السلام : ما دفنتم نبيَّكم حتى اختلفْتم فيه ، فقال عليه السلام : إنا اختلفنا عنه، لا فيه(١)؛ ولكنكم ماجفّتْ أقدامكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون .

وروى أنه لما فرغ عليه السلام من دفن الرسول صلوات الله عليه وآله، سأل عن خبر السّقيفة فقيل له : إنّ الأنصار قالت : منّا أميرٌ ومنكم أمير، فقال عليه السلام : فهلّا ذكرتِ الأنصارُ قولَ النبي صلى الله عليه وآله : « نقبَلُ من مُحْسِنِهم ، ونتجاوز عن مسيئِهم » ! فكيف يكونُ الأمرُ فيهم والوصاة بهم !

وقال له عليه السلام ابنُ الكوّاء : يا أميرَ المؤمنين ، كم بينَ السماء والأرض ؟ فقال : دعوة مستجابة . وقيل له : ما طعمُ الماء ؟ فقال : طعم الحياة . وقيل له : كم بين المشرق والمغرب؟ فقال : مسيرة يومٍ للشمس . وأثنى عليه رجل ــ وكان له متّهِماً ــ فقال: أنا دونَ ما تقول ، وفوق ما في نفسك . وكان عليه السلام إذا أطراه رجلٌ قال : اللّهم إنك أعلمُ بي منه ، وأنا أعلم منه بنفسي ، فاغفر لي ما لا يعلم .

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال : حدّثني عبدُ الواحد بن محمد الخصيبيّ قال : حدّثني

---

(١) حاشية ت (من نسخة) « ولم نختلف فيه » .

أبو عليّ أحمد بن إسماعيل قال : حدثني أيوب بن الحسين الهاشميّ قال : قدِم على الرشيد رجلٌ من الأنصار ، يقال له نُفَيْع ـ وكان عِرِّيضاً ـ قال : فحضرَ بابَ الرشيد ، ومعه عبدُ العزيز ابن عمر بن عبد العزيز ، وحضرَ موسى بن جعفر عليهما السلام على حمارٍ له ، فتلقّاه الحاجب بالبر[1] والإكرام ، وأعظمه مَنْ كان هناك ، وعَجّل له الإذن ، فقال نفيع لعبد العزيز : مَنْ هذا الشيخ ؟ قال : أوَ ما تعرفُه ؟ قال : لا ، قال : هذا شيخ آل أبي طالبٍ ، هذا موسى بن جعفر ، قال : ما رأيت أعجزَ مِنْ هؤلاء القوم ! يفعلون هذا برجل [2]يقدِّر أن يُزيلهم[2] عن السَّرير ! أمَا لئِنْ خرج لأسُوءنّه ، فقال له عبد العزيز : لا تفعل ، فإن هؤلاء أهلُ بيت قلّما تعرّضَ لهم أحد في خطاب إلّا وَسَموه بالجواب [3]سِمةً يبقى عارُها[3] عليه مدَى الدهر .

قال : وخرج موسى بن جعفر عليهما السلام ، فقام إليه نُفَيع الأنصاريّ ، فأخذ بلِجام حمارِه ثم قال له : مَنْ أنت ؟ فقال له : ياهذا ، إن كنتَ تريدُ النَّسب فأنا ابن محمد حبيب الله ابن إسماعيلَ ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ، وإن كنتَ تريدُ البلد ، فهو الذي فرَضَ اللهُ على المسلمين وعليك ـ إن كنت منهم ـ الحج إليه ، وإن كنتَ تريد المفاخرة ، فوالله

[٩١ و] مارضِيَ مشركو قومي[4] / مسلمِي قومِك أكفاءً لهم حتى قالوا : يا محمد ، أخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قريش[5] ؛ خَلِّ عن الحمار ، قال : فخلّى عنه ويدُه ترْعَدُ ، وانصرف بخزْي ، فقال له عبد العزيز : ألم أقل لك ! .

ويقال إن معاوية استشارَ الأحنفَ بن قيس في عَقْد البَيْعة لابنه يزيد ، فقال له : أنت أعلمُ بليله ونهاره .

وقال أحمد بن يوسف لأبي يعقوب الخريمي : مَدْحُك لمحمد بن منصور أجودُ من مراثيك

---

(١) حواشي الأصل ، ت ، ف : « بالبشر » . (٢ـ٢) حاشية ت (من نسخة) : يقدر أن يزيلهم » . (٣ـ٣) حاشية ت (من نسخة) : « وسما يبقى عاره » . (٤) حاشية ط : « يعنى بقوله : « مشركو قومي » شيبة وعتبة وعمرو بن عبدود . (٥) ورد بعد هذه العبارة في م ، ومن نسخة بحاشيتي ت ، ف : « وإن كنت تريد الصيت والاسم فنحن الذين أمر الله تعالى بالصلاة علينا في الصلوات المفروضة بقوله : اللهم صل على محمد وآل محمد ، فنحن آل محمد » .

فيه ، فقال : كُنّا نعمل للرّجاء ، واليوم للوفاء ، وبينهما بونٌ .

ودخل مُطيع بن إياس على الهادى فى حياة المهدىّ فدهِش وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقيل له : مَهْ ! فقال : بَعْد أمير المؤمنين .

وقال معاوية لعَقيل بن أبى طالب ـ وكان جيّد الجواب حاضره ـ : أنا خيرٌ لك من أخيك ، فقال عَقيل : إن أخى آثر دينَه على دنياه ، وأنتَ آثرت دنياك على دينك ؛ فأخى خيرٌ لنفسه منك ، وأنت خيرٌ لى منه . وقال له يوماً : إنّ فيكم لشَبَقاً يا بنى هاشم ، فقال : هو منّا فى الرّجال ، ومنكم فى النساء . وقال له يوماً وقد دخل عليه : هذا عَقيل ، عمُّه أبولهب ، فقال عَقيل: هذا معاوية ، عمّتُه حمّالة الحطب. وعمةُ معاوية أمُّ جميل(١) بنت حرب بن أميّة ، وكانت امرأةَ أبى لهب . وقال له يوماً : ياأبا يزيد ، أين تَرى عمَّك أبا لهب ؟ فقال له عَقيل: إذا دخلتَ النار فانظر عَنْ يَسارك تجِدْه مفترشاً عمّتك ، فانظر أيُّهما أسوأ حالاً ، الناكحُ أم المنكوح ! وقال له ليلةَ الهرير بصِفّين : يا أبا يزيد ، أنت معنا الليلةَ ، قال : ويوم بدرٍ كنتُ معكم .

وقيل لسعيد بن المسيَّب ـ وقد كُفّ بصرُه ـ : ألا تقدح(٢) عينَك ؟ قال : حتى أفتحها على مَنْ !

ودخل معنُ بن زائدةَ على المنصور فقال له : كَبِرْتَ يا معن ، قال : فى طاعتِك ، قال : وإنك لتتجلّد ، قال : على أعدائك ، قال : وإنّ فيك لبَقية ، قال : هى لك .

وقال عبيد الله بن زياد لمُسلم بن عَقيل : والله لأقتلنك قِتْلة يُتحدّث بها بعدك ، فقال مسلِم : أشهد أنّك لا تدعُ سوءَ القِتْلة ولؤم القُدْرة لأحد أولَى بهما منك .

وقال رجل لعمرو بن العاص : لأتفرّغنّ لك ، قال : إذًا وقعتَ(٣) فى الشُّغل .

---

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « أم جميل هى ابنة حرب ، أخت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس » . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « ألاتفتح عينك؟ » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « إذا تقع » .

وقال معاوية لعمرو بن سعيد بن العاص الملقّب بالأشدق : إلى مَنْ أوصَى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبي أوصَى إليّ ولم يُوصِ بي .

وقال عبيد الله بن زياد بن ظَبْيان لابنه وقد حضرته / الوفاة : قد أوصيتُ بك فلاناً فالقَه بعدي ، فقال : يا أبَهْ ، إذا لم يكن للحيّ إلا وصيةُ الميت ، فالحيّ هو الميت . [٩١ ظ]

وقال الوليد بن يزيد لابن الرِّقاع العاملي : أنشدْني بعضَ قولك في الخمر ، فأنشده :

كُميتٌ إذا شُجَّتْ وفي الكأسِ وَرْدَةٌ لها في عِظامِ الشّارِبينَ دَبيبُ

فقال له : شربتَها وربِّ الكعبة ! فقال ابنُ الرِّقاع : لئن كان نعتي لها بذلك رابَك ، لقد رابَني معرفتُك بها .

ولما أتى معاويةَ نعيُّ الحسن بن عليّ عليهما السلام بعث إلى ابنِ عبّاس رضي الله عنه ـ وهو لا يعلمُ الخبر ـ فقال له : هل عندك خبرمن المدينة(1) ؟ قال : لا ، قال : أتانا(2) نعِيَ الحسن ـ وأظهر سروراً ـ فقال ابنُ عباس : إذاً لا يُنسَأ(3) في أجلك، ولا تُسَدُّ حفرتُك ، قال : أحسَبه قد ترك صِبْية صغاراً ، قال : كلُّنا كان صغيرًا وكبِر ، قال : وأحسَبه قد كان بلَغ سنًّا ، قال : مثلُ مولدِه لا يُجهل، قال معاويةَ : وقال قائل إنك أصبحتَ سيّدَ قومك، قال : أما وأبو عبد الله الحسينُ بن عليّ حيٌّ فلا ؛ فلما كان من غدٍ أتى يزيدُ بن معاوية ابنَ عباس ، وهو في المسجد يعزّى(4) ، فجلس بين يديه جِلْسَةَ المعزّي ، وأظهر حزنًا(5) وغمًّا ، فلما انصرفَ أتبعه ابنُ عباس بصرَه وقال: إذا ذهبَ آلُ حربٍ ذهب حِلْمُ قريش .

ورويَ أنّ وفوداً دخلت على عمر بن عبد العزيز ، فأراد فتًى منهم الكلامَ، فقال عمر : ليتكلمْ أكبرُكُم ، فقال الفتى : إنّ قريشاً لترى فيها مَنْ هو أسنّ منك ، فقال له : تكلّم يا فتى .

(1) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « ماجاءك من المدينة خبر ؟ » .
(2) حاشية ت (من نسخة) : « أتى ناعي الحسن » . (3) حاشية ت (من نسخة) : « إذاً لاينسئ أجلك » . (4) حواشي الأصل ، ت ، ف : « كان ذلك بالشام ؛ وروى أن ابن عباس رضي الله عنه عقد بالشام عزاء على الحسن صلوات الله عليه » . (5) ت : « تحزنا » .

وروى محمد بن سلاَّم الجُمحيّ قال: " أنشد(١) كُثَيِّر عبدَ الملك بن مروان شعراً :

على ابنِ أبي العاصي دِلاَصٌ حَصِينةٌ ... أجادَ المُسَدِّي نَسجَها فأذَالَها(٢)

فقال له: هلاّ قلت كما قال الأعشى :

وإذا تـكونُ كَتيبةٌ ملمُومةٌ ... شَهباء يَخشَى الذّائدونَ نِهالَهَا(٣)

كُنتَ المُقدَّمَ غيرَ لابسِ جُنَّةٍ ... بالسَّيفِ تَضرِبُ مُعْلِماً أبطالَها(٤)

فقال له : إنّه وصَفه بالخُرْقِ ووصفتُك بالحزْم(٥).

ويُشبه ذلك ما رُوِيَ(٦) عن أبي عمرو بن العلاء أنه لقي ذا الرُّمة ، فقــال له : أنشدني قصيدتك :

* ما بالُ عَينِكَ مِنها الماء يَنسكِبُ(٧) *

---

(١) طبقات الشعراء ٤٠٨ـ٤٠٩ ؛ ورواه المرزبانيّ في الموشح: ١٤٥ ؛ مع اختلاف في الرواية .

(٢) ابن أبي العاصي هو عبد الملك بن مروان بن الحـكم بن أبي العاصي بن أمية ، ودلاص : وصف الدرع اللينة . والحصينة : المحكمة المتدانية الحلق ؛ يكون صاحبها في حصن مما يصيبه . وسدى الدرع : نسجها . ويقال أذال الدرع ؛ إذا أطال ذيلها وأطرافها .

(٣) ديوانه : ٢٧ . الـكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملمومة : مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض : وشهباء : بيضاء صافية الحديد . والذائد : الذي يحمى الحرم ويذود عنها ، والنهال : العطاش .

(٤) المقدم : شديد الإقدام على العدو . والجنة هنا : الدرع تستر لابسها . والمعلم : من يعلم مكانه في الحرب بعلامة أعلم بها نفسه . (٥) رواية المرزباني : « فقال : ياأمير المؤمنين ؛ وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير ؛ ووصفتك بالحزم والعزم ، فأرضاه » ؛ وقد فاضل المرزباني بين هذين الشعرين فقال : « رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثير ؛ لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الأوسط ؛ والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جنة؛ على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب؛ ففي وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه» . (٦) الخبر في الموشح ١٧٤ـ١٧٥ ، والشعر والشعراء ٥١٧ـ٥١٨ ، والأغاني ١٦ : ١١٨؛ واللآلي: ٨٩٨ ؛ مع اختلاف في الرواية والشعر . (٧) بقيته :

* كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٍ سَرِبُ *

والـكلى : جمع كلية ؛ وهي رقعة تـكون في أصل عروة المزادة . ومفرية : مقطوعة . وسرب : سائل ؛ والقصيدة في ديوانه ١ ـ ٣٠ .

/ فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله : [٩٢ و]

تُصْغِى إذَا شدَّها بالكورِ جانِحَةً حتَّى إذَا ما استوَى فى غرْزِها تَثِبُ

فقال له أبو عمرو بن العلاء : قول الراعى أحسن مما قلت

تَرَاها إذَا قامَ فى غَرْزِها كَمِثْلِ السَّفِينةِ أو أوْقَرُ

ولا تُعجِلُ المرْءَ عِندَ الوُرو كِ وَهْىَ بِرِكْبَتِهِ أبصَرُ[(١)]

فقال ذو الرُّمةِ : إنَّ الراعىَ وصفَ ناقة مِلِك ، وأنا وصفتُ ناقة سوقة .

وحكى الصُّولىّ أنه سمع أعرابيا يُنشِد بيتَه الذى حكيناه ، فقال : سقَط والله الرجل .

فأما الغرْز فهو للناقة مثل الرِّكاب للدابة ، وهو نِسْع مضفور . وقوله : « تُصْغِى » يريد تُميل رأسها ، كأنها تسمع ، لأنها ليست بنفور ، بل مؤدّبة مقوّمة . والكور: الرحل.

وقد أخذ هـذا المعنى أبو نواس فأحسن نهاية الإحسان ، فقال يصف الناقة فى مدحه الخصيبَ بن عبدالحميد :

فكأنَّها مُصْغٍ لِتُسْمِعَهُ بَعضَ الحَدِيثِ ، بأذْنِه وَقْرُ

فلم يرضَ بأنْ وصفها بالإصغاء حتى وصفَها بالوقْر ، وهو الثقَل فى الأذن ، لأن الثَّقيلَ السمع يكون إصغاؤه وميلُه إلى جهة الحديث أشدَّ وأ كدَ[(٢)] .

* * *

قال سيدنا الشريف أدام الله علوّه : وإنى لأستحسِن القصيدة التى من جُمْلَتِها البيتُ الذى أوردناه لأبى نواس ؛ لأنها دون العشرين بيتاً ، وقد نَسب فى أولها ، ثم وَصفَ النَّاقةَ بأحسن وصف، ثم مدَح الرجلَ الذى قصد مدحه واقتضاه حاجتَه ؛ كلُّ ذلك بطبع يتدفَّق، ورَوْنَق يترقرق ، وسهولة مع جزالة ؛ والقصيدة[(٣)] :

---

(١) البيتان فى اللآ لى : ٨٩٨ . الوروك: أن يثنى الرجل إحدى وركيه لينزل من فوق السرج، والبيت الثانى فى اللسان (ورك) ، وفى ت : « الركوب » ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « النزول » .

(٢) من نسخة بحاشية ت : « وأوكد » . (٣) ديوانه : ١٠١ .

يا مِنَّةً امْتَنَّها السُّكْرُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ما يَنقضى مِنّى لها الشُّكْرُ
أعطتْك فوقَ مُناكَ مِن قِبَلٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ قدْ كُنَّ قبلُ، مَرامُها وَعْرُ
يَثْنى إليكَ بهـــا سَوالِفَهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ رَشأٌ صِناعةُ عَينِهِ السِّحْرُ
ظلّتْ مُحَيَّا الكأسِ تبسُطُنا[١] ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ حتّى تَهتّكَ بينَنا السِّتْرُ
[٩٢ ظ] / فى مَجلسٍ ضحِكَ السُّرُورُ بهِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عَنْ ناجِذَيْهِ وحلَّتِ الخَمْرُ

أما قوله : « حلَّتِ الخمرُ » فيحتمِل أن يُريد به أنَّ ماوصفه من طيب الموضع وتكامُل السرور به وحضور[٢] المأمول فيه صار مقتضِياً لشرب الخمر، ومُلْجِئاً إلى تناولها، ورافعاً للحرج فيها؛ على مذهب الشعراء فى المبالغة؛ وتكون فائدةُ وصفِها بأنها « حلّت » المبالغةَ فى وصف الحال بالحسْن والطِّيب. ويحتمل أن يكونَ عَقَد على نفسه، وآلى ألّا يتناول الخمر إلّا بعد الاجتماع مع محبوبه، وكان الاجتماعُ معه مُخرِجاً له عن يمينه، على مذهب العرب فى تحريم الخمر على نفوسهم، إلى أن يأخذوا بثأرهم؛ ويجرى ذلك مَجْرى قول الشَّنْفَرَى :

حلّتِ الخمرُ وكانتْ حَرَاماً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وبلأْيٍ ما ألمّتْ تحِلُّ[٣]

ويحتمل أن يريد « بحلّت » نزلتْ وأقامت؛ من الحلُول الذى هو المقام؛ لا مِنَ الحَلال؛ فكأنه وصفَ بلوغَ جميع آرابه وحضورَ فنون لذّاته، وأنها تكاملتْ بحلول الخمر؛ التى فيها جميعُ الملذات؛ وهذا الوجه وإن لم يُشِرْ إليه أحدٌ ممّنْ تقدم فى تفسير هذا البيت؛ فالقول يحتملُه، ولا مانعَ من أن يكون مُرادًا. وقد قيل إنه أراد استحللنا الخمرَ لسكْرِنا، وفقْدِنا العقولَ التى كنا نمتنع لها من الحرام؛ والوجوهُ المتقدمة أشبهُ وأقرب إلى الصواب.

(١) د : « تنشطنا ». ‏ ‏ ‏ ‏ (٢) د، ف : « وحصول ». ‏ ‏ ‏ ‏ (٣) من قصيدة مطلعها :

إنَّ بالشِّعْبِ الّذِي دُونَ سَلْعٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لَقتيــلاً دَمُــهُ مايُطَــلُّ

وفى نسبتها خلاف كبير؛ نسبها أبو تمام فى الحماسة ٢ : ٣١٣–٣١٩ إلى تأبط شرا، وقال التبريزى : « إنها لخلف الأحمر؛ وقيل إنها لابن أخت تأبط شرا »؛ ونسبها ابن قتيبة فى الشعر والشعراء إلى خلف؛ وقال : « إنه نحلها ابن أخت تأبط شرا؛ وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين »، وممن نسبها إلى الشنفرى صاحب الأغانى (٥ : ١٦٢).

وَلَقَدْ تَجُوبُ فِى الفَلَاةَ إِذَا   صَامَ النَّهارُ وقَالَتِ العُفْرُ

أراد «بصام» ، وقف ، وذلك وصفٌ له بالامتداد والطول . والعُفْر : الظِّباء اللواتى[(١)] فى ألوانهنَّ حمرة يخالطها كُدْرة[(٢)] . و «قالت» من القائلة ، وهى وقتُ نصف النهـار ؛ لا من القول .

شَدَنِيَّةٌ رَعَتِ الحِمَى فَأَتَتْ   مِلْءَ الحِبالِ كأنَّها قَصْرُ

شدَنِيَّة: منسوبة إلى شدَن ، وهو موضع باليمن ؛ يقال لِمَلِكِه: ذو شدَن .

تَثْنِى على الحاذَيْن ذَا خُصَلٍ   تَعْمالُهُ الشَّذَرانُ والخَطْرُ

الحاذُ : مؤخَّرالفخِذ . والشَّذَران : رفع الناقة ذَنَبها من المرَح[(٣)] . والخَطَران، معروف من خطَر يخطِر / . وتَعْمالُه ، أى عمله . [٩٣ و]

أَمَّا إِذَا رَفَعَتْهُ شامِذَةً   فتقولُ رَنَّقَ فَوقَها نَسْرُ

يعنى بشامِذة ، أى مبالِغة فى رفع ذَنَبها . ويقال ، رنَّق الطائر ؛ إذا نشرَ جَناحه[(٤)] طائرًا من غير تحريك .

أَمَّا إِذَا وَضَعَتْهُ خافِضَةً   فتقولُ أُرْخِىَ خَلْفَها سِتْرُ
وتَسِفُّ أحيانًا فتحسِبُها   مُتَرَسِّمًا يَقْتادُهُ أُثْرُ[(٥)]

معنى « تَسِفّ » ، أى تُدْنِى رأسها من الأرض . والمترسِّم: الذى يتتبع الرَّسْم ويتأمَّله ؛ ومعنى « يقتاده أُثْرُ » ، أى هو مَمْنِىٌّ بطلب الأَثَر وموكَّلٌ بتتبُّعه . ويقال: أَثْرٌ وأُثْرٌ وإِثْرٌ ؛

(١) حاشية ت (من نسخة) : « التى » .   (٢) حاشية ت (من نسخة) : « كدورة » .

(٣) فى حواشى الأصل ، ت ، ف : « فى كتاب ابن فارس : تشذرت الناقة إذا رفعت رأسها من النشاط » .   (٤) ت ، ش ، ف : « جناحيه » .   (٥) فى حاشيتى الأصل ، ت : « الأُثر [بضم الهمزة والثاء] ، والأَثر [بفتح الهمزة والثاء] سواء ؛ قال امرؤ القيس :

وإنْ أَدْبَرَتْ قلتَ أُثْفِيَّةٌ   مُلَمْلَمَةٌ لَيْسَ فيها أُثُرْ

ثلاث لغات ؛ وقد وهِم الصُّولىّ فى تفسير هذا البيت ؛ لأنّه قال : إن أبا نُوَاس جمع الأثَرَ آثارًا ، ثم جمع الآثار أُثُرًا ، ثم خَفَّف فقال : « أُثْر » . وليس يحتاج إلى ما ذكره مع ما أوردناه ؛ وإنما ذهب عليه أنه يقال فى الأثَرِ : أُثْر .

فإذَا قَصَرْتَ لَها الزِّمامَ سَما ... فوْقَ القَادِمِ مِلْطَمٌ حُرُّ(١)
فكأنَّها مُصْغٍ لِتُسْمِعَهُ ... بَعضَ الحديثِ ، بأُذْنِه وَقْرُ
تَبرِى لأَنقاضٍ أضَرَّ بِها ... جَذْبُ البُرَى فخُدُودُها صُعْرُ

معنى تَبرِى ، تنبرِى ، أى تعرِض لهذه الأنقاض ، والأنقاض : جمع نِقْض ؛ وهو البعير الذى قد هزله السفرُ والكدّ . والبُرَى : جمع بُرَة ؛ وهى الحلْقة التى تكون فى أنف البعير يُذلَّل بها .

يَرْمِى إليكَ بِها بَنو أَمَلٍ ... عَتَبُوا فأَعْتَبَهُم(٢) بكَ الدَّهرُ
أنتَ الخَصيبُ وهذه مِصْرُ ... فتدَفَّقا فكلاكُما بَحْرُ
لا تَقْعُدَا بى عن مَدَى أَمَلى ... شيئًا فما لَكُما بهِ عُذْرُ
وَيَحِقُّ لى إذْ صِرْتُ بَينَكُما ... ألّا يَحِلَّ بساحَتى فقْرُ(٣)

---

(٢) الملطم : صفحة العنق . (٢) أعتبهم : أرضاهم . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « القفر » .

مجلس آخر [٢٠]

قال سيدنا أدام الله علوّه: ثم نعود إلى ما كنّا آخذين فيه من ذكر مُستَحْسَن الجوابات.

رُوى أن رجلا نظر إلى كُثَيِّر الشاعر راكبا / وأبو جعفر محمد بن علىّ عليهما السلام يمشى، [٩٣ ظ] فقيل له: أتركبُ وأبو جعفر يمشى! فقال: هو أمرنى بذلك، وأنا بطاعته فى الركوب أفضلُ منى فى عصيانى إياه بالمشى[1].

ورُوِى أن دعاةَ خُراسان صاروا إلى أبى عبد الله الصادق عليه[2] السلام فقالوا له: أردنا ولد محمد بن علىّ[3]، فقال: أولئك بالسَّراة ولست بصاحبكم، فقالوا له: لو أراد الله بنا خيراً كنت صاحبَنا، فقال المنصور بعد ذلك لأبى عبدالله: أردتَ الخروج علينا، فقال: نحن ندلُّ عليكم فى دولة غيركم، فكيف نخرج عليكم فى دولتكم!

وقال عبدالملك بن مروان لنصيب: هل لك فى الشراب؟ فقال له نُصَيب: الشعر مفلفَلٌ، واللون مرمّد[4]، وإنما قرَّبنى إليك عقلى، فهبه لى.

وقال مروان الملقَّب بالحِمار لحاجبه ــ وقد ولّى منهزماً ــ: كُرَّ عليهم بالسيف، فقال: لا طاقةَ لى بذلك، فقال: والله لئن لم تفعل لأسوءنَّك، فقال: وَدِدت أنك تقدر على ذلك.

وقال يحيى بن خالد لشَريك: علِّمنا مما علَّمك الله يا أبا عبد الله، فقال له شَريك: إذا علّمتم بما تعلمون، علَّمنا كم ما تجهلون.

---

(١) حاشية ت (من نسخة): «فى المشى». (٢) ت: «أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام». (٣) هو محمد بن على بن عبد الله بن العباس؛ جد الخلفاء العباسيين؛ وهو الذى ابتدأت الدعوة على يديه؛ وكان ذلك فى حياة أبيه؛ (وانظر تاريخ ابن الأثير حوادث سنة ١١٨).

(٤) الرمدة: لون إلى الغبرة؛ ومن نسخة بحاشيتى ت، ف: «مربد».

وقال المأمون لمحمد بن عمران : بلغني أنك بخيل ، فقال : ماأجمد في حقّ ، ولا أذوب في باطل[1].

وقيل لأبي دؤاد الإيادىّ — ونظر إلى بنته تسوس فرسه — : أهنتَها يا أبا دؤاد ! فقال : أهنتُها بكرامتي، كما أكرمتُها بهواني؛ ومثل ذلك قول أعرابىٍّ لحقه ذلٌّ على باب السلطان:

أهينُ لهمْ نفسي لأُكرِمها بهمْ ولن تُكرِمَ النَّفْسَ التي لا تُهينُها

ودخلَ عُمارة بن حمزة على المنصور ، فجلس مجلسه الذى كان يجلس فيه ، فقام رجلٌ إلى المنصور فقال : مظلوم ياأمير المؤمنين ، فقال : مَن ظلمك ؟ فقال : عُمارة غصبني ضيْعتي، فقال المنصور : قم يا عُمارة ، فاقعد مع خصمك ، فقال عُمارة: ما هو لى بخَصْم؛ فقال له : كيف؟ قال: إن كانت الضيعةُ له فلست أنازِعه فيها؛ وإن كانت لى فهى له، ولا أقوم من مجلس شرّفنى به أميرالمؤمنين لأقعد فى أدْنى منه بسبب ضَيْعة .

وقال هشام بن عبد الملك لرجل فى الكعبة : سَلْنى حاجتك ، فقال : لا أسأل فى بيت الله غيرَ الله .

[٩٤ و] وهرَب سليمان بن عبد الملك من الطّاعون فقيل له : إن الله تعالى / يقول : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ؛ [الأحزاب : ١٦] ، فقال: ذلك القليلَ نطلب.

وقيل إنّ الجعْد بن دِرْهم جعلَ فى قارورة تراباًوماء، فاستحال دوداً وهوامّ، فقال لأصحابه: أنا خلقتُ ذلك، لأنى كنتُ سبب كونه. فبلغ ذلك جعفر بن محمد عليهما السلام، فقال: إن كان خلقَه فليقل : كَمْ هو ؟ وكَم الذُّكران منه والإناث؟ وكم وزن كل واحدة منهن ؟ وليأمر الذى يسعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره . فانقطع وهرب .

(١) حاشية ف : « فى كتاب آخر : « ولا أتدفق فى باطل » .

وقال المأمون للفضل بن سهل: إنى أخاف عليك أقواماً يعادونك، فلا تركب إلا فى جيش، فقال الفضل: ما أخاف غيرك، فإن أمنتنى من[1] نفسك لم يضر فى إنسان.

وقيل لأبى ثور: ما تقول فى حماد بن زيد بن درهم، وحماد بن سلمة بن دينار؟ فقال: بينهما فى العلم كقيمة ما بين أبويهما فى الصرف.

وأراد المأمون تقبيل السواد[2]، وجلس يناظر العمال على ذلك، فقام إليه رجل من الدهاقين فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل ولاك علينا بالأمانة، فلا تقبلنا، فأضرب عن ذلك.

وقال رجل لابن عباس: زوجنى من فلانة[3] — وكانت يتيمة فى حجره — فقال: لا أرضاها لك، لأنها تتشرف، فقال الرجل: قد رضيت أنا، فقال ابن عباس: الآن لا أرضاك لها.

[4] ويشبه هذا الخبر من وجه ما رواه[4] المدائنى قال: أرسل عمر بن عبد العزيز رجلاً من أهل الشام وأمره أن يجمع بين إياس بن معاوية المرى[5] وبين القاسم بن ربيعة الحوشى[6] من بنى عبدالله بن غطفان، فيولى القضاء أقدمهما[7]، فقدم الرجل البصرة، فجمع بينهما، فقال إياس للشامى: أيها الرجل، سل عنى وعن القاسم فقيهى المصر: الحسن وابن سيرين، فمن أشارا عليك

(١) من نسخة بحاشيتى ت، ف: «فإن أمنتنى نفسك».

(٢) السواد: يراد به رستاق العراق وضياعها مما افتتحه المسلمون؛ سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار. والتقبيل: من القبالة؛ وهى الكفالة، قال فى اللسان: «يقال قبلت العامل تقبيلا؛ والاسم القبالة؛ وفى حديث ابن عباس: «إياكم والقبالات؛ فإنها صغار وفضلها ربا»؛ وهو أن يتقبل بخراج أو جباية أكثر مما أعطى؛ فذلك الفضل ربا؛ فإن تقبل وزرع فلا بأس».

(٣) ت، وحاشية الأصل (من نسخة): «زوجنى فلانة». (٤—٤) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «ويشبه هذا الخبر من وجه بخبر رواه». (٥) من نسخة بحواشى الأصل، ت، ف: «المزنى» وفى حاشية الأصل أيضاً: «وهم، هو إياس بن معاوية بن قرة المزنى».

(٦) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «الجوشنى». (٧) حاشية ت (من نسخة): «أنفذهما».

بتوليته فولّه ؛ وكان القاسم يأتى الحسن وابن سيرين، ولم يكن إياس يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به ، فقال للشامىّ : لا تَسَلْ عنّى ولا عنه ، فوالذى لا إله إلا هو إن إياساً أفضلُ منى وأفقه ، وأعلم بالقضاء ، فإن كنتُ عندك ممّن يصَدّق إنه ليَنبغى أن تقبل منى ، وإن كنت كاذباً فما يحلّ لك أن تولّينى وأنا كاذب؛ فقال إياس للشامىّ : إنك جئتَ برجلٍ فأقمته على شفير جهنّم، فافتدى نفسه من النار[١] أن تقذفه فيها بيمين حلَفها كذب فيها، يستغفر [٩٤ ظ] الله منها، وينجو مما يخاف /. فقال الشامىّ : أما إذْ فطِنتَ لهذا ، فإنى أولّيك، فاستقضاه .

ولما أمضى معاوية بيعةَ يزيد جعل الناس يقرّظونه، فقال يزيد لأبيه : ما ندرى أنخدَع الناس أم يخدعوننا ؟ فقال معاويةُ : يا بنىّ، مَن خدعته فتخادع لك ليخدعك فقد خدعته .

وسُمِع عبد الملك بن مروان ليلة قُبِض وهو يجود بنفسه ـ وقد سمع صوت قصّار ـ يقول: ليتنى كنتُ غسالاً أعيش بما أكسب يوماً بيوم ، فبلغ ذلك أبا حازمٍ فقال : الحمد لله الذى جعلهم عند الموت يتمنون ما نحن فيه، ولا نتمنّى فى الحياةِ ماهم فيه .

وقال الواثق للجاحظ: يامَنّانىّ[٢]، فقال: لو كان الذى أضفتَنى إليه عبدَك ماقدرتُ على بيعِه لكثرة عيوبه ؛ فكيف أكون على دينه[٣] ! .

وقال ابن عباس رضى الله عنه للخوارج ـ وقد أرسله أمير المؤمنين عليه السلام إليهم: نَشَدْتُكم اللهَ، أيّما أعلمُ بالتنزيل والتأويل : علىّ أم أنتم؟ قالوا : علىّ ، قال : أليس تدرون، لعلّ الذى حكَم به فيكم بفضل علمه على ما تعلمون! فرجع أكثرهم .

---

(١) حاشية ف : « بدل اشتمال من « نفسه » ، أى افتدى قذف نفسه » .

(٢) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف: « ياماتىّ » ؛ ومانىّ : منسوب إلى مانى ؛ وهو مانى ابن فاتك الحكيم؛ وأتباعه يعرفون بالمانوية ؛ وهم يزعمون أن العالم مركب من أصلين قديمين : نور وظلمة ؛ وهما أزليان ، (وانظر تفصيل مذهبهم فى الملل والنحل للشهرستانى ١٤٣ـ١٤٦) .

(٣) ت: « على ذلك » .

وقال عُتْبَة بن أبي سفيان لعبد الله بن عباس : ما مَنَع عليّ بن أبي طالب أن يجعلك أحد الحكمين ؟ فقال : أما والله لو بعثني لاعترضتُ مَدارج[1] أنفاسه ، أُطِير إذا أَسَفَّ وأُسِفُّ[2] إذا طار ، ولعقدتُ له عقدا لا تنتقض مريرته ، ولا يُدْرك طرفاه ؛ ولكنه سَبَق قدرٌ ، ومضى أجلٌ ، والآخرة خير لأمير المؤمنين من الدنيا .

وقال أبو جعفر محمد بن عليّ عليهما السلام لِكُثَيِّر : امتدحتَ عبدَ الملك بن مروان ؟ فقال : لم أقل له ياإمامَ الهدى ، إنما قلتُ : ياشجاعُ ، والشجاع حَيّة ، ويا أسدُ ، والأسد كلب ، ويا غيثُ ، والغيث مَوات ! فتبسم أبو جعفر عليه السلام .

وقالت بنت عبد الله بن مطيع لزوجها يحيى بن طلحة : ما رأيتُ ألأم من أصحابك ، إذا أيسرتَ لزِموك ، وإذا أعسرتَ تَركوك ! فقال : هذا من كرمهم ؛ يأتوننا فى حال القوة منّا عليهم ، ويفارقوننا فى حال الضعف منّا عنهم .

وقيل لإبراهيم النَّخَعِيّ : متى كنت ؟ قال : حيث احتِيج إليّ .

ورُئِيَ رجلٌ يصلى صلاة خفيفة، فقيل له : ماهذه الصلاة ؟ فقال: صلاةٌ ليس فيها رياء .

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانيّ قال حدّثني محمد بن أبي الأزهر قال حدثنا محمد بن يزيد النحويّ قال : تزعمُ الرواة أنّ قُتَيْبة بن مُسلم لما فتح سَمَرْقَنْد[3] أفضى إلى أثاثٍ لم يُرَ مثلُه ، والآتٍ لم يُسمعْ بمثلها ، فأراد أن يُرِيَ الناسَ عظيمَ ما فتح ، ويُعرِّفهم أقدارَ[4] القوم الذين ظَهر عليهم ، فأمر بدارٍ ففُرِشَتْ ، وفى صحنها قُدور يُرْتَقَى إليها بسلاليم ، وإذا الحصين بن المنذر بن الحارث[5] بن وَعْلة الرَّقاشيّ قد أقبل ، والناسُ جلوس على مراتبهم ، والحصينُ شيخ كبير ، فلما رآه عبد الله بن مُسلم أخو قُتيبة قال لِقُتيبة : أتأذَنُ لى فى معاتبته؟

(١) المدارج هنا : جمع مدرجة ؛ وهى ممر النفس .

(٢) يقال: أسف الطائر ؛ إذا دنا من الأرض فى طيرانه .

(٣) سمرقند : من أكبر مدن ماوراء النهر وحاضرة الصغد ؛ فتحها قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٩٣ .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل؛ ف : « مقدار » .

(٥) ت : « المنذر بن الحباب » .

قال : لا تردَّه ، فإنه خبيثُ الجواب ، فأبى عبدُ الله إلاّ أن يأذنَ له ــ وكان عبدالله يُضَعَّف ــ وكان قد تسوَّر حائطا إلى امرأة قبل ذلك ــ فأقبل على الحصين وقال : أمِنَ الباب دخلت ياأباساسان ؟ فقال: أجل، أسنَّ عمُّك عن تسوّر الحيطان ، قال : رأيت هذه القدور ؟ قال: هي أعظم من ألاّ تُرَى ، قال : ما أحسب بكْر بن وائل رأى مثلها ، قال : أجَل ، ولا عَيلان[(١)] ، ولو رآها سُمّيِّ شَبعان ، ولم يسمَّ عَيلان ، فقال له : يا أبا ساسان ، أتعرف الذي يقول[(٢)] :

عَزَلْنا وأمَّرنا وبكرُ بن وائلٍ ... تَجُرُّ خُصاها تبتغى مَن تحالفُ

قال: أعرفه وأعرف الذي يقول:

وخَيبةُ من يَخيبُ على غنيٍّ ... وباهِلةَ بن يَعْصُرَ والرِّبابِ

قال: أتعرفُ الذي يقول[(٣)]:

كأنَّ فِقاحَ الأزْدِ حولَ ابنِ مِسمَعٍ ... وقدْ عَرِقَتْ أفْواهُ بَكرِ بن وائلِ[(٣)]

قال : أعرفه ، وأعرف الذي يقول :

قومٌ قُتَيبةُ أمُّهمْ وأبوهمُ ... لولاَ قتيبةُ أصبحوا فى مَجهلِ

قال : أمَّا الشعر ، فأراك ترويه ، ولكن هل تقرأ من القرآن شيئاً ؟ قال : نعم ، أقرأ منه الكثير الطيب: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً ﴾؛ [الإنسان : ١]، فأغضبه فقال: والله لقد بلغنى أن امرأة الحُصَين حُملت إليه وهى حبلى من غيره، قال : فما تحرَّك الشيخ من هيئته الأولى . ثم قال على رِسْله : وما يكونُ ؟ تلدُ غلاماً على فراشى فيقال: ابن الحصين ، كما يقال عبد الله بن مسلم/؛ فأقبل قُتَيبة على عبد الله فقال . لايبعدُ الله غَيرك . [٩٠ ظ]

---

(١) حاشية ف : « عيلان ، بالرفع على أن يكون مبتدأ ؛ أى ولا عيلان أدركها ؛ والنصب على أن يكون عطفا على بكر بن وائل » . وفى حاشية الأصل : « عيلان: قبيلة عبد الله بن مسلم » .

(٢) ف : « من الذى يقول؟ » . (٣) حاشية ف : « قوله : « وقد عرقت » ، الواو للحال ؛ شبه أدبار الأزد فى حال ماعرقت بأفواه بكر بن وائل » .

ولقى شَرِيكٌ[(١)] النُّمَيْرِىّ رجلا من بنى تميم ، فقال له التَّميمىّ : يعجبنى من الجوارح البازِى ، فقال له شَرِيك : وخاصّة إذا صاد القطا ؛ أراد التّميمىّ بقول البازى قولَ جرير :

أنا البازِى المُطِلُّ على نُمَيرٍ ... أُتِيحَ منَ السّماء لها انصبابا[(٢)]

وأراد شريك بقوله : « إذا صاد القطا » قولَ الطِّرِمّاح :

تميمٌ بطُرُقِ اللُّؤْمِ أهدَى مِنَ القَطا ... ولوْ سَلَكَتْ سُبْلَ المَكارِمِ ضَلّتِ[(٣)]

وساير[(٤)] شريكٌ النُّميرىُّ عمرَ بن هُبيرة الفَزارىّ على بَغْلة ، فجاوزت بغلتُه بِرْذَوْن عمر ، فقال له عمر : اغْضُضْ من لِجامها ، فقال شريك : إنها مكتوبة ، فقال عمر : ما أردتُ ذاك ، قال شَريك ولا أنا أردتُه ؛ ظن شَرِيك أنّ عُمر أراد بقوله : « اغْضض من لجامها » قول جرير :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِن نُمَيرٍ ... فلَا كَعباً بَلَغتَ ولا كِلابا[(٥)]

وعنَى شريك بقوله : « مكتوبة » قوله[(٦)] :

لا تأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ ... على قَلوصِكَ واكْتُبْها[(٧)] بأسْيارِ

يعنى : بـ« اكتبها » شُدَّها .

وأنشد أبو تمام الطائىّ أحمدَ بن المعتصم قصيدتَه[(٨)] السينية التى يمدحه فيها ، فلما بلغ إلى قوله :

(١) الخبر فى اللآلئ ٨٦٢—٨٦٣ ؛ مع اختلاف فى الرواية . (٢) ديوانه : ٧٢ ، وروايته : « المدل على نمير » . (٣) ديوانه : ١٣٢ ، وفى حاشية ت (من نسخة) : « طرق المكارم » .
(٤) الخبر فى الفاضل والمفضول : ٥٠ ، واللآلئ : ٨٦١—٨٦٢ ، والاقتضاب : ٥٠ ، وكنايات الجرجانى : ٧٤ . (٥) ديوانه : ٧٥ . (٦) هو سالم بن دارة ، من قصيدة هجا بها زميل ابن أبير الفزارى ، وأبيات منها فى الخزانة ١ : ٥٥٧ . (٧) ت : « معنى اكتبها : اشددها » .
(٧) القصيدة فى ديوانه ١٧٣—١٧٥ ، ومطلعها :

ماق وقوفكَ ساعةً مِنْ باسِ ... تقضِى ذمام الأرْبُعِ الأدراسِ

فى حِلمِ أحنفَ فى شَجاعةِ عامرٍ   فى جودِ حاتمٍ فى ذكاء إياسِ (١)

فقال له الكِنديّ ـ وكان حاضراً ـ : ما صنعتَ شيئاً ، قال : وكيف ؟ قال : لأنّ شعراء دهرِنا قد تجاوزوا بالممدوح مَنْ كان قبله ، ألا ترى إلى قول أبى العَكَوَّك(٢) فى أبى دُلف :

رَجُلٌ أبرَّ على شَجاعةِ عامرٍ   بأساً وغبَّرَ فى مُحيَّا حاتمِ

فأطرق الطائىّ ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تُنكِروا ضَرْبى لهُ مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَرُودًا فى النَّدَى والباسِ

فاللهُ قدْ ضَرَبَ الأقلَّ لِنُورِهِ   مثَلاً مِنَ المِشكاةِ والنِّبْرَاسِ

وقال ابن هبيرة لأبى دُلامة ـ وكان مولًى لبنى أمية لما ظهرت المسوِّدة(٣) : لأتخذنّ لك منهم عبداً صالحاً يخدمك ، فلما علتْ كلمتُهم ، وفشتْ دعوتُهم قال أبو دُلامة : ليتَ الله قيَّضَ لى / منهم مولًى صالحاً أخدُمه . [٩٦ و]

وقال يحيى بن خالد لعبد الملك بن صالح الهاشمىّ : إنّ خصالَك كاملة سوى حقدٍ فيك ، فقال : أنا خِزانة تحفظ الخيرَ والشر . وقد نظر ابن الرومى إلى هذا المعنى فى قوله :

وما الحِقْدُ إلاّ تومُ الشُّكرِ فى الفتى   وبعضُ السَّجايا يَنتَسِبْنَ إلى بعضِ(٤)

فحَيثُ ترَى حِقْدًا على ذِى إساءةٍ   فثَمَّ ترَى شُكرًا على حَسَنِ القَرْضِ

إذا الأرضُ أدَّتْ رَيْعَ ما أنتَ زارِعٌ   مِنَ البَذْرِ فيها فهىَ ناهيكَ مِنْ أرْضِ

وقال الحجاج للحُطَيط الخارجىّ : ما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟ قال : ما أقول فى رجل أنت خَطيئةٌ من خطاياه ! قال : فهل هممتَ بى قطّ ! قال : نعم ، ولكن حال بيننا

(١) رواية الديوان :

إقدامُ عمرٍو فى سَماحةِ حاتمٍ   فى حِلمِ أحنَفَ فى ذكاء إياسِ

(٢) كذا فى الأصول ؛ وفى الأغانى ونكت الهميان وابن خلكان : « العكوك » ؛ وفى حاشية الأصل ، ت : « العكوك فى الأصل : القصير السمين مع صلابة » ، وهو على بن جبلة الضرير ، توفى سنة ٢١٣ .   (٣) حاشية الأصل : « المسودة ؛ يعنى بنى العباس أصحاب الرايات السود » .

(٤) ديوانه : الورقة ١٥٤

بِينٌ وقَدَر ، وقد أعطيتُ الله عهداً إن سألتَني لأصدقنك ، ولَئِنْ خلَّيتَ عنى لأطايبنك ، ولَئِنْ عذبتنى لأصبرن لك؛ فأمر بقتله.

وأما « البِينُ » فهى الأرض الواسعة ، قال ابنُ مقْبل[1] :

بسَرْوِ حِمْيَرَ أبْوَالُ البِغَالِ بِهِ   أنَّى تَسَدَّيتَ وَهْناً ذلكَ البِينا[2]

وقيل لأبى العتاهية لما قال :

عُتْبُ[3] ما لِلخَيالِ   خَبِّرِينى ومالى

خرجت من العروض ، فقال : أنا أكبرُ من العَروض[4] .

وقال عبد الملك بن مروان للهيثم بن الأسود : ما مالُك؟ قال : قِوامٌ من العيش ، وغِنًى من الناس . فقيل له : لِمَ لَمْ تخبر به؟ فقال : إن كانَ كثيراً حَسدنى ، وإن كان قليلًا ازدرانى .

واغتاب الأعمشُ رجلًا من أصحابه، فطلع الرجلُ على هيئة ذلك ، فقال له رجل من أصحابه : قُلْ له ما قلتَه حتى لا يكون غِيبة ؛ فقال له : قل له أنت حتى لا تكون نميمة .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : هلْ غششتَنى مذ نصحتَنى؟ قال : لا ، قال : بَلَى يوم أشرتَ علىّ بمبارزة علىّ ، وأنت تعلم مَنْ هو! فقال عمرو: دَعاك رجلٌ عظيم الخَطَر إلى المبارزة، فكنتَ من مبارزته على إحدى الحسنيين ؛ إمّا إنْ قتلتَه فقدْ قتلْت قتّال الأقران ، وازددتَ شرفاً إلى شرفك ، وخلوْتَ بملكك ، وإمّا إنْ قتلك فتتعجّل مرافقةَ الشهداء والصديقين

(١) من قصيدة فى جمهرة الأشعار : ٣٣١ — ٣٣٥ ، مطلعها :

طافَ الخيالُ بنا رَكْباً يمانينا   ودُونَ لَيْلَى عَوادٍ لو تُعَدِّينا

(٢) سرو حمير : من منازلهم باليمن. وأبوال البغال يريدون به السراب ؛ قال الأصمعىّ : يقال لمطف البغال أبوال البغال ؛ ومنه قيل للسراب أبوال البغال على التشبيه ؛ وإنما شبه بأبوال البغال ؛ لأن بول البغال كاذب لا يلقح ، والسراب كذلك . وتسديت : يخاطب الطيف ، ويجوز أن يقرأ : « تسديت » بكسر التاء يخاطب الحبيبة (وانظر المقاييس ١ : ٣٢١ ، والسان — بين) .   (٣) على الترخيم .

(٤) حاشية ت : « يريد أن عمل الشعر قبل عمل الخليل للعروض » .

والصالحين ؛ قال معاوية : لهذه أشد علىّ من الأولى ، فقال عمرو : أفكنتَ من جهادِك فى شك فتكون منه الساعة ! /قال : دَعْنى منك الآن . [٩٦ ظ]

وقيل للأحنفِ بن قيس ـ وقد رأى مُسَيلِمَة الكذّاب : كيفَ هو ؟ فقال : ماهو بنبىٍّ صادق، ولا بمتنبّئ حاذق .

وروى المبرّد قال : قال زياد لأبى الأسود الدُّؤَلِىّ : لولا أنّك قد كَبِرت لاستعنّا بك فى بعض أمورِنا ، قال : إنْ كنت تَريدنى للصِّراع فليس عندى ، وإن كنت تَريد عقلى ورأيى فهما أوفر ما كانا .

وكان أبو الأسود حاضرَ الجواب جيِّد الكلام مليح النادرة . وروِى عن الشَّعبىّ أنه قال: قاتل الله أبا الأسود ! ما كان أعفّ أطرافَه ، وأحضرَ جوابَه ! دخل على معاويةَ بالنُّخَيْلة، فقال له مُعاوية : أ كنتَ ذُكِرْت للحكومة ؟ قال : نعم ، قال : فماذا كنتَ صانعاً ؟ قال : كنتُ أجمعُ ألفاً من المهاجرين وأبنائهم ، وألفاً من الأنصار وأبنائهم ، ثم أقول : يا معشرَ مَنْ حضر ؛ أرجلٌ من المهاجرين أحقّ أم رجلٌ من الطلقاء ؟ فلعنَه معاويةُ ، وقال : الحمد لله الذى كفاناك .

وقد رُوِى أنّ أبا الأسود طلبَ بأن يكونَ فى الحكومة ، وقال لأمير المؤمنين عليه السلام فى وقت الحكَمين : يا أميرَ المؤمنين ، لا ترضَ بأبى موسى ، فإنى قد عَجَمْتُ الرجلَ وبلوتُه ، فحلبتُ أشطُرَه ؛ فوجدته قريبَ القَعْر ، مع أنه يمانٍ ، وما أدرى ما يبلغ نصحُه ! فابعثنى فإنه لا يحلّ عُقْدةً إلاّ عقدتُ له أشدّ منها ، وإنهم قد رموْك بحجَرِ الأرض ، فإن قيل: إنه لاصحبةَ لى ، فاجعلنى ثانىَ اثنين ، فليس صاحبُهم إلاّ مَن تقرّب ، وكان فى الخلاف عليهم كالنَّجْم ؛ فأبى عليه السلام.

وروى محمد بن يزيد النحوىّ أنّ أبا الأسود كان [(١] نازلاً فى بنى قُشَيْر ؛ وكانوا يخالفونه فى المذهب لأن أبا الأسود كان[١)] شيعياً ، فكانوا يرمونه بالليل ، فإذا أصبحَ شكا ذلك ،

(١ ـ ١) ساقط من م .

فشكاموه ، فقالوا : ما نحن نرميك ؛ ولـكنّ الله يرميك ، فقال : كذبتم ، لو كان الله يَرميني ما أخطأنى .

وقال لهم يوماً : يابنى[١] قُشَيْرٍ ، ما فى العرب أحدٌ أحبُّ إلىّ طولَ بقاءٍ منكم ، قالوا : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنـكم إذا ركبتم أمراً علمت أنه غىّ فاجتنبه ، وإذا اجتنبتم أمراً علمت أنه رشد ، فاتبعته فنازعوه الـكلام ، فأنشأ يقول :

يَقُولُ الأَرْذَلُونَ بَنُو قُشَيْرٍ طَوَالَ الدَّهْرِ لا تَنْسَى عليًّا
أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا وعَبَّاسًا وَحَمْزَةَ والوَصِيَّا
[٩٧ و] / أُحِبُّهُمْ لِحُبِّ اللهِ حَتَّى أَجِئَ إذا بُعِثْتُ على هَوَيَّا
فإنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِبْهُ ولستُ بمُخطِئٍ إنْ كانَ غَيًّا

فقالوا له : أشكَـكتَ يا أبا الأسود ، فقال : ألم تسمعوا الله تعـالى يقول : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، أفترون الله شكّ !

أما قوله : «هَوَيّا» فإنه لغة هذيل ؛ يقولون ذلك فى كل مقصور[٢] ؛ مثل الهوى والعصا والتقى والقفا . قال أبو ذؤيب الهذلى :

سَبَقُوا هَوَىَّ وأَعْنَقُوا لِسَبِيلِهِمْ فتُخُرِّمُوا ولِـكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٣]

وروى أن أبا الأسود دخل على معاوية فقال له : أصبحت جميلا يا أبا الأسود ؛ فلو عَلَّقْتَ تَميمةً تدفع العين عنك! فقال أبو الأسود :

أفنى الشَّبابَ الَّذى ولَّى وبهجَتَهُ[٤] كَرُّ الجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ ومُنطَلِقِ
لم يَترُكا لىَ فى طولِ اختِلافِهما شيئًا أخافُ عليـهِ لَذْعَةَ الحَدَقِ

(١) الخبر مع الأبيات ورد فى الأغانى ١١ : ١١٣ ، ونزهة الألباء ٦ ــ ٧ ، وأخبار النحويين للسيرافى ١٤ ــ ٢١٥ ، وإنباه الرواة ١ : ١٧ ، يزيد وينقص فى بعض الروايات ، ويختلف فى بعض الألفاظ وترتيب الأبيات . (٢) وذلك إذا أضيف إلى ياء المتـكلم ؛ فيقولون : هوىّ ؛ أى هواى ، وعصىّ ؛ أى عصاى ؛ وهكذا. (٣) ديوان الهذليين ١ : ٢ ، والرواية فيه : « لهواهم » .
(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « فارقت بهجته » .

وروِي أنه دخل يوماً السوق يشتري ثَوْباً فقال له رجل : هلُمّ أقاربْكَ في هذا الثوب ؛ فقال: إنْ لم تقاربني باعدتُك ، ثم قال له : بكمْ هو ؟ قال : قدْ أعطِيت به كذا كذا، قال : إنما تخبَرُني عما فاتك .

وروى أنّه كان ماشياً في طريق، فقال له راكب : الطريقَ الطريقَ ، فقال له: عن الطريق تَعدِلُني!

ومرض أبو الأسود فقيل له : هو أمر الله ، فقال : ذاك أشدُّ له !

وقيل إن امرأة أبي الأسود خاصمته إلى زياد في وَلدها ، فقالت : أيها الأمير ، إن هذا يغلبني على ولدِي، وقد كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحِجْري له فناء، فقال أبو الأسود: (١أبهذا تريدين أن تغلبيني على ابني١)! فوالله لقد حملتُه قبل أن تحمليه ، ووضعتُه قبل أن تضعيه، فقالت: ولا سواء، إنك حملته خِفاً، وحملته ثِقلا، ووضعته شهوة ، ووضعتُه كرهاً ، فقال له زياد : إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخلِق أن تحسِن أدبَه .

وقال رجل لأبي الأسود: أنت والله ظريفٌ لفظ، وظَرْف[٢] علمٍ، ووعاء حِلْم ، غير أنك بخيل ؛ فقال: وما خيرُ ظرف لا يُمسك ما فيه !

وسلم عليه أعرابيٌّ يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال : أتأذن في الدخول ؟ قال : / وراءك أوسعُ لك ! قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أطعِمني ، قال : عيالي أحقُّ منك ، قال : ما رأيت ألأمَ منك ، قال : نسيتَ نفسك . [٩٧ أ]

وسأله رجل شيئا فمنعه قال : ما أصبحت حاتِمِيّاً[٣] قال : بلى ، قد أصبحت حاتمكم من حيث لا تدرى ، أليس حاتم الذي يقول :

أماوِيّ إمّا مانِعٌ فمُبَيَّنٌ ... وإمّا عطاءٌ لا يُنَهْنِهه الزَّجْرُ[٤]

(١-١) ت : « إنها لتريد أن تغلبني على ابني » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « ظريف » ، بالبناء للمجهول . (٣) ت : « حاتمنا » . (٤) ديوانه : ١١٨

مجلس آخر [٢١]

أخبرَنا أبو عُبيدالله محمد بن عمران المرزُبانيّ قال: أخبرَنا أبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عَرَفة النحويّ قال: لما وَلِيَ سليمان بن عبد الملك أُتِيَ بيزيد بن أبي مسلم مولَى الحجّاج في جامعة ـ وكان رجلا دميما تقتحِمهُ[1] العين ـ فلما رآه سليمان قال: لعن الله مَن أجرَّك رَسَنَك، وولّى مثلَك! فقال: ياأمير المؤمنين، رأيتَني والأمرُ عنّي مدبِر، ولو رأيتَني وهو عليّ مُقبل لاستعظمتَ مااستصغرتَ، ولاستجللتَ ما استحقرتَ، فقال له سليمان: أين تُرَى الحَجاجَ؟ أيهوِي في النار، أم قد استقرّ! فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقلْ كذا، فإن الحجاج قمعَ لكم الأعداء، ووطّأ لكم المنابر، وزرَع لكم الهيبة في قلوب الناس، وبعدُ، فإنه يأتي يومَ القيامة عن يمين أبيك عبد الملك، وشِمال أخيك الوليد، فضعْهُ حيث شئتَ.

ورُوِي أن خالد بن صفوان فاخَر رجلا من بني عبد الدار، الذين يسكنون اليمامة، فقال له العَبدريّ: مَن أنت؟ فقال: أنا خالد بن صفوان بن الأهتم، فقال له العَبدريّ: أنت خالد ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ [محمد: ١٥]، وأنت ابن صُفوان، وقال الله عزّ وجل ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وأنت ابن الأهتم، والصحيح خيرٌ من الأهتم. فقال له خالد بن صفوان: ياأخا بني عبد الدار، أتتكلم وقد هَشَمَتْك هاشم، وأمَّتك بنو أميّة، وخزمتك بنو مخزوم، وجمحتْك[2] بنو جُمَح، فأنت عبد دارِهم؛ تفتح إذا دخلوا، وتُغلق إذا خرجوا! فقام العبدريّ محموما.

وتقدم الأشعث بن قيس إلى شُرَيْح فقال له الأشعث: أتعلمُني بك يابن أمّ شُرَيْح! لقد

---

(١) حاشية ت (من نسخة): «تزدريه». (٢) حواشي الأصل، ت، ف: «يجوز أن يكون أصله: «جمحت بك»؛ فحذف حرف الجر، وأوصل الفعل؛ ذكره ابن دريد في كتاب الاشتقاق، ويجوز أن يكون من جامحته فجمحته».

عهدتُك وإنَّ شأنك لشُوَيْن ، فقال له شُرَيح : انت امرؤٌ تعرف النعمةَ فى غيرِك ، وتنساها فى نفسك .

وروَى أبو العيناء عن العتبيّ قال : دخل الفرزدقُ إلى سعيد بن العاص ، وعنده الحطيئة ، فلما مَثَلَ بين يديه قال :

[٩٨ و] / إليكَ فَرَرْتُ مِنْكَ ومِن زِيادٍ ولم أحسِبْ دَمى لكما حَلالاَ(١)
فإنْ يكُنِ الهِجاءُ أحلَّ قَتْلى فقدْ قلنا لِشاعِرِكُمْ وقالاَ(٢)
تَرَى الغُرَّ الجَحاجِحَ مِن قُرَيش إذا ماالأَمْرُ فى الحَدَثانِ عالاَ(٣)
قِياماً يَنظُرون إلى سَعيدٍ كأنَّهُمُ يَرَوْنَ بهِ هلالاَ(٤)

فقال له الحطيئة : هذا والله أيها الأمير الشِّعر ، لا ما كُنَّا نعلّل(٥) به منذ اليوم، ياغلام أقدِمَتْ أمك الحجاز ؟ فقال : لا ، ولكن قدِمه أبى .

أرادالحطيئة بقوله : إن كانت قدمت أمُّك الحجاز ، فقد وقعت بها(٦) ، وكنتَ منّى ، وأراد الفرزدق بقوله: « ولكن قدمه أبى » أى وقع بأمك فكنت أنت(٧) .

ويشبه ذلك ماروى أنّ الفرزدق كان ينشد شعره يوماً ، والناس حوله ، إذ مرَّ به الكُميت بن زيد ، فقال له الفرزدق: كيف ترى شِعرى؟ فقال الكميت: حسنٌ بَسَنٌ ، فقال له الفرزدق : أيسرُّك أنى أبوك ، قال: أمَّا أبى فلاأريدبه بدلا(٨) ، ولكن يسرُّنى أنْ لو كنت أمى ! فقال له

---

(١) ديوانه : ٦١٧ ، وبعده :

ولكنِّى هجوت وقدْ هَجَتْنى مَعاشِرُ قَدْ رَضَخْتُ لهمْ سِجالا

(٢) بعده :

وإن تك فى الهجاء تريد قتلى فلم تدرِك لمنتصرٍ مقالا

(٣) عال : فدح وأثقل ؛ وبعده :

بنى عمِّ الرسول ورهط عمرو وعثمان الذين علوْا فَعالا

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « الهلالا » . (٥) حاشية ت (من نسخة) : « ما كنت تعلل » . (٦) حاشية ت (من نسخة) : « وقعت عليها » . (٧) ابن الشجرى : « فكنت أنت أخى » . (٨) حاشية ت (من نسخة) : « بديلا » .

الفرزدق : اكتُمْ هذه على عمك يابن أخي فما مرّ بي مثلها .

وقيل إنّ عبد الملك بن مروان ظَفِر برجل من بني مخزوم زُبَيْرِي الرأى ، فقال له لما حضر مجلسه : أليس قد ردَّكَ الله على عقبَيك ! فقال الرجل: أوَمَن رُدّ عليك يا أمير المؤمنين فقد رُدَّ على عَقِبَيْه ! فوجَم عبد الملك .

وقال موسى بن عيسى بن موسى لشَريك : يا أبا عبد الله ، عزلوك عن القضاء ، وما رأينا قاضيا عزِل ! فقال شَريك : هم الملوك يعزِلون ويَخلعون — يعرِّض أن أباه خُلِعَ من ولاية العهد .

وذكر أبو عبيدة معْمر بن المثنى أن المفضَّل الضبيّ الراوية وهب لبعض جيرانه أيامَ الأضحى أضْحِيَّةً ، فلما لَقِيَه قال : كيف وجدتَ أضحيتَك ؟ قال : ما وجدت لها دماً ، يعرِّض بقول الشاعر :

ولوْ ذُبِحَ الضبيّ بالسَّيفِ لم تَجِدْ ... مِنَ اللُّؤمِ للضَّبيّ لَحماً ولا دَما

وروِي عن المأمون أنه قال : ما أعياني جوابُ أحد قطُّ مثلُ جواب ثلاثة : أحدهم أمُّ الفضل بن سهل ، فإني عزَّيْتُها عن ابنها وقلتُ : لئِنْ جزِعْتِ على الفضل لأنه ولَدُكِ ، فهأنذا ابنُكِ مكانه /، فقالت : وكيف لا أجزَعُ على مَنْ جعل مثلَكَ لى ولداً . والثانى رجلٌ [٩٨ ظ] أحضرتُه يزعم أنّه نبي الله موسى عليه السلام ، فقلت له : إن الله تعالى أخبرَنا عن موسى أنّه يُدخِلُ يده فى جيبه فيخرجها بيضاء من غير سُوء ، فقال : متَى فعلَ ذلك موسى ؟ أليسَ بعد أنْ لَقِيَ فِرْعون ! فاعْمَل كما عمِل فرعون ، حتى أعمَل كما عَمِل موسى . والثالثُ أن جماعة من أهل الكوفة اجتمعوا إلىّ يشكُون عاملَها ، فقلت : ارضَوْا بواحد أسمع منه ، فرضُوا برجل منهم ، فقال فى العامل وأكثر ؛ فقلت له : كذبتَ ! بل هو العفيف الورِع العدْل ؛ فذهب أصحابُه يتكلمون فسكّتهم ثم قال : صدقتَ يا أمير المؤمنين ، هو كما ذكرتَ ، فواسِ بين رعيتك فى العدل ، فصرفتُه عنهم .

ودخل عديّ بن حاتم بن عبدالله الطائىّ على مُعاوية ، فقال له معاوية : مافعل الطَّرَفات؟

يعني طُرَيفاً(١) وطرافاً وطَرَفة ، قال : قُتِلوا مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فقال له : ما أنصفَك ابنُ أبي طالب ، قدّم بنيك ، وأخّر بنيه ، فقال عديّ : ما أنصفتُه(٢) أنا ، أن قُتِل(٣) وبقيت .

وكتب رجلٌ إلى صديق له يقترض منه شيئاً ، فأجابه يشكو ضيقَ حاله ، فكتب إليه : « إن كنتَ كاذباً فجعلك اللهُ صادقاً ، وإن كنتَ صادقاً فجعلك الله كاذباً ، وإن كنتَ معذوراً فجعلك الله ملوماً ، وإن كنتَ ملوماً فجعلك الله معذوراً » .

وسمع الأحنف رجلًا يقول : ما أحلَمَ معاوية ! فقال : لو كان حليما ما سَفِه الحقّ .

ووصفه رجل عند الشعبيّ بالحلم ، فقال الشعبيّ : ويحَك ! وهل أغْمَدَ سيفَه وفي قلبه على أحدٍ شيء !

وقال زياد لرجل حضره : أين منزِلك ؟ فقال : وسَط البصرة ، قال : فما لَكَ من الولد ؟ قال : تسعة ، فقيل لزياد إن دارَه أقصى البصرة عند المقابر ، وله ابن واحد ، فقال الرجل : داري بين أهل الدنيا والآخرة ، فهي وسط البصرة ، وكان لي عشر بنين فقدّمت تسعة فهم لي ، وبقي واحد لا أدري ؛ أهو لي أم أنا له !

وقال رجلٌ لابن سيرين : إنّي وقعتُ فيك فاجعلني في حلٍّ ، فقال : ما أُحبُّ أن أحِلّك ممّا حرّم الله عليك .

وخطب الحجاج يوم جمعة فأطال ، فقال له رجل : إنّ الصلاة لا تنتظرُك ، وإن الله لا يعذِرك ، فأمرَ به فحبس ، فجاءه أهلُه فشهدوا أنّه مجنون ، فقال : إنْ أقرّ بالجنون أطلقتُه ، فقيل له : اعترِف بذلك وتخلّصْ ، فقال : والله لا أقول / إنّه ابتلاني وقد عافاني . [٩٩ و]

وحدّث الحسن البصريّ بحديث فقال له رجل : يا أبا سعيد ، عمّن ؟ فقال : وما تصنع بـ« عمّن » ؟ أما أنتَ فقد نالتك عظتُه ، وقامتْ عليك حجتُه .

---

(١) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « طريفا » ، بفتح أوله وكسر ثانيه .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « بل ما أنصفته » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « إذ قتل » .

وقيل لعبد الله بن جعفر ـ ونُظِر إليه يماكِس في درهم ـ فقيل له : أتماكِس في درهم وأنت تجود بما تجود به ! فقال : ذاك مالي جُدْتُ به ، وهذا عقلي بَخِلْتُ به .

ورُوِيَ أنَّ أبا العيناء محمد بن القاسم اليمامِيّ حدّث بعض الزبيريين[1] بفضائل أهله[2] فقال له : الزُّبيريّ[3] : أتجلب التمرَ إلى هجر[4] ! فقال له أبو العيناء : نعم ، إذا أجدبتْ أرضُها ، وعاوم[5] نخلُها ؛ وكانَ أبو العيناء مِن أحضرِ الناس جواباً ، وأجودِهم بديهة ، وأملحهم نادرة .

وروى[6] الصوليّ عن أبي العيناء قال : لما دخلتُ[7] على المتوكل دعوتُ له ، وكلَّمته ، فاستحسنَ خطابي ، وقال لي : يا محمد ، بلغني أنَّ فيك شرًّا ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إن يكنِ الشرُّ ذِكْرَ المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فقد زكَّى الله تعالى وذم ، فقال في التزكية : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ؛ [ص : ٣٠ ، ٤٤] ، وقال في الذم : ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ ؛ [القلم : ١١ ـ ١٣] ، فذمّه الله تعالى حتى قذفه[8] ، وقد قال الشاعر :

إذَا أنا بالمَعْرُوفِ لم أُثْنِ دائباً ... ولم أذْمُمِ الجِبْسَ اللَّئيمَ المُذَمَّما[9]
فَفِيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشرَّ باسمِهِ ... وشَقَّ لِيَ اللهُ المَسامِعَ والفَما!

وإن كان الشرّ كفعل العقرب يَلْسَعُ النبيَّ والذّمّي بطَبْعٍ لا يتميز ؛ فقد صان الله عبدك عن ذلك .

(١) حاشية ت (من نسخة) : « الزهريين » . (٢) ت : « بحديث في فضائل أهله » .
(٣) حاشية ت (من نسخة) : « الزهري » . (٤) هجر : مدينة واقعة على جبال العارض ببلاد العرب ؛ وكانت قاعدة البحرين . (٥) المعاومة : أن تحمل النخلة سنة ولا تحمل أخرى .
(٦) ت : « حكى عن الصولى » . (٧) حاشية (من نسخة) : « أدخلت » .
(٨) ت : « قرفه » ، والقذف والقرف : ذكر المرء بالسوء .
(٩) البيتان في أمالي القالي ٢ : ١٥٩ ؛ رواهما عن أبي العالية الرياحي .

(١)وَرُوِى أنه قال له يوماً : إلى كَمْ تمدحُ الناس وتذُمُّهم؟ فقال : ما أحسنوا وأساءوا(١) .

ورُوِى أن المتوكّل قال له يوماً : إنّى لأفْرَق من لسانك ، فقال له : إنَّ الشريفَ فَرِوقة ذو إحجام ، وإن اللئيمَ ذو أمَنَة وإقدام .

وقال له يوماً ــ وقد دخل عليه : اشتقتُك والله يا أبا العيناء ، فقال له يا سيّدى ؛ إنّما يشتد الشوقُ على العبدِ لأنه لا يصل إلى مولاه ، فأمّا السّيِّد فمتى أراد عبدَه دعاه .

ورُوِى أنه قال له يوماً : ما بَقِىَ أحدٌ فى مجلسِى إلا اغتابَك وذمّك ــ عند ماجرى من(٢) ذكرك ــ غيرى ، فقال أبو العيناء :

[٩٩ ظ] / إذا رَضِيَتْ عنّى كِرامُ عَشيرتى ... فلا زالَ غَضباناً علىَّ لئامُها

وذَكَرَ أبو العيناء قال : قال لى المتوكل : كيفَ ترَى دارِى هذه ؟ فقلت: رأيتُ الناسَ بنَوْا دورَهم فى الدنيا ، وأميرُ المؤمنين جعل الدُّنيا فى داره .

وقال أبو العيناء : قال لى المتوكل : مَنْ أسخَى مَنْ رأيت ؟ ومَنْ أبخلُ مَنْ رأيت ؟ فقلت : ما رأيتُ أسخَى من أحمد بن أبى دؤاد ، ولا أبخلَ من موسى بن عبد الملك ؛ قال : وكيفَ وقفتَ على بخله ؟ فقلتُ : رأيتُه يَحْرِمُ القريب كما يحرِمُ البعيد ، ويعتذر من الإحسان(٣) ؛ كما يعتذرُ من الإساءة ؛ فقال : أجئتَ إلى مَنِ اطّرحتَه فسخيتَه ، وإلى من أمسكتُه فبخّلتَه ! فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الصدقَ ما هو فى موضع من المواضع أنفقَ منه بحضرتك ، والناس يغلَطُون فيمن ينسبونه إلى السخاء ؛ فإذا نَسَبَ الناسُ السخاء إلى البرامكة ، فإنما ذاك من سخاء أمير المؤمنين الرشيد ، وإذا نسب الناسُ الحسنَ ابن سهل ، والفضل بن سهل إلى السخاء ، فإنما ذاك سخاءُ أمير المؤمنين المأمون ، وإذا نسبوا أحمد بن أبى دؤاد إلى السخاء فذاك سخاءُ أمير المؤمنين المعتصم ، وإذا نسبوا الفتح بن خاقان

(١) ساقط من م . (٢) ف : « عندما جرى ذكرك » .

(٣) حاشية ت : « يعنى أن إحسانه يكون ساقطا يحتاج إلى العذر » .

وعُبيد الله بن يحيى إلى السخاء فإنما هو سخاؤك؛ وإلاّ فما بال هؤلاء القوم لم ينسبوا إلى السخاء قبل صحبتهم الخلفاء(١) ! فقال لى : صدقتَ ، وسرِّى(٢) عنه .

وقال له المتوكل : ما أشدُّ عليك من ذَهاب البصر ؟ فقال له : فَقْدُ رُؤيتك ؛ مع إجماع الناس على جمالك .

وقال له يوماً: أريدك لمجالستى، قال: لا أطيق ذاك، وما أقول هذا جهلا بما لى فى هذا المجلس من الشرف ، ولكن أنا رجل محجوبٌ ، والمحجوب تختلف إشارته ، ويخفى عليه إيماؤه ، ويجوز علىّ أن أتكلَّم بكلام غضبان ووجهك راضٍ ، وبكلام راضٍ ووجهك غضبان، ومتى لم أميِّزْ بين هاتين(٣) هلكت؛ فقال : صدقت .

وروى أنه قال له : لولا أنك ضرير لنادمتك ، فقال : إنْ أعفيتَنى من رؤية الأهلّة ، وقراءة نقش الخواتيم فإنى أصلح .

وقال المتوكل : ما تقول فى ابن مكرَم والعباس بن رستم ؟ فقال : هما الخمر والميسر ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، فقال : بلغنى أنك تودُّهما ، فقال : لقد ابتعتُ الضَّلال بالهدى ، والعذاب بالمغفرة .

وقال له يوماً: بلغنى أن سعيد بن عبد الملك يضحك منك ، فقال : ﴿ إنَّ الَّذِينَ أجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾؛ [المطففين : ٢٩] وقال أبو العيناء : قال لى المنصور : ما أحسنُ(٤) الجواب؟ فقلت : ما أسكتَ المبطل ، وحيَّر المحِق .

/وقيل لأبى العيناء : إبراهيم بن نوح النصرانىّ عليك عاتب، فقال: ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ [١٠٠ و]
الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾؛ [البقرة : ١٢٠] . ورآه زُرقان وهو يضاحك

(١) حاشية ت (من نسخة) : « للخلفاء » . (٢) حاشية ف : « قوله : سرى عنه ؛ من قولهم : سروت عن الدرع ، أى كشفتها ، وسرى عنه الثوب : كشفه ، وانسرى عنه الهم ، وسرى عنه الهم » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « هذين » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « خير الجواب »

نصرانياً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ ؛ [المائدة : ٥١] ، فقال أبو العيناء ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ؛ [الممتحنة : ٨] .

وأخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد الكاتب قال أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال أخبرنا أبو العيناء قال : كان سبب اتصالي بأحمد بن أبي دؤاد أنّ قوماً من أهل البصرة عادَوْني وادّعَوا عليّ دعاوَى كثيرة ؛ منها أنّي رافضيّ ، فاحتجت إلى أن خرجتُ عن البصرة إلى سُرَّ مَن رأى ، وألقيت نفسي على ابن أبي دؤاد ـ وكنت نازلا في داره ، أجالسه كلّ يوم ـ وبلغ القوم خبري، فشخَصوا نحوي إلى سرَّ مَن رأى ، فقلت له: إنّ القوم قد قدموا من البصرة يداً عليّ ، فقال : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، فقلت: إنّ لهم مكراً ، فقال : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ؛ [الأنفال : ٣٠] ، فقلت : هم كثيرون قال : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ؛ [البقرة : ٢٤٩] ، فقلتُ : لله دَرُّ القاضي ! هو والله كما قال الصَّموت الكلابيّ :

للهِ دَرُّكَ أيُّ جُنَّةِ خائفٍ ... ومتاعُ دُنيا أنتَ للحَدَثانِ (١)
مُتَخَمِّطٌ تطأُ الرِّجالَ غَلَبَّةً ... وَطْءَ الفَنيقِ دَوارِجَ القِرْدانِ (٢)
وَتَرَكْتَهم حتَّى كأنَّ رُءوسَهم ... مأمُومةٌ تَنحطُّ للغِرْبانِ (٣)
وتُفرِّجُ البابَ الشَّديدَ رِتاجُهُ ... حتَّى يَصيرَ كأنَّهُ بابانِ

وقال لابنه الوليد : اكتب هذه الأبيات ، فكتبها بين يديه .

ـ قال الصوليّ : حفظي من أبي العيناء الصَّموت الكلابيّ على أنه رجل ، وقال وكيع : حفظي أنها للصَّمُوت الكلابية على أنها امرأة ـ

ودخل أبو العيناء على الحسن بن سهل ، فأثنى عليه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وقال:

---

(١) ديوان المعاني ١ : ٦٨ . (٢) التخمط : الأخذ والقهر بغلبة ؛ وغلبة مصدر غلب كثير الغلبة ، والفنيق الجمل الفحل ، ودوارج : جمع دارج . (٣) د ، ف حاشية ت (من نسخة) : « وتركبهم » والمأمومة : المشجوجة .

والله ما أستكثر كثيرك أيها الأمير، ولا أستقلُّ قليلك، قال: وكيف ذاك؟ قال: لا أستكثر كثيرك لأنك أكثر منه، ولا أستقل قليلك لأنه أكثر من كثير غيرك[1].

وقال له عبيد الله بن يحيى بن خاقان يوماً: اعذرني فإني مشغول[2]، فقال: إذا فرغت لم أحتج إليك. وقال له يوماً: قد تبينتُ / فيك الغضب يا أبا عبد الله، فقال له: قد أجلَّ [١٠٠ ظ]
الله قدرك من غضبي، إنما يغضَب الرجل على مَنْ دونه؛ فأما مَن فوقه فلا، ولكنْ أحزنني تقصيرُك؛ فسمّيتَ حزني غضباً.

ويقال إن صاعد بن مخلد كان من أحسنِ مَن أسلم ديناً، وأكثرهم صلاةً وصدقة، فصار إلى بابه أبو العيناء مراتٍ كثيرة بعقِبِ إسلامه فحُجِب وقيل له: هو مشغول في صلاته، فقال أبو العيناء: لكل جديد لذة.

ودخل يوماً إلى أبي الصقر إسماعيل بن بُلبل في وزارته، فقال له: يا أبا عبد الله، [3]ما أخّرك عنا[3]؟ فقال: سُرِقَ حِماري، فقال: وكيف سُرِق؟ قال: لم أكُن مع الذي سرقه فأخبِر بما كان، قال له: هلاَّ اكتريتَ أو استعرت أو اشتريتَ؟ قال: قعد بي عن الشراء نَشَبي[4]، وكرهتُ منّة العواري، وذلّة المُكاري، فوهَب له حمارا ووصله. وأدناه أبو الصَّقْر يوماً ورَفعه فقال: تُدنيني حتّى كأني بعضُك، وتُبعِدني حتى كأني ضدّك.

وقال يوماً لعبيد الله بن سليمان أيضا ـ وقد رفعه: إلى كَم ترفعني ولا ترفع بي رأساً! وقال له يوماً ـ وقد سأله عن حاله: أنا مَعَك[5] مغبوط الظاهر، محروم الباطن.

---

(١) حواشي الأصل، ت، ف: «نظم البحتري هذا المعنى فقال:

كَثيرُ نَوالِكَ في جَنْبِ ما ... جُبِلتَ عليهِ من الجودِ نَزْرُ

وَنَزْرُ نَوالِكَ في جَنْبِ ما ... يَجُودُ بِهِ سائِرُ النَّاسِ غَمْرُ

(٢) ت: «فإني عنك مشغول». (٣-٣) حاشية ت (من نسخة): «يا أبا عيناء ما أخرك بالله؟». (٤) حاشية ت (من نسخة): «عدمي». (٥) ت: «أنا بك».

ويقال : إن أبا عليّ البصير قال لأبي العيناء ـ وكانت بينهما ملاحاةٌ معروفة : في أيِّ وقتٍ ولِدْتَ ؟ فقال له : قبل طلوع الشمس ، فقال أبو عليّ : لذلك خرجت شحاذاً سائلاً ، لأنه الوقت الذي يَنْتشر فيه السؤّال .

وأخبرنا أبو عُبَيْد الله المرزبانيّ قال أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال حدثني أبو العيناء قال : ما رأيت قطُّ أحسنَ شاهداً عند حاجة من ابن عائشة ! قلت له : يوماً كان أبو عمرو المخزوميّ يقصدك ثم جفاك ، فقال :

فإنْ تَنْأَ عنَّا لاَ تَضِرْنا وإنْ تَعُدْ ... تَجِدْنا على العَهْدِ الذي كنتَ تَعلمُ

وقال : والله لا أدري لمن هذا البيت ، فقلت : إنَّ ابن سلاَّم روَى عن يونس أن الفرزدق لما قال :

تَصَرَّمَ مِني وُدُّ بَكْرِ بنِ وائلٍ ... وما خِلتُ دَهْري وِدَّهُم يَتَصَرَّمُ(١)

قَوَارِصُ تأتيني فيَحتقِرونها ... وقد يَملأُ القطرُ الإناء فيُفْعَمُ(٢)

وكان قد نزل عليهم حين هرب من زياد ، فقال جرير بن خرقاء العجليّ(٣) يجيبه :

/ لقد بوّأتْكَ الدّارَ بكرُ بنُ وائلٍ ... وردّتْ لكَ الأحشاء إذْ أنتَ مُجْرِمُ(٤) [١٠١ و]

---

(١) ديوانه : ٧٥٦ ، وطبقات الشعراء ٣٠٢ ، والكامل ـ بشرح المرصفي ، ١ : ١٢٧ ، والمؤتلف والمختلف : ٧١ وتصرم الشيء : تقطع . (٢) قوارص : جمع قارصة ؛ وهي الكلمة المؤذية . فعم الإناء يفعمه فعما : ملأه وبالغ في ملئه . (٣) ذكره ابن سلام في ص ٢٥٩ بنسبة «البكري» ، وفي ص ٣٠٣ بكنية «أبي المطاف» . (٤) في الطبقات : «لقد وسطتك» ، وقبله :

لَعَمْرِي لَئِنْ كانَ الفرزدقُ عاتباً ... وَأَحْدَثَ صَرْماً ، لَلفَرَزْدَقُ أَظْلَمُ

وفي حاشية الأصل : «يعني كنت خائفا غاية الخوف فأمنوك» ، ورواية الطبقات :

لقد وَسَّطَتْكَ الدّارَ بكرُ بن وائلٍ ... وضمتك للأحشاء إذ أنت مجرمُ

لَيالِيَ تمنَّى أنْ تَكونَ حَمامةً بمكّةَ يَغْشاها السِّتارُ المحرَّمُ[١]
فإنْ تَنْأَ عنّا لاَ تَضِرْنا وإنْ تَمُدْ تَجِدنا على العَهْدِ الذى كنتَ تَعلَمُ

فقال ابن عائشة: أنت والله يا بنىّ ممن ستصدق فى العلم مخايلُه، وتكثر عليه دلائله.

وقال أبو العيناء يوماً لأبى الصقر بن بُلبل وهو وزير: أنت والله تقرُب منا إذا احتجنا إليك، وتَبْعُد منا إذا احتجت إلينا.

قال سيدنا الشريف أدام الله علوّه: وهذا يشبه قول إبراهيم بن العباس الصولىّ:

ولكنّ الجَوادَ أبا هِشامٍ وَفِىُّ العهدِ مأمونُ المَغيبِ[٢]
بطىءٌ عنكَ ما استغنيتَ عنهُ وطَلّاعٌ عليكَ مع الخُطوبِ

ولعله مأخوذ منه، فليس يُنكَر ذلك، لأنهما وإن اجتمعا فى زمان واحد فى بعض الأوقات؛ فإن أبا العيناء بَقِىَ بعد إبراهيم زماناً طويلا؛ لأن إبراهيم توفِّى فى سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وأبا العيناء سنة اثنتين أو ثلاث وثمانين ومائتين، وما حكيناه عنه من الكلام قاله لأبى الصقر فى وزارته، وكانت بعد وفاة إبراهيم بن العباس الصولىّ بزمان طويل.

ويوشك بيتا إبراهيم أن يكونا مأخوذين من قول أوس بن حَجَر:

وليسَ أخوكَ الدّائمُ العهدِ بالذى يَذُمُّكَ إنْ وَلَّى ويُرْضِيكَ مُقْبِلَا[٣]
ولكنّهُ النّائى إذَا كُنتَ آمِناً وصاحبُكَ الأَدْنَى إذَا الخطبُ أعْضَلَا

ولإبراهيم بن العباس ما يقارب هذا المعنى أيضاً، وهو:

أسَدٌ ضارٍ إذَا هَيَّجتَهُ وأبٌ بَرٌّ إذَا ما قَدَرا[٤]
يَعلَمُ الأَبعَدُ إنْ أثْرَى ولا يَعلَمُ الأَدْنَى إذَا ما اْفتَرا[٥]

---

(١) الستار المحرم: هو ستار الكعبة. (٢) ديوانه: ١٢٩ (ضمن مجموعة الطرائف).
(٣) ديوانه: ٢٢. (٤) ديوانه: ١٣٣؛ (ضمن مجموعة الطرائف).
(٥) ت: «افتقرا»؛ وهى رواية الديوان.

ويشبه أن يكون هذا مأخوذاً من قول المرّار الفقعسي :

[١٠١ ظ] / إِذَا افتقَرَ المَرَّارُ لم يُرَ فَقْرُهُ ... وإِنْ أيسَرَ المَرَّارُ أيسَرَ صاحبُه(١)

ومما يشبه قولَ المرّار بعينه قولُ إبراهيم بن العباس أيضاً :

فتًى غيرُ محجوبٍ عن الغِنَى عِرضُه ... ولا مُظهِرِ البَلْوَى إذَا النَّعلُ زَلَّتِ(٢)

رَأَى خَلَّةً مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مكانُها ... فكانَتْ قَذَى عَيْنَيهِ حتّى تَجَلَّتِ

أو من قول المتنخِّل الهذليّ :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقرَهُ ... على نفسهِ ومُشِيعٌ غِناهُ(٣)

وهذا البيت الذي رويناه للهذليّ من جملة أبيات يرثي بها المتنخِّل أباه ــ وقيل يرثي أخاه، وأولها:

لَعَمْرُكَ ما إنْ أبو مالكٍ ... بوَانٍ ولا بضَعيفٍ قُوَاهُ(٤)

ولا بِأَلَدَّ لهُ نازِعٌ ... يُغَارِي أخاهُ إذَا ما نَهاهُ(٥)

ــ فمعنى « له نازع » أي خُلُق سوء ينزعه . ويغاري ، أي يلاحي ويشارّ ــ .

ولكِنَّهُ هيِّنٌ لَيِّنٌ ... كعاليةِ الرُّمْحِ عَرْدٌ نَساهُ

ــ العَرْد : الشديد ؛ يقال : وترٌ عُرُدٌّ وعُرُنْدٌ ، وعَرَنْدَد بالنون ، أي شديد . والنَّسا : عرق معروف ــ.

إذَا سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْواعَةً ... ومَهْمَا وَكَلْتَ إليهِ كَفَاهُ

معنى « سدته » من المساودة ، التي هي المسارّة ، والسِّواد هو السِّرار أيضاً ، كأنه قال:

---

(١) معجم الشعراء : ٤٠٨ . (٢) ديوانه : ١٣٠ ؛ وانظر تخريج البيتين في الحواشي .

(٣) ديوان الهذليين ٢ : ٢٩ــ٣٩ . (٤) شرح ديوان الهذليين : « ويروى : بواه ولا بضعيف » ، وهو الأجود عند أبي العباس . (٥) ألد : شديد الخصومة ، وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « غاريت بين الشيئين ؛ إذا واليت بينهما ، قال كثير :

إذا قلتُ أسلو فاضتِ العينُ بالبكا ... غِراءً ومدَّتْها مدامِعُ حُفَّلُ

قال أبو عبيد : هو من غرى بالشيء يغرى به » .

إذا ساررتَه طاوعك وساعدك . وقال قوم : إنَّه من السيادة ، وكأنه أراد : إذا كنتَ فوقه سيداً له أطاعك ولم يحسدك ، وإن وَكَلْتَ إليه شيئاً كفاك ، وقوم يُنشدونه :

* إذا سُسْتَهُ سُسْتَ مِطْوَاعَةً *

ـ ولم أجد ذلك فى رواية ـ

ألا مَنْ يُنادِى أبا مالِكٍ … أفى أمرِنا هُو أمْ فى سِوَاهُ ؟

أبو مالِكٍ قاصِرٌ فَقْرَهُ … على نفسِهِ ومُشِيعٌ غِناهُ

مجلس آخر ٢٢

تأويل آية

[١٠٢ و] / إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا؛ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

فقال : ما تأويل هذه الآية على ما يُطابق العَدْل ؟ فإنّ ظاهرَها كأنه مخالف له .

الجواب ، قيل له: في هذه الآية وجوه ؛ منها ما ابتدأناه فيها ، ومنها ما سُبقنا به فحرَّرناه، واحترزنا فيه من المطاعن ، وأجبنا عمّا لعله يعترِض[١] فيه من الشُّبَه .

أولها أنْ يكون تعالى عَنَى بذلك صَرْفَهم عن ثواب النظر في الآيات ، وعن العزّ والكرامة اللذينْ يستحقُّهما مَنْ أدّى الواجب عليه في آيات الله تعالى وأدلّته ، وتمسّك بها . والآياتُ على هذا التأويل يحتمِل أن تكونَ سائرَ الأدلة ، ويحتمِل أن تكون معجزاتِ الأنبياء عليهم السلام خاصة ؛ وهذا التأويل يُطابقه الظاهر ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ؛ فبيَّن أنّ صرفَهم عن الآيات مُستحَقٌّ[٢] بتكذيبهم، ولا يليقُ ذلك إلّا بما ذكرناه .

وثانيها أن يصرِفَهم[٣] تعالى عن زيادة المعجزات التي يُظهرها[٤] الأنبياء عليهم السلام

---

(١) حاشية ت (من نسخة) « يعرض » . (٢) ف : « يستحق » .

(٣) ت : « أنه أراد صرفهم » . (٤) ت ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة): « يظهرها على الأنبياء » .

بعد قيام الحجة بما تقدّم من آياتهم ومعجزاتهم ؛ لأنّه تعالى إنما يُظهِرُ هذا الضرب من المعجزات إذا عَلِم أنّه يؤمن عنده مَنْ لم يؤمِنْ بما تقدم من الآيات ، فإذا عَلِمَ خلافَ ذلك لم يُظهِرها ، وصرَفَ الذين عَلِمَ من حالهم أنهم لا يؤمنون عنها ، ويكون الصّرف على أحد وجهين : إمّا بألّا يظهرَها جملة ، أو بأن يصرفَهم عن مشاهدتها ، ويظهرَها بحيث يَنتفع بها غيرهم .

فإذا قيل: وما الفرقُ فيما ذكرتموه بين ابتداء المعجزات ، وبين زيادتها ؟ قلنا: الفرقُ بينهما أن المعجزَ الأوّلَ يجب إظهارُه لإزاحةِ العلّة في التكليف ؛ ولأنّا به نعلم صدقَ الرسول المؤدّي إلينا ما فيه لُطفُنا ومصلحتُنا .

فإذا كان التكليف يُوجِبُ تعريف[1] الصالح والألطاف لتنزاحَ العِلّة ، وكان لا سبيلَ إلى معرفتها على الوجه الذي تكونُ عليه لطفاً إلّا من قِبَلِ الرسول ، وكان لا سبيلَ إلى العلم بكونه رسولًا إلّا مِنْ جهة / المعجز وجبتْ بعثةُ الرسول وتحميلُه ما فيه مصلحتُنا [١٠٢ ظ] من الشرائع ، وإظهارُ المعجز على يده لتعلُّق هذه الأمور بعضها ببعض ، ولا فرقَ في هذا الموضع بين أن يُعلَم أنّ المبعوثَ إليهم الرسول، أو بعضَهم يطيعون ويؤمنون ، وبين ألّا يعلَم ذلك في وجوب البعثة ، وما يجب بوجوبها ، لأنّ تعريفَ المصالح مما يقتضيه التكليفُ العقليّ الذي لا فرقَ في حُسنه بين أنْ يقع عنده الإيمان أو لا يقع ؛ وليس هذه سبيلَ ما يَظهر من المعجزات بعد قيام الحجة بما تقدم منها ؛ لأنّه متى لم يَنتفع بها منتفع ، ويؤمنْ عندها من لم يؤمنْ لم يكن في إظهارها فائدة ، وكانت عبثاً ؛ فافترق الأمران.

فإن قيل : كيف يطابق هذا التأويل قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ، ومن المعلوم أنّ صرفَهم عن الآيات لا يكون مستحقًا بذلك؟ قلنا : يمكن أن يكونَ قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ لم يُرد به تعليل قوله: ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾ ، بل يكون كالتعليل لما هو أقربُ إليه في ترتيب الكلام، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ

---

(١) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « تعريفنا » .

آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ، لأنَّ مَنْ كذب بآياتِ الله جل وعز ؛ وغفل عن تأمُّلها والاهتداء بنورها ركِبَ الغيَّ ، واتخذه سبيلًا ، وحاد عن الرشد وضل ضلالًا بعيدا . ورجوع لفظة ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما ذكرناه أشبهُ بالظاهر من رجوعها إلى قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾ ؛ لأنَّ رجوعَ اللفظ[١] في اللغة إلى أقرب المذكورين إليه أولى .

ويمكن أن يكون قوله تعالى : ﴿ كَذَّبُوا ﴾ وإن كان بلفظ الماضى المرادُ به الاستقبال ، ويكون وجهُه أن التكذيب لما كان معلوما منهم لو أُظهِرَتْ لهم الآيات جُعِل ذلك كأنه[٢] واقع ، فبُنِيَ الخطاب عليه ؛ ولهذا نظائر في اللغة كثيرة . أو يكون جوابا لمحذوف ؛ كأنه[٢] قال : ذلك بأنه متى ما أظهرنا لهم آياتنا كذبوا بها . ويجرى ماذكرناه[٣] أولاً مجرى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ في أنه بلفظ الماضى والمعنى الاستقبال .

وثالثها أن يكون معنى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ ، أى لا أوتيها[٤] مَنْ هذه صفته ، وإذا [٥]صرفهم عنها فقد صرفها عنهم[٥] ، وكلا اللفظين[٦] يفيد معنًى واحدا . وليس لأحد أن يقول هلاَّ قال : « سأصرف آياتى عن الذين يتكبرون » ؛ والآيات هاهنا هى المعجزات التى تختص بها الأنبياء .

/ فإن قيل : فأىّ فائدة في قوله على سبيل التعليل[٧] : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾

[١٠٣] وأىُّ معنًى لتخصيصه الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وهو لا يُؤْتى الآيات والمعجزات إلاَّ الأنبياء دون غيرهم ، وإن كان ممن لا يتكبر ؟ قلنا : لخروج الكلام مَخْرَجَ التعليل على هذا التأويل وجهٌ صحيح ؛ لأن من كذّب بآيات الله لايؤتى معجزاته[٨] لتكذيبه وكفره ،

(١) ت ، وحاشية ف (من نسخة) : « اللفظة » . (٢–٢) ساقط من م .

(٣) ت : « ويجرى ذلك » . (٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « لا أريها » .

(٥–٥) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « وإذا صرفتهم عنها فقد صرفتها عنهم » .

(٦) من نسخة بحواشى الأصل ، ت . ف : « كلنا اللفظتين » .

(٧) حاشية الأصل (من نسخة) : « التخصيص » . (٨) ت ، ف « لا يؤتى آياته ومعجزاته » .

وإن كان قد يكون غير مكذِّب، ويمنع من إتيانه الآيات علّةً أخرى[١]؛ فالتكبر والبَغْيُ بغير الحق مانع من إيتاء الآيات، وإن مَنع غيره. ويجرى هذا مَجْرى قول القائل: أنا لا أودُّ فلاناً لغدره، ولا يلزم إذا لم يكن غادراً أن يودّه، لأنه ربما خلا من الغَدْر وحَصل على صفة أخرى تمنع من مودته.

ويجوز أيضا أن تكون الآية خرجتْ على ما يَجْرى مَجرى السبب، وأن يكون بعضُ الجهال فى ذلك العصر اعتقد جوازَ ظهور المعجزات على يد الكفار المتكبرين[٢]، فأكذَبهم الله تعالى بذلك.

ورابعها أن يكون المراد بالآيات العلامات التى يجعلها الله تعالى فى قلوب المؤمنين؛ ليدلَّ بها الملائكة على الفرق بين المؤمن والكافر، فيفعلوا بكل واحد منهما مايستحقه من التعظيم أوالاستخفاف، كما تأول أهل الحق الطبعَ والخَتمَ اللذين ورد بهما القرآن على أن المراد بهما العلامة المميِّزة بين الكافر والمؤمن؛ فيكون معنى سأصرفهم عنها، أى أعدِل بها عنهم[٣]، وأخصُّ بها المؤمنين المصدقين بآياتى وأنبيائى[٤]. وهذا التأويل يشهد له أيضا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ لأنّ صرفهم عن هذه الآيات كالمستحقّ لتكذيبهم وإعراضهم عن آياته تعالى.

وخامسها أن يريدَ تعالى: أنى أصْرِف مَن رام المنعَ من أداء آياتى وتبليغها؛ لأنّ من الواجب على الله تعالى أن يحولَ من بين رام ذلك وبينه؛ ولا يمكِّن منه؛ لأنه ينقضُ الغرض فى البعثة. ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ فتكون الآيات هاهنا القرآن وما جرى مجراه من كتب الله تعالى التى تَحمَّلَتْها[٥] الرسل.

والصرف وإن كان متعلقا فى الآية بنفس الآيات فقد يجوز أن يكون المعنى متعلقًا[٦] فى الآية / بنفس الآيات، فقد يجوز أن يكون المعنى متعلقا بغيرها[٦] مما هو متعلق بها. فإذا ساغ [١٠٢ ظ]

---

(١) فى حاشيتى ت، ف: «يعنى وإن كان غير التكذيب أيضا مانعا».

(٢) ت: «المذكورين»، ومن نسخة بحاشية ت: «المكذبين».

(٣) ف، ونسخة بحاشية ت: «أى أعدل بهم عنها». (٤) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «وبيناتى». (٥) ت، وحاشية ف (من نسخة): «تحملها». (٦–٦) ساقط من م.

أن نعلقه بالثواب والكرامة المستحقين على التمسك بالآيات ساغ أن نعلّقه بما يمنع من تبليغها وأدائها وإقامة الحجة بها . وعلى هذا التأويل لا نجعل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ راجعاً إلى ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾ بل نردّه إلى ما هو قبله بلا فصل؛ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ على ما بينّاه فى الوجه الثانى، من تأويل هذه الآية .

وسادسها أن يكون الصرف هاهنا الحُكْمَ والتسمية والشهادة ، ومعلوم أن مَن شهد على غيره بالانصراف عن شىء جازٌ[١] أنْ يقال : صرفه عنه ، كما يقال : [٢] أكفره وكذّبه وفسّقه[٢] ؛ وكما قال جلّ من قائل : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ؛ أى شهد عليها بالانصراف عن الحق والهدى ، وكقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ؛ وهذا التأويل طابقه قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ؛ لأنّ الحكم عليهم[٣] بما ذكرنا من التسمية موجب تكذيبهم وغفلتهم[٣] عن آيات الله وإعراضهم عنها .

وسابعها أنه تعالى لمّا علم أن الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق سينصرفون عن النظر فى آياته ، والإيمان بها إذا أظهرها على أيدى رسله عليهم السلام جاز أن يقول : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ فيريد سأظهر ما ينصرفون بسوء اختيارهم عنه . ويجرى ذلك مجرَى قولهم : سأبخّل فلاناً وأخطّئه ، أى أسأله ما يَبخَل ببذله وأمتحنه بما يُخطئ فيه ، ولا يكون المعنى: سأفعل[٤] فيه البخل والخطأ . والآيات على هذا الوجه جائز أن تكون المعجزات دون سائر الأدلة الدالة على الله تعالى ، وجائز أن تكون جميع الأدلة ؛ ويجب على هذا الوجه أن يكون قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ غير راجع إلى قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾؛ بل إلى ما قدمنا ذكره لتصح الفائدة .

(١) ف : «جاز» . (٢–٢) ت : «كفره وكذبه وفسقه» ؛ بالتشديد .

(٣–٣) ت ، ف : «والتسمية من موجب تكذيبهم وغفلتهم» .

(٤) ت ، وحاشية ف (من نسخة) : «أنى أفعل فيه» .

وثامنها أن يكون الصَّرْف هاهنا معناه المنع من إبطال الآيات والحجج، والقَدْحُ فيها بما يُخرجها عن أن تكون أدلّة وحُججاً ، فيكون تقدير الكلام : إنى بما أؤيِّده من حُجَجى، وأحْكمه من آياتى وبيناتى ؛ صارفٌ للمبطلين والمكذبين عن القَدْح فى الآيات والدّلالات ، ومانعٌ لهم ممّا كانوا لولا / هذا الإحكام والتأييد يفترضونه ويغتنمونه من تمويههم الحق ولبسه [١٠٤ و] بالباطل. ويجرى هذا مجرى قول أحدنا[١] : قدمنع فلانٌ أعداءه بأفعاله الكريمة،[٢] وطرائقه المهذَّبة ، وصرَفهم عن ذمّه[٢] ، وأخرسَ ألسنتهم عن الطعن عليه ؛ وإنما يريد المعنى الذى ذكرناه.

فإن قيل : أليس فى المبطلين مَن طعن على آيات الله تعالى وأورد الشبهة فيها مع ذلك ؟ قلنا : لم يرد الله تعالى الصرف عن الطعن الذى لا يؤثر ولا يشتبه على من أحسنَ النظر ، وإنما أراد ما قدمناه ، وقد يكون الشيء فى نفسه مطعوناً عليه ، وإن لم يطعُن عليه طاعنٌ ؛ كما قد يكون بريئا من الطعن، وإن طعن فيه بما لم يؤثر؛ ألا ترى أن قولهم : فلانٌ قد أخرسَ أعداءه عن ذمّه ليس يراد به أنه منعهم عن التلفظ بالذم ، وإنما المعنى فيه أنه لم يجعل للذم عليه طريقا ومجالا ؛ ويجب على هذا الوجه[٣] أن يكون قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴾ يرجع إلى ما قبله بلا فصل ، ولا يرجع إلى قوله : ﴿ سَأَصْرِفُ ﴾[٤] .

وتاسعها أن الله تعالى لما وعد موسى عليه السلام وأمّته إهلاكَ عدوهم قال : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، وأراد جل وعزّ أنه يُهلكهم ويصطَلِمهم ويجتاحُهم على طريق العقوبة لهم؛ بما كان منهم من التكذيب بآيات الله تعالى ، والردِّ لحُججه ، والمُروقِ عن طاعته ، وبشّر مَن وعَده بهذه الحال من المؤمنين بالوفاء

---

(١) ت : « القائل » .   (٢—٢) ت ، ش: « وطرائقه الممدوحة ، وأخلاقه المهذبة من عيبه، وصرفهم عن ذمه » .   (٣) حاشية ت (من نسخة) : « التأويل » .

(٤) حواشى الأصل ، ت ، ف: « قريب منه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ؛ ويعترض الآية بأن الحسين عليه السلام جند الله ومع ذلك فقد غلبوا ؟ والجواب : انهم وإن غلبوا فى صورة فإنهم الغالبون حقيقة » .

بهـا ، وهو تعالى إذا أهلك هؤلاء الجبّارين المتكبرين ، واصطلمهم فقد صرفهم عن آياته ، من حيث اقتطعهم عن مشاهدتها ، والنظر فيها بانقطاع التكليف عنهم ، وخروجهم عن صفات أهله.

وهذا الوجه يمكن أن يقال فيه : إن العقوبة لاتكون إلاّ مضادّة الاستخفاف والإهانة، كما أن الثواب لابدّ أن يكون مقترنا بالتعظيم والتبجيل والإجلال(١)؛ وإماتةُ الله تعالى الأمم وما يفعله من بوارٍ وإهلاك لا يَقْتَرِن إليـــه مالا بدّ أن يكون مقترناً إلى العقاب من الاستخفاف، ولا يخالف مايفعله تعالى بأوليائه على سبيل الامتحان والاختبار؛ فكيف يصح ماذكرتموه !.

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن يقال : لا يمتنعُ أن يَضمَّ الله تعالى إلى ما يفعله بهؤلاء الكفار المكذّبين(٢ من الإهلاك والبوار اللعنَ والذم والاستخفاف٢)، ويأمرنا(٣ أن نفعل ذلك بهم ، فيكون / ما يقع بهم من الإيلام على وجه العقوبة وبشروطها، ولا يمتنع أن يكون [١٠٤ ظ]
الله تعالى يَتعبدُ ويأمر بإهلاكهم٣)، وقتلهم على وجه الاستخفاف والنكال ، ويضيفُ الله تعالى ذلك إليه من حيث وقع بأمره وعن أذنه.

فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ كأنَّ في التكبُّر ما يكون بالحق !

قلنا في هذا وجهان : أحدها أن يكون ذلك على سبيل التأكيد والتغليظ والبيان عن أنّ التكبر لا يكون إلا بغير الحق ، وأن هذه صفة له لازمة غير مفارقة؛ ويجري ذلك مجرى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ ؛ [المؤمنون : ١١٧] ، وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾؛ [النساء : ١٥٥] ، ولم يرد تعالى إلا المعنى الذي ذكرناه . ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ ؛ [البقرة : ٤١] ، ولم يُرِد النهيَ عن الثمن القليل دون الكثير ، بل

(١) ساقطة من ت . (٢) ت ، حاشيتي الأصل ، ف : « المكذبين المستحقين للبوار اللعن والذم » . (٣-٣) ساقط من م .

أراد تأكيد القول بأن كلَّ ثمن يؤخذ عنها يكون قليلا بالإضافة إليها ، ويكون المتعوَّض به عنها مغبونًا مبخوسًا خاسرَ الصفقة .

والوجه الآخر أنّ فى التكبر مايكون ممدوحًا لأنَّ مَنْ تكبر وتنزَّه عن الفواحش والدنايا وتباعد من فعلها ، وتجنب أهلَها يكون مستحقًا للمدح ، سالكا لطريق الحقِّ ؛ وإنما التكبُّرُ المذموم هو الواقع على وَجه النَّخْوة والبَغْى والاستطالة على ذَوِى الضَّعْف والفخر عليهم ، والمباهاة لهم ، ومَن كان بهذه الصفة فهو مجانِب للتواضع الذى ندَب الله تعالى إليه ، وأرشد إلى الثواب المستحَقّ عليه ، ويستحق بذلك الذمّ والمقتَ ، فلهذا شرَط تعالى أن يكون التكبر بغير الحق . وقولُه تعالى فى هذه السورة : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ؛ [الأعراف : ٣٣] ، يحتمل أيضًا هذين الوجهين اللذين ذكرناهما .

فإن أريد به البغى المكروه الذى هو الظلم وما أشبهه ، كان قوله : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ تأكيدًا وإخبارا عن أن هذه صفته ، وإن أريد بالبغى الطلب ــ وذلك هو أصله فى اللغة ــ كان الشرط فى موضعه ؛ لأنَّ الطلب قد يكون بالحَقِّ وبغير الحقِّ .

فإن قيل فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ / وهل الرؤية هاهنا العلم والإدراك بالبصر ؟ وَهَبْ [١٠٥ و]
أنها يمكن أن تكون فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ محمولة على رؤية البصر ، لأن الآيات والأدلةَ مما يشاهَد كيف تحمل الرؤية الثانية على العلم ، وسبيل الرشد إنما هى طريقه ، ولا يصحُّ أن يرجع بها إلى المذاهب والاعتقادات التى لا تجوز عليها رؤية البصر ، فلا بد إذاً من أن يكون المراد به رؤية العلم ؛ ومَن علم طريق الرُّشد لا يجوز أن ينصرف عنه إلى طريق الغىِّ ؛ لأن العقلاء لا يختارون مثل ذلك .

قلنا : الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون المراد بالرؤية الثانية رؤيةَ البصر ، ويكون السبيلُ المذكورةُ فى الآية هى الأدلةُ ؛ لأنها مما يدرَك بالبصر ، وتُسمَّى بأنها سبيل إلى

الرشد ، من حيثُ كانت وُصْلَةً إلى الرُّشد ، وذريعةً إلى حصوله ، ويكون سبيل الغيِّ هى الشبهات والمخاريق التى ينصبها المبطلون والمدغلون فى الدين ؛ ليوقعوا بها الشبهة على أهل الإيمان ، وتسمَّى سبيلَ الغيِّ ، وإن كان النظرُ فيها لا يوجب حصولَ الغيِّ من حيث كان المعلوم ممَّن تشاغل بها ، واغترَّ بأهلها أنه يصير إلى الغيِّ .

والوجه الثانى أن يكون المراد بالرؤية العلم ؛ إلا أن العلم لم يتناولْ كونَها سبيلا للرّشد ، وكونَها سبيلاً للغيِّ ؛ بل يتناولها لامن هذا الوجه ؛ ألا ترى أن كثيرا من المبطلين يعلمون مذاهبَ أهل الحق واعتقاداتهم وحججهم ؛ إلا أنهم يجهلون كونها صحيحة مُفضية إلى الحق ، فيجتنبونها ؛ وكذلك يعلمون مذاهب المبطلين واعتقاداتهم الباطلة الفاسدة ، إلا أنهم يجهلون كونها باطلة ، ويعتقدون صحتَها بالشبهة فيصيرون إليها ؟ وعلى هذا الوجه لايجب أن يكون تعالى وصفَهم بالعناد وتركَ الحق مع العلم به .

والوجه الثالث أن يكونوا عالمين بسبيل الرشد والغيِّ ، ومميّزين بينهما ؛ إلا أنهم للميل إلى أعراض الدنيا ، والذَّهاب مع الهوى والشهوات يعدلون عن الرشد إلى الغيِّ ، ويجحَدون ما يعلمون ، كما أخبر بها عن كثير من أهل الكتاب بأنهم يجحدون الحقَّ وهم يعلمونه ويستيقنونه .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ، [١٠٠ ظ] / والتكذيبُ لا يكون فى الحقيقة إلا فى الأخبار دون غيرها ؟

قلنا : التكذيب قد يُطلَق فى الأخبار وغيرها ؛ ألا ترى أنهم يقولون : فلان يكذِّب بكذا إذا كان يعتقد بُطْلانَه ، كما يقولون : يصدِّق بكذا إذا كان يعتقد صحتَه ؟ ولو صرفنا التكذيب هاهنا إلى أخبار الله تعالى التى تضمنتْها كتبه الواردة على أيدى رسله عليهم السلام جازَ ؛ وتكونُ الآياتُ هاهنا هى الكتب المنزلة دون سائر المعجزات .

فإن قيل : فما معنى ذمّه تعالى لهم بأنهم كانوا عن الآيات غافلين ، والغفلةُ على مذاهبكم

من فعله ، لأنها السهو أو ما جرى مجراه مما ينافي العلوم الضرورية، ولاتـكليفَ على الساهي فـكيف يُذَمُّ بذلك ؟ .

قلنا: المرادهاهنا بالغفلة التشبيه لاالحقيقة، ووجهُ التشبيه أنهم لماأعرضوا عن تأمُّل آيات الله تعالى ، والانتفاع بها أشبهتْ حالهم حال مَن كان ساهيا غافلاً عنها ، فأطلق عليهم هـذا القول كما قال تعالى : ﴿ صُمٌّ بُـكْمٌ عُمْىٌ ﴾ ؛ [البقرة : ١٨] ، على هذا المعنى ، وكما يقول أحدُنا لمن يستبطئه ويصفه بالإعراض عن التأمل والتبيُّن: أنت ميِّت وراقد، ولا تسمع، ولا تبصرُ ، وما أشبه ذلك ، وكل هذا واضح بحمد الله .

تأويل خبر

إن سأل سائل عن الخبر المرويّ عن عبد الله بن عمر أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ قلوبَ بني آدم كلّها بين إصبَعَين من أصابع الرّحمن، يصرّفها كيف شاء»[١] ثم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذلك: «اللّهم مصرِّفَ القلوب، صرِّف[٢] قلوبَنا إلى طاعتك» . وعما يَرْويه أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما من قلبٍ آدميّ إلاّ وهو بين إصبعَين من أصابع الله تعالى ، فإذا شاء أن يُثبِّته ثبّته ، وإن شاء أن يقلّبه قلّبه » . وعمّا يرويه ابنُ حَوْشَبٍ قال : قيل[٣] لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله: ما كان أكثرُ دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله ؟ قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك » ، قالت: قلت: يارسول الله ، ما أكثرَ دعاءك[٤] : « يا مقلِّب القلوب، ثبِّتْ قلبي على دينك » ! فقال : « يا أمَّ سلَمة ، ليس من آدميّ إلا وقلبُه بين إصبَعَين من أصابع الله ، ما شاء أقام ، وما شاء أزاغ » .

[١٠٦ و] فقال: ماتأويلُ / هذه الأخبار على مايطابق التوحيدَ ونفي التشبيه؟ أوَ ليس من مذهبِكم أنّ الأخبار التي يخالف ظاهرُها الأصول ، ولا تطابق العقول لايجب ردُّها، والقطع على كذب رُوَاتِها[٥] إلاّ بعد ألاّ يكونَ لها في اللغة مخرجٌ ولا تأويل؟ وإن كان لها ذلك فباستكراهٍ أو تعسُّف ، واسم مِمّن يقول ذلك في مثل هذه الأخبار ، فما تأويلها ؟ .

الجواب ، إنّ الذى يعوِّل عليه مَنْ تكلّم في تأويل هذه الأخبار هو أن يقول : إن الإصبع في كلام العرب وإن كانت الجارحة المخصوصة فهى أيضا الأثر الحسَن ؛ يقال : لفلان على ماله وإبله إصْبَعٌ حسنة ؛ أى قيامٌ وأثر حَسَن ؛ قال الراعي يصف راعياً حَسَن القيام على إبله :

(١) ف ، حاشية ت (من نسخة) : « يشاء » . (٢) ت ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) « اصرف » . (٣) ت ، ف : « قلت لأم سلمة » . (٤) ت،د، ف : « أكثر دعائك » .
(٥) ج ، ش : « كذب راويها » ، ت ، ف « كذبها » .

ضَعيفُ العَصا بادِي العُرُوقِ تَرَى لَهُ ... عليْها إذَا ما أَجْدَبَ النَّاسُ إصْبَعا(١)

وقال طُفَيل الغَنَوِيّ يَصِف نَخْلاً :

كُمَيْتٌ كَرُكْنِ البابِ أَحْيا بَنَاتِهِ ... مَقالِيتَها واستَحْمَشَتْهُنَّ إصبعٌ(٢)

وقال لبيد بن ربيعة :

مَنْ يَبْسُطِ اللهُ عليهِ إصْبَعا(٣) ... بالخيرِ والشَّرِّ بأيٍّ أُولِعا

يَمْلأْ لهُ مِنهُ ذَنوباً مُتْرَعا

وقال حُمَيدُ بنُ ثَوْر :

أَغَرُّ كلَوْنِ البَدْرِ في كلِّ مَنْكِبٍ ... مِنَ النَّاسِ نُعمى يَحْتَذِيها وإصْبَعُ

وقال آخر :

وأَرْزَنَاتٍ لَيْسَ فِيهنَّ أُبَنْ ... ذُو إِصبَعٍ في مَسِّها وذُو فِطَنْ

وقال آخر :

أَكْرِمْ نِزاراً واسْقِهِ المُشَعْشَعَا ... فإنَّ فِيهِ خَصَلاتٍ أَرْبَعا

حَدًّا وجُوداً ونَدًى وإصْبعا(٤)

والإصبع في كلِّ ما أوردناه المراد بها الأثرُ الحسن والنعمة ، فيكون المعنى : ما من آدميٍّ إلا وقلبه بين نعمتين لله جليلتين حَسنتين .

فإن قيل : هذا قد ذُكر كما حكيتم ؛ إلاَّ أنه لم يفصِّل : ما النعمتان ؟ وما وجه التثنية هاهنا ونِعَم الله تعالى على عباده كثيرة لا تحصى ؟

---

(١) البيت في اللآلى ٥٠٠ ، ٧٦٤ ، واللسان (عصا) ؛ وضعيف العصا كناية عن الرفق بما يرعاه ، والعرب تعيب الرعاء بضرب الإبل ؛ لأن ذلك عنف بها وقلة رفق . (٢) ديوانه : ٢٥ ، وفي حاشية ت (من نسخة) : « واستحمشتهن » ، وفي حواشي الأصل ، ت ، ف أيضا : « الحش : الجمع ، وقد حش [بفتحتين] ؛ فيمكن أن يكون « استحمش » في البيت من هذا ، واستحمش ، أى غضب ، غير متعد » . وفي حاشية الأصل أيضا : « استحمشتهن : أصلحتهن ؛ من قولهم : حمشت الدابة إذا صلحت ؛ عن النضر بن شميل » . (٣) ديوانه ٢ : ٨ . (٤) حاشية ف : « قوله : « حداً » ، قيل به أراد البأس ، وقيل : المنع » ، وفي حاشية الأصل (من نسخة) : « جداً » .

/ قلنا : يحتمل أن يكون الوجه فى ذلك نِعَم الدنيا و نعم الآخرة ، وثناهما لأنهما كالجنسين أو كالنوعين ، وإن كان كل قبيل منهما فى نفسه ذا عدد كثير ؛ لأن الله تعالى قد أنعم على عباده بأن عرَّفهم بأدلته وبراهينه ما أنعم به عليهم ، من نعم الدنيا والآخرة ، وعرَّفهم ما لهم فى الاعتراف بذلك والشكر عليه والثناء به من الثواب الجزيل ، والبقاء فى النعيم الطويل . [١٠٦ ظ]

ويمكن أن يكون الوجهُ فى تسميتهم للأثر الحسن بالإصبع هو مِنْ حيث يشار إليه بالإصبع إعجاباً به ، وتنبيها عليه ؛ وهذه عادتهم فى تسمية الشىء بما يقع عنده ، وبما له به عُلْقَة، وقدقال قوم فى بيتى طُفَيل والراعى: إنهما أرادا أن يقولا «يداً» فى مكان «إصبع» ؛ لأن اليد النعمة ، فلم يمكنهما ، فعدلا عن اليد إلى الإصبع ، لأنها من اليد .

وفى الإصبع الجارحة ثمان لغات : أَصْبَع بفتح الألف والباء ، وأَصِبع ، بفتح الألف وكسر الباء ، وأُصْبُع بضم الألف والباء ، وأُصْبَع بضم الألف وفتح الباء ، وأُصبوع ، بضم الألف مع الواو ، وإِصبِع ، بكسر الألف والباء ، وإِصبَع ، بكسر الألف وفتح الباء، وإِصْبُع بكسر الألف وضم الباء .

وفى هذه الأخبار وجه آخر ؛ هو أوضح مما ذكر ، وأشبهُ بمذاهب العرب فى ملاحن كلامها، وتصرُّف كناياتها؛ وهوأن يكون المعنى فى ذكر الأصابع الإخبارَ عن تيسُّر تصريف القلوب وتقليبها، والفعلِ فيها عليه جلَّتْ عظمته ، ودخولِ ذلك تحت قدرته . ألا ترى أنهم يقولون : هذا الشىء فى خِنْصَرى وإصبَعى ، وفى يدى و قبضتى؛ كلّ ذلك إذا أرادوا تسهّلَه وتيسُّرَه وارتفاع المشقة فيه ، والمؤنة[1] .

وعلى هذا المعنى يتأوّلُ المحققون قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوٰتُ مَطْوِيّٰتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ، [الزمر : ٦٨] ؛ فكأنه صلى الله عليه وآله لما أراد المبالغة

---

(١) ت : «المئونة» .

فى وصفِه بالقدرة على تقليب القلوب وتصريفِها بغير مشقَّة ولا كُلفَة ـ وإنْ كان غيرُه تعالى يعجز عن ذلك ، ولا يَتمَكَّنُ منه ـ قال : إنها بين أصابعه ؛ كنايةً عن هـــذا المعنى ، واختصاراً للفظ الطويل ، وجرياً على مذهب العرب فى إخبارهم عن مثل هذا المعنى بمثل هذا اللفظ ؛ وهذا الوجه يجبُ أن يكونَ مقدَّماً على الوجه الأول ومعتَمَداً ؛ لأنه واضح جلىٌّ .

ويمكن أن يكونَ فى الخبَر وجهٌ آخرُ على تسليم ما يقترحه المخالفون ، / مِنْ أنّ [١٠٧ و] الإصبَعين هما المخلوقتان من اللَّحْم والدم ؛ استظهاراً فى الحجَّة ، وإقامةً لها على كل وجه : وهو أنه لا ينكَر أنْ يكون القلبُ يشتمِل عليه جسمان على شكل الإصبَعين ، يحرِّكه اللهُ تعالى بهما ، ويقلّبه بالفعل فيهما ؛ ويكون وجهُ تسميتهما بالأصابع مِنْ حيث كانا[1] على شكلهما . والوجهُ فى إضافتهما إلى الله تعالى ـ وإنْ كانت جميعُ أفعاله تُضاف إليه بمعنى المِلْك والقدرة ـ أنه[2] لا يقدِر على الفعل فيهما وتحريكِهما منفردين عما[3] جاوَرَهما غيرُه تعالى ؛ فقيل إنهما إصبعان له ؛ من حيث اختَصَّ بالفعل فيهما على هذا الوجه ؛ لأنَّ غيرَه إنما يقدِر على تحريك القلب ، وما هو مجاورٌ للقلب من الأعضاء بتحريك جُمْلة الجسم ، ولا يقدِر على تحريكه وتصريفِه منفرداً ممَّا يجاوره غيرُه تعـالى ؛ فمن أين للمبطلين المتأوِّلين هذه الأخبار بأهوائِهم وضعفِ آرائهم أنَّ الأصابعَ هاهنا إذا كانت لحماً ودماً فهى جوارح لله تعالى ! وماهذا الوجه الذى ذكرناه ببعيد ؛ وعلى المتأوِّل أن يورِد كلَّ ما يحتمِله الكلام؛ ممَّا لا تدفعه حُجّة ، وإنْ ترتَّب بعضُه على بعض فى القوة والوضوح .

ونحن نعود إلى تفسير ما لعلّه أن يَشْتَبِه من الأبيات التى استشهدنا بها .

أما قوله :

* حَدًّا[4] وجُوداً ونَدًى وإصْبَعاً *

فمعنى الحدّ : المضاء والنَّفاذ .

---

(١) ت : «من حيث كانتا» . (٢) ت : «فإنه» . (٣) ف ، حاشية (من نسخة) : «مما» .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : «جدا» .

وقول الآخر :

* وأَزْرَنات ليس فيهنّ أَبَن *

فالأَزْرَنات العصىّ ، والأَبَنُ العُقَد .

فأما قول حميد بن ثور : « فى كل مَنْـكِبٍ من الناس » ، فالمَنْـكِب : الجماعة ، والمَنْـكِب : الناحية .

وأما معنى أبيات[١] لبيد ، فإنه أراد : مَنْ يَسُقِ اللهُ إليه خيراً ، أو يعرِفْ عنـه شرًّا فَمهما فعل ذلك به أَسْبَغَ له حتى ينتهى منتهاه .

فأما بيت طُفَيْلٍ الغَنَوِىّ ، فمعناه أنّ هـذا الفحلَ الذى وصفه بأنه كُمَيْتٌ ، وأنه كرُكْنِ الباب لتمامه وشدّته لَمَّا ضَرَبَ فى الإبل التى وصفها عاشَتْ أولادُها التى هى بناته بعد أن كُنّ مَقاليتَ ، والمقاليت : التى لايعيش لهنّ ولد ، فـكان هذا منه أثراً جميلًا عليها .

فأما بيت الراعى فمعنى قوله : « ضعيف العصا » يريد أنّه قليل الضَّرْب لها ؛ إما لأنّهن لا يُحْوِجْنَه سَداداً وتأدباً ، أو لشفقته عليهن ؛ وهـذه كناية فى نهاية الحسْن ، واختصارٌ شديدٌ ؛ لأنه قد يجوز أن يكون ضعيفَ العصا على الحقيقة من حيث لا يحتاجُ إلى استعمالها / [١٠٧ ظ] فى الضرب ، فيختارَها قويةً ، ويجوز أن يكون حذف ، وأراد ضعيفَ فِعْل العصا .

وقوله : « بادى العروق » يعنى عروقَ رِجْلِه لفسادها من السعى فى أثر هذه الإبل . وأراد « بالإصْبَع » أنّ له عليها فى جَذْب الناس أثراً جميلا لحسن قيامه وتعهده .

وقد قيل إنه إنما سُمِّى الراعى لبيت قاله فى هذه القصيدة بعد بيتين من البيت الذى أنشدناه ، وهو :

لها أمرُها حتّى إذَا ما تبوّأَتْ بأخفافها مأْوًى تبوّأَ مَضْجَعا[٢]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « بيت لبيد » .

(٢) اللآلىء : ٧٦٤ ؛ والرواية هناك : « لأخفافها » .

وهذا قول الأصمعىّ . وقال السُّكَّرِىّ : سُمِّى بذلك لقوله فى هذه القصيدة أيضا :

هِدَانٌ أخو وَطْبٍ وصاحِبُ عُلْبةٍ يَرَى المَجْدَ أنْ يَلْقَى خَلاءً ومَرْتَعا[1]

وروى عن بعض بنى نُمَيْر أنه قال : إنما سُمِّى بذلك لقوله :

بُنِيَتْ مَرَافِقُهُنَّ فوقَ مَزَلَّةٍ لا يستطيعُ بها القُرَادُ مَقِيلا[2]

فقال بعض بنى نُمَيْر لمّا سمع هذا البيت : والله ماهو إلّا راعى إبل ، فبقيت عليه .
وقال محمدبن سلّام : " إنما[3] سُمِّى الراعى لكثرة وصفه الإبل وحسن نعته لها " ؛ واسمه عُبَيْد
ابن حُصَيْن بن جَنْدل ، وكنيته أبو جَنْدل ، وقيل أبو نُوح .

---

(١) الهدان : الأحمق الثقيل . والعلبة : محلب من جلد . (٢) جمهرة الأشعار : ٣٥٣ ، واللسان (زلل) ، والمزلة : موضع الزلل والانزلاق . (٣) طبقات الشعراء : ٢٠٠ .

مجلس آخر [١٢]

تأويل آية

إن سأل سائلٌ عن قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ؛ [المائدة : ١١٦].

فقال : ما المرادُ بالنفس في هذه الآية ؟ وهل المعنى فيها كالمعنى في قوله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ؛ [آل عمران : ٢٨] أو يخالفه ؟ وهَلْ يطابق معنى الآيتين والمراد بالنفس فيهما ما رواه أبو هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال : قال الله تعالى : « إذا أحبَّ العبدُ لِقائي أحببتُ لقاءه ، وإذا ذكرَنِي في نفسِهِ ذكرتُه في نفسي ، وإذا ذكرني في مَلَإٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منه ، وإذا تقرّب إليَّ شبرًا تقرّبتُ إليه ذراعًا ، وإذا تقرّب إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا » ، أو لا يطابقه ؟

الجواب ، قلنا : النفسُ في اللغة لها معانٍ مختلفة ، ووجوهٌ في التصرُّف متباينة ؛ فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان ، وهي التي إذا فقدَها خرج عَنْ كونِه حيًّا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ؛ [آل عمران : ١٨٥].

[١٠٨ و] والنَّفْسُ ذاتُ الشيء الذي يخبر / عنه كقولهم : فعل ذلك فلان نفسُه ؛ إذا تولّى فِعْلَه . والنفس : الأنَفَة ؛ من قولهم ليس لفلان نفسٌ ، أي لا أنَفَةَ له .

والنفس الإرادة ، من قولهم نفسُ فلان في كذا ، أي إرادتُه ؛ قال الشاعر :

فنَفْسايَ نَفْسٌ قالَتِ ائتِ ابنَ بَحْدَلٍ ... تَجِدْ فَرَجًا مِنْ كلِّ غُمَّى تَهابُها[1]

ونفسٌ تقولُ اجْهَدْ نَجاءَكَ لا تَكُنْ ... كَخاضِبَةٍ لمْ يُغْنِ شيئًا خِضابُها[2]

---

(١) البيتان في اللسان (نفس) . ـ (٢) ت : « عنها خضابها » ، ومن نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « لم يغن يوما » .

ومنه أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، لم أحجُجْ قطُّ، فنفسٌ تقول لى: حُجَّ، ونفسٌ تقول لى: تزوّج، فقال الحسن: إنَّما النفسُ واحدةٌ، ولكن لك همٌّ يقول حُجَّ، وهمٌّ يقول: تزوّجْ، وأمره بالحج.

وقال المزّق[1] العبدِىّ — وتُرْوَى لمعقّر بن حِمار البارِقىّ:

ألا مَنْ لعينٍ قدْ نآها حَمِيمُها ... وأرّقنى بعدَ المَنامِ همومُها

فباتَتْ لها نفسانِ شتّى همومُها ... فنفسٌ تُعزِّيها ونفسٌ تلومُها

وقال النَّمر بن تَوْلب العُكْلِىّ:

أمّا خليلى فإنى لستُ مُعجِلَهُ ... حتى يُؤامِرَ نفسَيْهِ كما زعَما

نفسٌ له مِنْ نفوسِ القومِ صالحةٌ ... تُعطى الجزيلَ ونفسٌ ترضَعُ الغنما[2]

أراد أنّه بين نفسيْن: نفسٌ تأمرُه بالجود، وأُخرى تأمره بالبخل، وكنَّى برضاع الغنم عن البُخل، لأنَّ اللَّئيمَ يرضَعُ اللبن من الشَّاة ولا يحلُبها؛ لئلا يسمَع الضيفُ صوتَ الشَّخْب فيهتدى إليه، ومنه قيل: لئيمٌ راضِع؛ وقال كُثيِّر:

فأصبحتُ ذا نفسيْنِ نفسٌ مريضةٌ ... مِنَ اليأسِ ما ينفكُّ همٌّ يعودُها[3]

ونفسٌ تُرجِّي وَصْلَها بعدَ صَرْمِها ... تجمَّلُ كى يزدادَ غيظًا حسودُها

والنفس العين التى تصيب الإنسان، يقال: أصابت فلانًا نفسٌ، أى عينٌ. وروى

(١) حواشى الأصل، ت، ف: «المزّق، بكسر الزاى وفتحها، كلاهما جائز؛ الكسر لأنه أتى بذكر التمزيق فى شعره، والمزق بالفتح؛ لأنه قال: «لما أمزق»، وقال أبو القاسم الآمدى: المزق، بفتح الزاى هو شأس بن نهار العبدى، الذى قال: «ولما أمزق»، والمزق، بكسرها هو المزق الحضرمىّ، متأخر، وولده المزّق بن المزق، ذكره فى المختلف والمؤتلف.

وانظر ص ١٨٥—١٨٦؛ والبيت الذى يشير إليه هو بتمامه:

فإن كنتُ مأكولاً فكُنْ خيرَ آكلٍ ... وإلاَّ فأدرِكْنى ولمَّا أُمزَّقِ

من قصيدة يخاطب فيها عمرو بن المنذر بن عمرو بن النعمان، وكان هم بغزو عبد القيس.

(٢) البيتان فى الأغانى ١٩: ١٦١. (٣) ديوانه ١: ٧٥.

أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كان يَرْقِي فيقول : « بسم الله أَرْقيك ، والله يَشفيك ، من كلّ داء هو فيك ؛ مِنْ عَيْنِ عائن ، ونفسِ نافس ، وحسد حاسدٍ » .

[١٠٨ ظ] وقال ابنُ الأعرابيّ : النَّفوس الذى يُصيب الناس بالعين / . وذَكَرَ رجلا فقال : كان والله حسوداً نَفوساً كَذوباً . وقال عُبيد الله بن قَيْس الرُّقَيّات(١) :

يَتَّقِى أَهلُها النَّفوسَ عليها فَعلى نَحْرِها الرُّقَى والتَّميمُ

وقال مضرِّس بن رِبْعِيّ الفَقْعَسِيّ :

وإذَا نَمَوْا صُعُدًا فليسَ عليهِمُ مِنَّا الخَبالُ ولا نَفوسُ الحُسَّدِ(٢)

وقال ابنُ هَرْمة يمدح عبدَ الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

فاسلَمْ سَلِمْتَ مِنَ المَكارِهِ والرَّدَى وعِثارِها ووُقِيتَ نفسَ الحُسَّدِ

والنفس أيضا من الدِّباغ بمقدار الدَّبْغة ؛ تقول : أَعطِني نَفْساً من دِباغ ، أى قَدْرَ ما أَدْبُغ به مرة .

والنفسُ الغيب ، يقول القائل : إنّى لأعلم نفسَ فلان ، أى غَيْبَه ؛ وعلى هذا تأويل قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ، أى تعلم غَيْبِي وما عندى ، ولا أعلمُ غيبَك .

وقيل : إنّ النفسَ أيضاً العقوبة ، من قولهم : أحذِّرك نفسى ؛ أى عقوبَتى ؛ وبعضُ المفسِّرين حمل قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ على هذا المعنى ؛ كأنه يحذّركم عقوبته. وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وآخرون ؛ قالوا : معنى الآية ويحذركم الله إياه . وقد روى عن الحسن ومجاهد فى قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ما ذكرناه من التأويل بعينه .

---

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « قيل له ابن قيس الرقيات؛ لأنه كان يشبب بجماعة كل واحدة منهن اسمها رقية ؛ وقيل : كانت له جدات ؛ اسم كل واحدة منهن رقية » .

(٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « يقال هذا نبات ينمى صعدا ؛ أى يزداد طولا » .

فإن قيل : ما وجهُ تسمية الغيب بأنه نفس ؟ قلنا : لايمتنع أن يكون الوجه فى ذلك أنّ نفس الإنسان لما كانت خفيَّة الوضع نُزِّلَ ما يكتمه ويجتهد فى سَتره منزلتها ، وسمِّى باسمها ، فقيل فيه إنه نفسه ، مبالغةً فى وصفه بالكتمان والخفاء ؛ وإنما حَسُن أن يقول تعالى مخبراً عن نبيه: ﴿ وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ من حيث تقدم قوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾؛ ليزدوِج الكلام ، ولهذا لا يحسن ابتداء أن يقول : أنا لا أعلم ما فى نفس الله تعالى ، وإن حَسُن على الوجه الأول ؛ ولهذا نظائر فى الاستعمال مشهورة مذكورة .

فأما الخبر الذى ذكره السائل فتأويله ظاهر ، وهو خارج على مذهبٍ للعرب فى مثل هذا الباب معروف ؛ ومعناه أنَّ مَنْ ذكَرَنى فى نفسه جازيتُه على ذكْرِه لى، وإذا تقرَّب إلىَّ شبرا جازيتُه على تقرّبه إلىّ ؛ وكذلك الخبر إلى آخره ، / فسمَّى المجازاةَ على الشيء باسمه [١٠٩] اتساعاً، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، [الشورى : ٤٠] ؛ ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ ؛ [الأنفال : ٣٠] ، ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، [البقرة : ١٥] ؛ وكما قال الشاعر(١) :

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَــدٌ عَلَيْنا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهلِ الجَاهِلِينا

ونظائر هذا كثيرة فى كلام العرب . ولما أراد تعالى المبالغةَ فى وصف مايفعله بهمن الثواب والمجازاة على تقرُّبه بالكثرة والزيادة ؛ كنَّى عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال : «باعاً وذراعاً» ، إشارة إلى المعنى من أبلغ الوجوه وأحسنها .

---

(١) هو عمرو بن كلثوم ؛ والبيت من المعلقة ص ٢٣٨ — بشرح التبريزى .

٢٤

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل فقال: ما تأويل قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ ؛ [الأحزاب : ١٠] .

وكيف يجوز أن تبلغَ القلوبُ الحناجر مع كونهم أحياء ، ومعلوم أنّ القلب إذا زال عن موضعه المخلوق فيه ماتَ صاحبه ؟ وعَن أىّ شيء زاغت الأبصار ؟ وبأىّ شيء تعلّقت ظنونهم بالله تعالى ؟ .

الجواب ، قيل له فى هذه الآية وجوه :

منها أن يكون المراد بذلك أنهم جَبُنوا وفزِع أكثرُهم لمّا أشرف المشركون عليهم ، وخافوا من بوائقهم وبوادرهم ، ومِن شأن الجبان عند العرب إذا اشتد خوفُه أن تنتفخ رئته، ولهذا يقولون للجبان : انتفخ سَحْرُه ، أى رئتُه ، وليس يمتنع أن تكون الرئة إذا انتفخت رفعتِ القلب ، ونهضت به إلى نحو الحنجرة . وهذا التأويل قد ذكره الفرّاء وغيره ، ورواه الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس .

ومنها أنّ القلوب توصف بالوجيب والاضطراب فى أحوال الجزَع والهلَع ؛ قال الشاعر:

كأنّ قلوبَ أدِلاّئِها ... مُعلّقةٌ بقُرُونِ الظِّباءِ[1]

---

(١) الأدلاء : جمع دليل ؛ والبيت فى وصف فلاة مخيفة ، ذكره ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث ص ٤٨٨ ، ونسبه إلى المرار ، وقال فى شرحه : « يريد أن القلوب تنزو وتجب ؛ فكأنها معلقة بقرون الظباء ؛ لأن الظباء لا تستقر ؛ وما كان على قرونها فهو كذلك » .

وقال امرؤ القيس :

ولاَ مِثلَ يومٍ في قُدَارَانَ ظَلْتُهُ   كأني وأصْحابي على قَرْنِ أعفرَا[١]

ويروى : « في قُدارَ ظَلْتُه » ؛ أراد المبالغةَ في وصف نفسه وأصحابه بالقلق والاضطراب ومفارقة/ السُّكون والاستقرار ؛ وإنما خصّ الظَّبيَ ؛ لأن قرنَه أكثرُ تحركا واضطرابًا ؛ [١٠٩ ظ] لنشاطه ومَرَحه وسُرْعته .

وقد قال بعض الناس : إن امرأ القيس لم يصف شدَّةً أصابته في هذا البيت فيليق قوله : «على قرنِ أعفرا» بالتأويل المذكور ؛ بل وصف أماكنَ كانَ فيها مسرورا متنعماً ؛ ألا ترى إلى قوله قبل هذا البيت بلا فصْل :

ألاَ رُبَّ يومٍ صالحٍ قد شَهِدْتُهُ   بتاذِفَ ذاتِ التلِّ مِنْ فوقِ طَرْطَرا[٢]

فيكون معنى قوله : « على قرن أعفرا » على هذا الوجه أنه كان على مكان عال مُشرف ؛ شبَّهه لارتفاعه وطوله بقرْن الظبي ؛ وهذا القول لابن الأعرابيّ والأول[٣] للأصمعيّ ؛ فأما قول الآخر :

ألاَ قلْ خيرُ الشَّام[٤] كيفَ تغيَّرا   فأصبح يرْمِى النَّاس عن قَرْنِ أعفرَا

فلا يحتمِل إلاَّ الشدة والحالَ المذمومة ، ويجوز أن يريد أن الناس فيه غير مطمئنين بل هم منزعجون قلِقون ؛ كأنهم على قرن ظبي ، ويحتمِل أنه يريد أن يطعنهم بقرن ظبي ، كقولك : رماه بداهية ، ويكون معنى « عن » هاهنا معنى الباء ، فقال : « عن قَرْنِ أعفرا » وهو يريد بقرن أعفرا ، وقد ذكر في هذا البيت الوجهان معاً ، فيكون معنى الآية على هذا التأويل أن القلوب لما اتصل وجيبُها واضطرابها بلغت الحناجر لشدة القلق .

---

(١) ديوانه : ١٠٦ . قداران : قرية بالشام ؛ وأعفر ؛ أراد قرن ظبي أعفر . وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « في نسخة الوزير الكامل أبي القاسم المغربي رحمه الله : « قذاران » ، بالذال المعجمة وفتح القاف ، وضب عليه » . (٢) في حاشية ت : « طرطر : قرية بالشام بمنبج ، ولها نهر يقال له نهر طرطر » . وفي شرح الديوان : تاذف وطرطر : موضعان فيهما أوقع بعدوه » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « والآخر » . (٤) ت ، ف : « الشان » .

ومنها أن يكون المعنى: كادت القلوب من شدة الرُّعب والخوف تبلغ الحناجر، وإن لم تبلغ في الحقيقة، فألقى ذكر «كادت» لوضوح الأمر فيها، ولفظة «كادت» هاهنا للمقاربة؛ مثل قول قيس بن الخطيم:

أَتَعْرِفُ رَسْماً كاطِّراد المذاهِبِ ... لِعَمْرَةَ وَحْشاً غَيْرَ مَوْقِفِ راكِبِ(١)

دِيارَ الّتى كادَتْ ونَحْنُ على مِنًى ... تَحُلُّ بنا لَوْلا نَجاءُ الرَّكائِبِ

معناه: قاربت أن تَحُلّ بنا، وإن لم تَحْلُل فى الحقيقة.

وقوله: «غير موقف راكب» فيه وجهان: أحدهما أنه ليس بموضع يقف فيه راكب لخلُوِّه من الناس ووَحشته، والآخر أن يكون أراد أنّه وَحْش؛ إلاّ أن راكباً واقفٌ به؛ يعنى نفسه.

وقال نُصَيب:

[١١٠] وقد كِدْتُ يومَ الحَزْنِ لما تَرَنَّمتْ ... هَتُوفُ الضُّحى محزونةٌ بالتَّرَنُّمِ

أموتُ لِمَبْكاها أَسًى إنَّ لَوْعتى(٢) ... ووَجدِى بسُعْدَى شَجْوُهُ غيرُ مُنْجِمِ(٣)

معنى المُنجِم: المقلِع.

وقال ذو الرُّمة:

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقَتى ... فمازِلْتُ أَبكى عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ(٤)

وأَسْقِيهِ حتى كادَ مِمّا أَبُثُّه(٥) ... تُكَلِّمُنى أحجارُهُ وملاعِبُهْ

(١) ديوانه: ١٠٠، والرسم: ماشخص من آثار الديار بعد البلى، والمذاهب: جمع مذهب؛ وهى جلود تجعل فيها خطوط فيرى بعضها فى إثر بعض، وأطرادها: تتابعها.

(٢) ف، حاشية ت (من نسخة): «لوعتى». (٣) فى حواشى الأصل، ت، ف: «فى ديوانه:

* وَوَجْدِى بسعدى قاتِلٌ لىَ فاعلمى *

وبعده:

ولَوْ قَبْلَ مَبْكاها بَكَيْتُ صَبابَةً ... بِسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ

ولٰكِنْ بَكَتْ قَبْلى فهيَّجَ لى البُكا ... بُكاها، فَقُلْتُ: الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

(٤) ديوانه: ٣٥. (٥) فى حواشى الأصل، ت، ف: «يقال بثثته السر وأبثثته».

وكل هذا معنى «كاد» فيه المقاربة.

ومتى أدخلت العرب على «كاد» جَحْدا، فقالوا: ما كاد عبد الله يقوم، ولم يَكَد عبدالله يقوم؛ كان فيه وجهان:

أجودهما: قام عبد الله بعد إبطاء ولأْى، ومثله قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ [البقرة: ٧١]، أى ذبحوها بعد إبطاء وتأخير، لأنّ وِجدانَ البقرة عَسُر عليهم.

ورُوِىَ أنهم أصابوها ليتيم لا مال له غيرها، فاشتروها من وليّه بملء جلدها ذهبا، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، إما لأنهم لم يَقِفوا عليها، أو لغلائها وكثرة ثمنها.

والوجه الآخر فى قولهم: ما يكاد عبد الله يقوم، أى ما يقوم عبد الله، وتكون لفظةُ يكاد على هذا المعنى مُطَّرَحَةً لا حُكْمَ لها، وعلى هذا يحمل أكثر المفسرين قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، أى لم يرها أصلاً؛ لأنه جل وعز لما قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾؛ [النور: ٤٠]، كأنّ بعض هذه الظلمات يحول بين العين وبين النظر إلى اليد وسائر المناظر؛ فـ﴿يَكَدْ﴾ على هذا التأويل زيدَت للتوكيد، والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها.

وقال قوم: معنى الآية: إذا أخرج يده رآها بعد إبطاء وعُسر؛ لتكاثف الظلمة[1]، وترادُف الموانع من الرؤية؛ فـ﴿يَكَدْ﴾ على هذا الجواب ليست بزائدة.

وقال آخرون: معنى الآية إذا أخرج يده لم يرد أن يراها، لأن الذى شاهده من تكاثف الظلمات أيأسه[2] من تأمل يده، وقرّر فى نفسه أنه لا يدركها ببصره. وحكى عن العرب: أولئك أصحابى الذين أكاد أنزل عليهم، أى أريد أن أنزل عليهم؛ قال الشاعر:

كادَتْ وكِدْتُ وتِلكَ خيرُ إرادَةٍ ... لوْ عادَ من لَهْوِ الصَّبابَةِ ما مَضَى[3]

/ أى أرادتْ وأردتُ، وقال الأفوهُ الأودِىّ: [١١٠ ظ]

---

(١) ف: «الظلمات»، حاشية ت (من نسخة): «الظلم». (٢) ت، حاشية ف (من نسخة): «آيسه». (٣) ديوانه: ١٠ (ضمن مجموعة الطرائف). (٣) البيت فى اللسان (كيد).

فإنْ تجمّع أوْتادٌ وأعمِدَةٌ   وساكِنٌ بلَغوا الأمْرَ الذى كادُوا

أى أرادوا .

وقال بعضهم : معنى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ؛ [يوسف : ٧٦] ، أى أردنا ليوسف .

وقال الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس : معناه كذلك صنعنا ليوسف .

ومما يشهد لمن جعل لفظة ﴿ يَكَدْ ﴾ زائدة فى الآية قول الشاعر :

سَرِيعٌ إلى الهَيْجاء شاكٍ سِلاحهُ   فما إنْ يكادُ قِرْنُهُ يتنفّسُ

أى فما إنْ يتنفسُ قِرْنه ، و« يكاد » مزيدة للتوكيد ، وقال حسان :

وتَكادُ تَكْسَلُ أنْ تجىءَ فِراشَها   فى جِسْمِ خَرْعَبةٍ وحُسْنِ قَوَامِ

معناه وتكسل أن تجىءَ فِراشها ، وقال الآخر :

وألّا ألومَ النَّفْسَ فيما أصابَنى   وألّا أكادُ بالذى نِلْتُ أنْجَحُ

أى لا أنجح بالذى نلت ؛ ولو لم يكن الأمر على هذا لم يكن البيت مَدْحاً .

وروى عبدُ الصمد بن المعذَّل بن غَيْلان عن أبيه عن جدّه غَيْلان[1] قال : قدِم علينا ذوالرُّمة الكوفةَ ، فأنشدنا بالكُناسة ـ وهو على راحلته ـ قصيدتَه الحائية؛ التى يقول فيها :

إذَا غيّرَ النّأىُ المُحِبِّينَ لم يَكَدْ   رَسِيسُ الهوَى مِنْ حُبّ مَيّةَ يَبْرَحُ[2]

فقال له عبد الله بن شُبْرُمة[3] : قد بَرِح ياذا الرُّمة ، ففكَّر ساعة ثم قال :

إذَا غيّرَ النّأىُ المُحِبِّينَ لم أجِدْ   رَسِيسَ الهوَى مِنْ حُبّ مَيّةَ يَبْرَحُ

قال : فأخبرتُ أبى بما كان من قول ذى الرُّمة واعتراضِ ابن شُبْرُمة عليه ، فقال :

(١) حاشية ت (من نسخة) : « عيلان » ، وفيها : « وفى نسختين صحيحتين من ديوانه : غيلان » .

(٢) ديوانه : ٧٨ .   (٣) حواشى الأصل ، ت، ف : « هو شبرمة بن الطفيل » بكسر الطاء وسكون الفاء ، الذى يقول :

ويومٍ كظلِّ الرُّمْحِ قصّرَ طولَهُ   دَمُ الزّقِّ عنّا واصْطِفَاقُ المَزَاهِرِ

والبيت من أبيات ثلاثة، ذكرها أبو تمام فى الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ٢٣٦ .

أخطأ ذوالرُّمة فى رجوعه عن قوله الأوّل ، وأخطأ ابن شبرمة فى اعتراضه عليه ؛ هذا كقوله عز وجل : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ ، أى لم يرها .

فأما قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ ؛ [طه : ـ ١٥] ، فيحتمِلُ أن يكونَ المعنى : أريدُ أخفيها لكى تجزَى كلُّ نفس بما تسعى . ويجوز أن تكونَ زائدة ويكون / المعنى إنّ الساعةَ آتية أخفيها لتُجزَى كلُّ نفس . وقد قيل فيه وجه آخر ؛ وهو [١١١] أن يتم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ آتِيَةٌ أَكَادُ ﴾ ، ويكون المعنى : أكاد آتى بها ، ويقع الابتداء بقوله ﴿ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ؛ ومما يشهد لهذا الوجه قول ضابئ البرجُمىّ:

هَمَمْتُ ولم أفعَلْ وكِدْتُ وليتَنى ... تركْتُ على عُثمانَ تبكى حلائلُهْ[(١)]

أراد : وكِدت أقتله ، فحذف الفعل لبيان معناه .

ورُوِى عن سعيدبن جُبَيْر أنّه كان يقرأ: ﴿ أَكَادُ أَخْفِيهَا ﴾، فمعنى أخفيها على هذا الوجه أظهرها ؛ قال عَبْدة بن الطبيب يصف ثوراً :

يَخْفِى التُّرابَ بأظلافٍ ثمانيةٍ ... فى أربعٍ مَسُّهُنَّ الأرضَ تحليلُ[(٢)]

أراد أنه يظهر التراب ويستخرجه بأظلافه، وقال امرؤ القيس :

فإنْ تدْفِنُوا الدَّاءَ لانخفِهِ ... وإنْ تبعثوا الحَرْبَ لانقْعُدِ[(٣)]

أى لانظهره ؛ وقال النابغة:

تَخْفى بأظلافِها حتّى إذَا بلَغَتْ ... يُبْسَ الكَثيبِ تداعى التُّرْبُ فانهَدَما[(٤)]

(١) الشعر والشعراء : ٣١٠ . (٢) من قصيدة مفضلية ٢٦٨ـ٢٩٣ بشرح ابن الأنبارى . وفى حاشية الأصل : « يصف شدة عدو الثور، وأنه يثير الغبار بأظلاف ثمانية وأربع قوائم ؛ مقدار مسهن الأرض تحليل، أى قول الرجل فى يمينه إن شاء الله » . وفى حواشى ، ت ، ف أيضا : « التحليل ضد التحريم ؛ يقال : حللته تحليلا وتحلة ؛ وتقول : لم أفعل ذلك إلا تحلة القسم ؛ أى القدر الذى لاأحنث معه ، ولم أبالغ فيه ؛ ثم توسع فيه ؛ فقيل لكل شىء لم يبالغ فيه تحليل ؛ يقال : ضربته تحليلا » .

(٣) مختار الشعر الجاهلى : ١٣١ . (٤) البيت ليس فى ديوانه ، وفى حاشية ت : « ولامرئ القيس يصف فرساً أخرج اليرابيع من حجرتها بعدوه :

خَفَاهُنَّ من أنفاقِهنَّ كأنّما ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ من سحاب مُرَكَّبِ

وانظر ديوانه ٨٦ .

وقد روى أهل العربية: أخفيتُ الشىء بمعنى[1] سترتُه ، وأخفيته بمعنى أظهرته ، وكأنّ القراءةَ بالضم تحتمل الأمرين : الإظهارَ والستر ، والقراءة بالفتح لا تحتمل غيرَ الإظهار ؛ وإذا كانتْ بمعنى الإظهار كان الكلام فى « كاد » واحتمالها للوجوه الثلاثة التى ذكرناها كالكلام فيها إذا كانت بمعنى السترِ والتغطية .

فإن قيل : فأىُّ معنى لقوله: إنى أسترها لتُجْزَى كلُّ نفس بما تسعى ، أو أظهرها على الوجهين جميعاً ؟ وأى فائدة فى ذلك ؟

قلنا : الوجهُ فى هذا ظاهر ، لأنه تعالى إذا ستر عنّا وقت الساعة كانت دواعينا إلى فعل الحسَنِ والقبيح مترددة ، وإذا عرّفنا وقتها بعينه كنا ملجئين إلى التوبة ، بعد مقارفة الذنوب ونقضِ ذلك الغرض بالتكليف واستحقاق الثواب به ، فصار ما أُريدَ من المجازاة للمكلَّفين بسعيهم ، وإيصال ثواب أعمالهم يمنعُ من اطلاعهم على وقت انقطاع التكليف عنهم .

فأما إذا كانت لفظة ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ بمعنى الإظهار فوجهه أيضا واضح ؛ لأنه تعالى إنما يقيم القيامة ، ويقطع التكليف ليجازى كلًّا باستحقاقه ، ويوفِّى مستحقِّ الثواب ثوابه ، ويعاقب المسىءُ باستحقاقه ، فوضح وجهُ قوله تعالى : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ على المعنيين جميعاً .

قال سيدنا الشريف الأجل المرتضى أطال الله بقاءه : وجدتُ أبا بكر محمد بن القاسم الأنبارىَ يطعن على جواب مَنْ أجاب فى قوله : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ بأنّ معناه كادت تبلغ الحناجر ، ويقول :« كاد» لا تضمر ، ولا بدّ من أن يكون منطوقاً بها ، ولو جاز ضميرُها لجاز : قام عبدُ الله بمعنى كاد عبدالله يقوم، فيكون تأويل قام عبد الله لم يقم عبدالله؛ لأن معنى كاد عبد الله يقوم لم يقم ، وهذا الذى ذكره غير صحيح . ونظنُّ أن الذى حمله على الطعْن فى هذا الوجه حكايته له عن ابن قتيبة ، لأنّ من شأنه أن يردّ كل ما يأتى به ابن

---

(١) حاشية ت : « أخفيته إذا كان بمعنى أظهرته كانت الألف للسلب ، والمعنى : سلبته الخفاء ؛ مثل شكانى فأشكيته » .

قتيبة، وإن تعسَّف فى الطعن عليه . والذى استبعده غير بعيد ؛ لأنَّ « كاد » قد تضمر فى مواضع يقتضيها بعض الكلام وإن لم تكن فى صريحِهِ ؛ ألا ترى أنهم يقولون: أوردَت على فلان من العتاب والتوبيخ والتقريع مامات عنده ، وخرجت نفسُه ، ولما رأى فلان فلاناً لم يَبق فيه روح ، وما أشبه ذلك . ومعنى جميع ما ذكرناه المقاربة ، ولا بد من إضمار « كاد » فيه ، وقال جرير :

إنَّ العيونَ التى فى طرْفها مرَضٌ قَتَلْننَا ثمَّ لمْ يُحْيِينَ قتلاَنا[1]

وإنما المعنى أنهن كدن يقتلننا؛ وهذا أكثر فى الشعر والكلام من أن نذكره .

فأما قوله : « يُحْيِينَ قَتْلاَنَا » فالأظهر فى معناه أنهن لم يُزِلْنَ ما قاربنا عنده الموت والقتل من الصدود والهجر وما أشبه ذلك ، وسَمَّى هذه الأمور حياة كما سمى أضدادَها قَتْلاً ، وقد قيل إن معنى « يُحيين قتلانا » أنهن لم يَدِين قتلانا ، من الدِّية ، لأنَّ دية القتيل عند العرب كالحياة له ، وقد روى : « ثم لم يُحِيِنَّ قتلانا » ، وهذه رواية شاذة لم تسمع من عالم ولا محصّل ومعناها ركيك ضعيف ؛ وإذا كان الأمر على ما ذكرناه لم يمتنع أن يقال : قام فلانٌ بمعنى كاد يقوم ، إذا دلّتِ الحال على ذلك ؛ كما يقال : مات بمعنى كاد يموت .

فأما قوله: « فيكون تأويل قوله: قام عبد الله، لم يقم عبد الله » نخطأ ؛ لأنه ليس معنى كاد يقوم إنه لم يقم / كما ظنّ بل معناه أنه قارب القيام ودنا منه ، فمن قال : قام عبد الله وأراد كاد يقوم ؛ فقد أفاد مالا يفيده لم يقم .

---

(١) ديوانه: ٥٩٥ ؛ وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « روى أنه وقع الخلاف بين هارون الرشيد وزبيدة فى هذا البيت ؛ فكان هارون يقول : « يحيين » ، وزبيدة تقول : هو : « يحين » ، بالجيم والنون ؛ فتخاطرا على ذلك بألفى دينار ، ودعوا مسرورا الخادم، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل من ببغداد من أهل العلم ؛ فإن صوب قول هارون أعطاه ألفا ، وإن صوب قول زبيدة فألفها ، فخرج مسرور بالشموع يطلب من يفتيه فى ذلك ؛ فدل على الكسائى ؛ وكان قريب عهد القدوم من الكوفة إلى بغداد ؛ وكان يأوى إلى مسجد ؛ فدخل مسرور عليه بخيله وحشمه ؛ فتحفز له الكسائى ؛ فقال : لابأس ؛ إنه بيت قد أشكل علينا ، واستفتاه فى الكلمتين فصوبهما جميعا ؛ فأعطاه الألفين ؛ فأصبح وقد استفاد بكلمة أوضحها ماأغناه ؛ وهذا دليل على حسن تأتيه ولطافة أدبه » .

وأما قوله تعالى : ﴿ زَاغَتِ الأَبْصَارُ ﴾ فمعناه زاغت عن النظر إلى كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها ، ويجوز أن يكون المراد بـ﴿زَاغَتْ﴾ ، أى جارت(١) ومالت عن القصد فى النظر دهشا وتحيراً .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ ، معناه أنكم تظنون مرة أنكم تُنصرون وتظهرون على عدوّكم ، ومرة أنكم تُبتلون وتمتحنون بالتخلية بينكم وبينهم .

ويجوز أيضا أن يريد الله تعالى أن ظنونكم اختلفت ، فظنّ المنافقون منكم خلاف ما وعدكم الله تعالى به من النصر ، وشكّوا فى خبره عز وجل كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ ، فظنّ المؤمنون ما طابق وعد الله تعالى لهم كما حكى عز وجل عنهم فى قوله : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وكل ما ذكرناه واضح فى تأويل الآية وما تعلّق بها .

---

(١) ت وحاشية الأصل (من نسخة) : « حادت » ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « حارت » .

مجلس آخر [٢٠]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾؛ [النبأ : ٩] .

فقال: إذا كان السُّبات هو النوم؛ فكأنه قال: وجعلنا نومكم نوماً، وهذا مما لا فائدة فيه.

الجواب، قيل له في هذه الآية وجوه:

منها أن يكون المراد بالسُّبات الراحة والدَّعة، وقد قال قوم: إنّ اجتماع الخلق كان في يوم الجمعة، والفراغَ منه في يوم السبت، فسُمِّي اليوم بالسبت للفراغ الذي كان فيه؛ ولأن الله تعالى أمر بني إسرائيل فيه بالاستراحة من الأعمال؛ قيل: وأصل السُّبات التمدُّد؛ يقال: سَبَتَتِ المرأة شَعْرَها إذا حلَّتْه من العَقْص وأرسلته، قال الشاعر:

وإنْ سَبَتَتْهُ مالَ جَثْلًا كأنَّهُ ... سَدَى واهلاتٍ مِن نواسِجِ خَثْعَما[1]

أراد: إن أرسلته.

ومنها أنْ يكون المراد بذلك القَطْع؛ لأن السبْت القَطع، والسبتُ أيضا الحَلْق؛ يقال: سَبَتَ شعرَه سبْتاً إذا حلَقه، وهو يرجع إلى معنى القطع، والنعال السِّبْتِيَّة التي لا شعْر عليها؛ قال عنترة:

بَطَلٍ كأنَّ ثِيابَه في سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعالَ السِّبتِ، ليس بتَوْءَم[2]

---

(١) الجثل من الشعر: ما كثف واسود، وفي حواشي الأصل، ت، ف: «شبه شعرها في وقت الإرسال بسدي ثياب مسترخيات مرسلات. والنواسج: جمع ناسجة، وخثعم: قبيلة».

(٢) المعلقة: ١٩٩ ـ بشرح التبريزي، وفي حاشيتي الأصل، ف: «السرحة: شجرة طويلة، يصفه بالطول. وأراد بقوله: «يحذى نعال السبت» أنه من الملوك؛ لأن نعال السبت نعال الملوك. والسبت: شيء يشبه القرظ، تدبغ به النعال؛ ووصفه بالشدة والقوة في قوله: «ليس بتوءم»، لأنه إذا لم يكن معه توءم كان أقوى وأتم خلقه».

[١١٢ ظ] / ويقال لشكل أرض مرتفعة منقطعة ممّا حولها : سَبْتَاء ، وجمعها سَبَاتَى ، فيكون المعنى على هذا الجواب : جعلنا نومَكم سُباتاً ، أى قَطْعاً لأعمالكم وتصرّفكم . ومَنْ أجاب بهذا الجواب يقول : إنما سمّى يوم السبت بذلك لأنّ بدء الخلق كان يوم الأحد ؛ وجُمِع يومَ الجُمعة ، وقُطِعَ يوم السبت ، فترجع التسمية إلى معنى القطع .

• وقد اختلف الناس فى ابتداء الخلق فقال أهل التوراة : إنّ الله تعالى ابتدأه فى يوم الأحد ، فكان الخلق فى يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، ثم فرغ فى يوم السبت ؛ وهذا قول أهل التوراة .

وقال آخرون : إن الابتداء كان فى يوم الاثنين إلى السبت ، وفرَغ فى يوم الأحد ؛ وهذا قول أهل الإنجيل .

فأما قول أهل الإسلام فهو أن ابتداء الخلق كان فى يوم السبت ، واتصل إلى الخميس ، وجُعِلت الجمعة عيداً ؛ فعلى هذا القول الأخير يمكن أن يُسمّى اليوم بالسبت ، من حيث قُطِع فيه بعضُ خلق الأرض ، فقد روَى أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: « إن الله تعالى خلَق التُّرْبَة(١) فى يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد » .

ومنها أن يكون المراد بذلك أنّا جعلنا نومكم سُباتاً ليس بموت ؛ لأن النائم قد يفقِد من علومه وقصوده وأحواله أشياء كثيرةً يفقدها الميت ؛ فأراد تعالى أن يمتنّ علينا بأنْ جعل نومَنا الذى تُضاهى فيه بعضُ أحوالنا أحوالَ الميت ليس بموتٍ على الحقيقة ، ولا بخرج لنا عن الحياة والإدراك ؛ فجعل التأكيدَ بذكر المصدر قائماً مقامَ نفىِ الموت، وسادّاً مَسدّ قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ ليس بموت .

ويمكن أن يكون فى الآية وجه آخر لم يُذكر فيها ، وهو أن السُّبات ليس هو كلّ نوم، وإنما هو من صفات النوم إذا وقع على بعض الوجوه ، و السُّبات هو النوم الممتد الطويل

(١) من نسخة بحاشيتى ت ، ف : « البرية » .

السكون[١] ، ولهذا يقال فيمن وُصِف بكثرة النوم إنه مَسبوت ، وبه سُبات؛ ولا يقال ذلك فى كلِّ نائم ، وإذا كان الأمر على هذا لم يجر قوله : ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ مَجْرى أن يقول: وجعلنا نومكم نوماً .

والوجه فى الامتنان علينا بأن جعل نومَنا ممتداً طويلا ظاهرٌ ، وهو لما فى ذلك لنا من المنفعة والراحة ؛ لأن التهويم والنوم الغِرار لا يَكْسِبان[٢] شيئا من الراحة ؛ بل يصحبهما فى الأكثر القَلق والانزعاج ، والهموم / هى التى تقلّل النوم وتُنزِّره ، وفراغ القلب ورخاءُ [١١٢ و] البال يكون معهما غزارة النوم وامتداده ؛ وهذا واضح .

قال سيدنا الشريف الأجل المرتضى أدام الله علوّه : وجدت أبا بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ يطعَن على الجواب الذى ذكرناه أوّلا ، ويقول: إن ابن قتيبةَ أخطأ فى اعتماده ؛ لأنّ الراحةَ لا يقال لها: سُباتٌ ، ولا يقال : سَبَتَ[٣] الرجل بمعنى استراح وأراح ، ويعتمد على الجواب الذى ثنَّينا بذكره ، ويقول فيما استشهد به ابنُ قتيبة من قولهم سَبَتَتِ المرأةُ شَعْرها: إن معناه أيضاً القَطع، لأن ذلك إنما يكون بإزالة الشِّداد الذى كان مجموعاً به وقطعِه.

والمقدار الذى ذكره ابن الأنبارىّ لا يَقْدَح فى جواب ابن قتيبة ؛ لأنه لا يُنكَر أن يكون السباتُ هو الراحة والدّعة إذا كانتا عن نومٍ ، وإن لم توصَف كل راحةٍ بأنها سُبات، ويكون هذا الاسم يخصّ[٤] الراحة إذا كانت على هذا الوجه ؛ ولهذا نظائرُ كثيرة فى الأسماء ، وإذا أمكن ذلك لم يكن فى امتناع قولهم: سَبَتَ الرجل بمعنى استراح فى كل موضع دلالةٌ على أنّ السُّبات لا يكون اسما للراحة عند النوم ؛ والذى يَبْقى على ابن قتيبة أن يبيّن أن السباتَ هو الراحة والدّعة ، ويستشهد على ذلك بشعرٍ أو لغة ، فإن البيت الذى ذكره يمكن أن يكون المراد به القطع دون التمدّد والاسترسال .

(١) حاشية ف (من نسخة) : « السكوت » . (٢) ت ، ف : « لا يُكسبان » ، بضم الياء .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « سُبِت » ، بالبناء للمجهول .

(٤) من نسخة بحاشيتى ت ، ف : « يختص بالراحة » .

فإن قيل : فما الفرقُ بين جواب ابن قتيبة وجوابكم الذى ذكرتموه أخيراً ؟ قلنا : الفرق بينهما بَيِّن ، لأنَّ ابن قتيبة جعل السُّبات نفسَه راحةً ، وجعله عبارةً عنها ، وأخذ يستشهد على ذلك بالتمدّد وغيره ، ونحن جعلنا السُّبات من صفات النوم ، والراحة واقعةٌ عنده للامتداد وطول السكون فيه ؛ فلا يلزمنا أن يقال : سَبَتَ الرجل بمعنى استراح ؛ لأنَّ الشىء لا يسمَّى بما يقع عنده حقيقة، والاستراحة تقع على جوابنا عند السُّبات[1]، وليس السبات إياها بعينها ؛ على أن فى الجواب الذى اختاره ابنُ الأنبارىّ ضرباً من الكلام ؛ لأن السَّبْت وإن كان القطع على ما ذكره فلم يُسْمَع فيه البناء الذى ذكره وهو السُّبات ، ويحتاج فى إثبات مثل هذا البناء إلى سَمْعٍ[2] عن أهل اللغة ، وقد كان يجب أن يورد من أىّ وجه؛ إذا كان السبت هو القطعُ جاز أن يقال سُبات على هذا المعنى ؛ ولم نره فعل / ذلك . [١١٣ ظ]

تأويل خبر

إن قال قائل: ما تأويل الخبر الذى روِى عن النبى صلى الله عليه وآله: «إنَّ الميت لَيُعذَّب ببكاء الحىّ عليه »، وفى رواية أخرى : « إن الميت يعذَّب فى قبره بالنِّياحة عليه »، وقد روَى هذا المعنى المغيرة بن شُعْبة أيضا فقال : سمعت النبى صلى الله عليه وآله يقول : « مَنْ نِيحَ عليه فإنّه يعذَّب بما نِيحَ عليه » .

الجواب ، إنَّا إذا كنا قد علمنا بأدلة العقل التى لا يدخلها الاحتمال ولا الاتساع والمجاز قبحَ مؤاخذة أحد بذنب غيره ، وعلمنا أيضا ذلك بأدلة السمع مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾؛ [الأنعام : ١٦٤] ، فلا بدّ أن نصرف ما ظاهره بخلاف هذه الأدلة إلى ما يطابقها .

والمعنى فى الأخبار التى سئلنا عنها ــ إن صحت روايتُها ــ أنه إذا أوصى مُوصٍ بأن يناح

---

(١) فى حواشى الأصل ، ت ، ف : « قال ابن دريد : السبات : السكون ؛ والرجل مسبوت ؛ وقال الجوهرى : السبت والسبات : السكون والراحة ؛ وقد سبت يسبت، بالضم » .

(٢) ت ، د ، حاشية ف (من نسخة) : « سماع » .

عليه ففعل ذلك بأمره وعن إذنه فإنّه يعذَّب بالنياحة عليه؛ وليس معنى يعذَّب بها أنه يؤاخذ بفعل النُّواح ، وإنما معناه أن يؤاخذ بأمره بها ووصيته بفعلها ، وإنما قال صلى الله عليه وآله ذلك لأنّ الجاهلية كانوا يرون البكاء عليهم والنوح فيأمرون به ، ويؤكدون الوصية بفعله وهذا مشهور عنهم ؛ قال طَرَفَة بن العبد :

فإنْ مُتُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ ... وشُقِّي علىَّ الجيبَ يا أمَّ مَعْبَدِ[1]

وقال بِشْرُ بن أبي خازم لابنته عُمَيْرَة[2] :

فمَنْ يَكُ سائلاً عن بيتِ بِشْرٍ ... فإنَّ له بجَنْبِ الرِّدْهِ بابا[3]
ثَوَى في مُلْحَدٍ لاَ بُدَّ منهُ ... كَفَى بالمَوْتِ نَأْياً واغْتِرابا[4]
رَهِينُ بِلًى وكلُّ فتًى سَيَبْلَى ... فأَذْرِي الدَّمْعَ وانتَحِبِي انْتِحابا

وقد روى عن ابن عباس في هذا الخبر أنه قال : وَهَلَ[5] ابنُ عمر ، إنما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وآله على يهوديّ فقال : « إنكم لتبكون عليه ، وإنه ليعذَّب في قبره » . وقد رُوِىَ إنكار هذا الخبر أيضا عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله، وأنها قالت لما أخبرت بروايته : وَهَل أبو عبد الرحمن كما وَهَلَ يوم قَلِيب بدر ، إنما قال عليه السلام: « إن أهلَ الميت لَيبكون عليه ، وإنه لَيعذب بجُرْمه »/ [١١٤ و]

(١) المعلقة ٩٦ — بشرح التبريزي . والرواية فيها :

* وَشُقِّي عَلَيَّ الجيْبَ يابنة مَعْبَدِ *

(٢) مختارات ابن الشجري ٢ : ٣٢ ؛ من قصيدة قالها وهو يجود بنفسه بعد أن طعنه غلام من بني وائلة بسهم فأثخنه ، ومطلعها :

أسائِلةٌ عُمَيْرَةُ عن أبيها ... خِلاَلَ الجَيْشِ تَعْتَرِفُ الرِّكابا

(٣) الرده : جمع ردهة ؛ وهي نقرة في صخرة يستنقع فيها الماء . (٤) في مختارات ابن الشجري : « هوى في ملحد » . (٥) في حواشي الأصل ، ت ، ف : « قال أبو زيد : وهلت [بكسر الهاء] في الشيء وعنه أوهل وهلا [بفتحتين] إذا غلطت فيه ، ووهلت [بفتح الهاء] إلى الشيء أهل وهلا [بسكون الهاء] إذا ذهب وهمك إليه ، ووهلت [بكسر الهاء] أوهل وهلا [بفتحتين] : فزعت » .

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : معنى « وَهَلَ » أى ذهب وهمه إلى غير الصواب ، يقال وَهِلْت إلى الشىء ، فأنا أهِل وَهَلا إذا ذهب وهمُك إليه ، ووهَلت عنه أهِل وَهْلا ، أى نسيته وغلطت فيه ، ووهِل الرجل يَوْهَل وَهَلا إذا فزِع ، والوهَل : الفزع .

فأما « القَليبُ » فهى البئر ، والجمع القُلُب ، قال حسان بن ثابت يذكر قتلى بدر من المشركين :

يُناديهم رسولُ الله لمّا ... قذفناهم كباكبَ فى القَليبِ (١)
ألم تجدُوا حديثى كان حقًّا ... وأمرُ الله يأخذ بالقلوبِ

وقال آخر يبكى على قتلى بدر من المشركين :

فماذا بالقَليبِ قليبِ بدرٍ ... مِنَ القَيْنات والشَّرْبِ الكِرامِ (٢)
وماذا بالقَليبِ قليبِ بدرٍ ... مِنَ الشِّيزَى يُكلّلُ بالسَّنامِ (٣)

ومعنى وَهَلِه فى ذكر القَليب أنه روى أن النبى صلى الله عليه وآله وقف على قَليب بدر فقال : « هل وجدتم ما وعد ربّكم حقًّا » ؟ ثم قال : « إنهم ليسمعون ما أقول » ، فأنكر ذلك عليه؛ وقيل إنما قال عليه السلام : « إنهم الآن ليعلمون أنّ الذى كنت أقول لهم هو الحق » ، واستشهد بقول الله تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى ﴾ ؛ [النمل : ٨٠]. وأهلُ القليب جماعة من قُريش ؛ منهم عُتبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وغيرهم .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قائمًا يصلّى بمكة وأناس من قريش فى حَلْقة ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فقال : ما يمنع أحدَكم أن يأتى الجَزور التى نَحَرها آل فلان ، فيأخذ سَلاها ثم يأتى به حتى إذا سجد وضعه على ظهره ؟ قال عبد الله : فانبعث أشقى القوم ـ وأنا أنظر إليه ـ فجاء به حتى وضعه على ظهره ، قال عبد الله : فلو كانت لى يومئذ مَنَعةٌ لمنعتُه . وجاءتْ فاطمة عليها السلام عليه ، وهى يومئذ صبية حتى أماطته عن ظهر أبيها ثم جاءت حتى قامتْ على رءوسهم فأوسعتْهم شتمًا ، قال : فوالله لقد رأيتُ بعضهم يضحك ، حتى إنه ليطرح نفسه على صاحبه من الضحك ، فلما

(١) ديوانه : ١١ـ١٢ . الكباكب : الجماعات . (٢) ت ، د ، حاشية ف (من نسخة): « من الفتيان » . (٣) الشيزى : شجر عظيم يتخذ منه الجفان ، وهو الأبنوس .

ـلم النبي صلى الله عليه وآله أقبل على القوم فقال: « اللهمّ عليك بفلان وفلان » ، فلما رأوا [١١٤ ظ] النبي صلى الله عليه وآله قد دعا عليهم أسقط في أيديهم ، فوالله الذي لا إله غيره ما سمّى النبي صلى الله عليه وآله يومئذ أحداً إلاّ وقد رأيته يوم بدر ، وقد أُخذ برجله يُجرّ إلى القَليب مقتولا .

وقوله : « فيأخذ سَلاها » أي جِلدتها التي فيها ولدها مادام في بطنها ، والجميع(١) الأسلاء؛ وقال ابن حبيب(٢) : الأسلاء التي فيها الأولاد ، قال الأخطل :

وَيَطْرَحْنَ بِالثَّغْرِ السِّخالَ كأنّما ... يُشَقِّقْنَ بالأسلاءِ أرديةَ العَصْبِ(٣)

وقال الشّمّاخ :

والعِيسُ دَامِيةُ المَنَاسِمِ ضُمَّرٌ ... يَقْذِفْنَ بالأسلاءِ تحتَ الأرْكُبِ(٤)

قال الفرّاء . سُقِط في أيديهم من الندامة، وأُسقِط لغتان، وهي بغير ألف أكثر وأجود .

ويمكن أن يكون في قوله : « يعذّب ببكاء أهله عليه » وجه آخر ؛ وهو أن يكون المعنى أن الله تعالى إذا أعلمه ببكاء أهله وأعزائه عليه وما لحقهم بعده من الحزن والهمّ تألم بذلك ؛ فكان عذاباً له ؛ والعقاب ليس بجارٍ مجرى العقاب الذي لايكون إلاّ على ذَنْب متقدِّم ؛ بل قد يُستعمَل كثيراً بحيث يستعمل الألم والضرر ؛ ألا تَرَى أنّ القائلَ قد يقول لمن ابتدأه بالضرر والألم : قد عذّبتني بكذا وكذا ؛ كما يقول: أضررتَ بي وآلمتني ؛ وإنما لم يُستعمل العقاب حقيقة في الآلام المبتدأة من حيث كان اشتقاق لفظه من المعاقبة ، التي لا بد من تقدم سبب لها ، وليس هذا في العذاب .

---

(١) ف : « الجمع » .

(٢) حواشي الأصل ، ت ، ف : « محمد بن حبيب النحوي ؛ وحبيب أمه ؛ وكان ولد ملاعنة فلا ينسب إلى أبيه » .

(٣) ديوانه : ٢٠ ، وفي حاشيتي الأصل ، ف : « الثغر : موضع المخافة ؛ ويمكن أن يريد به هاهنا موضعا بعينه ؛ يصف الإبل بالسكد والجهد ؛ حتى طرحت أولادها وأسلاؤها مشقوقة ؛ وشبه الأسلاء في حال انشقاقها عن السخال بأرديه من برود اليمن » .

(٤) لم يرد البيت في ديوانه وفي حاشيتي الأصل ، ف : « العيس : الإبل البيض . والناسم : مقدمة الخف . والأركب : جمع ركب ، والركب : جمع ركبة ؛ ويمكن أن تكون الأركب بمعنى الركبان » .

تأويل خبر آخر

إن سأل سائل عن الخبر الذى يَرويه أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال : « مامِنْ أحد يُدْخِلُه عملُه الجنة ، ويُنْجيه من النار »، قيل : ولا أنتَ يارسولَ الله ؟ قال : « ولا أنا؛ إلاّ أن يتغمَّدَنى الله برحمةٍ منه وفضل » ، يقولها ثلاثا .

فقال: أوَليس فى هذا دلالة على أنّ الله تعالى يتفضَّل بالثواب ، وأنه غيرُ مستحَق عليه ؟ ومذهبكم بخلاف ذلك .

الجواب ، قلنا : فائدة الخبر ومعناه بيانُ فَقْرِ المكلَّفين إلى الله تعالى ، وحاجتُهم إلى ألطافِه وتوفيقاته ومعوناته ، وأنّ العبدَ لو أُخرِج إلى نفسه ، وقطع الله تعالى موادَّ المعونة واللطف عنه لم يدخلْ / بعملِه الجنة ، ولا نجا من النار؛ فكأنه عليه السلام أراد أنّ أحداً لا يدخلُ الجنة بعمله الذى لم يُمِنْه الله تعالى عليه ، ولا لَطَفَ له فيه ، ولا أرشدَه إليه ؛ [١١٠ و] وهذا هو الحق الذى لاشبهةَ فيه ؛ فأما الثواب فما نأبى القولَ بأنه تفضّل؛ بمعنى أنّ الله تعالى تفضَّل بسببه الذى هو التكليف، ولهذا نقول: إنه لايجب على الله تعالى شيء ابتداء ، وإنما يجب عليه ماأوجبَه على نفسه ، فالثواب مما كان أوجبه على نفسه بالتكليف؛ وكذلك التمكين والإلطاف، وكل مايجلبه ويوجبه التكليف، ولولا إيجابه له على نفسه بالتكليف لما وجب .

فإن قيل: فقد سمى الرسول ما يُفْعَل به فضلا فقال : « إلاّ أنْ يتغمّدَنى الله برحمة منه وفضل »، قلنا هذا يطابق ماذكرناه ، لأنّ الرحمة النعمة والثواب نعمة ، وهو يُفضَّل من الوجه الذى ذكرناه ، وإن حملنا قوله عليه السلام : « برحمة منه وفضل » على ما يُفعَل به من الألطاف والمعونات فهى أيضاً فَضْل وتفضُّل لأنّ سببها غير واجب .

فأما قوله عليه الصلاة والسلام : « يتغمدنى » فمعناه يسترنى ، يقال غمدت السيف فى غِمْده إذا سترتُه ، قال الشاعر :

نَصَبْنَا رِماحاً فوقَها جَدُّ عامرٍ   كظِلِّ السَّماء ، كلَّ أرضٍ تغمّدا

فالجَدّ هاهنا : الحظ ، وشبّه ماقسِم لعاص من الغَلبة والظفر بظلّ السماء الذى يستُرُ كلّ شىء ، ويظهر عليه .

* * *

أخبرنا أبو القاسم عُبيد الله بن عثمان بن يحيى بن جَنيقا قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الحَكيمىّ قراءة عليه قال أملى علينا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب النحوىّ قال أخبرنا ابنُ الأعرابى قال: يقال للقوم إذا دعوتَ عليهم : بَهرَهُم الله، والمبهور هو المكروب ، وأنشدنا :

أبرَزُوها مِثلَ المَهاةِ تَهادَى ... بينَ خَمسٍ كَواعِبٍ أترابِ [١]
ثُمّ قالوا : تحبُّها ؟ قلتُ : بَهرًا ... عددَ الرَّمْل والحَصَى والتُّرابِ [٢]

قال سيدنا أدام الله أيامه : وقد قيل فى معنى قوله: « بَهرًا » غير هذا الوجه .

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانىّ قال أخبرنى محمد بن يحيى الصولىّ قال حدثنا القاسم بن إسماعيل / قال حدثنا التَّوزىُّ عن أبى عَمْرو الأسدىّ قال سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: عمر [١١٥ ظ] ابن أبى ربيعة حجّة فى العربية ، وما أُخذ عليه شىء إلا قوله :

* ثم قالوا : تحبها ؟ قلت: بَهْرًا *

وله فيه عذر إن أراد الخبرَ لا الاستفهام ، كأنهم قالوا : أنت تحبها؛ على وجه الإخبار منهم لا الاستفهام ، فوكّد هو إخبارَهم بجوابه ، فهذا حسن . و« بَهرًا » يجوز أن يكون أراد: نعم حبًّا بَهرنى بَهرًا ، ويكون أيضاً بمعنى «عَقرًا وتَعْسًا» ، دعاء عليهم إذ جهلوا من حبِّه لها مالا يُجهل مثله ، وأنشد أبو عمرو :

---

(١) من قصيدة فى الديوان، مطلعها :

قال لى صاحبى لِيَعْلَمَ مابى: ... أتُحِب القتول أختَ الرباب؟

(٢) ف، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ت : «عدد القطر» ، وفى الديوان: «عدد النجم» . و«بهرا» : مصدر بمعنى الغلبة ؛ وكأنه قال : غلبنى حبها واستولى علىّ .

لَحَا اللهُ قَوْمِي إِذْ يَبِيعُونَ مُهْجَتِي   بِجَارِيَةٍ ، بَهْرًا لَهُمْ بَعْدَهَا بَهْرًا[١]

قال أبو عمرو: ويكون « بهراً » بمعنى « ظاهراً »؛ يريد حبًّا ظاهراً، من قولهم: قمرٌ باهرٌ. وقد روى بعض الرواة أنه قال:

* قيل لي: هل تحبها ؟ قلت : بهراً *

والرواية الأولى هي المشهورة ، ولعلَّ مَن روى ذلك فرَّ بهذه الرواية من اللَّحْن .

وهذان البيتان لعمر بن أبي ربيعة المخزوميّ ، من جملة أبيات منها :

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثُّرَيَّا بِأَنِّي   ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَالكِتَابِ[٢]
وَهْيَ مَكْنُونَةٌ تَحَيَّرَ مِنْهَا   فِي أَدِيمِ الخَدَّيْنِ مَاءُ الشَّبَابِ
سَلَبَتْنِي مُجَاجَةَ المِسْكِ عَقْلِي   فَسَلُوهَا بِمَا يَحِلُّ اغْتِصَابِي
أَزْهَقَتْ[٣] أُمُّ نَوْفَلٍ إِذْ دَعَتْهَا   مُهْجَتِي ، مَا لِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ
حِينَ قَالَتْ لَهَا : أَجِيبِي، فَقَالَتْ :   مَنْ دَعَانِي ؟ قَالَتْ : أَبُو الخَطَّابِ
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ المَهَاةِ تَهَادَى   بَيْنَ خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أَتْرَابِ
ثُمَّ قَالُوا : تُحِبُّهَا ؟ قُلْتُ : بَهْرًا   عَدَدَ القَطْرِ وَالحَصَى وَالتُّرَابِ

والثريَّا هي التي عَناها عُمر أمويّة ، وقد اختلف في نسبها ، فقيل : إنها الثريَّا بنت عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر . أبو عبد شمس ، وقيل : إنها الثريا بنت عليّ بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر . وذكر الزبير بن بكّار أن الثريا هي بنت عبد الله بن محمد

---

(١) البيت لابن ميادة ، وهو في اللسان (بهر) ، والرواية فيه :

* تَفَاقَدَ قَوْمِي إِذْ يَبِيعُونَ مُهْجَتِي *

وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « قوله : « بهرا لهم بعدها بهرا » يجوز أن يكون الضمير في « بعدها » للجارية ؛ ويكون قد كرر « بهرا » ، ويجوز أن يكون الضمير « لبهرا » الأولى ؛ أي بهرا لهم بعدها بهراً ؛ وإنما أنث لأنها كلمة ، وتكون الجملة التي هي « بعدها بهرا » في موضع الصفة لبهرا الأولى ، ويجوز أن يكون الضمير للفعلة ؛ أي البيعة ». (٢) في حاشيتي ت ، ف : « أي امتناعها من الكتاب إلي، وقيل : هو يحلف بالمصحف » . (٣) ت ، ومن نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « أزهقت » .

ابن عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر، وأمها أخت محمد بن عبد الله المعروف بأبي جراب العبلي(١) الذى قتله داود بن علي.

وأخبرنا أبو عُبيد الله / قال حدثني محمد بن عبد الله(٢) قال حدثنا أحمد بن يحيى [١١٦ و] عن الزُّبير بن بكّار قال حدثني موسى بن عمر بن الأفلح قال : أخبرني بلال، مولى ابن أبي عتيق في حديث طويل لعمر بن أبي ربيعة مع الثريّا اختصرناه وأوردنا بعضه قال : لما سَمِع ابنُ أبي عتيق قول عمر :

* مَن رسولي إلى الثريا بأنّي *

قال : إياى أراد : وبي نوّه، لا جرم ! والله لا أذوق أكلا حتى أشخص إليه لأصلح بينهما، فنهض ونهضتُ معه، فجاء قوماً من بني الدِّيل بن بكر، لم تكن النجائبُ تفارقهم يُكرونها فاكْترى منهم راحلتين، وأغلى لهم بهما، فقلت له : استوضِعهم شيئاً، أو دَعني أما كِسُهم فقد اشتطّوا، فقال لي : ويحك! أما علِمت أن المِكاس ليس من خُلُق الكرام! وركب إحداهما، وركبت الأخرى، فسار سيراً شديدا، فقلت له. ارفُق على نفسك، فإنّ ما تريد لا يفوتك، فقال : ويحك!

* أبادر حَبْل الود أن يتقضّبا *

وما مِلْح الدنيا إن يَتِمّ الصَّدْع بين عُمر والثُّريا ! فقدمنا مكة ليلا غير محرِمَيْن، فدق على عمرَ بابه، فخرج إليه فسلّم عليه، فما نزل ابنُ أبي عتيق عن راحلته، وقال لعمر : اركب أصلِحْ بينك وبين الثريّا، فأنا رسولك الذى سألت عنه، فركب معه، فقدمنا الطائف، فقال ابنُ أبي عتيق للثريّا : هذا عمر، قد جَشّمني إليك سفر المدينة، فجئتك به، معترفاً بذنب لم يَجْنِه، معتذراً من إساءتك إليه، فدعيني من التَّمْداد والتَّرْداد، فإنه من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون؛ فصالحتْه أحسن صُلْح، وكررنا راجعين إلى المدينة، ولم يُقِم ابن أبي عتيق بمكة ساعة واحدة.

---

(١) في حاشيتي ت، ف : «عبلة : اسم جارية؛ وأمية الصغرى، وهم حي من قريش؛ يقال لهم : العبلات؛ بالتحريك، والنسبة إليهم عبلى [بسكون الباء] رداً إلى الواحد لأن أمهم عبلة ».

(٢) ت : « محمد بن إبراهيم »؛ وهو من رواة المرزباني أيضا، وانظر الموشح : ٥٤.

وفى الثريا يقول عمر أيضاً لما تزوّجها سُهَيل بن عبد الرحمن بن عوف؛ المكتنى بأبي الأبيض، وقيل بل تزوّجها سهيل بن عبد العزيز بن مروان :

أيُّها المُنكِحُ الثُّريّا سُهَيلًا عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يَلتقِيانِ ![1]

هيَ شاميّةٌ إذا ما استقلّتْ وسُهَيلٌ إذا استقلَّ يمانِي

---

(١) ديوانه : ٤٩٥ .

مجلس آخر [٢٦]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ؛ [طه : ٧٨] .

فقال: ما الفائدة فى قوله: ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾، وقوله: ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ يدل عليه ، ويُستغنى به عنه ، لأن ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ لا يكون إلّا الذى غشيهم ، وما الوجه فى ذلك ؟

قلنا : قد ذكر / فى هذا أجوبة : [١١٦] ظ

أحدُها أن يكون المعنى : فغشيَهم من اليمّ البعضُ الذى غَشِيَهم ، لأنه لم يغشَهم جميعُ مائه ، بل غشيَهم بعضُه، فقال تعالى:﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾؛ ليدل على أنّ الذى غرّقهم بعضُ الماء ، وأنّهم لم يغرَقوا بجميعه ؛ وهذا الوجه حُكِى عن الفرّاء ، وذكره أبو بكر الأنبارىّ،واعتمده، وغيره أوضح منه .

واليم هو البحر ، قال الشاعر :

وبَنَى تُبَّعٌ على اليَمِّ قصرًا عاليًا مُشْرِفًا على البُنْيانِ

وثانيها أن يكون المعنى: فغشيَهم من اليم ما غَشِى موسى وأصحابَه ؛ وذلك أن موسى عليه السلام وأصحابَه، وفرعون وأصحابَه سلكوا جميعًا البحر، وغشِيهم كلّهم؛ إلّا أنّ فِرْعون وقومه لمّا غشيهم غرّقهم ، وموسى عليه السلام وقومُه جُعِلَ لهم فى البحر طريق يَبَس ، فقال تعالى: فَغَشِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ من ماء اليم ما غشِى موسى وقومَه ، فنجا هؤلاء ، وهلَك هؤلاء . وعلى هذا الوجه والتأويل تكون الهاء فى قوله : ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ كناية عن غيرِ مَنْ كنّى عنه بقوله: ﴿ فَغَشِيَهُمْ ﴾؛ لأن الأولى كنايةٌ عن فِرعون وقومه ، والثانية كناية عن موسى وقومه .

وثالثها أنه غشيَهم من عذاب اليمّ وإهلاكه لهم ما غَشِىَ الأمم السالفة من العذاب

والهلاك عند تكذيبهم أنبياءهم ، وإقامتهم على ردّ أقوالهم والعدول عن إرشادهم ، والأمم السالفة؛ وإن لم يغشهم العذاب والإهلاك من قِبَل البحر، فقد غشيهم عذابٌ وإهلاك استحقوهما بكفرهم وتكذيبهم أنبياءهم ، فشبَّه بينه وبين هؤلاء من حيث اشتمالُ العذاب على جميعهم عقوبةً على التكذيب .

ورابعها أن يكون المعنى: فغشيَهم من قِبَل اليم ما غشيَهم من العطَب والهلاك ؛ فتكون لفظة ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ الأولى للبحر والثانية للهلاك والعطب اللذيْن لحقاهم من قبل البحر .

ويمكن في الآية وجه آخر لم يُذكر فيها، يليق بمذاهب العرب في استعمال مثل هذا اللفظ، وهو أن تكون الفائدة في قوله تعالى: ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ تعظيمَ الأمر وتفخيمَه ؛ كما يقول القائل: فعل فلانٌ ما فعل ، وأقدم على ما أقدم ، إذا أراد التفخيم وكما قال تعالى: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ ؛ [الشعراء: ١٩] ، وما يجرى / هذا المجرى ؛ ويدخل في هذا الباب قولهم [١١٧ و] للرجل : هذا هذا، وأنت أنت . وفي القوم : هم هم ؛ قال الهذلي[(١)]:

رَفَوْنِي وقالوا : يا خُوَيْلِدُ لا تُرَعْ   فقلتُ،وأنكَرْتُ الوجوهَ: هُمُ هُمُ[(٢)]

وقال أبو النجم :

* أنا أبو النَّجْمِ، وشِعْرِي شِعْرِي[(٣)] *

كل ذلك أرادوا تعظيمَ الأمر وتكبيرَه :

(١) هو أبو خراش الهذلي .   (٢) ديوان الهذليين ٢ : ١٤٤ . ورفوني : سكنوني ، وأصلها : « رفئوني » ، بالهمز .   (٣) معاهد التنصيص ، وبعده :

* لِلهِ دَرِّي ما يُجِنُّ صَدْرِي *

تأويل آية أخرى

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ؛ [النحل : ٢٦] فقال : ماالفائدة في قوله: ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ؛ وهو لايفيد إلا مايفيده قوله: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ﴾ ؛ لأنَّ مع الاقتصار على القول الأول لا يذهب وَهْمُ أحدٍ إلى أن السقف يخرُّ من تحتهم ؟

الجواب ، قيل له في ذلك أجوبة :

أوّلها : أن يكون « على » بمعنى «عَنْ» ، فيكون المعنى : فخرّ عنهم السقفُ من فوقهم ؛ أى خرّ عن كفرهم وجحودهم بالله تعالى وآياته ، كما يقول القائل : اشتكى فلان عن دواء شربه ، وعلى دواء شربه ، فيكون « على » و «عن» بمعنى من أجل الدّواء ؛ كذلك يكون معنى الآية فخرّ من أجل كفرهم السَّقفُ من فوقهم ؛ قال الشاعر :

أرْمِى عليها وهىَ فرْعٌ أجْمَعُ ... وهْىَ ثلاثُ أذْرُعٍ وإصْبَعُ

أراد : أرمِى عنها ؛ لأن كلام العرب: رميت عن القوس ، فأقام «على» مقام «عن»، ولو أنه قال تعالى على هذا المعنى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ﴾، ولم يقل ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ جاز أن يتوهم متوهمٌ أن السقفَ خرَّ وليس هُمْ تحته.

وثانيها : أن يكون «على» بمعنى اللام ؛ والمراد : فخر لهم السقف ؛ فإن «على» قد تقام مقام اللام ؛ وحكى عن العرب : ما أغيظك علىَّ ! وما أغمّك علىَّ ! يريدون : ما أغيظك ، وما أغمّك لى ! ، قال الطِّرِمّاح يصف ناقة :

كأنَّ مُخوّاها على ثَفِناتِها ... مُعَرَّسُ خَمْسٍ وُقِّعَتْ للجناجِنِ(١)

(١) ديوانه: ١٦٨ . يقال : خوى البعير ؛ إذا تجافى فى بروكه ومكن لثفناته ، والثفنات : جمع ثفنة ؛ وهو من البعير ركبته، ومامس الأرض من كركرته وأصول أفخاذه ، والمعرس: محل التعريس ، وهو النزول ==

أراد: وُقِّصَتْ على الجناجن ؛ وهى عظام الصدر ، فأقام اللام مقام «على».

وقد يقول القائل أيضا : تداعتْ على فلان دارُه ، واستهدم عليه حائطُه ، ولا يريد أنه كان تحته ؛ فأخبر تعالى بقــوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ عن فائدةٍ ؛ لولاه ما فهمت. ولا جاز أنْ يتوهَّمَ مُتوهِّم فى قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ﴾ ما يتوهمه من قوله : خرِب عليه رَبعُه ، ووقفتْ عليه دابتُه ، وأشباه ذلك.

[١١٧ ظ] وللعرب فى هذا مذهب ظريف لطيف ؛ / لأنهم لا يستعملون لفظة «على» فى مثل هذا الموضع إلا فى الشرّ والأمر المكروه الضارّ ، ويستعملون اللام وغيرها فى خلاف ذلك ؛ ألا ترى أنهم لا يقولون : عَمرَتْ على فلان ضيعتُه، بدلا من قولهم : خرِبت عليه ضيعته ، ولا ولدَت عليه جاريتُه ؛ بل يقولون : عَمرَت له ضيعته ، وولدت له جاريته ؛ وهكذا من شأنهم إذا قالوا : «قال عليَّ»؛ و «روَى عليَّ»؛ فإنه يقال فى الشرّ والـكذب ، وفى الخير والحق؛ يقولون : «قال عنِّى»و«روَى عنِّى»؛ ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ ؛ [البقرة : ١٠٢] ، لأنهم لما أضافوا الشرّ والـكفر إلى مُلك سليمان حَسُنَ أن يقال: « يَتلونَ عليه » ، ولو كان خيرا لقيل عنــه ، ومثله ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْـكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ [آل عمران : ٧٥] ، وقــوله : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، [يونس : ٦٨] ؛ وقال الشاعر[١] :

عَرَضْتُ نَصيحةً مِنّى لِيَحْيَى ... فقال : غَشَشْتَنِى، والنُّصْحُ[٢] مُرُّ

ومابى أنْ أكونَ أعيبُ يَحيى ... ويَحيَى طاهِرُ الأخـلاقِ بَرُّ

= آخر الليل. وفى حاشية الأصل: « يعنى كأن تجاوف أعضائها المتجافية عند البروك معرس خمس أنوق »؛ والبيت برواية القالى (الأمالى ٣ : ١٦٠) :

لَهَا ثَفِنَاتٌ تَحْتَهَا وَقِصَارُهَا ... عَلَى مَشْرَةٍ لم تَعْتَلِقْ بالمَحاجِنِ

(١) فى حواشى الأصل ، ت ، ف : « كان رجل من بنى حنيفة يقال له يحيى ، يجىء إلى امرأة يقال لها بهاء فى قرية من قرى اليمامة ، فنهاه ابن أرطاة الأعرجى عنها، فلم يقبل إلى أن رصد فجرح ، فقال الأعرجى: عرضت ... الأبيات ».

(٢) الأبيات فى الـكامل ١ : ١٠٨ — بشرح المرصفى .

ولـكِنْ قدْ أتانى أنَّ يحيى يقالُ عليهِ فى بَقْعاء شَرُّ[١]
فقلتُ لهُ : تجنَّبْ كلَّ شيء يُعاب عليكَ ، إنَّ الحرَّ حُرُّ

ومثله قول الفرزدق فى عَنْبَسة بن مَعْدان المعروف بعنبسة الفيل — وقد كان يَتَتَبَّعُ شعره ويخطِّئه ويلحِّنه :

لقدْ كانَ فى مَعْدانَ والفيلِ زاجرٌ لِعنبَسَةَ الراوِى علىَّ القصائدَا

فقال : « علىَّ » ولم يقل : « عنِّى » للمعنى الذى ذكرناه .

وثالث الوجوه أن يكون ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ تأكيداً للكلام وزيادة فى البيان، كما قال تعالى: ﴿وَلَـكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فى الصُّدُورِ﴾ ؛ [الحج : ٤٦] ، والقلب لا يكون إلّا فى الصدر ؛ ونظائرُ ذلك فى الكتاب وكلام العرب كثيرة[٢] .

---

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « بقعاء فى البيت : اسم امرأة . وبقعاء : ماء بالبادية ، قالت امرأة من العرب :

وَمَنْ يُهْدِ لِى مِنْ مَاءِ بَقْعَاءَ شَرْبَةً فإنَّ له من ماء لِينةَ أرْبعَا
لَقَدْ زَادَنِى حُبًّا لِبَقْعَاءَ أنَّنِى رأيتُ مطايانَا بِلِينَةَ ظُلَّعَا
فَمَنْ مُبْلِغٌ أُخْتِىَ بالرَّمْلِ أنَّنِى بَكَيتُ فَلَمْ أتْرُكْ بعَيْنَىَّ مَدْمَعَا !

— بقعاء ماؤها زعاق ، وماء لينة عذب ، وإنما تشكو لينة؛ لأن زوجها حلها إليها وهو عنين ، فذلك قولها :

* رَأيْتُ مَطايَانـا بِلِينةَ ظُلَّعَاَ *

ومثله :

تَظَلُّ المطايَا حَائداتٍ عن الهُدَى إذَا مَاالمطايَا لم تَجِدْ مَنْ يُقيمُهَا

(٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « من ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ ، وقوله عزمن قائل : ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ .

تأويل خبر

إن سأل سائل عن الخبر الذى يَرويه نافعٌ عن أبى إسحاق الهَجَرِىّ عن أبى الأحوَص، عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله أنَّه قال: « إنّ هــذا القرآن مأدُبة الله، فتعلَّمُوا مأدُبَتَه ما استطعتم؛ وإنّ أصْفرَ البيوت لَجَوْفٌ[1] أصفرَ من كتاب الله تعالى »

فقال: ما تأويله؟ وكيف بيان غريبه؟.

[١١٨ و] الجواب؛ قلنا: المأدُبة فى كلام العرب هى الطعام، يصنعه[2] الرجلُ ويدعو / الناس إليه؛ فشبه النبىّ صلى الله عليه وآله ما يكتسبه الإنسانُ من خيرِ القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه وحفظه؛ بما يناله المدعوّ من طعام الداعى وانتفاعه به؛ يقال: قد أدَبَ الرجلُ يأدِب فهو آدب؛ إذا دعا الناسَ إلى طعامه. ويقال للمأدُبة المدْعاة؛ وذكر الأحمر أنه يقال فيها أيضا: مأدَبة، بفتح الدال؛ قال طرَفة:

نحنُ فى المَشْتاةِ نَدْعو الجَفَلَى ... لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ[3]

ومعنى « الجَفَلَى » أنه عَمَّ بدعوته ولم يَخُصَّ بها قوماً دون قوم، والنَّقَرى إذا خصَّ بها بعضاً دون بعض، ومعنى « ينتقر » من النَّقَرَى؛ قال بعض هُذَيل:

ولَيلةٍ يَصْطَلِى بالفَرْثِ جازِرُها ... يَخْتَصُّ بالنَّقَرَى المثْرِينَ دَاعِيها[4]

لا يَنْبَحُ الــكلْبُ فيها غيرَ واحِدَةٍ ... عِنْدَ الصَّباحِ ولا تَسْرِى أفاعِيها

معنى « يَصْطَلِى بالفرث جازِرُها » أن الجازِرَ إذا شقَّ فيها الكِرْش أدخلَ يدَه لشدّة البرد فى الفرث مستدفئاً به. ومعنى: « يختصّ بالنَّقَرَى المثرِين داعيها »؛ أنه يخصّ بدعائه إلى طعامه الأغنياء الذين يطمع من جهتهم فى المكافأة، وقال الآخر:

---

(١) حاشية ت (من نسخة): « لبيت ». (٢) ت: « يضعه ».

(٣) ديوانه: ٦٨ (٤) البيتان من مقطوعة فى (ديوان الهذليين ٣: ١٢٦)، منسوبة إلى جنوب فى رثاء أخيها عمرو ذى الكلب.

قَالُوا ثَلاثَاؤُهُ خِصْبٌ ومأْدُبَةٌ   فَكُلُّ أَيَّامِهِ يَوْمُ الثُّلاثَاء

وقال الهذلى[١] يصف عُقاباً :

كأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ فى جَوْفِ وَكْرِهَا   نَوَى القَسْبِ يُلْقَى عِندَ بَعْضِ المآدِبِ[٢]

أراد جمع مأْدُبة .

وقد رُوى هذا الحديث بفتح الدال «مأْدَبة» ، وقال الأحمر : المراد بهذه اللفظة مع الفتح هو المراد بها مع الضمّ .

وقال غيره : المأْدَبة ، بفتح الدال « مَفْعَلة » من الأَدَب ؛ معناه أنّ الله تعالى أنزل القرآن أَدَباً للخلق ، وتقويماً لهم ، وإنما دخلت الهاء فى مأْدُبة ومأْدَبة، والقرآن مذكّر، لمعنى المبالغة ؛ كما قالوا : هذا شراب مَطْيَبَةٌ للنفس ؛ وكما قال عنترة :

* والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ[٣] *

وجرى ذلك مجرى قولهم: رجلٌ علّامة ونسّابة / فى باب المدح على جهة التشبيه بالداهية، [١١٨ ظ] ورجل هِلْباجة[٤] فى باب الذم على جهة التشبيه بالبهيمة . ويقال لطعام الإملاك : وليمة ، ولطعام الختان : العَذِيرة ، ولطعام الزِّفاف: العُرْس ، ولطعام بناء الدار : الوَكيرة ، ولطعام حَلْق[٥] الشعر : العقيقة ، ولطعام القادم من السفر : النَّقيعة ، ولطعام النِّفاس : الخُرْسُ ، والذى تُطْعَمُهُ النُّفَساء : الخُرْسَة ، قال الشاعر :

إذَا النُّفَسَاءُ لَم تُخَرَّسْ بِبِكْرِهَا   غُلاماً ولم يُسْكَتْ بِحِتْرٍ فَطِيمُهَا[٦]

الحِتْر : الشىء القليل ، وقال آخر :

---

(١) هو صخر الغى .   (٢) ديوان الهذليين ٢ : ٥٥ ، والقسب : التمر اليابس يتفتت فى الفم .

(٣) من المعلقة ، ص ٢٠١ — بشرح التبريزى ؛ وصدره :

* نُبِّئْتُ عَمْرًا غيرَ شاكِرِ نِعْمَتِى *

(٤) الهلباجة : الفدم الضخم الأكول .   (٥) حاشية ت (من نسخة) : « حلق الرأس » .

(٦) ت : « بحتر » والبيت للأعلم الهذلى ؛ كما فى اللسان (خرس — حتر) ، وهو أيضا فى المقاييس ٢ : ١٦٧ ، وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « كأنه يصف سنة ، وأن النفساء المنفوسة بالبكر الغلام لاتخرس ، ولا يسكت فطيمها بأدنى شىء » .

كلَّ الطَّعامِ تَشتَهي رَبيعهْ   الخُرْسَ والإعذارَ والنَّقيعهْ(١)

وروى: «العُرْس» . ويُنشَد أيضاً فى النقيعة قول الشاعر :

إنَّا لَنضرِبُ بالسُّيوفِ رُءوسَهُمْ   ضَرْبَ القُدَارِ نَقيعةَ القُدَّامِ(٢)

والقدار : الجزَّار . والقُدَّام : جمع قادم .

وقال أبو زيد : يقال لطعام الإملاك : النَّقيعة ، ولطعام بناء الدار : الوَكِيرة ، ولطعام الخِتان : الإعذار والعَذِيرة .

وقال الفرّاء : الشُّنْدُخِيُّ(٣) : طعام الإملاك ، والوليمة : طعام العُرْس .

وقال أبو زيد : يقال من النَّقيعة نَقَعتُ . وقال الفراء : منها أنقَعْتُ .

وقال ابن السِّكِّيت : يقال للطعام الذى يتعلّل به قُدَّام الغداء؛ السُّلْفة واللُّهْنة ؛ يقال: الأصمعىّ : فلان لَهِنُوا ضيفَكم ، أى أطعِموه اللُّهْنة ، قال الشاعر :

عُجَيِّزٌ عارِضُها مُنْفَلّْ   طَعامُها اللُّهْنةُ أو أقَلّْ(٤)

وقال ابن السِّكِّيت : يقال فلان يأكل الوَزْمة إذا كان يأكل أكلةً فى اليوم . وقال يأكلُ الوجبةَ ، إذا كان يأكل فى اليوم والليلة أكلة ، قال بشار :

فاستَغْنِ بالوَجَباتِ عنْ ذَهَبٍ   لم يَبْقَ فيهِ لامرئٍ ذَهَبَهْ

وقال ابن السِّكِّيت : قال الأصمعىّ لرجل أسرع فى سيره : كيف كان سيرُك ؟ فقال :

(١) البيتان فى اللسان (خرس) .

(٢) البيت فى اللسان (قدر) ، ونسبه إلى المهلهل ، وفى حاشية الأصل : « هذا من باب تسمية الشىء بما يئول إليه ؛ أى اللحم الذى يصير نقيعا ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ .

(٣) ت : « الشندخى » ، بضم الشين وفتح الدال ، وفى د ، وحاشية ت (من نسخة) : « الشندخى » ، بضم الشين مع الألف المقصورة ، وفى جـ ، ش : الشندخى » ، بفتح الشين وضم الدال . وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « رواه الأزهرى الهروى عن الفراء « الشنداخى » ، وهو الصحيح، وقال : هو طعام البناء » .

(٤) البيتان فى اللسان (فلل) ؛ والثانى فى اللسان أيضا (لهن) ، ونسبه إلى عطية الدبيرى . العارض : السن التى فى عرض الفم ، وانفل : تكسر .

كنت آكلُ الوَجْبة، وأنجو الوَقْعة ، وأعرِّسُ إذا أفجَرْتُ ، وأرتحل إذا أسفرت ، وأسير الوضْع ، وأجتنب / المَلْع ، فجئتكم لِمُسْى سَبْع . [١١٩ و

قوله : « أنجو الوَقْعة » ، معناه أقضى حاجَتى مرة فى اليوم، وهو من النَّجْو.

وقوله: «أسير الوَضْع» ، فالوضعُ: سيرٌ فيه بعض الإسراع ، والمَلْعُ: سيرٌ أشدّ منه ، فأراد أنه يجتنب الشديدَ من السير ؛ كراهةَ أن يقف ظهرُه قبل أن يبلغَ الأرض التى يقصد لها ؛ ويقال: شرُّ السَّيْرِ الحَقْحَقَة ، أى السيرُ الحديد[١] الذى يقطع صاحبَه عن بلوغ بغْيته ، قال الشاعر :

إذَ ما أرَدْتَ الأرْضَ ثمَّ تَباعَدَتْ ... عليكَ فضَعْ رَحْلَ المطيَّةِ وانزِلِ

أى استرح حتى تقوَى على السير ، فإن جَهَدْت نفسَك لم تقطعْ أرضاً ، ولم تُبْقِ ظهراً؛ وهذا من أبيات المعانى التى يُسأل عنها ، والذى قيل فيه ما ذكرناه . ويمكن أن يكون معنى البيت : إذا بعدت عليك أرضٌ فدعْها واسْلُ عنها ؛ كما يقال : دواءُ ما عزَّ مطلبه الصَّبر ؛ وما جَرَى مجرى ذلك من ألفاظِ التسلية؛ والأمر بالعدول عن تتبُّع ما صعب من الأمور[٢] .

وقال الآخر فى معنى البيت الأول :

نُقَطِّعُ بالنُّزُولِ الأرْضَ عَنَّا ... وبُعْدُ الأرْضِ يَقْطَعُهُ النُّزُولُ

وقوله: «لِمُسْى سَبْع»، معناه لمساء سبع ليال .

ويقال للذى يحضرُ طعامَ القوم من غير أن يدعُوه إليه : الوارِش والوَرُوش . وقول العامة : طُفَيْلىّ مولَّد لا يوجد فى العتيق من كلام العرب ، وأصلُ ذلك أن رجلاً يقال له طُفَيْل، كان بالكوفة لا يَفْقِد من وليمة من غير أن يدعى إليها ، فقيل للوارش : طُفَيلى؛ تشبيها بطُفَيْل هذا فى وقته .

---

(١) ت ، د ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « الشديد » .

(٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « مثله : أرخص مايكون النفط إذا غلا ؛ يعنى أنه لا يشترى فيكون رخيصا » .

ويقال للذي يحضرُ شرابَ القوم من غير أن يُدْعَى إليه واغلٌ ؛ قال امرؤ القيس :

فاليومَ فاشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثمًا من اللهِ ولا واغِلِ[1]

ويقال لما يشرب به الواغِلُ : الوغْل ، قال الشاعر :

إنْ أكُ مِسْكِيرًا فلا أشرَبُ الْـــوَغْلَ ولاَ يَسْلَمُ مِنّي البَعِير[2]

وقوله صلى الله عليه وآله : «إنَّ أصفرَ البيوت لَجَوْفٌ أصفَرُ من كتاب الله» ، معناه : أخلَى البيوت/ ؛ والصِّفْر عند العرب : الخالي ؛ من الآنية وغيرها . ويمكن في قوله : «مأدبة» وجهٌ آخر ؛ وهو أن يكون وجــه التشبيه للقرآن بالمأدُبة وتسميته بها من حيث دعا الخلقَ إليه ، وأمرَهم بالاجتماع عليه ، فسماه عليه السلام « مأدُبة » لهذا الوجه ، لأن المأدُبة هي التي يُدْعَى الناس إليها ، ويجتمعون عليها ؛ وهذا الوجه يخالف الأول ، لأن الأول تضمّن أنَّ وجهَ التشبيه من حيث النفعُ العائد على الحافظ للقرآن كما ينتفع المدْعوّ إلى المأدُبة بما يصيبه من الطّعام . وهذا الوجه الآخر تضمّنَ أن التشبيه وقع لاجتماع الناس في الدعاء إليه ، والإرشاد إلى إصابته . وليس يبعد أن يريد عليه السلام بالخبر المعنيَيْن معاً ، فلا تنافيَ بينهما[3] . [١١٩ ظ]

* * *

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دُرَيْد قال أخبرنا أبو حاتم قال :

---

(١) ديوانه : ١٥٠ ، والرواية فيه :

* فاليومَ أُسْقَى غيرَ مُسْتَحْقِبٍ *

وفي حاشية ت (من نسخة) :

* فاليَوْمَ أَشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ *

(٢) اللسان (وغل) ، ونسبه لعمرو بن قميئة .

(٣) في حاشيتي الأصل ، ف : « ويمكن أن يكون في معنى الخبر وجه آخر ، وهو أنه عليه السلام إنما شبه القرآن بالمأدبة لما اشتملت عليه المأدبة من أنواع الأطعمة ، من الحلو والحامض والمالح وغير ذلك مما لا يكون في غير المآدب ، فكذلك القرآن يشتمل على أنواع من العلوم لا توجد في غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ، وهذا وجه عن الشيخ الإمام جمال الدين أبي الفتوح الرازي رحمه الله في أثناء الدرس ، وهو أقرب وأشبه من الوجهين المذكورين » .

كُنّا في مجلس الأصمعيّ إذ أقبل أعرابيٌّ فقال : أين عميدُكم ؟ فأشرنا إلى الأصمعي ، فقال له : ما معنى قول الشاعر :

لاَ مَالَ إلاَّ العِطافُ تُؤْزِرُهُ ... أُمُّ ثَلاثِينَ وابنةُ الجَبَلِ [(١)]
لا يَرْتَقِي النزُّ في ذَلاذِلِهِ ... ولا يُعَدِّى نَعْلَيهِ مِن بَلَلِ [(٢)]

فقال الأصمعيّ :

عُصْرَتُهُ نُطْفَةٌ تَضَمَّنها ... لِصْبٌ تَلقَّى مواضِعَ السُّبَلِ
أوْ وَجْبةٌ مِن جَناةِ أَشْكَلَةٍ ... إن لمْ يَرُغْها بالقوسِ لمْ تُنَلِ [(٣)]

قال : فأدبر الأعرابيّ وهو يقول : لم أرَ كاليوم عُضْلَةً[(٤)].

قال ابن دُرَيْد : إنما وصف رجلا خائفا في رأس جبل ؛ يقول: لا مال له إلاّ العِطاف — وهو السَّيف — تُؤْزِرُه أمُّ ثلاثين ؛ يعني كِنانةً فيها ثلاثون سهما . وابنة الجَبَل ؛ يعني القوس ، لأنها تعمَل من شجر الجبال مثل النَّبْع وغيره .

وقوله : « لا يرتقي النزُّ في ذَلاذله » ، لأنه في رأس جبل ؛ فلا نَزَّ هناك يتعلق بما يفضُل من ثيابه ، ولا بَلَلٌ يُعدِّي نعليه عنهما .

والعُصْرة : المَلْجَأ . والنُّطفة : الماء المجتمع في صخر أو غيره من بقيّة ماء المطر . واللِّصْب : الشَّق في الجبل أضْيَقُ من اللِّهْب[(٥)] وأوسع من الشِّعْب . والسُّبل : المَطَر .

والوجبة : أن يأكل كلّ يوم مرة . والأشْكل : السِّدر الجبليّ ، واحده أشْكَلة ؛ يقول :

---

(١) الأبيات في اللسان (عطف) ، وروى عن ثعلب أنها في وصف صعلوك . وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « أصل العطاف الرداء ؛ فشبه به السيف » ، وتؤزره : تعينه .

(٢) النز : الماء الذي يتحلب من الأرض والذلاذل : أسافل القميص الطويل . (٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « يرغها » بفتح الياء وضم الراء ، وفيها : « أراغ معناه طلب ، وراغ : مال ؛ يقال : راغ إليه ؛ فحذف حرف الجر ، وأوصل الفعل ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ﴾ » .

(٤) العضلة : الداهية ؛ يقال : فلان عضلة وعضل ، أي شديد داهية .

(٥) اللهب : الطريق بين الجبلين .

[١٢٠] فهذه النطفة والوَجْبة من الأشكلة/ عُصِرَتاه . وقوله : « إن لم يُرِغْها بالقوس » ؛ يعنى أنها لا تُنال باليد حتى تُحَرَّك بالقوس .

قال سيدنا أدام اللهُ علوَّه : وإنما جعل الأصمعىّ إنشاد باقى الأبيات دلالة على معرفة معناها ؛ لأنه يبعد أن يعرفها ولا يعرف معناها ، والأعرابىّ إنما سأل عن المعنى ، فأقام إنشادَه لما مقامَ تفسيرها ، واستغنى الأعرابى بذلك وعلم بإتمامه للأبيات معرفتَه بمعانيها .

وكان الأصمعى كثيرا إذا أُنشِد شيئا من الشعر يُنشد فى معناه فى الحال ، فمن ذلك أن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ أنشده يوما لنفسه :

إذا كانتِ الأحرارُ أصلى ومَنْصِبى وقامَ بنَصرى خازِمٌ وابنُ خازمِ
عَطَسْتُ بأنفٍ شامخٍ وتناوَلَتْ يَدَاىَ الثُّرَيَّا قاعِداً غيرَ قائمِ

قال : فلما فرغتُ من إنشادها أنشد بعقِبِ ذلك :

ألا أيُّها السائلى جاهِلاً لِيَعرِفَنى ، أنا أنفُ الكرَمْ
نمَتْ فى الكِرامِ بنى عامرٍ[(١)] فُرُوعى وأصلى قُرَيْشُ العجم[(٢)]

قال : فجاء والله بالشعر الذى نحوتُه وعملتُ بيتى عليه .

وأخبرنا أبوعبيد الله المرزبانىّ قال حدثنا محمد بن يحيى الصولىّ قال حدثنا عوْن بن محمد قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال : ما أنشدت الأصمعىّ شيئا قط إلا أنشدنى مثله ؛ كأنه أعدَّه لى ، فأنشدته يوما للأعشى :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رَجُلاً غَيرِى وعُلِّقَ أُخرَى غيرَها الرَّجُلُ[(٣)]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) :

* نمَتْ فى الكِرامِ بنُو عامِرٍ *

(٢) حاشية الأصل : « يقول : أصلى قريش الذين يسكنون بلاد العجم وفرعى بنو عامر ؛ كأن أباه قرشى وأمه عامرية » .

(٣) ديوانه : ٤٣ ، وفى حاشية الأصل : « أى عشقتها اعتراضا لاقصدا واعتزاما ، ومثله :

جُنِنْتُ بِلَيْلَى وَهْىَ جُنَّتْ بِغَيْرِنَا وأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نُرِيدُها

فأنشدنى من وقته :

قَتَلَتْكَ أُخْتُ بنى لؤىٍّ إذْ رَمَتْ ... وأصابَ نَبْلُكَ إذْ رَمَيْتَ سِواها(١)
وأعارَها الحَدَثانُ مِنْكَ مَوَدَّةً ... وأعارَ غَيْرَكَ وُدَّها وهَواها

وذكر أبو العيناء قال: كان الأصمعىّ إذا سَمِع إنسانا يُنشد شعراً فى معنى أنْشَد فى ذلك المعنى من غير أن يُريه أنه أراده ، فأنشده رجل قولَ القُطامىّ :

[١٢٠ ظ] / والناسُ مَن يلْقَ خيْرًا قائلون لهُ ... ما يَشْتَهِى، ولأُمِّ المُخْطِىءِ الهَبَلُ(٢)

فأنشد هو قول قَعْنَب الفَزَارىّ :

فمَنْ يلْقَ خيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أمْرَهُ ... ومَنْ يَغْوِ لا يَعْدَم على الغىِّ لائما(٣)

وروى ميمون بن هارون قال : سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول: أنشدت الأصمعىّ قول الأعشى، طالباً أن ينشدنى مثله ــ وكان مع بخله بالعلم لا يَضَنّ بمثل هذا :

إنْ تَرْكَبوا فركوبُ الخيلِ عادَتُنا ... أوْ تَنْزِلونَ فإنّا مَعْشَرٌ نُزُلُ(٤)

فأنشدنى لربيعة بن مقروم الضبىّ :

ولقدْ شَهِدْتُ الخيلَ يومَ طِرادِها ... بسَليمِ أوْظِفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ(٥)
فدَعَوْا نَزالِ ، فكنتُ أوّلَ نازلٍ ... وعلامَ أرْكَبُهُ إذا لمْ أنزِلِ !

ورُوِى عن إسحاق بن إبراهيم أيضا أنه قال : دخل يوماً إلىَّ الأصمعىّ ، وعندى أخ

(١) البيتان لعدى بن الرقاع ؛ وهما فى مجموعة المعانى ٩٢ ، ومعجم البلدان ٨ : ٢٠٤ .

(٢) جمهرة الأشعار : ٣٠٣ ؛ وفى حاشية الأصل : « يقول : من أصاب مالا قيل له مايشتهى ولا يخالف ، ومن تجاوزه المال خولف فى كل شىء ولِمَ » . (٣) كذا ذكره المؤلف ؛ ونسبه المفضل الضبى إلى المرقش الأصغر ، وانظر المفضليات: ٢٤٧ (طبعة المعارف). (٤) ديوانه : ٤٨ ، وروايته :

* قالُوا الرُّكُوبَ فقُلْنا تلك عادَتُنا *

(٥) خزانة الأدب ٣ : ٥٦٠ . الأوظفة : جمع وظيف ، وهو مستدق الذراع والساق من الخيل . والهيكل : الضخم المشرف .

للعُمانىّ الراجز، حافظٌ راوية ، فلما دخل عَبثَ بهِ أخو العُمانى[١] ، فقال له: من هذا ؟ قال: هو الباهلىّ الذى يقول[١] :

فمـا صَحْفةٌ مأدُومةٌ بإهالةٍ   بأطيَبَ مِن فيها ولاأقِطٌ رَطْبُ[٢]

فقال له قبل أن يستتم كلامَه : هو على كلّ حال أصلح من قول أخيك العُمانىّ :

يا رُبَّ جاريةٍ حوزَاء ناعمةٍ   كأنَّها عُومةٌ فى جوفِ راقُودِ[٣]

قال إسحاق : فقلت له : أ كنتَ أعددتَ هذا الجواب ؟ قال : لا ، ولكن ما مرَّ بى شىء إلا وأنا أعرِف منه طرَفاً .

(١ ــ ١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « فقال : من هذا الباهلى الذى يقول » .

(٢) الصحفة : قصعة دون الجفنة . والإهالة : الشحم المذاب . والأقط : شىء يتخذ من المخيض الغنمى .

(٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « العومة : دويبة تسبح فى الماء ، كأنها فص أسود مدملك . والعومة : ضرب من السمك معروف » . والراقود : دن كبير .

٢٧ مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ؛ [التوبة : ٣٠] .

فقال : أيّ معنى لقوله : ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ومعلومٌ أنّ القول لا يكون إلا بالأفواه ؟ .

الجواب ، قلنا : القَوْل يحتمل معنيين فى لغة العرب : أحدهما القول باللِّسان، والآخر بالقلب، فالقول الذى يضاف إلى القلب هو الظَّنّ والاعتقاد، ولهذا المعنى ذهبت العربُ بالقول مذهبَ الظَّنّ / فقالوا : أتقول عبدَالله خارجاً ؟ ومتى تقول محمدا منطلقا؟ يريدون: متى تظن؟ [١٢١] قال الشاعر :

أما الرَّحيلُ فدُونَ بَعْدِ غدٍ … فمَتى تقولُ الدَّار تَجمَعُنا!(١)

أراد : فمتى تظن الدار ! وقال الآخر :

أجُهّالاً تقولُ بنى لُؤَيٍّ … لَعَمْرُ أبيكَ أم مُتجاهِلينا!(٢)

أراد : تظن بنى لؤيّ ، وقال تَوْبَة بن الحُمَيِّر :

ألَا يا صَفِيَّ النَّفْسِ كيفَ تقولُها … لوَ انَّ طَريداً خائفاً يستَجيرُها(٣)

(١) البيت لعمر بن أبى ربيعة ، ديوانه : ٣٩٤ . (٢) البيت للكميت بن زيد الأسدى ؛ وهو من (شواهد ابن عقيل على الألفية ١ : ٣٩٢)، وفى حاشية الأصل : « لا يجوز أن تنصب جهالا بتقول إذا جعلته على معنى القول ، لأن القول لا يتعدى إلى ما كان مما لا يندرج تحت السمع ، والجهال جثث، فلا يتأتى ذلك فيها ، فلا بد أن يكون ثان بمعنى ظن ، ولهذا يصح أن تقول : سمعت زيدا يقرأ ويقول ويتكلم ويشعر ، ولا تقول : سمعت زيداً يضرب ؛ لأن السمع يقع على ما يسمع » .

(٣) البيتان من قصيدة طويلة ؛ ذكرت بتمامها فى تزيين الأسواق ٩٦ــ٩٨ .

تُخَبِّرُ إنْ شَطَّتْ بِهاغُرْبةُ النَّوَى　　سَتَنْعِمُ لَيلى أوْ يُفَكُّ أسِيرُها(١)

أراد : كيف تظنها؟ فلما كان القول يستعمل في الأمرين معاً أفاد قوله تعالى: ﴿ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ قَصْرَ المعنى على ما يكون باللسان دون القلب ، ولو أطلق القول ، ولم يأت بذكر الأفواه لجاز أن يُتوهَّم المعنى الآخر :

• ومما يشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؛ [المنافقون : ١] ، فلم يكذِّب الله تعالى قولَ ألسنتهم : لأنهم لم يخبروا بأفواههم إلاَّ بالحق، بل كذَّب ما يرجع إلى قلوبهم من الاعتقادات .

ووجه آخر وهو أن تكون الفائدة في قوله تعالى : ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أنَّ القول لا برهانَ عليه ، وأنه باطلٌ كذبٌ لا يُرْجع فيه إلاَّ إلى مجرَّد القول باللسان؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه الحقَّ والباطل ، وإنما يكون قولُه حقًّا إذا كان راجعاً إلى قلبه، فتكونُ إضافة القول إلى اللسان تقتضِي ما ذكرناه من الفائدة ، وهذا كما يقول القائل لمن يشكّ في قوله أو يكذبه: هكذا تقولُ بلسانك، وليس الشأن فيما تقوله وتتفوَّه به وتقلِّب به لسانك؛ فكأنَّهم أرادوا أن يقولوا : هذا قول لا برهانَ عليه ، فأقاموا قولهم : هكذا تقول بلسانك ، وإنما يقولون كذا بأفواههم مُقام ذلك ؛ والمعنى أنه قول لا تعضُدُه حجّة ولا برهان ، ولا يُرجع فيه إلا إلى اللسان .

(١) حواشي الأصل ، ت ، ف : « في ديوانه : « تجير وإن شعلت » ، يخاطب الشاعر صديقا له فيقول : ياصفيّ نفسي ، كيف تظن ليلى الأخيلية لو استجار بها مستجير ! ثم استأنف فقال : هي تجير وإن كانت قد عذبتنا بالفراق ، ثم قال : ستنعم ليلى أو يفادى أسيرها ، ويعني بالأسير نفسه ، أي ستجود يوما أو أفتدي نفسي منها ، هذا إذا روى : « تجير وإن شعلت » ، وكذلك هو في ديوانه ، وأما وجه مارواه السيد : « تخبر » ، فمعناه : تخبرني أنت ياصفيّ نفسي إن تناءت أنها ستنعم ، وإن رويت : « أن شطت » بالفتح كان المعنى : لأن تناءت . وعلى ماذكره السيد رضي الله عنه يمكن أن يذكر فيه وجه آخر ؛ وهو أنه يقول ويخاطب صديقاً له : كيف تظنها لو أني استجرت بها ! كنى عن نفسه بالخائف المستجير ثم يقول : تخبر ياخليلي ، يعني أني أعلم أنك تقول : هي إما أن تنعم بالوصال أو أنا أسلو ؛ وهذا معنى : « يفك أسيرها » ، لأنه إذا سلا فقد فك أسره ؛ وهذا الوجه الأخير مستفاد من ملك النحاة » .

ووجهٌ آخر ، وهو / أن تكون الفائدة فى ذلك التأكيد ، فقد جرت به عادة العرب [١٢١ ظ] فى كلامها ، وما تقدم من الوجهين أولى ؛ لأنَّ حَمْل كلامه تعالى على الفائدة أولَى من حمله على ما تسقط معه الفائدة .

تَأويلُ آيةٍ أُخْرَى

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ؛ [ابراهيم : ٩] .

فقال : أىُّ معنًى لردِّ الأيدِى فى الأفواه ؟ وأىُّ مَدْخلٍ لذلك فى التكذيب بالرسل عليهم السلام ؟

الجواب ، قلنا فى ذلك وجوه :

أولُها أن يكونَ إخباراً عن القوم بأنّهم رَدُّوا أيديَهم فى أفواههم ، عاضّين عليها غيظاً وحَنَقاً على الأنبياء ، كما يَفعلُ المتوعِّدُ لغيره ، المبالِغُ فى معاندته ومُكايدَته ؛ وهذه عادة معروفةٌ فى المَغيظ المحنَق أنّه يَعَضُّ على أصابعه ، ويفرُكُ أناملَه ، ويضربُ بإحدَى يديه على الأخرى ؛ وما شاكل ذلك من الأفعال . .

وثانيها أن تكونَ الهاءُ فى الأيدى للكفار المكذِّبين ، والهاءُ التى فى الأفواه للرسل عليهم السلام ؛ فكأنَّهم لمَّا سمِعوا وعْظَ الرسل ودعاءَهم وإنذارَهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل، مانعينَ لهمْ عن الكلام كما يفعل المسكِّتُ منَّا لصاحبه ، الرّادُّ لقوله .

وثالثها أن تكون الهاء فى الأيدى والتى فى الأفواه معاً للرسل ؛ والمعنى أنهم كانوا يأخذون أيدى الرسل فيضعونها على أفواههم ليسكتُوهم، ويقطعوا كلامهم .

ورابعها أن تكون الهاءان جميعاً يرجعان إلى الكفار[١] لا إلى الرسل ؛ فيكون المعنى أنهم إذا سمعوا وعظهم وإنذارهم وضعوا أيدىَ أنفسهم على أفواههم ؛ مشيرين لهم بذلك إلى الكفّ عن الكلام والإمساك عنه ؛ كما يَفعل مَنْ يريد منّا أن يسكّت غيرَه ، ومنعَه من الكلام ، من وضع إصبَعه على فى نفسه .

وخامسها أن يكون المعنى : فردّوا القولَ بأيدى أنفسهم إلى أفواه الرُّسل ، أى أنّهم كذّبوهم ، ولم يُصْغُوا إلى أقوالهم ، فالهاء الأولى للقوم ، والثانيةُ للرسل ؛ والأيدى إنما ذُكِرتْ مثلًا وتأكيداً ؛ كما يقول القائل : أهلَكَ فلانٌ نفسَه بيده ، أىْ وَقَع الهلاكُ به من جهته ، لا من جهة غيره .

وسادسها أن المراد بالأيدى النعم و« فِى » محمولة على الباء ، والهاء الثانية للقوم المكذبين والتى قبلها للرُّسل ، والتقدير : فردُّوا بأفواههم نِعَم الرُّسل ؛ أى ردُّوا وعظَهم وإنذارهم وتنبيههم على مصالحهم الذى لو قبِلوه لكان نعماً عليهم .

ويجوز أيضاً أن تكون الهاء التى فى الأيدى للقوم الكفار ، لأنها نِعم من الله تعالى عليهم ، فيجوز إضافتُها إليهم وحمل لفظة « فِى » على معنى الباء جائز لقيام بعض الصِّفات مقامَ بعض ؛ يقولون : رضيتُ عنك ، ورضيت عليك وحُكِى فى لغة طَيِّء : أدخلك الله بالجنة ، يريدون فى الجنة ، فيعبرون بالباء عن معنى « فى » ؛ كذلك أيضاً يصح أن يعبروا بفى عن الباء ؛ قال الشاعر :

وأرغبُ فيها عن لقيطٍ ورهطِه ولكِنّنى عن سِنْبِسٍ لستُ أرغبُ

أراد : وأرغب بها فحمل «فى» على الباء .

---

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : « يمكن أن يجعل الضميران جميعا للرسل عليهم السلام ، على معنى أنهم لما لم يقبلوا وعظهم وإنذارهم رد الرسل بأيديهم إلى أفواه أنفسهم ، إشارة إلى أنا قد سكتنا ، فافعلوا ماشئتم تهديدا وتهويلا » .

وسابعها ـ وهو جواب اختاره أبو مسلم بن بحر، وزعم أنه أولى من غيره ـ قال: " المضمرون فى قوله: ﴿ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الرسل، وكذلك المضمرون فى ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾، والمراد باليد هاهنا ما نَطقَ به الرسل من الحُجَج والبيِّنات التى ذكر الله تعالى أنهم جاءوا بها قومَهم؛ واليد فى كلام العرب قد تقع على النعمة وعلى السلطان أيضا، وعلى المِلك، وعلى العهد والعقد؛ ولكل ذلك شاهد من كلامهم؛ والذى أتى به الأنبياء قومَهم هو الحجة والسلطان، وهو النعمة، وهو العهد، وكلُّ ذلك يقع عليه اسم اليد. ولمَّا كان ما يعظ به الأنبياءُ قومَهم ويُنذرونهم به إنما يَخرُج من أفواههم، فردوه وكذبوه قيل: إنهم ردُّوا أيديَهم فى أفواههم، أى أنهم ردُّوا القول من حيث جاء. قال: ولا يجوز أن يكون الضمير فى ذلك للمُرْسَل إليهم كما تأوله بعضُ المفسرين، وذكر أن معناه أنهم عضُّوا عليهم أناملَهم غيظاً؛ لأن رافعَ يده إلى فيه، والعاضَّ عليها لا يسمَّى رادًّا ليده إلى فيه، إلا إذا كانت يده فى فيه فيخرجها ثم يردُّها ".

قال سيدنا الشريف أدام الله علوّه: وليس ما استنكره أبو مسلم من رد الأيدى إلى الأفواه بمستنكَر ولا بعيد، لأنه قد يقال: ردَّ يده إلى فيه، وإلى وجهه، وعاد فلان يقول كذا، ورجع يفعل كذا؛ وإن لم يتقدم ذلك الفعلُ منه. ولو لم يَسُغْ هذا القول تحقيقاً؛ لساغَ تجوُّزاً واتساعاً؛ وليس يجب أن تُؤخذ العرب بالتحقيق فى كلامها؛ فإن تجوُّزَها / واستعاراتها [١٢٢ ظ] أكثرُ، على أنه يمكن أن يكونَ المراد بذلك أنهم فعلوا ذلك الفعلَ شيئاً بعد شىء، وتكرَّر منهم، فلهذا جاز أن يقول: ردُّوا أيديَهم فى أفواههم، لأنه قد تقدم منهم مثلُ هذا الفعل، فلما تكرَّر جازت العبارة عنه بالرّد، وهذا يُبطل استضعافه للجواب إذا صِرْنا إلى مراده.

تأويل خبر

روى أن مسلماً الخزاعيّ ثم المصطلقيّ قال : شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المُصْطلقيّ[١] :

لا تَأْمَنَنَّ وإنْ أمسيتَ فى حَرَمٍ … إنَّ المَنايا بكَفَّىْ كلِّ إنسانِ[٢]
وأسلُكْ طَرِيقَكَ تَمشى غيرَ مُختَشِعٍ[٣] … حتَّى تَبَيَّنَ ما يَمْنِى لكَ المانى
فكلُّ ذِى صاحبٍ يوماً يُفارِقُهُ[٤] … وكلُّ زادٍ وإن أبقَيْتَهُ فانِ
والخيرُ والشرُّ مَقْرُونانِ فى قَرَنٍ[٥] … بكلِّ ذلكَ يأْتِيكَ الجَديدانِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو أدركتُه لأسلم » ، فبكى مُسلم ، فقال له ابنه : يا أبَهْ ، ما يُبكيك من مشركٍ مات فى الجاهلية ! فقال : يا بُنىَّ ، لا تفعلْ فما رأيت مشركة تلقَّفَت من مشرك خيراً من سُوَيْد .

قوله: « ما يَمنى لك المانى » معناه ما يقدِّر لك القادر؛ قال الفرّاء: يقال: مَنَى الله عليه الموتَ ؛ أى قدّر الله عليه الموت . وقال يعقوب : مَناكَ الله بما يسرُّك ، أى قدَّرَ الله لك ما يسرُّك ، وأنشد :

---

(١) تنسب البيت الأول والثانى والرابع إلى أبى قلابة الهذلى، من قصيدة أولها :

يادارُ أعْرِفُهَا وَحْشاً مَنازِلُهَا … بَيْنَ القَوائِمِ مِنْ رَهْطٍ فَألْبانِ

مع اختلاف فى روايتها وترتيبها ، وانظر ديوان الهذليين ٣ : ٣٦ـ٣٩ ، واللسان (منى) .

(٢) حواشى الأصل ، ت، ف : « المعروف « يجنى » ، هذا هو الصحيح » ، وهى أيضا رواية ديوان الهذليين ؛ يقول : لا تأمنن أن تأتيك منيتك وإن كنت بالحرم حيث يأمن الطير » .

(٣) رواية اللسان :

* وَاسْلُكْ طَرِيقَكَ فِيهَا غَيْرَ مُحْتَشِمٍ *

ورواية ديوان الهذليين:

* وَلَا تَقُولَنْ لِشَىْءٍ سَوْفَ أفْعَلُهُ *

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « مفارقه » . (٥) رواية ديوان الهذليين :

* إنَّ الرَّشَادَ وَإنَّ الغَىَّ فى قَرَنٍ *

لَعَمْرُ أبي عَمرٍو لقدْ ساقَهُ المَنَى ... إلى جَدَثٍ يُوزَى لهُ بالأَهاضِبِ(١)

وقال ابنُ الأعرابيّ : ساقه المَنَى ، أي ساقه القدر ؛ وأنشد ابن الأعرابيّ :

مَنَتْ لكَ أنْ تلاقِيَنِي المَنَايا ... أُحادَ أُحادَ في الشَّهْرِ الحَلاَلِ(٢)

معناه قدَّرتْ لك.

وقال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم:٤٦]، معناه إذا تُخْلَق وتُقَدَّر.

وقال بعضُ أهلِ اللغة : إنّما سمي «مِنًى» لما يُمْنَى فيه من ثواب الله تعالى ؛ أي يقدَّر فيه ؛ وقيل أيضاً بما يُمْنَى فيه من الدّم(٣) ؛ وقيل: إنما سمي بذلك لأن إبراهيم عليه السلام لما انتهى إليه قال له الملَك : تَمنَّ ، قال : أتمنَّى الجنــة ، فسمي مِنًى لذلك . ومِنًى يذكر ويؤنث ، والتذكير أجود ، قال الشاعر في التذكير :

[١٢٣ و] / سقَى مِنًى ثم رَوّاهُ وساكِنَهُ ... ومَنْ ثَوَى فيه واهِي الوَدْقِ مُنْبَعِقُ(٤)

وقال آخر في التأنيث :

لَيَوْمُنا بمنًى إذْ نحنُ نَنزِلُها ... أَسَرُّ مِن يومِنا بالعرْجِ أو مَلَلِ(٥)

(١) البيت مطلع قصيدة لصخر الغي، يرثي أخاه أبا عمرو بن عبد الله، وقد نهشته حية فمات؛ (ديوان الهذليين ٢ : ٥١–٥٢) . وفي حواشي الأصل ، ت ، ف : « يؤزي ، من الإزاء ، والإزاء : مصب الماء في الحوض، يقال : أزيت الحوض [بالتضعيف] ، وآزيته ، والإزاء للقبر في الحقيقة ؛ إلا أنه على الاستعارة . ويجوز أن يكون الضمير في « له » للمرثي ؛ أي يهيأ له ؛ هذا إذا همزت « يؤزى » ؛ وهو قول الأصمعيّ ، فأما إذا لم تهمزه فمعنى يوزى ينصب ويشخص ؛ يقال: أوزى ظهره إلى الحائط ؛ أي أسنده . ويقال : هضبة وهضيات وهضاب وأهضاب وأهاضب وأهاضيب » .

(٢) اللسان (منى) ، وفي حاشية الأصل : « أي قدرت المنايا ملاقاتها إياي لأجلك » .

(٣) المراد بمنى هاهنا: يراق .

(٤) الودق : المطر ، والواهي : المندفع بالماء ، وكذلك المنبعق، وفي حاشيتي الأصل ، ف : « جعل السحاب سقاء ، ثم جعله واهي العقد ، فهو أشد إرسالا ، وهذا مثل » .

(٥) العرج : موضع قريب من الطائف ، وإليه ينسب العرجيّ الشاعر ، وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . وملل : موضع في طريق مكة .

فأما قوله :

* والخيرُ والشَّرُّ مَقْرونان فى قَرَنِ *

فالقَرَن الحَبْل ؛ وأراد أنهما مجموعان لا يفترقان ؛ من حيثُ لا يكاد يُصيب الإنسان فى الدنيا خَيْرٌ صِرْفٌ لا شرَّ فيه ؛ فلهذا قال إنهما مقرونان . ويجوز أيضاً أن يريد أنَّ لسرعةِ تقلُّب الدنيا وإبدالها الخيرَ بالشر كأن الخيرَ والشرَّ مقرونان مجموعان معاً، لتقارب ما بينهما .

فأما الجديدان ، فهما اللَّيـــل والنهار ، وهما أيضاً الأجَدَّان ، والمَلَوانِ ، والفتَيان ، والرِّدْفان ، والعَصْران ؛ قال الشاعر :

إنَّ الجديدَيْنِ فى طُولِ اختلافِهما لا يَفْسُدَانِ ولكِنْ يَفسُدُ النَّاسُ(١)

وقال آخر :

وأمْطُلُه العَصْرَيْنِ حتَّى يَملَّنى ويَرْضَى بنِصْفِ الدَّيْنِ والأنفُ راغِمُ(٢)

وقال أبو عبيدة : ويقال الليل والنهار ابنا سُبات ، وأنشد ابنُ الأعرابىّ :

وكُنَّا وهُمْ كابنَىْ سُباتٍ تَفرَّقا سِوًى ثم كانا مُنجدًا وتَهامِيا(٣)

ويقال للغداة والعشىّ: القَرْنَتان(٤)، والبرْدَان، والصَّرْعان(٥) .

* * *

أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن عثمان بن يحيي قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد الحكيمىّ قال : أملَى علينا أبو العباس أحمد بن يحيي ثعلب النحوىّ قال : أنشدنا ابنُ الأعرابى لرُفَيْع الوالبىّ :

كذَبَتْكَ ما وَعَدَتْكَ أمسِ صَلاحُ وعسَى يكونُ لِما وُعِدْتَ نجاحُ(٦)

---

(١) البيت للخنساء ، ديوانها : ١٠٠ . (٢) الحيوان ٣ : ٢٤٩ ، وإصلاح المنطق: ٤٣٧ ، من غير عزو . (٣) اللسان (سبت) ، ونسبه إلى ابن أحمر ، وفيه عن ابن حبيب : « أن ابني سبات رجلان، رأى أحدهما صاحبه فى المنام ثم انتبه ، وأحدهما بنجد والآخر بتهامة » (٤) ت : « القرنان » .
(٥) حاشية الأصل : « أصل الصرع الذى يصارعك » . (٦) صلاح: اسم امرأة ، وفى حاشية الأصل : « كأنها وعدته بالوصال الذى يبرئ سقمه » .

بُرْءٌ مِنَ السَّقَمِ الطَّوِيلِ ضَمانُهُ ... لا يَستَوِى سَقَمٌ بِكُمْ وصِحَاحُ
أَصلاحُ إِنَّكِ قد رَمَيْتِ نَوافِذًا ... وجَوَائِفًا لَيْسَتْ لهُنَّ جِرَاحُ(١)
ولقدْ رَأَيْتُكِ بالقَوَادِمِ لَمحَةً ... وعلَّ مِن سُدَفِ العَشِيِّ رَبَاحُ(٢)

معنى رَباح هاهنا ، أي علَّ وقتٌ من العَشِيّ ، ومثله رَواح ؛ وقوم يروُونه بالكسر وليس بشيء .

/ ما كانَ أَبصرَنى بغِرَّاتِ الصِّبا ... فاليومَ قدْ شَفعتْ لِىَ الأَشباحُ(٣) [١٢٣ ظ]
ومشَى بجَنبِ الشَّخْصِ شخصٌ مثلُهُ ... والأَرضُ نائيةُ الشُّخوصِ بَرَاحُ(٤)
حلقَ الحوَادِثُ لِمّتى فتَرَكْنَ لِى ... رَأْسًا يَصِلُّ كأَنَّهُ جُمَّاحُ
وذَكا بأَصداغى وقَرْنِ ذُؤَابتى ... قَبَسُ المَشيبِ كأَنَّهُ مِصْباحُ

قال : كأنّه جُمّاح من امّلاسه ، وجُمّاح : سهم أو قصبة يُجعل عليه طين ، ثم يُرْمَى به الطير .

وبهذا الإسناد لبعضهم :

أَرَى النَّاسَ للصُّعْلوكِ حَرْبًا ولا أرى ... لذى نَشَبٍ إِلّا خَليلًا مُصافِيا
أَرَى المالَ يَغْشَى ذَا الوُصومِ فلا تُرَى ... ويُدْعَى مِنَ الأَشرافِ مَنْ كانَ غَانِيا(٥)

الصعلوك : الفقير ، وهو أيضاً القُرْضُوب ، والسُّبْرُوت . والوُصوم : العيوب .

وبهذا الإسناد لعقيل بن عُلَّفَة :

إِنى ليَحمَدُنى الخليلُ إِذَا اجتَدَى ... مالى ويكرَهُنى ذَوُو الأَضْغانِ
وأَبيتُ تَخلِجُنى الهُمومُ كأَنَّنى ... دَلْوُ السُّقاةِ تُمَدُّ بالأَشْطَانِ(٦)

---

(١) نوافذ ؛ أى سهاماً نافذة ، وجوائف ، أى تبلغ الجوف . (٢) البيت فى اللسان (روح) ، ورواه : « رياح » بالكسر . والقوادم : أوائل النظر . والسدف : جمع سدفة ؛ وهى الظلمة .
(٣) شفعت : صارت شفعا ، أى أصبح يرى الشىء شيئين كما يراه الأحول ؛ يصف ضعف بصره .
(٤) حاشية ت (من نسخة) : « نابية » . (٥) حاشية ت : « غانيا ؛ أى غنيا ؛ ومعناه ذا غنى ، كلابن وتامر » . (٦) تخلجنى : تشغلنى ؛ كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت . والأشطان . الحبال .

وأَعيشُ بالبَلَلِ القليلِ وقدْ أَرَى … أَنَّ الرُّموسَ مَصارِعُ الفِتْيانِ[١]

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال: حدثني عليّ بن منصور قال: أخبرني محمد بن موسى عن دِعْبل بن عليّ قال قال عَقِيل بن عُلَّفة: — وذكر الأبيات الثلاثة، وزاد فيها:

ولقدْ عَلِمتُ لئنْ هلَكْتُ ليَذْكُرَنْ … قومِي إذا عَلَنَ النَّجِيُّ مكانِي[٢]

* * *

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله تأييدَه: وكان عَقِيل بن علَّفة مع قوّة شعره جيِّدَ الكلام حكيمَ الألفاظ. وروَى المدائني قال: قال عبدالملك بن مروان لِعقيل بن عُلَّفة المرّيّ: ما أحسنُ[٣] أموالِكم؟ فقال: ما نالَه أحدُنا عن أصحابه تفضُّلا، قال: ثم أيُّها؟ قال: مواريثُنا، قال: فأيُّها أشرف؟ قال: ما استفدْناه بوقْعة خوَّلَتْ نعماً، وأفادتْ عزًّا، قال: فما مبلغُ عِزِّكم؟ قال: ما لم يُطْمَعْ فينا، ولم /نُؤْمَنْ، قال: فما مبلغُ جودِكم؟ قال: ماعقدْنا به [١٢٤ و] مِنَنًا، وأبقينا به ذِكْراً، قال: فما مبلغُ حِفاظِكم؟ قال: يدفع كل رجلٍ منّا عن المستجيرِ به كدفاعه عن نفسه؛ قال عبدُ الملك: هكذا فليصفِ الرجل قومَه.

وروى أنه قيل لعقِيل بن عُلَّفة: قد عنَّسَتْ[٤] بناتُك، أفما تخشى عليهنّ الفساد؟ قال: كلّا، إني خلّفت عندهن الحافظَيْن، قيل: وما هما؟ قال: الجُوع والعُرْى، أُجيعهن فلا يأشَرْن، وأُعرّيهن[٥] فلا يَظهرن.

وقال له عبد الله يوماً: مالك تهجُو قومك؟ قال: لأنهم أشباه الغَنَم، إذا صِيحَ بها رَفَعَتْ، وإذا سُكِتَ عنها رَتَعَتْ، قال: إنّما تقول البيتَ والبيتين، قال: حسبي من القلادة ما أحاط بالعنق.

---

(١) البلل فى الأصل: مابل الحلق من ماء أو لبن أو غيره.

(٢) حاشية الأصل: «يصف نفسه بحفظ الأسرار؛ يقول: إذا مت والناس يناجون غيرى فيفشى أسرارهم؛ يذكرونى عند ذلك ويذكرون مكانى». (٣) من نسخة بحواشى الاصل، ت، ف: «ماأخس». (٤) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «عنست بناتك؛ بتاء المخاطب؛ أى أخرتهن عن التزويج». (٥) حواشى الأصل، ت، ف: «فى معناه الحديث: (اعروا النساء يلزمن الحجال)».

فأما معنى « علقة » اسم أبيه ، فإن ابنَ الأعرابيّ قال : العُلَّفة مثــلُ الباقِلاء الرَّطْبة تــكون تحت الزهرة من البقل وغيره . وقال أبو سعيد السُّكَّرِيّ : العُلَّفة ضربٌ من أوعية بَزْر بعض النبات مثل قشرة الباقِلاَّء . واللُّوبيا ؛ وهو الغلاف الذي يجمع عِدّةَ حَبّ .

وقيــل : إن عَقيلًا كان يُكْنَى بأبي الوليد ، وكان رجلًا غيوراً موصوفاً بشدة الغَيْرة ، وروى أبو عمرو بن العلاء أنّه حمل يوماً ابنةً له وأنشأ يقول :

إني وإنْ سِيقَ إليَّ المَهْرُ ... ألفٌ وعَبدانِ وذَوْدٌ عَشْرُ[1]

أحبُّ أصهارِي إليَّ القَبْرُ

وذكر الأصمعيُّ أن عَقيلا كان لغَيْرته إذا رأى الرجلَ يتحدث إلى النساء أخــذَه ، ودَهَن أرفاغَه[2] ومغابِنَه بزُبْد وربَطه وطرحه في قَرْية النمل ، فلا يعود إلى محادثتهنّ .

وروى الأصمعيّ قال : كان[3] عَقيل بن عُلَّفة في بعض سفره ، ومعه ابنه العَمَلَّس وابنته الجرْباء ، فأنشأ يقول :

قَضَتْ وطَرًا مِن دَيْرِ سَعْدٍ ورُبَّما ... على عَجَلٍ ناطَحْنَهُ بالجماجِمِ[4]

ثم أقبلَ على ابنه فقال : أجِزْ يا عَمَلَّس ، فقال :

وأصبَحْنَ بالمَوْماةِ يحمِلْنَ فِتيةً ... نَشاوَى مِنَ الإدْلاجِ مِيلَ العَمائمِ[5]

---

(١) الذود : القطيع من الإبل . (٢) الأرفاغ : جمع رفغ ؛ وهو أصل الفخذ ، والمغابن : جمع مغبن ، كمَنزِل وهو الإبط . (٣) الخبر في الأغاني ١٢ : ٢٠٦ ــ ٢٠٧ (طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) دير سعد : بين بلاد غطفان والشام ، وبعده في رواية الأغاني :

إذا هَبطَتْ أرضاً يَموتُ غُرابُها ... بِها عَطَشاً أعْطَيْنَهُمْ بالخَزائمِ

والخزائم : جمع خزامة ، وهي حلقة من شعر تجعل في أحد جانبي منخرى البعير لينقاد بها .

(٥) الموماة : المفازة الواسعة . نشاوى : سكارى . الإدلاج : السير من أول الليل ، وبعده في رواية الأغاني :

إذا عَلَمٌ غادَرْنَهُ بتَنُوفةٍ ... تَذارَعْنَ بالأيْدِي لآخرَ طامِسِ

ــ والعلم : شيء ينصب في الفلوات تهتدي به الضالة . التنوفة : المفازة . تذارعن : سرن ، وأصله أن يذرع البعير بيديه في سيره ذرعاً إذا سار على قدر سعة خطوه . رسم طامس : دارس .

ثم أقبل على ابنته ، فقال : أجيزى يا جَرْباء ، فقالت :

كأنَّ الـكرَى سقَّاهمُ صَرْخَدِيَّةً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عُقارًا تَمَشَّتْ فى المَطا والقوائمِ[(١)]

[١٢٥ ظ] قال :/ فأقبل على ابنته يضربُها ويقول : والله ما وصفتِها بهـذه الصفة حتى شَرِبتِها ، فوثب عليه إخوتُها فقاتلوه دونها ، ثم رماه أحدُهم بسهم فانتظم فَخِذَيْهِ ، فقال عقيل :

إنَّ بَنِىَّ زَمَّلونى بالدَّمِ[(٢)] ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مَنْ يَلْقَ أبطالَ الرِّجالِ يُكْلَمِ[(٣)]

ومَنْ يكُنْ ذا أوَدٍ يُقَوَّمِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ شِنْشِنةٌ أعرِفُها مِنْ أخْزَمِ

الشنشنة : الطبيعة والسجية . وقيل الشبه ، وهذا مَثَل اجتلبه عَقيل[(٤)]، وقد قيل قبله؛ ولعقيل :

ولِلدَّهرِ أثوابٌ فكُنْ فى لِباسِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كلِبْسَتِهِ يومًا أجَدَّ وأخلَقا[(٥)]

وكُنْ أكيَسَ الكَيْسَى إذا كُنتَ فيهِمُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وإنْ كُنتَ فى الحَمقَى فكُنْ أنتَ أحمَقا

---

(١) الصرخدية : منسوبة إلى صرخد ، وهو بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق . العقار : الخمر . المطا : الظهر . (٢) رواية الأغانى : « سربلونى » . (٣) رواية اللسان (شنن) : « آساد الرجال » . (٤) حاشية الأصل : « قال س : قرأت فى أمالى ابن الجبان الأصبهانى : شنشنة [بالفتح] ، وشنشنة[بالكسر] ، ونشنشة [بالفتح] ، ونشنشة [بالكسر]، قال : قدفسروها بالطبيعة وبالمضغة من اللحم وبالمجامعة . ضارب هذا المثل حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن أخزم الطائى حين نشأ حاتم ، وتقيل أخلاق جده أخزم فى الجود فقال : « شنشنة أعرفها من أخزم » ، وتمثل به عقيل ابن علفة » وفى اللسان عن ابن برى : « كان أخزم عاقا لأبيه ، فمات وترك بنين عقوا جدهم وضربوه وأدموه ، فقال ذلك » .

وانظر ترجمة عقيل وأخباره وأشعاره فى (الأغانى ١١ : ٨١-٨٩) .

(٥) حاشية ف : « المعنى : فالبس مع الدهر ابوسه ؛ إن لبس الجديد فالبس أيضا أنت الجديد ، وبالعكس » .

مجلس آخر [٢٨]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ؛ [البقرة : ٢١٠] فقال : كيف يصحّ القولُ بأنّها رجعتْ عليه وهى لم تخرج عن يده؟ .

الجواب ، قلنا قد ذُكر فى ذلك وجوه :

أولها أنّ الناس فى دار المحنة والتكليف قد يغترّ بعضهم ببعض، ويعتقدون فيهم أنهم يملكون جرَّ النافع إليهم وصَرْف المضارّ عنهم ، وقد تدخل عليهم الشُّبَه لتقصيرهم فى النظر ، وعدولهم عن وجهه وطريقه، فيعبدُ قومٌ الأصنام وغيرها من المعبودات الجامدة الهامدة التى لا تَسمع ولا تُبصر ، ويعبدُ آخرون البشرَ ، ويجعلونهم شركاء لله تعالى فى استحقاق العبادة ؛ ويضيفُ كلُّ هؤلاء أفعالَ الله عز وجل فيهم إلى غيره ، فإذا جاءت الآخرةُ ، وانكشف الغطاء واضطرُّوا إلى المعارف زال ما كانوا عليه فى الدنيا من الضلال واعتقاد الباطل ، وأيقن الكلُّ أنه لا خالقَ ولا رازقَ ولا ضارّ ولا نافعَ غيرُ الله تعالى فردوا إليه أمورَهم ، وانقطعت آمالُهم من غيره ، وعَلِموا أنّ الذى كانوا عليه من عبادةِ غيره ، وتأميله للضّرّ والنفع غُرورٌ وزُور ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ لهذا المعنى .

والوجه الثانى أن يكونَ معنى الآية فى الأمور أنّ الأمورَ كلَّها لله تعالى ، وفى يده وقبضتِه من غير خروج ورجوع حقيقىّ ؛ وقد تقولُ العرب: قد رجع علىَّ من فلان مكروه، بمعنى صار إلىَّ منه ؛ ولم يكن سبق إلىَّ قبلَ هذا الوقت ، وكذلك يقولون : قد/عاد علىَّ من زيدٍ كذا وكذا وإن وقع منه على سبيل الابتداء قال الشاعر : [١٢٥ و]

وإنْ تكنِ الأيامُ أحسنَ مرّةً إلىَّ فقدْ عادتْ لهنّ ذُنُوبُ

أى صارت لها ذنوبٌ لم تكُنْ من قبلُ ؛ بل كان قبلها إحسان فحَمْلُ الآيةِ على هذا المعنى شائع جائزٌ تشهدله اللغة .

والوجه الثالث أنّا قد علمنا أنّ الله تعالى قد ملّك العبادَ فى دار التكليف أموراً تنقطع بانقطاع التكليف، وإفضاء الأمرِ إلى الدار الآخرة ، مثل ماملّكه الموالى من العبيد ، وما ملّكه الحكام من الحُكم وغيرِ ذلك ؛ فيجوز أنْ يريد تعالى برجوعِ الأمرِ إليه انتهاء ماذكرْناه من الأمور التى يملكُها غيرُه بتمليكه إلى أنْ يكون هو وحدَه مالكها ومُدَبِّرَها .

ويمكن فى الآية وجهٌ آخر ؛ وهو أن يكون المراد بها أنّ الأمر ينتهى إلى ألاّ يكون موجود قادر غيرُه ، ويُفضِى الأمرُ فى الانتهاء إلى ما كان عليه فى الابتداء ، لأن قبل إنشاء الخلق هكذا كانت الصورةُ ، وبعد إفنائهم هكذا تصير وتكون الكنايةُ برجوع الأمر إليه عن هذا المعنى ، وهو رجوعٌ حقيقىّ ، لأنه عاد إلى ما كان عليه متقدماً .

ويحتمل أيضاً أنّ المراد بذلك أنّ إلى قدرته تعودُ المقدورات ، لأن ما أفناه من مقدوراته الباقية كالجواهر والأعراض ترجع إلى قدرته ، ويصحُّ منه تعالى إيجادُه لعودِه إلى ما كان عليه ، وإن كان ذلك لايصحُّ فى مقدورات البشر ، وإنْ كانت باقية لما دلّ عليه الدليل ، من اختصاص مقدور القُدَر باستحالة العود إليها ، من حيث لم يَجُزْ فيها التقديم والتأخير ، وهذا أيضاً حُكْم ، هو تعالى المتفرد به دون غيره من سائر القادرين ، والله أعلم بما أراد .

تأويلُ آيةٍ أخرى

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ ، [البقرة : ١٨٩] .

فقال : أىّ معنًى لذكرِ البيوت وظهورِها وأبوابِها ؟ وهل المرادُ بذلك البيوتُ المسكونة

على الحقيقة ، أو كَنّى بهذه اللفظة عن غيرها ؟ فإن كان الأول فما الفائدة فى إتيانها من أبوابها دون ظهورها ؟ وإن كانتْ كناية فبيّنوا وجهها ومعناها .

الجواب قيل له فى الآية وجوه .

أولها ماذكر من أنّ الرجلَ من العرب كان إذا قصد حاجةً فلم تُقْضَ له ، ولم يُنْجِح فيها رَجَع فدخل من مُؤَخَّر البيت ، ولم يدخل من بابه تطيُّراً ، فدلّهم اللهُ تعالى على أنّ هذا من فعلهم لابِرّ فيه ، وأمَرَهم من التُّقى بما ينفعهُم ويقرّبهم إليه ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن التطيّر وقال : «/ لاعَدْوَى ولاطِيَرَةَ ولا هامَةَ ولا صَفَر »؛ أى لايُعدِى شىءٌ شيئاً. وقال عليه السلام : « لايُورِدُ ذو عاهة على مُصحٍ »؛ ومعنى هذا الكلام أنّ مَنْ لحقتْ إبلَه آفةٌ أو مرضٌ فلا ينبغى أن يوردَها على إبل لغيرهِ صِحاح ، لأنّه متى لَحِقَ الصِّحاح مثلُ هذه العاهة اتفاقاً ، لا لأجلِ العدْوَى لم يُؤْمَنْ من صاحبِ الصِّحاح أن يقول إنما لحِق إبلى هذه الآفة من تلك الإبل ، وهى أعدتْ إبلى ، فنهى النبى صلى الله عليه وآله عن هذا ، ليزولَ المأثمُ بين الفريقين والظنُّ القبيح . [١٢٠ ظ]

وثانيها أن العرب إلاّ قريشاً ومن ولَدَتْه قُريش كانوا إذا أحرموا فى غير الأشهرِ الحرُم لم يدخلوا بيوتَهم من أبوابها ، ودخلوها من ظهورها إذا كانوا من أهل الوَبَر ، وإذا كانوا من أهل المَدَر نقبوا فى بيوتهم ما يدخلون ويخرجون منه ، ولم يَدْخُلوا ولم يخرجوا من أبواب البيوت ؛ فنهاهم الله تعالى عن ذلك ، وأعلمهم أنه لا معنى له ، وأنه ليس من البرّ وأن البرّ غيرُه .

وثالثها ـ وهو جواب أبى عُبيدة مَعْمر بن المثنى ـ أن المعنى ليس البرَّ بأن تطلبوا الخيرَ من غيرِ أهله ، وتلتمسوه من غيرِ بابه، ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ ، معناه : واطلُبوا الخيرَ من وجهه ، ومن عند أهله .

ورابعها ـ وهو جواب أبى علىّ الجُبّائى ـ أن تكون الفائدة فى هذا الكلام ضربَ المثل ،

وأراد : ليس البرَّ أن يأتىَ الرجل الشىء من خلاف جهته ؛ لأن إتيانَه من خلاف جهته يُخرج الفعل عن حد الصواب والبرّ إلى الإثم والخطأ، وبيَّنَ البرّ والتقوى ، وأمر بإتيان الأمور مِن وجوهِها ، وأن تُفعل على الوجوه التى لها وجبت وحَسُنَت ، وجعل تعالى ذكرَ البيوت وظهورها وأبوابها مثلا ؛ لأن العادل فى الأمر عن وجهه كالعادل فى البيت عن بابه .

وخامسها أن تكون البيوت كنايةً عن النساء ، ويكون المعنى : وأْتُوا النساء من حيث أمركم الله ، والعرب تسمّى المرأة بيتاً ؛ قال الشاعر :

مالى إذَا أنزِعُها صأيْتُ ... أ كِبَرٌ غيَّرَنى أم بيتُ[١]

أراد بالبيت : المرأة .

ومما يمكن أن يكون شاهدا للجواب الذى حكيناه عن أبى علىّ الجُبّائىّ ، والجواب عن أبى عبيدة أيضاً ماأخبرنَابهأبوالقاسم عبيد الله عثمان بن يحيى قال: أخبرنا/أبوعبدالله محمدبن أحمد الحكيمىّ قال : أملى علينا أبو العباس أحمد بن يحيى النحوىّ قال : أنشدنا ابن الأعرابىّ[٢] : [١٢٦ و]

إنى عَجِبتُ لأمِّ العَمْرِ إذْ هزِئَتْ ... مِنْ شيبِ رَأْسِى ومابالشَّيبِ مِنْ عارِ[٣]

ما شِقْوَةُ المرْءِ بالإقتار يُقتِرُهُ ... ولا سَعادَتُه يوماً بإكثارِ

إنَّ الشَّقِىَّ الذى فى النَّارِ مَنْزِلُهُ ... والفوْزُ فوْزُ الذى يَنجو مِن النَّارِ

أعوذُ باللهِ مِن أمرٍ يُزيِّنُ لى ... شَتْمَ العَشيرة أو يُدْنِى مِنَ العارِ

وخيرِ دُنيا يُنَسِّى أمْرَ آخِرةٍ ... وسوفَ يُبدِى لىَ الجبّارُ أسرارِى[٤]

(١) البيان فى اللسان (صأى) وفى حاشية الأصل : « هذا مستق يستق الماءمن البئر وينزع الدلو . والهاء فى قوله : «أنزعها» راجعة إلى الدلو ؛ وقيل الضميرللقوس؛ يقال: «صأى يصأى ، مثل صمى يصمى؛ إذا صوت » . (٢) أبيات منها فى الكامل ٢ : ٥١ — ٥٢ — بشرح المرصفى ؛ عن ابن الأعرابىّ ، ونسبها إلى أحد ابنى حبناء، قال : « وأحسبه صخرا » .

(٣) حاشية الأصل : « ويروى : « لأم الغمر — بالغين المعجمة » ، ورواية الكامل :

إنِّى هزِئْتُ من أمِّ الْغَمْرِ إذ هزِئَتْ ... بشيبِ رأسِى ، ومابالشَّيْبِ من عارِ

(٤) د :

* وَسَوْفَ تَبْدُو إلَى الجبّارِ أسْرَارِى *

لا أدْخُلُ البيتَ أحبُو مِن مُؤَخَّرِهِ ولا أُكَسِّرُ في ابنِ العمِّ أظفاري

فقوله :

* لا أدخُل البيتَ أحبو من مؤخَّره *

يحتمل أن يريد به : إنني لا آتي الأمور من غير وجهها ، على أحد الأجوبة في الآية ، ويحتمل أيضا أني لا أطلب الخير إلا من أهله على جواب أبي عبيدة، ويحتمل وجها آخر[1]؛ وهو أن يريد أنني لا أقصد البيتَ للرِّيبة والفساد، لأنَّ مِن شأن مَن يسعى إلى إفساد الحُرَم، ويقصِد البيوت للريبة أن يعدل عن أبوابها طلباً لإخفاء أمره ، فكأنه نفى عن نفسه بهذا القول القبيح ، وتنزَّه عنه؛ كما تنزه بقوله :

* ولا أكسِّر في ابن العمِّ أظفاري *

عن مثله، وأراد أنه لا يَندَى[2] ابنَ العمِّ منى السوء، ولا يتألم بشيء من جهتي، فأكون كأنني قد جرحتُه بأظفاري ، وكسرتها في لحمه ؛ وهذه كنايات بليغةٌ مشهورة للعرب .

* * *

ويجرى مَجرى هذه الأبيات ويقاربها في المعنى وحسنِ الكنايةِ قولُ هِلال بن خَثْعَم :

وإنى لَعَفٌّ عن زيارةِ جارَتى وإنى لَمَشْنوءٌ إلىَّ اغتيابُها
إذَا غابَ عنها بَعلُها لم أكُنْ لها زَءوراً ولم تَنْبَحْ علىَّ كِلابُها[3]
وما أنا بالدّارِى أحاديثَ بَيْتِها ولا عالمٍ منْ أىِّ حَوْكٍ ثِيابُها
وإنَّ قِرابَ البَطْنِ يَكْفيكَ مِلْؤُهُ ويكفيكَ سَوْءاتِ الأمورِ اجْتنابُها[4]

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « ووجه آخر » . (٢) حواشى الأصل ، ت ، ف : « من حر كلامهم : مابنداك منى سوء ، أى مابصيبك ، ويقال : ماندبت بهذا الأمر ولا تعلقت به ، ولا بلت به ، أى ماعلمته ولا أصبته ، قال النابغة :

وَلَا نديتُ بشيءٍ أنتَ تكْرَهُهُ إذاً فَلَا رَفَعتْ سَوْطِي إلىَّ يَدِي .

(٣) يقال رجل زوار وزءور ، كذا ذكره صاحب اللسان واستشهد بالبيت .

(٤) حاشية الأصل : « القراب : مادون الملء أو قريبمنه » .

قال سيدنا أدام الله علوّه : وقد جمعتْ هذه الأبيات فِقَرًا عجيبة ، وكنايات بليغة ، لأنه نفَى عن نفسه زيارةَ جارته عند غيبة بعلها ، وخصَّ حال الغيبة لأنها أدنى إلى الرِّيبة [١٢٦] وأخصُّ بالتهمة فقال /: « ولم تنبحْ عليَّ كلابها » ، أراد : إني لا أطرقها ليلا مستخفيا متنكِّراً فتُنكِرَني كلابُها ، وتنبحني ، وهذه الكناية تجرى مجرى قول الشاعر المتقدم :

* لا أدخُل البيتَ أحبُو مِنْ مؤخَّرِهِ *

وقد روى : « ولم تأنس إليَّ كلابها » وهذا معنى آخر ، كأنه أراد أنه ليس يُكثر الطروقَ لها والغشيان لمنزلها ، فتأنس به كلابها لأن الأنس لا يكون إلاَّ مع المواصلة والموالاة .

وقوله :

* وما أنا بالدَّارِي أحاديثَ بيتها *

أراد به أيضاً التأكيدَ في نفي زيارتها وطروقها عن نفسه ؛ لأنه إذا أدْمَن الزيارةَ عرف أحاديث بيتها ، فإذا لم يزرها وصارَمها لم يعرف ، ويحتمل أن يريد: إنني لا أسأل عن أحوالها وأحاديثها كما يفعل أهل الفضول؛ فنزَّه نفسه عن ذلك .

وقوله :

* ولا عالِمٍ من أيِّ حَوْكٍ ثيابها *

كنايةٌ مليحة عن أنَّه لا يجتمع معها ، ولا يقرب منها؛ فيعرف صفة ثيابها .

* * *

وبالإسناد المتقدّم لحارثة بن بدر الغُدَانِي(١) .

إذَا الهَمُّ أمْسَى وهْوَ دَاءٌ فأَمْضِهِ ... ولسْتَ بمُمْضِيهِ وأنتَ تُعادِلُهْ

ولا تُنْزِلَنْ أمرَ الشَّدِيدَةِ بامْرِئٍ ... إذَا هَمَّ أمْراً عَوَّقتْهُ عَوَاذِلُهْ(٢)

(١) هو حارثة بن بدر بن حصين بن قطن بن غدانة ؛ من بني يربوع . كان من فرسان بني تميم ووجوهها وسادتها ، ولم يكن معدودا في فحول الشعراء ، ولكنه كان يعارض نظراءه في الشعر . (وانظر أخباره وأشعاره في الأغاني ٢١ : ١٣–٣١) (٢) حواشي الأصل ، ت ، ف : « سوفته عواذله » .

فما كلُّ ما حاوَلْتَهُ الموْتُ دُونَه ، ولا دُونَهُ أرْصادُهُ وحَبائلُه
وما الفَتْكُ ما آمَرْتَ فيهِ ولا الذى تُحَدِّثُ مَن لاقَيْتَ أنَّكَ فاعِلُه[(١)]
وما الفَتْكُ إلاَّ لامرِئٍ ذِي حَفِيظةٍ إذا صالَ لم تُرْعَدْ إليـه خصائلُه[(٢)]
ولا تجعلَنْ سِرًّا إلَى غيرِ أهلِهِ فتَقْعُدَ إنْ أفْشَى عليكَ تُجادِلُه
ولا تَسألِ المالَ البَخيلَ تَرَى لهُ غِنًى بَعدَ ضُرٍّ أوْرَثَتْهُ أوائلُه[(٣)]
أرَى المـالَ أفْياءَ الظِّلالِ فتارَةً يَئوبُ ، وأُخرَى يَختِلُ المالَ خاتِلُه

معنى « آمرت » شاورت . والخصائل : كل لحم مجتمع .

وقد روينا فى هـذه الأبيات زيادة على القَدْر الذى ذكرناه :

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدثنى الحسن بن علىّ قال حدثنا محمد بن العباس قال حدثنى الفضـل بن محمد عن أبى المنهال المهلّبىّ قال : من الأبيات السائرة قولُ حارثة ابن بدر الغُدَانِىّ :

لَعَمْرُكَ ما أبقَى لِىَ الدَّهرُ مِنْ أخٍ حَفِىٍّ ولا ذِى خُلَّةٍ لى أُوَاصِلُه[(٤)]
/ ولا مِن خَليلٍ لَيسَ فِيـهِ غَوَائِلٌ فشَرُّ الأخِـلاَّءِ الكَثيرُ غَوَائِلُه [١٢٧ و]
وقُلْ لِفؤادٍ إنْ نَزَا بكَ نَزْوَةً مِنَ الرَّوعِ أفرِخْ أكثَرُ الرَّوعِ باطِلُه[(٥)]

معنى « أفرِخ » أى اسكن ، يقال : أفرخَ رَوْعُه إذا سكن .

وما كلُّ ما حاولتَهُ، الموْتُ دُونَهُ . . . .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « ولا الفتك » . وآمرت : شاورت .

(٢) من نسخة بحاشية الأصل : « لم ترعد إليه » وفيها : « الخصائل : جمع خصلة ، وهى كل لحم مجتمع ، مثل الساقين والفخذين » . (٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « يجوز أن يكون ضمير المال أو البخيل » . (٤) الحفىّ : الذى يكرم خليله ويبالغ فى إكرامه ، مع إظهار المسرة والفرح .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « إنما نكر الفؤاد على اعتبار أن له فؤادين ، أحدهما يشجعه والآخر يجبنه ، فقال : لا تطع الجبن ؛ وإنما جعل لنفسه فؤادين يتقسمان الخوف والأمن ، لكيلا يكون فى حال من الأحوال جبانا مطلقا ، بل يكون متردداً بينهما » . وفى حاشية ت (من نسخة) : « الفؤاد » .

وذكر البيتين اللذين بعده ، وزاد :

وكُنْ أنتَ ترْعَى سِرَّ نفسِكَ واعلَمَنْ ... بأنَّ أقلَّ النَّاسِ للنَّاسِ حاملُه(١)
إذَا ما قتَلْتَ الشَّيْءَ عِلماً فبُحْ بِهِ(٢) ... ولا تقُلِ الشَّيْءَ الذى أنتَ جاهِلُه

ومما يستحسَن لحارثة بن بدر قولُه :

لنا نَبْعةٌ كانتْ تَقِينا فُرُوعُها ... وقدْ بلَغَتْ إلاّ قليـلًا عُرُوقُها(٣)
وإنَّا لتَستَحلِى المنـايا نُفوسُنا ... وتتْرُكُ أُخرَى مُرَّةً لا تَذُوقُها(٤)
وشيَّبَ رَأْسِي قبـلَ حِينِ مَشيبِهِ ... رعودُ المَنــــايا بينَنا وبُرُوقُها

قوله :

* لنا نَبْعَةٌ كانتْ تقِينا فُروعُها *

مَثَلٌ ضربه، وإنما أراد عشيرتَه وأهلَ بيته .

وقد روى هذه الأبيات عليّ بن سليمان الأخفش عن أبى العباس ثعلب ، وزاد فيها :

رَأَيتُ المَنايا بادِياتٍ وعُوَّدًا ... إلى دَارِنا سَهْلًا إلينا طَرِيقُها
وقدْ قَسِمَتْ نفسي فَرِيقَينِ مِنْهُما: ... فَرِيقٌ مع المَوْتَى ، وعِنـدِى فَرِيقُها
وبينَا نُرجِّى النَّفْسُ ما هُو نازِحٌ ... مِنَ الأمرِ لاقَتْ دُونَها ما يَعوقُها

وروى أبو الميناء قال : أنشد الشعبيّ عبـد الله بن جعفر الأبياتَ الثـلاثة الأُوَل ،

(١) د : « للسر » ، وفى حاشية ت : « نسخة الشجرى : « أقل الناس للسر حامله » ، كأنه أقلهم لحمله . (٢) قلت الشيء علما ، أى علمته علما تاما ، ومن نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « فقل به » . (٣) النبع : شجر ينبت فى قلة الجبل ، تتخذ منه القسى .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « مرة لاتذوقها » ، وفى حاشية ف : مثله «قول السموءل ابن عاديا اليهودى :

يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنالنا ... وتكرهُهُ آجالُهُمْ فتطُولُ

أى حبنا الموت ؛ ويجوز أن يكون أضاف الحبَّ من قوله : « حبُّ الموت » إلى الفاعل ؛ فيكون المعنى : يقرب حب الموت لنا آجالنا ؛ ويكون هذا كقول طرفة :

أرَى المَوْتَ يعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِى ... عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتشدِّدِ

فقال عبدالله: لمَنْ هذا ياشميّ؟ فقال: لحارثة بن بدر، فقال: نحن أحقّ بهذا، ثم أمر للشَّمِيّ بأربعمائة دينار.

ومن مستحسن قول حارثة:

ولقد وَلِيتُ إمارةً فرَجَمْتُها في المالِ سالمةً ولم أتموّلِ[1]
ولقد مَنَنْتُ النُّصْحَ مِن مُتقبِّلٍ ولقدْ رَفَدْتُ النُّصْحَ مَن لم يَقبَلِ
/ فبأيِّ لَمْسَةِ لامِسٍ لمْ ألتمِسْ وبأيِّ حيلةِ حائلٍ لم أحتَلِ[2] [١٢٧ ظ]
يا طالِبَ الحاجاتِ يرْجو نُجْحَها ليسَ النجاحُ معَ الأخفِّ الأعْجَلِ
فاصْدُقْ إذا حدَّثْتَ تُكْتَبْ صادِقاً وإذا حَلَفْتَ مُمارِياً فتحَلَّلِ[3]

ـ معنى «تُكتب صادقاً»، أى تكون عند الله صادقاً. وقوله: «فتحلَّل» أى استَثْنِ ـ

وإذا رأيتَ الباهِشِينَ إلى المُلا غُبْراً أكُفُّهُمُ برَيْثٍ فاعجَلِ

ـ معنى الباهشين: المادِّين أيديَهم إلى الشيء المشتَهَين[4] له ـ

واحْذَرْ مَكانَ السُّوءِ لا تحْلُلْ بهِ[5] وإذا نَبا بِكَ مَنْزِلٌ فتحَوَّلِ
وإذا ابنُ عمِّكَ لَجَّ بَعضَ لَجاجَةٍ فانظُرْ بهِ عِدَةً ولاَ تَسْتَعجِلِ
وإذا افتقَرْتَ فلا تكُنْ مُتَخَشِّعاً تَرجو الفَواضِلَ عندَ غيرِ المُفْضِلِ
واستَغْنِ ما أغناكَ رَبُّكَ بالغِنَى وإذا تَكونُ خَصاصةٌ فتجمَّلِ

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدّثنا محمد بن أبى الأزهر قال حدثنا محمد بن يزيد

---

(١) عجز البيت الخامس والبيت ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ نسبت إلى عبد قيس بن خفاف البرجمى فى قصيدة مفضلية ٧٥٠-٧٥٣ مطلعها:

أجُبيلَ إنَّ أباكَ كارِبُ يومِهِ فإذا دُعِيتَ إلى العظائِمِ فاعْجَلِ

(٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ف: «خَتْلَةِ خاتِلٍ لمْ أختَلِ».

(٣) مماريا: مجادلا. (٤) ف، ومن نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «المشتهين».

(٥) حاشية ت (من نسخة): «لا تنزل به».

النحويّ قال : كان[١] حارثة بن بدر الغُدانيّ رجلَ تميم في وقته ، وكان قد غلب على زياد ، وكان الشرابُ قد غلب عليه ، فقيل لزياد : إن هذا قد غلب عليك ، وهو مستَهْتَر[٢] بالشراب؟ فقال زياد : كيف باطّراح رجل هو يسايرني مذ دخلت العراق ، لم يَصْكُكْ ركابي ركابه[٣] ، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه ، ولا تأخّر عني فلويت عنق إليه ، ولا أخذ عليّ الشمسَ في شتاء قط ، ولا الرَّوْح[٤] في صيفٍ قطّ ، ولا سألتُه عن علمٍ إلا ظننتُه لا يحسنُ غيرَه ! فلما مات زياد جفاه ابنُه عبيدالله ، فقال له حارثة : أيها الأمير ، ما هذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبي المغيرة[٥] ! فقال له عبيد الله : إن أبا المغيرة قد كان بَرَعَ بُرُوعاً لا يلحقه معه عَيب ، وأنا حَدَثٌ ، وإنما أنسب إلى مَن يغلب عليّ ، وأنت رجل تديمُ الشَّراب ، فمتى قرّبتُك وظهرت منك رائحة الشراب لم آمن أن يظنّ بي ، فدعِ الشراب ، وكن أول داخل عليّ ، وآخر خارج ، فقال له حارثة : أنا لا أدعُه لمن يملك ضرّي ونفعي ، أفدعه للحال عندك! قال: فاختَرْ من عملي ما شئت. قال : تولّيني /رامهُرْمُز[٦] ، فإنها أرض عذاة[٧] ، وسُرَّق[٨] ؛ فإن بها شراباً [١٢٨ و] وُصِفَ لي . فولّاه إياها ، فلما شيّعه الناسُ قال أنس بن أبي أُنيس[٩] — وقيل : ابن أبي إياس الدّيليّ :

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَلِيتَ إمارةً ... فكن جُرَذًا فيها تخونُ وتَسرِقُ[١٠]

ولا تحقِرَنْ يا حارِ شيئاً وجدتَهُ ... فحظُّكَ مِنْ مُلكِ العراقَيْنِ سُرّق

---

(١) الخبر في الكامل — بشرح المرصفي ٣—١٩١—١٩٢ .

(٢) مستهتر بالشراب : مولع به ؛ من استهتر بكذا ، مبنيا لما لم يسم فاعله : أولع به لا يفعل غيره ، ولا يتحدث إلا به . (٣) من نسخة بحاشيتي ف ، ت : « يصطك ركابي ركابه » .

(٤) الروح : برد النسيم. (٥) أبو المغيرة : كنية زياد .

(٦) رامهرمز : مدينة مشهورة بنواحي خوزستان من بلاد الفرس .

(٧) الأرض العذاة : الطيبة التربة ، البعيدة من الأنهار والنجود والسباخ .

(٨) سرق : إحدى كور الأهواز . (٩) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « ابن أبي أنس » . وفي الشعر والشعراء : ٧١٤ : « أنس بن أبي أناس » ، من كنانة ، من الدؤل ، رهط أبي الأسود الدؤليّ . (١٠) الأبيات في الشعر والشعراء : ٧١٥ .

وباهِ تَمِيماً بالغِنَى إنَّ للغِنَى   لِساناً به المَرْءُ الهَيُوبةُ يَنْطِقُ(١)
فإنَّ جَمِيعَ النّاسِ ؛ إمّا مكذِّبٌ   يقول بما يَهْوَى ، وإمّا مُصدِّقُ(٢)
يقولون أقوالاً ولا يعلمونها   فإن قِيلَ هاتوا حقِّقوا لم يُحقِّقوا

وهذه الأبيات تُروى لأبي الأسود الدُّؤليّ ، وأنه كتب بها إلى حارثة لما وُلِّيَ إليه سُرَّق ، وزاد فيها :

وكن حازماً في اليوم إنّ الذي به   يجيء غداً يومٌ على الناس مطبِقُ(٣)
ولا تَعْجِزَنْ فالعجزُ أوطأُ مَركَبٍ   وما كلُّ مَن يدعو إلى الخيرِ يُرزَقُ
إذا ما دعاكَ القومُ عدُّوكَ آكلاً   وكلُّ حارٍ أوجُمٍ ؛ ائتِ مِمَّن يُحمَّقُ

ويقال إن حارثة بن بدر أجاب عن هذه الأبيات بقوله :

جزاكَ إلهُ الناسِ خيرَ جزائه   فقد قلتَ معروفاً وأوصيتَ كافيا
أمرتَ بأمرٍ لو أمرتَ بغيره   لألفيتَنى فيه لرأيك عاصيا(٤)

ويقال إن حارثة بن بدر والأحنف بن قيس دخلا على ابن زياد ، فقال لحارثة : أيُّ الشراب أطيب؟ وكان يتهم(٥) ، فقال : بَرّةٌ طاسارية ، وأَقِطة غنَويّة ، وسَمنة عنبريّة ، وسكّرة سوسية ، ونُطفة مَسرُقانية(٦) . فقال للأحنف : يا أبا بحر ، ما أطيبُ الشراب ؟ قال :

(١) الهيوبة : الذى يهاب الناس ؛ والهاء فيه لتأكيد المبالغة . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « تهوى » . (٣) حاشية الأصل : « يقال غمام مطبق ؛ أى ذو طبق ؛ وقد أطبقت السماء » .
(٤) البيتان فى الأغانى ٢١ : ٢٣ ، وبعدهما :

سَتَلقَى أخاً يُصْفِيكَ بالوُدِّ حاضِراً   ويُوليكَ حِفظَ الغَيبِ إن كنتَ نائيا

(٥) ت ، ومن نسخة بحاشية الأصل : « وكان يتهم » . (٦) حواشى الأصل ، ت ، ف : « ذكره يزيد بن مفرغ الحميرىّ :

سَقَى هَزِمُ الأوساطِ مُنْبَجِسُ العُرَا   منازلها من مَسْرُقانَ فسُرَّقا

— هزم الأوساط ؛ أى مجلجل بالرعد ، وهزيم الرعد : صوته ، وأوساطه ؛ أى أوساط السحاب » .

الخمرُ ، قال : وما يُدْرِيك ولست من أهلها ؟ قال : رأيتُ فيها خَصْلتين عرفت أنها أطيبُ الشراب بهما ، قال : وما هما ؟ قال : رأيت من أُحِلَّتْ له لا يتمدّاها إلى غيرها ، ومن حُرِّمت عليه يتناولها ، فعرفت أنها أطيبُ الشراب .

وللحارثة بن بدر يخاطب عبيد الله بن زياد لما تغيّر عليه بعد اختصاصه كان بأبيه[1] :

[١٢٨ ع] / أهانَ وأقصَى ثمّ تَنْتَصِحونَنى … وأىُّ امرئٍ يُعطِى نَصيحَتَهُ قَسْرَا!
رَأيتُ الأكُفَّ المُصلتِينَ عليكُمُ … مِلاءً ، وكَفِّى مِن عَطاياكُمُ صِفْرَا
وإنِّى معَ السَّاعى إليكُمْ بسيْفِهِ … إذَا أحدثَ الأيَّامُ فى عَظْمِكُمْ كَسْرَا
مَتى تَسألونى ما علىَّ وتَمْنَعوا الَّـ … ـذى لِىَ لا أسْطِعْ على ذلِكُمْ صَبْرَا

وقال يعاتبه :

وكَم مِن أميرٍ قد تجبَّرَ بَعْدَ ما … مَرَيتُ لهُ الدُّنيا بسيْفى فدَرَّتِ
إذَا زبَنَتْهُ عن فُوَاقٍ أتىَ بهِ … دَعانى ولا أُدْعَى إذا ما أقَرَّتِ
إذَا ماهِىَ احْلَوْلَتْ محا حَقَّ مَقْسِمى … ويَقْسِمُ لى مِنها إذَا ما أمَرَّتِ

زبنته : أى دفعته عن أن يحلبها . والفُواق : اجتماع اللّبن فى الضَّرْع بين الحلبتين . ومعنى أقرت : تركته يحلبها .

ويشبه أبيات حارثة هذه قول عبدالله بن الزَّبير الأسدىّ يعاتب معاوية ومروانَ وأهلَ بيته ؛ من جملة قصيدة ، وهى أبيات قوية جدًّا :

عَطاؤُكُمُ للضَّارِبينَ رِقَابَكُمْ … ونُدْعَى إذَا ما كانَ حَزُّ الـكَراكِرِ[2]
أنحنُ أخوكُمْ فى المَضيقِ وسَهْمُنا … إذَا ما قَسَمْتُمْ فى الحِظاءِ الأصاغِرِ

ــ الحظاء : سهام صغار ــ .

---

(١) الخبر مبسوط فى (الأغانى ٢١ : ١٥) ، والأبيات فيه منسوبة إلى أنس بن زنيم الليثى .

(٢) الكراكر : جمع كركرة ؛ وهى صدر البعير . وفى حاشية الأصل : « مثله :

وإذا تـكونُ كريهـةٌ أُدْعَى لها … وإذا يحاسُ الحيْسُ يُدعَى جُندَبُ

وَنَدِيُّكُمُ الأَدْنَى إِذَا ما سَأَلْتُمُ ... ونُلْقَى بِقَذْيٍ حِينَ نُسْأَلُ بَاسِرِ(١)
وإنْ كانَ فينا الذَّنبُ في النَّاسِ مِثْلُهُ ... أُخِذْنا بِهِ مِنْ قَبْلِ نَاهٍ وآمِرِ(٢)

ـ يعني «من قَبْـل ناهٍ وآمر» ، أي من قبل أن نُنْهَى عنه أو نؤمر به ، أي باجتنابه ـ

وإنْ جاءَكُمْ مِنَّا غَرِيبٌ بأَرْضِكُمْ ... لَوَيْتُمْ لَهُ يوماً جُنُوبَ المَنَاخِرِ
فَهَلْ يَفْعَلُ الأعداءُ إِلَّا كَفِعْلِكُمْ ... هَوَانَ السَّرَاةِ وابتغاءَ العَوَاثِرِ(٣)
وغيَّرَ نفسي عَنْكُمُ ما فعلتُمُ ... وذِكْرُ هَوَانٍ مِنْكُمُ مُتَظَاهِرِ
جَفاؤُكُم من عالَجَ الحَرْبَ عَنْكُمُ ... وأعداؤُكم مِن بينِ جابٍ وعاشِرِ(٤)
فلا تَسْأَلُونِي عن هَوَايَ وَوُدِّكُمْ ... وقلْ في فُؤَادٍ قد تَوَجَّهَ نافِرِ(٥)

ولحارثة في زياد :

لَهْفِي عَلَيْكَ لِلَهْفَةٍ مِنْ خائفٍ ... يَبْغِي جِوَارَكَ حِينَ لَيْسَ مُجِيرُ
أَمَّا القُبُورُ فإنَّهُنَّ أَوَانِسٌ ... بِجِوارِ قَبْرِكَ والدِّيارُ قُبُورُ
عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَعَمَّ مُصابُهُ ... فالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورُ
رَدَّتْ صنائعُهُ إِليهِ حَيَاتَهُ ... فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِها مَنْشُورُ

قال سيدنا الشريف المرتضى أدام الله علوّه : وأظن أبا تمام الطائيّ نظر إلى قول حارثة ابن بدر « ردت صنائعه إليه حياته » في قوله :

أَلَمْ تَمُتْ يا شَقِيقَ النَّفْسِ مُذْ زَمَنٍ؟ ... فقالَ لي : لم يَمُتْ مَنْ لم يَمُتْ كَرَمُهْ(٦)

وأخبرنا عليّ بن محمد الكاتب قال : أخبرنا ابن دريد قال : أخبرنا عبد الرحمن ـ يعني ابن أخي الأصمعيّ عن عمه قال: مرّ حارثة بن بدر الغُدَانِيّ ، ومعه كَعْب مولاه ، فجعل لا يمرّ

---

(١) باسر : قليل اللبن . (٢) حاشية ت : « أي إن أذنبنا الذنب الذي يذنب الناس مثله أخذنا به من قبل أن ننهى عنه أو نؤمر بالاستكفاف عنه » . (٣) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « هوان » بضم النون . (٤) الجابي : الذي يأخذ الجباية ، والعاشر الذي يأخذ العشر .
(٥) حاشية الأصل : « أي توجه إلى غيركم ونفر عنكم » . وفي ت وحاشية الأصل (من نسخة) : « قد توجد » . (٦) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « ياشقيق الجود » .

بمجلس من مجالس تميم إلاّ قالوا : مرحباً بسيدنا . فقال كعب : ما سمعت كلاماً قطُّ هو أقرّ لعينى، وألذّ فى سمعى مما سمعتُه اليوم ! فقال حارثة : ولكنّى ما سمعت كلاماً قطّ هو أكره إلىّ منه ، ثم قال :

ذَهَبَ الرِّجالُ فسُدْتُ غيرَ مُدَافَعٍ ومِنَ الشَّقاءِ تَفَرُّدِى بالسُّؤْدَدِ[1]

وهذا البيت يقال إنه لحارثة ، لا أنه تمثّل به .

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال حدثنى عبد الله بن جعفر قال حدثنا محمد بن يزيد قال قال الكنانىّ : مرّ حارثةُ بن بدر بالأحنف بن قيس فقال : لولا أنك مستعجلٌ لشاورتك ، قال له : أجل ، كانوا يكرهون أن يشاوَرَ الجائع حتى يشبَع ، والظمآنَ حتى ينْقَع ، والمُضِلّ[2] حتى يجِد ، والغضبان حتى يرضَى ، والمحزونَ حتى يُفيق .

---

(١) من نسخة بحاشية الأصل ، ت : « غير مسود » . (٢) المضل : الذى ذهب بعيره .

مجلس آخر [٢٩]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا / وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ؛ [البقرة : ٢٠٢]. [١٢٩ ظ]

فقال : أىُّ تمدُّحٍ فى سرعة الحساب ، وليس بظاهرٍ وجهُ المِدْحة فيه ؟ .

الجواب ، قلنا فى ذلك وجوه :

أولها أن يكون المعنى أنّه سريع المجازاة[1] للعباد على أعمالهم ، وأنّ وقتَ الجزاء قريب وإن تأخر ، ويجرى مجرَى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ؛ [النحل : ٧٧] .

وإنما جاز أن يعبّر عن المجازاة أو الجزاء بالحساب ؛ لأنّ ما يجازَى به العبد هو كُفْءٌ لفعله ولمقداره ، فهو حسابٌ له إذا كان مماثلا مكافئاً .

وممّا يشهد بأنّ فى الحساب معنى الكفاية والمكافأة قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ ؛ [النبأ : ٣٦] ، أى عطاء كافياً ، ويقال : أحْسَبَنى الطعامُ يُحسِبنى إحساباً إذا كفانى ، قال الشاعر :

وإذْ لا تَرَى فى النَّاس حُسناً يَفُوتُها ... وفى النَّاسِ حُسنٌ لو تَأمَّلتَ مُحْسِبُ[2]

معناه كافٍ .

---

(١) ت : « الحساب » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « يصف امرأة بالحسن ويبالغ فى وصفها ؛ يقول : ما رأينا حسنا فات هذه المرأة وتعداها مع أن ما فى الناس كفاية حسن » .

وثانيها أنْ يكون المراد أنّه عزّ وجل يُحاسِب الخلق جميعاً فى أوقات يسيرة ، ويقال : إنّ مقدارَ ذلك مقدارُ حلْبُ شاةٍ ؛ لأنه تعالى لايَشْغَلُه محاسبةُ بعضِهم عن محاسبة غيره[(١)] ؛ بل يكلِّمهم جميعاً ويحاسبهم كلَّهم على أعمالهم فى وقت واحدٍ ؛ وهذا أحدُ مايدلُّ على أنّه تعالى ليس بجسم ، وأنّه لا يحتاج فى فعل الكلام إلى آلة ؛ لأنه لو كان بهذه الصفات ـ تعالى عنها ـ لما جاز أن يخاطِب اثنين فى وقت واحدٍ بمخاطبتين مختلفتين ؛ ولكان خطابُ بعض الناس يشغلُه عن خطاب غيره ، ولكانتْ مدةُ محاسبته للخلق على أعمالهم طويلة غير قصيرة ؛ كما أنّ جميع ذلك واجب فى المحدَثين الذين يفتقرون فى الكلام إلى الآلات .

وثالثها ماذكره بعضُهم من أنّ المراد بالآية أنه سريعُ العلم بكل محسوبٍ ، وأنه لما كانت عادةُ بنى الدنيا أن يستعمِلوا الحساب والإحصاء فى أكثرأمورِهم ؛ أعلمهم الله تعالى أنّه يعلم ما يحسِبون بغير حسابٍ ؛ وإنما سُمِّى العلم حساباً لأنّ الحساب إنما يُراد به العلم ؛ وهذا جوابٌ ضعيف ؛ لأن العلم بالحسابِ أو المحسوب لا يسمَّى حساباً ، ولو سمِّى بذلك لما جاز أيضاً أن يقال إنه سريع العلم بكذا ؛ لأنّ علمَه بالأشياء مما لا يتجدّد فيوصف بالسرعة .

ورابعها أنّ الله تعالى سريعُ القبول لدعاء عباده والإجابة لهم ؛ وذلك أنّه يُسأل فى وقت واحدٍ سؤالات مختلفة / من أمور الدنيا والآخرة ، فيجزِى كلَّ عبدٍ بمقدار استحقاقه [١٣٠] ومصلحته ، فيوصِل إليه عند دعائه ومسألتِه ما يستوجبه بحد ومقدار ؛ فلو كان الأمر على مايتعارفه الناسُ لطال العدد واتصل الحسابُ ، فأعلمنا تعالى أنّه سريعُ الحساب ، أى سريعُ القبول للدعاء بغير إحساس وبحث عن المقدار الذى يستحقّه الداعى ؛ كما يبحث المخلوقون للحساب والإحصاء ؛ وهذا الجواب مبنىّ أيضاً على دعوَى أنّ قبولَ الدعاء لا يسمَّى حساباً فى لغةٍ ولا عُرْفٍ ولا شَرْعٍ . وقد كان يجب على مَنْ أجاب بهذا الجواب أن يستشهد على ذلك بما يكون حجة فيه ، وإلّا فلا طائل فيما ذكره .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « بعض » .

ويمكن فى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالحساب محاسبةَ الخلق على أعمالهم يوم القيامة ومواقفتهم عليها ، وتكون الفائدة فى الإخبار بسرعته الإخبار عن قرب الساعة ؛ كما قال تعالى : ﴿ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ .

وليس لأحد أن يقول : فهذا هو الجواب الأول الذى حكيتموه ؛ وذلك أن بينهما فرقاً ؛ لأن الأول مبنىّ على أن الحساب فى الآية هو الجزاء والمكافأة على الأعمال، وفى هذا الجواب لم يخرج الحساب عن بابه وعن معنى المحاسبة ، والمقابلةِ بالأعمال وترجيحها، وذلك غير الجزاء الذى يفضى الحساب إليه .

وقد طعن بعضهم فى الجواب الثانى معترضاً على أبى علىّ الجُبّائىّ فى اعتماده إياه [(١)] بأن قال [(١)] : مخرج الكلام فى الآية على وجه الوعيد ، وليس فى خفّة الحساب وسرعة زمانه مايقتضى زجراً ، ولا هو ممايتوعد بمثله ؛ فيجب أن يكون المراد الإخبار عن قرب أمر الآخرة والمجازاة على الأعمال .

وهذا الجواب ليس أبوعلىّ هو المبتدئُ به، بل قد حُكِىَ عن الحسن البصرىّ، واعتمده أيضاً قُطْرُب بن المستنير النحوىّ : وذكره المفضّل بن سلمة، وليس الطّعن الذى حكيناه عن هذا الطاعن بمبطل له ، لأنه اعتمد على أنّ مخرج الآية مخرج الوعيد ، وليس كذلك ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ؛ [البقرة : ٢٠٠ — ٢٠٢]، فالأشبه بالظاهر أن يكون الكلام وعداً بالثواب ، وراجعاً إلى الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا/فِى الدُّنْيَا [١٣٠ ط] حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ، أويكون راجعاً إلى الجميع، فيكون المعنى: إن للجميع نصيباً مما كسبوا ؛ فلا يكون وعيدا خالصاً ؛ بل إما أن يكون وعدا خالصاً أو وعداً ووعيداً ، على أنه لو كان وعيداً خالصا على ما ذكر الطاعن لكان لقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ

(١ — ١) ت : « فقال » .

سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾، على تأويل من أراد قِصَرَ الزمان ، وسرعة الموافقة وجهٌ وتعلّقٌ بالوعد والوعيد ؛ لأن الكلام على كل حال متضمّن لوقوع المحاسبة على أعمال العباد ، والإحاطة بخيرها وشرّها؛ وإن وصف الحساب مع ذلك بالسرعة ؛ وفى هذا ترغيب وترهيب لا محالة ، لأن مَن علم أنه يحاسب بأعماله ، ويواقَفُ(1) على جميلها وقبيحها انزجر عن القبيح ورغب فى فعل الواجب .

فبهذا ينفصِّر الجواب ، وإن كنا لاندفع أن فى حمل الحساب على قرب المجازاة ، أوقرب المحاسبة على الأعمال ترغيباً فى الطاعات وزجرا عن المقبّحات ؛ فالتأويل الأول أشبه بالظاهر ونَسق الآية ، إلا أن التأويل الآخر غير مدفوع أيضا ولا مرذول(2) .

تأويل آية أخرى

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾؛ [البقرة: ٢١٢].

فقال : أىُّ تمدُّح فى الإعطاء بغير حساب ، وقد يكون المعطى بحساب أجزلَ عطيةً من المعطى بغير حساب ؟ .

الجواب ، قلنا فى هذه الآية وجوهٌ :

أولها أن تكون الفائدة أنه تعالى يَرْزُقُ مَن يشاء بغير تقدير من المرزوق ولا احتساب منه ، فالحساب هاهنا راجع إلى المرزوق لا إليه تعالى؛ كما يقول القائل : ما كان كذا وكذا فى حسابى ، أى لم أؤمله ، ولم أقدّر أنه يكون ؛ وهذا وصفٌ للرزق بأحسن الأوصاف؛ لأن الرزق إذا لم يكن محتَسَبا كان أهنأ له وأحلى؛ وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية أنه قال : عنَى بها أموال بنى قُريظة والنَّضير ، وأنّها تصير إليكم بغير حساب ولا قتال ، على أسهل الأمور وأقربها وأيسرها .

(1) ط : « ويوقف » . (2) د : « مردود » .

وثانيها أن الله تعالى يرزق مَن يشاء رزقا غير مضيّق ولا مقتَّر ؛ بل يزيد فى السَّعة والكثرة على كل عطاء المخلوقين(١) ، فيكون نفى الحساب فيه نفيا(٢) للتضييق ، ومبالغة فى وصفه بالسَّعة ، والعرب تسمّى العطاء القليل / محسوبا ؛ قال قيس بن الخطيم : [١٣١ و]

أنَّى سرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ ! ... وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ(٣)
ما تمنعى يَقْظَى فقدْ تُؤْتِينَهُ ... فى النَّوْمِ غيرَ مُصَرَّدٍ مَحْسوبِ(٤)

وثالثها أن يكون المعنى أنه يرزق مَن يشاء ، أى من غير طلب للمكافأة أو إراغةٍ لفائدة تعود إليه ، أو منفعة ترجع عليه ، لأنَّ مِنْ شأن أهل الدنيا أن يُعطوْا ليكافئوا وليتقدموا ، ولهذا يقال فيمن يقصد بالعطية إلى هذه الأمور : فلان يحاسِب الناس فيما يعطيهم ، ويناقشهم فيما يوصّله إليهم ، وما أشبه ذلك ، فلما انتفت هذه الأمور من عطاياه سبحانه جاز أن يقول إنه يرزق بغير حساب .

ورابعها ما أجاب به قُطْرُب ، قال : معنى الآية يعطى العدد الكثير لا مما(٥) يضبطه الحساب ، أو يأتى(٦) عليه العدد ، لأن مقدوره تعالى لا يتناهَى ، وما فى خزائنه لا ينحصر ، ولا يصحّ عليه النفاد ؛ وليس كالمعطى منَّا الألف من الألفين ، والعشرة من المائة ؛ لأن مقدار ما يَتْبع له ويتمكّن منه محدود متناهٍ ، ولا تناهيَ ولا انقطاع لما يقدِر سبحانه عليه .

وخامسها أنهُ يعطى عباده فى الجنة من النعيم واللذات أكثر مما استحقوا ، وأزيد مما وجَب لهم ، بمحاسبته إياهم على طاعتهم كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً

(١) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « عطاء المخلوقين » . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) « تقيضا » .

(٣) ديوانه : ٥ ، وأمالى القالى ٢ : ٢٧٣ ، وحماسة ابن الشجرى : ١٨٩ ، واللآلى : ٥٢٤ . وفى حاشية الأصل : « يخاطب خيال امرأة رآها فى المنام ؛ يتعجب من سير خيالها إليه وكانت غير معتادة للسير ، والسروب : السارى ، وقيل : السرب سير النهار » . وفى حاشية ت : « أنى سريت ... » .

(٤) المصرد : المقطع ؛ وفى حاشية ت : « وبعده :

كانَ المنَى بلقائِها فلقيتُها ... فلهوتُ من لهوِ امرئٍ مكذوبِ

(٥) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « مما لا يضبطه الحساب » .

(٦) ت : « إذ يأتى عليه العدد » .

حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ؛ [البقرة : ٢٤٥] وكما قال عز وجل : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ؛ [التغابن : ١٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ؛ [فاطر : ٣٠] .

وسادسها أن يكون المعطى منّا غيرَه شيئا والرازق سواه رزقا قديكون له ذلك، فيكون فعله حسنا لا يُسأل عنه ، ولا يؤاخذ به ، ولا يُحاسب عليه؛ وربما لم يكن له ذلك، فيكون فعله قبيحا يؤاخذ به ، ويحاسب عليه ، فنفى الله تعالى عن نفسه أن يفعل من الرزق القبيح، وماليس له أن يفعله بنفي الحساب عنه ، وأنبأ أنه لا يَرْزُق ولا يُعطِى إلا على أفضل الوجوه وأحسنها وأبعدها من الذمّ ؛ وتجرى الآية مجرى قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ؛ [الأنبياء : ٢٣] ، وإنما أراد أنه تعالى من حيثُ وقعتْ أفعاله كلُّها حسنة [١٣٠ ظ] غير قبيحة لم يجُزْ أن يُسْأل عنها / وإن سُئل العباد عن أفعالهم ، لأنهم يفعلون الحسَن والقبيح معاً .

وسابعها أنّ الله تعالى إذا رزق العبدَ وأعطاه من فضله كان الحسابُ عن العبد ساقطاً من جهة الناس ، فليس لأحدٍ أن يقولَ له : لِمَ رُزِقْتَ ؟ ولا يقول لربه : لِمَ رَزقته ؟ ولا يسأله ربُّه عن الرزق ، وإنما يسأله عن إنفاقه فى الوجوه التى يُنفقه فيها ، فيسقُط[١] الحساب من هذه الوجوه عمّا رزقه الله تعالى ، ولذلك قال تعالى : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وثامنها أن يكون المرادُ بـ ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يرزقه من أهل الجنة ، لأنه يرزقهم رزقاً لا يصحّ أن يتناول جميعَه الحساب ، ولا العدد والإحصاء من حيث لا نهايةَ له ولا انقطاع للمستحَقّ منه ؛ ويطابق هذه الآية قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ؛ [غافر : ٤٠] .

---

(١) ت : « فسقط ».

تأويل خبر

إن سأل سائلٌ عن الخبر الذي يُرْوَى عن زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أنه قال : « توضَّئُوا مِمَّا غيَّرت النار » ، فقال : ما المرادُ بالوُضوء هاهنا ومذهبُكم أن مَسّ ما غيَّرته النارُ لا يوجب وضوءًا ؟

الجواب ، إن معنى « توضئوا » أي نظِّفوا أيديَكم من الزُّهومة ، لأنه رُوِي أنّ جماعة من الأعراب كانوا لا يغسلون أيديَهم من الزُّهومة ويقولون : فقدُها أشدُّ علينا من رِيحها ، فأمر عليه السلام بتنظيف الأيدي لذلك(١) .

فإن قيل : كيف يصحّ أن تحملوا الخبرَ على اللفظ اللغوي ، مع انتقاله بالعرف الشرعيّ إلى الأفعال المخصوصة ، بدلالة أنّ مَنْ غسل يده أو وجهه لا يقول بالإطلاق : « توضأت » ، ومتى سلِم لكم أن الوضوء أصلُه من النظافة لم ينفعكم مع الانتقال الذي ذكرناه ، وكلامه عليه السلام أخصُّ بالعُرْف الشرعيّ ، وحملُه عليه أولى من حَمْله على اللغة .

قلنا : ليس يُنْكَر(٢) أن يكون إطلاق الوُضوء هو المنتقِل من اللغة إلى عُرْف الشرع ، والمختصُّ بالأفعال المعيَّنة ، وكذلك المضاف منه إلى الحدَث أو الصلاة وما أشبههما(٣) . فأما المضافُ إلى الطعام وما جرى مَجْراه فباقٍ على أصله ؛ ألا ترى أنّهم لو قالوا : توضأتُ من الطعام ، ومن الغَمَر(٤) ، أو توضأت للطعام لم يفهم منه إلّا الغسل والتنظيف ، وإذا قالوا : توضأت إطلاقاً ، أو توضأت من الحدَث أو للصلاة فُهِمَ منه / الأفعالُ الشرعية ؛ فليس [١٣٢ و] يُنْكَر ما ذكرناه من اختصاص النَّقل ، لأنه كما يجوز انتقالُ اللفظة من فائدة في اللغة إلى فائدة في الشرع على كلّ وجه ، كذلك يجوز أن تَنتقل على وجهٍ دون وجه ، وتَبقى من الوجه الذي لم تَنتقِل منه على ما كان عليه في اللغة .

وقد ذهب كثير من الناس إلى أنّ إطلاق لفظة « مؤمن » منتقِل من اللغة إلى عرف

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « عن ذلك » . (٢) حاشيةت (من نسخة) : « ليس تنكر » .
(٣) في حاشيتي ت (من نسخة) : « وما أشبهها » . (٤) الغمر ، بالتحريك : زَنَخ اللحم .

الدين ومختصّ باستحقاق الثواب ، وإن كان مقيدُها باقياً على ما كان عليه فى اللغـــة . ويبيّن ذلك أيضاً ماروى عن الحسَن أنه قال: « الوضوء قبل الطعام ينفى الفقر ، وبعدَه ينفى اللَّمم»؛ وإنما أراد غسل اليدين بغير شك . ورُوِى عن قَتادة أنه قال: « غَسْلُ اليد وُضوء » وروَى عِكْراش[1] أن رسول الله صلى الله عليه وآله أكلَ [2] وغسلَ يده ومسح ببلل يديه وجهَه[2] وذراعيْه ورأسَه[3] ، وقال : « هكذا الوضوء ممّا مست النار » ، على أنه لو كانت هذه اللفظة منتقِلة على كلّ حال إلى الأفعال الشرعية المخصوصة لصحّ أن نحملَه[4] فى الخبر على خلاف ذلك ، ونردُّها إلى أصلها بالأدلّة ، وإن كان الأوْلى لولا الأدلةُ أن نحملَ على مقتضى الشرع[5] .

فمن الأدلة على ماذكرناه مارواه ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله أكل كَتِف شاةٍ ، وقام فصلّى ولم يتوضأ . وروى عطاء عن أمّ سلمة قالت: قرّبْتُ جَنْباً مشوياً إلى النبى صلى الله عليه وآله، فأكل منه ، وصلّى ولم يتوضأ . وروى محمد بن المنكدِر عن جابر أنه قال : كان آخر الأمريْن من رسول الله صلى الله عليه وآله تركَ الوضوء ممّا مسّت النار[6] .

وكلُّ هذه الأخبار توجِب العدول عن ظاهر الخبر الأول لو كان له ظاهر ، فكيف وقد بيّنا أنّه لاظاهر له !

فأما اشتقاق الوضوء فهو من الوضاءة التى هى الحسْن ، فلما كان مَنْ غسل يده ونظفها قد حسّنَها قيل وضّأها ؛ ويقال : فلان وضىء الوجْه وقومٌ وِضاءٌ ، قال الشاعر :

(١) هو عكراش بن ذؤيب بن حرقوص ، وفى ت ، ف : « عكرمة عن أنس » .

(٢ـ٢) حاشية ت (من نسخة) : « وغسل يديه ، ومسح ببلل يديه » .

(٣) حاشية ت (من نسخة) : « وبلل ذراعيه رأسه » . (٤) ت ، د ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « نحملها » .

(٥) حواشى الأصل ، ت ، ف : « إنما نحمل اللفظة على العرف الشرعى فيما يتعلق بالأحكام الشرعية فحسب » . (٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « كان فى الأول يتوضأ مما مسته النار ثم تركه » .

مَسَامِيحُ الفِعَالِ ذَوُو أَنَاةٍ ... مَرَاجِيحٌ وأَوْجُهُهُمْ وِضَاءُ[(1)]

والوُضوء ، بضم الواو : المصدر ، وكذلك أيضاً التوضؤ والوَضوء ، بفتح الواو : اسمُ مايتوضأ به ، وكذلك/الوَقود اسمٌ لما تُوقَد به النار : والوُقود، بالضم : المصدر ، ومثله التوقُّد ، [١٣٢ ط] وقد يجوز أن يكون الوَقود ، بفتح الواو : المصدر ، وكذلك الوَضوء بفتح الواو ؛ كما قالوا : حَسنَ القَبول ، فجعلوا القَبول مصدراً ، وهو مفتوح الأول ، ولا يجوز في الوُقود والوُضوء بالضم إلا معنى المصدر وحده ، قال جرير .

أَهَوىً أَرَاكَ بِرَامَتَيْنِ وُقُودَا ... أَمْ بِالجُنَيْنَةِ مِنْ مَدَافِعِ أَوْدَا[(2)]

وقال آخر :

إِذَا سُهَيْلٌ لَاحَ كَالوُقُودِ ... فَرْداً كَشَاةِ البَقَرِ المَطْرُودِ

وقال آخر :

وأَجَّجْنا بِكُلِّ يَفَاعِ أَرْضٍ ... وُقُودَ النَّارِ لِلمُتَنَوِّرِينَا[(3)]

***

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال حدثني محمد بن إبراهيم قال حدثنا أحمد بن يحيى قال حدثنا عمر بن شبَّة قال حدثنا إبراهيم بن المنذر قال حدثني إبراهيم بن محمد عن عبد العزيز ابن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن ابن شهاب قال : أتيتُ عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود[(4)] يوماً في منزله ، فإذا هو مَغيظ[(5)] ينفُخ، فقلت له : مالي أراك هكذا ! قال : دخل عليّ[(6)] عامِلُكم هذا ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ ومعه عبد الله بن عمرو بن عثمان

(١) حاشية ف : « السمح : الجواد والجمع سمحاء ؛ ومساميح ؛ كأنه جمع مسماح . والمراجيح : الحلماء » .

(٢) ديوانه ١٦٩ . ورامة والجنينة وأود : مواضع . والمدافع : جمع مدفع ؛ وهو مسيل الماء إلى الوادي وفي حاشيتي الأصل ، ف : « يقول : الذي يريك وقود النار بهذه المواضع عشق هنا » .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض ؛ والمتنور : من ينظر إلى النار من بعيد ؛ قال امرؤ القيس :

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتَ وَأَهْلُهَا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ

(٤) أحد الفقهاء السبعة بالمدينة توفي سنة ٩٨ ؛ وكان ضريرا ؛ ذكره الصفدي في نكت الهميان : ١٩٧ـ١٩٨ ، وانظر ترجمته وأشعاره في الأغاني ٨ : ٨٨ـ٩٥ .

(٥) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « متغيظ » .

(٦) ت : « دخلت على عاملكم » .

فسلّمت، فلم يردّا علىّ السلامَ، فقلت[١]:

أَلَا أبلغا عنّى عِراكَ بنَ مالكٍ ... فإنْ أنتَ لمْ تفعلْ فأبلغْ أبا بكْرِ[٢]
فقدْ جعلَتْ تبدُو شَوا كِلُ مِنكُما ... فإنّكُما بِى مُوقَرانِ مِنَ الصخْرِ[٣]
وطاوَعْتُما بِى غادِراً ذَا معاكَةٍ ... لَعَمْرِى لقدْ أَوْرَى وما مِثْلُهُ يُورِى[٤]

ـ يقال: معك به وسدل به [٥]إذا تعرّض له بشر[٥] ـ

فلولا اتّقا اللهِ اتّقائِىَ فيكُما ... لَلُمْتُكُما لوماً أحرَّ مِنَ الجمْرِ[٦]
فَمسّا تُرابَ الأرْضِ، مِنْها خُلِقْتُما ... وفيها المَعادُ والمَقامُ إلى الحشْرِ
ولاَ تأنَفَا أنْ تَغْشَيَا فتُكَلِّمَا ... فما خُشِىَ الأقْوامُ شرّاً مِنَ الكِبْرِ[٧]
ولوْ شِئْتُ أَدْلَى فيكُما غيرُ واحِدٍ ... عَلاَنِيَةً أو قال عِنْدِىَ فى السِّرِّ[٨]

/ ـ معناه: لوشئت اغتابكما عندى غير واحد ـ

فإنْ أنا لمْ آمُرْ ولمْ أنهَ عنكُما ... ضَحِكْتُ لهُ حتّى يَلِجَّ ويَسْتَشْرِى[٩]
وكيفَ تُريدانِ ابنَ سبعينَ حِجّةً ... على ما أتَى وهوَ ابنُ عِشْرِينَ أوعَشْرِ[١٠]

---

(١) الخبر بروايته عن ابن شهاب فى (الأغانى ٨: ٩١ـ٩٢)، وفيه رواية أخرى أيضا ص ٩١ عن ابن اديس: «كان عراك بن مالك وأبوبكر بن حزم وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة يتجالسون بالمدينة زمانا؛ ثم إن ابن حزم ولى إمرتها، وولى عراك القضاء، وكانا يمران بعبيد الله فلا يسلمان عليه ولا يقفان ـ وكان ضريرا ـ فأخبر بذلك فأنشأ يقول ... »، وأورد الأبيات. (٢) حاشية ت (من نسخة): ألا أبلغن»

(٣) الشوا كل: جمع شاكلة؛ وهى الخاصرة، وأرادبها هاهنا أموراً ينكرها. وبى؛ أى بمكانى

(٤) فى حاشيتى الأصل، ف: «قوله: «وطاوعتمانى» فى حيز التشبيه؛ يقول: كأنكما موقران، وكأنكما إذ طاوعتمانى طاوعتما غادراً مريضا. ثم قال: لعمرى لقد أورى هذا الفعل منكما؛ أى فسد؛ من ورى جوفه؛ أو أوقد ـ يعنى شرا، أى أثر وكنت لا أتأثر بمثل ذلك»

(٥ـ٥) ت: «إذا تعرض به لشر». (٦) حاشية ف: «أى لولا اتقائى بتقى الله لامتكما؛ وهو مثل؛ ويجوز أن يكون قوله: «اتقائى» مفعولا له؛ أى للاتقاء. (٧) ت، حاشية الأصل (من نسخة): «تكلما»، بكسر اللام المشددة وفى حاشية الأصل أيضا (من نسخة): «أن ترجعا فتسلما». (٨) من نسخة بحاشيتى الأصل، ت: «عندى فى سر». يقال: أدلى فلان فى فلان إذا قال فيه قولاقبيحا. (٩) الضمير فى «له» يعود إلى المغتاب، واستشرى فى الأمر: لج فيه؛ أى يجترئ ويظهر؛ وأصل الكلمة الاستخراج. (١٠) يريد أن يقول: كيف تريدانى على ماامتنعت عنه وأنا صبى!

لقـــد عَلِقتْ دَلوا كما دَلْوَ حُوَّلٍ ... مِن القَوْمِ لارِخْوِ المَرَاسِ ولا نَزْرِ[1]

قال ابن شهاب : فقلت له : بِمثلك يَرْحَمُكَ الله مع نُسُكِكَ وفَضْلك وفَهْمِك[2] يقول الشعر ! فقال : إن المصدور إذا نفث بَرِئْ .

وإنما ذكر عِراكَ بن مالك وأبا بكر بن عمرو بن حَزْم ـ وكانا صديقيه ـ كناية بذكرهما عن ذكر غيرهما .

وقدجاءت رواية أخرى أن أبا بكر بن عمر[3] بن حَزْم وعراك بن مالك كانا يجتازان على عبيد الله فلا يسلّمان عليه، فقال الأبيات يخاطبهمابها .

وروى محمد بن سلّام لعبيد الله بن عبد الله بن عُتْبَةَ :

إذا كانَ لى سرٌّ فحَدَّثتُهُ العِدَى ... وضاقَ به صدْرِى ، فلَلنَّاسُ أعذَرُ[4]

هوَ السِّرُّ ما استَوْدَعْتَهُ وكتمتَهُ ... وليسَ بسِرٍّ حِينَ يَفْشُو ويظْهَرُ[5]

وأنشد مصعب الزبيرىّ لعبيد الله بن عتبة بن مسعود :

أُواخِى رِجالاً لستُ مُطلِعَ بَعْضِهِمْ ... على سِرِّ بَعضٍ إنَّ صَدْرِىَ واسِعُه

إذا هِىَ حلَّتْ وَسْطَ عُوذِ ابنِ غالبٍ ... فذلِكَ وُدٌّ نازِحٌ لا أطالِعُه[6]

تَلاقَتْ حيَازِيمُ على قَلبِ حازِمٍ ... كَتومٍ لِمَا ضُمَّتْ عليـهِ أضالِعُه[7]

بَنَى لىَ عَبدُ اللهِ فى سُورَةِ العُلا ... وعُتبَةُ مَجْدًا لا تُنالُ مَصانِعُه[8]

والبيت الأول يشبه قول مسكين الدارمىّ :

وفِتْيانِ صِدْقٍ لستُ مُطْلِعَ بَعضِهِمْ ... على سِرِّ بَعْضٍ غيرَ أنِّى جِماعُها[9]

(١) حول : شديد الاحتيال ؛ أى أنكما ، وقعتما على من لاتطيقان دفعه عن أنفسكما .

(٢) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « وفقهك » .   (٣) حاشية (من نسخة) : « عمرو » .   (٤) العدى بالكسر : الأجانب ، وبالضم الأعداء .   (٥) حاشية ت (من نسخة) : « وحفظته » .   (٦) الضمير يعود على المودة ، وعوذ : جمع عائذ ، وهى الحديثة النتاج من الإبل وغيرها .

(٧) فى الأغانى : « شددت حيازيمى » . والحيزوم : وسط الصدر . ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « ضمت » ، بالبناء للمعلوم   (٨) المصانع : الأبنية . (٨) الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ١٢٦ .

ومما يستَحْسَن لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة قوله :

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمةَ في فؤادِي ... فبادِيه مع الخافي يسيرُ[1]

تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبلُغْ شرابٌ ... ولا حُزْنٌ ولم يَبلُغْ سُرُورُ

[١٣٣ ظ] / شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيه ... هَوَاكِ فليمَ فالْتأَمَ الفُطُورُ[2]

أكادُ إذا ذكرْتُ العَهْدَ منها ... أطيرُ لوَ انّ إنساناً يَطيرُ

غَنِيُّ النفسِ أنْ أزْدادَ حُبًّا ... ولكنّي إلى وَصْلٍ فقيرُ[3]

وأخذ هذا المعنى أبو نواس فقال :

أحْللتِ في قلبي هَوَاكِ مَحِلَّةً ... ماحلَّها المشْرُوبُ والمأْكولُ[4]

وأخذه المتنبي في قوله:

وللسِّرِّ مِنِّي موضعٌ لا ينالُه ... نَديمٌ ولا يُفضِي إليه شَرابُ[5]

وكأنَّ العباس بن الأحنف ألمَّ به في قوله :

لو شُقَّ عن قلبي يُرى وَسْطَهُ ... اسْمُكِ والتوْحيدُ في سَطْرِ

وقال الصاحب اسماعيل بن عباد :

لوْ شُقَّ قلبي لرَأَوْا وَسْطَهُ ... سَطْرَيْنِ قد خُطَّا بلا كاتبِ

العَدْلُ والتّوْحِيدُ في جانبٍ ... وحُبُّ أهلِ البيتِ في جانبِ

وقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحسن من الجميع وبعده بيت المتنبي .

ولعبيد الله بن عبد الله بن عتبة :

لعَمْرُ أبي المحسنَ أيّامَ نلتقِي ... لِما لا نُلاقيها من الدّهْرِ أكثرُ

(١) الأبيات في أمالي القالي ٣ : ٢١٧ ، وذكر صاحب الأغاني أن عثمة زوجه .

(٢) الفطور : الشقوق . (٣) حاشية ت : « يعني أنه يستغني عن ازدياد حب إلى حبه ، لأنه قد تناهى . وأن أزداد ، يعني : عن أن ازداد » . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « المأكول المشروب » . (٥) ديوانه : ١٩٢ .

ومما يستَحْسَن لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة قوله :

تَغَلْغَلَ حُبُّ عثمةَ فى فؤادِى ... فبادِيه مع الخافى يسيرُ(١)

تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبلُغْ شَرابٌ ... ولا حُزْنٌ ولم يبلغْ سُرُورُ

[١٢٣ ظ] / شَقَقْتِ القلبَ ثم ذَرَرْتِ فيه ... هَوَاكِ فليمَ فالتأمَ الفُطُورُ(٢)

أكادُ إذا ذكَرْتُ العهدَ منها ... أطيرُ لوَ انَّ إنساناً يطيرُ

غنِىُّ النفسِ أن أزدادَ حُبًّا ... ولكنّى إلى وصْلٍ فقيرُ(٣)

وأخذ هذا المعنى أبو نواس فقال :

أحللتِ فى قلبى هَوَاكِ محلَّةً ... ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ(٤)

وأخذه المتنبي فى قوله :

وللسِّرِّ منى موضعٌ لا يناله ... نديمٌ ولا يفضى إليه شَرابُ(٥)

وكأنَّ العباس بن الأحنف ألمَّ به فى قوله :

لو شُقَّ عن قلبى يُرى وسْطَهُ ... اسمُكِ والتوحيدُ فى سَطْرِ

وقال الصاحب اسماعيل بن عباد :

لو شُقَّ قلبى لرأَوْا وسْطَهُ ... سطرين قد خُطّا بلا كاتبِ

العَدْلُ والتوحيدُ فى جانبٍ ... وحُبُّ أهلِ البيتِ فى جانبِ

وقول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحسن من الجميع وبعده بيت المتنبي .

ولعبيد الله بن عبد الله بن عتبة :

لعَمْرُ أبى المحسينَ أيّامَ نلتقى ... لِما لا نلاقِيها مِن الدهرِ أكثرُ

(١) الأبيات فى أمالى القالى ٣ : ٢١٧ ، وذكر صاحب الأغانى أن عثمة زوجه .

(٢) الفطور : الشقوق . (٣) حاشية ت : « يعنى أنه يستغنى عن ازدياد حب إلى حبه ، لأنه قد تناهى . وأن أزداد ، يعنى : عن أن ازداد » . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « المأكول المشروب » . (٥) ديوانه : ١٩٢ .

يَعُدُّونَ يوماً واحداً إنْ أتيتُهمْ ... ويَنسَوْنَ ما كانتْ على الدَّهرِ تَهْجُرُ
فإنْ يكُنِ الوَاشونَ أغرَوْا بِهجْرِنا[1] ... فإنَّا بتَجْدِيدِ المَوَدَّةِ أجدَرُ

ومن مستحسن قوله :

لَعَمْرِي لئِنْ شطَّتْ بعَثْمةَ دارُها ... لقد كُنتُ في وَشْكِ الفِراقِ أُلِيحُ[2]
أرُوحُ بهَمٍّ ثمَّ أغدُو بمِثلِهِ ... ويُحسَبُ أنِّي في الثِّيابِ صَحيحُ

أخذ هذا المعنى بشار، فقصّر عنه في قوله :

يُصبِحُ محزُوناً ويُمْسِي بهِ ... وليسَ يَدْرِي مالَهُ عِندَكِ

---

(١) م : « بهجرها » . (٢) ت ، وحاشية الأصل من نسخة : « من وشك الفراق » .
وأليح : أشفق .

مجلس آخر [٣٠]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى حاكياً عن شعيب عليه السلام : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ؛ [الأعراف : ٨٩] .

فقال : أليس هذا تصريحاً منه بأنّ الله تعالى يجوزُ أنْ يشاء الكفر والقبيح ؛ لأن مِلّةَ / قومه كانت كفراً وضلالاً ، وقد أخبرَ أنّه لا يعود فيها إلّا أنْ يشاء الله ؟ [١٣٤]

الجواب ، قيل له فى هذه الآية وجوه :

أولها أن تكون المِلّةُ التى عَناها الله إنما هى العبادات الشرعيات؛ التى كان قومُ شعيب متمسكين بها ؛ وهى منسوخة عنهم ، ولم يَعْنِ بها ما يرجع إلى الاعتقادات فى الله وصفاته ؛ مما لا يجوز أن تختلف[(١)] العبادة فيه ، والشرعياتُ يجوز فيها اختلاف العبادة ؛ من حيث تَبِعَتِ[(٢)] المصالحَ والألطافَ والمعلومَ من أحوالِ المكلَّفين ؛ فكأنّه قال: إنّ ملتكم لانعود فيها ؛ مع علمنا بأنّ الله تعالى قد نسخها وأزال حُكمَها ، إلّا أن يشاء الله أن يتعبّدنا بمثلها فنعودَ إليها ؛ وتلك الأفعالُ التى كانوا متمسكين بها؛ مع نسخِها عنهم ونهيهم عنها ـ وإن كانت ضلالاً وكفراً ـ فقد كان يجوزُ فيما هو مثلُها أن يكون إيماناً وهُدًى ؛ بل فيها أنفُسِها قد كان يجوز ذلك ؛ وليس تجرى هـذه الأفعال مجرى الجهل بالله تعالى ، الذى لا يجوز أن يكون إلّا قبيحاً .

وقد طعن بعضُهم على هذا الجواب فقال : كيف يجوز أن يتعبّدهم الله تعـالى بتلك المِلّة مع قوله : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ ؟

---

(١) ت : « اختلاف العبادة . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « تتبع » .

فيقال له : لم ينفِ عَوْدَهم إليها على كل وجه؛ وإنما نفَى العودَ إليها مع كونها منسوخة منهيٌّ عنها ؛ والذى علّقه بمشيئة الله تعالى من العَوْد إليها هو بشرطِ أن يأمرَ بها ، ويتعبّد بمثلها ، والجوابُ مستقيم لا خلَلَ فيه .

وثانيها أنه أراد أنّ ذلك لا يكون أبداً من حيث علّقه بمشيئة الله تعالى لمّا كان معلوماً أنّه لا يشاؤه ؛ وكلُّ أمرٍ عُلِّق بما لا يكون فقد نُفِيَ كونُه على أبعد الوجوه ؛ وتجرى الآيةُ مجرى قوله تعالى: ﴿لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾؛[الأعراف: ٤٠] وكما يقول القائل : أنا لا أفعلُ كذا حتى يبيضَّ القار؛ أو يشيبَ الغراب ؛ وكما قال الشاعر :

وحتّى يئوبَ القارِظانِ كِلاهُما ... ويُنْشَرَ فى القَتْلَى كُلَيْبٌ لوائلِ (١)

والقارظان لا يئوبان أبداً، وكليب لا يُنشَر أبداً ؛ فكأنه قال : إنّ هذا لا يكون أبداً .

وثالثها / ما ذكره قُطْرب بن المستنير من أنّ فى الكلام تقديماً وتأخيراً ، وأنّ الاستثناء [١٢٤ ظ] من الكفار وقع لا من شعيب ؛ فكأنه تعالى قال حاكياً عن الكفار : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾؛[الأعراف : ٨٨] ، إلّا أن يشاء الله أن تعودَ فى ملّتنا ؛ ثم قال تعالى حاكياً عن شعيب : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ على كل حال .

ورابعها أن تعود الهاء التى فى قوله : ﴿فِيهَا﴾ إلى القرية لا إلى المِلّة ؛ لأن ذِكْرَ القرية قد تقدّم كما تقدم ذِكْرُ المِلّة ؛ ويكون تلخيص الكلام : إنّا سنَخرجُ من قريتكم ، ولا نعودُ فيها إلّا أن يشاء الله بما يُنجزه لنا من الوعد فى الإظهار عليكم ، والظَّفَر بكم ، فنعود إليها .

وخامسها أن يكونَ المعنى : إلّا أن يشاء الله أن يردّكم إلى الحق ، فنكونَ جميعاً على

---

(١) البيت لأبى ذؤيب الهذلىّ ، ديوان الهذليين ١ : ١٤٥ . والقارظان هما رجلان من عنزة؛ خرجا يتنحيان القرظ ويجتنيانه ، فلم يرجعا؛ فضرب بهما المثل ؛ وانظر اللسان (قرظ) ، وشرح ديوان الهذليين .

ملة واحدة غيرِ مختلفة ؛ لأنّه لما قال تعالى حاكياً عنهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ كان معناه : أو لتَكونُنَّ على ملة واحدة غيرِ مختلفة ، فحَسُنَ أن يقول من بعد : إلّا أنْ يشاء الله أن يجمعكم معنا على ملة واحدة .

فإن قيل : الاستثناء بالمشيئة إنما كان بعد قوله : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ ؛ فكأنه قال : ليس نعودُ فيها إلّا أن يشاء الله ، فكيف يصحّ هذا الجواب ؟

قلنا: هو كذلك ؛ إلّا أنه لمّا كان معنى ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ ، هو أن تصيرَ ملتُنا واحدة غير مختلفة جاز أن يوقع الاستثناء على المعنى فيقول : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أن نتفق في الملة بأنْ ترجعوا أنتم إلى الحق .

فإنْ قيل : فكأنّ الله تعالى ما شاء أن يَرْجع الكفار إلى الحق !

قلنا : بلى قد شاء ذلك ، إلّا أنه ما شاءه على كل حالٍ ، بل من وجهٍ دون وجه ، وهو أن يُؤمنوا ويصيروا إلى الحق مختارين ؛ ليستحِقُّوا الثواب الذى أجري[1] بالتكليف إليه ، ولو شاءه على كل حال لَما جاز ألّا يقع منهم ؛ فكأن شعيباً عليه السلام قال : إن ملّتَنا لا تكون واحدة أبداً؛ إلا أن يشاء الله أن يُلجئكم إلى الاجتماع معنا على ديننا وموافقتنا في ملتنا ؛ والفائدةُ في ذلك واضحة؛ لأنه لو أطْلَقَ أنّا لا نتفق أبداً ، ولا تصير ملتنا واحدة لتوهَّمَ متوهِّم أنّ ذلك مما لا يمكن على حال من الأحوال ؛ فأفاد بتعليقه[2] له بالمشيئة هذا الوجه ؛ ويجرى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ مجرى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ ؛ [يونس : ٩٩] .

[١٣٥ و] وسادسها أن يكون المعنى : إلاّ أن يشاء الله أن يمكّنكم من إكراهنا ، / ويخلّي بينكم وبينه ، فنعود إلى[3] إظهارها مكرهين؛ ويقوّي هذا الوجه قولُه تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ ؛ [الأعراف : ٨٨] .

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « الذى أجرى » بالألف . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « فأفاد تعليقه » . (٣) حاشية ت (من نسخة) : « فنعود فى إظهارها » .

وسائرها أن يكون المعنى إلّا أن يشاء الله أن يتعبّدنا بإظهار ملّتكم مع الإكراه؛ لأنّ إظهارَ كلمة الكفر قد تحسُن في بعض الأحوال إذا تعبّد الله تعالى بإظهارها؛ وقوله: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ يقوّى هذا الوجه أيضاً.

فإن قيل: فكيف يجوزُ من نبيّ من أنبياء الله تعالى أن يتعبّدَ بإظهار الكفر وخلافِ ما جاء به من الشّرع؟

قلنا: يجوز أن يكونَ لم يُرِدْ بالاستثناء نفسَه بل قومَه؛ فكأنه قال: وما يكون لي ولا لأمّتي أن نعودَ فيها إلّا أن يشاء الله أن يتعبّد أمتي بإظهار ملّتكم على سبيل الإكراه؛ وهذا جائز غير ممتنع.

تأويلُ خبر

روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «خَيْرُ الصَّدقة ما أبقت غِنًى، واليدُ العليا خيْرٌ من اليدِ السفْلَى، وابْدَأْ بمَنْ تعول».

وقد قيلَ في قوله: «خَيْرُ الصَّدَقة ما أبقت غِنًى»: قولان:

أحدها أنّ خيرَ ما تصدَّقْتَ به ما فَضَلَ عن[1] قوتِ عيالك وكِفايتهم، فإذا خرجَتْ صدقتُك عنك إلى مَنْ أعطيتَ خرجتْ عن استغناء منك ومن عيالك عنها؛ ومثلُه في الحديث الآخر: «إنما الصَّدقةُ عن ظَهْرِ غِنًى». وقال ابن عباس رحمةُ الله عليه في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾؛ [البقرة: ٢١٩]؛ قال: ما فَضَلَ عن أهلك.

والجواب الآخر، أن يكون أراد: خيرُ الصَّدَقة ما أغنيتَ به مَنْ أعطيتَ عن المسألة، أي تُجزِل له في العطيّة، فيستغني بها ويكفّ عن المسألة؛ وذلك مثلُ أن يريدَ الرجل أن يتصدق بمائة درهم، فيدفعها إلى رجل واحد محتاج، فيستغني بها ويكفّ عن المسألة، فذلك أفضلُ من أن يدفعها إلى مائة رجل لا تَبِينُ عليهم.

(١) حاشية ت (من نسخة): «ما فضل من قوت عيالك».

والتأويلُ الأوّلُ يشهد له آخِرُ الخبر وهو قوله : « وابْدَأْ بمَنْ تعولُ » ، ويشهدُ له الحديثُ الآخر أيضاً : « إنّما الصدقةُ عن ظهرِ غِنًى » .

وقوله : « اليدُ العليا خيرٌ من اليد السُّفلى » ، قال قوم : يريدُ أنّ اليدَ المعطية خيرٌ من الآخِذة ، وقال آخرون : إنّ العُليا هى الآخذة ، والسفلَى هى المعطية .

وقال ابنُ قتيبة : ولا أرَى هؤلاء إلّا قوماً استطابوا السؤالَ ؛ فهم يحتجُّون للدناءة؛ ولو كان هـذا يجوزُ لقيل : إن المولَى من فوق هو الذى أُعْتِق ، والمولَى من أسفل هو الذى أَعْتَق ، والناسُ إنّما يَعْلُونَ بالمطايا لا بالسؤال .

قال سيدنا أدام الله علوّه : وعندى أن معنى قوله عليه السلام : « اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى » غيرُ ماذكر من الوجهين جميعاً ؛ وهو أن تكونَ اليد هاهنا هى المعطية والنعمة؛ لأنّ النعمة قد تُسمَّى يداً فى مذهب أهلِ اللسان بغير شكٍّ ؛ فكأنه صلى الله عليه وآله أراد أنّ العطيةَ الجزيلةَ خيرٌ من العطية القليلة . وهذا حث منه صلى الله عليه وآله على المكارم ، وتحضيضٌ على اصطناع المعروف بأوْجَز الكلام وأحسنِه مَخرجاً .

ويشهدُ لهذا التأويل أحدُ التأويلين[1] المتقدمين فى قوله : « ما أبقتْ غِنًى » ، وهذا أشبهُ وأولى من أن تُحمَلَ اليدُ على الجارحة ؛ لأنّ مَنْ ذهب إلى ذلك وجعل المعطية خيراً من الآخذة لايستمرُّ قولُه ؛ لأنّ فيمَنْ يأخذ مَنْ هو خيرٌ عند الله تعالى ممّنْ يعطِى ؛ ولفظة « خير » لا تُحمَل إلّا على الفضل فى الدين واستحقاق الثواب ؛ فأمّا مَنْ جعَلَ الآخذة خيراً من المُعطية فيدخل عليه هـذا الطعن أيضاً ؛ مع أنّه قد قال قولًا شنِعاً[2] ، وعكَس الأمرَ على ماذكَر[3] ابنُ قتيبة .

فإن قيل : كيفَ يصحُّ تأويلُكم مع قوله عليه السلام: « خيرُ الصَّدَقه ماأبقت غِنًى » وهى[4] لا تبقى غِنًى إلّا بعد أن تَنقُصَ من غيرها ؟ وإذا كانتِ العطية التى هى أجزلُ

(١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « أحد الخبرين » .
(٢) م : « شنيعا » .
(٣) م : « ماقال » .
(٤) ت : « نعى » .

أفضلُ فتلك لاتُبقِي غِنًى ، والتى تبقِي غِنًى ليست الجزيلة، وهذا تناقض .

قلنا : أماتأويلنافطابق[١] للوجهين المذكورين فى قوله: « ما بقت[٢] غِنى » ؛ لأنَّ مَن تأوّل ذلك على أنَّ المراد بها المعطَى، وأنَّ خير المطية ما أغنته عن المسألة فالمطابقة ظاهرة ، ومَن تأوّله على الوجه الآخر، وحمل ماأبقى الغنى على المعطِي وأهله وأقاربه؛ فتأويلنا أيضاً مطابق له ، لأنه قد يكون فى العطايا التى يَبقى بعدها الغنى على الأهل والأقارب جزيلٌ وغير جزيل، فقال عليه السلام : « خير الصدقة ما بقت[٢] غنى » بعد إخراجها ؛ والعطية الجزيلة التى تُبقِى بعدها غِنًى خير من القليلةِ ، فمدح عليه السلام بعد إبقاء الغنى جزيلَ المطية ، وحثَّ على الكرم والفضل.

* * *

أخبرناأبوالقاسم عبيدالله بن عثمان بن يحيي بن جَنيقا قال أخبرنا أبو عبد الله الحكيميّ قال أمْلَى علينا أبو العباس/ أحمد بن يحيى النحويّ قال : أنشدنا ابن الأعرابىّ لثابت قُطْنَةَ [١٣٦ و] العَتَكِيّ[٣] :

يا هِندُ كيفَ بِنُصْبٍ باتَ يُبْكِيني ... وعائرٍ فى سَوادِ العَيْنِ يُؤذِيني[٤]

كأنَّ لَيلِيَ والأصْداءُ هاجِدةٌ ... لَيلُ السَّلِيمِ وأعْيا مَن يُداوِيني

لمَّا حَنَى الدَّهرُ مِن قَوْسِي وعذَّرَني ... شَيْبِي وقاسيتُ أمرَ الغِلْظِ واللِّينِ[٥]

(١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « فيطابق الوجهين » . (٢) ت : « ماأبقت » .

(٣) هو أبو العلاء ثابت بن كعب ، شاعر فارس ؛ من شعراء الدولة الأموية ، وكان فى صحابة يزيد بن المهلب ، ولقب قطنة ؛ لأن سهما أصابه فى عينه فى بعض حروب الترك . وانظر ترجمته وأخباره وأشعاره فى (الأغانى ١٣ : ٤٧ــ٥٤ ، والخزانة ٤ : ١٨٥ــ١٨٧ ، والشعر والشعراء ٦١٢ــ٦١٣) .

(٤) القصيدة فى رثاء المفضل بن المهلب ؛ وهند هى بنت المفضل ؛ دخل عليها ثابت ، والناس حولها جلوس يعزونها ؛ فلما أنشدها هذه القصيدة قالت: ليست المصيبة فى قتل من استشهد ذابا عن دينه ، مطيعا لربه ؛ وإنما المصيبة فيمن قلت بصيرته ، وخمل ذكره بعد موته؛ وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا » . والقصيدة فى (أمالى الزجاجى ١٣٠ــ١٣١ ، وأبيات منها فى الأغانى ١٣ : ٥١ــ٥٢) . النصب: البلاء والعذاب . والعائر : القذى والرمد ، وكذلك العوار .

(٥) عذرنى شيبى ؛ أى شيبنى من جانبى وجهى ؛ من العذارين .

إذَا ذَكَرْتُ أبا غَسَّانَ أرَّقَنى ... هَمٌّ إذا عَرَضَ السَّارُونَ يُشجينى[١]

كانَ المفضَّلُ عِزًّا فى ذَوِى يَمَنٍ ... وعِصْمَةً وثِمَالاً للمساكينِ[٢]

غيثًا لدَى أزْمةٍ غَبْرَاءَ شاتِيَةٍ ... مِنَ السِّنين ومأوَى كلِّ مِسكينِ[٣]

إنى تذكَّرتُ قتلَى لو شَهِدتُهُمُ ... فى حَوْمَةِ الحَرْبِ لم يَصْلَوْا بها دُونى

لاخَيْرَ فى العيشِ إذ لمْ نَجْنِ بعدَهُمُ ... حَرْبًا تُبِئُ بهم قتلَى فتَشْفِينى

لا خَيْرَ فى طَمَعٍ يُدْنِى إلى طَبَعٍ ... وغُفَّةٌ مِن قِوامِ العَيْشِ تَكْفِينى[٤]

[أنظُرُ فى الأمرِ يَعنِينى الجَوَابُ بهِ ... ولستُ أنظُرُ فيما ليس يَعْنِينى][٥]

لا أرْكَبُ الأمرَ تُزْرِى بى عواقِبُه ... ولاَ يُعابُ بهِ عِرْضِى ولاَ دِينى

لا يَغلِبُ الجَهلُ حلمى عند مَقْدِرَةٍ ... ولاَ العَضِيهةُ مِن ذِى الضِّغْنِ تُكْبِينى[٦]

كَمْ مِن عَدُوٍّ رَمانى لو قَصَدْتُ لهُ ... لمْ يأْخُذِ النِّصْفَ مِنّى حينَ يَرْمِينى[٧]

قال سيدنا أدام الله علوّه : وهذه الأبيات يروى بعضها لعُرْوة بن أُذَينة[٨] وتداخل أبياتًا على هذا الوزن ؛ وهى التى يقول فيها :

لقد عَلِمتُ وما الإِسْرافُ مِنْ خُلُقى ... أنَّ الذى هوَ رِزْقى سوف يأتِينى

أسْعَى له فيُعَنِّينى تَطَلُّبُهُ ... ولو قَعَدْتُ أتانى لا يُعَنِّينى

---

(١) ت: « إذاغرض » ، م : « إذاعرّس ». (٢) فى ذوى يمن ، أى فى اليمانين ، وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « فى ذرى يمن » ، جمع ذروة . وثمال المساكين : غياث لهم ، من ثمالهم ثملا إذا أطعمهم وسقاهم وقام بأمرهم . (٣) من نسخة بحواشى الأصل ، ت، ف: « لذى أزمة » . والأزمة : القحط . ويقال : شتا القوم إذا أجدبوا فى الشتاء خاصة ، وقال الأزهرى : العرب تسمى القحط شتاء ، لأن المجاعات أكثر ماتصيبهم فى الشتاء البارد . (٤) الغفة : البلغة من العيش . وفى أمالى الزجاجى : « من قليل العيش » . (٥) تكملة من ش ، ف ، د ، وأمالى الزجاجى . ومن نسخة بحاشيتى ت ، ف : « وانظر الأمر » . (٦) العضيهة : الإفك والبهتان ، أى لا أكبر إذا عضهنى ذو الضغن .

(٧) النصف : الانتصاف . (٨) هو عروة بن أذينة بن مالك ، من بنى الليث . شاعر غزل مقدم من شعراء أهل المدينة ، وهو معدود أيضا فى الفقهاء والمحدثين . وانظر ترجمته وأشعاره وأخباره فى (الأغانى ٢١ : ١٠٥—١١١ ، والشعر والشعراء ٥٦٠—٥٦٢) .

كم قد أفَدْتُ وكم أتلفتُ مِن نَشَبٍ ... ومِن مَعاريضِ رِزْقٍ غيرِ مَمْنُونِ
فما أشْرَتْ على يُسرٍ وما ضَرَعَتْ ... نَفْسي لِخَلَّةِ عُسْرٍ جاء يَبْلُونى[1]
خِيمى كَرِيمٌ ونفْسي لا تُحَدِّثُنى ... أنَّ الإلهَ بِلاَ رِزْقٍ يُخَلِّينى
/ولا اشْرَأَبَّتْ بِمَالي قَطُّ مَكْرُمَةٌ ... إلاَّ تَيَقَّنْتُ أنِّى غيرُ مَغبونِ [١٣٧ ظ]
ولاَ دُعيتُ إلى مَجْدٍ ومَحْمَدَةٍ[2] ... إلاَّ أجَبْتُ إليـــهِ مَن يُناديني
لاأبتغِى وَصْلَ مَن يَبغى مُفارَقتى[3] ... ولا ألِينُ لمَنْ لا يَبتغى لِينِى
إنّى سَيَعْرِفُنى مَن لستُ أعرِفُهُ ... ولو كرِهْتُ، وأبدو حين يَخفَيِنى
فَعَطِّنِّى جاهِداً واجهَدْ علىَّ إذَا ... لاَقيتَ قومَكَ فانظُرْ هَل تُعطِّينى[4]

وقوم يخطئون[5] فيرْوُونَ قوله :

* لقَدْ عَلِمتُ وما الإسرافُ من خُلُقى *

(١) حواشي الأصل ، ت ، ف : « يقال : ضرع يضرع [بالفتح] ضراعة ، وضرع [بالكسر] يضرع ضرعاً [بالفتح] ، فهو ضارع » . (٢) ت : « مكرمة » ، وفي حواشي الأصل ت ، ف : « يقال : محمدة ، بفتح الميم ، مثل مذمة ، والفصيح : المحمدة ، بكسر الميم ، وهو المسموع » .

(٣) حاشية الأصل : (من نسخة) : « مصارمتى » . (٤) حواشي الأصل ، ت ، ف : « روى أن عروة هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء ، فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له : ألست القائل :

لقدْ علمتُ وماَ الإشرافُ مِنْ خُلقِى ... أنَّ الذى هُوَ رزقى سَوْفَ يأتينى
أسعَى له فيُعَنِّينى تَطَلُّبُهُ ... ولو قَعَدْتُ أتانى لايُعَنِّينى

وأراك قد جئت تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق ! فقال له : لقد وعظت يا أمير المؤمنين وبالغت في الوعظ ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره إلى راحلته فركبها ، ثم نصها راجعا نحو الحجاز ؛ فمكث هشام يومه غافلا عنه ، فلما كان في الليل تمارّ على فراشه فذكره وقال في نفسه : رجل من قريش قال حكمة ، ووفد إلىّ فجبهته ورددته عن حاجته ، وهو مع هذا شاعر لا آمن مايقول ! فلما أصبح سأل عنه فأخبر بانصرافه ، فقال : لاجرم ! ليعلمن أن الرزق سيأتيه ، ودعا مولى له وأعطاه ألفى دينار ، وقال له : الحق ابن أذينة ، فأعطه إياها ، قال : فلم أدركه إلا قد دخل بيته ، فقرعت الباب عليه ، فخرج فأعطيته المال ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام ؛ وقل له : كيف رأيت قولى ! سعيت فأكديت ، ورجعت إلى بيتى فأتانى فيه الرزق » . (٥) د ، ومن نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف « يخبطون » .

بالسين غير معجمة(١)، وذلك خطأ ، وإنما أراد بالإشراف أنى لا أستشرف وأتطلّع(٢) إلى مافاتنى من أمور الدنيا ومكاسبها، ولا تَتْبَعُها نفسى(٣).

***

قال سيدنا أدام الله تأييده: ولى أبيات فى معنى بعض أبيات ثابت قُطنة، وعُروة بن أُذَينة التى تقدمت ، وهى من جملة قصيدة طويلة خرجتْ عنّى منذ اثنتى عشرة سنة ؛ والأبيات :

تَماَقَبنى بُؤسُ الزّمانِ وخَفْضُهُ وأدّبنى حَرْبُ الزّمانِ وسِلْمُهُ
وقد عَـلِم المَغرُور بالدّهر أنّهُ وراء سُرُورِ المَرْء فى الدّهرِ غمُّهُ
وما المَرْء إلاّ نَهبُ يومٍ وليلَةٍ تَخُبُّ به شُهبُ الفَناء ودُهْمُهُ(٤)
يُمَلِّلُهُ بَرْدُ الحَيَاةِ بَمسِّهُ ويَغْتَرُّه رَوْحُ النَّسيمِ يَشمُّهُ(٥)
وكانَ بَعيداً عن مُنازَعةِ الرَّدى فألقتْهُ فى كَفِّ المَنيَّةِ أُمُّهُ(٦)
ألاَ إنّ خيرَ الزّادِ ما سدَّ فاقَةً وخيرُ تِلادَىَّ الذى لا أُجِمُّهُ(٧)
وإنّ الطَّوَى بالعِزِّ أحسنُ بالفتى إذا كانَ مِن كَسبِ المَذَلّةِ طُعْمُهُ(٨)
وإنى لأَنهَى النَّفسَ عن كلِّ لذَّةٍ إذا ما ارتَقى مِنْهَا إلى العِرضِ وصْمُهُ
وأُعْرِضُ عن نَيلِ الثُّرَيَّا إذا بَدَا وفى نَيلِهِ سُوءُ المَقالِ وذَمُّهُ
أَعِفُّ وما الفحشاءُ عنّى بَعيدةٌ وحَسْبِيَ فى صَدِّ عن الأمرِ إثمُهُ(٩)

---

(١) حاشية ت (من نسخة) : « المعجمة » . (٢) حاشية ت (من نسخة) : « وأطلع » .

(٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « العجب من مخالفة السيد رضى الله عنه رواية من روى بالسين المهملة ؛ وهو أكثر الروايات ، ومعناه واضح » .

(٤) حاشية الأصل : « دهمه ؛ جمع أدهم ؛ وهو كناية عن الليل والنهار » .

(٥) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « برد النسيم » . (٦) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) « من منازعة الردى » . (٧) حواشى الأصل ، ت ، ف : « أى لا أتركه يجم ويكثر ، من جم الماء يجم جوما ؛ إذا كثر واجتمع ، ولا يبعد أن يكون من أجمت الفرس ، أى أرحته » .

(٨) ت : « كسب المنية » . (٩) حاشية الأصل : « ذكر الفحشاء دليل على شبابه، وكناية عنه » .

وما العَفُّ مَن وَلَّى عن الضَّرْبِ سَيفُهُ ... ولكِنَّ مَن وَلَّى عن السُّوءِ حَزْمُهُ

/ ولى في معنى قوله : « وما الإشراف من خُلُقى » : [١٣٧ و]

ما خامرَ الرِّزقُ قلبي قَبلَ فَجأتِهِ ... ولا بَسطتُ له في النَّائباتِ يَدى

كَمْ قدْ تَرادفَ لم أحفِلْ زِيادتَهُ ... ولوْ تَجاوَزَنى ما فتَّ مِن عَضُدى

إن أسخَطِ الأمر أدرِكْ عنهُ مُضطرَباً ... وإنْ أُرِدْ بَدَلاً من مَذهَبٍ أجِدِ[1]

ومعنى « ما خامر الرِّزق قلبي » أى لم أتمنَّهُ ، ولا تطلَّعتُ إلى حضوره ، ولا خطر لى ببالٍ تنزُّهاً وتقنعاً ؛ والوجه فى تخصيص نفى بسط اليد بالنوائب ، لأن النوائب[2] يَضرَع عندها فى الأكثر المتنزِّه ، ويطلُب المتعفِّف ؛ فمن لزِم النزاهة مع الحاجة وشدّة الضرورة فهو الكامل المروءة .

ومعنى البيت الثانى ظاهر .

فأما الثالث فالمراد به أنى ممَّن إذا كرِه شيئاً تمكَّن من مفارقته والنزوع عنه ، ولست ممَّن تضيق حيلته ، وتقصر قدرته عن استدراك ما يحب بما يكره . وفيه فائدة أخرى ، وهى أنى ممن لا تملكُه العادات ، وتقتاده الأهواء ؛ بل متى أردتُ مفارقة خُلق إلى غيره ، وعادةٍ إلى سواها لم يكنْ ذلك علىَّ متعذِّراً ؛ من حيث كان لرأيى على هوايَ السلطان والرجحان .

* * *

أخبرنا أبو عُبيدالله المرزبانىّ قال حدثنى محمد بن إبراهيم قال حدثنا أحمد بن يحيى النحوىّ قال أخبرنا الزبيرُ بن بكّار قال حدّثنى عُروة بن عبيد الله بن عُروة بن الزبير قال : كان عُروة ابن أُذَينَة نازلاً مع أبى فى قصر عُروة بالعَقِيق ، فسمعتُه يُنشِد لنفسه :

إنَّ التى زعمتْ فؤادَكَ مَلَّها ... خُلِقتْ هَواكَ كما خُلِقتَ هَوًى لها[3]

---

(١) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « إن أسخط الرزق » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « أن النوائب » . (٣) الأبيات فى زهر الآداب : ١٦٦ (طبعة الحلبي) ، وبعضها فى أمالى القالى ١ : ١٠٦ ، والموشح : ٢٣٠ ، وحماسة أبى تمام — بشرح التبريزى ٣ : ٢١٠—٢١٣ . ونسب ابن قتيبة فى الشعراء : ٤٠٤ أبياتاً منها للمجنون . والهوى ، بمعنى المهوىّ .

فَبِكِ الذى زَعَمَتْ لها ، وكلاكما … أبدَى لِصاحِبِه الصَّبابةَ كُلَّها
ولَعَمرُها لو كانَ حُبُّكِ فوقَها … يوماً وقدْ ضَحِيَتْ إذًا لأظَلَّها
وإذا وجَدْتَ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ … شَفَعَ الضَّميرُ إلى الفؤادِ فسَلَّها
بيضاءُ باكَرَها النَّعيمُ فصاغَها … بلَبـــاقةٍ فأدَقَّها وأجَلَّها[1]
لَمَّا عَرَضْتُ مُسلِّماً لِيَ حاجةٌ … أخشَى صُعوبَتَها ، وأرجو ذُلَّها[2]
/ مَنَعَتْ تحيَّتَها، فقلتُ لِصاحِبي: … ما كانَ أكثرَها لنـا وأقَلَّها ! [١٣٧ ع]
فدَنا ، فقالَ : لَعلَّها مَعذورةٌ … فى بَعضِ رِقْبتِنا ، فقلتُ : لَعَلَّها !

قال عُروة بن عبيد الله : فجاءنى أبو السائب المخزومىّ يوماً فسلّم وجلس إلىّ ، فقلت له بعد الرُّحب به : ألكَ حاجةٌ يا أبا السائب ؟ فقال : أوَ كما تــكونُ الحاجةُ ! أبياتٌ لعُروة ابن أذينة، بلَغنى أنك سمعتَها منه ، قلت : أىّ أبياتٍ ؟ قال : وهل يخفَى القمر ! .

* إنَّ الَّتى زَعَمَتْ فُؤادَكَ مَلَّها *

فأنشدتُه فقال : ما يَروِى هذا إلّا أهلُ المعرفة والفضل ، هــذا والله الصادق الوُدّ ، الدائمُ العهد ، لا الهُذَلِىّ الذى يقول :

إنْ كانَ أهلُكِ يَمنَعونَكِ رَغبةً … عنّى فأهلى بى أضَنُّ وأرْغَبُ

لقد عدا الأعرابىّ طوره ! وإنى لأرجُو أن يغفرَ الله لابن أُذينَةَ فى حُسنِ الظَّنِّ بها ، وطلب العُذر لها . فدعوتُ له بطعام ، فقال : لا والله حتى أَرْوِىَ هذه الأبيات ، فلمَّا رواها وثب ، فقلت له : كما أنت يغفر الله لك ، حتى تأكل ، فقال: والله ما كنتُ لأخلِط بمحبتى لها وأخذى إياها غيرها[3] .

(١) حاشية الأصل : « أى أدق منها ماينبغى أن يكون دقيقا ، وأجل منها ماينبغى أن يكون جليلا » وقال ابن الأعرابى : ومعنى قوله : « فأدقها وأجلها » دق منها حاجباها وأنفها وخصرها ، وجل عضداها وساقاها وبوصها ؛ وهذا كما قال آخر :

فدقَّتْ وجَلَّتْ واسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ … فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جُنَّتِ

(٢) الذل هنا ، بالضم ويكسر : ضد الصعوبة .

(٣) وانظر الخبر أيضا فى زهر الآداب (طبعة الحلبى) : ١٦٧ ، والوشح : ٢٣٠ .

قال سيدنا أدام الله علوّه : والهذليّ الذى عابه وأنشدَ له هذا البيت هو عبد الله بن مسلم ابن جندَب الهُذَليّ .

وقول عروة : « باكرَها النعيم » أراد أنها لم تعِشْ إلّا في النعيم، ولم تعرفْ إلا الخفضَ، وأنها لم تلاقِ بُؤساً فتخشع وتضرَع ، فيؤثّر ذلك في جمالها وتمامها ، والبكور هو التقدّم في كل وقت .

وكان عروة بن أذينَة مع تغزّله يُوصَف بالعفاف والنزاهة ، [1] ورُوِي أن سُكَينة بنت الحسين عليهما السلام مرّت به فقالت : يا أبا عامر ، أنت الذى تقول :

إذَا وَجَدْتُ أُوَارَ الحُبِّ فِى كَبِدِى ... أقبلْتُ نحوَ سِقاءِ القَوْمِ أبْتَرِدُ
هَبْنِى بَرَدْتُ بِبَرْدِ المـــاءِ ظاهِرَهُ ... فمَنْ لِنارٍ على الأحْشاءِ تَتَّقِدُ !

وأنت القائل :

قالتْ وأبْثثْتُها وَجدِى فبُحتُ بِهِ ... قد كُنتَ عِندِى تُحِبُّ السِّتْرَ ، فاستَتِرِ
/ ألستَ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِى؟ فقلتُ لها: ... غَطَّى هَوَاكِ وما ألْقَى على بَصَرِى [2] [١٣٨ و]

قال : نعم ، قالت : هنَّ حرائر ـ وأشارتْ إلى جواريها ـ إن كان هذا خرج من قلب سليم !

وأنشد أبو الحسن أحمد بن يحيي [3] لعُرْوة :

كأنّ خُزَامَى طَلّةٍ صابَها النَّدَى ... وفأرَةَ مِسْكٍ ضُمِّنَتْها ثِيابُها [4]
وكِدْتُ لِذِكْراها أطِيرُ صَبابَةً ... وغالَبْتُ نفساً زادَ شوْقاً غِلابُها

(١) الخبر في مصارع العشاق : ٣١٣ـ٣١٤ ، وابن خلكان ١ : ٢١١ .
(٢) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ت : « بما ألقى على بصرى » .
(٣) كذا في الأصول ، وفى حاشيتي الأصل ، ت (من نسخة) : « أبو الحسن على بن أحمد » ، ومن نسخة أخرى : « أبو الحسن عن أحمد بن يحيي » . (٤) حاشية ت (من نسخة) : « ضامها الندى » ؛ الخزامى : نبت زهره أطيب الأزهار رائحة ، والطلة : الروضة بللها الطل ؛ وهو المطر الخفيف ؛ وفأرة المسك : وعاؤه ؛ ويريد به هنا المسك .

إذَا اقترَبَتْ سُعْدَى لَهِجْتُ بِهجرِها   وإنْ تَقترِبْ يوماً يَرُعْكَ اغترابُها
فَفِي أيِّ هذا راحةٌ لكَ عِندَها !   سواءٌ لَعَمرى نأْيُها واقترابُها
وعادَ الهَوَى فيها كَظِلِّ سَحابةٍ   ألَاحَتْ ببَرْقٍ ثُمَّ مَرَّ سَحابُها[١]

قال سيدنا أدام الله علوّه : وهيهات هذا البيت الأخير من قول كُثيِّر :

وإنى وتَهيامِى بعزَّةَ بعدَ ما   تخلَّيتُ مِمَّا بيننا وتخلَّتِ[٢]
لَكالمرْتجِى ظِلَّ الغَمامةِ كلَّما   تَبوَّأَ مِنها للمَقيلِ اضمحلَّتِ
كأنِّى وإيَّاها سَحابةُ مُمْحِلٍ   رَجاها فلمَّا جاوَزَتْهُ استهلَّتِ

وروى يحيى بن علىّ قال حدثنا أبو هِفّان قال : أشعرُ أبيات قيلت فى الحسَدَة والدعاءِ لهم بالكثرة أربعة ، فأولها قول الكُميت بن زيد[٣] :

إنْ يَحسُدُونى فإنِّى لا أَلومُهُمُ   قَبلِى مِنَ النَّاسِ أهلُ الفَضلِ قد حُسِدُوا[٤]
فَدامَ بى وبِهِم مالى وما لهُمُ   وماتَ أكثرُنا غيظاً بِما يَجِدُ
أنا الذى يَجِدُونى فى حُلوقِهِمُ   لا أرتَقِى صَدَرًا منها ولا أرِدُ
لا يُنقِصِ اللهُ حُسّادِى فإنَّهُمُ   أسَرُّ عِندِى مِنَ اللاَّئى لهُ الوَدَدُ[٥]

وقال عروة بن أُذينة :

لا يُبعِدِ اللهُ حُسادِى وزادَهُمُ   حتّى يَموتوا بِداءٍ فِىَّ مَكنُونِ
[١٣٨ ظ] / إنِّى رأيتهُمُ فى كلِّ مَنزِلةٍ   أجلَّ قَدْراً مِنَ اللاَّئى يُحِبُّونى

وقال نصر بن سيّار :

إنْ يَحسُدُونى على مابى وما بِهِمُ   فمِثلُ ما بى لعَمرى جَرَّ لى الحَسَدا

---

(١) ألاحت : لوحت .   (٢) أمالى القالى ٢ : ١٠٩ .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ت : « الكميت بن معروف الأسدى » .

(٤) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « غير لائمهم » ، والأبيات الثلاثة الأول وردت فى معجم الشعراء : ٣٤٧ ، منسوبة إلى الكميت بن معروف ، ووردت فى عيون الأخبار ٢ : ١٠—١١ ، وأمالى القالى ٢ : ١٩٨ من غير عزو . (٥) ت : « هم الودد » ، ومن نسخة بحاشية الأصل : « لهم ودد » .

وقال معن بن زائدة :

إنى حُسِدْتُ فزادَ اللهُ فى حَسَدى   لاعاشَ مَنْ عاشَ يوماً غيرَ محسودِ
ما يُحسَدُ المرءُ إلاَّ مِن فضائلِهِ   بالعِلمِ والظرفِ أو بالبَأسِ والجُودِ

قال سيدنا أدام الله علوّه : وقد لحَظ البُحترىّ بهذا(١) المعنى فى قوله :

مُحَسَّدٌ بخلالٍ فيــه فاضلةٍ   وليس تفترِقُ النَّعماءُ والحَسَدُ (٢)

وأظن أبا العتاهية أخذ قوله :

كم عائبٍ لكِ لم أسمع مَقالتَهُ   ولم يَزِدْكِ لَدَينا غيرَ تزيينِ
كأنَّ عائبكم يُبدى محاسنَكم   وَصفاً فيمدَحكم عِنــدى ويُغرينى
ما فوقَ حُبِّكِ حُبّاً لستُ أعلمُهُ   فلا يَضُرُّكِ ألاَّ تستزيدينى

من قول عروة بن أذينة :

لا بُعْدُ سُعدَى مُريحى مِن جَوَى سَقَمٍ   يوماً ولاَ قُربُها إنْ حُمَّ يَشفينى
إذَا الوُشاةُ لَحَوْا فيهــا عصَيتُهمُ   وخِلتُ أنَّ بسُعدى اليومَ يُغرينى

وقدأخذ أبو نواس هذا المعنى فى قوله :

ما حطَّكَ الواشونَ مِن رُتبةٍ   عِندى ولا ضرَّكَ مُغتابُ
كأنَّهمْ أثنَوا ولم يَعلموا   عليكَ عنــدى بالذى عابوا

ولعروة بن أذينة :

تُرَوِّعُنا الجنائزُ مُقْبِلاتٍ   ونلهو حينَ تَخفَى ذاهِباتٍ(٣)
كرَوْعَةِ ثَلّةٍ لمُغَارِ ذِئبٍ   فلما غابَ عادَتْ راتِعاتٍ [١٢٩ و]

الثَّـلّة : القطعة من الضأن ؛ وهذا المعنى قد سبق إليه بعضُ الأعراب فقال :

ونُحْدِثُ رَوْعاتٍ لدَى كلِّ فَزْعَةٍ   ونُسرِعُ نِسياناً وما جاءنا أمْنُ

(١) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « هذا » . (٢) ديوانه ١ : ١٤٠ ، وفى ت ، من نسخة : « فيه ظاهرة » . (٣) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « ونسهو » . والشعر فى الحيوان ٦ : ٥٠٧ وعيون الأخبار ٣ : ٦٢ ، والبيان ٣ : ٢٠١

وإنا ـ ولا كُفرانَ لله ربَّنا ـ لَـكالبدنِ ، لا تدرى متى يومُها البُدْنُ !

أخذه أبو العتاهية فى قوله :

إذا ما رأيتم ميّتِينَ جَزِعتمُ وإنْ غُيِّبوا مِلتمْ إلى شهواتها

وأخذ عروة قولَه :

إنَّ الفتى مثلُ الهلالِ لهُ نورٌ ليالىَ ثمَّ يمتحقُ[1]
يَبْلَى وتُفنيهِ الدُّهور كما يَبْلَى ويَنضوا الجدَّةَ الخلَقُ[2]

من قول لبعض شعراء طيء :

مَهما يكُن ريبُ الزمانِ فإننى أرى قمرَ الليلِ المعذَّب كالفتى[3]
يُهلُّ صغيرًا ، ثمَّ يعظُمُ ضوءُهُ وصورتُهُ حتّى إذا ما هوَى استوَى
تقارَبَ يخبو ضوءُهُ وشُعاعُهُ ويَمصَحُ حتّى يستَسِرَّ فلا يُرَى[4]
كذلكَ زيدُ المرءِ ثُمَّ انتقاصُهُ يَعودُ إلى مثلِ الذي كانَ قد بَدا[5]

أخذه محمد بن يزيد الكاتب فقال :

المرءُ مثلُ هلالٍ عندَ مَطلَعِه يَبدو ضئيلًا ضعيفًا ثمَّ يتَّسِقُ
يزدادُ حتَّى إذا ما تمَّ أعقبهُ كرُّ الجديدَيْنِ نقصانًا فيمّتحِقُ[6]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « امحق » ، وفيها : « يمحق وامتحق وامحق بمعنى » .

(٢) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « وينضى الجدة » . وفى حاشية الأصل أيضا : « أنضيت الثوب : أبليته وكذلك انتضيته ، ونضوته : خلعته » .

(٣) معجم البلدان ٤ : ١٣٤ ؛ من أبيات نسبها إلى حنظلة بن أبى عفراء الطائى ؛ وكان قد نسك فى الجاهلية وتنصر ، وبنى ديرا عرف باسمه . (٤) حاشية الأصل : « يقال : مصح النبات إذا ولى لون زهره » . (٥) رواية عجز البيت فى معجم البلدان :

* وتكرارُهُ فى إثرِهِ بَعدَ ما مضَى *

(٦) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « فيمحق » .

مجلس آخر [١]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ / فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ [١٣٩ ظ] فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ [البقرة: ١٠٢] .

فقال : كيف يُنزِلُ الله السِّحْرَ على الملائكة ؟ أم كيف تعلّم الملائكةُ الناسَ السِّحْرَ والتفريقَ بين المرء وزوجه ؟ وكيف نَسَبَ الضررَ الواقع عند ذلك إلى أنه بإذنه ، وهو تعالى قد نَهى عنه ، وحذّر من فعله ؟ وكيف أثبت العِلْمَ لهم ونفاه عنهم ، بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ ، ثم قوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ .

الجواب ، قلنا : في الآية وجوه ؛ كلٌّ منها يُزيل الشبهةَ الداخلة على مَن لا يُنعِم النظر فيها :

أوّلها أن يكون ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ بمعنى الذى ، فكأنه تعالى أخبر عن طائفة من أهل الكتاب ، بأنهم اتّبعوا ما تكذب فيه الشياطينُ على ملك سليمان ، وتُضيفهُ إليه من السِّحْر ؛ فبرأه الله تعالى من قرفهم ، وأكذبهم في قولهم ، فقال : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ باستعمال السِّحر والتمويه على الناس ، ثم قال : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ ، وأراد أنهم يعلّمونهم السحر

والذى أنزل على المَلَكَيْن، وإنما أنزِلَ على الملَكين وصفُ السحر وماهيتُه وكيفية الاحتيال فيه؛ ليعرفا ذلك ويعرِّفاه للناس فيجتنبُوه ويحذروا منه، كما أنَّه تعالى قد أعلَمَنا ضروبَ المعاصي، ووصَفَ لنا أحوال القبائح لنجتنبَها لا لنُواقِعَها؛ لأنَّ الشياطينَ كانوا إذا علموا ذلك وعَرَفوه استعملوه، وأقدموا على فعله؛ وإن كان غيرُهم من المؤمنين لمّا عرفه اجتنبَه وحاذره وانتفع باطّلاعه على كيفيته، ثم قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ يعنى الملَكين، ومعنى ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ يُعْلِمَانِ، والعرب تستعمل لفظة علّمه بمعنى أعلمه، قال القُطامىّ:

تَعَلَّمْ أنَّ بَعدَ الغَيِّ رُشْدًا … وأنَّ لِتَابِكَ الغُبَرِ انقشاعا[1]

وقال كعب بن زهير:

تَعلَّم رَسولَ اللهِ أنَّكَ مُدرِكِى … وأنَّ وَعيدًا منكَ كالأخذِ باليَدِ[2]

[١٤٠ و] ومعنى «تعلّم» فى البيتين / معنى «اعلم»[3]؛ والذى يدلُّ على أنَّ المراد هاهنا الإعلام لا التعليم قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، أى أنهما لا يعرِّفانِ صفاتِ السحر وكيفيته إلّا بعد أن يقولا إنما نحن مِحْنَةٌ، لأنّ الفتنة بمعنى المحنة؛ وإنمـــا كانا محنة، من حيث ألقَيا إلى المكلَّفين أمراً لينزجروا عنه، وليمتنِعوا من مواقعته، وهمْ إذا عَرَفوه أمكن أن يستعملوه ويرتكبوه، فقالا لمن يُطْلِعانِه على ذلك: لا تكفرْ باستعماله، ولا تعدِل عن الغرض فى إلقاء هذا إليك، فإنه إنما أُلقِىَ إليك، وأُطْلِعتَ عليه لتجتنبَه؛ لا لتفعله، ثم قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، أى فيعرفون من جهتهما مايستعملونه فى هذا الباب؛ وإن كان الملَكان ماألقياه إليهم لذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ لأنهم

(١) ديوانه: ٤٠؛ ومن نسخة بحواشى الأصل، ت، ف: «لهذه الغمر»، وهى رواية الديوان والغمر: جمع غمرة، وهى الشدة. (٢) ملحقات ديوانه: ٢٠٨ (عن الفرر).

(٣) حواشى الأصل، ت، ف: «قال ابن السكيت رحمه الله: يقال: تعلمت أن فلانا خارج بمعنى علمت، وإذا قال لك: اعلم أن زيداً خارج قلت: قد علمت، وإذا قال: تعلم أن زيداً خارج لم تقل: قد تعلمت؛ بمعنى أنه يقتصر على ماورد عنهم، ولا يتجاوز إلى غيره».

كما قصدوا بتعلّمه أن يعملوه ويرتكبوه، لا أن يجتنبوه صار ذلك لسوء اختيارهم ضرراً عليهم.

وثانيها أن يكون ﴿ مَا أُنزِلَ ﴾ موضعه موضع جرّ ؛ فيكون معطوفاً بالواو على ﴿ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ ؛ والمعنى : واتبعوا ما كذَب به الشياطينُ على ملك سليمان ، وعلى ما أنزل على الملكين ؛ ومعنى ﴿ مَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ أي معهما ، وعلى ألسنتهما ؛ كما قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ ؛ [آل عمران : ١٩٤] ، أي على ألسنتهم ومعهم .

وليس بمنكَر أن يكون ﴿ مَا أُنزِلَ ﴾ معطوفاً على ﴿ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ وإن اعترض بينهما من الكلام ما اعترض ؛ لأن ردّ الشيء إلى نظيره ، وعطفه على ما هو أولى هو الواجبُ ، وإن اعترض بينهما ما ليس منهما ؛ ولهذا نظائر في القرآن وكلام العرب كثيرة ، قال الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا. قَيِّماً ﴾ ؛ [الكهف : ١، ٢] و « قيّم » من صفات الكتاب حالٌ منه ، لا من صفة « عِوَج » ، وإن تباعد ما بينهما ، ومثله قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ؛ [البقرة : ٢١٧] ، فالمسجد هاهنا معطوف به على الشهر الحرام، أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام وعن المسجد الحرام .

وحُكِي عن بعض علماء أهل اللغة أنه قال : العرب تلفُّ الخبرين المختلفين ، ثم ترمي بتفسيرهما جملة ؛ ثقةً بأنّ السامع يردُّ إلى كلٍّ خبره ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ ؛ [يونس: ٦٧] ، وهذا واضح في مذهب العرب ، كثير النظائر .

ثم قال: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾، والمعنى أنهما لا يعلّمان أحداً، بل ينهيان عنه ، ويبلغ من نهيهما عنه وصدّهما عن فعله واستقباحه أن يقولا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ باستعمال السحر والإقدام على فعله، وهذا كما يقول الرجل: ما أمرت فلاناً بكذا ، ولقد بالغتُ في نهيه حتى قلت له : إنك إن فعلته أصابك كذا وكذا ؛ وهذا

هو نهاية البلاغة فى الكلام ؛ والاختصار الدال مع اللفظ القليل على المعانى الكثيرة ؛ لأنه استغنى بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ عن بسط الكلام الذى ذكرناه ؛ ولذلك نظائر فى القرآن ، قال الله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ؛ [المؤمنون: ٩١] ، فلولا الاختصار لكان مع شرح الكلام يقول : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، ولو كان معه إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ؛ ومثله قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ؛ [آل عمران : ١٠٦] ، أى : فيقال للذين اسودت وجوههم : ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ؛ وأمثاله أكثر من أن تورد .

ثم قال تعالى : ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وليس يجوز أن يرجع الضمير على هذا الجواب إلى الملكين ؛ وكيف يرجع إليهما وقد نفى عنهما التعليم! بل يرجع إلى الكفر والسحر، وقد تقدم ذكرُ السحر، وتقدّم أيضاً ذكرُ ما يدلّ على الكفر ويقتضيه فى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾؛ فدل ﴿كَفَرُوا﴾ على الكفر ، والعطف عليه مع السحر جائز ، وإن كان التصريح قد وقع بذكر السحر دونه؛ ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ ؛ [الأعلى: ١٠–١١] ، أى يتجنب الذكرى الأشقى ، ولم يتقدم تصريح بالذكرى ، لكن دلّ عليها قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ .

ويجوز أيضا أن يكون معنى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ ، أى بدلا مما علّمهم الملكان ، ويكون المعنى أنهم يعدِلون عمّا علّمهم ووقفهم عليه الملكان من النهى عن السحر إلى تعلمه واستعماله ؛ كما يقول القائل : ليت لنا من كذا وكذا كذا[1]! أى بدلا منه ، وكما قال الشاعر:

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « من هذا الباب قوله :

فليتَ لَنَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً ... مبرّدةً باتتْ على الطَّهَيانِ

ــ الطهيان : اسم جبل » .

/جَمَعْتَ مِنَ الخَيراتِ وَطباً وعُلبةً ... وصَرّاً لأخلافِ المُزَمَّمةِ البُزْلِ(١) [١٤٠ ظ]
ومِنْ كلِّ أخلاقِ الكِرامِ نَمِيمةً ... وسَعْياً على الجارِ المُجاوِرِ بالمَحْلِ(٢)

يريد جَمَعْتَ مكانَ الخيرات، ومكانَ أخلاقِ الكرام هذه الخصال الذميمة.

وقوله: «مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» فيه وجهان:

أحدهما أن يكونوا يُغْوون أحدَ الزوجين، ويحملونه على الكفر والشرك بالله تعالى، فيكون بذلك قد فارق زوجَه الآخرَ المؤمنَ المقيمَ على دينه، فيفرّق بينهما اختلاف النِّحْلة والملّة.

والوجه الآخر أنْ يسعَوْا بين الزّوجين بالنميمة والوشاية والإغراء والتمويه بالباطل؛ حتى يئول أمرُهما إلى الفرقة والمباينة.

وثالث الوجوه في الآية أن يُحمل (ما) في قوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ على الجَحْدِ والنفي، فكأنه تعالى قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، ولا أنزل الله السِّحْر على الملَكين، ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ ويكون قوله: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ من المؤخَّر الذي معناه التقديم، ويكون على هذا التأويل هاروت وماروت رجلين من جملة الناس، هذان اسماهما؛ وإنما ذُكِرا بعد ذكر الناس تمييزاً وتبييناً، ويكون الملَكان المذكوران اللذان

(١) في حاشيتي الأصل، ف: «الوطب: زق اللبن، والعلبة: ما يحلب فيه. والصر: شد الضرع. والأخلاف: جمع خلف؛ وهو للناقة كالثدي للمرأة. والمزممة: النوق التي علقت الأزمة عليها، والبزل: جمع بازل؛ وهي التامة السن». وفي د، م: «المزمعة»، وهي السمان الكثيرة الشحم.

(٢) المحل: الكذب والخداع.

نفى عنهما السحرَ جبرائيلُ وميكائيل عليهما السلام ؛ (١) لأن سَحَرة اليهود ـ فيما ذكر ـ كانت تدّعي أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبرائيل وميكائيل (١) إلى سليمان بن داود عليهما السلام، فأكذبهما الله تعالى بذلك .

ويجوز أن يكون هاروت وماروت يرجعان إلى الشياطين ، كأنه قال: ولكن الشياطين: هاروت وماروت كفروا ؛ ويسوغ ذلك كما ساغ فى قــوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ ؛ [الانبياء : ٧٨] ، يعنى حكم داود وسليمان عليهما السلام .

ويكون قوله تعالى على هذا التأويل: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ راجعاً إلى هاروت وماروت اللذيْن هما من الشياطين ، أو من الإنس المتعلمين للسحر من الشياطين والعاملين به . ومعنى قولهما : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ يكون على طريق الاستهزاء والتماجُن والتخالُع ، كما يقول الماجن من الناس إذا فعل قبيحاً أو قال باطلا : هذا فعل مَن لاَ يفلح ، وقول من لا يُنْجب ، والله ما حصلتُ / إلا على الخسران ؛ وليس ذلك منه على سبيل النُّصْح للناس وتحذيرهم من مثل فعله ، بل على وجه المجون والتهالك . [١٤١ و]

ويجوز أيضا على هذا التأويل الذى يتضمّن النفى والجحد أن يكون هاروت وماروت اسمين للمَلَكين، ونفى عنهما إنزال السحر بقوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ ويكون قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ يرجع إلى قبيلتين من الجنّ أو إلى شياطين الجنّ والإنس ، فتحسن التثنية لهذا.

وقد روى هذا التأويل الأخير فى حمل ﴿ مَا ﴾ على النفى عن ابن عباس وغيره من المفسرين.

وروِىَ عنه أيضا أنه كان يقرأ: ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلِكَيْنِ ﴾ بكسر اللام ، ويقول : متى كان العِلْجان مَلَكين! إنما كانا مَلِكين ؛ (١) وعلى هذه القراءة لا ينكر أن يرجع قوله : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ إليهما (١).

(١ـ١) ساقط من م .

وعلى(١) هذه القراءة فى الآية وجه آخر وإن لم يحمل قوله: ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ على الجَحْد والنفى ، وهـو أن يكون هؤلاء الذين أخبر عنهم اتّبعوا ما تتلوا الشياطين وتدّعيه على مُلْك سليمان ، واتبعوا ما أنزل على هذين الملكين من السحر ، ولا يكون الإنزال مضافاً إلى الله تعالى، وإن أطلق؛ لأنه جلّ وعز لا يُنْزِل السحر؛ بل يكون منزلُه إليهما بعض الضُّلاّل العُصاة، ويكون معنى ﴿ أُنْزِلَ ﴾ - وإن كان من الأرض - حُمِل إليهما لا من السماء أنه أُتِىَ به به من نجود الأرض وأعاليها ؛ فإنّ من هبطَ من نجد البلاد إلى غَوْرها يقال : نزل وهبط ، وما جرى هذا المجرى .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فيحتمل وجوهاً: منها أن يريد بالإذن العلم ، من قولهم : آذنت فلاناً بكذا إذا أعلمته ، وأَذِنْتُ لكذا إذا استمعته وعلمته ، قال الشاعر :

فى سَماعٍ يأْذَنُ الشَّيخُ لهُ ... وحَديثٍ مِثلِ ماذِيٍّ مُشارِ(٢)

ومنها أن تكون ﴿ إلاّ ﴾ زائدة ، فيكون المعنى: وماهم بضارين به من أحدٍ بإذن الله، ويجرى مجرى قول أحدنا: لقيتُ زيداً إلا أنى أكرمته ، أى لقيت زيداً فأكرمته .

ومنها أن يكون أراد بالإذن التخلية وتركَ المنع، فكأنه أفاد بذلك أنّ العباد لن يُعجزوه، وماهم بضارين أحداً إلا بأن يخلّىَ الله تعالى بينهم وبينه ، ولو شاء لمنعهم بالقهر والقسر، زائداً على منعهم بالزجر والنهى .

/ومنها أن يكون الضرر الذى عَنَى أنه لا يكون إلا بإذنه ، وأضافه إليه هو ما يلحقُ [١٤١ ظ] المسحور من الأدوية والأغذية التى يُطعمه إياها السَّحَرة ويدّعون أنها موجبة لما يقصدونه فيه من الأمور ؛ ومعلوم أن الضرر الحاصل عن ذلك من فعل الله تعالى بالعادة؛ لأنّ الأغذية لا توجب ضراً ولا نفعاً ، وإن كان المعرِّض للضرر من حيث كان كالفاعل له هو المستحِق للذم، وعليه يجب العوض .

(١) ت : « ويمكن على هذه القراءة ... » . (٢) البيت فى اللسان (أذن) ، ونسبه إلى عدى ابن زيد . الماذى : العسل الأبيض . والمشار : المجنى ، ويقال : شرت العسل واشترته وأشرته ، إذا جنيته .

ومنها أن يكون الضرر المذكور إنما هو ما يحصل عن التفريق بين الأزواج ؛ لأنه أقرب إليه فى ترتيب الكلام ؛ والمعنى أنهم إذا أغوَوْا أحد الزوجين ، وكفر فبانتْ منه زوجته ، فاستضرَّ بذلك كانوا ضارِّين له بما حسَّنوه له من الكفر ، إلاّ أنّ الفرقة لم تكن إلاَّ بإذن الله وحُكمه ؛ لأنه تعالى هو الذى حكم وأمر بالتفريق بين المختلفى الأديان ؛ فلهذا قال : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ؛ والمعنى أنه لولا حكمُ الله وإذنُه فى الفرقة بين هذين الزوجين باختلاف المِلّة لم يكونوا ضارين له هذا الضَّرْبَ من الضرر الحاصل عند الفرقة؛ ويقوّى هذا الوجهَ ما رُوى أنه كان من دين سليمان؛ أنه مَن[1] سَحَر بانتْ منه امرأتُه .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ ، ثم قال : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ففيه وجوه :

أوّلها أن يكون الذين علموا غير الذين لم يعلموا، ويكون الذين علموا الشياطين أو الذين خُبِّر عنهم بأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان ، والذين لم يعلموا هم الذين تعلّموا السحر، وشرَوْا به أنفسهم .

وثانيها أن يكون الذين علموا هم الذين لم يعلموا؛ إلا أنهم علموا شيئا ولم يعلموا غيره، فكأنه تعالى وصفهم بأنهم عالمون بأنه لا نصيب لمن اشترى ذلك ورضيه لنفسه على الجملة، ولم يعلموا كُنْهَ ما يصير إليه من عقاب الله الذى لا نفادَ له ولا انقطاع .

وثالثها أن تكون الفائدة فى نفى العلم بعد إثباته أنهم لم يعملوا بما علموا ، فكأنهم لم يعلموا ، وهذا كما يقول أحدُنا لغيره : ما أدعوك إليه خيرٌ لك وأعْوَدُ عليك ؛ لو كنت تعقل وتنظر فى العواقب ، وهو يعقل وينظر فى العواقب ، إلا أنه لا يعمل بموجب علمه ، فحسُنَ أن يقال له/ مثل هذا القول ؛ قال كعب بن زهير يصف ذئباً وغراباً تبعاه ؛ ليصيبا من زاده : [١٤٢]

إذا حضرَانى قلتُ : لو تعلمانه ... ألم تعلما أنى من الزاد مُرْمِل[2]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « أن من » . (٢) ديوانه : ٥١ . المرمل : الذى نفد زاده .

فنفى عنهما العلم ، ثم أثبته بقوله : « ألم تعلما » ، وإنما المعنى فى نفيه العلم عنهما أنهما لم يعملا بما علماه فكأنهما لم يعلماه .

ورابعها أن يكون المعنى أنّ هؤلاء القوم الذين قد علموا أن الآخرة لا حظّ لهم فيها مع عملهم القبيح ، إلا أنهم ارتكبوه طمعاً فى حُطام الدنيا وزخرفها فقال تعالى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الذى آثروه وجعلوه عِوَضاً من الآخرة لا يتمّ لهم ، ولا يبقى عليهم ، وأنه منقطع زائل ، ومضمحلّ باطل ، وأن المآل إلى المستحق فى الآخرة ؛ وكل ذلك واضح بحمد الله .

٣٢
مجلس آخر

تأويل خبر

روى عُقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لو كان القرآن فى إهاب ما مسَّتْه النار » .

وقد ذكر متأولو حديث النبي صلى الله عليه وآله فى هذا الخبر وجوهاً كثيرة ، كلُّها غيرُ صحيحٍ ولا شافٍ ، وأنا أذكر ما اعتمدوه[1] ، وأبيِّن مافيه ، ثم أذكر الوجه الصحيح .

قال ابنُ قتيبة : ذهب الأصمعيّ إلى أنّ مَن تعلّم القرآن من المسلمين لو أُلقِيَ فى النار لم تُحْرِقه ، فكنّى بالإهاب ـ وهو الجلد ـ عن الشخص والجسم ؛ واحتجَّ على تأويله هذا [2]الحديث بما رُوِيَ عن سليمان[2] بن محمد قال : سمعت أبا أمامة يقول : اقرءوا القرآن ولا تغرّنكم هذه المصاحف المعلّقة[3] ؛ فإن الله لا يعذِّب قلباً وَعَى القرآن .

قال ابن قتيبة: وفى الحديث تأويل آخر ، وهو أنّ القرآن لو كُتِب فى جلد ، ثم أُلقِيَ فى النار على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لم تحْرِقْه النار ؛ على وجه الدّلالة على صحة أمر النبي عليه وآله السلام ، ثم انقطع ذلك بعده ، قال : وجرَى هذا مجرى كلام الذئب وشِكاية البعير وغير ذلك من آياته عليه السلام .

قال : وفيه تأويل ثالث ؛ وهو أن يكون الإحراق[4] إنما نفِيَ عن القرآن لاعن الإهاب؛ ويكون معنى الحديث : لو جُعِل القرآن فى إهاب ثم أُلقِيَ فى النار ما احترق القرآن ؛

---

(١) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « ما ذكروه » .

(٢ـ٢) ت: « بالحديث عن سليمان » .

(٣) حواشى الأصل ، ت ، ف : « المعلقة ؛ يجوز أن يكون معناها المكتب ؛ لأن التعليق المكتب» .

(٤) حاشية ف (من نسخة) : « الاحتراق » .

فكأن النار تحرق الجلد والمداد ولا تحرق القرآن ؛ لأنَّ الله تعالى ينسخه ويرفعه من الجلد، صيانة له عن الإحراق .

وقال أبو بكر / محمد بن القاسم الأنباريّ رداً على ابن قتيبة ، ومعترضاً عليه : اعتبرتُ ما قاله ابن قتيبة من ذلك كلِّه ، فما وجدت فيه شيئاً صحيحاً . [١٤٢ ظ]

أما قولُه الأول فيردُّه ما روى عنه عليه السلام من قوله : يخرُج من النار قومٌ بعد ما يُحرَقون[1] فيها فيقال : هؤلاء الجهنّميون طلقاء الله عز وجل » . قال: وقدروَى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « إذ دخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النار النار قال الله عز وجل : انظروا مَن كان في قلبه ،مثقالُ حبة من خردل من إيمان[2] فأخرجوه منها »؛ قال أبو بكر : وكيف يصحُّ قول ابن قتيبة في زعمه أن النار لا تُحرق مَن قرأ القرآن؛ ولا خلاف بين المسلمين أنّ الخوارج وغيرَهم ممَّن يُلحِد في دين الله تعالى ويقرأ القرآن أن تُحرقهم النارُ بغير شكّ ؛ واحتجاجُه بخبر أبي أمامة : «إنّ الله لا يعذّب قلبا وعى القرآن» معناه: قرأ القرآن وعمِل به ؛ فأما مَن حفظ ألفاظه وضيَّع حدوده ؛ فإنه غير واعٍ له .

قال: فأما قوله إنه من دلائل النبوّة التي انقطعت بعده، فما روَى هذا الحديث أحدٌ أنه كان في دلائله عليه السلام؛ ولو أراد ذلك دليلا لكان صلى الله عليه وآله يجعل القرآن في إهاب ثم يُلقيه في النار فلا يحترق

قال : وقول ابن قتيبة الثالث : « لا حترق الجلد والمداد ، ولم يحترق القرآن » غير صحيح ؛ لأن الذى يصحّح هذا القول يوجب أنّ القرآن غيرُ المكتوب ؛ وهذا محال ؛ لأن المكتوب في المصحف هو القرآن . والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ؛ [الواقعة : ٧٧ — ٧٩] ، ومنه الحديث : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو » ؛ وإنما يريد المصحف .

قال أبو بكر : والقول عندنا في تأويل هذا الحديث أنه أراد : لو كان القرآن في جلد

(١) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « يحترقون » .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « إيمانا » .

ثم أُلقِيَ فى النار ما أبطلتْه ؛ لأنها وإن أحرقتْه فإنها لا تدرُسه؛ إذ كان الله قد ضمَّنه قلوب الأخيار من عباده ؛ والدليل على هذا قول الله تعالى للنبى صلى الله عليه وآله فيما روِى عنه : إنى منزِّلٌ عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرأه نائماً ويقظان؛ فلم يرد تعالى أن القرآن لو كُتِبَ فى شىء ثم غسل بالماء لم ينغسل ؛ وإنما أراد أنّ الماء لا يبطله ولا يَدْرُسه إذا كانت القلوب تَعيه وتحفظه .

قال: ومثل هذا كثير فى كتاب الله تعالى وفى لغة العرب؛ قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا / وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾؛ [١٤٣ و] [النساء: ٤٢] ، فهم قد كتموا الله تعالى لمَّا قالوا : ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وإنما أراد تعالى ؛ ولا يكتمون الله حديثا فى حقيقة الأمر ؛ لأنهم وإن كتَموه فى الظاهر فالذى كتموه غير مستتر عنه .

قال سيدنا الشريف المرتضَى أدام الله علوّه: والوجه الصحيح فى تأويل الخبر غير ما توهمه ابن قتيبة وابن الأنبارىّ جميعاً ، وهو أن هذا من كلام النبىّ صلى الله عليه وآله على طريق المَثل والمبالغة فى تعظيم شأن القرآن والإخبار عن جلالة قدره وعظم خَطره ، والمعنى أنه لو كُتب فى إهابٍ ، وأُلقِىَ فى النار وكانت النار مما لا تُحرِق شيئا لعلوِّ شأنه وجلالة قدره لم تحرقْه النار .

ولهذا نظائر فى القرآن وكلام العرب وأمثالهم كثيرة ظاهرة على من له أدنى أُنسٍ بمذاهبهم، وتصرُّف كلامهم .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ؛ [الحشر: ٢١] . ومعنى الكلام : إننا لو أنزلنا القرآن على جبل ، وكان الجبل مما يتصدّع إشفاقاً من شىء؛ أو خشية لأمرٍ لتصدّع مع صلابته وقوّته ؛ فكيف بكم يامعاشرَ المكلَّفين ، مع ضعفِكم وقلّتكم ! وأنتم أَوْلَى بالخشية والإشفاق ؛ وقد صرح الله تعالى بأنّ الكلام خرج مخرج

المثل بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ؛ [مريم : ٩٠] .

ومثله قول الشاعر :

أَمَا وجَلَالِ اللهِ لوْ تَذْكُرِينَني ... كَذِكْرَاكِ مانَهْنَهْتِ لِلعَيْنِ مَدْمَعَا
فقالتْ : بَلَى واللهِ ذِكْرًا لوَ انَّهُ ... تَضَمَّنَهُ صُمُّ الصَّفَا لتَصَدَّعَا(١)

ومثله :

فلو أنَّ مابِى بالحصى فَلَقَ الحَصَى ... وبالرِّيحِ لمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبوبُ(٢)

ومثله :

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقتى ... فما زلتُ أبكى عِندَهُ وأخاطِبُهْ(٣)
وأَسْقِيهِ حتى كادَ مِمّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنى أحجارُهُ ومَلاعِبُهْ(٤)

وهذه طريقة للعرب مشهورة فى المبالغة ؛ يقولون : هذا كلام يُفَلِّقُ الصَّخْر ، ويهدُّ الجبال / ويصرَع الطير ، ويستنزِلُ الوُعول ؛ وليس ذلك بكذب منهم ؛ بل المعنى أنّه لحسنه [١٤٣ و] وحلاوته وبلاغته يفعل مثلَ هذه الأمور لو تأتت ؛ ولو كانت مما يَسْهُلُ(٥) ويتيسر لشىء من الأشياء لتسهّلت به من أجله .

فأما الجواب الأوّل المحكىّ عن ابن قتيبة فالذى يُفسده(٦) زائداً على ماردّه ابن الأنبارىّ أنه لو كان الأمرُ على ماذكره ابنُ قتيبة وحكاه عن الأصمعىّ لكان النبى صلى الله عليه وآله قد أغرانا بالذّنوب ؛ لأنه إذا أَمِنَ حافظُ القرآن ومتعلّمه من النار والعذاب فيها رَكَنَ(٧)

(١) الصفا : جمع الصفاة ؛ وهو الحجر الصلد الضخم لا ينبت . (٢) ت : فلق الحصى .
(٣) ديوانه : ٣٨ . (٤) أسقيه : أدعو له بالسقيا . (٥) من نسخة بحاشيتى ت ، الأصل : « يتسهل » . (٦) ت : « يبطله » .
(٧) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : يقال : ركَن [بفتح الكاف] يركن ، [بكسرها] . وركن [بكسر الكاف] يركن [بفتح الكاف] ؛ لغتان إلا أنهم أخذوا الماضى من هذا والمضارع من ذاك ، فقالوا : « ركن يركن » بالفتح فيهما .

المكلّفون إلى تعلّم القرآن والإقدام على القبائح آمنين غير خائفين ؛ وهذا لايجوز عليه صلى الله عليه وآله والمعنى فى قول أبى أمامة أن الله لايعذّب قلباً وعى القرآن على نحو ماذكره ابنُ الأنبارىّ .

فأما جواب ابن قتيبة الثانى ، فمن أين له أن ذلك مختص بزمانه صلى الله عليه وآله ، وليس فى اللفظ ولا فى غيره دلالة عليه ! وأقوى ما يُبطله أنه لو كان كاذكر لماجاز أن يخفى على جماعة المسلمين الذين رَوَوْا جميع معجزاته عليه وآله السلام وضبطوها . وفى وِجداننا مَنْ روى ذلك وجمه وعُنِىَ به غيرَ عارفٍ بهذه الدّلالة والآية إبطالٌ لما توهمه .

فأما جوابُه الثالث فباطلٌ ؛ لأنّ القرآن فى الحقيقة ليس يَحُلُّ الجلد ، ولا يكون فيه حتى ينسَب الاحتراق إلى الجلد دونه ؛ وإذا كان الأمر على هذا لم يكن فى قوله : إن الإهاب هو المحترق دون القرآن فائدة ؛ لأنّ هذه سبيل كلِّ كلام كتب فى إهاب أوغيره إذا احترق الإهاب لم يُضف الاحتراق إلى الكلام لاستحالة هذه القضيّة[1] عليه .

ومن عجيب الأمور قول ابن الأنبارىّ : « وهذا يوجب أنّ القرآن غير المكتوب » ؛ لأنّ كلام ابن قتيبة ليس يوجب ما ظنّه ؛ بل يوجب ضده من أن المكتوب هو القرآن ؛ ولهذا علّق الإحراق[2] بالكتابة والجلد دون المكتوب ؛ الذى هوالقرآن ؛ وإذا كان المكتوب فى المصحف هو القرآن على ما اقترح ابن الأنبارىّ ، فما المانع من قول ابن قتيبة أنّ الجلد يحترق دونه ؟ لأن أحداً لا يقول إن الجلدهوالقرآن ؛ وإنما يقول قومٌ إنه مكتوب فيه ؛ وإذا كان غيره لم يمتنع إضافة الاحتراق إلى أحدهما / دون الآخر ؛ وهذا كله تخليط من الرجلين ؛ [١٤٣ و]
لأن القرآن غير حالٍّ فى الجلد على الحقيقة ؛ وليست الكتابة غير المكتوب ؛ وإنما الكتابة أمارة للحروف ؛ فأمّا أن تكون هى الكلام على الحقيقة أو يوجد معها الكلام مكتوبا فمحال .

فأما استشهاده على ذلك بالآية وبقوله : « لا تسافروا بالقرآن » فذلك تجوّز وتوسّع ،

(١) ت ، ف : « القصة » . (٢) ت : « الاحتراق » .

وليس يجب أن يُجعل إطلاق الألفاظ المحتملة دليلاً على إثبات الأحكام والمعانى، ومعترضة على أدلّة العقول ؛ وقد تجوّز القوم بأكثر من هذا فقالوا : فى هذا الكتاب شعر امرئ القيس وعلمُ الشافعىّ وفقه فلان ، ولم يقتض ذلك أن يكون العلم والكلام على الحقيقة موجودَين فى الدفتر . وقد بُيِّنَ الكلام ، فى هذا الباب فى مواضع هى أوْلى به .

فأما جواب ابن الأنبارىّ الذى ارتضاه لنفسه ، فلا طائلَ أيضا فيه ، لأنه لا مزيّة للقرآن فيما ذكره على كل كلام وشعر فى العالم ، لأنّا نعلم أنّ الشعر والكلام المحفوظ فى صدور الرجال إذا كُتِب فى جلد ثم أحرِق أو غسل لم يذهب مافى الصدور منه؛ بل يكون ثابتا بحاله ، فأىّ مزيّة للقرآن فى هذا على غيره ؟ وأىّ فضيلة ؟ فإن قال : وجه المزيّة أنّ غير القرآن من الشعر وغيره يمكن أن يندرس ويبطل بإحراق النار ؛ والقرآن إذا كان هو تعالى هو المتولّى لإيداعه الصدور لا يتم ذلك فيه ؟

قلنا : الكل سواء لأن غير القرآن إنما يبطل باحتراق الإهاب المكتوب فيه متى لم يكن محفوظاً مودعاً للصدور ، ومتى كان بهذا الصفة لم يبطل باحتراق الجلد ؛ وهكذا القرآن لو لم يُحفظ فى الصدور لبطل بالاحتراق ؛ ولكنه لا يبطل بهذا الشرط ؛ فصار الشرط فى بطلان غير القرآن وثباته كالشّرط فى بطلان القرآن وإثباته ، فلا مزيّة على هذا الجواب للقرآن فيما خُصّ به من أنّ النار لا تمسّه ، وهذا يبيّن أنه لا وجهَ غيرُ ماذكرناه فى الخبر؛ وهو أشبه بمذاهب العرب وأولى بتفضيل القرآن وتعظيمه .

***

أخبرنا أبو الحسن علىُّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دريد قال أنشدنا أبو حاتم قال ابن دريد وأنشدنا عبدالرحمن -يعنى ابن أخى الأصمعىّ- عن عمه للحسين بن مُطير الأسدى[(١)] - وقال عبد الرحمن قال عمّى : لو كان شعر العرب هكذا ما أثِمَ منشده :

---

(١) هو الحسين بن مطير بن مكمل ؛ مولى لبنى سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ؛ شاعر متقدم من شعراء الدولتين ؛ ومذهبه فى الشعر يشبه كلام الأعراب ومذاهبهم ؛ (وانظر ترجمته وأخباره وأشعاره فى الأغانى ١٤ : ١١٠—١١٤ ، والخزانة ٢ : ٤٨٠—٤٨٨) .

ألاَ حَبَّ(١) بالبيتِ الذي أنت هاجِرُهْ   وأنتَ بتَلْماحٍ مِن الطَّرْفِ ناظِرُهْ(٢)
لأنّكَ مِن بيتٍ لعَينيَ مُعجِبٌ(٣)   وأملَحُ في عيْنيَ مِن البيتِ عامِرُهْ
أصُدُّ حَياءً أنْ يَلجَّ بيَ الهوَى   وفيكَ المُنَى لولاَ عدُوٌّ أحاذِرُهْ(٤)
وفيكَ حَبيبُ النَّفسِ لوْ تستطيعه(٥)   لَمَاتَ الهوَى والشَّوقُ حين تجاوِرُهْ(٦)
فإنْ آتِهِ لم أنجُ إلا بظِنّةٍ   وإنْ يأتِهِ غيري تَنَطْ بي جرائرُهْ
وكانَ حبيبُ النَّفسِ للقلبِ وازِراً   وكيف يُحِبُّ القلبُ مَن هو وازِرُهْ !
وإنْ تكُنِ الأعداءُ أحنَوْا كلامَهُ   علينا فلَن تُخْمَى علينا مَناظِرُهْ
أُحِبُّكِ يا سَلْمى على غيرِ رِيبةٍ   ولا بأسَ في حبٍّ تَعِفُّ سرائرُهْ
ويا عاذلي لوْلاَ نفاسةُ حبِّها   عليكَ لَمَا باليْتُ أنكَ خابِرُهْ
بنفسيَ مَن لابدَّ أنّيَ هاجِرُهْ   ومَن أنا في الميْسورِ والعُسْرِ ذاكِرُهْ
ومَن قدْ لَحاهُ النّاسُ حتّى اتَّقاهُمُ   ببُغضيَ إلاّ ما تُجِنُّ ضمائرُهْ
أُحبكِ حبًّا لَنْ أُعنِّفَ بعدَهُ   مُحِبًّا ولكنّي إذا لِيمَ عاذِرُهْ
لقدْ ماتَ قبلي أوّلُ الحُبِّ فانقضَى   ولوْ متُّ أضحَى الحبُّ قدماتَ آخرُهْ(٧)
كلامُكِ يا سَلْمى وإنْ قلَّ نافِعي   ولا تَحْسِبي أنِّي وإنْ قلَّ حاقِرُهْ(٨)
ألا لاَ أُبالي أيَّ حيٍّ تحمَّلوا   إذا ثَمَدُ البَرْقاءِ لمْ يَجْلُ حاضِرُهْ(٩)

---

(١) وردت هذه المقطوعة فى أمالى القالى ١ : ٧٨ ، وأمالى ابن الشجرى : ١٥٠ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات .   (٢) ت : « زائره » .   (٣) ف : « إلىّ لمعجب » .

(٤) م : « أن يلجّ بى الهوى » .   (٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « نستطيعه » .

(٦) ت : « نجاوره » ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « تجاوره » .

(٧) فى حاشيتى الأصل ، ت : « يهنا يدعى أنه أحيا الحب ، وأن الحب كان قبله ميتا ، وسيموت بعده » .

(٨) الحقر : التحقير .   (٩) تحملوا : ارتحلوا ؛ والثمد : الماء القليل . والبرقاء : موضع بالجزيرة . ولم يجل ؛ من جلاء القوم عن منازلهم .

وأنشدابنُ الأعرابي لابن مُطَيْر :

لَعَمْرُكَ لَلْبيتُ الذى لا نَطُورُه ... أحبُّ إلينا مِن بِلادٍ نَطُورُها(١)

تَقَلَّبتُ فى الإخوانِ حتى عَرَفْتُهمْ ... ولا يَعْرِفُ الإخوانَ إلاَّ خبيرُها

فلا أصرِمُ الخُلاَّنَ حتى يُصارِموا ... وحتى يَسِيرُوا سِيرةً لا أسيرُها

فإنكَ بعدَ الشرِّ ما أنتَ واجِدٌ ... خليلاً مُديماً شيمةً لا يُديرُها

/ ـ معنى يديرها، يقلّبها مرة هاهنا، ومرة هاهنا ـ [١٤٥ و]

وإنكَ فى غَيرِ الأخِلاَّءِ عالمٌ ... بأنَّ الذى يَخفَى عليكَ ضَمِيرُها(٢)

فلاَ تَكُ مَغرُوراً بِمَسْحَةِ صاحِبٍ ... مِن الودِّ لاَ تَدرِى عَلاَمَ مَصِيرُها(٣)

وما الجُودُ عن فقرِ الرِّجالِ ولاَ الغِنى ... ولكِنَّهُ خِيمُ الرِّجالِ وخِيرُها

وقدْ تَغْدِرُ الدُّنيا فيُضحِى غَنيُّها ... فقيرًا ويَغْنَى بعدَ بُؤْسٍ فقيرُها

وكائنْ تَرَى مِن حالِ دُنيا تغيَّرَتْ ... وحالٍ صَفَا بعدَ اكْدِرارٍ غَدِيرُها

ومِن طامِعٍ فى حاجةٍ لَنْ يَنالَها ... ومِن يائِسٍ مِنها أتاهُ بَشِيرُها

ومَن يتَّبِعْ ما يُعجِبُ النفسَ لا يَزَلْ ... مُطيعاً لها فى فِعلِ شىءٍ يَضِيرُها(٤)

فنفْسَكَ أكرِمْ عن أمورٍ كثيرةٍ ... فمالكَ نَفسٌ بعدها تَستَعِيرُها

قال سيدنا أدام الله علوّه : ولِى فى معنى قول ابن مُطَيْر : « وقد تغدر الدنيا »، والبيت الذى بعده من جملة قصيدة :

وكيفَ آنَسُ بالدُّنيا ولَستُ أرَى ... إلاَّ امرأً قدْ تَعَرَّى مِنْ عوارِيها(٥)

---

(١) حماسة ابن الشجرى : ١٦٣، ونطورها : نقربها . (٢) ف ، حاشية ت (من نسخة) : « فى عين الأخلاء » . (٣) المسحة : الأثر الظاهر ؛ ونقل صاحب اللسان عن شمر : أن العرب تقول : هذا رجل عليه مسحة جمال، ومسحة عتق وكرم ؛ ولا يقال ذلك إلا فى المدح . وفى ت : « مسحة »، بكسر الميم .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « فى كل شىء » . (٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « وكيف أنفس بالدنيا » .

نَصْبُو إليها بآمالٍ مُخَيَّبةٍ   كأنَّنا ما نَرَى عُقْبَى أمانِيها
في وَحشةِ الدّارِ مِمَّن كانَ يَسكُنُهَا   كلُّ اعتبارٍ لِمَن قدْ ظلَّ يأْوِيها
لاَ تُكْذَبَنَّ فما قَلبي لها وَطَناً   وقد رأيتُ طُلولاً مِن مَغَانِيهَا

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال أنشدنا عليّ بن سليمان الأخفش قال أنشدنا أحمد بن يحيي ثعلب للحسين بن مُطَيْر :

لقد كنتُ جَلْدًا قبلَ أن يوقِدَ الهوَى   على كَبِدِي ناراً بَطيئاً خُمودُها(١)
ولوْ تُرِكَتْ نارُ الهوَى لتَضرَّمَتْ   ولٰكنَّ شوْقاً كلَّ يومٍ يَزِيدُها(٢)
وقدْ كُنتُ أرجو أنْ تموتَ صبابَتِي   إذَا قَدُمت أحزانُهَا وعُهودُها(٣)
[١٤٥ ظ] /فقدْ جَعلتْ في حَبّةِ القلْبِ والحَشاَ   عِهادَ الهوَى تُولِي بشَوْقٍ يُعيدُها(٤)
بمُرْتَجَّةِ الأرْدَافِ هِيفٍ خُصورُها   عِذَابٍ ثناياها عِجافٍ قُيُودُها(٥)

ــ يعني أنها عجاف اللِّثات وأصول الأسنان ، وهي قيودها . قال أبو العباس ثعلب : « عِجاف » ، بالخفض لَحْن ، لأنه ليس من صفة النساء ، وسبيله أن يكون نصباً ؛ لأنه حال من الثنايا(٦) ــ .

---

(١) أبيات منها في أمالي الزجاجي : ١٢٤ــ١٢٥ ، وأمالي القالي ١ : ١٦٠ ، والحماسة بشرح التبريزي ٣ : ٢٠٦ــ٢٠٧ وفي م : « توقد النوى » . (٢) حواشي الأصل ، ت ، ف : « أي لو تركت نار الهوى ولم يزدفيها الشوق لـكانت كافية ؛ فـكيف والشوق كل يوم يزيدها ويذكيها! » .

(٣) ت ، د ، ف : « أيامها وعهودها » . (٤) العهاد : جمع عهدة ؛ وهو المطر الأول ، والولى : المطر الثاني ، شبه أول الشوق بالعهاد ، وما وليه بالولي ؛ فأول المطر إذا لحقه المطر الثاني كثر الربيع والخصب.

(٥) هيف : جمع هيفاء ؛ وهو الدقيقة الخصر ، الضامرة البطن وفي حاشية الأصل (من نسخة) : « عجافا » .

(٦) حواشي الأصل ، ت ، ف : « إنما قال ثعلب ذلك لأن الضمير في « قيودها » للثنايا » . وفيها أيضا : « هذا الذي ذكره أحمد بن يحيي عجب ، وباب جريان الصفة على غير من هوله واسع . وقوله : « مرتجة الأرداف » ، وإن كان لايحتمل أن يريد به جماعة النساء فإنه يحتمل أن يريد به واحدة ، وتكون « خصورها » جما على تقارب الخصر ، ويكون قوله : « هيف » دون « هيفاء » من باب قوله :

فيا ليلةً خُرْسَ الدَّجاجِ طويلَةً   ببغدادَ ما كادَتْ عن الصُّبحِ تَنْجَلِي

وإنما جمع الخرس ، لأنها في الحقيقة صفة الدجاج ، لا الليل ، فكذلك هاهنا » .

مُخَصَّرَةِ الأوساطِ زانتْ عقودَها ... بأحسنَ مِمّا زَيَّنَتْها عُقُودُها
وصُفْرِ تَراقِيها وحُمْرٍ أكُفُّها ... وسودٍ نَواصيها وبيضٍ خُدُودُها

ـ وصفَ التَّراقِيَ بالصُّفْرَةِ(١) من الطِّيب، وحمرةَ أكفها من الخضاب ـ

يُمَنِّينَنا حتّى تَرِفَّ قُلوبُنا ... رَفيفَ الخُزَامَى باتَ طَلٌّ يَجودُها(٢)

أخذ قوله: «مُخَصَّرَةِ الأوساطِ زانتْ ...» البيت من قول مالك بن أسماء بن خارجة:

وتَزيدينَ أطْيبَ الطِّيبِ طيباً ... ـ إنْ تَمَسّيهِ ـ أينَ مِثْلُكِ أينا!
وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجوهٍ ... كانَ للدُّرِّ حُسْنُ وَجهِكِ زَيْنا

وروى أبو تمام الطائيّ فى الحماسة بعض الأبيات التى ذكرناها للحسين بن مطير.

وروى له أيضاً(٣) ـ ويشبه أن يكون الجميع من قصيدة واحدة:

وكنتُ أذُودُ العَينَ أنْ تَرِدَ البُكا ... فقد ورَدَتْ ما كنتُ عنهُ أذُودُها
خليلَيَّ ما بالعَيْشِ عيبٌ لَوَ أنَّنا ... وَجَدْنا لأيّامِ الصِّبا مَن يُعيدُها

وروى أبو تمام أيضا لغيره(٤)، وبعض الرواة يرويها لابن مُطَيْر:

ولِي نظرةٌ بعد الصدود من الجوَى ... كنظرة ثَكْلى قد أصيبَ وليدُها
هَـلِ اللهُ عافٍ عن ذُنوبٍ تَسلَّفَتْ! ... أمِ اللهُ إنْ لم يَعفُ عَنها مُعيدُها!(٥)

وأنشد أبو عليّ لابن مُطَيْر:

قَضى اللهُ يا أسماءُ أنْ لستُ بارِحاً ... أُحِبُّكِ حتّى يُغمِضَ العَيْنَ مُغْمِضُ(٦)

---

(١) حواشى الأصل، ت، ف: «قد ذكر فى صفرة التراق أنها من الحلى».

(٢) حاشية الأصل: «يقال: رف النبت إذا مطر فاهتز بالندى».

(٣) الحماسة بشرح التبريزى ٣: ٣٠٢–٣٠٣. (٤) الذى فى ديوان الحماسة بشرح التبريزى أن الأبيات الأربعة منسوبة للحسين بن مطير. (٥) حاشية الأصل: «الضمير للمرأة التى يهواها».

(٦) الزهرة: ٢٤؛ وفى حاشية الأصل: «أغمض وغمّض [بالتضعيف] بمعنى واحد، أى يغمض عينه وليه بعد الموت».

[١٤٦ و] / وحُبُّكِ بَلْوَى غيرَ ألاَّ يَسُرُّنى   وإنْ كان بَلوَى أننى لكِ مُبغِضُ(١)

إذَا أنا رُضْتُ النَّفسَ فى حُبِّ غيرِها   أتَى حُبُّها مِن دُونِها يَتعرَّضُ

فيالَيْتَنِى أقرضْتُ جَلْدًا(٢) صَبابَتى   وأقرَضَنى صبراً على الشَّوْقِ مُقْرِضُ

ويشبه أن يكون أخذ قوله :

* إذا أنا رُضْتُ النفس فى حُبِّ غيرها *

من قول رجل من فزارة :

وأعرِضُ حتّى يَحسِبَ النَّاسُ أنما   بِىَ الهَجْرُ لاها للّهِ ما بى لكِ الهَجْرُ

ولكِنْ أروضُ النَّفْسَ أنظرُ هَل لها   ـإذَا فارَقَتْ يوْماً أحِبَّتَها ـ صبرُ !

أو من قول نُصَيْب:

وإنّى لأَستَحْيِي كثيراً وأتَّقى   عيونًا(٣) وأستَبقِى المَوَدَّةَ بالهَجْرِ

وأنذِرُ بالهِجْرانِ نفسى أرُوضُها   لتعلم عندَ الهَجْرِ هَل لىَ مِنْ صَبْرِ!

ويُشْبِه أن يكون أخذ قوله :

* فياليتنِى أقرضْتُ جَلْداً صبابتى ... * البيت

من قول بعض العرب:

رَمَى قلبَهُ البَرْقُ المُلأْلِئُ رَمْيةً   بِجَنْبِ الحِمَى وَهناً فكادَ يَهيمُ(٤)

فهَل مِن مُعِيرٍ طَرْفَ عيْنٍ خَلِيَّةٍ   فإنسانُ عيْنِ العامِرِيِّ كَلِيمُ

وللحسين فى هذا المعنى ما رواه المبرِّد :

ولى كَبِدٌ مَقْرُوحةٌ مَنْ يَبِيعُنى   بها كَبِداً ليستْ بذاتِ قُرُوحِ(٥)

---

(١) حاشية ت (من نسخة): «وإن كان داءً» . (٢) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : «غيرى» . (٣) ف : «غيورا» ، م : «عدوا» . (٤) حاشية ت (من نسخة): «البرق اللالى رمية» .

(٥) حواشى الأصل ، ت ، ف : « رواهما غير المبرد لابن الدمينة، وقبلهما :

ألاَ يا حَمَى وادِى المِياهِ قَتَلْتنى   أبَاحَكَ لى قبلَ المماتِ مُبِيحُ =

أبى النَّاسُ، وَيْبَ النّاس! لا يشترُونَها ومَنْ يَشْتَرِى ذا عُرَّةٍ بصحيحِ! (١)

وأخذ العباس بن الأحنف هذا المعنى فقال :

مَنْ ذا يُعيرُكَ عَيْنَهُ تَبكى بها! أرأيتَ عيناً للبُكاءِ تُعارُ! (٢)

* * *

وأخبرنا المرزبانىّ قال حدثنا أبو عبد الله الحكيمىّ قال حدثنى يموت بن المزرّع قال حدثنا محمد بن حُميد قال: كنا عند الأصمعىّ؛ فأنشده رجل أبيات دِعبل :

أين الشَّبابُ وأيَّةً سَلَكا! لا، أينَ يُطلَبُ ضَلَّ بل هَلَكا! (٣)

/ لا تَعجَبى يا سَلْمُ منْ رجُلٍ ضَحِكَ المَشيبُ برأسِهِ فَبَكى [١٤٦ ظ]

يا سَلْمُ ما بالشَّيبِ مَنْقَصةٌ لا سوقةً يُبقى ولا مَلِكا

قَصَرَ الغِوايةَ عنْ هوَى قَمَرٍ وَجَدَ السَّبيلَ إليه مُشتَرَكا

يا ليتَ شِعرى كيفَ نومُكُما يا صاحِبَىَّ إذَا دَمى سُفِكا!

لا تأخُذا بُظلامَتى أحَـداً قَلبى وطَرْفى فى دَمى اشتَرَكا

قال: فاستحسنها كلُّ مَن فى المجلس، وأكثروا التعجب من قوله :

* ضَحِكَ المَشيبُ برأسِه فبكى *

= وبعدها :

أَئِنُّ من الشَّوْقِ الَّذِى فى جَوانِحِى أنينَ غَضِيضٍ بالسِّلاحِ جريحِ »

وفى معجم البلدان ٨ : ٣٧٧ أبيات خمسة نسبها إلى ابن الدمينة ، يتفق البيت الأول والرابع والخامس مع هذه الأبيات ، والبيت الثانى والثالث هناك :

رأيتُكَ غَضَّ النَّبْتِ مرتبط الثَّرى يَحُوطُك شجاعٌ عليك شحيحُ

كأنَّ مَدُوفَ الزَّعْفَرانِ بجَنْبِهِ دمٌ مِنْ ظِباءِ الواديَيْن ذبيحُ

(١) حاشية ت (من نسخة) : «ذاعلة» . (٢) حاشية الأصل : قبله :

نَزَفَ البُكاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فاستَعِرْ عَيْنًا لِغَيْرِكَ دمعُها مِدْرارُ

والبيتان فى ديوانه : ٦٨ . (٣) الأبيات فى العقد ٥ : ٢٧٥ والخزانة ٣ : ٤٨٧ .

فقال الأصمعيُّ : إنما أخذ قوله هذا من ابن مُطَيرٍ الأسديّ في قوله :

أينَ أهلُ القِبابِ بالدَّهناءِ ! أينَ جيرانُنا على الأحساءِ ![١]
جاوَرُونا والأرضُ مُلْبَسَةٌ نَوْرَ الأقاحي تُجادُ بالأنواءِ
كلَّ يومٍ عن أقحُوانٍ جَدِيدٍ تَضْحَكُ الأرضُ من بُكاءِ السَّماءِ[٢]

وقد أخذه مسلم صريع الغواني في قوله :

مُستَعبِرٌ يَبكي على دِمْنَةٍ ورأْسُهُ يَضحكُ فيه الشيبُ[٣]

قال سيدنا أدام الله علوّه : ولأبي الحجناء نُصَيْبٍ الأصغر مثلُ هذا المعنى ، وهو قوله :

يبكي الغَمامُ بهِ فأصبحَ رَوْضُهُ جَذْلانَ يَضْحَكُ بالجَميمِ ويُزْهِرُ[٤]

ولابن المعتز مثله :

ألحّتْ عليهِ كلُّ طَخْياءَ دِيمَةٍ إذا ما بكَتْ أجفانُها ضَحِكَ الزَّهرُ[٥]

ولابن دريد مثله :

تبسَّمَ المُزْنُ وانهلّتْ مَدامِعُهُ فأضحكَ الرَّوضَ جَفنُ الضّاحِكِ الباكي[٦]
وغازَلَ الشَّمسَ نَوْرٌ ظَلَّ يَلحَقُها بعينِ مُستَعبِرٍ بالدَّمعِ ضَحَّاكِ

ورُوي عن أبي العباس المبرد أنه قال: أخذ ابن مُطَير قوله :

* تضحكُ الأرضُ مِن بكاءِ السَّماءِ *

[١٤٧ و] / من قول دُكَيْنٍ الراجز :

جُنَّ النَّباتُ في ذُراها وزَكا[٨] وضَحِكَ المُزْنُ بهِ حتّى بَكى

---

(١) الخزانة ٢ : ٤٨٧ ، عن الغرر . وفي حاشية الأصل : « الأحساء : جمع حسي ، وهو الموضع الذي استنقع فيه الماء » . والدهناء : أرض من منازل تميم بنجد . (٢) ت حاشية الأصل (من نسخة) : « بأقحوان » . (٣) ديوانه : ٣٦٧ ، الوساطة : ٤٤ (٤) ت : « يبكي الغمام » . الجميم : الكلأ الكثير . (٥) ديوانه : ١ : ٣٣ (٦) ديوانه : ٩٨ ، والخزانة ٢ : ٤٨٧ — ٤٨٨ وكلاهما عن الغرر . وفي حاشية ت (من نسخة) « دمع الضاحك الباكي » . (٧) ت : « يلحظها » (٨) الخزانة ٢ : ٤٨٨ ، عن الغرر .

مجلس آخر ٣٣

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾؛ [آل عمران : ٧].

الجواب ، قلنا : ذُكر في هذه الآية وجهان مطابقان للحقّ :

أحدها أن يكون الراسخون في العلم معطوفين على اسم الله تعالى ؛ فكأنه قال : وما يعلم تأويله إلا الله وإلاّ الراسخون في العلم ، وإنهم مع علمهم به ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾؛ فوقع قوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ في موقع الحال؛ والمعنى أنهم يعلمونه قائلين : ﴿ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ وهذا غاية المِدْحة لهم ؛ لأنهم إذا علموا ذلك بقلوبهم ، وأظهروا التصديق به على ألسنتهم فقد تكاملت مِدْحتهم ووصفُهم بأداء الواجب عليهم .

والحجةُ ـ لمن ذهب إلى ما بيّناه ، والردُّ على من استبعد عطفه على الأول وتقديرَه أن يكون قولُه : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ على هذا التأويل لا ابتداء له ، ـ قولُه : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾؛ إلى قوله : ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾؛ [الحشر : ٧] ، فذكر جملةً ، ثم تلاها بالتفصيل ، وتسميةِ مَنْ يستحق هذا الفَيْء فقال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، إلى قوله: ﴿الصَّادِقُونَ﴾ ؛ [الحشر : ٨] . وقال في الذين تبوءوا الدار والإيمان ـ وهمُ الأنصار: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾؛ [الحشر : ٩] . وقال فيمن جاء بعدهم: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ ؛ [الحشر : ١٠]، فهذه الآيات تدلّ على أنه لا يُنكَر في آية « الراسخين في العلم » أن يكون قوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ حالاً لهم ؛ مع العلم بتأويل المتشابه ؛ ولو أشكل شيء من ذلك لما أشكل قولُه : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ﴾ في أنه موافق لقوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ وأن الصورتين واحدة .

[١٤٧ ظ] ومما يُستشهد به / على ذلك من الشعر قول يزيد بن[1] مفرِّغ في عبدٍ له كان يُسمّى بُرْداً باعه ثم ندم عليه :

وشَرَيْتُ بُرْدًا ليتَني ... مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هامَهْ[2]
هامَةً تدْعُو صَدًى ... بينَ الْمُشَقَّرِ فاليمامَهْ[3]
الرِّيحُ تبكي شَجْوَهُ ... والبَرْقُ يَلمعُ في الغَمامَهْ[4]

فعطف البرقَ على الريح ، ثم أتبعه بقوله : « يَلمع » ؛ كأنه قال : والبرق أيضاً يبكيه لامعاً في غمامه ؛ أي في حال لمعانه ؛ ولو لم يكن البرقُ معطوفا على الريح في البكاء لم يكن للكلام معنًى ولا فائدة .

ويمكن أيضا على هــــذا الوجه مع عطف « الراسخين » على ما تقدّم، وإثباتِ العلم بالمتشابِه لهم أن يكون قوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا ﴾ استئنافَ جملة، واستُغني فيه عن حرف العطف؛ كما استُغني في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ؛ [الكهف : ٢٢]، ونحو ذلك مما للجملة الثانية فيه التباسٌ بالجملة الأولى ، فيُستَغنَى به عن حرف العطف، ولو عطف بحرف العطف كان حسنا ، يُنزّل المتلبِّس منزلةَ غيرِ المتلبِّس .

والوجه الثاني في الآية أن يكون قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مستأنفاً غير معطوف

---

(١) هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ ؛ وخبر بيعه بردا ، مع الأبيات في الأغاني ١٧ : ٥٣ـ٥٥ .
(٢) شريت : بعت ، والهامة والصدى ، كلاهما كناية عما تزعم العرب أنه يطير من رأس الميت .
(٣) المشقر : حصن بين البحرين ونجران . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « في غمامة » .

على ماتقدم، ثم أخبرَ عنهم بأنهم: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، ويكون المرادُ بالتأويل على هذا الجواب المتأوَّل، لأنه قد يسمّى تأويلا، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾، [الأعراف: ٥٣] والمراد بذلك لا محالةَ المتأوَّلُ، والمتأوَّل الذى لا يعلمه العلماء؛ وإن كان الله عزوجلّ عالمًا به، كنحو وقت قيام الساعة، ومقادير الثواب والعقاب، وصفة الحساب، وتعيين الصغائر؛ إلى غير ذلك؛ فكأنه قال: وما يعلم تأويل جميعه. على المعنى الذى ذكرناه إلا الله؛ والعلماء يقولون آمنّا به.

وقد اختار أبو علىّ الجُبّائى هذا الوجهَ، وقوّاه، وضعّف الأول بأن قال: قولُ الراسخين فى العلم ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ دلالة على استسلامهم؛ لأنهم لا يعرفون تأويل المتشابه، كما يعرفون تأويل المحكَم، ولأن ما ذكرناه من وقت القيامة، ومن التمييز بين الصغائر والكبائر هو من تأويل القرآن؛ إذا كان داخلا فى خبر الله؛ والراسخون فى العلم / لا يعلمون ذلك. [١٤٨ و]

وليس الذى ذكره بشىء؛ لأنه لا يمتنع أن يقول العلماء مع علمهم بالمتشابه: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ على الوجه الذى قدمنا ذكره؛ فكيف يُظَنّ أنهم لا يقولون ذلك إلا مع فقد العلم به! وما المنكَر من أن يُظهِر الإنسانُ بلسانه الإيمانَ بما يعلمه ويتحققه! فأما قوله: «ولأن ما ذكرناه من تأويل القرآن» فذلك إنما يكون تأويلا للقرآن إذا حُمِلَتْ هذه اللفظة على المتأوَّل، لا على الفائدة والمعنى. وأما إذا حُمِلت على أنه: وما يعلم معنى المتشابه وفائدته إلا الله، فلابدّ من دخول العلماء فيه.

وليس يمكنه أن يقول: إنّ حملَ التأويل على المتأوَّل أظهرُ من حمله على المعنى والفائدة؛ لأن الأمرَ بالعكس من ذلك؛ بل حَمْلُه على المعنى أظهر وأكثر فى الاستعمال، وأشبه بالحقيقة؛ على أنه لو قيل: إنّ الجواب الأولَ أقوى من الثانى لكان أولى من قوله من قبل: إنه لو كان المراد بالتأويل المتأوَّل لا الفائدة والمعنى لم يكن لتخصيص المتشابه بذلك دون المحكَم معنًى؛ لأن فى متأوَّل المُحكَم؛ كإخباره عن الثواب والعقاب والحساب؛ مما لا شبهة فى كونه

محكما مالايعرفُ تفصيلَه وكنهه إلا الله تعالى ؛ فأىّ معنى لتخصيص المتشابه بذلك والكلام يقتضى توجُّهَه نحو المتشابه ! ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ ! فخصّ المتشابه بالذكر.

والأولى أيضا أن يكون المراد بلفظة ﴿ تَأْوِيلَهُ ﴾ الثانية هو المراد بلفظة ﴿ تَأْوِيلِهِ ﴾ الأولى ، وقد علمنا أن الذين فى قلوبهم زَيْغٌ إنما اتّبَعوا تأويلَه على خلاف معناه ولم يطلبوا تأويلَه الذى هو متأوَّله ؛ فالوجه الأولُ أقوى وأرجح .

ويمكن فى الآية وجه ثالث لم نجدهم ذكروه ، على أن يكون قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مستأنَفًا غيرَ معطوف ، ويكون المعنى : وما يعلمُ تأويلَ المتشابه بعينه وعلى سبيل التفصيل إلا الله ؛ وهذا صحيح لأنّ أكثر المتشابه قد يحتملُ الوجوه الكثيرة المطابقة للحق ، الموافقة لأدلة العقول ؛ فيذكر المتأوِّل جميعَها ، ولايقطع على مراد الله منها بعينه ، لأنّ الذى يلزم مثل ذلك أن يُعلَم فى الجملة أنه لم يُرِدْ من المعنى مايخالف الأدلة ؛ وأنه قد أراد بعضَ الوجوه المذكورة المتساوية فى الجواز ، والموافقة للحق . وليس من تكليفنا أن نعلم المراد / بعينه ؛ [١٤٨ ظ]
وهذا مثلُ الضلال والهدى اللّذَين نُبين احتمالها لوجوه كثيرة ؛ منها ما يخالف الحقّ فيُقطع على أنه تعالى لم يردْه، ومنها وجوه تطابق الحق ، فيُعلم فى الجملة أنه قد أراد أحدَها ، ولا يُعلم المرادُ منها بعينه وغير هذا من الآى المتشابهة ؛ فإن أكثرها يحتمل وجوها ، والقليل منها يختص بوجه واحدٍ صحيح لايحتمل سواه ؛ ويكون قوله تعالى من بعد: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾، أى صدّقنا بما نعلمه مُفصَّلا ومجملاً من المحكَم والمتشابه؛ وأنّ الكلّ من عند ربنا ؛ وهذا وجه واضح.

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله المرزُبانىّ قال أخبرنا محمد بن أبى الأزهر قال أنشدنا محمد بن يزيد لأبى حيّة[١] النُّمَيرىّ – وهى أبيات مختارة :

---

(١) هو أبو حية الهيثم بن الربيع بن زرارة ، ينتهى نسبه إلى مضر بن نزار . من مخضرمى الدولتين، =

وخَبَّرَكِ الواشونَ ألاّ أُحِبُّكمْ ... بَلى وسُتورِ اللهِ(١) ذاتِ المَحارِمِ(٢)

أَصُدُّ ، وما الصَّدُّ الذى تَعرِفينَهُ ... عَزاءً بنا إلاّ اجْتِراعُ العَلاقِمِ(٣)

حَياءً وبُقْيا أنْ تَشيعَ نَميمةٌ ... بنا وبِكمْ ؛ أُفٍّ لأهلِ النَّمائمِ !(٤)

وإنَّ دمًا لوْ تعلَمينَ جَنَيْتِهِ ... على الحَىِّ ، جانى مِثلِهِ غيرُ سالِمِ(٥)

أمَا إنَّهُ لو كانَ غيرُكِ أرْقَلَتْ ... صِمادُ القَنا بالرّاعفاتِ اللَّهاذِمِ(٦)

ولكِنه واللهِ ما طَلَّ مُسْلِماً ... كبِيضِ الثَّنايا واضِحاتِ المَلاغِمِ

ـ قال ثعلب : الملاغم، ماحول الفم ، وقال المبرّد: «واضِحات الملاغم»، يريد العوارض، وقوله : « ما طلّ مسلماً »، أى أبطل دمَه ـ

إذا هنَّ ساقطنَ الحديثَ حَسِبْتَهُ(٧) ... سُقوطَ حَصَى المَرجانِ من سِلكِ ناظمِ

ـ ويروى: « ساقطْنَ الأحاديث للفتى » . ويروى أيضا : « ساقطن الحديث كأنّهُ » ـ

رَمَيْنَ فأقصَدْنَ القُلوبَ فلا تَرَى ... دمًا مائرًا إلاّ جَوًى فى الحَيازِمِ(٨)

من ساكنى البصرة ، وكان شاعرا راجزا مقصدا ، (وانظر ترجمته وأخباره فى الأغانى ١٥ : ٦١–٦٢ والشعر والشعراء ٧٤٩–٧٥٠ ، والخزانة ٤ : ٢٨٣–٢٨٥) .

(١) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « ستور البيت » .

(٢) الكامل ـ بشرح المرصفى ١ : ٢٣١–٢٣٥ ، وأمالى القالى ٢ : ٢٨٠ ، ومختارات ابن الشجرى ١٥٣ .

(٣) اجتراع : مصدر اجترع الماء إذا ابتلعه . والعلاقم : واحدها العلقم ، جمع العلقمة ، وهى القطعة من كل شىء مر .

(٤) حاشية ت (من نسخة) : « لهذى النمائم » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « غيرنادم » .

(٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الإرقال : ضرب من السير السريع ؛ وهو هنا استعارة ، والصماد : جمع صمدة ، والراعفات : الأسنة التى يرعفن ، واللهاذم : جمع لهذم ؛ وهن القواطع » .

(٧) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : « كأنه » ؛ وهى رواية الكامل، وفى حاشية ت (من نسخة) : « ساقطن الأحاديث بيننا » .

(٨) أقصدن القلوب : رمينها ؛ من قولهم ؛ قصدت الرجل إذا طعنته أورميته ؛ فلم تخطىء مقاتله . والدم المائر : السائل . والحيازم : الحيازيم ؛ وهى ضلع الفؤاد وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر . وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « فأصمين القلوب » .

قال سيدنا أدام الله تمكينه : ومن مُستحسَن ما مضى فى هذه القصيدة قوله :

كأنْ لمْ أبرِّحْ بالغَيورِ وأقتتِلْ ... بتَفتيرِ أبصارِ الصِّحاحِ السَّقائمِ (١)

[١٤٩ و] / ولمْ ألْهُ بالحِدْثِ الألَفِّ الذى لهُ ... غدائرُ لمْ يُحْرَمْنَ فارَ اللَّطائمِ (٢)

إذا اللَّهوُ يَطبيني وإذْ أستميلهُ ... بمُحْلَوْلِكِ الفَوْدَيْنِ وَحْفِ المَقادِمِ (٣)

وإذْ أنا مُنقادٌ لِكلِّ مُقَوِّدٍ ... إلى اللَّهوِ حلَّافَ البَطالاتِ آثمِ

ـ وروى ابن حبيب : « مُقَوِّدٍ ». ومعنى «حلَّاف البطالات»، أى حلَّاف فى البطالات ـ

مُهينُ المَطايا مُتْلِفٌ غيرَ أنَّنى ... على هُلْكِ ما أتْلفْتُهُ غيرُ نادمِ (٤)

أرَى خَيرَ يومَىَّ الخَسيسَ وإنْ غَلَا ... بِىَ اللَّوْمُ لمْ أحفِلْ مَلامةَ لائمِ

ـ معنى « خير يومَىَّ الخسيس »، أى أحبُّ يومىَّ إلىَّ الذى هو أخسُّ عند أهل الرأى والعقل .

وأنشد أبو إسحاق إبراهيم بن سيف بن الزِّيادىّ لأبى حَيَّة ـ واسمه هيثم بن الربيع :

تَرَحَّلَ بالشَّبابِ الشَّيبُ عنَّا ... فليتَ الشَّيبَ كان به الرَّحيلُ

وقدْ كانَ الشَّبابُ لنا خَليلاً ... فقد قَضَّى مآرِبَه الخَليلُ

لَعَمْرُ أبى الشَّبابُ لقد تولَّى ... حَميدا ما يُرَادُ بهِ بَديلُ

(١) حواشى الأصل ، ت ، ف : « أى كأن لم أعذب بعذاب شديد ؛ ويعنى بالغيور زوجها أو أخاها . ومعنى أقتتل أقتل . والأعرف فى الحب أن يقال : اقتتله الحب ؛ قال ذو الرمة :

إذا ما امرُؤٌ حاولْنَ أنْ يَقتَتِلْنَهُ ... بلا إحْنَةٍ بَيْنَ النُّفوسِ وَلَا ذَحْلِ

(٢) الحدث : المحادث . والألف : عظيم الفخذ ؛ ويقال : امرأة لفاء ؛ إذا كانت ضخمة الفخذين مكتنزة باللحم . والفار : نافجة المسك . واللطائم : جمع لطيمة ؛ وهى الفائلة التى يكون فيها المسك .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « إذا أستميله » . طباه : دعاه . والمحلولك : الحالك الأسود . والفودان : مثنى فود ؛ وهو معظم شعر الرأس مما يلى الأذن وناحية الرأس . والوحف : الشعر الكثير الأسود . والمقادم : مقدمات الرأس . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « على ردما أتلفته » « أى على اكتساب ؛ والتقدير : غير أنى غير نادم ؛ مع أنى قادر على رد ما أتلفت واكتساب مثله » .

إذِ الأيّامُ مُقْبِلَةٌ علَينا وظِلٌ أراكةِ الدُّنيا ظَليلُ

وأنشد المبرّد ، قال أنشدنا أبو عثمان المازنىّ لأبي حيّة :

زَمانَ الصِّبا ليتَ أيّامَنا رَجَعْنَ لنا الصّالِحاتِ القِصارا[١]
زَمانٌ عليٌّ غُرابٌ غُدافٌ فطيّرَهُ الدهرُ عني فطارا
فلا يُبْعِدِ اللهُ ذاكَ الغُرابَ وإن هو لم يُبْقِ إلاّ ادّكارا
كأنَّ الشّبابَ ولَذّاتِهِ ورَيقَ الصِّبا كان يوماً مُعارا[٢]

ــ ريِّقُ الصبا ورَيقه ورونقه : أوّله ــ

وهازِئةٍ أن رأتْ لِمّتي تلفّعَ شيبٌ بها فاستدارا[٣]
وقلّدَني منه بعدَ الخِطامِ عِذارا فما أستطيعُ اعتِذارا[٤]
/ أجارَتنا إنّ رَيبَ الزّمانِ قَبلي نالَ الرِّجالَ الخيارا[٥] [١٤٩ ظ]
فإمّا تَرَيْ لِمّتي هكذا فأسرَعْتِ فيها لِشَيْبي النِّفارا[٦]
فقد أرْتَدِي وَخْفَةً طَلّةً وقد أبْرِزُ الفَتَياتِ الخِفارا

أما قوله : « عليٌّ غُراب غُداف » فأراد به الشّباب والشّعر الأسود ، ويُشْبِه أن يكون مأخوذا من قول الأعشى :

وما طِلابُكَ شيئاً لستَ تُدْرِكُهُ إنْ كانَ عَنكَ غُرابُ الجَهْلِ قد وَقَعا[٧]

ولأبي حَيّة من قصيدة أولها :

* ألاَ يا اسلَمي أطلالَ خَنْساءَ وانعَمِي[٨] *

(١) حاشية ت : « يحتمل أن تكون « الصالحات » مفعول « رجعن » ، ويحتمل أن يكون نصبا على المدح . (٢) ت ، حاشية الأصل (من نسخة) : « ثوبا معاراً » . (٣) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « أهازئة » . وتلفع الشيب به ، أي شمله . (٤) حاشية ت : « جعل ظهور الشيب في شاربه وعنفقته خطاما ، وشيب ما على لحييه من الشعر عذاراً ؛ وهذا من حسن التشبيه » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « غال الرجال » . (٦) حاشية الأصل (من نسخة) : « منها لشيبي » . ومن نسخة أخرى : « فأسرعت مني » . وفي حاشية ت (من نسخة) : « لشيب نفارا » .

(٧) ديوانه : ٧٣ . (٨) أبيات منها في زهر الآداب : ١٩٠ (طبعة الحلبي) والحماسة ــ بشرح التبريزي ٣ : ٣٠٨ ــ ٣١٠ .

وخَنْساءُ مِخْمَاصُ الوِشاحَين مَشْيُهَا إلى الرَّوْحِ أفنانٌ خُطَا المُتَجَشِّمِ (١)
ألِمَّا بسَلْمَى قَبْلَ أنْ تَرْمِيَ النَّوى بنا فَذَةٍ نَبْضَ الفُؤَادِ المُتَيَّمِ
بِقِفْ عاشِقًا لم يَبْقَ مِن رُوحِ نفسِهِ ولا عَقْلِهِ المَسْلُوبِ غيرُ التَّوَهُّمِ
فقُلْنَ لهــا سِرًّا : فدَيناكِ! لا يَرُحْ صَحيحًا ، فإنْ لم تَقتُليهِ فأَلْمِمِي (٢)
فأَلْقَتْ قِناعًا دُونَهُ الشَّمسُ واتَّقَتْ بأحسَنِ مَوْصُولَيْنِ : كَفٍّ ومِعْصَمِ

وهذا البيتُ الأخير مأخوذ من قول النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فتَنَاوَلَتْهُ واتَّقَتْنَا باليَدِ (٣)

ولقوله : « وقلْنَ لها سِرًّا فديناكِ لا يَرُح » خبرٌ ، وهو ما أخبرنا به أبو الحسن عليّ بن محمد الكاتب قال حدّثني محمد بن يحيى الصوليّ قال حدثني الباقُطَانيُّ قال : اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أَمْرُ عليّ بن العباس الروميّ وكَثْرةُ مجالستِه لأبي الحسين القاسم ابنه ، وسمع شيئا من أهاجيه ، فقال لأبي الحسين : قد أحببتُ أن أرى ابنَ روميِّك هذا ؛ فدخل يوماً عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الروميّ عنده ، فاستنشده من شعره فأنشده ، وخاطبه ، فرآه مضطربَ العقل جاهــلا ، فقال لأبي الحسين ــ بينه وبينه ــ : إنّ لسان هذا أطول من عقله ، ومَن هذه صورتُه لا تُؤْمَن عقاربُه عنــد أول عَتْبٍ ، ولا يفــكّر في عاقبةٍ ، فأَخْرِجه عنك ، فقال : أخاف حينئذ أن يُعلن ما يكْتمه في دولتنا، ويُذيعَه في تمــكّننا ، فقال : يا بنيّ / لم أُرِدْ بإخراجك له طردَه ، فاستعمل فيه بيت [١٤٣] أبي حَيّه النُّميريّ :

فقلْنَا: لها سِرًّا فدَيناكِ!لا يَرُحْ صحيحًا ، فإنْ لم تَقْتُليهِ فألْمِمِي

(١) مخماص الوشاحين ، كناية عن أنها هيفاء . والوشاح : أديم عريض ترصعه المرأة بالجواهر وتشده على عاتقيها . ومشيها الى الروح ؛ أى حين تخرج من خبائها تطلب الروح . وأفنان : جمع فن ؛ أى أنواع ؛ وفى ت : « إقتارخطاالمتجشم » . (٢) ألمى : اشرعى فى مبادئ قتله . (٣) ديوانه : ٣٠ ؛ والنصيف : الخمار ، أو نصفه .

فحدّث القاسم بن فِراس بما جرى ، وكان أعدى النّاس لابن الرومى ؛ وقد هجاه بأهاج[١] قبيحة ، فقال له الوزير أعزّه الله : أشار بأن يُحتال حتى يُستراح منهُ وأنا أكفيك ذلك قال : فسمَّه فى الخُشْكَنانج ، فمات .

قال الباقُطانىّ : والناس يقولون ما قَتله ابن فِراس ، وإنما قَتَله عبيد الله[٢] .

وذكر محمد بن يزيد المبرّد قال : "مما يُفضَّل[٣] لتخلُّصه من التكلُّف ، وسلامتِه من التزّيد وبعده من الاستعانة قولُ أبى حيّة :

رَمَتْنى ـ وسِترُ اللهِ بَينى وبَينها ـ   عَشيَّةَ آرامِ الكِناسِ رَمِيمُ[٣]
ألا رُبَّ يومٍ لو رَمَتنى رَمَيتُها ،   ولكنَّ عَهدى بالنِّضالِ قَديمُ"[٤]

قال سيدنا أدام الله علوّه : وقد رُوِىَ هذان البيتان لنُصيب فى غير رواية المبرّد . قال المبرّد يقول : " رمتنى وأصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابا لرميتُ كما رُميتُ ، وفتنتُ كما فُتِنْتُ ؛ ولكن عهدى قد تطاول بالشباب ، وهذا كلام واضح ؛ " وأما الاستعانة فهى أن يُدخل فى الكلام مالا حاجة بالمستمع إليه ليُصحّح نظما أو وزنا " [٥] .

ومما يختار من قول أبى حيّة أيضا :

---

(١) حاشية الأصل : « يقال بينهم أهجوة وأهجية » ، والجمع الأهاجى ، وقد يخفف كالأثافى » .

(٢) فى ت : « قال ابن الرومى لما رجم ، وقد دب الدم فى أعضائه :

أشرب الماء إذا ما التَهبتْ   نارُ أحشائى لإطفاء اللهبْ
فأراه زائدا فى حُرْقتى   فكأن الماءَ للنّارِ حطَبْ

(٣) الكامل ـ بشرح المرصفى ١ : ١٢٩ـ١٣٠ ، وهما أيضا فى الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٩ـ٢٧٠ وآرام : جمع إرم ، مثل عنب ؛ وهى الحجارة تنصب علما فى المفازة يهتدى بها . رميم : اسم امرأة . وستر الله : الإسلام ، وقيل الشيب ؛ وقيل ما حرم الله عليهما . (٤) ومن زيادات الكامل بعد هذا البيت :

يرى الناسُ أنّى قد سَلَوْتُ وإننى   لمرمِىٌّ أحناءَ الضلوع سَقيمُ

(٥) بقية عبارة المبرد : « ... إن كان فى شعر ، أو ليتذكر به مابعده إن كان فى كلام منثور » .

أَلا حَيِّ مِن أجلِ الحَبيبِ المَغانيا ... لَبِسْنَ البِلَى مِمّا لَبِسْنَ اللَّياليا[١]
إذا ما تَقاضَى المَرْءَ يومٌ ولَيلَةٌ ... تَقاضاهُ شيءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضيا

ويقال: إن أحسنَ ما وُصِفَ به المسواكُ قول أبي حيّة:

لقد طالما عنَّيتُ راحِلَةَ الصِّبا ... وعَلَّلتُ شيطانَ الغَوِيِّ المُشوَّقِ[٢]
وداوَيتُ قَرْحَ القَلبِ منهنَّ بالمُنَى ... وباللَّحْظِ ـ لو يَبْذُلْنَهُ ـ المُتَسَرَّقِ
وساقَيْنَني كأسَ الهَوَى وسَقَيْتُها ... رِقاقَ الثَّنايا عَذْبَةَ المُتَرَيَّقِ[٣]
وخُمْصانةٍ تَفْتَرُّ عن متَنَضِّدٍ ... كَنَوْرِ الأقاحي طَيِّبِ المُتَذَوَّقِ

[١٠٠ ظ] /ـ ويروى: «عن متنسّق»، يعني تَفترّ على نسق واحدٍ لا اختلاف فيه ـ

إذا مَضَغَتْ بعدَ امتِتاعٍ من الضُّحَى ... أنابيبَ مِن عُودِ الأَراكِ المُخَلَّقِ

ـ الامتتاع: الارتفاع، يقال مَتَع النهار وأمتع إذا طال ـ والمخلّق: الذى عَلِق به الخَلوق والطيبُ من يدها؛ وقال بعضهم: عنى بالمخلّق المملّس ـ

سقَتْ شَعَثَ المِسواكِ ماءَ غَمامةٍ ... فَضيضاً بخُرْطومِ المُدامِ المُرَوَّقِ[٤]

ـ والفضيض: الذى حينَ سال من الغمامة، أي كما فُضَّ[٥]، والخُرطوم: سُلاف الخمر، وهو أول ما يخرج من غير عَصْرٍ ولا دَوْسٍ ـ

وإنْ ذُقْتَ فاهاَ بعد ما سَقَطَ النَّدَى ... بِعِطْفَيْ بَخَنْداةٍ رَداحِ المُنَطَّقِ

ـ البَخَنْداة: الضخمة. والرَّداح: المطبية الأرداف.

شَمِمْتَ العَرارَ الطَّلَّ غِبَّ هَمِيمَةٍ ... ونَوْرَ الخُزامَى في النَّدَى المُتَرَقْرِقِ[٦]

---

(١) الكامل ـ بشرح المرصفي ٣ : ٢٥ .

(٢) زهر الآداب : ٢٢٧ (طبعة الحلبي) ، شرح المختار من شعر بشار : ٢٣٨ .

(٣) حاشية ت : « راق السراب يريق ريقا ، وتريق، إذا لمع ؛ كأنه قال : عذبة موضع التريق . ويجوز أن يكون مشتقا من الريق الذى هو الرضاب ؛ أى عذبة مترشف الريق » .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « بخرطوم المدام الروق » .

(٥) كما فض ؛ أى كما تفرق من السحابة ؛ ولم تصل إليه غبرة .

(٦) حاشية الأصل (من نسخة) : « ونور الأقاحي » .

ـ العَرَار: بَهار البَرّ، والطَّلّ : النفَضُ الطرِيّ ، والهَمِيمة : مَطَر لَيِّن[1] :

وأخبرنا المرزُبانيّ قال حدثني عليّ بن هارون بن عليّ قال : سمعت أبي ـ وقد ذكر قولَ أبي حيّة :

نظَرْتُ كأنّي مِنْ وَرَاءِ زُجاجةٍ إلى الدَّارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبابةِ أنظُرُ[2]
بعينَيْنِ طَوْراً تَغرَقانِ مِنَ البُكا فأعشَى، وطَوْراً تَحْسِرانِ فأُبصِرُ[3]

فقال : لو اعترَضَني مَمْلَكٌ تجب طاعته ، ويلزم الانقيادُ لأمره فقال : أيُّ شعرٍ أجودُ وأوْلَى بأن يُستحسَن؟ ولم يَفْسَح لي في أن أميِّز المدح من الفخر ، والهجاء من التشبيب ، وسائر أصناف الشعر ومذاهب الشعراء فيه لما عدلتُ عن هذين البيتين .

ويقال إن أبا أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أجاز بيتَيْ أبي حية هذين بقوله :

فلا مُقلتي مِنْ غامرِ الماءِ تَنجلِي ولاَ دَمْعَتي مِنْ مُكْمَدِ الوَجْدِ تقطُرُ[4]

ولأبي حية :

مِنَ المُبْكياتِ الجَلْدَ حتّى كأنّما تَسُحُّ بعينَيْهِ الدُّموعَ شَعِيبُ

ـ الشَّعيب : مَزادة من أدِيمَيْن، يُشعَبُ[5] أحدُهما بالآخر ـ

---

(١) حاشية الأصل : «في نسخة س : أخبرنا البارع أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الوهاب البغدادي رحمه الله قال : أخبرني الرئيس الحسن بن علي بن محمد بن باري الواسطي رحمه الله قال : كنا عند الملك العزيز في مجلس أنسه ، وأنشد منشد بيتي أبي حية : «إذا مضغت . . . » ، والذي يليه ، فسألني الملك العزيز أن أجيزهما فقلت :

هنيئاً عَلَى رُغْمِي لِعُودِ أَرَاكَةٍ تَسُوكُ به الدَّلْفاءُ مَبْسَمَها العَذْبا
لَئِنْ شُفِيَتْ منه لقدْ زانَ ثغرَها أرَاكاً يَبِيساً، وانْثَنَى مَنْدَلاً رَطْبا

(٢) أمالي القالي ١ : ٢٠٨ بلا عزو . وفي ت : «من ماء الصبابة» (٣) حاشية الأصل (من نسخة) : «فمياي طوراً» . وتحسران ، أي تنقشعان وتنكشفان . (٤) حاشية ت من نسخة) : «من مكمد الشوق تقطر» ، وفي حاشيتي الأصل ، ف : «في الأصل : بين البيت والبيتين بعيد» . (٥) يشعب : يخاط . ويسح : يصب

[١٠١ و] /ليالىَ أهلاَنا جميعاً وحوْلنا(١) … سوَائمُ منها رائحٌ وعَزِيبُ
وإذْ يتجنَّبنَ الذُّنوبَ ومالَنا … إليهنَّ (٢)إلاَّ وُدَّهُنَّ ذُنوبُ(٢)

ولأبى حيّة :

أصدُّ عن البيتِ الحبيبِ وإنّنى … لأُصغِى إلى البيتِ الذى أتجنّبُ
أزورُ بيوتاً غيرَهُ ولأهلُهُ … عَلَى ماعدَا عنهمُ أعزُّ وأقربُ
وقطّعَ أسبابَ المَوَدّةِ معْشرٌ … غضابَى ،وهلْ فى أحسنِ القولِ مَغْضَبُ(٣)!
وألاّ تَنِى يا أمَّ عَمرو نَميمةٌ(٤) … تَدِبُّ بها بيْنى وبينَكِ عقْربُ
وما بيْننا لوْ أنَّه كانَ عالماً … بذاكَ الأُلى يُولونَ مايتَرَيَّبُ(٥)
حديثٌ إذا لم تَخْشَ عَيْناً كأنَّهُ … إذا ساقطتْهُ الشّهْدُ ، بلْ هوَ أطيبُ
لوَ انَّكَ تستشفِى به بعدَ سكرةٍ … مِنَ المَوْتِ كانت سكْرَةُ الموْتِ تذهَبُ(٦)
وقلتُ لها : ماتأمُرِينَ ؟ فإنّنى … أرَى البَيْنَ أدنى روْعةٍ تترقّبُ(٧)

قال محمد بن يحيى الصولىّ : ولا أحسبه فى قوله :

* لو انّكَ تستشفِى به بعد سَكْرةٍ *

إلاّ تَبِع قول توبة بن الحُميِّر :

ولوْ أنَّ ليلَى الأخْيَليّةَ سلّمتْ … علىَّ ، ودُونى جَندَلٌ وصَفائحُ(٨)
لَسلّمتُ تَسليمَ البَشاشةِ ، أو زَقا … إليها صدًى مِنْ جانبِ القبرِ صائحُ

(١) حاشية ت (من نسخة) : « أهلانا جميع » .

(٢ـ٢) من نسخة بحواشى الأصل ، ت ، ف : « لولا ودهن ذنوب » .

(٣) من نسخة بحاشيتى ت ، الأصل : « يقطع أسباب المودة » ، وفى د « غضاب » .

(٤) حاشية ت : « قوله : « وألاتنى : عطف على معشر » . (٥) حاشية ت : « يولون : يحلفون علينا » ومن نسخة بحاشية الأصل : « يؤذون » . (٦) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « كادت سكرة الموت » . (٧) فى حاشيتى الأصل ، ت (من نسخة) : « ماتأمرينى » .

(٨) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ٢١٧ . الصفائح : الحجارة العراض تكون على القبور .

قال سيدنا أدام الله علوّه : وأوّلُ مَنْ سبق إلى هذا المعنى فأحسن الأعشى فى قوله :

عهْدِى بها فى الحىِّ قدْ دُرِّعتْ ... صَفْرَاءَ مِثلَ المُهْرَةِ الضَّامِرِ(١)

لوْ أسنَدَت مَيْتاً إلى نَحْرِها ... عاشَ ولمْ يُنْقَلْ إلى قابِرِ

حتّى يقولَ النَّاسُ ممَّا رَأوْا ... ياعجَباً لِلميِّتِ النَّاشِرِ !

ومعنى الناشر : المنشور ، يقال : نَشَرَ الله الميْتَ فنَشَر ، وهو ناشر بمعنى منشور ؛ مثل ماء دافق فهو مدفوق .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : إنّ الجاريةَ التى وصفها أيضاً هى ميتة بمعنى أنها ستموت ، فيكون المعنى : إن الناس عجبوا من أن يكون مَنْ يموت يَنْشُر الموتى ، ومن قال هذا أجاز : نَشَرَ الله الموتى / بمعنى أنشر ؛ والقولُ الأول أظهر ، وما نظن الأعشى عنَى غيره. [١٠١ ظ]

---

(١) ديوانه ١٠٤ ـ ١٠٥ ، وفى حاشية الأصل : (من نسخة) : « قد روعت » ، وفى حاشية ت (من نسخة) : « قد أبرزت » ، وفى الديوان : « قد سربلت » .

مجلس آخر [٢٤] *

تأويل خبر

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾؛ [يوسف : ٩٢]، حاكياً عن يوسف عليه السلام.

فقال: لِمَ خصّ «اليومَ» بالقول، وإنما أراد العفو عنهم فى جميع مستقبل أوقاتهم ؟

الجواب، قلنا: فى هذه الآية وجوهٌ أربعة :

أولها أنه لما كان هذا الوقتُ الذى أشار إليه[1] هو أوّلُ أوقاته التى كشف فيها نفسَه، وأطلعَهم على ما كان يسترُه[2] عنهم من أمره؛ أشار إلى الوقت الذى لو أراد الانتقامَ لابتدأ به فيه؛ والذى متى عفا فيه عنهم[3] لم يراجع الانتقام.

وثانيها أنّ يوسف عليه السلام لما قدّم توبيخَهم، وعدّد عليهم قبيحَ مافعلوه، وعظيمَ ماارتكبوه؛ وهو مع ذلك يسترُ عليهم[4] نفسه، ولا يُفصِح لهم بحاله قال لهم عند تبين أمرهم: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾؛ أى قد انقطعَ عنكم توبيخى، ومضى عذلى ولائمتى عند اعترافكم بالذنب، وكان ذكرُ «اليوم» دلالةً على انقطاع المعاقبة والتوبيخ؛ وعلى أنّ الأوقاتَ المتصلةَ باليوم تجرى مجراه فى زوال الغضَب، وتمام العفو، وسقوط المواقفة لهم على ماسلَف منهم.

وثالثها أنّ ذِكْرَ «اليوم» المرادُ به الزمانُ والحينُ، فوضع «اليوم» موضعَ الزّمان كلِّه، المشتمل على الليالى والأيام والشهور والسنين؛ كما يقول العربى لغيره: قد كنتَ تستحسن شرب الخمر فاليوم قد وُفِّقْتَ لتركها ومقتها؛ يريد فى هذا الزمان، ولا يريدُ يوماً واحداً بعينه؛ ومثله :

* فى الأصل: «هذا المجلس نصف الكتاب».

(١) ت: «أشار الله إليه».
(٢) حاشية ت (من نسخة): «ستره».
(٣) ساقطة من ت.
(٤) ت: «عنهم».

قد كنتَ تقصِّر فى الجواب عن فنون العلم فاليوم ماتُعجزك مسألة ، ولا تتوقَّفُ عن مُشكلة؛ يريد باليوم باقِى الزمان كله ، وقال امرؤ القيس :

حَلَّتْ لِىَ الخمرُ وكُنتُ امرأً ... عن شُربها فى شُغُلٍ شاغِلِ[1]
فاليَوم فاشرَبْ غيرَ مُستَحقِبٍ ... إثمًا مِنَ اللهِ ولاَ واغِلِ[2]

لم يقصد يوماً بعينه؛ ومثله :

/اليومَ يَرْحَمُنا مَنْ كانَ يَغبِطُنا ... واليومَ نَتبعُ مَنْ كانُوا لنا تَبعا [١٠٢ و]

وقال لَبِيد :

وما النَّاسُ إلاَّ كالدِّيارِ وأهلِها ... بِها يومَ حَلُّوها، وغَدْوًا بَلاقِعُ[3]

كل ذلك لا يُراد بذكر اليوم أو الغد فيه إلا جميع الأوقات المستقبلة .

ورابعها أن يكون المرادُ : لاتثريب عليكم البتّة، ثم قال: ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ فتعلَّق « اليوم » بالغفران ، وكان المعنى غفر الله لكم اليوم[4].

وقد ضعَّف قومٌ هذا الجواب من جهة أن الدعاء لا ينصِب ما قبله .

فأما التثريب فإن أبا عبيدة قال : معناه لا شَغَب ولا معاقبة ولا إفساد[5].

وقال الشاعر :

فعفَوْتُ عنهم عفوَ غيرِ مُثَرِّبٍ ... وتَرَكتُهُم لعقابِ يومٍ سَرمَدِ

---

(١) ديوانه : ١٥٠ . وفى شرح الديوان : « كانت حلف ألا يشرب خمرا ، ولا يأكل لحما ، ولا يغسل رأسا ؛ حتى يدرك بثأر أبيه ؛ وكذلك كانت العرب تفعل ؛ فلما أخذ بثأر أبيه شربها فبرت يمينه » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « أشرب » بسكون الباء ؛ ورواية الديوان :

* فاليوم أُسْقَى غيرَ مُسْتَحقِبٍ *

المستحقب: المكتسب للإثم الحامل له . والواغل : الذى يدخل على القوم وهم يشربون فيشرب معهم من غير دعوة .

(٣) ديوانه ٢ : ٢٢ . (٤) حواشى الأصل ، ت ، ف : « لم لا يكون إخباراً محضا بالغفران حتى لا يعترض بذلك ! وله وجه آخر وهو أن المعنى : اليوم أقول لكم هذا القول الذى هو يغفر الله لكم فاختصر » .

(٥) حاشية ت (من نسخة) : « فساد » .

وقال أبو العباس ثعلب: يقال: ثَرَّبَ فلان على فلان إذا عدَّد عليه ذنوبَه. وقال بعضهم[١]: التثريب مأخوذ من لفظ الثَّرْب، وهو شحم الجوف، فكأنَّه موضوع للمبالغة في اللوم والتعنيف والتقصّي إلى أبعد غايتهما[٢].

تأويل خبر

رَوَى أبو عُبَيد القاسم بن سلّام عن حجّاج عن حماد بن سلَمة عن هشام بن حسان، وحبيب بن الشَّهيد عن ابن سيرين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله نَهى عن كسب الزَّمّارة.

وقال أبو عبيد: قال حجّاج: الزَّمّارة الزانية، وقال: هذا مثلُ حديثِه الآخر أنه نهى عن كَسب البَغِيّ.

وقال أبو عبيد: وقال غير حجّاج: هي الرَّمّازة، بتقديم الراء، قال: وقول حجّاج أثبتُ عندنا؛ لأنهم كانوا يُكْرِهون إماءهم على البغاء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]، قال: فالعرَض هو كَسْبُ البغيّ الذي نَهَى النبي صلى الله عليه وآله عنه.

قال أبو عبيد: ولا أعلمُ ممّ أخِذَت «الزّمارة»؛ غير أني وجدتُها مفسَّرة في الحديث.

وقال ابن قتيبة: الأمر على ما ذكر أبو عبيد، إلا ما أنكره على مَن زعم أنها الرَّمازة؛ لأن الرَّمازة هي الفاجرة، سمِّيت بذلك لأنها ترمِز، أي تُومِئ بعينيها وحاجبيها وشفتيها.

قال الفرّاء: وأكثر الرَّمْز بالشَّفتين، ومنه قوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، فالرَّمازة صفة من صفات الفاجرة، [١٠٢ ظ] / ثم صار اسما لها أو كالاسم؛ ولذلك قيل لها: هَلوك؛ لأنها تتهالك على الفراش، أو على الرجل، ثم صار اسما لها دون غيرها من النساء، وإن تهالكَتْ على زوجها، وقيل لها خَرِيع،

(١) م: «وهو ابن مسلم». (٢) حاشية الأصل (من نسخة): «غاياتها».

لِلِينِها وتَثَنِّيها ، ثم صار ذلك اسماً لها دون غيرها من النساء ؛ وإن لانت وتثنَّت ؛ ونحوُه قولهم للبعير : أعْلَمُ ؛ للشَّقِّ فى مِشْفَرِه الأعلى ثم صار كالاسم له ؛ وكذلك قولهم للذئب : أزَلّ أرسَح[1] ، ثم صار كالاسم له ، والمرِيبة لا تَـكادُ تعلِن بالـكلام ، إنما تُومِض[2] أو ترْمِزُ أو تَصْفِر ، قال الشاعر :

رَمَزَتْ إلىَّ مَخافةً مِن بَعْلِها   مِن غيرِ أنْ يَبدُو هناكَ كَلامُها

وقال الأخطل :

أحادِيثُ سَدّاها ابنُ حَدْراءَ فَرْقَدٌ   ورَمَّازَةٌ مالَتْ لِمنْ يَستمِيلُها[3]

وقال الراجز :

يُومِضْنَ بالأعْيُنِ والحَواجِبِ   إيماضَ بَرْقٍ فى عَماءٍ ناصِبِ[4]

ــ والعماء : السحاب ، والناصب : البعيد ــ

وقال بعضهم : إنما قيل للفاجرة قَحْبة ، من القُحاب وهو السُّعال ؛ قال : وأحسِبه أراد أنها تتنحنح أو تَسْعُل ترمِز بذلك .

قال : وبلَغَنى عن المفضَّل أنه كان يقول فى قول الناس : « أجبن من صافر »[5] أنه الرجل يَصفِر للفاجرة ، فهو يخاف كل شىء .

وأما الأصمعىّ فإنه كان يقول : الصافر ما يَصْفِر من الطير ، وإنما وُصِف بالجبن لأنه ليس من الجوارح .

قال ابن قتيبة : ولا أرى القولَ إلا قولَ المفضّل ، والدليل على ذلك قول الـكُميت بن زيد الأسدىّ :

---

(١) الأزل : الخفيف الوركين . والأرسح : القليل لحم العجز .

(٢) تومض ، أى تعرض نفسها   (٣) ديوانه : ٢٤١ ، واللسان (رمز) والحدراء : الممتلئة الفخذ والعجز .   (٤) البيتان فى اللسان (زمر) ، والرواية فيه : « يومضن بالأعين . . . » .

(٥) المثل فى مجمع الأمثال للميدانى ١ : ١٦٨ ؛ وروى عن ابن حبيب أن الصافر طائر يتعلق من الشجر برجليه ، وينكس رأسه ، خوفاً من أن ينام فيؤخذ فيصفر منكوساً طول ليلته .

أَرْجُو لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي إِخَائِكُمُ ... كَلْبًا كَوَرْهَاءَ تَقْلِي كُلَّ صَفَّارِ[١]

لَمَّا أَجَابَتْ صَفِيرًا كَانَ آيَتَهَا ... مِنْ قَابِسٍ شَيَّطَ الوَجْعَاءَ بِالنَّارِ[٢]

وهذه امرأة كان يَصفِر لها رجل فتُجيبه ، فتمثّل زوجُها به وصفَر لها ، فأتته فشيّطها بمِيسَم ، فلما أعاد الصَّفر[٣] قالت : « قد قَلَيْنا كلّ صفّار[٤] » ، تريد أنا قد عفَفْنا[٥] واطّرحنا كلّ فاجر.

قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباريّ : والاختيار عندي : « الزّمّارة » معجمة الزاي على ماقال أبو عُبيد ، لِحُجج ثلاث :

[١٠٣ و] / إحداهنّ إجماع أهل الحديث على الزّمّارة .

والحجة الثانية أن الفاجرة سُمّيت زمّارة ، لأنها تحسِّن نفسها وكلامها ، والزَّمْر عند العرب الحسْن ، قال عمرو بن أحمر الباهليّ يصف شرابًا وغناء :

دَنَانٍ حَنَّانَاتٍ بَيْنَهُمَا ... رَجُلٌ أَجَشُّ غِنَاؤُهُ زَمْرُ[٦]

قال الأصمعيّ : معناه غناؤه حَسَنٌ ؛ كأنه من مزامير داود .

والحُجة الثالثة أنهم سمّوا الفاجرة زمّارة ، لمهانتها وقلة مافيها من الخير ؛ من قول العرب[٧] : نعجة زَمِرة ؛ إذا كانت قليلة الصوف ، ويقال : رجل زَمِر المروءة ، إذا كان قليلها ، قال ابن أحمر :

مُطْلَنْفِئًا لَوْنُ الحَصَى لَوْنُهُ ... يَحْجُزُ عَنْهُ الذَّرَّ رِيشٌ زَمِرْ[٨]

---

(١) البيتان في مجمع الأمثال ٢ : ٤٠ ، والثاني في اللسان (شيط) . الورهاء : الحمقاء .

(٢) شيط : أحرق . والوجعاء : الدبر . (٣) ت : « الصفير » .

(٤) المثل في مجمع الأمثال ٢ : ٤٠ ، والرواية فيه : « قد قلينا صفيركم » .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « عففنا » . (٦) البيت في اللسان (زمر) ، وفي ت ، ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « زجل » . والزجل : عود أو معزفة .

(٧) م : « من قولهم » . (٨) حواشي الأصل ، ت ، ف : « يصف فرخ القطاة ؛ وقبله :

تُرْوِي لَقًى أُلْقِيَ فِي مَهْمَهٍ ... تَصْهَرُهُ الشَّمْسُ فَمَا يَنْصَهِرْ

المطلنفِئ : اللاصق بالأرض ، والذَّرُّ : النمل، والزِّمِر : القليل ، فسمّى البغى[١] زَمَّارة، على وجه الذم لها والتصغير لشأنها ؛ كما قيل لها : فاجرة لميلها عن القصد ، يقال : فَجَر الرجل إذا مال ، قال لَبيد :

فإنْ تتقدَّمْ تَغْشَ منها مُقدَّماً غَليظاً، وإنْ أُخِّرتَ فالكِفْلُ فاجِرُ[٢]

أى مائل ، والكِفْل : كساءٌ يُوضَع على ظهر البعير يُوَقّى من العَرَق .

قال سيدنا أدام الله علوّه : ولا أرى لإحدى الروايتين على الأخرى رجحاناً ؛ لأنّ كلّ واحدة منهما قد أتتْ من جهة مَن يُسْكَن إلى قوله، ولكلّ منهما مخرج فى اللغة ، وتأويلٌ يرجع إلى معنى واحد ؛ لأن الزّمارة ، بالراء غيرمعجمة يرجع معناها على ما ذكَر ابنُ قتيبة إلى معنى الفجور ، ومن رواها بالزاى المعجمة فالمرجعُ فى معناها إلى ذلك أيضاً على الوجهين اللذيْن ذكرهما ابنُ الأنبارىّ ، والأَوْلَى أن يَثْبُتا[٣] متساويين ، ويكون الراوى مخيَّراً فيهما .

***

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانىّ قال أنشدنى محمد بن أحمد الكاتب قال أنشدنا أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابىّ للمضرِّب[٤]؛ وهو عُقبة بن كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى :

---

(١) ف ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ت : « فسميت البغى » .

(٢) ديوانه ١ : ٥ ، ومن نسخة فى حواشى الأصل ، ت ، ف : « أخرت » : بالبناء للمجهول . وفيها أيضا : « قبله :

فأصبحْتَ أنَّى تأتِها تبتئسْ بها كِلا مركبيْها تحتَ رِجلِك شاجِرُ

تأتها ، أى تأت هذه الخصلة والحالة ، وقال الجوهرى : « الكفل هو ما اكتفل به الراكب ، وهو أن يدار الكساء حول سنام البعير ثم يركب ؛ ومنه قول إبراهيم : لا تشربوا من ثلمة الإناء ولا من عروته ؛ فإنه كفل الشيطان ؛ وإبراهيم هو التيمى » .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « أن يكونا » .

(٤) ذكره المرزبانى فى المؤتلف والمختلف : ٢٨١ ؛ وضبطه صاحب تاج العروس فى مستدرك =

وما زِلْتُ أرجو نفعَ سَلْمَى ووُدَّها ... وتُبعِدُ ؛ حتّى ابيضَّ مِنى المسائحُ(١)

وحتّى رأيتُ الشّخصَ يَزْدادُ مِثلُه(٢) ... إليهِ ؛ وحتّى نِصفُ رأسىَ واضِحُ

[١٠٣ ظ] / عَلا حاجِبيَّ الشَّيبُ حتى كأنَّهُ ... ظِباءٌ جَرَتْ مِنها سَنيحٌ وبارِحُ(٣)

وهِزَّةَ أظْعانٍ عليهِنَّ بَهجَةٌ ... طَلَبْتُ ، وريْعانُ الصِّبا بِىَ جامِحُ(٤)

فلمَّا قَضَيْنا مِنْ مِنًى كلَّ حاجةٍ ... ومَسَّحَ بالأرْكانِ مَنْ هو ماسِحُ

أخَذْنا بأطْرافِ الأحاديثِ بيْننا ... وسالَتْ بأعْناقِ المَطِىِّ الأباطِحُ(٥)

وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارَى رِحالُهَا ... ولا يَنظُرُ الغادِى الذى هوَ رائحُ(٦)

قَفَلْنا على الخُوصِ المَراسيلِ ، وارْتمتْ ... بِهِنَّ الصَّحارِى والصِّفاحُ الصَّحاصِحُ(٧)

* * *

(ضرب) أنه بوزن « محدث » ، « معظم » ، وضبط فى اللسان بالكسر فقط ، وفى الأصل : بالفتح ؛ وهو الأولى لما رواه ابن قتيبة فى الشعراء : ٩٢ أنه « كان لكعب ابن يقال له عقبة بن كعب ، شاعر ، ولقبه المضرب ؛ وذلك أنه شبب بامرأة من بنى أسد فقال :

ولا عَيْبَ فِيهَا غيرَ أنَّكَ واجِدٌ ... مَلاَقِيهَا قَدْ دُيِّثَتْ بِرُكُوبِ

فضربه أخوها مائة ضربة بالسيف ، فلم يمت ، وأخذ الدية ، فسمى المضرب » .

(١) ورد البيت الخامس والسادس والسابع من هذه الأبيات فى معاهد التنصيص ٢ : ١٣٤ ؛ وقال : « وقيل الأبيات لابن الطثرية ، وهى مع بيتين تاليين فى زهر الآداب ٢ : ٦٠ » ووردت أيضا فى الشعر والشعراء ١١ ، والصناعتين ٥٩ ، وأسرار البلاغة ١٥ ، وورد الخامس والسادس فى الخصائص ١ : ٢٨ ، ٢١٨ ، وأمالى القالى ٣ : ١٦٦ ؛ وفيها جميعا من غير عزو مع اختلاف فى الترتيب . ونقلها أيضا صاحب المعاهد بنسبتها وروايتها عن الغرر ؛ وهى ضمن ١٨ بيتاً فى ديوان كثير : ٧٧ – ٨٤ والمسائح : شعر جوانب الرأس .

(٢) ت ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « مثله » ، بفتح اللام .

(٣) السنيح والسانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك ، والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك . والسانح : أحسن حالا عندهم فى التيمن من البارح .

(٤) يعنى : ورب ظعائن طلبت اهتزازهن وارتياحهن لاهو معهن .

(٥) أطراف الأحاديث : ما يستطرف منها ويؤثر . والأباطح : جمع أبطح ؛ وهو المسيل الواسع ، فيه دقاق الحصى .

(٦) المهارى : جمع مهرية ؛ وهى المنسوبة إلى مهرة من حيوان ؛ وهى قبيلة تكثر فيها النجائب . ولاينظر : لاينتظر .

(٧) الخوص : الإبل الغائرة العيون . والمراسيل : المسرعات . والصفاح : جمع صفح ؛ وهو مضطجع الجبل ، والصحاصح : جمع صحصح ، وهو المكان المستوى الواسع .

وأنشد ابنُ الأعرابيّ :

فَصَدَّتْ بِمَيْنِيْ شادِنٍ وتَبَسَّمَتْ ... بِجَمَّاءِ عن غُرٍّ لهنّ غُروبُ(١)
جَرَى الإسحِلُ الأَحْوَى عليهِنّ أو جَرَى ... عليهِنَّ مِن فَرْعِ الأَرَاكِ قَضِيبُ(٢)

***

أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمد الكاتب قال أخبرني محمد بن يحيى الصوليّ قال حدثنا محمد بن الحسن البُلْخيّ قال حدثنا أبو حاتم قال : سمعت الأصمعيّ يقول : سمعت الرشيد يقول : قلبُ العاشق عليه مع معشوقه ، فقلت له : هذا والله يا أمير المؤمنين أحسنُ من قول عُرْوَة بن حزام العذريّ لعفراء :

أراني تَعْرُوني لذِكراكِ رَوْعَةٌ ... لها بينَ جِلْدِي والعِظامِ دَبِيبُ(٣)
وما هُوَ إلاّ أن أراها فُجاءةً ... فأُبْهَتُ حتى لا أكادُ أُجيبُ(٤)
وأُصْرَفُ عن داري الذي كنتُ أرتجِي(٥) ... ويَعزُبُ عنّي علمُهُ ويَغيبُ
ويُضمِرُ قلبي غَدْرَها ويُعينُها ... عليّ ، فما لي في الفُؤادِ نَصِيبُ

فقال الرشيد : مَن قال هذا وَهْماً فإني أقوله علماً ، ولله دَرّك يا أصمعيّ ! فإني أجِدُ عندك ماتضلّ عنه العلماء.

قال الصوليّ : فأخذه العباس بن الأحنف فقال :

يَهيمُ بحرّانِ الجزيرةِ قلبهُ ... وفيها غزالٌ فاتِرُ الطَّرْفِ ساحِرُهْ(٦)
يُؤازِرُهُ قلبي عليّ وليسَ لي ... يَدانِ بمَنْ قلبي عليّ يُؤازِرُهْ

---

(١) ف ، ومن نسخة بحاشية ت : « تصدت » .

(٢) الإسحل : شجر تتخذ منه أعواد السواك . والأحوى : الأسمر . (٣) ديوانه: ٤٣ (مخطوطة الشنقيطي بدار الكتب المصرية)، والشعر والشعراء ٦٠٠، وخزانة الأدب ١: ٥٣٤، و ٣ : ٦١٠ — ٦١٧ وفيهم : « وإني لتعروني » . (٤) البيت من (شواهد سيبويه ١ : ٤٣٠) ، على جواز الرفع والنصب في « أبهت » ، فالنصب محمول على « أن » ، والرفع على القطع والاستئناف .

(٥) م : « عارفا » . (٦) حران : قصبة ديار مضر بالجزيرة ، بين الرها والرقة . ومن نسخة بحاشية الأصل : « ساحر الطرف فاتره » .

[١٠٤ و] / وأشار إليه أيضا فى قوله :

قلبى إلى ما ضَرَّنى داعى ... يُكثِرُ أحزانى وأوجاعى[١]
كيف احتِراسِى مِن عَدُوِّى إذا ... كانَ عدُوِّى بين أضلاعى[٢]

وأخذه سهل بن هرون الكاتب فقال :

أعانَ طَرْفى على جِسمى وأعضائى ... بنَظرَةٍ وقَفتْ جِسمى على دائى
وكنتُ غِرًّا بما تجنِى علىَّ يدى ... لا عِلْمَ لى أنَّ بَعضِى بعضُ أعدائى

وقال البحترىّ :

ولستُ أعجبُ مِن عِصيانِ قلبكَ لى ... يوماً إذا كانَ قلبى فيكَ يَعْصِينى[٣]

* * *

وروى أبو عِكرمة الضَّبِّىّ عن مسعود بن بِشْر المازنىّ قال : قال لنا الأصمعىّ يوماً :
ما أحسن ما قيل فى صفة امرأة عَجْزاء خَمِيصة[٤] فأنشدَ قول الأعشى :

صِفرُ الوِشاحين مِلءُ الدِّرْعِ بَهْكَنةٌ ... إذا تأتّى يكادُ الخَصْرُ يَنخَزِلُ[٥]

وأنشد قول علقمة بن عَبَدة :

صِفرُ الوِشاحين مِلْءُ الدِّرْعِ خَرْعَبةٌ ... كأنها رَشأٌ فى البَيْتِ مَلْزُومُ[٦]

---

(١) ديوانه : ١٠١ ، وبعده :

وقلَّمَا أبقى على ماأرَى ... يوشِكُ أن يَنعَى بى النّاعِى
أسلمنى للوجد أشياعِى ... لما سعى به عندهم الساعى

(٢) بعده ؛ كما فى الديوان :

ماأقتَلَ اليأسَ لأهل الهوى ... لا سيَّمَا من بَعْدِ أطماعِ

(٣) ديوانه : ٢ : ٢٩٥ ، وفى حواشى الأصل ، ت ، ف : « مثله » :

أتطمع أن يُطيعَك قَلبُ سُعْدَى ... وتَزعُمُ أن قَلبَكَ قد عصاكا

(٤) م : « خمصانة » ، والخميصة والخمصانة : الضامرة البطن . (٥) ديوانه : ٤٢ . والمعلقات — بشرح التبريزى : ٢٧٤ . صفر الوشاحين ؛ يعنى أنها خميصة البطن دقيقة الخصر ، فوشاحها يجول عنها والبهكنة : الكبيرة الخلق ، وتأتّى : ترفق فى المشى . (٦) ديوانه : ١٣٠ . الخرعبة : الناعمة . الرشأ : الظبى الصغير . ملزوم : مربى فى البيوت ؛ وهو أحسن له .

وأنشد قولَ ذى الرُّمة :

تَرَى خَلْقَهَا نِصْفاً قَنَاةً قَوِيمةً ... ونِصفاً نقًا يَرْتَجُّ أو يتمرْمَرُ(١)

فقال : أحسنُ ما قيل فيه قولُ أبى وَجْزَة السَّعدىّ :

أدْماءُ فى وضَحٍ يَكادُ إزارُها(٢) ... يُقْوِى(٣) ويُشْبِعُ ما أحبَّ إزارُها(٤)

قال أبو عكرمة : ومثلُه قولُ الحارث بن خالد المخزومىّ :

غَرْثانُ ، سِمْطُ وشاحِها قَلِقٌ ... رَيَّانُ مِن أرْدَافِها المِرْطُ

* * *

وأخبرنا المرزُبانىّ قال حدثنا محمد بن إبراهيم قال حدثنا أبو العيناء قال حدثنى الأصمعىّ قال: لما مات / محمد بن سليمان بن علىّ الهاشمىّ دخلت على أخيه جعفر بن سليمان، وقد حزن عليه حزناً [١٠٤ ظ] شديداً ولم يطعم ثلاثاً ، فأنشدتُه لابن أراكة الثقفىّ(٥) :

لَعَمْرِى لئنْ أتبعْتَ عينَكَ(٦) ما مَضى ... مِن(٧) الدَّهرِ أو ساقَ الحِمامُ إلى القَبْرِ
لَتَسْتَنْفِدَنْ ماءَ الشُّئونِ بأسرِهِ ... ولو كنتَ تَمرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ
فقلتُ لعبدِ اللهِ إذْ حَنَّ(٨) باكِياً ... تعزَّ ، وماءُ العَيْنِ مُنْهمِرٌ يَجْرِى
تَبَيَّنْ فإنْ كانَ البُكا رَدَّ هالِكاً ... على أحدٍ فاجْهدْ بُكاكَ على عَمْرِو
ولَا تَبْكِ ميتاً بعدَ مَيْتٍ أحبه(٩) ... علىٍّ وعبَّاسٍ وآلُ أبى بكْرِ

(١) ديوانه : ٢٢٦ يتمرمر : يتحرك وهو تحرك دون الارتجاج . وفى د ، م: « يترمرم » .

(٢) ت ، ش : « رداؤها » والأدمة هنا : لون أشرب بياضا . والوضح : البياض . وفى م : « أدماء عيطلة » .

(٣) الإقواء فى الأصل : نفاد الزاد ؛ ويريد هنا دقة خصرها وفى س : « لعله : يقوى وشاحها » :

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ت: « ما أجن إزارها » ، وفيهما أيضا : « أحب » ، فعل الإزار ؛ أى يشبع إزارها ما أحب ، أى ما شاء » . (٥) الخبر والأبيات فى حماسة ابن الشجرى: ١٣٨ـــ١٣٩ ، بروايته عن ابن قدامة عن المرتضى ؛ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات ؛ وهى أيضا فى أمالى الزجاجى : ٧ .

(٦) حاشية ت (من نسخة) « عينك » ؛ وهى رواية ابن الشجرى .

(٧) ت : « به الدهر » ؛ وهى رواية ابن الشجرى . (٨) ت : « حن » ، ومن نسخة بحاشيتها : « خر » . (٩) ت : « أجنه » .

قال: فأمر لجيء بالطعام فأكل من ساعته .

قوله: « خن باكياً » معناه رفع صوته بالبكاء ، وقال قوم : الخنين، بالخاء معجمة من الأنف ، والحنين من الصّدر ، وهو صوت يخرج من كلّ واحد منهما .

* * *

وأخبرنا المرزبانيّ قال حدثنا محمد بن العباس قال حدثنا محمد بن يزيد النحويّ قال : سمعتُ التوّزيّ يقول : دخلنا مع الأصمعيّ إلى إسماعيل بن جعفر ليلةً فى حاجة، فأنشده الأصمعيّ أبيات ابن هَرْمة :

أتيناكَ نُزْجِى حاجةً ووَسيلةً ... إليك، وقد تخطى لديكَ الوَسائلُ(١)
ونَذْكُرُ وُدًّا شدَّهُ اللهُ بيننا ... على الدّهرِ لم تَدْبُبْ إليهِ الغَوائلُ(٢)
فأقسِمُ ما أكْبى زِنادَكَ قادِحٌ ... ولا كَذَبتْ فيكَ الرَّجاء القَوابلُ(٣)
ولا رَجَعتْ ذا حاجةٍ عنكَ علّةٌ ... ولا عاقَ خيرا عاجلًا منكَ آجلُ(٤)
ولا لامَ فيكَ الباذِلُ الوَجهَ نَفْسَهُ ... ولا احتكَمتْ فى الجُودِ منكَ المباخِلُ(٥)

لم يزِدْ على هذه الأبيات ، فقضى حاجته وأجاب مسألته .

قال سيدنا أدام الله علوّه : ويُشبه أن يكون ابنُ هَرْمة أخذ قوله :

* ولا كَذَبت فيكَ الرَّجاء القَوابلُ *

من قول الحزين الكنانيّ فى زيد بن علىّ بن الحسين عليهم السلام :

فلما(٦) تَرَدَّى بالحمائلِ وانتَهى ... يَصولُ بأطرافِ القَنِيِّ الذّوابلِ(٧)
[١٠٠] /تبيَّنَتِ الأعداء أنَّ سِنانَهُ ... يُطيلُ حَنينَ الأُمّهاتِ الثّواكِلِ

(١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « نرجو حاجة » .

(٢) حاشية ت (من نسخة) : « النوازل » .

(٣) ما أكبى زنادك ، أى ما وجد كابيا .

(٤) حاشية ت (من نسخة : « عنك آجل » .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة): « عنك المباخل » .

(٦) حاشية ت (من نسخة) : « إذا ماتردى » .

(٧) وفى م : « القنا والذوابل » .

تُبِينَّ فيهِ مِيْسَمُ العِزِّ والتُّقَى وَلِيداً يفدَّى بين أيدِي القَوابِلِ

* * *

وأخبرنا علىّ بن محمد الكاتب قال أخبرنى محمد بن يحيى الصولىّ قال حدثنى محمد بن الحسن البَلْخىّ قال حدثنى أبو حاتم عن الأصمعىّ قال : قال الرشيد يوماً : ياأصمعىّ ، أتعرف للعرب اعتذاراً وندماً ؟ وَدعِ النابغة فإنه يحتج ويعتذر ، فقلت : ماأعرِف ذلك إلّا لِبِشْر بن أبي خازم الأسدىّ ؛ فإنه هجا أوس بن حارثة بن لأم ، فأسره بعد ذلك وأراد قتله ، فقالت له أمه ـ وكانت ذاتَ رأى ـ : والله لا يَمحا هجاءه لك إلّا مدحُه إياك ، فعفا عنه ، فقال بشر (١) :

إنى على ما كانَ مِنّى لَنادِمٌ وإنى إلى أوْسِ بنِ لأمٍ لَتائِبُ

وَإنى إلى أوْسٍ لِيَقبَلَ توبَتِي وَيَعرِفَ وُدّى ماحَيِيتُ لَراغِبُ

فَهَبْ لى حَياتى فالحياةُ لقائمٍ يَسُرُّكَ فيها خيرُ ماأنتَ واهِبُ

سأمحو بمدْحِي (٢) فيكَ إذْ أنا صادِقٌ كِتابَ هِجاء سارَ إذْ أنا كاذِبُ

فقال الرشيد للأصمعىّ : إن دولتى لَتَخْشُن ببقائك فيها .

* * *

وأخبرنا علىّ بن محمد الكاتب قال حدثنا ابن دُرَيد قال حدثنا عبد الرحمن ـ يعنى ابن أخى الأصمعىّ ـ عن عمه قال : سمعت بيتين لم أحفِل بهما ، ثم قال : قلت : هما على كلّ حال خير من موضعهما من الكتاب ، قال : فإنى عند الرشيد يوماً وعنده عيسى بن جعفر ، فأقبل علىّ مسرور الكبير ، فقال : يامسرور ، كم فى بيت مال السرور ؟ فقال : مافيه شيء ، قال عيسى : هذا بيت مال الحُزْن ، فاغتمّ لذلك الرشيد ، وأقبل على عيسى فقال : والله لَتُعطِيَنّ الأصمعىّ سلَفاً على بيت مال السرور ألف دينار ، فوَجَم عيسى وانكسر ، فقلت فى نفسى : جاء موقع (٣) البيتين ، وأنشدت الرشيد :

---

(١) تنسب إلى الأعشى ؛ وهى فى ملحقات ديوانه : ٢٣٦ . (٢) ت ، ف ، ونسخة بحاشية الأصل : « بمدح » . (٣) ف ، ونسخة بحاشيتى الأصل : ت : « موضع » .

إذَا شئتَ أنْ تلقَى أخاكَ مُعَبَّساً ‏ ‏ ‏ ‏ وجَدَّاهُ في الماضِينَ كَعبٌ وحاتمُ
فكَشِّفْهُ عمّا في يَدَيهِ فإنمـا ‏ ‏ ‏ ‏ تُكَشِّفُ أخبارَ الرِّجالِ الدَّراهمُ[1]

قال: فَتُجَلِّيَ عن الرشيد وقال لمسرور: أعطه على بيت مال السرور أَلْفَيْ دينار، فأخذتُ بالبيتين أَلفَيْ دينار، وما كانا يساويان عندي درهمين[2]!

---

(١) من نسخة بحواشي الأصل ، ت ، ف : « أحوال الرجال » .

(٢) بهذا المجلس ينتهي الجزء الأول — وهو ما لدينا من نسخة ت — وجاء في آخره : « تم نصف الكتاب بحمد الله ومنه وفضله وحوله وطوله ، ويتلوه في الجزء الثاني أوله: مجلس آخر ، تأويل آية ؛ إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ، إن شاء الله والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله والطاهرين وسلم » .

مجلس آخر ٣٠

تأويل آية

إن سأل سائل من تأويل قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ؛ [الأنبياء : ٣٧] .

الجواب ، قيل له : قد ذُكر فى هذه الآية وجوهٌ من التأويل نحن نذكرها ، ونرجِّح الأرجحَ منها :

أوّلها أن يكون معنى القول المبالغةَ فى وصف الإنسان بكثرة العَجَلة ، وأنه شديد الاستعجال لما يؤثره من الأمور ، لهِجٌ باستدناء ما يَجْلِب[1] إليه نفعاً ، أو يدفع عنه ضرراً ؛ ولهم عادة فى استعمال مثل هذه اللفظة عند المبالغة ؛ كقولهم لمن يصفونه بكثرة النوم : ما خُلقتَ إلاّ من نومٍ ، وما خُلِق فلان إلاّ من شر ؛ إذا أرادوا كثرةَ وقوع الشرّ منه ؛ وربما قالوا : ما أنت إلاّ أكلٌ وشربٌ ، وما أشبه ذلك ، قالت الخنساء تصف بقرة[2] :

تَرْتَعُ ما غفلَتْ حتَّى إذا ادَّكَرَتْ فإنما هى إقبالٌ وإدبارُ[3]

وإنما أرادت ما ذكرناه من كثرة وقوع الإقبال والإدبار منها .

ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ، [الإسراء : ١١] ، ويطابقه أيضا قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ؛ لأنه وصفهم بكثرة العَجَلة وأنّ من شأنهم فعلها ، توبيخاً لهم وتقريعاً ، ثم نهاهمْ عن الاستعجال باستدعاء الآيات من

---

(١) حاشية ف (من نسخة) : « ماجر » . (٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « ناقة » .

(٣) ديوانها : ٣٨ ، واللسان (سوا) ؛ وفى ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « مارتعت » ؛ وهى رواية الديوان .

حيث كانوا متمكّنين من مفارقة طريقتهم فى الاستعجال ، وقادرين على التثبُّت والتأيُّد .

وثانيها ما أجاب به أبو عُبيدة وقُطرب بن المستنير وغيرهما من أنَّ فى الكلام قَلْباً ، والمعنى: خُلق العَجَل من الإنسان، واستُشهِدَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾؛ [آل عمران : ٤٠]، أى قد بلغتُ الكِبرَ ، وبقوله تعالى: ﴿ مَاإِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾؛ [القصص : ٧٦] ، والمعنى : إن العصبة تنوءُ بها، وتقول العرب: عرضتُ الناقة على الحوض، وإنما هو عرضتُ الحوضَ على الناقة، وقولهم: إذا طلعت الشِّعرى استوى العود على الحِرْباء؛ يريدون استوى الحرباء على العود ؛ وبقول الأعشى :

[١٠٦ و] /لَمَحْقوقةٌ أنْ تَستَجيبي لصَوْتِهِ ... وأنْ تَعلَمى أنَّ المُعانَ مُوَفَّقُ(١)

يريد أن الموَفّق معان .

وبقول الآخر :

على العِياراتِ هدَّاجُونَ قد بَلَغَتْ ... نَجْرانَ، أو بلَغت سَوْءاتِهِم هَجَرُ(٢)

والمعنى: أنّ السوءاتِ هى التى بلغت هَجر .

وبقول خِداش بن زهير :

وتَرْكَبُ خَيلا لا هَوادَةَ بَيْنها ... وتَشْقَى الرِّماحُ بالضياطِرة الحُمرِ(٣)

---

(١) ديوانه: ١٤٩ ، وفى حاشيتى الأصل، ف: «قبله :

وإن امرأ أهداكِ بينى وبينه ... فَيافٍ: تنوفاتٌ وبَهْماءُ خَيفَقُ

لمحقوقة ... البيت؛ يخاطب ناقة أهديت له ، فيقول لها : أنت محقوقة بأن تستجيبى لصوته . تنوفات : جمع تنوفة ؛ وهى المفازة ، وخيفق ، يخفق فيها الآل » .

(٢) البيت للأخطل ، ديوانه ١٠ ، والهدج : مشى فى ارتعاش .

(٣) جمهرة الأشعار : ١٩٣ ، واللسان (ضطر) . والضياطرة : الضخام الذين لاغناء عندهم ؛ وفى اللسان : « قال ابن سيده : يجوز أن يكون عنى أن الرماح تشقى بهم ؛ أى أنهم لايحسنون حملها ولا الطعن بها ، ويجوز أن يكون على القلب ، أى تشقى الضياطرة الحمر بالرماح ؛ يعنى أنهم يقتلون بها والهوادة : المصالحة والموادعة » .

يريد تشقى الضياطرة بالرماح .

ويقول الآخر :

تَمْشِي بِهِ عُوذُ النِّعَاجِ كأنَّها   عَذَارَى مُلوكٍ فى بَيَاضِ ثِيابِ[١]

يريد فى ثيابٍ بيض .

ويقول الآخر :

حَسَرْتُ كفِّى عن السِّرْبالِ آخُذُهُ[٢]   فَرْداً يَجُرُّ على أيدى المُفِيضِينا[٣]

يريد حَسَرْتُ السِّرْبالَ عن كَفِّى .

ويقول ابن أحمر :

وجُرْدٍ طارَ باطِلُها نَسِيلاً   وأحدَثَ قَمْؤُها شَعَراً قِصارَا[٤]

أراد طار نَسيلُها باطلا .

ويقول الآخر :

وقَسْوَرَةٍ أكتافُهمْ فى قِسِيِّهمْ   إذَا مامَشَوْا لا يَنْمِزُونَ من النَّسا[٥]

أى قسيّهم فى أكتافهم .

ويقول الآخر :

* وهُنَّ مِن الإخلافِ والوَلَعَانِ[٦] *

أى الإخلاف والوَلَعان منهن .

---

(١) العوذ : جمع عائذ ؛ وهى الحديثة النتاج ؛ والنعجة هنا : البقرة الوحشية .

(٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « آخذة » .   (٣) حاشية الأصل : « فردا ، يعنى القدح » . يقال أفاض بالقداح : ضرب بها . والبيت لابن مقبل فى الميسر والقداح ١٤١ . (٤) اللسان (قمأ) . النسيل : ماينسل من شعرها وقمؤها : سمنها .   (٥) القسورة : الرماة من الصيادين والنمز : الظلع .

(٦) البيت فى اللسان (ولع) ، وصدره :

* لخلاَّبة العَيْنَيْن كَذَّابَةِ المُنَى *

قال فى اللسان : « أى من أهل الخلف والكذب ، وجعلهن من الأخلاف لالازمتهن له » .

ويبقى على صاحب هذا الجواب مع التغاضي له عن حمل كلامه تعالى على القلب أن يقال له : وما المعنى والفائدة فى قوله تعالى : « خُلِقَ الْعَجَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ » أتريدون[1] بذلك أنّ الله تعالى خلق فى إنسان العجلة؟ وهذا لا يجوز؛ لأن العجلة فعل من أفعال الإنسان، فكيف تكون مخلوقة فيه لغيره ! ولو كان كذلك لما جاز أن ينهاهم عن الاستعجال فى الآية فيقول : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾، لأنه لا ينهاهم عمّا خلقه فيهم .

[١٠٦ ظ] فإن قالوا : لم يرد أنه تعالى خلقها ؛ لكنه أراد كثرة فعل الإنسان لها ؛ وأنه لا يزال / يستعملها .

قيل لهم : هذا هو الجواب الذى قدّمناه من غير حاجة إلى القلب والتقديم والتأخير ؛ وإذا كان هذا المعنى يتمّ وينتظم على ما ذكرناه من غير قلب فلا حاجة بنا إليه .

وقد ذكر أبو القاسم البلخيّ هذا الجوابَ فى تفسيره، واختاره وقوّاه، وسأل نفسَه عليه فقال : كيف جاز أن يقول : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ، وهو خلق العجلة فيهم! وأجاب بأنه قد أعطاهم قُدْرةً على مغالبة طباعهم وكفّها ، وقد يكون الإنسان مطبوعاً عليها وهو مع ذلك مأمور بالتثبت ، قادرٌ على أن يجانب العجلة ، وذلك كخلقه فى البشر شهوة النكاح ، وأمره فى كثير من الأوقات بالامتناع منه .

وهذا الذى ذكره البلخيّ تصريح بأن المراد بالعَجَل غيره ، وهو الطبع الداعى إليه ، والشهوة المتناولة له، ويجب أيضاً أن يكون المراد بـ «من» هاهنا « فى »؛ لأن شهوة العَجَل لا تكون مخلوقةً من الإنسان ، وإنما تكون فيه . وهذا تجوّز على تجوّز ، وتوسّع على توسّع ، لأنّ القلب أوّلاً مجازٌ ، ثم هو من بعيد المجاز؛ وذكرُ العَجَل والمراد به غيره مجاز آخر، وإقامة «منْ» مقام «فى» كذلك؛ على أنه تعالى إذا نهاهم عن العَجَلة بقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أىّ معنى لتقديم قوله : إنى خلقت شهوةَ العَجَلة فيهم ، أو الطبع الداعى إليها ؛ على ما عبّر به البلخيّ . وهذا إلى أن يكون عذراً لهم أقربُ منه إلى أن يكون حجة عليهم؛ وأيسر

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « أيريد » .

الأحوالِ ألاّ يكون عذراً ولا احتجاجاً ، فلا يكون لتقديمه معنى .

وفى الجواب الأول حَسُن تقديم ذلك على طريق الذّم والتوبيخ والتقريع من غير إضافة له إليه عز وجل ؛ فالجواب الأول أوضح وأصحّ .

وثالثها جوابٌ روِى عن الحسن ، قال : يعنى بقوله : ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، أى من ضَعْف ، وهى النُّطفة المَهينة الضّعيفة ، وهذا قريب إن كان فى اللغة شاهد على أن العَجَل يكون عبارة عن الضّعفِ أو معناه .

ورابعها ما حُكى أنّ أبا الحسن الأخفش أجاب به ، وهو : أن يكون المرادُ أنّ الإنسان خُلِق من تعجيل من الأمر ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ، [النحل : ٤٠] .

فإن قيل : كيف يُطابِقُ هذا الجواب قولَه من بعد : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ ؟

قلنا : يمكن أن يكون وجهُ/ الطابقة أنهم لما استعجلوا بالآيات واستَبْطئوها أعلمَهم تعالى ١٠٢ و]

أنه ممن لا يُعجِزه شىء إذا أراده ، ولا يمتنع عليه ؛ وأنّ مَنْ خَلَق الإنسان بلا كلفة ولا مئونةٍ بأن قال له : كُن فكان ، مع ما فيه من بدائع الصنعة ، وعجائب الحكمة التى يَعجِز عنها كلُّ قادر ، ويَحار فيها كل ناظر ، لا يُعجِزه إظهار ما استعجلوه من الآيات .

وخامسها ما أجاب به بعضُهم من أن العَجَل الطين ، فكأنه تعالى قال : خُلِقَ الإنسان من طين ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ؛ [السجدة : ٧] ، واستشهد بقول الشاعر :

والنَّبْعُ يَنبُتُ بينَ الصَّخرِ ضاحِيةً   والنخْلُ يَنبُت بينَ الماء والعَجَلِ (١)

ووجدنا قوماً يطعنون فى هذا الجواب ، ويقولون : ليس بمعروف أن العَجَل هو الطين ، وقد حكى صاحب كتاب العين عن بعضهم أن العَجَل الحَمْأة ، ولم يستشهدْ عليه ، إلاّ أن

---

(١) البيت فى اللسان (عجل) .

البيت الذى حكيناه يمكن أن يكون شاهداً له ، وقد رواه ثعلب عن ابن الأعرابىّ ، وخالف فى شىء من ألفاظه فرواه :

والنَّبْعُ فى الصَّخْرةِ الصَّمَّاءِ منبتُه   والنَّخْلُ يَنْبُتُ بينَ الماءِ والعَجَلِ

وإذا صحّ هذا الجواب فوجه المطابقة بين ذلك وبين قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ على نحو ما ذكرناه ، وهو أنّ مَنْ خَلَق الإنسان — مع الحِكَم الظاهرة فيه — من الطين ، لا يُعجزه إظهارُ ما استعجلوه من الآيات؛ أو يكون المعنى أنه لا يجب لمن خُلِق من الطين المَهِين، وكان أصلُه هذا الأصل الحقير الضعيف أن يهزأ برُسُلِ الله وآياته وشرائعه ؛ لأنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا، أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ ؛ [الأنبياء : ٣٦] .

وسادسها أن يكون المراد بالإنسان آدم عليه السلام، ومعنى ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى فى سرعة[١] من خَلْقه ، لأنه لم يخلقه من نُطفة ، ثم من عَلَقة ، ثم من مُضْغة كما خلق غيره ، وإنما ابتداه الله تعالى ابتداء ، وأنشأه إنشاء ، فكأنّه تعالى نبّه بذلك على الآية العجيبة فى خلقه له، وأنه عزّ وجل يرِى عباده من آياته وبيناته أوّلاً أولاً ما تقتضيه مصالحُهم وتستدعيه أحوالهم .

[١٠٢ ظ] / وسابعها ما روى عن مجاهد وغيره أنّ الله تعالى خلق آدم بعد خلق كل شىء آخر نهار يوم الجمعة على سرعة ، معاجلا به غروب الشمس .

وروى أن آدم عليه السلام لما نفخت فيه الروح وبلغت إلى أعالى جسده، ولم تبلغ أسافله قال : يا رب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس .

وثامنها ما روى عن ابن عباس والسُّدّىّ أن آدم عليه السلام لما خُلِق وجعلتِ الروح فى أكثر جسده وثب عجلان مبادرا إلى ثمار الجنة — وقال قوم بل همّ بالوثوب — فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ .

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة : « من سرعة » .

وهذه الأجوبة المتأخِّرة مبنية على أنَّ المراد بالإنسان فيها آدم عليه السلام دون غيره .

***

قال سيدنا أدام الله تمكينه : وإني لأستحسن لمسكين الدارىّ قولَه [1] :

رُبَّ أمورٍ قد بَرَيتُ لِحَاءَها ... وقوَّمتُ مِنْ أصلاَبِها ثمّ زُعْتُها [2]
أقيمُ بدارِ الحزْبِ [3] ما لم أهُنْ بهـا ... فإنْ خِفتُ مِن دَارٍ هَوانًا تَرَكْتُها
وأصلِحُ جُلَّ المالِ حتى تَخالَني [4] ... شَحيحاً وَإنْ حَقٌّ عَرانِي أهَنْتُها
ولستُ بوَلاَّجِ البُيوتِ لِفاقَةٍ ... ولـكِن إذَا اسْتَغنيتُ عنها وَلَجْتُها
أبِيتُ عن الإدْلاجِ في الحَيِّ نائمًا ... وأرْضٌ بإدْلاجٍ وهَمٍّ [5] قَطَعْتُها
ألاَ أيُّهـا الجارِي سَنِيحاً وبارِحاً ... تُعرِّضُ نَفْساً لو أشاءُ قَتَلْتُها
تُعَارِضُ فَخْرَ الفاخِرِينَ بعصبةٍ ... ولوْ وُضِعَتْ لي في إناءٍ أكَلْتُها
وَإنَّ لنا رِبْعيَّةَ المَجْدِ كلَّها ... مَوارِثُ آباءٍ كِرامٍ وَرِثْتُها [6]
إذَا قَصُرَتْ أيدِي الرِّجالِ عن العُلا ... مَدَدْتُ يدي باعًا عليهم فنِلْتُها
وداعٍ دَعانِي للمُلاَ فأجبْته ... ودَعْوَةِ داعٍ في الصَّديقِ خَذَلْتُها
ومَكْرُمَةٍ كانَتْ رِعايَةَ وَالدِي ... فعَلَّمنِيها وَالدِي ففعَلْتُها [7]

---

(١) هو ربيعة بن عامر بن أنيف ، ينتهي نسبه إلى مالك بن زيد مناة بن تميم ، شاعر شريف من سادات قومه (وانظر ترجمته وأخباره وأشعاره في الأغاني ١٨ : ٦٨ ـ ٧٢ ، ومعجم الأدباء ١١ : ١٢٦ ـ ١٣٢ ، والشعر والشعراء ٥٢٩ ـ ٥٣٠ ، والخزانة ١ : ٤٦٥ ـ ٤٧٠ ، واللآلى ١٨٦ ـ ١٨٧) (٢) ديوان المعاني ١ : ٧٩ . ف ، حاشية الأصل (من نسخة) ، ديوان المعاني : « رشتها » وفي حاشية الأصل (من نسخة أخرى) : « رعتها » . وفي حاشيتي الأصل ، ف : « في الصحاح : زاع بعيره أي حركه إلى قدام يستزيد سيره ؛ قال ذو الرمة :

وَخَافِقِ الرَّأْسِ فَوْقَ الرَّحْلِ قُلْتُ له ... زُعْ بالزِّمامِ وَجَوْزُ اللَّيْـلِ مَرْكُومُ

ومن رواه « زع » ، [بفتح الزاى] فقد أخطأ ؛ لأنه لا يأمره بالـكف » .

(٣) د ؛ « الحزن » ، ف ، وديوان المعاني : « الحزم » . (٤) ديوان المعاني : « حسبتني » .

(٥) هم ؛ أي همة . (٦) حاشية الأصل : « ربعية المجد : أوله وأجوده ؛ كربعية النتاج خيره » ومن نسخة بحاشية الأصل : « مواريث آباء » . (٧) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « فعملتها » .

وعوراءَ مِن قِيلِ امرِئٍ ذِي قرابةٍ … تَصامَمتُ عنها بعدَ ما قد سَمِعتُها(١)

[١٠٨ و] /رَجاءَ غدٍ(٢) أن يَعطِفَ الرَّحمُ بيننا … ومَظلَمةٍ منهُ بجَنبي عَرَكتُها

إذا ما أُمورُ الناسِ رَثَّتْ وَضُيِّعتْ … وجَدتُ أُمورِي كلَّها قد رَمَمتُها(٣)

وإنّى سألقَى اللهَ لمْ أرمِ حُرّةً … ولمْ تَتَّمِنِّى(٤) يومَ سِرٍّ فخُنتَها

ولا قاذِفٌ نفسى ونفسى بَرِيئةٌ … وكيفَ اعتِذارِى بَعدَ ما قد قَذَفتُها

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال أخبرنا أبو ذرّ القراطيسىّ قال حدثنا عبيد الله بن محمد ابن أبى الدنيا قال حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدىّ أنّ رجلا من الأنصار حدثه قال قال مسكين الدّارمىّ :

ولستُ إذا ما مرّ فى الدّهرِ ضاحِكاً … ولا خاشِعاً ما عِشتُ مِن حادِثِ الدّهرِ(٥)

ولاَ جاعِلاً عِرْضى لمالى وِقايةً … ولكنْ أقى عِرْضى فيُحْرِزُهُ وَفْرِى

أعِفُّ لدَى عُسْرِى وأُبدِى تَجَمُّلاً … ولا خيرَ فيمَنْ لا يَعِفُّ لدَى العُسْرِ

وإنى لأستَحْيِى إذا كنتُ مُعسِراً … صَدِيقى وإخوانى بأنْ يَعلموا فَقْرِى

وأَقطَعُ إخوانى وما حالَ عهدُهُمْ … حَياءً وإعراضاً ، ومابىَ مِنْ كِبْرِ

فإنْ يَكُ عاراً ما أتيتُ فرُبَّما … أتى المرءَ يومُ السُّوءِ مِن حيثُ لا يدْرِى

ومَنْ يَفتقِرْ يَعلَمْ مكانَ صَدِيقِهِ … ومَن يَحْىَ لا يَعْدَمْ بلاءً مِن الدَّهرِ(٦)

ومن مستحسن قوله :

إنْ أُدْعَ مسكيناً فما قَصَرَتْ … قِدْرِى بُيوتُ الحَىِّ والجُدُرُ

---

(١) العوراء هنا : الكلمة القبيحة . (٢) د ، ف ، وحاشية الأصل ، وديوان المعانى : « رجاء غد » . (٣) رممتها : أصلحتها . (٤) د ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « لم تأتمنى » .

(٥) أبيات منها فى معجم الأدباء ١١ : ١٢٩ ، واللآلى : ١٨٦ ، وكنايات الجرجانى : ١٠ ، ٥٧ .

(٦) حاشية الأصل : (من نسخة) : « ومن يفن » .

وقيل : إن مسكينا ليس باسمه ، وإنما اسمه ربيعة ، وإنما سمّى بذلك لقوله :

وسُمِّيتُ مِسكيناً وكانت لَجاجـةً وإنى لِمسكينٌ إلى اللهِ راغِبُ (١)

ـ ومعنى : قصرت قدرى ، أى: سُتِرَتْ ، يريد أنها بارزة لا تحجبها السواتر والحيطان ـ

ما مَسَّ رَحْلِى العَنكَبوتُ ولاَ جَدَياتُهُ مِنْ وَضْعِهِ غُبُرُ

وهذه كناية مليحة عن مواصلة السير وهَجْر الوطن ، لأن العنكبوت إنما تنسج على مالا تناله / الأيدى ولا يكثر استعماله ، والجَديات : جمع جَدْيَة ، وهى باطن دَفَّة الرحل . [١٠٨ ظ]

لا آخُذُ الصِّبيانَ أَلثِمهمْ والأَمرُ قد يُغرِى (٢) بهِ الأَمرُ

ـ يقول : لا أقبِّل الصبىَّ ؛ وأنا أريد التعريض بأمه .

ومثله لغيره :

ولاَ أُلقِى لِذِى الوَدَعاتِ سَوْطى (٣) الاعبه (٤) وَرِيبتهُ (٥) أُريدُ

وأنشد ابن الأعرابى مثله :

إذَا رَأَيتَ صَبِيَّ القومِ يَلثِمُهُ ضَخمُ المَناكِبِ لا عَمٌّ ولاَ خالُ
فاحْفَظْ صَبِيَّكَ مِنهُ أنْ يُدنِّسَهُ ولاَ يَغُرَّنْكَ يوماً قِلَّةُ المالِ (٦)

ـ رجع إلى تمام القصيدة ـ

ولَرُبَّ يومٍ قد تَرَكْتُ وما بَينى وبينَ لِقائهِ سِتْرُ
ومُخَاصِمٍ (٧) قاوَمتُ فى كَبَدٍ مِثلِ الدِّهانِ فكانَ لى العُذْرُ (٨)

---

(١) الشعر والشعراء : ٥٢٩ . (٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « يجزى » .

(٣) م : « صوتى » . (٤) د : « لألثمه » ، ومن نسخة بحاشية ف : « لألهيه » .

(٥) د ، ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « وربته » ، أى أمه التى تربه . والودعات : الخرزات . (٦) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « كثرة المال » .

(٧) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « ومقادم » . (٨) فى حاشيتى الأصل ، ف : « إنما يكون العذر إذا كان ثم ظلم ، فيقول : إنما أقاوم وأخاصم مظلوماً متعدى عليه ، وإذا كان كذلك ، فيجب الاعتذار على الظالم ؛ ويكون العذر لى ، كقوله :

فإن كانَ سِحرًا فاعذِرِينى على الهوَى وإن كان داءً غيره فلك العذرُ

ـ ويروى : « القَمْرُ » ، والكَبْد : المنزلة التي لا تثبت فيها الأرجل ، والدهان : الأديم الأحمر ـ

ماعِلَّتى(١)اقَومى بَنو عُدُس ٍ   وهُمُ المُلُوكُ وخالِقَ البِشْرُ(٢)
عَمّى زُرارَةُ غيرَ مُنتحَلٍ   وأبى الذى حُدِّثتَهُ عَمْرُو
فى المَجْدِ غُرَّتُنا مبيَّنةٌ   لِلنّاظِرينَ كأنّها البَدْرُ
لا يَرْهَبُ الجيرانُ غَدْرتَنا   حتّى يُوارِيَ ذِكرنا القَبْرُ
لَسْنا كأقوامٍ إذا كَلَحَتْ   إحدَى السِّنينَ فجارُهُمْ تَمْرُ

ـ أى يستحلى الغدر به كما يُسْتَحْلَى التمر ـ

مولاهُمُ لَحْمٌ على وَضَمٍ   تَنتابُهُ العِقبانُ والنَّسرُ
نارِى ونارُ الجارِ واحِدَةٌ   وَاليهِ قَبلِى تُنزَلُ القِدْرُ

[١٠٩ و] يقال: إنه كان له امرأة تماظّه ، فلما قال ذلك قالت له : أجل؛ إنما ناره ونارك واحدة،لأنه أوقد ولم توقد ، والقِدْر تنزل إليه قبلك ؛ لأنه طبخ ولم تطبخ ، وأنت تستطعمه .

ما ضَرَّ جارِىَ إذْ أُجاوِرُهُ   أنْ لا يَكونَ لِبَيْتِه سِترُ

ـ قال : ويقال إنها قالت له فى هذا البيت أيضا : أجل إن كان له سِتْرٌ هتكْتَهُ ـ

أعمَى إذا ما جارَتى خَرَجتْ   حتّى يُوارِيَ جارَتى الخِدْرُ
ويَصَمُّ عمّا كانَ بيْنهُما   سَمْعى وما بى غَيرَهُ وَقْرُ

وأنشد عمر بن شبة لمسكين أيضاً :

لا تجعلَنّى كأقوامٍ عَلِمْتَهُمُ(٣)   لم يَظلِموا لَبّةً يوماً ولا وَدَجا(٤)

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « ماعابنى » .(٢) من نسخة فى حاشيتى الأصل ، ف : « هو مسكين بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن عمرو بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ؛ فهذا عدس وعدس أبو زرارة ، مثل قثم ؛ وقال ابن دريد : يقال عدس وعدس » ، بضم الدال وفتحها .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « لاتجعلنى كأقوام علمتهم » .

(٤) حاشية الأصل : « أى لم ينحروا للأضياف فيظلموا فى لبة أو ودج » .

إنى لأغلاهُمُ باللَّحْم قدْ عَلِموا   نِيئًا، وأرْخَصُهُم باللَّحْم إذْ نَضِجا
أنا ابنُ قاتِل جوعِ القَومِ قد عَلِموا   إذَا السَّماء كَسَتْ آفاقها رَهَجا(١)
يارُبَّ أمرَيْنِ قد فَرَّجْتُ بيْنهما   إذَا هما نَشِبا فى الصَّدرِ واعْتَلَجا(٢)
أُدِيمُ خُلقى لمَنْ دَامَتْ خَليقَتُهُ   وأمزُجُ الحلْوَ أحيانًا لمَنْ مَزَجا
وأقطَعُ الخَرْقَ بالخَرْقاءِ لاهيةً   إذَا الكواكِبُ كانتْ فى الدُّجى سُرُجا(٣)
ما أنزَلَ اللهُ من أمرٍ فأكرَهُهُ   إلاّ سيَجعَلُ لى مِن بعدِه فَرَجا
ما مدَّ قومٌ بأيدِيهمْ إلى شَرَفٍ   إلاّ رَأوْنا قِياماً فوقَهم دَرَجا

وأنشد أبو العباس ثعلب له :

أُضاحِكُ ضيفى قَبْلَ إنْزالِ رَحْلِه   ولم يُلْهِنى عَنهُ غزالٌ مُقَنَّعُ
أحدِّثُهُ إنّ الحديثَ من القِرَى   وتَعلَمُ نَفْسِى أنه سَوفَ يَهْجَعُ

ومثله لغيره :

أُضاحِكُ ضَيفى قبلَ إنْزالِ رَحْلِهِ   ويُخصبُ عِندى والمكانُ جَدِيبُ
وما الخِصْبُ للأضيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى   ولكِنَّما وَجْهُ الكَريمِ خَصِيبُ

ومعنى:

* أحدِّثُهُ إنَّ الحديثُ من القِرى *

أى أصبر على حديثه ، وأعلم أنه سوف ينام، ولا أعرِّض بمحادثته / فأكون قد محقت [١٠٩ ظ]
قِرايَ ؛ والحديثُ الحسَن من تمام القِرى .

وقال الأصمعيّ : أحسنُ ما قيل فى الغَيْرة قول مسكين الدارميّ :

ألا أيُّها الغائرُ المُستَشيطُ   علامَ تَغارُ إذَا لمْ تُغَرْ

---

(١) الرهج : الغبار .   (٢) اعتلج . اضطرب .

(٣) الخرق : المفازة الواسعة ، والخرقاء : الناقة السريعة .

فما خَيْرُ عِرْسٍ إذا خِفْتَها | وما خيرُ بيتٍ إذا لم يُزَرْ[1]
تَغارُ على النّاسِ أن يَنظُرُوا | وهل يَفتِنُ الصّالحاتِ النَّظَرْ
فإنى سأُخلى لها بيتَها | فتحفَظُ لى نفسَها أو تَذَرْ
إذا اللهُ لم يُعطِهِ وُدَّها | فلن يُعطِىَ الوُدَّ سَوْطٌ مُمَرّْ
ومَنْ ذا يُراعى له عِرْسَهُ | إذا ضمّهُ والمطِىَّ السَّفَرْ!

قال المرتضى رضى الله عنه: وكان مسكين كثيرَ اللَّهَجِ بالقول فى هذا المعنى ، فمن ذلك قوله:

وإنى امرُؤٌ لا آلَفُ البيتَ قاعداً | إلى جَنْبِ عِرْسِى لا أُفَرِّطُها شِبرَا
ولا مقيمٌ لا أبرَحُ الدّهرَ بيتَها | لأُجْمِلَهُ قبلَ المَماتِ لها قَبْرا
إذا هىَ لم تُحْصِنْ أمامَ فِنائها | فليسَ بمُنْجِيها بِنائى لها قَصْرا
ولا حاملى ظَنّى ولا قِيلُ قائلٍ[2] | على غَيرةٍ حتّى أُحيطَ بها خُبْرا
فهَبْنى امرأً راعيتُ ما دُمتُ شاهِداً | فكيفَ إذا ما سِرْتُ من بيتِها شَهْرا

وأنشد أبو العبّاس[3] عن أبى العالية لمسكين :

ما أحسنَ الغَيْرةَ فى حينِها | وأقبحَ الغيرةَ فى كلِّ حين![4]
مَن لم يَزَلْ مُتَّهِماً عِرْسَهُ | مُناصِباً فيها لوَهْمِ الظُّنون
يُوشِكُ أن يُغرِيَها بالذى | يَخافُ ، أو يَنصِبَها لِلعُيون
حَسْبُكَ مِن تَحصينِها ضَمُّها | مِنكَ إلى خُلُقٍ كريمٍ ودِين
لا تَظهَرَنْ مِنكَ على عَوْرةٍ | فيَتْبَعَ المَقْرُونُ حَبْلَ القَرِين[5]

---

(١) حاشية الأصل : « للسؤال » . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « وإن قال قائل » .
(٣) ف : « أبو العيناء » . (٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « غير حين » .
(٥) حاشية الأصل : « أى إياك أن تطلع المرأة منك على زنا وريبة ؛ فإنها أيضا تزنى أو تفعل كما فعلت » .

مجلس آخر ٣٦

تأويل آية

/إن سأل سائل عن قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ؛ [يوسف : ٢٤] . [١٦٠]

فقال : هل يسوغُ ما تأوَّل بعضُهم هذه الآية عليه من أن يوسفَ عليه السلام عزَم على المعصية وأرادَها ، وأنه جلَس مجلِس الرجل من المرأة ، ثم انصرف عن ذلك بأن رأى صورةَ أبيه يعقوب عليه السلام عاضًا على إصبَعه ، متوعّداً له على مواقعة المعصية، أو بأن نُودِي له بالنهي والزّجر في الحال على ما ورد به الحديث ؟

الجواب ، قلنا : إذا ثبت بأدلّة العقول التي لا يدخلها الاحتمالُ والمجاز ووجوه التأويلات أنّ المعاصيَ لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام صرفْنا كل ما ورد ظاهرُه بخلاف ذلك من كتابٍ أو سنة إلى ما يطابق الأدلة ويوافقها ، كما نفعل مثل ذلك فيما يرد ظاهرُه مخالفاً لما تدل عليه العقول من صفاته تعالى ، وما يجوز عليه أو لا يجوز .

ولهذه الآية وجوه من التأويل؛ كلُّ واحدٍ منها يقتضي نزاهة نبي الله تعالى من العزْم على الفاحشة وإرادة المعصية .

أوّلها أنّ الهمّ في ظاهر الآية متعلّق بما لا يصح أن يعلّق به العزم أو الإرادة على الحقيقة؛ لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، فعلّق الهمّ بهما، وذاتاهما لا يجوز أن يُراد أو يعزَم عليهما ؛ لأنّ الموجود الباقيَ لا يصحّ ذلك فيه ، فلابدّ من تقدير محذوف يتعلّق العزم به ؛ وقد يمكن أن يكون ما تعلّق به همُّه إنما هو ضربُها أو دفعُها عن نفسه ، كما

يقول القائل : كنت هممت بفلان ، وقد همّ فلان بفلان ؛ أى بأن يوقع به ضربا أو مكروها .

فإن قيل : فأىُّ معنًى لقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والدفعُ لها عن نفسه طاعةٌ لا يصرِفُ البرهانُ عنها ؟

قلنا : يمكن أن يكونَ الوجه فى ذلك أنه لما همّ بدفعها وضربها أراه الله برهانا على أنه إن أقدم على ما همّ به أهلكه أهلها وقتلوه ، أو أنها تدّعى عليه المراودة على القبيح وتقذفه [١٦٠] بأنه دعاها إليه، وأنّ ضَرْبَه [illegible] لامتناعها ، فيظنُّ به ذلك مَن لا تأمُّل له ، ولا علم بأنّ مثله لا يجوز عليه ، فأخبر الله تعالى بأنه صَرَف بالبرهان عنه السوء والفحشاء ، ويعنى بذلك القتل والمكروه اللّذَيْن كانا يوقعان به ، لأنهما يستحقان الوصفَ بذلك من حيث القبح، أو يُعنى بالسوء والفحشاء ظنُّهم به ذلك .

فإن قيل : هذا الجواب يقتضى أنّ جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ يتقدّمها ، ويكون التقدير: لولا أنْ رأى برهان ربّه لهمّ بضربها ودفعها، وتقدُّم جوابِ ﴿ لَوْلَا ﴾ قبيح غير مستعمل، أو يقتضى أن تكون ﴿ لَوْلَا ﴾ بغير جواب .

قلنا : أما تقدّم جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ فجائز ، وسنذكر ما فيه عند الجواب المختص بذلك ، غير أنّا لا نحتاج إليه فى هذا الجواب ، لأنّ الهَمّ بالضرب قد وقع ، إلا أنه انصرف عنه بالبرهان ؛ والتقدير: ولقد همت به وهمّ بدفعها لولا أن رأى برهان ربه لَفعل ذلك، فالجواب فى الحقيقة محذوف ، والكلام يقتضيه، كما حذف الجواب فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ؛ [النور : ٢٠] ، معناه : ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهلكتم ، ومثله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ؛ [التكاثر : ٥ ، ٦] ، معناه : لو تعلمون علمَ اليقين لم تتنافسوا فى الدنيا ، وتفاخروا بها ؛ وقال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّها نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ... وَلكِنَّها نفسٌ تَسَاقَطُ أنفُسا(١)

أراد : فلو أنَّها نفسٌ تموت سويَّةً لانقضَتْ وفنيت ، فحذف الجواب؛ على أنَّ مَن تأوّل هذه الآية على الوجه الذى لا يليق بنبيّ الله تعالى ، وأضاف العزم على المعصية إليه لا بد له من تقدير جواب محذوف ، ويكون التقدير عنده : ولقد همّت بالزّنا وهمّ به ؛ لولا أنْ رأى برهان ربه لَفعله .

فإن قيل قوله: ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ كقوله : ﴿ هَمَّتْ بِهِ ﴾ فلمَ جعلتم همَّها به متعلقًا بالقبيح وهمَّه بها متعلقاً بما ذكرتم من الضرب وغيره ؟

قلنا : أما الظاهر فلايدلُّ على ماتعلق بهالهم والعزم فيهما جميعا ، وإنما أثبتنا همَّها به متعلّقا بالقبيح ، لشهادة الكتاب والآثار؛ وهى ممن يجوز عليه فِعل القبيح ، ولم يُؤمَن دليلٌ من امتناعه عليها؛ كما أمن ذلك فيه عليه السلام .

والموضع الذى يشهد بذلك من الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ / الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، [١٦١ و] [يوسف : ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقوله تعالى : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ(٢) وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ، وفى موضع آخر : ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف : ٣٢] .

---

(١) ديوانه : ١٤٠ ، وروايته: «تموت جميعة » . وفى حاشية الأصل : « ويروى : « تُساقط » [بضم التاء] ، وساقط بوزن فاعل متعد ؛ ويكون « أنفسا » مفعولا ؛ وإذا روى : « تَساقط » [بفتح التاء] جاز أن يكون « تفاعل » متعديا ؛ والمعنى : أسقط . ويجوز أن يكون غير متعد أيضا ؛ و « أنفسا » نصبت على الحال ، كقوله تعالى : ﴿ تَسَاقَطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ ، أى تساقط عليك ثمر النخلة رطبا، وقال الفراء : هو تمييز ، وكلاهما حسن . ويجوز إذا كان حالا أن يفيد كثرة الرطب على الجذع فكأنها إذا تساقطت رطبا » .

(٢) حاشية الأصل: «معنى ﴿ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ؛ أى طلبت منه أن يزل عن نفسه فيسلمها منى؛ هذا هو حقيقة هذه الكلمة ؛ فاختصر » .

والآثار واردةٌ بإطباق مفسّرى القرآن ومتأوّليه على أنها همت بالفاحشة والمعصية .

والوجه الثانى فى تأويل الآية أن يُحمل الكلام على التقديم والتأخير ، ويكون تلخيصه: ولقد همت به ، ولولا أنْ رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ ويجرى ذلك مجرى قولهم : قد كنتَ هَلَكْتَ لولا أنى تداركتك ، وقُتِلت لولا أنى خلّصْتُك ، والمعنى : لولا تداركى لهلكت ، ولولا تخليصى لقتِلْت ، وإن لم يكن وقع هلاك ولا قتل ؛ قال الشاعر :

فلاَ يَدْعُنى قومى صَرِيحا لِحُرَّةٍ ... لِئن كُنتُ مَقتولاً ، وَيَسلَمَ عامِرُ[1]

وقال آخر :

فلاَ يَدْعُنى قَوْمِى صَرِيحاً لِحرة ... لئنْ لم أُعَجِّل طَعْنَةً أو أعجَّلِ[2]

فقدم جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ فى البيتين جميعاً ، وقد استشهد عليه أيضا بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ ، والهمّ لم يقع لمكان فضل الله ورحمته .

ومما يشهد لهذا التأويل أنّ فى الكلام شرطا ، وهو قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ؛ فكيف يحمَل على الإطلاق ، مع حصول الشرط ؟ وليس لهم أن يجعلوا جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوفا مقدّراً لأن جعل جوابها موجودا أولَى.

وقد استبعد قوم تقديم جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ عليها ، قالوا : ولو جاز ذلك لجاز : « قام زيدٌ لولا عمرو » ، و« قصدتك لولا بكرٌ » وقد بيّنّا بما أوردناه من الأمثلة والشواهد جوازَ تقديم جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ ، والذى ذكروه لا يشبه ما أجزناه .

وقد يجوز أن يقول القائل : «قد كان زيدقام لولا كذا وكذا» ، و«قد كنت قصدتك لولا أنْ صدّنى فلان» ، وإن لم يقع قيامٌ ولا قصد ؛ وهذا/ هو الذى يُشْبه الآية ؛ وليس تقديمُ [١٦١ ع]

---

(١) صريحا : خالص النسب .   (٢) م :

فلا يَدْعُنى قَوْمِى ليومِ كريهةٍ ... لَئِنْ لم أُعجّلْ ضربة أو أُعجل

وفى حاشية الأصل : « فى نسخة س البيت الثانى مقدم على الأول » .

جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ بأبعدَ من حذف جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ جُملةً من الكلام . وإذا جاز عندهم الحذف ـ لئلا يلزمهم تقديمُ الجواب ـ جاز لغيرهم تقديمُ الجواب حتى لا يلزم الحذف .

والجواب الثالث ما اختاره أبو علىّ الجُبّائىّ ـ وإن كان غيرُه قد تقدمه إلى معناه ـ وهو أن يكون معنى ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ اشتهاها، ومال طبعُه إلى ما دعته إليه. وقد يجوز أن تسمّى الشهوة فى مجاز اللغة هَمًّا ؛ كما يقول القائل فيما لا يشتهيه: ليس هذا من همّى، وهذا أهمُّ الأشياء إلىّ ؛ ولا قبحَ فى الشهوة لأنها من فعل الله تعالى فيه ؛ وإنما يتعلق القُبحُ بتناول المشتهَى .

وقد رُوِى هذا التأويل عن الحسن البصرىّ قال: أما همُّها فكان أخبثَ الهم، وأما همُّه فما طُبِع عليه الرجال من شهوة النساء، ويجب على هذا الوجه أن يكون قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ، متعلق بمحذوف ؛ كأنه قال : لولا أن رأى برهان ربه لَعزم أو فَعَل .

والجواب الرابع، أنّ من عادة العرب أن يسمّوا الشىء باسم ما يقع عنده فى الأكثر، وعلى هذا لا يُنكَر أن يكون المراد بـ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ خطرَ بباله أمرُها(1)، ووسوس إليه الشيطان بالدعاء إليها ؛ من غير أن يكون هناك همٌّ أو عزمٌ ، فسمّى الخُطور بالبال هَمًّا من حيث كان الهمّ يقع فى الأكثر عنده ، والعزم فى الأغلب يتبعه .

وإنما أنكرنا ما ادّعاه جَهلةُ المفسرين ومُخرّفو القُصّاص ، وقَرَفوا به نبىّ الله عليه السلام، لما فى العقول من الأدلة على أن مثل ذلك لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام؛ من حيث كان منفّرًا عنهم، وقادحًا فى الغرَض المجرىّ إليه بإرسالهم؛ والقصّة تشهد بذلك؛ لأنه تعالى قال: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾؛ ومن أكبر السوء والفحشاء العزمُ على الزنا، ثم الأخذ فيه، والشروع فى مقدماته؛ وقوله تعالى أيضا: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ يقتضى تنزيهه

(1) س : « ما خطر بباله أمرها » .

عن الهمّ بالزّنا، والعزم عليه. وحكايتُه عن النسوة قولهن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾؛ [يوسف: ٥١]، تدل أيضا على براءته من القبيح.

فأما البرهان الذى رآه فيحتمل أن يكون لُطْفاً لَطَفَ الله له به فى تلك الحال أو قبلها، اختار عنده الانصرافَ عن المعاصى، والتنزه عنها.

[١٦٢ و] ويحتمل أيضا / ماذكره أبو علىّ، وهو أن يكون البرهان دلالةَ الله تعالى له على تحريم ذلك عليه، وعلى أنّ مَن فعله يستحق العقاب. وليس يجوز أن يكون البرهان ما ظنّه الجهّال من رؤية صورة أبيه يعقوب عليه السلام متوعِّداً له، أو النداء له بالزجْر والتخويف، لأنّ ذلك يُنافى المحنة، وينقضُ الغرض بالتكليف، ويقتضى ألاّ يستحق على امتناعه وانزجاره مدحاً ولا ثواباً؛ وهذا سوءُ ثناء على الأنبياء، وإقدامٌ على قَرْفهم بما لم يكن منهم، ونحمد الله على حسن التوفيق.

* * *

روى أحمد بن عبد الله بن العباس الصولىّ الملقب بطماس قال: كنت يوماً عند عمّى إبراهيم بن العباس(١)، فدخل عليه رجل فرفعه حتى جلس إلى جانبه، أو قريبا من ذلك، ثم حادثه إلى أن قال عمى: يا أبا تمام؛ ومَن بقى ممن يُعتصم به ويلجأ إليه؟ قال: أنت لا عُدِمْتَ — وكان إبراهيم طويلا — أنت والله كما قيل:

يَمُدُّ نِجادَ السَّيفِ حتّى كأنّهُ ... بأعلَى سَنامَىْ فالجٍ يَتطوّحُ
ويُدْلِجُ فى حاجاتِ مَنْ هوَ نائمٌ ... ويُورِى كَرِيماتِ النَّدَى حين يَقْدَحُ
إذا اعتَمَّ بالبُرْدِ اليَمانىّ خِلْتَهُ ... هلالاً بدَا فى جانبِ الأفْقِ يَلمحُ
يَزيد على فَضْلِ الرِّجالِ فَضيلةً ... ويَقصُرُ عنه مَدْحُ مَن يَتمدّحُ

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، شاعر مجيد؛ توفى سنة ٢٤٣، وله ديوان شعر، نشره الأستاذ عبد العزيز الميمنى؛ ضمن مجموعة الطرائف سنة ١٩٣٧م (وانظر ترجمته فى الأغانى ٩: ٢٠٩ – ٢٣، وابن خلكان ١: ٩ – ١١، ومعجم الأدباء ١: ١٦٤ – ١٩٨، وتاريخ بغداد ٦: ١١٧).

فقال له إبراهيم: أنت تحسِن قائلاً، وراوياً، ومتمثلا؟ فلما خرج تبعتُه وقلت له: أ كتِبْني الأبيات، فقال: هي لأبي الجويرِيَة العبدي[(١)] نخذها من شعره.

* * *

وروى عن يحي بن البحتريّ قال: رأيت أبي يُذاكر جماعة من أمراء أهل الشام بمعانٍ من الشعر، فمرّ فيها ذكر قلة نوم العاشق وما قيل فيه، فأنشدوا إنشاداتٍ كثيرة، فقال لهم أبي: قد فرَغ من هذا كاتبٌ كان بالعراق فقال:

أحسِبُ النومَ حكاكا ... إذ رأى مِنكَ جفاكا[(٢)]
منِيَ الصبرُ ومنكَ الْـ ... ـهَجْرُ فابلُغْ بي مَدَاكا
بَعُدَتْ همةُ عَيْنٍ ... طَمِعَتْ في أنْ تَرَاكا
أوَ ما حَظٌّ لِعيني ... أنْ تَرَى مَن قد رَآكا
ليتَ حَظِّي مِنكَ أنْ تَعْـ ... ـلَمَ ما بي مِن هَواكا

قال أبي: /إنه تَصرَّفَ في معانٍ من الشعر في هذه الأبيات، قال: وكتبها عنه جماعة مَنْ [١٠٨ ظ] حضر؛ والأبيات لإبراهيم بن العباس الصوليّ.

* * *

وأخبرنا عليّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا محمد بن يحيي الصوليّ قال: لما بايع المأمون لعليّ ابن موسى الرّضا عليهما السلام بالعهْد، وأمرَ الناس بلبس الخُضرة صار إليه دِعْبل[(٣)] بن علي

---

(١) اسمه عيسى بن أوس بن عصبة؛ أبو جويرية العبدي؛ شاعر محسن متمكن؛ ذكره الآمدي في المؤتلف والمختلف: ٧٩، والمرزباني في المعجم: ٢٠٨.

(٢) ديوان إبراهيم بن العباس: ١٤٨.

(٣) هو دعبل بن علي الخزاعي، شاعر مطبوع؛ كان هجاء خبيث اللسان؛ ولم يسلم من لسانه أحد ممن عاصره من الخلفاء والوزراء ولا من أولادهم وأولاد أولادهم؛ ولا ذو نباهة؛ أحسن إليه أو لم يحسن، وكان من مشاهير الشيعة؛ قال ياقوت «وقصيدته التائية في أهل البيت من أحسن الشعر وأسنى المدائح، قصدبها علي بن موسى الرضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وخلع عليه بردة من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها؛ فقطعوا عليه الطريق ليأخذوها فقال لهم: إنها تراد لله =

وإبراهيم بن العباس الصولى ــ وكانا صديقين لا يفترقان ، فأنشده دِعبل :

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ مِن تلاوةٍ ... ومَنْزِلُ وَحيٍ مُقْفِرُ العَرَصاتِ(١)

وأنشده إبراهيم بن العباس على مذهبها قصيدة ، أولها :

أزالتْ عَزَاءَ القَلْبِ بعدَ التَّجلُّدِ ... مَصارِعُ أَوْلادِ النَّبيِّ مُحَمَّدِ

قال: فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم التى عليها اسمه، وكان المأمون أمر بضربها فى ذلك الوقت؛ فأما دعبل بن علىّ فصار بالشَّطْر منها إلى قُمّ، فاشترى أهلُها منه كلّ درهم بعشرة، فباع حصته بمائة ألف درهم .

= عزوجل؛ وهى محرمة عليكم؛ فدفعوا له ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه منها ليكون فى كفنه ، فأعطوه كما واحدا ؛ فكان فى أكفانه ؛ ويقال : إنه كتب القصيدة فى ثوب وأحرم فيه ؛ وأوصى بأن يكون فى أكفانه ، ونسخ هذه القصيدة مختلفة ، فى بعضها زيادات ؛ يظن أنها مصنوعة » ، وتوفى دعبل سنة ٢٤٦ .

(وانظر ترجمته فى معجم الأدباء ١١ : ١٩ : ١١٢ ، وابن خلكان ١ : ١٧٩ ــ ١٨٠ ، والأغانى ١٨ : ٢٩ ــ ٣٢ ، وتاريخ بغداد ٨ : ٣٨٢) .

(١) القصيدة فى معجم الأدباء ، وتنوير الأبصار : ١٤١ ، ١٤٢ ؛ ومطلعها فيه :

ذكرتُ محلّ الرَّبْعِ من عَرَفاتِ ... وأجريتُ دمع العَيْنِ بالعبراتِ

وفلَّ عُرَى صَبْرِي وهاجت صَبابتي ... رسومُ ديارٍ أقفرت وعِرَاتِ

مَدَارِسُ آيات . . . . . .

وفيها يقول :

ألم تَرَ أنى من ثلاثين حجةً ... أروحُ وأغدو دائمَ الحسراتِ

أرى فيئَهمْ فى غيرِهمْ متقسَّماً ... وأيديهمُ من فيئهمْ صَفِرَاتِ

فآلُ رسولِ الله نُحْفٌ جسومُهُمْ ... وآل زيادٍ حُفَّلُ القَصَراتِ

بناتُ زيادٍ فى القصورِ مصونةٌ ... وآلُ رسولِ الله فى الفَلَواتِ

إذا وُتِرُوا مدُّوا إلى أهل وِتْرِهمْ ... أكفًّا عن الأوتار منقبضاتِ

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ ... لقُطِّعَ قلبي إثْرَهم حسراتِ

وأما إبراهيم بن العباس فلم يَزَل عنده بعضُها حتى مات؛ قال الصولىّ: ولم أقف من قصيدة إبراهيم على غير هذا البيت .

قال: وكان السبب فى ذهاب هذا الفن من شعره ما حدّثنى به أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات والحسين بن علىّ الباقُطانىّ(١) قالا: كان إبراهيم بن العباس صديقاً لإسحاق بن إبراهيم أخى زيدان الكاتب المعروف بالزَّمِن، فأنسخه شعرَه فى علىّ بن موسى الرِّضا عليهما السلام، وقد انصرف من خراسان، ودفع إليه شيئاً بخطِّه منه، وكانت النُّسخة عنده إلى أن وَلِى المتوكل، ووَلِى إبراهيم بن العباس ديوان الضِّياع، وقد كان تباعد ما بينه وبين أخى زيدان، فعزله عن ضياع كانت فى يده بحُلوان وغيرها وطالَبه بمالٍ وألَحّ عليه، وأساء مطالبته، فدعا إسحاقُ بعضَ مَن يثق به من إخوانه، وقال له: امض إلى إبراهيم بن العباس، فأعلِمه أنّ شعره فى علىّ بن موسى بخطِّه عندى، وبغير خطِّه، والله لئن استمرّ على ظُلمى(٢)، ولم يُزِل عنّى المطالبة لأوصلنّ الشعر إلى المتوكل؛ قال: فصار الرجل إلى إبراهيم بن العباس، فأخبره بذلك، فاضطرب اضطراباً شديداً، وجعل الأمر / فى ذلك إلى الواسطة فى ذلك حتى أسقطَ جميع ما كان طالبه به، وأخذ [١٦٣ و]
الشعر منه، وأحلفه أنه لم يَبق عنده منه شىء، فلما حَصَل عنده أحرقه بحضرته .

وذكر أبو أحمد يحيى بن علىّ المنجم أنّ أباه علىّ بن يحيى كان الواسطة بينهما .

قال الصولى: وما عرفتُ من شعر إبراهيم فى هذا المعنى شيئاً إلاّ أبياتاً؛ وجدتُها بخط أبى قال: أنشدنى أخى لممه فى علىّ بن موسى من قصيدة :

كَفَى بِفَعَالِ امرِئٍ عالِمٍ على أهلِهِ عادِلاً شاهِدا(٣)
أرَى لهمُ طارِفاً مُونِقاً ولا يُشبهُ الطَّارِفُ التالِدا
يَمُنُّ عليكم بأموالِكم وتُعْطَوْنَ من مائةٍ واحدا

---

(١) حاشية الأصل : الباقطان : قرية بالعراق ، والنسبة إليها باقطانى ؛ وثم أيضا قرية يقال لها باقطينا ؛ والنسبة إليها باقطيني . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « ظلمه » .

(٣) ديوانه : ١٧٢ ، ومن نسخة بحاشية الأصل : « على قومه عادلا » .

فلا حَمِدَ اللهُ مستنصِراً(١)   يكونُ لأعدائكُم حامدا
فضَلْتَ قَسِيمَكَ في قُعدُدٍ(٢)   كما فضَلَ الوالدُ الوالدا

قال الصولىّ : فنظرت فى قوله :

* فضلْتَ قسيمَك فى قُعْدُدٍ *

فوجدت علىّ بن موسى عليهما السلام والمأمون متساويين فى قُعْدُد النسب، وهاشم التاسع من آبائهما جميعاً .

وروى الصولىّ أنّ منشداً أنشد إبراهيم بن العباس وهو فى مجلسه فى ديوان الضّياع :

ربّما تكرهُ النفوسُ من الأمـ   ـرِ له فَرْجَةٌ كحلّ العقالِ(٣)

قال : فنكَت بقلمه ساعة ثم قال :

ولَرُبَّ نازلةٍ يَضيقُ بها الفتى   ذَرْعاً وعنـدَ اللهِ منها مخرجُ(٤)
كمَلَتْ فلما استحكمت حلقاتُها   فُرِجتْ وكانَ يظنُّها لا تُفرَجُ

فعجب من جودة بديهته .

وأخبرنا أبو الحسن علىّ بن محمد الكاتب قال أخبرنى محمد بن يحيى الصولىّ قال حدثنى القاسم بن إسمعيل أبو ذكوان الراوية قال : كنت بالأهواز أيام الواثق، وإبراهيم بن العباس يَلِى معونتَها وخراجها ، فوصِفْتُ له بالأدب فأمر بإحضارى ، فلما دخلت عليه قرّب مجلسى وقال : تَسَلَّفْ(٥) أنسَ المطاولة؛ فإن الاستمتاع لا يَتِمُّ إلا به، فانبسطت وتساءلنا / عن الأشعار، [١٦٣ ظ] فما رأيت أحداقط أعلم بالشعر منه، فقال لى : ما عندك فى قول النابغة :

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : * فَلَا حَمِدَ اللهَ مُسْتَبْصِرٌ *

(٢) حاشية الأصل : « فى قعدد » تعلق بقسيمك ، والقعدد : الأقرب إلى الأب الأكبر ، وفلان أقعد من فلان نسباً إذا كان أقرب إلى الأب الأكبر . (٣) البيت لأمية بن أبى الصلت ؛ وهو فى شعراء النصرانية : ٢٠٣ ، واللسان (فرج) . والفرجة ؛ بالفتح مصدر ؛ وبالضم اسم ، والرواية بالفتح .

(٤) ديوانه : ١٧١ . (٥) حاشية الأصل : تسلف ؛ أى خذه سلفا ؛ يعنى أنك ستنبسط إلىّ بعد المطاولة ؛ فخذ ذلك سلفا وانبسط » .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سُورةً ... تَرَى كلَّ مَلْكٍ دونَها يتذبذبُ[(١)]
فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طَلَعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

فقلت : أراد تفضيلَه على الملوك، فقال: صدقت، ولكنْ في الشعر خَبْلاً[(٢)]، وهو أنه اعتذر إلى النعمان من ذهابه إلى آل جفنة إلى الشام، ومَدْحِه لهم، وقال : إنما فعلت هذا لجفائك بى، فإذا اصلحت لى لم أُرِدْ غيرك، كأنّ مَنْ أضاءت له الشمس لم يحتجْ إلى ضوء الكواكب؛ فأتى بمعنيين: بهذا، وبتفضيله، قال : فاستحسنتُ ذلك منه .

وكان إبراهيم بن العباس من أصدق الناس لأحمد بن أبى دؤاد، فعتَب على ابنه أبى الوليد من شىء قدّمه، ومدح أباه وأحسن فى التخلّص كلّ الإحسان فقال :

عَفَتْ مَساوٍ تبدَّتْ منكَ واضحةً ... على محاسِنَ بقّاها أبوكَ لكا[(٣)]
لئن تقدّم أبناءُ الكرامِ بهِ ... لقد تقدّمَ أبناءُ اللئامِ بكا

ولإبراهيم :

تمرُّ الصَّبا صَفْحاً بساكنِ ذى الغَضا ... ويصدعُ قلبى أن يَهُبَّ هُبوبُها[(٤)]
قريبةُ عهدٍ بالحبيبِ وإنما ... هَوَى كلِّ نفسٍ حيثُ كانَ حبيبُها
تَطَلَّعُ من نفسى إليكَ نوازعٌ ... عَوَارفُ أنَّ اليأسَ منكَ نصيبُها

وأخذ هذا من قول ذى الرُّمة :

إذا هبّتِ الأرواحُ من نحوِ جانبٍ ... به آلُ مَىٍّ هاجَ شوقى هُبوبُها[(٥)]
هوىً تذرِفُ العينانِ منه، وإنما ... هوى كلِّ نفسٍ حيثُ كانَ حبيبُها

ولإبراهيم :

دَنَتْ بأُناسٍ عن تَناءٍ زيارةٌ ... وشطَّ بليلَى عن دنوٍّ مزارُها[(٦)]
وإنَّ مقيماتٍ بمنقطَعِ اللّوَى ... لأقربُ من ليلَى وهاتيكَ دارُها

---

(١) ديوانه : ١٣ . (٢) الخبل : ماخفى واستتر، كالخبء . (٣) ديوانه : ١٦٢ .
(٤) ديوانه : ١٣٩ . (٥) ديوانه : ٦٠ ــ ٦٦ .
(٦) ديوانه : ١٤٠ ، وفى حاشية الأصل : « يروى البيتان لمحمد بن عبد الملك الزيات » .

[١٦٤ و] / وأخذ ذلك من قول النظار الفقعسي:

يقولونَ هَـذِى أم عمرٍو قريبةٌ   دَنَت بكَ أرضٌ نحوها وَسَماءُ
ألاَ إنَّما بُعْدُ الحَبيبِ وقُرْبهُ   إذَا هُو لم يوصلْ إليـهِ سَواءُ

ووجدت بعضَ أهل الأدب يظنّ أن إبراهيم بن العباس سبقَ إلى هذا المعنى فى قوله:

كن كَيفَ شِئْت وأنّى تَشا   وابْرِق يميناً وأرعد شِمَالاَ[(١)]
نجابكَ لؤمُكَ منجَى الذُّبابِ   حمتهُ مقاذيره أن يُنالاَ[(٢)]

حتى رأيت مُسلم بن الوليد قد سبَق إلى هذا المعنى، فأحسن غاية الإحسان فقال:

أمّا الهجاءُ فدَقَّ عِرضُكَ دُونهُ   والمدح عنكَ كما علمتَ جليلُ[(٣)]
فاذهب فأنت طليقُ عِرضِكَ إنَّه   عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنتَ ذَليلُ

---

(١) ديوانه: ١٦٣.   (٢) من نسخة بحاشية الأصل: «مقاذره».
(٣) ملحقات ديوانه: ٢٤٢.

مجلس آخر ٣٧

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، [يوسف : ٣٣] .

فقال : إذا كانت المحبةُ عندكم هى الإرادة، فهذا تصريح من يوسف عليه السلام بإرادة المعصية؛ لأن حبسَه فى السجن، وقطعَه عن التصرف معصيةٌ من فاعله ؛ وقبيح من المقدم عليه ؛ وهو فى القُبح يجرى مجرَى ما دُعِيَ إليه من الزنا . وقوله من بعد : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ يدل على أنّ امتناعَه من القبيح (١ مشروط بمنعِهِنّ وصرفِهِن١) عن كيده ؛ وهذا بخلافِ مذهبِكم ، لأنكم تذهبون إلى أنّ ذلك لا يقع منه ؛ صرَفَ النّسوة عن كَيْدِه، أو لم يصرفْهُنّ .

الجواب، قلنا: أما قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ففيه وجهان من التأويل:

أولها أنّ المحبّةَ متعلقةٌ فى ظاهر الكلام بما لا يصحُّ فى الحقيقة أن يكون محبوباً مراداً؛ لأنّ السجن إنما هو الجسم، والأجسام لا يجوز أن يريدها؛ وإنما يريد الفعلَ فيها ، أو المتعلّق بها ؛ والسجن نفسه(٢) ليس / بطاعة ولا معصية ، وإنما الأفعالُ فيه قد تكون طاعاتٍ [١٦٤ ظ] ومعاصي بحسب الوجوه التي يقع عليها؛ وإدخالُ القوم يوسفَ عليه السلام الحبسَ ، أو إكراههم له على دخوله معصية منهم ؛ وكونُه فيه وصبرُه على ملازمته ، والمشاقّ التى تنالهُ باستيطانه طاعةٌ منه وقربةٌ، وقد علمنا أنّ ظالمًا لو أكرَهَ مؤمناً على ملازمة بعض المواضع ، وترك

(١ـ١) د ، ف : « مشروط بمنعهم وصرفهم » .

(٢) حاشية ف (من نسخة) : « وحده » .

التصرّف فى غيره لكان فعلُ المُكرَه حسناً، وإن كان فعل المكرِه قبيحاً. وهذه الجملة تبيّن ألاّ ظاهرَ فى الآية(١) يقتضى ما عنده؛ وأنه لابدّ من تقدير محذوف يتعلق بالسِّجن؛ وليس لهم أن يقدِّروا ما يرجع إلى الحابس من الأفعال؛ إلاّ ولنا أن نقدِّر ما يرجع إلى المحبوس؛ وإذا احتمل الكلام الأمرَين، ودلّ الدليل على أنّ النبىّ عليه السلام لايجوز أن يريد المعاصىَ والقبائح اختصّ المحذوف المقدّر بما يرجع إليه مما ذكرناه، وذلك طاعةٌ لا لومَ على مريده ومُحبِّه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يقول: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾، وهو لايحبّ ما دعوه جملةً؛ ومِنْ شأن هذه اللفظة أن تدخُلَ بين ماوقع(٢) فيه اشتراكٌ فى معناها؛ وإن فُضِّل البعض على البعض؟

قلنا: قد تُستَعمَل هذه اللفظة فى مثل هذا الموضع؛ وإن لم يكن فى معناها اشتراكٌ على الحقيقة، ألا ترى أنّ مَن خُيِّر بين ما يحبه وما يكرهه جازٌ أن يقول: هذا أحبُّ إلىّ من هذا، وإن لم يجُزْ مبتدئاً أن يقول من غير أن يُخيَّر: هذا أحبّ إلىّ من هذا، إذا كان لا يُحبُّ أحدهما جملة!

وإنما يسوغ ذلك على أحد الوجهين دون الآخر؛ من حيث كان المخيَّر بين الشيئين لايخيَّر بينهما إلاّ وهما مرادان له، أو مما يصحّ أن يريدهما، فوضوع التخيير يقتضى ذلك، وإن حصل فيما ليس هذه صفته، والمجيب على(٣) هذا متى قال: كذا أحبّ إلىّ من كذا كان مُجيباً على ما يقتضيه موضوع التخيير، وإن لم يكن الأمران يشتركان فى تناول محبته.

ومايقارب ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾؛ [الفرقان . ١٥]، ونحن نعلمُ ألاّ خيرَ فى العقاب؛ وإنما حَسُنَ ذلك لوقوعه موقعَ التوبيخ والتقريع على اختيار

(١) حاشية ف (من نسخة): «للآية». (٢) حاشية ف (من نسخة): «يقع».
(٣) حاشية ف (من نسخة): «عن هذا».

المعاصي على الطاعات ، وأنهم ما ركبوا المعاصي وآثروها على الطاعات إلاّ لاعتقادهم[١] أنّ فيها خيرا / ونفعاً ، فقيل : أذلك خير على ما تظنونه وتعتقدونه ، أم كذا وكذا ؟ [١٦٥ و]

وقد قال قوم في قوله تعالى : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ﴾ إنما حَسُنَ ذلك لاشتراك الحالين في باب المنزلة ، وإن لم يشتركا في الخير والنفع ، كما قال تعالى : ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ ؛ [الفرقان : ٢٤] ، ومثل هذا يتأتّى في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ لأنّ الأمرين ـ يعني المعصية ودخول السجن ـ مشتركان في أنّ لكل منهما داعياً ، وعليه باعثاً ، وإن لم يشتركا في تناول المحبة ، فجعل اشتراكهما في داعي المحبة اشتراكا في المحبة نفسها وأجرى اللفظ على ذلك .

ومن قرأ هذه الآية بفتح السين فالتأويل أيضاً ما ذكرناه ؛ لأن « السَّجْن » المصدر ، فيحتمل أن يريد : أنّ سَجْني لهم نفسي ، وصبري على حبسهم أحبُّ إليّ من مواقعة المعصية ؛ ولا يرجع بالسجن إلى فعلهم بل إلى فعله .

والوجه الثاني أن يكون معنى ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ أي أهوَن عندي وأسهل عليّ ؛ وهذا كما يقال لأحدنا في الأمرين يكرههما معا : إن فعلتَ كذا وإلا فُعل بك كذا وكذا ؛ فيقول : بل كذا أحبُّ إليّ ، أي بمعنى أسهل وأخفّ ، وإن كان لا يريد واحدا منهما ؛ وعلى هذا الجواب لا يمتنع أن يكون إنما عَنَى فعلَهم به دون فعله ، لأنه لم يخبر عن نفسه بالمحبة التي هي الإرادة ؛ وإنما وضع ﴿ أَحَبُّ ﴾ موضع أخف ، والمعصية قد تكون أهون وأخفّ من أخرى .

وأما قوله : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ فليس المعنى فيه على ماظنّه السائل ؛ بل المراد : متى لم تلطُف لي بما يدعوني إلى مجانبة المعصية ، ويَثنيني إلى تركها ومفارقتها صبوتُ ؛ وهذا منه عليه السلام على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى ، والتسليم لأمره ، وأنه لولا معونته ولطفه ما نجا من كيدهنّ ؛ ولا شبهة في أن النبيّ عليه السلام إنما يكون

---

(١) حاشية ف (من نسخة) : « لاعتقادتهم » .

معصوماً من القبائح بعصمة الله تعالى له وبلطفه وتوفيقه .

فإن قيل: الظاهر خلاف ذلك لأنه قال: ﴿ وَإِلاَّ تَصرِفْ عَنى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ فيجب أن يكون المراد ما يمنعهم من الكيد ويرفعه ؛ والذى ذكرتموه من انصرافه عن المعصية لا يقتضى ارتفاعَ الكيد والانصراف عنه .

[١٦٠] قلنا: معنى الكلام : وإلا تصرفْ/ عنى ضررَ كيدهنّ والغرضَ به ؛ لأنهنّ إنما أجْرَيْن بكيدهنّ إلى مساعدته لهنّ على المعصية ، فإذا عُصِم منها ولُطِف له فى الانصراف عنها؛ فكأنَّ الكيد قد انصرف عنه ولم يقع به ، من حيث لم يقع ضررُه وما أُجْرِىَ به إليه ، ولهذا يقال لمن أجرى بكلامه إلى غرض لم يقع : ما قلتَ شيئاً ، وإن فَعل مالا تأثير له : ما فعلت شيئاً ، وهذا بَيِّن بحمد الله ومنّه .

تأويل خبر

إن سأل سائل عن تأويل الخبر الذى يَرويه عُقْبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال فى خطبة طويلة خَطبها : « من يتّبع المَشْمَعَة يشمّع اللهُ به » .

والجواب ، إن المشْمَعة هى الضّحِك والمُزاح واللعب، يقال: شَمِع الرَّجُل يَشْمَع شُموعاً، وامرأة شَموع إذا كانت كثيرة المُزاح والضَّحِك : قال أبو ذؤيب يصف الحمير :

بقرارِ قيعانٍ سَقاها وابلٌ ... واهٍ فأثجمَ بُرْهَةً لا يُقْلِعُ[(١)]
فَلَبِثْنَ حِيناً يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضَةٍ ... فَيَجِدُّ حِيناً فى المِلاجِ ويَشْمَعُ[(٢)]

أراد أنّ هذا الحمار الذى وصَف حاله مع الأُتُن ، وأنه معهنّ فى بعض القيعان يُمارك هذه الأُتُن .

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٥ . القرار : مستقر الماء . والقيعان : مناقع الماء فى حر الطين ؛ وفى حاشيتى الأصل ، ف : «سقاها ، أى سقى القيعان واه ؛ أى سحاب كثير المطر ؛ وهذه استعارة ؛ أى كأن هذا السحاب ضعيف فينهل عنه الماء انهلالا . وأثجم : أقام برهة ؛ أى مدة من الزمان لا يقلع ولا يذهب» .

(٢) حاشية الأصل : «يروى ، «بروضه» ، والضمير للعير الذى يصفه ، أو للقرار ، أو للوابل» .

ومعنى « يَمْتَلِجْن » يُعاضُّ بعضها بعضاً ، ويتراجعْن من النشاط فيجدُّ الفحل معهن مرّة ، وأخرى يأخذ معهنّ في اللعب فيشمَع ، وفي يجدّ لغتان: يَجِد ويُجِدُّ ، والمفتوح لغة هذيل ؛ ويقال فلان جادّ مُجِدّ على اللغتين معاً .

وقيل إن معنى يَشمع الحمار أنه يَتَشَمَّع ، ثم يرفع رأسه فيكَشِّر عن أسنانه ، فجعل ذلك بمنزلة الضحك ، قال الشّماخ :

ولو أنّي أشاءُ كَنَنْتُ نفسي   إلى لبّاتِ بَهْكَنةٍ شَموعِ[1]

وقال المتنخل الهذليّ :

ولاَ واللهِ نادَى الحَيُّ ضَيْفي   هدوءاً بالمَساءَة والعِلاَطِ[2]
سأبْدَؤهمْ بِمَشْمَعةٍ وأثْني   بجَهْدي مِن طَعامٍ أو بِساطِ

أراد بقوله «نادى الحيُّ ضَيْفي» أي لاينادونه، من النداء بالسوء والمكروه ولا يتلقونه بمالا يُؤْثر /. والعِلاط : من أعْلَطه واعتلط به؛ إذا خاصمه وشاغبه ووسمه بالشر؛ وأصله من [١٦٦ و] عِلاط البعير ، وهو وَسْمٌ في عنقه .

وقيل إن معنى « نادَى الحيُّ » من النادِي ؛ أي لا يجالسونه بالمكروه والسوء .

ومعنى « سأبدؤهم بِمَشْمعة » أي بلعب وضحك ، لأن ذلك من علامات الكرم والسرور بالضيف ، والقَصْد إلى إيناسه وبَسْطه ، ومنه قول الآخر :

ورُبَّ ضَيفٍ طرَقَ الحَيَّ سُرى   صادَفَ زاداً وحديثاً ما اشْتهَى
إنَّ الحَديثَ جانبٌ من القِرَى[3]

وروى الأصمعيّ عن خلَف الأحمر قال: سُنّة الأعراب أنهم إذا حدّثوا الرجل الغريبَ

---

(١) ديوانه : ١٧ ؛ وروايته : « هيكلة » ؛ وهي الضخمة . وكننت نفسي : سترتها . والبات : جم لبة ؛ وهي موضع القلادة ؛ والبهكنة : الغضة الحسنة الخلق .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٢١ .   (٣) الأبيات للشماخ يقولها في عبد الله بن جعفر ، وقبلها :

إنَّكَ يابْنَ جعفرٍ نِعمَ الفَتَى   ونِعم مأوى طارقٍ إذا أتَى

وانظر الأغاني ٩ : ١٦٨ (طبع دار الكتب المصرية) .

وهشّوا إليه ومازحوه أيقن بالقِرى ، وإذا أعرضوا عنه عرفَ الحرمان .

ومعنى: « أثنِي * بجهدى من طعامٍ أو بساطِ »، أى أُتْبِع ذلك بهذا .

ومعنى الخبر على هذا أنَّ مَن كان من شأنه العبث بالناس والاستهزاء بهم ، والضحك منهم أصاره الله تعالى إلى حالة يُعبَث به فيها، ويستَهزأ منه.

ويقارب هذا الحديث من وجه حديث آخر ؛ وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وآله: « من يُسَمِّع الناسَ بعمله يُسمِّع الله به »؛ والمعنى : مَن يرائى[1] بأعماله ويظهرُها تقرباً إلى الناس واتخاذا للمنازل عندهم ؛ يشهرُه[2] الله بالرياء ويَفضحه ويهتِكه .

ويمكن أيضا فى الخبر الأول وجهٌ آخر لم يذكر فيه؛ وهو أن من عادة العرب أن يسمُّوا الجزاء على الشىء باسمه ؛ ولذلك نظائر فى القرآن وأشعار العرب كثيرة مشهورة، فلا يُنكر أن يكون المعنى : مَن يتتبع اللهوَ بالناس ، والاستهزاء بهم يعاقبه الله تعالى على ذلك ويجازيه ؛ فسمى الجزاء على الفعل باسمه ؛ وهذا الوجه أيضا ممكن فى الخبر الثانى .

***

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانىّ قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال : إنى لفى سوق ضَرِيَّة[3]، وقد نزلتُ على رجلٍ من بنى كلاب كان متزوجا بالبصرة، وكان له ابن بضريّة، إذ أقبلتْ عجوزٌ على ناقة لها، حسنة البِزَّة ، فيها بقايا جمالٍ ، فأناختْ/ [١٦٦ ظ] وعقلَتْ ناقتها ، وأقبلت تتوكّأ على مِحْجنٍ[4] لها فجلست قريبا منّا ، وقالت : هل من منشد؟ فقلت للكلابىّ : أيحضرك شىء؟ قال: لا، قال: فأنشدتها شعر البشر بن عبد الرحمن الأنصارىّ :

وَقصيرةِ الأيامِ وَدَّ جليسُها ... لوْ باعَ مَجلسها بفَقْدِ حَميمِ[5]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « من يراه » .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « يشهره » ، بالجزم . (٣) ضرية : قرية بنجد فى طريق مكة من البصرة . (٤) المحجن : عصا معوجة معقفة الرأس ؛ فى رأسها حديدة كالملاق .

(٥) الأبيات فى الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ٣٠١ ، وأمالى القالى ١ : ٢٠٢ ، من غير عزو مع اختلاف فى الترتيب . والبيت الأول منها فى اللسان (ودع) منسوب إلى قيس بن معاذ مجنون بنى عامر . وفى الحماسة : « لو نال مجلسها » ، وفى أمالى القالى : « لو دام مجلسها » .

(١من مُحذِياتِ أخي الهوَى غُصَصَ الجوَى١) بدلالِ غانيةٍ ومُقلةِ ريمِ
صَفْرَاءُ من بقرِ الجِواءِ كأنما خَفَرُ الحياءِ بها رُداعُ سقيمِ(٢)

قال : فجثت على رُكبتَيها وأقبلت تخرش(٣) الأرض بمحجَنِها ، وأنشأت تقول(٤) :

قِفِي يا أُميمَ القلبِ(٥) نَقرأ تحيّةً ونَشْكُ الهوَى ، ثم افعلِي ما بدَا لكِ(٦)
فلو قلتِ : طأْ في النارِ أعلمُ أنّه(٧) هوىً لكِ ، أو مُدْنٍ لنا من وِصالِكِ
لقدَّمتُ رِجْلِي نحوَها فوطِئتُها (٨هُدىً منكِ لي ، أو ضلّةً من ضلالِكِ٨)
(٩سَلِي البانةَ العلياءَ من الأجرعِ٩) الذي بهِ البانُ : (١٠هل حيَّيتُ أطلالَ دارِكِ١٠)
وهَلْ قُمتُ في أظلالِهنّ عشيةً (١١مقامَ سقيمِ القلبِ١١) ، واخترتُ ذلكِ

(١ ــ ١) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف :

* مِنْ محذياتِ أخي الأسَى غُصَصَ الهوَى *

(٢) الجواء : موضع بعينه . (٣) تخرش : تضرب عليها ؛ من خرش الضب ، والخرش كالخمش وهو الخدش .

(٤) الأبيات لابن الدمينة ؛ ديوانه : ١٠ ، وأمالي الزجاجي ١١٠ عن ابن الأعرابي ، وأمالي القالي ٢ : ٣٣ عن ابن دريد ، ومعاهد التنصيص ١ : ١٥٩ ؛ وهي أيضا في الحماسة ــ بشرح التبريزي ٣ : ٢٦٣ ، من غير عزو . (٥) حاشية الأصل : « أضافها إلى القلب كرامة لها وإعجاباً بها » .

(٦) في حاشيتي الأصل ف : « الأحسن أن يقال : « بدالِكِ » بكسر اللام لتوازن القوافي ، والعلة فيه مجاورة كسرة الكاف كقراءة من قرأ : ﴿مِمّا خِطِيئاتِهِمْ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿عِتِيًّا﴾ ، و﴿صِلِيًّا﴾ .

(٧) حاشية الأصل (من نسخة) : « أنها » .

(٨ ــ ٨) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف :

* سُرورًا لأنّي قد خطرتُ ببالِكِ *

(٩ ــ ٩) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « سلي البانة الغيناء بالأجرع » ، وهي رواية الحماسة . والغيناء : الشجرة العظيمة الواسعة الظل . والأجرع : السهل المختلط بالرمل .

(١٠ ــ ١٠) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « هل حييت أطلال ضالك » ، والضال : شجر .

(١١ ــ ١١) من نسخة بحاشية الأصل ، ف : « قيام سقيم البال » .

لِيَهْنِئْكِ (١) إمساكى بكفّى على الحشا ورقراقُ عينى (٢) رَهْبَةً من زِيالكِ (٣)

قال الأصمعىّ: فأظلمت والله علىّ الدنيا بحلاوة منطقها، وفصاحة لهجتها؛ فدنوت منها فقلتُ: نَشَدْتُكِ اللهَ لَمَا زَوَّدْتِنى (٤) من هذا! فرأيت الضحك فى عينها، وأنشدت:

ومُستَخْفِياتٍ ليس يَخْفَيْنَ زُرْنَنا يُسَحِّبْنَ (٥) أذيالَ الصَّبابةِ والشَّكْلِ (٦)
جَمَعْنَ (٧) الهوى حتى إذا ما مَلَكْنَهُ نَزَعْنَ، وقد أكْثَرْنَ فينا مِنَ القَتْلِ
مَرِيضاتِ رَجْعِ القولِ (٨) خُرْسٍ عن الخَنا تأَلّفْنَ أهواءَ القلوبِ بلا بَذْلِ
مَوارِقُ مِن خَتْلِ المُحِبِّ، عَواطِفٌ بِخَتْلِ ذَوِى الألبابِ بالجِدِّ والهَزْلِ (٩)
يُعنِّفُنِى العُذّالُ فيهنَّ، والهوى يُحذِّرُنى مِن أنْ أُطِيعَ ذَوِى العَذْلِ

أما قول الأنصارى «وقصيرة الأيام» فأراد بذلك أنّ السرور يتكامل بحضورها لحسنها / وطيب حديثها فتقصر أيام جليسها، لأن أيام السرور موصوفة بالقِصَر. [١٦٧ و]

ويمكن أن يريد بقصيرة الأيام أيضا حداثة سنّها وقُرْب عهد مولدها؛ وإن كان الأول أشبه بما أتى فى آخر البيت.

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة): «ليهنك»؛ وهى رواية الحماسة.

(٢) حاشية الأصل (من نسخة): «ورقراق دمع».

(٣) بعد هذا البيت فى ف:

لئن ساءنى أنْ نِلْتِنى بمساءةٍ لقد سرّنى أنّى خطرتُ ببالكِ

وهو أيضا فى حاشية الأصل

(٤) حاشية الأصل (من نسخة): «زودتبى»، ومن نسخة أخرى. «زدتنى».

(٥) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «ويسحبن».

(٦) الأبيات فى أمالى القالى ٢: ٢٨٧ غير منسوبة (٧) من نسخة بحاشيتى الأصل: «بلغن».

(٨) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «الطرف».

(٩) فى حاشيتى الأصل، ف: «أى لا يختلهن المحب، بل يختلن ذوى الألباب».

ومعنى:

* لو باعَ مجلسَها بفقد حَبيبِ *

أى ابتاعه ، وهذا اللفظ من الأضداد؛ لأنه يستعمل فى البائع والمشترى معاً، قال الفراء: سمعت أعرابيا يقول : بِعْ لى تمراً بدرهم ، أى اشتر لى تمراً بدرهم ، وقال الشاعر :

فيَا عَزُّ ليتَ النأىَ إذْ حالَ بيننَا ... وبيْنَكِ باعَ الوُدَّ لِى منكِ تاجِرُ[1]

أى ابتاع .

وقوله : « من مُحْذِيات أخى الهوى » أى من مُعطيات ، يقال : أحذيت الرجل من العطية[2] والغنيمة أُحْذِيه إذا أعطيتَه ، والاسم الحَذِيَّة والحِذْوة والحُذْيا ؛ كل ذلك العطية .

وقوله :

* كأنما خَفَرُ الحياء بها رُدَاعُ سقيمِ *

فالرُّداع هو الوجع فى الجسد ؛ فكأنه أراد أنها منقبضة منكسرة من الحياء كالسقيم، أو يريد تغيّرَ لونها وصفرتَها[3] كما يتغير لون السقيم؛ ويجرى ذلك مجرى قول ليلى الأخيلية:

ومُخرَّقٍ عنهُ القَميصُ تخالُهُ ... بَينَ البُيُوتِ من الحَيَاءِ سقيما[4]

* * *

أخبرنا المرزبانىّ قال حدّثنا أبو عبدالله الحكيمىّ قال حدثنى ميمون بن هارون الكاتب قال: حدثنا ابن أخى الأصمعىّ عن عمه قال : لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مكان ، فأرشدنى وأنشدنى :

---

(١) البيت لكثير ؛ وهو فى ديوانه ١ : ٩١ .

(٢) ساقطة من م .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « صفرته » . (٤) من أبيات فى الحماسة ــ بشرح التبريزى ٤ : ١٥٥ ؛ والعينى ٢ : ٤٧ ، وأمالى القالى ١ : ٢٤٨ وفى م بعد هذا البيت :

حتّى إذا خَفَقَ اللواءُ رأيتَه ... تحتَ اللواء على الخميس زَعيما

لَيسَ العمى طُولَ السُّؤالِ وَإنما   تمامُ العمى طُولُ السُّكوتِ على الجَهلِ

ثم رجعتُ إلى البصرة فمكثت بها حيناً ، ثم قدمت البادية ، فإذا بالأعرابيِّ جالساً بين ظهرانَي قوم ؛ وهو يقضي بينهم ، فما رأيت قضية أخطأتْ قضيةَ الصالحين من قضيته ؛ فجلست إليه ، فقلت : ويحك! الله أما من رشوة ؟ أما من هدية ؟ أما من صلة ؟ فقال: لا إذا جاء هذا ذهبَ التوفيق ؛ فشكوتُ إليه ما ألقى من عذلْ حليلة لي إياي في طلب المعيشة ، فقال : لستَ فيها بأوحَد ، وإني لشريكك ، ولقد قلت في ذلك شعراً ، فقلت : أنشدْنيه ، فأنشدني :

[١٦٧ ظ] / باتتْ تُعيِّرني الإقتارَ وَالعَدَما   لمّا رأتْ لأخيها المالَ والخدَما
عُنْفٌ لرأيكِ! ماالأرزاقُ مِنْ جَلَدٍ   وَلَا مِنَ العَجْزِ؛ بَلْ مَقْسُومَةٌ قِسما
يا أمةَ اللهِ إنّي لم أدعْ طلباً   للرزقِ ـ قدْ تعلمينَ ـ الشرقَ وَالشأما
وكلّ[(١)] ذلكَ بالإجمالِ في طلبٍ   لَمْ أزدِ عِرضاً، وَلَمْ أسفِكْ لِذاكَ دَما
لوْ كانَ مِنْ جَلَدٍ ذا المالُ أوْ أدبٍ   لكُنْتُ أكثرَ مِنْ نَمْلِ القُرَى نَعَما
ارضَيْ مِنَ العَيشَ مالمْ تُحوِجي معهُ   أنْ تفتحي لِسُؤالِ الأغنياءِ فَمَا
وَاستَشْعِري الصَّبرَ عَلَّ اللهَ خالقَنا   يوْماً سيكشِفُ عنّا الفقرَ والعدَما[(٢)]
لاتُحْوِجِيني[(٣)] إلى مالوْ بذلْتُ لهُ   نفسي لأعقبكِ التَّهمامَ وَالنَّدما
باللهِ سَرَّكِ أنَّ اللهَ خوّلني   ما كانَ خَوَّلهُ الأعرابَ والعجما
ماسرّني أنني خُوِّلتُ ذاكَ وَلَا   إلاّ أقولَ لِباغي حاجةٍ نَعَما
وَأنني لَمْ أحُزْ[(٤)] عقلاً وَلَا أدباً   وَلَمْ أرِثْ وَالدِي مَجْدًا وَلا كَرَما
فَمَسَرَّةُ المرءِ[(٥)] أحرى في مَعاشِكِ مِنْ   أمرٍ يجرُّ عليكِ الهمَّ وَالألما

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « فكل » .   (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « الضر والعدما » .   (٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « لاتحوجنى » مع نون التوكيد

(٤) حاشيتي الأصل (من نسخة) : « لم أفد عقلا » .   (٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « فمسرة المال » .

قال : فوالله ماأنشدنيها حتى حلفتُ ألا تمذِلنى أبداً .

* * *

حدثنا علىّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال : رأيت بقُباء شاباً من بنى عامر ؛ فما رأيت بدوياً أفصحَ منه ، ولا أظرف ؛ فوالله لكأنه شُوَاظٌ يتلظّى ، فاستنشدته فأنشدنى :

فَلَمْ أَنْسَكُمْ يومَ اللِّوى إذْ تعرّضتْ لنا أمُّ طِفْلٍ خاذِلًا قَدْ تخلّتِ(١)
وقالتْ سأُنْسِيكَ العَشِيَّةَ مامَضَى وَأَصْرِفُ مِنْكَ النَّفْسَ عمّا أَجَنّتِ(٢)
فما(٣) فَعَلَتْ ـ لَا وَالَّذِى أنا عَبْدُهُ ـ على مابدَا مِنْ حُسْنِها إِذْ أَدلّتِ
أَبَتْ سابِقاتُ الحُبِّ إلاّ مَقَرَّها إِليكِ ، وَما تُثْنَى إِذا مااسْتَقرَّتِ
هَوَاكِ الَّذِى فى النَّفْسِ أمْسَى دَخيلَها عليهِ انْطوَتْ أحْشاؤها وَاسْتمرّتِ

وأنشدنى أيضاً :

دِيارٌ لِلَّتى طَرَقَتْكَ وَهْناً بَرَيَّا رَوْضَةٍ وَذَكاءِ رَنْدِ(٤)
تُسَائِلُنى وَأَصحابِى هُجُودٌ وَتَثْنِى عِطْفَهَا مِنْ غَيْرِ صَدِّ
فَلَمّا أَنْ شَكَوْتُ الحُبَّ قالَتْ: فإِنِّى فَوْقَ وَجْدِكَ كانَ وَجْدِى
وَلَكِنْ حالَ دُونَكَ ذُو شَذَاةٍ أَسَرُّ بِفَقْدِهِ وَيَبِرُّ فقدى(٥)

* * *

وبهذا الإسناد عن الأصمعىّ قال : قعدت إلى أعرابىّ يقال له إسماعيل بن عمار ، وإذا هو يفتِل أصابعه ويتلهف ، فقلت له : عَلامَ تتلهف ؟ فأنشأ يقول :

عَيْنَاىَ مَشْئومَتانِ وَيْحَهُمَا ! وَالقَلْبُ حَيْرَانُ(٦) مُبْتَلًى بِهِما

---

(١) الخاذل من الظباء : التى تتخلف عن صواحبها. (٢) حاشية الأصل : « أى أصرف نفسى عنك عما أجنته ». (٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « فلا فعلت ».

(٤) الدهن : الليل ساعة يدبر . والرند : شجر طيب الرائحة .

(٥) الشذاة : الحدة ، ويبر : يكره . (٦) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « حران » .

عرّفتاهُ الهوى بظلمهما يا ليتني قبلها عدِمْتُهما
هُما إلى الحَيْنِ قادَتا وَهُما دَلّ على ما أجنّ دمعُهما
سأعذُرُ القلبَ في هواهُ فما سبّبَ هذا البلاءَ غيرُهما

* * *

وبهذا[1] الإسناد عن الأصمعيّ قال : نزلتُ ذات ليلة في وادي بني العَنْبر ، وهو إذ ذاك مَعان[2] بأهله — أي آهل — فإذا فتيةٌ يريدون البَصْرة ؛ فأحببتُ صحبتَهم، فأقمتُ ليلتي تلك عليهم ؛ وإنّي لَوَصِبٌ محموم ؛ أخاف ألّا أستمسِك على راحلتي ؛ فلمّا أقاموا ليرحلوا أيقظوني ؛ فلما رأَوْا حالي رحلوا وحملوني ؛ وركب أحدُهم ورائي يُمسِكُني ؛ فلما أمْعَنَ السيرُ تنادوا ألا فتًى يحدُو بنا أو يُنْشِدنا ! فإذا منشد في سواد الليل بصوتٍ نَدٍ حزينٍ يُنْشِد :

لَعَمْرُكَ إنّي يومَ بانوا فلم أمُتْ خُفاتًا على آثارِهِمْ لَصَبُورُ
غَداةَ المُنَقّى إذْ رَمَيْتُ بِنظْرَةٍ وَنحْنُ على مَتْنِ الطّريقِ نَسيرُ[3]
فَقُلْتُ لِقَلْبي حِينَ خَفّ به الهوَى وَكادَ مِنَ الوَجْدِ المُثِنّ يَطيرُ[4]
فَهذا ولَمّا تَمضِ لِلْبَيْنِ لَيْلَةٌ فَكَيْفَ إذا مَرّتْ عَلَيْهِ شُهُورُ
[١٦٨] /وَأصْبَحَ أعْلامُ الأحِبّةِ دُونَها مِنَ الأرْضِ غَوْلٌ نازِحٌ وَمَسيرُ
وَأصْبَحْتُ نَجْدِيَّ الهوَى مِنْهُم النّوَى أُزِيدُ اشْتِياقًا أنْ يَحِنّ بَعِيرُ
عسَى اللهُ بعدَ النّأيِ أنْ يُسْعِفَ النّوَى وَيُجْمَعَ شَمْلٌ بَعْدَها وَسُرُورُ

قال : فسكنتْ والله الحمّى عنّي ، حتى ما أحسّ بها ، فقلت لرفيقي : انزِلْ رحمك الله إلى راحلتك، فإني متماسك ؛ وجزاك الله عن حُسْنِ الصُّحبة خيراً .

* * *

---

(١) الخبر والأبيات في حماسة ابن الشجري ١٦١–١٦٢ بروايته عن ابن قدامة عن المرتضى ، وهو أيضا في أمالي القالي ٢ : ٢٦٧ بروايته عن ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه .

(٢) في ابن الشجري : «مغان آهلة». (٣) المنقى : موضع بين أحد والمدينة .

(٤) المُثِنّ : اللازم المقيم ، وفي س : «المبر» .

عَرَّفْتَاهُ الْهَوَى بِظُلْمِهِمَا يَا لَيْتَنِي قَبْلَهَا عَدِمْتُهُمَا
هُمَا إِلَى الْحَيْنِ قَادَتَا وَهُمَا دَلَّ عَلَى مَا أُجِنُّ دَمْعُهُمَا
سَأَعْذُرُ الْقَلْبَ فِي هَوَاهُ فَمَا سَبَّبَ هَذَا الْبَلَاءَ غَيْرُهُمَا

* * *

وبهذا[(١)] الإسنادِ عن الأصمعيّ قال : نزلتُ ذاتَ ليلة في وادي بني العَنبر ، وهو إذ ذاك مَمان[(٢)] بأهله — أي آهل — فإذا فتيةٌ يريدون البَصْرة ؛ فأحببتُ صحبتَهم، فأقمتُ ليلتي تلك عليهم ؛ وإنِّي لَوَصِبٌ محموم ؛ أخاف ألاّ أستمسِك على راحلتي ؛ فلمّا أقاموا ليرحلوا أيقظوني ؛ فلما رأَوْا حالي رحلوا وحملوني ؛ وركب أحدُهم ورائي يُمسِكُني ؛ فلما أمعَنَ السيرُ تنادوا ألا فتًى يحدُو بنا أو يُنشِدنا ! فإذا منشد في سواد الليل بصوتٍ نَدٍ حزينٍ يُنْشِد :

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ بَانُوا فَلَمْ أَمُتْ خُفَاتًا عَلَى آثَارِهِمْ لَصَبُورُ
غَدَاةَ الْمُنَقَّى إِذْ رَمَيْتُ بِنَظْرَةٍ وَنَحْنُ عَلَى مَتْنِ الطَّرِيقِ نَسِيرُ[(٣)]
فَقُلْتُ لِقَلْبِي حِينَ خَفَّ بِهِ الْهَوَى وَكَادَ مِنَ الْوَجْدِ الْمُثِنِّ يَطِيرُ[(٤)]
فَهَذَا وَلَمَّا تَمْضِ لِلْبَيْنِ لَيْلَةٌ فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْهِ شُهُورُ
[١٦٨] / وَأَصْبَحَ أَعْلَامُ الْأُحَيَّةِ دُونَهَا مِنَ الْأَرْضِ غَوْلٌ نَازِحٌ وَمَسِيرُ
وَأَصْبَحْتُ نَجْدِيَّ الْهَوَى مُتْهِمَ النَّوَى أَزِيدُ اشْتِيَاقًا أَنْ يَحِنَّ بَعِيرُ
عَسَى اللهُ بَعْدَ النَّأْيِ أَنْ يُسْعِفَ النَّوَى وَيُجْمَعَ شَمْلٌ بَعْدَهَا وَسُرُورُ

قال : فسكنتْ والله الحمَّى عنّي ، حتى ما أحسُّ بها ، فقلت لرفيقي : انزِلْ رحمك الله إلى راحلتك، فإني متماسك ؛ وجزاك الله عن حُسنِ الصُّحبة خيراً .

* * *

---

(١) الخبر والأبيات في حماسة ابن الشجري ١٦١—١٦٢ بروايته عن ابن قدامة عن المرتضى ، وهو أيضا في أمالي القالي ٢ : ٢٦٧ براويته عن ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه .

(٢) في ابن الشجري : «مغان آهلة» . (٣) المنقى : موضع بين أحد والمدينة .

(٤) المثن : اللازم المقيم ، وفي س : «المبر» .

أخبرنا المرزبانيّ قال حدثنا محمد بن العباس قال حدثنا محمد بن يزيد النحويّ قال حدّثني بعض أصحابنا عن الأصمعيّ قال: كان[1] بالبصرة أعرابيّ من بني تميم؛ يتطفّل على الناس، فعاتبته على ذلك فقال: والله ما بُنِيَتِ المنازل إلاّ لتُدخَل، ولا وُضِع الطعام إلاّ ليؤكل؛ وما قدّمتُ هدية فأتوقّع رسولا؛ وما أكره أن أكون ثِقلاً ثقيلا على مَن أراه شحيحاً بخيلا؛ أتقحم عليه مستأنسا، فأضحك إن رأيته عابساً، فآكل برُغمه، وأدعُه بغمّه؛ وما اخترق اللهواتِ طعامٌ أطيبُ من طعام لا ينفق فيه درهم، ولا يعنّى إليه خادم، ثمّ أنشد:

كُلَّ يومٍ أدُورُ في عَرْصَةِ الحَيْ ... يِ أشمُّ القُتارَ شَمَّ الذُّبابِ[2]

فإذا ما رأيتُ آثارَ عُرْسٍ ... أو خِتانٍ أو مَجْمَعَ الأصحابِ[3]

لم أروِّعْ دُونَ التقحُّمِ لا أرْ ... هَبُ دَفعاً ولَكْزَةَ البَوّابِ[4]

مُستَهيناً بما هَجَمْتُ عَلَيْهِ ... غَيْرَ مُسْتَأذِنٍ، وَلا هَيّابِ

فَتراني ألُفُّ بالرغم منهم ... كلَّ ما قدموه لفَّ العُقابِ[5]

ذاكَ أدنى مِنَ التَّكلُّفِ والغُرْ ... مِ وغَيظِ البَقّالِ والقصّابِ[6]

---

(١) الخبر في التطفيل للخطيب البغدادي ٧٣ — ٧٤ يرويه عن الحسن بن أبي القاسم عن أبي الفرج عن جعفر بن قدامة عن أبي عثمان.

(٢) في التطفيل: «عرصة الباب»، ومن نسخة بحاشيتي الأصل، ف: «شم الذباب».

(٣) في التطفيل: «أو دعوة لصحاب».

(٤) من نسخة بحاشيتي الأصل، ف: «لم أورع»، ورواية الخطيب في هذا البيت وتاليه:

لم أعرِّجْ دونَ التقحُّمِ فيها ... غير مستأذنٍ ولا هيّابِ

مستخفّاً بمن دخلتُ عليهِ ... لستُ أخشى تجهُّمَ البوّابِ

(٥) رواية البيت في حاشيتي الأصل (من نسخة):

فتراني ألفّ ما قدّم القو ... مُ على رغمهم كلفّ العُقابِ

(٦) زاد الخطيب بعد هذا البيت:

قابلٌ إن جرى عليّ امتهانٌ ... في سبيل الحلواء والجوذابِ

٣٨

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾؛ [هود: ٤٥، ٤٦].

[١٦٩ و] فقال: ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ يقتضى تكذيب / قوله: ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ والنبيّ لا يجوزُ عليه الكذب ، فما الوجه فى ذلك ؟ وكيف يصحّ أن يخبر عن ابنه بأنه ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾؟ وما المراد به ؟

الجواب ، قلنا: فى هذه الآية وجوه:

أولها أن نفيَه لأن يكون مِن أهله لم يتناول نفىَ النَّسب ، وإنما نَفى أن يكون من أهله الذين وعده الله بنجاتهم؛ لأنه عزّ وجل كان وعد نوحاً عليه السلام بأن ينجّىَ أهلَه، ألا ترى إلى قوله: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠] ، فاستثنى تعالى مِن أهله مَنْ أراد إهلاكه بالغرق! ويدل عليه أيضا قول نوح: ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ ، وعلى هذا الوجه يتطابق الأمران[1] ولا يتنافيان؛ وقد رُوِى هذا التأويل بعينه عن ابن عباس وجماعة من المفسرين.

والجواب الثانى ، أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى أنه ليس على دينك؛ وأراد تعالى أنه كان كافرا مخالفاً لأبيه؛ فكأنّ كفره أخرجه عن أن يكون له أحكام

(١) حاشية ف (من نسخة) : « الخبران ».

أهله؛ ويشهد لهذا التأويل قوله عزّ وجل على طريق التعليل: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾، فبيّن أنه إنما خرج عن أحكام أهله لكفره وسيّء عمله ، وقد روى هذا التأويل أيضا عن جماعة من المفسرين ؛ وحُكِيَ عن ابن جُرَيج أنه سئلَ عن ابن نوح فسبّح طويلاً ثم قال لا إله إلا الله ! يقول الله : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾؛ وتقول: ليس منه ! ولكنه خالفه في العمل فليس منه مَنْ لم يؤمن .

وروى عن عِكرمة أنه قال : كان ابنَه ولكنْ كان مخالفاً له في النية والعمل ؛ فمن ثمّ قيل : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ .

والوجهُ الثالث أنه لم يكن ابنه على الحقيقة ؛ وإنما وُلِدَ على فِراشه ، فقال عليه السلام: إنه ابني على ظاهر الأمر ؛ فأعلمه الله إن الأمر بخلاف الظاهر ، ونبهه على خيانة امرأته ؛ وليس في ذلك تكذيب لخبره ، لأنه إنما أخبر عن ظنه ، وعمّا يقتضيه الحكم الشرعيّ ، فأخبره الله تعالى بالغيب الذي لا يعلمه غيره ؛ وقد رُوِي هذا الوجه عن الحسن وغيره .

وروَى قتادة عن الحسن قال : كنتُ عنده ؛ فقال : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ لَعَمْرُ الله ماهو ابنَه ، قال : فقلت : يا أبا سعيد؛ يقول الله: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ وتقول: ليس بابنه! قال : أفرأيت قوله : ﴿ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ؟ قال : قلت معناه : / [١٦٩ ظ] ليس من أهلك الذين وعدتُك أن أنجيَهم معك، ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه، فقال: أهل الكتاب يكذِبون؛ وروِى عن مجاهد وابنُ جُريج مثل ذلك .

وهذا الوجه يبعد إذ فيه منافاة للقرآن؛ لأنه تعالى قال: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾، فأطلق عليه اسم البنوّة ؛ ولأنه أيضا استثناه من جملة أهله بقوله تعالى : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ ؛ ولأنّ الأنبياء عليهم السلام يجب أن يُنزّهوا عن مثل هذه الحال؛ لأنها تعرّ وتَشِين وتَغُضّ من القدر ؛ وقد جنّب الله تعالى أنبياءه عليهم السلام ما هو دون ذلك ؛ تعظيما لهم وتوقيرا ، ونفياً لكل ما ينفّر عن القبول منهم ؛ وقد حمل ابن عباس ظهور ما ذكرناه من الدّلالة على أنّ تأوّل قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ على أن الخيانة

لم تكن منهما بالزِّنا، بل كانت إحداهما تخبر الناس بأنه مجنون؛ والأخرى تدل على الأضياف؛ والمعتمد في تأويل الآية هو الوجهان المتقدمان .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ فالقراءة المشهورة بالرفع ، وقد رُوِي عن جماعة من المتقدمين أنهم قرءوا : ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ ﴾ بنصب اللام وكسر الميم ونصب «غير» ؛ ولكلٍّ وجه .

فأما الوجه في الرفع فيكون على تقديرِ أن ابنك ذو عملٍ غيرِ صالحٍ ؛ وصاحب عمل غير صالح ؛ فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ؛ وقد استشهد على ذلك بقول الخنساء :

ما أمُّ سَقْبٍ على بَوٍّ تُطيفُ بهِ ... قد ساعدتْها على التَّحْنانِ أظآرُ[1]
تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتى إذا ذَكَرَتْ ... فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ[2]

أرادت إنما هي ذات إقبال وإدبار .

وقال قوم: إن المعنى أن ابنك هذا الذي وُلِدَ على فراشك وليس بابنك في الحقيقة[3] عمل غير صالح ، يعني الخيانة من امرأته ، وهذا جواب مَن ذهب إلى أنه لم يكن ابنه على الحقيقة[3] والذي اخترناه خلاف ذلك .

وقال آخرون إن الهاء في قوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ راجعة إلى السؤال؛ والمعنى:

---

(١) ديوانها : ٧٨ ؛ وروايته :

فما عجولٌ عَلَى بَوٍّ تُطيفُ بهِ ... لها حنينان : إصغارٌ وإكبارُ

والسقب : الذكر من ولد الناقة . والبو : أن ينحر ولد الناقة ويؤخذ جلده فيحشى ويدنى من أمه فترأمه والتحنان : الحنين . والأظآر : جمع ظئر ؛ وهي التي تعطف على ولد غيرها .

(٢) بعدها :

لا تَسْمَنُ الدَّهرَ في أرضٍ وإن رُبِعَتْ ... فإنما هِيَ تَحْنانٌ وتَسْجارُ
يوماً بأوجَدَ مِنّي يومَ فارقني ... صَخْرٌ ، وللدَّهرِ إحلاءٌ وإمرارُ

(٣-٣) ساقط من م .

إن سؤالك إياى ما ليس لك به علم عملٌ غير صالح لأنه قدوقع من نوح دليل[١] السؤال والرغبة فى قوله: ﴿ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي وإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ / ومعنى ذلك أى نجّه كما نجيتهم، ومن [١٧٠ و] يجيب بهذا الجواب يقول : إن ذلك صغيرة من النبي ؛ لأن الصغائر تجوز عليهم ، ومن يمنع أن يقع[٢] من الأنبياء شىء من القبائح يدفع هذا الجواب ؛ ولا يجعل الهاء راجعة إلى السؤال بل إلى الابن ، ويكون تقدير الكلام ما تقدم .

فإذا قيل له: فلِمَ قال: ﴿ فَلاَ تَسأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؟ وكيف قال نوح عليه السلام من بعد: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ؟ .

قال : لا يمتنع أنْ يكون نُهِيَ عن سؤالٍ ما ليس له به علم ؛ وإن لم يقع منه وأن يكون تعوّد من ذلك وإن لم يواقعه ؛ ألا ترى أن الله قد نهى نبيه عن الشِّرْك والكفر ؛ وإن لم يكن ذلك قد وقع منه ؛ فقال: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ؛ [الزمر : ٦٥] ، وكذلك لا يمتنع أن يكون نَهاه فى هذا الموضع عمّا لم يقع منه، ويكون عليه السلام إنما سأله نجاةَ ابنه باشتراط المصلحة لا على سبيل القطع ؛ وهكذا يجب فى مثل هذا الدعاء .

فأما القراءة بنصب اللام فقد ضعّفها قوم وقالوا : كان يجب أن يقال : إنه عمل عملا غير صالح ؛ لأن العرب لا تكاد تقول هو يعمل غير حسن ، حتى يقولوا: عملا غير حسن ، وليس وجهها بضعيف فى العربية ؛ لأنَّ مِن مذهبهم الظاهر إقامة الصفة مقام الموصوف عند انكشاف المعنى وزوال اللبس ؛ فيقول القائل: قد فعلتُ صواباً، وقلت حَسناً ، بمعنى فعلت فعلا صواباً وقلت قولا حسناً ؛ وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومىّ :

أيُّها القائل غيرَ الصوابِ أخِّرِ النُّصْحَ وأقلِلْ عِتابى[٣]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « دليل فى السؤال » ، وحاشية ف من نسخة : « دليل على السؤال » . (٢) ف : « على الأنبياء » . (٣) ديوانه : ٤٢٥ .

وقال أيضاً :

وكَمْ مِنْ قَتِيلٍ ما يُباءُ بهِ دَمٌ ... وَمِنْ غَلِقٍ رهن إذَا لَفَّهُ مِنى (١)

وَمِنْ مالئٍ عَيْنَيْهِ مِن شىء غَيْرِهِ ... إذا رَاحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ البِيضُ كالدُّمى (٢)

أراد : وكم إنسان قتيل ! وأنشد أبو عبيدة لرجل من بَجيلة :

كَم مِن ضَعِيفِ العَقْلِ مُنْتَكِثِ القُوَى ... ما إنْ لهُ نَقْضٌ وَلاَ إبرامُ

[١٧٠ ظ] / مالَتْ لهُ الدُّنيَا عليهِ بأسرِها ... فَعَلَيْهِ مِنْ رِزْقِ الإلهِ رُكامُ

وَمُشَيَّعٍ جلْدٍ أمِينٍ حازِمٍ ... مَرِسٍ لهُ فِيما يَرُومُ مَرَامُ

أعْمَى عليْهِ سَبِيلَهُ (٣) فكَأنَّهُ ... فِيما يُحاوِلُهُ عَلَيْـهِ حَرَامُ

أراد : كم من إنسان ضعيف القوى .

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال أخبرني محمد بن العباس اليزيديّ قال حدثنا ميمون بن هارون قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم الموصليّ قال : كان محمد بن منصور بن زياد الملقّب بفتى العسكر يميل إلى الأصمعيّ ويفضّله ، ويقوم بأمره قال : فجئته يوماً بعد موت محمد ، وعنده عبدٌ كان لمحمد أسود ، وقد تركَ الناسَ ، وأقبل عليه وساءله وتحفّى به وحادثه ، فلما خرج لُمتُه على ذلك وقلت : مَنْ هذا حتى أفنيتَ عمر يومك به ؟ فقال : هذا غلام ابن منصور ، ثم أنشدني :

وَقالُوا يا جَميلُ أتَى أخُـوها ... فقُلْتُ : أتَى الْحَبِيبُ أخُو الْحَبِيبِ (٤)

---

(١) ديوانه : ٤٠١ : لايباء به دم ، أى ليس من يكافئه فيقتل به . وغلق الرهن إذا صار لاسبيل إلى فكاكه ، وفى حاشية ف (من نسخة) : « ومن غلق رهنا إذا ضمه » .

(٢) حاشية ف (من نسخة) :

* إذا راح نحو الحيرة البيضُ كالدُّمى *

(٣) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « سبيله » بضم اللام .

(٤) حاشية ف : « صفة الحبيب » ، أى الذى هو أخو الحبيب .

أُحِبُّكَ والقَرِيبُ بنا بَعِيـــدٌ   لأَنْ ناسبتَ بَثْنَةَ من قَرِيبِ

فقلت له ـ وكنت أفعل هذا كثيراً به لأَستجرّ كلامه وعِلْمه ـ : ياأباسعيد، ذاك أخوها، وهذا غلامها[1] فضحك، وقال : أنشد أبو عمرو ـ أو قال غيره :

أرَى كلَّ أرضٍ[2] أوطَنَتْها وإن خلتْ   لَما حِجَجٌ تَنْدَى بِمِسْكٍ تُرَابُها

وأُقسِمُ لوَ أنّي أرَى تَبَماً لها[3]   ذِئابَ الغضى حُبّتْ إليَّ ذِئابها

قال : فجعلت أعجب من قرب لسانه من قلبه وإجادة حفظه له متى أراده .

***

وبهذا الإسناد عن إسحاق الموصليّ قال قرأت على الأصمعيّ شعرَ امرئ القيس ، فلما بلغت إلى هذا البيت :

أَمِنْ أجْلِ أعرابيةٍ حلّ أهلُها   بِرَوْضِ الشَّرَى عيناكَ تبتدِرَانِ![4]

فقال لي أتعرف في هذا البيت خبئاً باطناً غيرِ ظاهرٍ ؟ قلت : لا ، فسكت عنّي، فقلت : إن كان فيه شيء فأفدنيه، فقال : نعم ، أما يدلّكَ البيت على أنه لفظ مَلِكٍ مُستهينٍ ذِي قدرة على مايريد ؟ / قال إسحاق : وما رأيت قطّ مثل الأصمعيّ بالعلم بالشعر . [١٧١ و]

---

(١) من نسخة بحاشية الأصل : « غلامة » .   (٢) ف : « كل دار » .

(٣) حاشية الأصل من نسخة : « حلفتُ لو أني » ، ومن نسخة أخرى : « حانت إلي » ، ومن نسخة أخرى :

* حَلَفْتُ بأني لو أرى تبعا لهـا *

(٤) ديوانه : ١٢٤ ؛ وروايته :

أَمِنْ ذِكْرِ نبهانيّةٍ حَلَّ أَهْلُهَا   بجزع الملا عيناك تبتدران !

قال شارحه : « نبهانية : امرأة من نبهان ، ونبهان من طيّ » ، وكان امرؤ القيس نازلا فيهم ثم ارتحل عنهم ، والجزع : منعطف الوادي ، والملا : ماستوى من الأرض ؛ ومعنى تبتدران تستبقان بالدمع ؛ أي أنه لما أبدع به الشوق وغلبه البكاء لام نفسه على ذلك . وفي حاشية الأصل : « قبله :

فدمعهما سَحٌّ وسَكْبٌ وديمةٌ   ورشٌّ وتَوْكافٌ وتَنْهَمِلان

وروى عن إسحاق أيضا أنه قال : قال لى الأصمعىّ : ما يعنى امرؤ القيس بقوله :

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طرَقتُ ومُرْضِعٍ ... فألهيْتُها عن ذِى تمائمَ مُحْوِلِ (١)

فقلت : تخبرنى ، فقال : كان مفرّكا (٢) فيقول : ألهيتُ هؤلاء عن كراهتهنّ للرجال ، فكيف أنا عند المحبات لهم .

* * *

وروى أنّ السبب الذى هاج التنافرَ بين الأصمعىّ وابن الأعرابىّ أنّ الأصمعىّ دخل ذات يوم على سعيد بن سلم وابن الأعرابىّ حينئذ يؤدب ولده ـ فقال لبعضهم : أنشدْ أبا سعيد ، فأنشد الغلام أبياتا لرجل من بنى كلاب ، روّاه إياها ابن الأعرابىّ ، وهى :

رأَتْ نِضْوَ أَسْفارٍ أُمَيْمَةُ قاعداً ... على نِضْوِ أسفارٍ فجُنّ جُنونُها (٣)

فقالت : مِن اىّ الناس أنتَ ومَن تكُن ؟ ... فإنّكَ راعِى صِرْمَةٍ لا يَزِينُها (٤)

فقُلْتُ لها : ليس الشُّحوبُ على الفَتَى ... بعارٍ ، ولا خَيرُ الرِّجالِ سَمينُها

عَلَيْكِ بِراعِى ثَلَّةٍ مُسْلَحِبَّةٍ ... يَرُوحُ عَلَيْها مَحْضُها وحَقينُها (٥)

---

(١) ديوانه : ٢٤ . وفى حاشية الأصل . « روى أن النبى صلى الله عليه وآله استنشد هذه القصيدة ، فلما سمع البيت الذى قبله هذا قال : لاتنشد البيت الذى بعده ، وهذا دليل على أنه عليه السلام كان يعرف الشعر . ولما سمع قوله :

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ *

قال : وقف واستوقف ، وبكى وأبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى نصف بيت ؛ فقالوا : يارسول الله ؛ فديناك ! أنت فى هذا النقد أشعر منه » .   (٢) المفرك : الذى تبغضه النساء .

(٣) الخبر بتمامة فى اللسان (ضحا) ، والمزهر ٢ : ٣٧٩ ، والمجالس المذكورة للعلماء ٩ ، وإنباه الرواة ٣ : ١٣٣ـ١٣٤ ؛ والأبيات وردت متفرقة فى اللسان (ضحا ، جنن ، حقن ، نعم) . النضو : الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها . وفى اللسان : « أميمة شاحبا » .

(٤) الصرمة : القطعة من الإبل ؛ مابين العشرين إلى الثلاثين . ورواية اللسان :

* فإنّكَ مَوْلَى أُسْرَةٍ لايدينُها *

(٥) الثلة ، بالفتح : جماعة الغنم . والمسلحبة : الممتدة ؛ وأصله فى الطريق . والمحض : اللبن الخالص ، والحقين : اللبن الحبيس فى الوطب ؛ وقد ورد البيت فى اللسان (حقن) ونسبه للمخبل ، والرواية فيه :

وفى إبلٍ سِتّينَ حَسْبُ ظَمينةٍ ... يَروحُ عليها مَحْضُها وحَقينُها

وفى حاشية الأصل : « أى لست بالراعى فاطلبى غيرى لو كنت تطلبين راعيا » .

سَمِينُ الضَّواحى لم تُؤَرِّقْهُ ليلةً   وأَنْعَمَ أبكارُ الهُمومِ وعُونُها

ورفع «ليلة» فقال الأصمعىّ : مَن روّاك هذا؟ فقال مؤدبى؛ فأحضره فاستنشده فأنشده، ورفع «ليلة» ، فأخذ ذلك عليه ؛ وفسر البيت فقال : إنما أراد : لمْ تُؤَرِّقه ليلةً أبكار الهموم وعونها، وأنعم ، أى زاد على هذه الصفة .

وقوله : « سَمِين الضواحى » أى ما ظهر منه وبدا سمين ، ثم قال الأصمعى لابن سلْم : مَن لم يُحسنْ هذا المقدار فليس موضعاً لتأديب ولد الملوك .

* * *

وأخبرنا المرزبانىّ قال : حدثنا أحمد بن المكىّ قال حدثنا أبو العيناء قال حدثنا الأصمعىّ قال : وُلِدَ بشّار بن برْد أكْمَه لم ينظر إلى الدنيا قطّ ــ وكان ذا فطنة ــ فقلت له يوماً: من أين لك هذا الذكاء؟ قال: من قِدَمِ العَمَى؛ وعدمُ النواظر يمنع من كثير من الخواطر المذهلة فيكسب فراغ الذهن ؛ وصحة الذكاء، وأنشد لنفسه يفخر بالعَمَى :

[١٢١ ظ] /عَميتُ جَنِيناً والذكاء من العَمَى   فجئتُ عَجيبَ الظَّنِّ للعِلمِ مَوْئلا[1]
وَغاضَ ضياءُ العَينِ للعَقْلِ رافِداً   بِقَلْبٍ إذا ما ضَيَّعَ الناسُ حَصَّلا
وَشِعْرٍ كنَوْرِ الرَّوضِ لاأَمْتَ بَيْنَه   بقَوْلٍ إذا ما أَحْزَنَ الشِّعْرُ أَسْهَلا

* * *

وأخبرنا المرزبانىّ قال أخبرنا محمد بن العباس اليزيدىّ قال حدثنا أبو العيناء قال حدثنا الأصمعىّ قال : أنشد رجل وأنا حاضر بشاراً قول الشاعر :

وقَدْ جَعَلَ الأعداءُ يَنْتَقِصونَنا   وتَطْمَعُ فينا ألسنٌ وعيُونُ[2]
ألاَ إنما لَيْلَى عصا خَيْزُرانةٍ   إذَا غَمَزُوها بالأكُفِّ تَلِينُ

فقال بشار : والله لو جعلها عصا مخ أو زُبْدٍ لما كان إلاّ مخطئاً مع ذكر العصا! ألا قال كما قلت :

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٣ .   (١) الخبر والأبيات فى أمالى الزجاجى: ١٣٦ .

وحَوْراءِ الدامعِ من مَعَدٍّ كأنَّ حَدِيثَها قِطَعُ الجِنانِ
إذَا قامتْ لسُبْحَتِها تَثَنَّتْ كأنَّ قَوامَها من خَيْزُرانِ
يُنَسِّيكَ المُنى نَظَرٌ إِلَيْها وَيَصْرِفُ وَجْهَها وَجْهُ الزمانِ

* * *

وأخبرنا المرزبانىّ قال حدثنا علىّ بن أبى عبــد الله الفارسىّ قال حدثنى أبى عن عمر بن شبة قال قال لى أبو عبيدة : رحلَ بشار إلى الشام ، فمدح سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقيما بحرّان ، ؛ فقال قصيدة طويلة أوّلها :

نأتْـكَ على طولِ التَّجاوُرِ زَيْنَبُ وماعَلِمْتَ أنّ النَّوى سوفَ يَشْعَبُ(١)

وكان سليمان بخيلا فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ولم يصب غيرَها بعد أن طال مقامه، فقال:

إن أُمسِ مُنْقَبِضَ اليَدَيْنِ عن النَّدَى وَعن العَدُوِّ مُخَيَّسَ الشَّيطانِ(٢)
فلقَدْ أَرُوحُ على اللِّئامِ مُسَلَّطاً ثَلِجَ المَقيلِ(٣) مُنَعَّمَ النَّدْمانِ
فى ظِلِّ عَيْشٍ عَشِيرةٍ مَحْمُودَةٍ تَنْدَى يَدِى، ويخافُ فَرْطَ لِسانى
أَزْمانَ سِرْبالُ الشَّبابِ مُذَيَّلٌ وَإِذِ الأميرُ علَىَّ من جِيرانى
[١٧٢ و] /ورِيمٍ بأخْوِيَةِ العراقِ إذَا بدَا بَرَقَتْ عليهِ أَكِلَّةُ المَرْجانِ(٤)
فا كْحَلْ بعَبْدَةَ مُقْلَتَيْكَ من القَذَى وبوَشْكِ رُؤْيَتِها من الهَمَلانِ
فَلَقُرْبُ مَنْ تَهْوَى وأنت مُتَيَّمٌ أَشْفَى لِدائِكَ مِنْ بنى مَرْوانِ

فلما رجع إلى العراق بَرَّهُ ابن هبيرة ووصلَه ، وكان ابن هبيرة يقدّمه ويؤثره لمدحه قيساً وافتخاره بها ، فلما جاءت دولة خراسان عظم شأنه .

---

(١) الأغانى ٣ : ٥٦ ؛ ويشعب : يفرق، وبعده :

يرى الناسُ ماتلقى بزينب إذ نأتْ عجيبا ، وما تخفى بزينب أعجبُ

(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٣ : ٥٦ . ومن نسخة بحاشية الأصل : « مخيس الشيطان » .

(٣) م : « ثلج المقام » . (٤) أخوية جمع حواء ؛ والحواء : جماعة البيوت المتدانية .
والأكلة : جمع إكليل ؛ وهو التاج ؛ أو شبه عصابة تزين بالجواهر .

وأخبرنى المرزبانىّ قال حدثنا محمد بن أحمد الكاتب قال حدثنا أحمد بن يحيى النحوىّ قال قال الأصمعى : ما وصف أحدٌ الثَّغْرَ إلاّ احتاج إلى قول بشر بن أبى خازم :

يُفَلِّجْنَ الشِّفاهَ عن اقحُوانٍ ‏ ‏ ‏ جلاهُ غِبَّ ساريةٍ قِطَارُ

ولا وصف أحدٌ اللون بأحسن من قول عمر بن أبى ربيعة :

وَهْيَ مَكْنونة تَحَيَّرَ منها ‏ ‏ ‏ فى أديمِ الخدَّيْنِ ماءُ الشَّبابِ[(١)]

شَفَّ عنها محقَّقٌ جَنَدِيٌّ ‏ ‏ ‏ فَهْيَ كالشَّمسِ من خلالِ السَّحابِ[(٢)]

ولا وصف أحدٌ عينى امرأةٍ إلا احتاج إلى قول عدى بن الرِّقاع :

لوْلاَ الحَياءُ وَأَنَّ رأسيَ قد بَدَا ‏ ‏ ‏ فيهِ المَشِيبُ لَزُرْتُ أمَّ القاسِمِ[(٣)]

وكأنَّها وَسْطَ النِّساء أعارَها ‏ ‏ ‏ عَيْنَيْهِ أحْوَرُ من جآذِرِ جاسِمِ[(٤)]

وَسْنانُ أقْصَدَهُ النُّعاسُ فرنَّقَتْ ‏ ‏ ‏ فى عَينِه سِنَةٌ وليسَ بنائمِ[(٥)]

ولا وصف أحدٌ نجيباً إلا احتاج إلى قول حُميد بن ثور :

مُحلًّى بأطواقٍ عِتاقٍ يُبِينُها ‏ ‏ ‏ على الضُّرِّ رَاعِي الضَّأْنِ لو يتقوّفُ[(٦)]

ولا وصف أحد ظَلِيماً إلا احتاج إلى قول علقمة بن عبدة :

---

(١) ديوانه : ٤٢٣ . ‏ ‏ ‏ (٢) ثوب محقق محكم النسج ، وجند : بلد باليمن .

(٣) الشعر والشعراء ٦٠٢ ، واللآلئ ٤٢١ ، وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « قدنشا » ، ومن نسخة أخرى : « قد غشا » . ‏ ‏ ‏ (٤) الجآذر : جمع جؤذر ، بضم الذل وفتحها ، وهو ولد البقرة الوحشى . جاسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ . ‏ ‏ ‏ (٥) أقصده : صرعه . رنقت : خالطت ، والبيت أيضا فى اللسان (رنق) . ‏ ‏ ‏ (٦) ديوانه ١١١ ؛ وفى حاشيتى الأصل ، ف : « يصف بعيرا وحلى ؛ أى عليه نجار العتق ، وإذا رآه صاحب الضأن الذى لا بصيرة له عرف عتقه ونجابته على ما مسه من الضر . لم يتقوف ، من القيافة ، ويروى : « لو يتعيف » . شبه ما يبين من عتقه بأطوق تظهر لمن رآها ويروى : « يبينه » أى البعير ، وقبل هذا البيت :

فطرْتُ إلى عاري العظامِ كأنّهُ ‏ ‏ ‏ شقا ابن ثلاثٍ ظهره مُتَحَرِّفُ

طوتْهُ الفلاَ حتى كأنّ عِظامَهُ ‏ ‏ ‏ مآسير عيدانٍ تموج وتُرجِفُ

فثارَ وما يُغْنِي فويقَ عِظامِهِ ‏ ‏ ‏ برمٍ ولكِنْ عارفٌ مُتَكَلِّفُ =

هَيْقٌ كأنّ جناحَيْهِ وجُؤْجُؤَهُ ... بَيْتٌ أطَافَتْ بِهِ خَرْقاء مهجُومُ(١)

ولا اعتذر أحد إلا احتاج إلى قول النابغة :

[١٢٢ ظ] / فإنّكَ كاللّيلِ الذى هو مُدْرِكى ... وَإنْ خِلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ(٢)

قال سـيدنا أدام الله علوّه : أما قول حُميد بن ثور : « محلّى بأطواق عِتاق » فإنه يريد أن عليه نِجار الكرم والعِتق ، فصارت دلالتهما وسماتهما حِلية له من حيث كان موسوماً بهما .

ومعنى : « يبينها على الضراء » يتبينها ويعرفها هذا الراعى فيعلم أنه كريم ، والتوقّف : من القِيافة .

فأما قول علقمة «هَيْق...» فالهيق: ذكر النعام . ومعنى: «أطافت به خَرْقاء» ، أى عملته وابتنته، وقيل : إن خرقاء هاهنا هى الحاذقة، وأن هذه اللفظة تستعمل على طريق الأضداد فى الحاذقة وغير الحاذقة ، ومعنى « مهجوم » : أى مهدوم ، وقال الأصمعى: معنى «أطافتْ به» ، أى عملته فخرقت فى عمله ، يقول: قد أرسل جناحيه كأنه خباء امرأة خرقاء ، كلما رفعت ناحية استرخت أخرى ؛ والوجه الثانى أشبه وأملح .

فأما قول بِشر فى وصف الثغر فأحسن منه وأكشف وأشد استيفاء قول النابغة :

= قوله : « عارى العظام » أى بعير مهزول ، وشقا ابن ثلاث أى هلال ابن ثلاث . وماء أسير عيدان ويروى « ماء آسر عيدان » ، أى عيدان مأسورة مشدودة . والرم . المخ ، يريد أنه ليس يمشى برم ، أى ليس فى عظامه مخ ؛ ولكنه عارف ؛ أى معترف بالسير ، ذليل متكلف يتكلف السير على جهد » .

(١) حاشية الأصل : « هيق ، أى ظليم ، وهو اسم له ، والجؤجؤ : الصدر ؛ وأراد بالبيت بيتان الشعر أو الوبر . الخرقاء : المرأة التى ليست بصناع . ومهجوم : مصروع ساقط ، يقول : أتت البيت هذه الخرقاء لتصلحه فلم تحسن ، واستخرجت عيدانه وأطنابه ، فشبه الظليم به ، لاسترخاء جناحيه ونشره إياهما . وقال المازنى : إذا بنت الخرقاء بيتا انهدم سريعا . وقال غيره : خرقاء هنا : ريح لا تدوم على جهة واحدة » والبيت فى ديوانه ١٣٠ ، والمفضليات : ٤٠٠ ، (طبعة المعارف) وروايته فيهما :

(٢) ديوانه :

﴿ صَعْلٌ كأنّ جَناحَيْهِ وجُؤْجُؤَه ﴾

كالأُقحوانِ غداةَ غبِّ سمائهِ جفَّتْ أعاليهِ وأسفَلُه ندِ (١)

فإنما وصف أعاليَه بالجُفوف ؛ ليكونَ متفرقاً متنضِّداً غيرَ متلبِّدٍ ولا مجتمع ؛ فيشبه حينئذ الثغور ، ثم قال : « وأسفله ندِ » حتى لا يكون قَحْلاً يابساً ، بل يكون فيه الغضاضة والصَّقالة، فيشبه غروب الأسنان التي تلمع وتبرق .

وروى الرياشيّ قال : سمعت الأصمعيّ يقول : أحسنُ ما قيل في وصف الثَّغر قول ذي الرُّمة :

وتَجلُو بفَرْعٍ منْ أراكٍ كأنَّه من العَنْبَرِ الهِنْدِيّ وَالمسْكِ يُصْبَحُ (٢)

ذُرَا أُقْحوانٍ وَاجهَ الليلَ وارْتقَى إليهِ النَّدَى من رَامةَ المُتَرَوِّحُ (٣)

هِجَانِ الثَّنايا مُغْرَباً لو تبَسَّمتْ لأخْرَسَ عنه كادَ بالقولِ يُفْصِحُ (٤)

---

(١) ديوانه : ٣١ . الأقحوان : نبت له نوار أصفر ، حواليه ورق أبيض وفي حاشيتي الأصل ، ف : « ضمن العوام الحراني هذا البيت في هجو نجعله آبدة من الأوابد فقال :

ياسائلي عن جعفر ، علمِي به رَطْبُ العِجانِ وكفُّه كالجلمَدِ

كالأقحوان غداةَ غب سمائهِ جَفّتْ أعاليهِ وأسفله ندِ

والبيتان في خاص الخاص: ١٤٤ . (٢) ديوانه : ٨٣ . يصبح : يسق وقت الصباح .

(٣) في الديوان : « راحة الليل » ، بالرفع. رامة : رملة بعينها . المتروح: الذي جاء رواحا . وبعد هذا البيت في رواية الديوان :

تَحُفُّ بتُرْبِ الرَّوْضِ مِنْ كلِّ جانبٍ نسيمٌ كفأرِ المِسْكِ حِينَ يفتَّحُ

(٤) المغرب : الأبيض من كل شيء .

مجلس آخر ٣٩

تأويل آية

إن سأل سائل عن تأويل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ / الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ؛ [١٧٣ و]
[التوبة : ٥٥] .

فقال : كيف يعذبهم بالأموال والأولاد ، ومعلوم أن لهم فيها سروراً ولذة؟ وما تأويل قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وظاهرُه يقتضي أنه أرادَ كفرَهم من حيث أراد أن تزهق أنفسهم في حال كفرهم ، لأن القائل إذا قال : أريدُ أن يلقاني فلان وهو لابسٌ أو على صفة كذا وكذا ، فالظاهرُ أنه أرادَ كونه على تلك الصفة ؟

الجواب ، قلنا : أما التعذيب بالأموال والأولاد ففيه وُجوه :

أولها ما روى عن ابن عباس وقَتادة ، وهو أن يكون في الكلام تقديم وتأخير ، ويكون التقدير : فلا تعجبْك يا محمد ولا تُعجب المؤمنين معك أموالُ هؤلاء الكفار والمنافقين ولا أولادهم في الحياة الدنيا ؛ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة عقوبةً لهم على منعهم حقوقَها ؛ واستشهد على ذلك بقوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ؛ [النمل : ٢٨] ، والمعنى : فألقِهْ إليهم فانظرْ ماذا يرجعون ، ثم تول عنهم ؛ وأنشدَ في ذلك قول الشاعر :

عشيّةَ أبدتْ جيد أدماء مُغْزِلٍ ... وطرْفاً يُريكَ الإثمدَ الجوْن أحورا(١)

يريد : وطرَفاً أحور يُريك الإثمدَ الجوْن ؛ وقد اعتمد هذا الوجه أيضا أبو علي قُطْرُب ، وذكره أبو القاسم البلخيّ والزّجاج .

---

(١) مغزل : معها غزالها .

وثانيها أن يكون معنى التعذيب بالأموال والأولاد فى الدُّنيا هو ما جعله للمؤمنين من قتالهم وغنيمة أموالهم وسَبي أولادهم واسترقاقهم ؛ وفى ذلك لامحالةَ إيلام لهم ، واستخفاف بهم ، وإنما أراد تعالى بذلك إعلامَ نبيه عليه السلام والمؤمنين أنه لم يرزق الكفار الأموالَ والأولاد ؛ ولم يبقِها فى أيديهم كرامة لهم ، ورضاً عنهم ؛ بل للمصلحة الداعية إلى ذلك ، وأنهم مع هذه الحالة معذبون بهذه النعم من الوجه الذى ذكرناه ، فلا يجب أن يُغبَطُوا ، ويُحسدوا عليها ؛ إذ كانت هذه عاجلتهم ، والعقاب الأليم فى النار آجلتهم ؛ وهذا جواب أبى علىّ الجبائىّ .

وقد طعن عليه بعضُ مَن لا تأمُّلَ له فقال : كيف يصح هذا التأويل ، مع أنا نجد كثيراً من الكفّار لا تنالهم أيدى / المسلمين ، ولا يقدرون على غنيمة أموالهم ، ونجد أهلَ [١٧٣ ظ] الكتاب أيضا خارجين عن هذه الجملة لمكان الذِّمة والعهد ؟ وليس هذا الاعتراض بشىء ، لأنه لا يمتنع أن تختص الآية بالكفار الذين لا ذمة لهم ولاَ عهد ؛ ممن أوجب الله تعالى محاربته ؛ فأما الذين لا تنالهم الأيدى ، أو هم من القوة على حدّ لا يتم معه غنيمة أموالهم؛ فلايقدح الاعتراض بهم فى هذا الجواب لأنهم ممن أراد الله تعالى أن يُسْبَى ويُغْنَم ، ويجاهَد ويُغلَب ؛ وإن لم يقع ذلك ؛ وليس فى ارتفاعه بالتعذّر دلالة على أنه غير مراد .

وثالثها أن يكون المراد بتعذيبهم بذلك كلّ ما يُدخله فى الدنيا عليهم من الغموم والمصائب بأموالهم وأولادهم التى لهؤلاء الكفار المنافقين عقاب وجزاء ، وللمؤمنين محنة وجالبة للعوض والنفع .

ويجوز أيضا أن يراد به ما ينذَرُ به الكافر قبل موته، وعند احتضاره، وانقطاع التكليف عنه مع أنه حىّ، من العذاب الدائم الذى قد أعِدّ له، وإعلامِه أنه صائر إليه، ومنتقل إلى قراره؛ وهذا الجواب قد روِى معنى أكثره عن قوم من متقدمى المفسرين[١]، وذكره أبو علىّ الجبائىّ أيضاً .

---

(١) حاشية الأصل : « نسخة الشجرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى » .

ورابعها [جواب](١) يحكى عن الحسن البصرىّ ، واختاره الطبرىّ وقدّمه على غيره ، وهو أن يكون المراد بذلك ما ألزمه هؤلاء الكفار من الفرائض والحقوق فى أموالهم ؛ لأن ذلك يُؤْخَذُ منهم على كرهٍ ، وهم إذا أنفقوا فيه أنفقوا بغير نيّة ولا عزيمة ؛ فتصير نفقتُهم غرامة وعذاباً من حيث لا يستحقون عليها أجراً .

(٢)قال السيد قدس الله روحه : وهذا وجه غير صحيح ؛ لأن الوجهَ فى تكليف الكافر إخراج الحقوق من ماله كالوجه فى تكليف المؤمن ذلك ؛ ومحال أن يكون إنما كُلِّف إخراج هذه الحقوق على سبيل العقاب والجزاء ؛ لأن ذلك لا يقتضى وجوبَه عليه(٢) ؛ والوجه فى تكليف الجميع هذه الأمور هو المصلحة واللطف فى التكليف .

ولا يجرى ذلك مجرى ما قلناه فى الجواب الذى قبل هذا ؛ من أن المصائب والغُموم قد تكون للمؤمنين مِحْنة ، وللكافرين عقوبة ؛ لأن تلك الأمور مما يجوز أن يكون وجهُ حسنها العقوبة والمحنة جميعاً ؛ ولا يجوز فى هذه الفرائض أن يكون لوجوبها على المكلَّف إلا وجهٌ واحد ، وهو المصلحة فى الدِّين ، فافترق الأمران .

[١٧٤ و] وليس لهم أن يقولوا : / ليس التعذيب فى إيجاب الفرائض عليهم ؛ (٣)وإنما هو لإخراجهم أموالهم على وجه التكرُّه والاستثقال(٣) ؛ وذلك أنه إذا كان الأمر على ما ذكروه خرج من أن يكون مرادا لله تعالى ؛ لأنه جلّ وعز ما أراد منهم إخراجَ المال على هذا الوجه ، بل على الوجه الذى هو طاعة وقُرْبة ؛ فإذا أخرجوها متكرِّهين مستثقلين لم يُرِدْ ذلك ؛ فكيف يقول : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ ! ويجب أن يكون ما يعذبون به شيئاً يصحُّ أن يريده الله تعالى .

وجميع هذه الوجوه التى حكيناها فى الآية ـ إلا جواب التقديم والتأخير ـ مبنيّةٌ على أنَّ

---

(١) من ف . (٢ ـ ٢) ساقط من الأصل ، وما أثبته عن ف .

(٣ ـ ٣) ف : « وإنما هو فى إخراجهم لأموالهم على وجه التكره والاستثقال » .

الحياة الدنيا ظرف للعذاب؛ فتحمّل(١) كل متأوّل من القوم ضرباً من التأويل ؛ طابق(٢) ذلك .

وما يحتاج عندنا إلى جميع ما تكلّفوه، ولا إلى التقديم والتأخير إذا لم تُجْعَل(٣) الحياة ظرفاً للعقاب ، بل جعلناها ظرفاً للفعل الواقع بالأموال والأولاد ؛ والمتعلّق بهما؛ لأنا قد علمنا أولاً أنّ قوله : ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ لابد من الانصراف عن ظاهره ؛ لأن الأموال والأولاد أنفسَها لا تكون عذاباً ؛ والمراد على سائر وجوه التأويل الفعل المتعلّق بها والمضاف إليها ؛ سواء كان إنفاقها والمصيبة بها والغمّ عليها، أو إباحة غنيمتها وإخراجها عن أيدي مالكيها؛ فكأنّ تقدير(٤) الآية : إنما يريد الله ليعذّبهم بكذا وكذا؛ مما يتعلق بأموالهم وأولادهم ، ويتّصل بها ؛ وإذا صحّ هذا جاز أن تكون الحياة الدنيا ظرفا لأفعالهم القبيحة في أموالهم وأولادهم التي تغضب الله تعالى وتُسخطه ؛ كإنفاقهم الأموال في وجوه المعاصي ، وحملهم الأولاد على الكفر، وإلزامهم الموافقة لهم في النِّحْلة، ويكون تقدير الكلام: إنما يريدُ الله ليعذّبهم بفعلهم في أموالهم وأولادهم ؛ الواقعِ ذلك منهم في الحياة الدنيا ؛ وهذا وجه ظاهر يغني عن التقديم والتأخير ؛ وسائر ما ذكروه من الوجوه .

فأما قوله تعالى: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ﴾ فمعناه تبطل وتخرج ؛ أي أنهم يموتون على الكفر؛ وليس يجب إذا كان مريدا لأن تزهق أنفسهم وهم على هذه الحال أن يكون مريدا للحال نفسها على ما ظنوه؛ لأنّ الواحد منّا قد يأمر / غيره ويريد منه أن يقاتل أهل البغي وهم [١٧٤ ظ] محاربون ، ولا يقاتلهم وهم منهزمون ، ولا يكون مريدا لحرب أهل البغي للمؤمنين؛ وإن أراد قتالهم على هذه الحالة ، وكذلك قد يقول لغلامه: أريد أن تواظب على المصير إليّ في السِّجن وأنا محبوس ، وللطبيب : صِرْ إليّ ولازمني وأنا مريض ، وهو لا يريد المرض ولا

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « فتحمل » . (٢) ف : « يطابق » .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « لم تجعل الحياة » .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « فكان تقدير الكلام » .

الحبْس ؛ وإن كان قد أراد ما هو متعلق بهاتين الحالتين .

وقد ذُكر في ذلك وجه آخر على ألاّ يكون قوله : ﴿ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ حالاً لزهوق أنفسهم ؛ بل يكون كأنه كلام مستأنف ، والتقدير فلا تعجبْك أموالهم ولا أولادهم ؛ إنما يريد الله ليعذّبهم بها في الحياة الدنيا؛ وتَزْهَق أنفسهُم وهم مع ذلك كافرون صائرون إلى النار؛ وتكون الفائدة أنهم مع عذاب الدنيا قد اجتمع عليهم عذاب الآخرة؛ ويكون معنى ﴿ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ﴾ على هذا الجواب غير الموت وخروج النفس على الحقيقة ، بل المشقة الشديدة والكُلَف[1] الصّعبة ، كما يقال: ضربت فلانا حتى مات وتَلِفت نفسه ، وخرجت روحه ، وما أشبه ذلك .

* * *

قال سيدنا أدام الله تمكينه : ذاكرني قوم من أهل الأدب بأشعار المحدَثين وطبقاتهم وانتهوا إلى مروان بن يحيى بن أبي حفصة[2] ؛ فأفرط بعضهم في وصفه وتقريظه ، وآخرون في ذمه وتهجينه والإزراء على شعره وطريقته؛ واستخبروا عما أعتقده فيه، فقلت لهم: كان مَرْوان متساوِيَ الكلام ، متشابهَ الألفاظ ، غير متصرِّف في المعاني ولا غواصٍ عليها ولا مدقِّق لها ؛ فلذلك قلّتِ النّظائر في شعره ، ومدائحه مكرَّرة الألفاظ والمعاني ، وهو غزير الشعر قليلُ المعنى ؛ إلا أنه مع ذلك شاعر له تجويد وحِذْق، وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته ، وأشعر شعراء أهله ؛ ويجب أن يكون دونَ مسلم بن الوليد في تنقيح الألفاظ وتدقيق المعاني ، وحسن الألفاظ ، ووقوع التشبيهات ، ودون بشّار بن برد في الأبيات النادرة السائرة ، فكأنه طبقةٌ بينهما ؛ وليس بمقصِّر دونهما شديداً ، ولا منحط عنهما بعيدا .

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصليّ يقدِّمه على بشار ومسلم ، وكذلك أبو عمرو الشيبانيّ

---

(١) ف : « والكافة » .

(٢) هو أبو السمط — وقيل أبو الهندام مروان بن أبي حفصة ؛ ولد سنة ١٠٥ ، وهلك في أيام الرشيد سنة ١٨٢ . (وانظر ترجمته وأشعاره في الشعر والشعراء ٧٣٩–٧٤١ ، وابن خلكان ٢ : ٧٩–٨١) .

وكان الأصمعي يقول : مروان / مولَّد (١)، وليس له علم باللغة. واختلافُ الناس في اختيار الشعر [١٧٠ و] بحسب اختلافهم في التنبيه على معانيه ؛ وبحسب ما يشترطونه من مذاهبه وطرائقه.

فسئلت عند ذلك أن أذكر مُختارَ ما وقع إليّ من شعره وأنبه على سرقاته ونظائر شعره ، وأن أُمْلِيَ ذلك في خلال المجالس وأثنائها.

فما يختار من شعره قوله من قصيدة يمدح بها المهديّ أولها :

أعادَكَ مِنْ ذِكْرِ الأحِبَّةِ عائِدُ ! ⁂ أجَلْ ، واستَخَفَّتكَ الرُّسُومُ البَوائِدُ

يقول فيها :

تذَكَّرْتَ من تَهْوَى فأبْكاكَ ذِكْرُهُ ⁂ فلا الذِّكْرُ مَنْسِيٌّ ولا الدَّمْعُ جامِدُ
تَحِنُّ وتأبَى أن يُساعِدَكَ الهوَى ⁂ ولَلْمَوْتُ خَيْرٌ من هَوًى لا يُساعِدُ
ألا طالمَا أنْهَيْتَ دَمْعَكَ طائعاً ⁂ وجارَتْ عليكَ الآنساتُ النَّواهِدُ
تُذَكِّرُنا أبصارَها مُقَلَ المَهَا ⁂ وأعناقَها أُدْمُ الظِّباءِ العَواقِدُ (٢)
تَساقَطُ مِنْهُنَّ الأحاديثُ غَضَّةً ⁂ تَساقُطَ دُرٍّ أسلَمَتْهُ المَعاقِدُ
إليكَ أميرَ المؤمنينَ تجاذَبَتْ ⁂ بِنا اللَّيلَ خُوصٌ كالقِسِيِّ شَوارِدُ
يَمانِيَةٌ يَنأَى القريبُ مَحَلَّةً ⁂ بِهِنَّ ، ويَدْنُو الشاحِطُ المُتباعِدُ
تَجَلَّى السُّرَى عنها ، ولِلعِيسِ أعيُنٌ ⁂ سَوامٍ وأعناقٌ إليكَ قَوَاصِدُ
إلى مَلِكٍ تَنْدَى إذا يَبِسَ الثَّرَى ⁂ بِنائِلِ كفَّيْهِ الأكُفُّ الجَوامِدُ

---

(١) ف : « المولدون الذين بعد المخضرين » وفي حاشية الأصل (من نسخة) : « مولد » بكسر اللام ؛ أي يولد الكلام . (٢) العاقد : هو الظبي الذي يعطف عنقه إلى ناحية عجزه ؛ وقيل إن الصغائر تفعل ذلك كثيرا ؛ قال ساعدة :

وكأنما وافاك يومَ لَقِيتَها ⁂ من وحشِ وَجرة عاقدٌ مُتَرَبِّبُ

ولا يبعد أن يكون العواقد اللائي يأوين إلى عقدات الرمل ، أو يكون معناه أنها عقدت أعناقها ملتفة إلى أذنابها ، وذلك معهود من عادتها .

لَهُ فوقَ مَجْدِ النَّاسِ مَجْدَانِ منهما ... طريف وعادِيٌّ الجَرَاثِيمِ تالِدُ

وَأحْوَاضُ عِزٍّ حَوْمَةُ المَوْتِ دُونَهَا ... وَأحْوَاضُ عُرْفٍ لَيْسَ عَنْهُنَّ ذَائِدُ

أيَادِي بَنِي العَبَّاسِ بِيضٌ سَوَابِغٌ ... على كُلِّ قومٍ بَادِيَاتٌ عَوَائِدُ

هُمُ يَمْدِلُونَ السَّمْكَ من قُبَّةِ الهُدَى ... كما تَمْدِلُ البَيْتَ الحَرَامَ القَوَاعِدُ

سَوَاعِدُ عِزِّ المُسْلِمِينَ ، وإنما ... تَنُوءُ بِصَوْلاتِ الأكُفِّ السَّوَاعِدُ

[١٧٠] / يَكُونُ غِرَارًا نَوْمُهُ مِنْ حِذَارِهِ ... على قُبَّةِ الإسْلامِ والخَلْقُ رَاقِدُ

كَأنَّ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا ... لِرَأْفَتِهِ بالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ

أما قوله :

تساقط منهنَّ الأحاديث غضَّة ... تساقُطَ دُرٍّ أسلمتْه المعاقدُ

فكثير فى الشعر ، وأظن أن الأصل فيه أبو حيَّة النُّميرى فى قوله :

إذَا هُنَّ ساقَطْنَ الأحادِيثَ لِلفَتَى ... سُقُوطَ حَصَى المَرْجَانِ مِنْ كَفِّ نَاظِمِ

وإنما عَنَى بالمرجان صغار اللؤلؤ ، وعلى هذا يُتأول قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ؛ [الرحمن : ٢٢].

ومثله قول الآخر :

هِيَ الدُّرُّ مَنْثُورًا إذا ما تَكَلَّمَتْ ... وكالدُّرِّ منظومًا إذا لَمْ تَكَلَّمِ

ومثله :

مِنْ ثَغْرِها الدُّرُّ النَّظِيـ ... ـمُ وَلَفْظُها الدُّرُّ النَّثِيرُ

ونظيره قول البحترىّ ـ وأحسن غاية الإحسان:

وَلَمَّا التقينا والنَّقَا مَوعِدٌ لنا ... تَعَجَّبَ رائي الدُّرِّ حُسْنًا ولاقِطُهْ

فَمِنْ لُؤْلُؤٍ تجلوهُ عِنْدَ ابتِسامِها ... وَمِنْ لؤلؤٍ عِنْدَ الحَدِيثِ تُساقِطُهْ

ومثله قول الأُخَيْطِل[١]:

خَلَوْتُ بِها وَسَجْفُ الليلِ مُلْقًى ... وقدْ أصْغَتْ إلى الغَرْبِ النُّجُومُ
كَأَنَّ كَلامَها دُرٌّ نَثِيرٌ ... ورَوْنَقَ ثَغْرِها دُرٌّ نَظِيمُ

ولغيره:

تَبَسَّمَتْ فرأيتُ الدُّرَّ مُنْتَظِماً ... وَحَدَّثَتْ فرأيتُ الدُّرَّ مُنْتَثِرا

ولآخر:

وَتُحْفَظُ لا من رِيبةٍ يَحْذَرُونَها ... وَلٰكِنَّها من أَعْيُنِ النَّاسِ تُحْفَظُ
وَتَلْفِظُ دُرّاً في الحَدِيثِ إذا جَرَى ... وَلَمْ نَرَ دُرّاً قبلَ ذَلِكَ يُلفَظُ

ولبعض من تأخر زمانه من الشعراء وقرب من عصرنا هذا:

أظْهَرْنَ وَصْلاً إذْ رَحِمْنَ مُتَيَّماً ... وَأَرَيْنَ هَجْراً إذْ خَشِينَ مُراقِبا
/ فَنَظَمْنَ مِنْ دُرِّ البَاسِمِ جامِداً ... وَنَثَرْنَ من دُرِّ المَدامِعِ ذائِبا [١٧٦ و]

قال قدس الله روحه: وليس قول أبي دهبل في صفة الحديث[٢]:

كَتَساقُطِ الرُّطَبِ الجَنِيِّ من الـ ... أقْناءِ لا نَثْراً وَلا نَزْرا

من هذا الباب في شيء، لأن جميع ما تقدم هو في وصف الثغر؛ وهذا في وصف حسن الحديث وأنه متوسِّط في القلة والكثرة، لازم للقصد كانتثار الرُّطَب من الأقناء؛ ويشبه أن يكون أراد أيضاً مع ذلك وصفَه بالحلاوة والنضاضة لتشبيهه له بالرطب، ثم إنه غضٌّ طريٌّ غير مكرَّرٍ ولا معاد؛ لقوله: «الرطب الجنيّ» فتجتمع له أغراض: الوصف بالاقتصاد في القلة والكثرة، ثم وصفه بالحلاوة، ثم الفصاحة، ثم النضاضة.

---

(١) في م: «الأخطل» خطأ؛ وفي حاشية الأصل: «الأهوازي، يقال له برقوقا»؛ وهو محمد بن عبد الله، شاعر مجيد من أهل الأهواز.

(٢) من نسخة بحاشيتي الأصل، ف: «في وصف حسن الحديث والثغر».

ونظير قول أبي دهبل قول ذي الرمّة :

لها بشرٌ مثلُ الحريرِ ومنطِقٌ   رخيمُ الحواشِي لا هُراءٌ ولا نزْرُ(١)

فأما قول مرْوان :

إلى مَلِكٍ تَندَى إذا يبِسَ الثرَى   بنائلِ كفّيْهِ الأكفُّ الجوامِدُ

فمثلُ قول أبي حنش النميريّ في يحيي بن خالد البرمكيّ :

لا ترَانِي مُصافِحاً كفَّ يحيي   إنّني إنْ فعلْتُ أتلفْتُ(٢) مالِي
لوْ يمسُّ البخيلُ راحةَ يحيي   لسخَتْ نفسُهُ ببذْلِ النوالِ

ومثله قول ابن الخياط(٣) المدنيّ في المهديّ :

لَمَسْتُ بكفّي كفَّهُ أبتغي الغنى   ولمْ أدرِ أنّ الجُودَ منْ كفِّهِ يُعْدِي(٤)
فلا أنَا مِنهُ ما أفادَ ذوُو الغِنَى   أفدْتُ ، وأعْداني فأتلفْتُ ما عِندِي

وقد قيل إن هذا الشاعر كأنه مُصرِّح بالهجاء ؛ لأنه زعم أنّ الذى لمسَ كفَّه لم يفِدْه شيئًا بل أعداه جودُه ، فأتلفَ ماله ، ولم يُرِد الشاعر إلا المدح ؛ ولقوله وجه ، وهو أنّ ذوِي الغِنى هم الذين تستقر الأموال في أيديهم وتلبثُ تحت أيمانهم ؛ ومَنْ أخرج ما يملكه حالا بحال لا يوصف بأنه ذو غِنًى ، فأراد الشاعر أنني لم أفِد منه ما بَقِي في يدى واستقرَّ تحت مِلْكى ؛ فلهذا قال : لم أفِد ما أفاد ذوو الغنى .

ومن هذا المعنى قول مسلم :

[١٧٦ ظ] / إلى مَلِكٍ لوْ صافحَ النّاسَ كلَّهمْ   لمَا كانَ حيٌّ في البريّةِ يبخَلُ

ومثله قول المكوّك :

لوْ لمسَ النّاسُ راحتَيْهِ   ما بخِلَ النّاسُ بالعطاءِ

---

(١) ديوانه ٢١٢ .   (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « أتلف » .

(٣) حاشية الأصل : « ابن الخياط ، هو عبد الله بن محمد ، ويعرف بابن الخياط ؛ ذكر ذلك أبو الفرج الأصبهاني رحمه الله » وترجمته في الأغاني ١٨ : ٩٤ — ١٠٠ .

(٤) الأغاني ١٨ : ٩٤ .

وأحسن من هذا كلِّه وأشبهُ بالمَدْحِ ، وأدخل فى طريقته قولُ البحترىّ :

مَنْ شاكِرٌ عَنِّى الخليفَةَ بالَّذِى   أَوْلاهُ مِنْ طَوْلٍ ومِنْ إحْسانِ[1]
مَلأَتْ يداهُ يَدِى وشَرَّدَ جُودُهُ   بُخْلِى ، فأفقرَنى كما أغنانِى
حتى لقَدْ أفْضَلْتُ مِنْ إفضَالِهِ   ورأيتُ نَهْجَ الجُودِ حَيْثُ أرانِى
وَوثِقْتُ بالخَلَفِ الجَمِيلِ مُعَجَّلاً   مِنهُ ، فأعطَيتُ الذى أعْطانِى

ومن هذا قولُ الآخر :

رَأيتُ الندَى فى آلِ عوفٍ خَلِيقَةً   إذَا كانَ فى قَوْمٍ سِواهُمْ تَخلُّقا
ولو جُزْتَ فى أبياتِهِم[2] لتعلَّمَتْ   يدَاكَ النَّدَى منهم فأصبحتَ مُمْلِقا

ولابن الرومىّ :

يجودُ البخيلُ إذَا ماراَكَ   وَيَسْطو الجَبَانُ إذَاعايَنَكْ

فأما قوله :

وأخوَاضُ عزٍّ حَوْمَةُ الموت دُونَها   وَأخوَاض عُرْفٍ ليسَ عَنْهُنَّ ذائدُ

فيشبه أن يكون إبراهيم بن العباس الصولىّ أخذه فى قوله :

لنَا إبلٌ كُومٌ يَضِيقُ بِها الفَضا   وَتَفْتَرُّ عنها أرْضُها وسَماؤها[3]
فَمِنْ دُونِها أنْ تُسْتَباحَ دِماؤنا   وَمِن دُونِنا أنْ تُسْتَباحَ دِماؤها
حِمًى وَقِرًى فالمَوْتُ دُونَ مَرامِها   وَأيْسَرُ خَطْبٍ عندَ حَقٍّ فَناؤها

وقد أحسن إبراهيم بن العباس فى أبياته كل الإحسان .

فأما قوله :

يكُونُ غِراراً نَوْمُهُ من حِذَارِهِ   على قُبَّةِ الإسْلامِ وَالخلقُ رَاقِدُ

/فكثير متداوَل ، ومن حَسَنِهِ قولُ محمد بن عبد الملك الزيات : [١٧٧ و]

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٧٢ .   (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « فى أفنائهم » .

(٣) ديوانه : ١٥٣ ، والأغانى ١٠ : ٥٩ (طبع دار الكتب المصرية) . الكوم : الإبل الضخمة العظيمة السنام ؛ الواحد أكوم والأنثى كوماء .

نِعْمَ الخَلِيفَةُ لِلرَّعِيَّةِ مَن إذَا رَقَدَتْ وَطَابَ لَهَا الكَرَى لَمْ يَرْقُدِ

ومثله :

وَيَظَلُّ يَحْفَظُنَا وَنَحْنُ بِغَفْلَةٍ وَيَبِيتُ يَكْلَؤُنَا وَنَحْنُ نِيَامُ

ومثله للبحترىّ :

أَرَبِيعَةَ الفَرَسِ اشْكُرِي يَدَ مُنْعِمٍ وَهَبَ الإسَاءَةَ لِلْمُسِيءِ الجَانِي(١)

رَوَّعْتُمُو جَارَاتِهِ فَبَمَتُّمُو مِنْهُ بِحَيَّةِ آنِفٍ غَيْرَانِ

لَمْ تَكْرَ عَنْ قَاصِي الرَّعِيَّةِ عَيْنُهُ فَتَنَامَ عَنْ وِتْرِ القَرِيبِ الدَّانِي

فأما قوله :

كأنّ أمير المؤمنين محمداً لرأفته بالناس للناس والدُ

فنظير قول بعض الشعراء فى يحيى بن خالد البرمكى:

أَحْيَا لَنَا يَحْيَى فَعَالَ خَالِدِ فَأَصْبَحَ اليَوْمَ كَثِيرَ الحَامِدِ

يَسْخُو بِكُلِّ طَارِفٍ وَتَالِدِ عَلَى بَعِيدٍ غَائِبٍ وَشَاهِدِ

النَّاسُ فِى إِحْسَانِهِ كَوَاحِدِ وَهُوَ لَهُمْ أَجْمَعِهِمْ كَالوَالِدِ

ومن جيد قول مرْوان من قصيدة أوّلها :

خَلَتْ بَعْدَنَا مِن آلِ لَيْلَى المَصَانِعُ وَهَاجَتْ لَنَا الشَّوْقَ الدِّيَارُ البَلاقِعُ

يقول فيها :

وَمَالِي إِلَى المَهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مُذْنِباً سِوَى حِلْمِهِ الضَّافِى عَلَى النَّاسِ شَافِعُ

وَلاَ هُوَ عِنْدَ السُّخْطِ مِنْهُ وَلاَ الرِّضَا بِغَيْرِ الَّتِى يَرْضَى بِهَا اللهُ وَاقِعُ(٢)

تَغُضُّ لَهُ الطَّرْفَ العُيُونُ وَطَرْفُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ خَاشِعُ

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٧٢ . وفى حاشية الأصل : « ربيعة رجل ورث أباه دوابه ، فقيل له ربيعة الفرس ؛ وسميت القبيلة باسم ربيعة وهى التى تذكر مع مضر » .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « ولا هو » وفيها (من نسخة) : « قائم » .

أما قوله :

* ولا هو عند السخط منه ولا الرّضا * ...البيت

فمثل قول أشجع :

وَلَسْتُ بِخَائِفٍ لأبى علىّ ... وَمَنْ خافَ الإلهَ فَلَنْ يُخَافا

/ومثله: [١٧٧] ظ

أمّنَنى منهُ وَمن خَوْفِهِ ... خِيفتُهُ من خَشْيَةِ البَارِى

ولأبى نُوَاس :

قدْ كُنْتُ خفتُكَ ثمّ أمّنَنى ... منْ أنْ أخافَكَ خَوْفُكَ اللهَ[١]

ويُشبه هذا المعنى ماروى عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وآله أنه دعا غلاماً مراراً فلم يجبه ، فخرج فوجدَه على الباب[٢] فقال له : ماحملك على تركِ إجابتى ؟ قال : كسِلت عن إجابتك ، وأمنت عقوبتَك ، فقال : عليه السلام: الحمدُ لله الذى جعلنى ممن يأمنه خَلقُهُ.

فأماقوله: « تَغَضّ له الطرف العيون » فيشبه أن يكون مأخوذاًمن قول الفرزدق، أوممّن تنسب إليه هذه الأبيات :

يُغْضِى حياءً وَيُغْضَى منْ مهابَتِهِ ... فمَا يُكلّمُ إلاّ حِينَ يَبْتَسِمُ[٣]

(١) ديوانه ١٠٩ ؛ من أبيات بعث بها إلى الفضل بن الربيع .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « على باب البيت » .

(٣) ينسب هذا البيت مع غيره أيضا للحزين الكنانى ؛ وانظر مامر من حواشى ص ٦٨ .

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ ؛ [الأنفال : ٢٤] .

فقال : ما معنى الحَوْل بين المرء وقلبه ؟ وهل يصحّ ما تأوّله قومٌ مِنْ أنّه يحولُ بين الكافر وبين الإيمان ؟ وما معنى قوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؟ وكيفَ تكون الحياة فى إجابته ؟

الجواب، قلنا : أما قوله تعالى: ﴿ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ ففيه وجوه :

أوّلها أنْ يريد بذلك أنّه تعالى يحولُ بين المرء وبين الانتفاع بقلْبه بالموت ، وهذا حثٌّ من الله عز وجل على الطاعات والمبادرة بها قبل الفوْت وانقطاع التّكليف ، وتعذّر مايسوِّفُ به المكلَّف نفسَه من التوبة والإقلاع ؛ فكأنه تعالى قال : بادروا إلى الاستجابة لله وللرسول مِنْ قبل أن يأتيَكم الموت فيحولَ بينكم وبين الانتفاع بنفوسكم وقلوبكم ، ويتعذّرَ عليكم ماتسوِّفون به[1] نفوسَكم من التوبة بقلوبكم. ويقوّى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [2].

وثانيها أن يحولَ بين المرء وقلبه بإزالة عقله وإبطال تمييزه ، وإن كان حيًّا ، وقد يقال لمن فقد عقلَه وسُلِبَ تمييزه: إنّه بغير عقل[3] ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ ؛ [ق : ٣٧] .

وقال الشاعر :

[١٧٨ و] /وَلِى أَلفُ وجْهٍ قدْ عَرَفْتُ مكانَهُ ... ولكِنْ بلاَ قَلْبٍ إلى أيْنَ أذْهَبُ !

وهذا الوجه يقرُب مِن الأوّل ؛ لأنه تعالى أخرَجَ هذا الكلام مخرج الإنذار لهم ،

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) « فيه » . (٢) بقية الآية السابقة

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « بغير قلب » .

والحث لهم[1] على الطاعات قبل فوتها ، لأنه لا فرق بين تعذّر التوبة وانقطاع التكليف بالموت وبين تعذّرها بإزالة العقل .

وثالثها أن يكون المعنى المبالغةَ في الإخبار عن قُرْبه من عباده وعلمه بما يبطنون ويخفون ؛ وأنّ الضمائر المكنونة[2] له ظاهرة ، والخفايا المستورة لعلمه بادية ؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ؛ [ق : ١٦] ، ونحن نعلم أنه لم تعالى يُرِدْ بذلك قربَ المسافة ، بل المعنى الذى ذكرناه .

وإذا كان عزّ وجل هو أعلم بما فى قلوبنا منّا ، وكان ما نعلمه أيضا يجوز أن ننساه، ونسهوَ عنه ، ونَضِلّ عن علمه — وكل ذلك لا يجوز عليه — جاز أن يقول : إنه يحول بيننا وبين قلوبنا ؛ لأنه معلوم فى الشاهد أن كل شىء يحول بين شيئين فهو أقربُ إليهما .

ولما أراد تعالى المبالغة فى وصف القرب خاطبنا بما نعرف ونألف ؛ وإن كان القرب الذى عناه جلّت عظمتُه لم يُرِدْ به المسافة ، والعرب تضع كثيراً لفظة القُرْب على غير معنى المسافة ؛ فيقولون : فلان أقرب إلى قلبى من فلان ، وزيد منى قريب ، وعمرو منّى بعيد ؛ ولا يريدون المسافة .

ورابعها — ما أجاب به بعضهم — من أنّ المؤمنين كانوا يفكّرون فى كثرة عدوّهم ، وقلة عددهم ، فيدخُلُ قلوبهم الخوف ، فأعلمهم تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه ، بأن يبدّله بالخوف الأمنَ ؛ ويبدّل عدوّهم — بظنهم أنهم قادرون عليهم وغالبون لهم — الجبن والخَوَر .

ويمكن فى الآية وجه خامس ؛ وهو أن يكون المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يدعوه إليه قلبُه من القبائح ؛ بالأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ لأنا نعلم أنه تعالى لو لم يكلف العاقلَ مع ما فيه من الشهوات والنفار لم يكن له عن القبيح مانع ؛ ولا عن مواقعته رادع ؛ فكأنّ التكليف حائلٌ بينه وبينه ؛ من حيث زُجِر عن فعله ، وصُرِفَ عن مواقعته ؛

---

(١) ساقطة من ف.   (٢) حاشية ف (من نسخة) : « المكتومة » .

[١٧٨ ط] وليس يجب فى الحائل / أن يكون فى كل موضع مما يمتنع معه الفعل ؛ لأنا نعلم أن المشير منّا على غيره فى أمر كان قد هَمَّ به وعزم على فعله أن يجتنبَه. والمنبِّه له على أنّ الحظ فى الانصراف عنه يصح أن يقال : منعه[١]، وحال بينه وبين فعله ، قال عبيد الله بن قيس الرقيات[٢] :

حالَ دُونَ الهَوَى وَدُو نَ سُرَى اللَّيْـلِ مُصْعَبُ
وسِياطٌ على أكُفٍّ رِجالٍ تُقَلَّبُ

ونحن نعلم أنه لم يحل إلاّ بالتخويف والترهيب دون غيرها .

فإن قيل : كيف يطابق هذا الوجه صدر الآية ؟

قلنا : وجهُ المطابقة ظاهرٌ ، لأنه تعالى أمرَهم بالاستجابة لله تعالى ولرسوله فيما يدْعُوان إليه من فعل الطاعات، والامتناع من المقبّحات، وأعلمهم أنه بهذا الدعاء والإنذار ومايجرى[٣] مجراهما يحولُ بين المرء وبين ماتدعوه إليه نفسه من المعاصى؛ ثم إن المآب بعدهذا كلّه إليه والمنقلَب إلى ما عنده ؛ فيجازى كلاًّ باستحقاقه .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ففيه وجوه :

أوّلها أنْ يريد بذلك الحياة فى النعيم[٤] والثواب ، لأنّ تلك هى الحياة الطيبة الدائمة التى يُؤْمَنُ مِنْ تغيّرها ، ولا يخاف انتقالُها ، فكأنه تعالى حث على إجابته التى تكسب هذه الحال .

وثانيها أنه يختص[٥] ذلك بالدعاء إلى الجهاد وقتال العدوّ ، فكأنه تعالى أمرهم بالاستجابة للرسول عليه السلام فيما يأمرهم به من قتال عدوّهم[٦] ؛ ودفعهم عن حَوْزة الإسلام

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : «منعهمنه» . (٢) حاشية الأصل : «كان جده شاعرا يشبب بجماعة من النساء ، اسم كل واحدة منهن رقية ؛ فأضيف إليهن» .

(٣) حاشية ف (من نسخة) : «وما جرى» . (٤) حاشية ف (من نسخة) : «النعم» .

(٥) ش : «أن يخص» . (٦) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف «الأعداء» .

وأعلمهم أنّ ذلك يحييهم من حيث كان فيه قهرٌ للمشركين، وتقليل لعددهم، وفلٌّ لحدّهم؛ وحسْمٌ لأطماعهم، لأنهم متى كثروا وقوُوا استلانوا جانبَ المؤمنين؛ وأقدموا عليهم بالقتل وصنوف المكاره؛ فمن هاهنا كانت الاستجابة له عليه السلام فى القتال تقتضى الحياةَ والبقاء؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾؛ [البقرة: ١٧٩].

وثالثها ماقاله قوم من أنّ كلّ طاعة حياةٌ، ويوصف فاعلها بأنه حىّ، كما أن المعاصىَ يوصف فاعلُها بأنه ميت، والوجه فى ذلك / أنّ الطائع لما كان[1] منتفعاً بحياته، وكانت تؤديه [١٧٩ و]
إلى الثواب الدائم قيل: إن الطاعة حياة؛ ولما كان الكافر العاصى لا ينتفع بحياته؛ من حيث كان مصيره إلى العقاب الدائم كان فى حكم الميّت؛ ولهذا يقال لمن كان منغّصَ[2] الحياة، غير منتفع بها: فلان بلا عيْش ولا حياة، وما جرى مجرى ذلك من حيث لم ينتفع بحياته.

ويمكن فى الآية وجه آخر، وهو أن يكون المراد بالكلام الحياة بالحكْم لا فى الفعل؛ لأنا قد علمنا أنه عليه السلام كان مكلّفاً مأموراً بجهاد جميع المشركين المخالفين لملّته وقتلهم، وإن كان فيما بعد كلّف ذلك فيمن عدا أهلَ الذمة على شرْطها؛ فكأنه تعالى قال: استجيبوا للرسول ولا تخالفوه، فإنكم إذا خالفتم كنتم فى الحكم غيرَ أحياء، من حيث تُعُبِّد عليه السلام بقتالكم وقتلكم، فإذا أطعتم كنتم فى الحكم أحياء؛ ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾؛ [آل عمران: ٩٧]؛ وإنما أراد تعالى أنه يجب أن يكون آمناً؛ وهذا[3] حكمه، ولم يخبر بأن ذلك لا محالة واقع.

فأما المُجْبِرَة فلا شبهةَ لهم فى الآية، ولا متعلّق بها؛ لأنه تعالى لم يقل: إنه يحول بين المرء وبين الإيمان، بل ظاهر الآية يقتضى أنّه يحول بينه وبين أفعاله، وإنما يقتضى ظاهرُها أنه يحول بينه وبين قلبه؛ وليس للإيمان ولا للكفر ذكرٌ، ولو كان للآية ظاهر يقتضى

(١) ش: «إذا كان». (٢) حاشية ف (من نسخة): «متكدر».
(٣) حاشية ف (من نسخة): «وهكذا حكمه».

ماظنوه ـ وليس لها ذلك ـ لا نصرفنا عنه بأدلة العقل الموجبة أنه تعالى لا يحول بين المرء وبين ما أمره به ، وأراده منه ، وكلّفه فعلَه ؛ لأن ذلك قبيح ، والقبائح عنه منفيّة .

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانيّ قال حدثني أحمد بن محمد الجوهريّ قال حدثنا الحسن بن عُلَيل العنزيّ قال حدثنا أحمد بن عمرو بن إسماعيل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن عوف قال حدثني محمد بن خالد[1] بن عبد الله عن الحجاج السُّلَميّ قال : لما اشتد بحصن ابن حذيفة بن بَدْر وجعُه من طَعْنة كُرْز[2] بن عامر إياه يوم بنى عُقَيل دعا ولده فقال : إن الموتَ أهونُ مما أجد ، فأيّكم يُطيعني ؟ قالوا : كلنا نطيعُك ؛ فبدأ بأكبرهم فقال : قم فخذ سيفي واطعَن به حيث آمرك ، ولا تعجّل ؛ قال : يا أبتاه : أيقتل المرء[3] أباه ! فأتى على القوم كلِّهم /، فأجابوه جواب[4] الأول ؛ حتى انتهى إلى عُيَيْنة فقال : يا أبتاه ، أليس لك فيما تأمرنى به راحة ، ولى بذلك طاعة ؛ وهو هواك ؟ قال : بلى ، قال: فرْنى كيف أصنع ، قال : قم فخذ سيفى فضعْه حيث آمرك[5] ، ولا تُعجّل ، فقام فأخذ سيفه ، ووضعه على قلبه ، ثم قال: يا أبتاه ، كيف أصنع ؟ قال : ألق السيف ؛ إنما أردتُ أن أعلم: أيّكم أمضَى لما آمره به ؛ فأنت خليفتي ورئيس قومك من بعدى، فقال القوم: إنه [6] سيقول فيما كان بيتاً، فاحضروه[6] فلما أمسى قال : [١٢٩ ظ]

وَلُّوا عُيَيْنَةَ مِنْ بعدِي أمورَكُمُ ... واسْتَيْقِنُوا أنه بعدِي لكُم حامِ
إما هلكتُ فإنى قد بنيتُ لكُمْ ... عِزَّ الحياةِ بما قدَّمْتُ قُدَّامِي
واسْتَوْسِقوا للّتى فيها مُرُوءَتُكُمْ ... قَوْدَ الجيادِ، وضَرْبَ القَوْمِ فى الهامِ[7]

---

(١) ش : « عمر بن خالد » . (٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « كريز » .

(٣) ش : « الرجل » . (٤) ف : « بجواب الأول » . حاشية الأصل (من نسخة) : « الجواب الأول » . (٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « كما أمرت به » .

(٦ ـ ٦) م: «إنه سيقول فى ذلك شيئاًفيما بيننا، فأحضروه» . (٧) استوسقوا : انضموا واجتمعوا، وفى حاشية الأصل : « نصب « قود الجياد » ، على تقدير فعل مضمر ؛ كأنه قال : أعنى قود الجياد » .

والقُرْبُ من قومكم والقُرْبُ ينفعكم ... والبُعْدَ إن باعدوا ، والرَّمىَ للرّامى
ولىّ حُذيفةُ إذ ولّى وخلّفنى ... يومَ الهَباءةِ يتيماً وَسْطَ أيتامِ
لا أرفعُ الطَّرْفَ ذُلاًّ عِندَ مُهلكةٍ ... ألقَى العَدُوَّ بوجهٍ خدُّه دامِى
حتّى اعتَقَدْتُ لِوَاقومى فقُمتُ به ... ثمّ ارتحلتُ إلى الجَفنىّ بالشامِ
لما قضىَ ما قضَى من حَقّ زائِرِهِ ... عُجْتُ المَطِىَّ إلى النُّعمان من عامِ
أسمُو لما كانَتِ الآباءُ تطلُبُه ... عِندَ الملوكِ فطَرْفِى عِندَهُم سامِى
والدَّهرُ آخِرُهُ شبهٌ لأوّلِهِ ... قومٌ كَقومٍ وأيّامٌ كأيّامِ
فابنُوا ولا تَهدِمُوا فالنّاسُ كلُّهُمُ ... من بين بانٍ إلى العلياَ وهَدّامِ

قال : ثم أصبحَ ودعا بنى بدر ، فقال : لوائى ورياستى لعُيينة؛ واسمعوا منى ماأوصيكم به: لا يتكلْ آخركم على أولكم؛ فإنما يدرك الآخر(1) ماأدركه الأول؛ وأنكحوا الكفء(2) الغريب؛ فإنه عزٌّ حادث؛ وإذاحضركم أمران فخذوا بخيرهما صَدَرا؛ فإن كلَّ موْردٍ معرُوف؛ واصحبوا قومَكم بأجمل أخلاقكم؛ ولاتخالفوا فيما اجتمعوا عليه؛ فإن الخِلافَ يُزْرِى بالرئيس المطاع؛ وإذاحاربتم فأوقعوا ثم قولوا صدقا؛ فإنه لاخيرَ فى الكذب ، وصونوا الخيول، فإنها حصون الرجال ؛ وأطيلوا الرماح ؛ فإنها قرون الخيل ؛ وأعزوا(3) الكبير بالكبير؛ فإنى بذلك كنتُ أغلبُ الناس ، ولا تغزُوا إلاّ بالعيون ؛ ولاتسرحوا حتى تأمنوا الصباح ؛ وأعطوا على حسب المال ، وأعجلوا الضيف بالقِرى؛ فإن خيرَه أعجلُه، واتقوا فضحاتِ البَغْى، وفلتاتِ المِزاح، ولا تجترئوا على الملوك ؛ فإن أيديَهم أطول من أيديكم ؛ واقتلوا كُرْزَ بن عامر .

ومات حصن فأخذ عيينة الرِّياسة ، وقال :

أطعتُ أبا عُيَينةَ فى هواهُ ... فلَمْ تَخلِجْ صَرِيمتِىَ الظُّنُونُ(4)

---

(1) حاشية الأصل (من نسخة) : « الأخير » . (2) ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « الكفى » . (3) س : « واغزو » . (4) الصريمة : العزيمة والرأى . وفى حاشية الأصل : « يقال : اختلجته الظنون وتخالجته وخلجته ، أى ظن ، والشاعر يقول : لم تأخذنى الظنون مآخذها إلى طمعه ، ولم أظن ظنا » .

وقَدْ عَرَضَ الرَّئيسُ على بَنِيهِ   فقال القَوْمُ : هَـــذا لا يكونُ
ستَحْيا أو تَموتُ ، فطاوَلوهُ[١]   وقَتْلُ المَرْءِ والِدَهُ جُنونُ
فلَمْ أُقْتَلْ بِحَمْدِ اللهِ حِصْناً   وَكلُّ فَتًى ستُدْرِكُهُ المَنُونُ
ولَمْ أنكُلْ عليـهِ ، وَكلُّ أمْرٍ   إذا هَوَّنْتَهُ يَوماً يَهُونُ
فإنْ يَكُ بَدْءُ هـذا الأمرِ غَثًّا   فآخِرُهُ بَنِي بَدْرٍ سَمِينُ

وحكى عمرو بن بحر الجاحظ أن اسم عيينة بن حصن حُذَيْفة، وإنما أصابته اللَّقْوَة[٢] فجحظت عينُه ؛ وزال فكُّه ، فسمي لذلك عُيَيْنَة ؛ وإذا عظمت عين الإنسان لقّبوه أباعيينة، وأبا عَيْناء .

وروى قيس بن أبي حازم أن عُيَيْنة بن حصن دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : «هذا أحقُ مطاع» .

وروى أيضاً أنه كان يدلَع[٣] لسانه للحسين بن عليّ عليهما السلام وهو صبيّ، فيَرى [الصبيّ][٤] لسانه، فيهشّ له، فقال له عيينة : ألا أراك[٥] تصنع هذا بهذا، فوالله إنه ليكون لي الابنُ رجلاً قد خرج وجهه، ماقبّلته قطّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «[٦]إنه مَن لم يرْحَم لا يُرْحَم[٦]» .

* * *

ونعود إلى ما كنا وعدْنا به من الكلام على شعر مروان ؛ فمما يُختار من شعره قوله من قصيدة أوّلها :

صَحَا بعدَ جَهْلٍ فاسْتَراحَتْ عَواذِلُهْ   وأقْصَرْنَ عنه حينَ أقْصَرَ باطِلُهْ
/ وَمَن مُدّ في أيامِهِ فتأخَّرَتْ   منيّتُه ، فالشّيبُ لا شكَّ شامِلُهْ [١٨٠ ط]

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) :

* سَيَحْيا أوْ يموتُ فطاولوه *

(٢) اللقوة : داء في الوجه يعوج منه الشدق. (٣) يقال دلع لسانه وأدلعه إذا أخرجه .
(٤) تكملة من ش . (٥) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « لا أراك » .
(٦-٦) حاشية الأصل (من نسخة) : « من لم يرحم لا يرحم » .

يقول فى المديح فيها :

هُوَ المَرْءُ ؛ أما دِينُهُ فَهْوَ مانِعٌ مَصُونٌ(١) ، وَأما مالُهُ فَهْوَ باذِلُه
أمَرٌّ وأحلى ما بلَى النَّاسُ طَعْمَهُ عِقَابُ أميرِ المُؤمِنِينَ ونائِلُه
أبِيٌّ لما يأبى ذَوُو الحَزْمِ والتُّقَى فَعُولٌ إذا ما جدَّ .بالأمر فاعِلُهْ
تَرُوكُ الهَوَى، لاالسُّخْطُ مِنْهُ ولاالرِّضَا لدَى مَوْطِنٍ إلاَّ على الحَقِّ حامِلُه(٢)
يَرَى أنَّ مُرَّ الحَقِّ أحْلَى مَغَبَّةً وأنجى وَلو كانتْ زُعافاً مناهِلُه
فإنَّ طَلِيقَ اللهِ مَنْ هو مُطْلِقٌ وَإنَّ قتيلَ اللهِ مَنْ هوَ قاتِلُه
وإنَّكَ بَعْدَ اللهِ لَلْحَكَمُ الذى تُصابُ بِهِ مِنْ كلِّ حَقٍّ مفاصِلُه

أما قوله :

ومَنْ مُدَّ فى أيامه فتأخَّرَت منيَّتُه، فالشَّيبُ لاَ شكَّ شامِله

فمأخوذ من قول طريح بن إسماعيل الثقفى :

وَالشَّيبُ غايةُ مَنْ تأخر حَيْنُهُ لا يَسْتَطِيعُ دِفاعَهُ مَنْ يجزَعُ

والأصل فى هذا قول أمية بن أبى الصَّلْت :

مَنْ لم يمُتْ عَبطَةً يَمُتْ هَرَماً وللمَوْتُ كأسٌ ، والمَرْءُ ذائقُها(٣)

ويشبه ذلك قول الآخر :

قُلْ لِعِرْسِي لَيْسَ شَيبِي بِعَجَبْ مَنْ يَعِشْ يا أمَّ عمارٍ يَشِبْ

ومثله قول أبى العتاهية :

مَنْ يَعِشْ يَهْرَمْ، ومن يكْبَرْ يمُتْ والمنايا لا تُبالى مَنْ أتَتْ(٤)

---

(١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « مصون » . (٢) حاشية الأصل : « أى لايحمد السخط ولا الرضا إلا على الحق » .

(٣) عبطة : أى شابا صحيحا ؛ كذا ذكره صاحب اللسان (فى عبط) ، واستشهد بالبيت . وفى نسخةش : « فالمرء ذائقها » . (٤) ديوانه : ٣٩ .

يشبهُه قول البحترىّ :

ولا بُدَّ مِنْ تَرْكِ إحْدَى اثنتَيْنِ فإمَّا الشَّبابُ وإما العُمُرُ(١)

/ ويقاربه أيضا قوله: [١٨١ و]

وَالشَّيْبُ مَهْرَبُ مَنْ جارَى مَنِيَّتَه ولا نجاء لهُ مِنْ ذَلِكَ الهَرَبِ(٢)

وقريب منه قول ابن المعتز:

وقالَتْ كَبِرْتَ وانتَضيت من الصِّبا فقُلْتُ لها: ماعِشْتُ إلاّ لأَ كْبَرَا(٣)

ولبعضهم :

ولا بُدَّ مِنْ مَوتٍ ؛ فإما شبيبةٌ وَإمَّا مَشِيبٌ ، والشبيبة أصْلحُ

معنى قوله : « والشبيبة أصلح » أنَّ الإنسان إذا مات شاباً كان أ كثرَ للحزن عليه والأسف على مفارقته، فإذا أسنَّ بَرِمَ به أهلُه، وهان عليهم فقدُه .

فأما قوله :

هوَ المَرْءُ ، أما دِينهُ فهوَ مانِعٌ مَصُون ، وَأما مالهُ فهوَ باذِلُه

فمعناه متكرر فى الشعر كثير جداً .

وأحسن شعر جمع بين وصف الممدوح ؛ بمنع ما يجب منعه ، وبذل ما يجب بذله قول مسلم بن الوليد :

يُذَكِّرُ نِيكَ الجُودُ والبُخْلُ والنُّهى وقَوْلُ الخنَا والحِلْمُ والعِلْمُ والجَهْلُ(٤)

فألقاكَ عن مَذْمُومِها مُتَنَزِّهاً وَأَلْقاكَ فى مَحْمُودِها وَلكَ الفَضْلُ

وأحْمَدُ مِنْ أخْلاقِكَ البخلَ إنهُ بِعِرْضِكَ ـ لا بالمالِ حاشا لكَ ـ البخْلُ

---

(١) ديوانه : ١ : ٢١٩ (٢) ديوانه ١ : ٣٠

(٣) ديوانه ١: ٣١، وانتضيت من الصبا ، أى خلع عنك صباك .

وقد أحسن البحترىُّ فى قوله :

بَلَوْنَا ضَرَائِبَ مَنْ قَدْ نَرَى ... فَمَا إِنْ وَجَدْنَا لِفَتْحٍ ضَرِيبَا[١]
تَنَقَّلَ فى سُلَّفَىْ[٢] سُؤْدُدٍ ... سَمَاحاً مُرَجًّى وبأساً مَهِيبَا
فَكَالسَّيْفِ إِنْ جِئْتَهُ صَارِخاً ... وكالبَحْرِ إِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فأما قوله :

تَرُوكُ الهوى، لا السخطُ منه ولا الرِّضا ... لَدَى موطنٍ إلا عَلَى الحقِّ حامِلُهْ

فمعنًى متداول[٣] مطروق فى الشعر ، وقد كرّره هو فى قوله :

إِذَا هُنَّ أَلْقَيْنَ الرِّحَالَ بِبَابِهِ ... حَطَطْنَ به ثِقْلاً، وأدرَكْنَ مَغْنَمَا[٤]
/إلى طاهرِ الأخلاقِ، ما نالَ فى رِضاً ... ولاَ غَضَبٍ مالاً حَرَاماً ولا دَمَا[٥] [١٨١ ظ]

وأحسن من هذا قول أبى تمّام فى محمد بن عبد الملك :

ثَبْتُ الخطابِ إِذَا اصْطَكَّتْ بِمُظْلِمَةٍ ... فى رَحْلِهِ أَلْسُنُ الأَقْوَامِ والرُّكَبُ[٦]
لا المَنْطِقُ اللَّغْوُ يَزْكُو فى مقاومه ... يوما ، ولا حُجَّةُ المَلْهُوفِ تُسْتَلَبُ
كأنَّمَا هوَ فى نادى قَبِيلَتِهِ ... لاَ القَلْبُ يَهْفُو ولا الأَحْشاءُ تَضْطَرِبُ
وتَحْتَ ذاكَ قَضَاءٌ حَزُّ شَفْرَتِهِ ... كما يَعَضُّ بِظَهْرِ الغَارِبِ القَتَبُ[٧]
لا سَوْرَةٌ تُتَّقَى منهُ ولا بَلَهٌ ... ولا يُخَافُ[٨] رِضاً منهُ ولاَ غَضَبُ

---

(١) ديوانه ١ : ١٠٥ ، من قصيدة يمدح فيها الفتح بن خاقان وزير المتوكل ويعاتبه، ومطلعها :

لوتْ بالسلام بنانا خضيبا ... ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا

ومن نسخة بحاشية الأصل : « فما إن رأينا لفتح ضريبا » . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « خلق سؤدد » ؛ وهى رواية الديوان . (٣) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « فبذول » .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « وأدين مغنما » .

(٥) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « طاهر الأثواب » . (٦) ديوانه : ٤٨—٤٩ . وفى م : « ثبت الجنان » . (٧) الغارب : الكاهل . القتب : مايوضع على ظهر الرحل .

(٨) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « ولا يخيف » .

ومثله قول البحترى فى ابن الزّيات أيضا :

وَجْهَ الحَقِّ بينَ أخْذٍ وإعْطا   ءٍ وقَصْدٍ فى الجَمْعِ والتَّبْدِيدِ (١)
واستَوَى النَّاسُ فالقَرِيبُ قَرِيبٌ   عندَهُ ، والبَعِيدُ غيرُ بَعِيدِ
لا يميلُ الهوَى بهِ حِينَ يُمضى الـ   أمْرَ بينَ المَقْلِىِّ والمَوْدودِ
وسَواءٌ لديْهِ أبناءُ إبْرا   هِيمَ فى حُكْمِهِ وأبناءُ هُودِ (٢)
مُستَرِيحُ الأحْشاءِ من كلِّ ضِغْنٍ   بارِدُ الصَّدْرِ من غَلِيلِ الحُقُودِ

فأما قوله :

* وإنَّ قتيلَ اللهِ مَنْ هوقاتلُهْ *

فيشبه أن يكون مأخوذا من قول يزيد بن مفرّغ فى عبيد الله بن زياد :

إنَّ الذى عاشَ خَتَّاراً بذِمَّتِهِ   وماتَ عبدًا قَتِيلُ اللهِ بالزَّابِ (٣)

أما قوله :

وإنك بعد الله لَلْحَكَمُ الذى   تُصاب به من كل حقٍّ مفاصِلُهْ

فيشبه قول أبى تمام يصف القلم ، من قصيدة يمدح بها ابن الزيات ، وأجمع العلماء أنّ هذه الأبيات أحسن وأفخم من جميع ما قيل فى القلم :

لكَ القلَمُ الأعْلَى الذى بِشَبَاتِهِ   تُصابُ من الأمرِ الكُلَى والمَفاصِلُ (٤)
[١٨٢ و] / لهُ الخَلَواتُ اللاّئى لوْلا نَجِيُّها   لما احْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ المَحافِلُ

---

(١) ديوانه ١ : ٢٠٥ .

(٢) أبناء إبراهيم : العدنانيون ، وأبناء هود : القحطانيون .

(٣) الزاب : موضع قريب من أذربيجان ؛ وقتيل الزاب هو عبيدالله بن زياد ابن أبيه ؛ قتله أصحاب المختار بن أبى عبيد ؛ ويقال : إن إبراهيم بن الأشتر حمل على كتيبته فانهزموا ، ولقى عبيدالله فضربه فقتله ؛ والبيت فى الأغانى ١٧ : ٦٨ ، وبعده :

العبْدُ للعبْدِ ، لا أصْلٌ ولا طرَفٌ   ألوتْ به ذاتُ أظفارٍ وأنيابِ

(٤) ديوانه : ٢٥٧ . الشباة هنا : حد القلم ، والكلى : جمع كلية أو كلوة .

لُعابُ الأفاعِي القاتِلاتِ لُعابُهُ ... وَأَرْىُ الجَنَى اشتارَتْهُ أَيْدٍ عَواسِلُ(١)
لهُ رِيقةٌ طَلٌّ ، وَلَكِنَّ وَقْعَها ... بآثارِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ وَابِلُ(٢)
فَصيحٌ إذا استَنْطَقْتَهُ وهو راكِبٌ ، ... وأَعْجَمُ إنْ خاطَبْتَه وَهوَ رَاجِلُ
إذَا ما امْتَطى الخَمْسَ اللِّطافَ وأُفْرِغَتْ ... عليْهِ شِعابُ الفِكْرِ وَهيَ حَوافِلُ(٣)
أطاعتْهُ أطْرافُ القَنا ، وتقوَّضَتْ ... لِنَجْواهُ تَقْويضَ الخِيامِ الجَحافِلُ
إذا استَغْزَرَ الذِّهْنَ الذَّكِيَّ وأقبلَتْ ... أعالِيهِ في القِرْطاسِ وهْيَ أسافِلُ
وقَدْ رفَدَتْهُ الخِنْصَرانِ وسَدَّدَتْ(٤) ... ثَلاثَ نَواحِيهِ الثلاثُ الأنامِلُ
رَأيتَ جَليلاً شأنُهُ وهْوَ مُرْهَفٌ ... ضَنًى ، وَسَميناً خَطْبُهُ وهْوَ ناحِلُ

---

(١) الأرى : العسل . اشتارته : استخرجته . عواسل : جمع عاسلة ؛ والعاسل: مستخرج العسل .

(٢) الطل فى الأصل : المطر القليل . والوابل : المطر الكثير .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « جعل القلم ممتطيا الأنامل ؛ لأنهن يحملنه وإن علونه ؛ ولو جعل القلم مطية للأنامل لأنها تعلوه لجاز وحسن. وقوله : « أفرغت عليه شعاب الفكر » دلالة قوية على أن الفكر مطية ؛ وبعد فهو منقول من قول أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة : «الأقلام مطايا الفطن » .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « شددت » .

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾؛ [التكوير: ٢٦-٢٩].

فقال : ما تأويل هذه الآية ؟ أوليس ظاهرُها يقتضى أنّا لا نشاء شيئا إلا والله تعالى شاءه لنا ، ولم يخصّ إيمانا من كفر ، ولا طاعةً من معصية ؟

الجواب ، قلنا : الوجه المذكور فى هذه الآية ، أنّ الكلام متعلّق بما تقدّمه من ذكر الاستقامة؛ لأنه تعالى قال: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾؟ ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ أى لا تشاءون الاستقامة إلاّ والله تعالى مريدٌ لها ؛ ونحن لا ننكر أن يريد الله تعالى الطاعات ؛ وإنما أنكرنا إرادتَه المعاصى ؛ وليس لهم أن يقولوا : تقدُّم ذكر الاستقامة لا يوجب قصرَ الكلام عليها ؛ ولا يمنع من عمومه ؛ كما أن السبب لا يُوجب قصرَ ما يخرج من الكلام عليه حتى لا يتعدّاه ؛ وذلك أن الذى ذكروه إنما يجب فيم يستقل بنفسه من الكلام دون مالا يستقل .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ لا ذكر للمراد فيه؛ فهو غيرمستقل [١٨٢ ط] بنفسه ؛ وإذا علّق بما تقدم من / ذكر الاستقامة استقلّ؛ على أنه لو كان للآية ظاهر يقتضى ماظنوه ـ وليس لها ذلك ـ لوجب الانصراف عنه بالأدلة الثابتة؛ على أن الله تعالى لا يريد المعاصىَ ولا القبائح ؛ على أن مخالفينا فى هذه المسألة لا يمكنهم حملُ الآية على العموم ؛ لأن العباد قد يَشاءُونَ عندهم مالاَ يشاؤه الله تعالى ؛ بأن يريدوا الشىء ويعزموا عليه ، فلا يقع لمنع أو غيره ؛ وكذلك قد يريد النبي عليه السلام من الكفار الإيمان، وتُعبِّدنا بأن نريد من المقدِم على القبيح تركَه ؛ وإن كان تعالى عندهم لا يريد ذلك إذا كان المعلوم أنه لا يقع ؛ فلا بد لهم

من تخصيص الآية؛ فإذا جاز لهم ذلك بالشُّبهة جاز لنا مثلُه بالحجة؛ وتجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾؛ [المزمل : ١٩] ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، [الإنسان : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، [المدثر : ٥٦] ، فى تعلّق الكلام بما قبله .

فإن قالوا : فالآية تدل على مذهبنا وبطلان مذهبكم[١] من وجه آخر؛ وهو أنه عزوجل قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ؛ وذلك يقتضى أنه يشاء الاستقامة فى حال مشيئتنا لها؛ لأن «أن» الخفيفة إذا دخلت على الفعل المضارع اقتضت الاستقبال؛ وهذا يوجب أنه يشاء أفعالَ العباد فى كل حال ، ويُبطل ما تذهبون إليه من أنه إنما يريد الطاعات فى حال الأمر .

قلنا : ليس فى ظاهر الآية ألاَّ نشاء إلاَّ ماشاءه الله تعالى فى حال مشيئتنا كما ظننتم ؛ وإنما يقتضى حصولَ مشيئته لما نشاؤه من الاستقامة من غير ذكر لتقدم ولا تأخر؛ ويجرى ذلك مجرى قول القائل : ما يدخل زيد هذه الدار إلا أن يدخلها عمرو ؛ ونحن نعلم أنه غير واجب بهذا الكلام أن يكون دخولها فى حالٍ واحدة؛ بل لا يمتنع أن يتقدّم دخول عمرو، ويتلوه دخول زيد، و«أن» الخفيفة وإن كانت للاستقبال على ماذكروه، فلم يبطل على تأويلنا معنى الاستقبال فيها؛ لأن تقدير الكلام: وماتشاءون الطاعات إلا بعد أن يشاء الله تعالى، ومشيئته تعالى قد كانت لها حال الاستقبال[٢].

وقد ذهب أبو علىّ محمد بن عبد الوهاب الجبائىّ إلى أنه لا يمتنع أن يريد تعالى الطاعات حالا بعد حال ؛ وإن كان قد أرادها فى حال الأمر ؛ كما يصحّ أن يأمر بها أمرا بعد أمر ؛ قال : / لأنه قد يصحّ أن يتعلّق بإرادته ذلك منا بعد الأمر وفى حال الفعل مصلحة ؛ ويعلم [١٨٣ و] تعالى أنا نكون متى علمنا ذلك كنا إلى فعل الطاعات أقرب ، وعلى هذا المذهب لا يعترض بما ذكروه .

---

(١) حاشية ف (من نسخة) : « مذاهبكم » . (٢) حاشية ف (من نسخة) : « حال استقبال » .

والجواب الأول واضح إذا لم نذهب إلى مذهب أبى علىّ فى هذا الباب ؛ على أنّ اقتضاء الآية للاستقبال من أوضح دليل على فساد قولهم ؛ لأن الكلام إذا اقتضى حدوث المشيئة واستقبالَها بطل قول مَنْ قال منهم : إنه مريد لنفسه ، أو مريد بإرادة قديمة ، وصحّ ماتقوله من أنّ إرادته متجدّدة محدثة .

ويمكن فى تأويل الآية وجه آخر مع حملنا إياها على العموم ؛ من غير أن نخصها بماتقدّم ذكره من الاستقامة ؛ ويكون المعنى : وماتشاءون شيئاً من فعالكم إلاأن يشاء الله تمكينكم من مشيئته ، وإقداركم عليها والتخلية بينكم وبينها ؛ وتكون الفائدة فى ذلك الإخبار عن الافتقار إلى الله تعالى ؛ وأنه لاقدرة للعبد على مالم يُقَدِّرْهُ الله تعالى عزّ وجل ، وليس يجب عليه أن يستبعد هذا الوجه ؛ لأن ماتتعلّق به المشيئة فى الآية محذوف غير مذكور ؛ وليس لهم أن يعلقوا قوله تعالى : ﴿ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ ﴾ بالأفعال دون تعلقه بالقدرة ؛ لأن كل واحد من الأمرين غير مذكور ، وكل هذا واضح بحمد الله .

* * *

ونعود إلى ما كنا وعدْنا به من الكلام على شعر مروان ؛ فما يختار قوله من قصيدة أوّلها :

طَرَقَتْكَ زائرةً ، فحىِّ خيالَها بَيْضاءُ تَخْلِطُ بالحَياءِ دلالَها

يقول فيها :

مالَتْ[1] بقلبِكَ فاستقادَ ومثلُها قادَ القُلوبَ إلى الصِّبا فأمالَها
وكأنَّما طَرَقَتْ بنفحَةِ روضَةٍ سَحَّتْ بها دِيَمُ الرَّبيعِ ظِلالَها
باتَتْ تُسائلُ فى المَنامِ مُعَرِّساً[2] بالبِيدِ أشْعَثَ لا يَمَلُّ سؤالَها
فى فِتيَةٍ هَجَعُوا غِراراً بعدَما سئموا مُراعَشَةَ السُّرَى ومِطالَها

---

(١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : «ملكت» .

(٢) التعريس : النزول فى آخر الليل

فَكأنَّ حَشْوَ ثِيابِهم هِنْدِيَّةٌ ... نَحَلَتْ وأغفَلَتِ العيونُ صِقالها

/ المراعشة[١] : تحريك الرأس فى السَّيْر من النوم . [١٨٣ ظ]

أما ذِكْرُه فى أول القصيدة طروقَ الطيف ؛ فإنه لم يأت فيه بمعنى غريب ؛ ولا لفظ مستعذَب ؛ وقد قال الناس فى الطَّيْف والخيالِ فأكثروا ، وقد سبق فى ذلك قيس بن الخَطيم إلى معنى ؛ كلُّ الناس فيه عيال عليه، وهو قوله:

أنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ! ... وتُقَرِّبُ الأحْلامُ غيرَ قَرِيبِ[٢]

ما تَمْنَعِى يَقْظَى فقدْ تُؤْتِينَهُ ... فى النَّوْمِ غيرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبِ

كانَ المُنَى بلقائِها فلَقِيتُها ... فلَهَوْتُ من لهوِ امرِئٍ مَكْذُوبِ

وقد أحسن جرير فى قوله :

أتَنْسَى إذْ تُوَدِّعُنا سُلَيْمَى ... بفَرْعِ بشامةٍ، سُقِىَ البَشامُ[٣]

بِنَفْسِى مَنْ تَجَنُّبُه[٤] عزيزٌ ... علىَّ، ومَنْ زِيارَتُه لِمامُ

ومن أُمْسِى وأُصبِحُ لا أَراهُ ... ويطرُقُنى إذا هَجَعَ النِّيامُ

وهذه الأبيات وإن خلَتْ من معنى فى ذكر الطيف غريب، فلم تَخْلُ من لفظٍ مستعذَب.

ولأبى عبادة البحترىّ فى وصف الخيال الفضْل على كل متقدِّم ومتأخِّر ؛ فإنه تغلغل فى

---

(١) حاشية الأصل : « فى نسخة الشجرى : قال السيد المرتضى رضى الله عنه : المراعشة فى الأصل : تحريك الرأس فى السير من النوم » وفيها أيضا : « الرعش: المشى الضعيف، من الإعياء وغيره » .

(٢) ديوانه : ٥ ، وحماسة ابن الشجرى ١٨٩ ، واللآلى : ٥٢٤ . وانظر ص ٣٩٣ من هذا الجزء .

(٣) ديوانه : ٥١٢ ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات . والبشامة : واحدة البشام ؛ وهو شجر ذو أفنان وورق صغير ؛ إذا قصفت غصونه سال منها سائل أبيض كاللبن ؛ يتخذ منه سواك ؛ يريد أنها أشارت بسواكها تودعه ؛ ولم تتكلم مخافة الرقباء .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « تجنبه » وهى رواية الديوان . ولمام : قليل .

أوصافه، واهتدى من معانيه إلى مالا يوجد لغيره، وكان مشغولا بتكرار القول فيه لهجا بإبدائه وإعادته؛ وإن كان لأبي تمام في ذلك مواضع لا يجهل فضلها، ومحاسن لا يُبْلَغُ شأوها ؛ فمما لأبي تمام قوله:

زارَ الخيالُ لها ، لا بل أزارَكَهُ ... فِكْرٌ إذا نامَ فِكْرُ الخَلْقِ لم يَنَمِ (١)
ظَبْيٌ تَقَنَّصْتُهُ لمَّا نَصَبْتُ لهُ ... من آخرِ اللَّيْلِ أشْرَاكًا من الحُلُمِ
ثمَّ اغْتَدَى، وبنا من ذِكْرِهِ سَقَمٌ ... باقٍ، وإنْ كانَ مشغولاً (٢) من السَّقَمِ

وقوله :

عادَكَ الزَّوْرُ ليلةَ الرَّمْلِ من رَمْـ ... لَةَ بين الحِمَى وبينَ المطالي (٣)
ثم ما زارَكَ الخيالُ ولكنْـ ... ـنَكَ بالفِكْرِ زُرْتَ طَيْفَ الخيالِ

وقوله :

اللَّيَالِي أحْفَى بقلبي إذا ما ... جَرَحَتْهُ النَّوَى من الأيامِ
يا لها / لَذَّةً تَنَزَّهَتِ الأرْ ... واحُ فيها سرًّا من الأجْسامِ [١٨٤ و]
مجلسٌ لم يكنْ لنا فيه عيبٌ ... غيرَ أنَّا في دَعْوَةِ الأحلامِ

فأما البحتريّ فقوله في هذا المعنى أكثرُ من أن يذكر جميعه هاهنا؛ غير أنا نشير إلى نادره ، فمن ذلك قوله :

فلا وصْلَ إلاَّ أنْ يُطيفُ خيالُها ... بنا تحتَ جُوْشوشٍ من اللَّيلِ أسْفَعِ (٤)
ألمَّتْ بنا بعدَ الهُدُوِّ فساحَتْ ... بوَصْلٍ متى تطلُبْهُ في الجِدِّ تمنَعِ
وما بَرِحَتْ حتَّى مَضَى اللَّيلُ وانقضَى ... وأعْجَلَها داعي الصَّباحِ المُلَمَّعِ
فوَلَّتْ كأنَّ البَيْنَ يخلَجُ شخْصَها ... أوانَ تولَّتْ منْ حَشايَ وأضْلُعي (٥)

---

(١) ديوانه : ٢٦٨ . (٢) د ؛ ومن نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « معسولا ؛ أي وإن كان ذلك السقم حلوا كالعسل » . (٣) المطالي : موضع .

(٤) ديوانه : ٢ : ٧٨ . وفي حاشية الأصل : « الجؤشوش : الصدر ؛ وكذلك الجوش والجوشن . أسفع : أسود » . (٥) حاشية الأصل : « الخلج : الجذب ؛ يقول : كأن البين يخلجها من حشاي وأضلعي » .

وَرُبَّ لِقاءٍ لم يُؤَمَّلْ وفُرْقَةٍ   لأَسْماءَ لم تُحذَرْ ولم تُتَوَقَّعِ
أَرَانِيَ لا أنفكُّ فى كلِّ ليلةٍ   تُعاوِدُ فيها الآلِكيَّةُ مَضْجَعِى
أُسَرُّ بِقُرْبٍ مِنْ مُلِمٍّ مُسلِّمٍ   وأشْجَى بِبَيْنٍ من حَبيبٍ مُوَدِّعٍ
فكانَ لنا بعدَ النَّوَى من تفرُّقٍ   تَرَجِّيهِ أحْلامُ الكرَى ، وتَجمُّعِ

وكقوله :

وإنّى وإنْ ضَنَّتْ علىَّ بوُدِّها   لأَرْتاحُ مِنْها للخَيالِ المُؤَرِّقِ[1]
يَعِزُّ على الواشِينَ لو يَعْلَمُونَها   ليالٍ لنا نَزْدارُ فيها ونلتقِى
فَكَم غُلَّةٍ للشَّوقِ أطفأْتُ حرَّها   بطَيْفٍ متى يَطْرُقْ دُجَى الليلِ يَطْرُقِ
أَضُمُّ عليهِ جَفْنَ عَيْنِى تعلُّقًا   به عندَ إجْلاءِ النُّعاسِ المُرَنَّقِ

وقوله :

بَلَى وخَيالٍ من أُثَيْلَةَ كلَّما   تأوَّهْتُ من وَجْدٍ تعرَّضَ يُطْمِعُ[2]
إذا زَوْرَةٌ منهُ تقضَّتْ مع الكرَى   تنبَّهْتُ من وَجْدٍ له أتفزَّعُ
تَرَى مُقْلَتِى مالا تَرَى فى لِقائِهِ   وتَسْمَعُ أُذْنِى رَجْعَ ماليسَ تسمَعُ
ويَكْفِيكَ من حقٍّ تَخَيُّلُ باطلٍ   تُرَدُّ به نفسُ اللَّهِيفِ فتَرْجِعُ

وقوله:

/إذا ما الكرَى أهدَى إلىَّ خيالَهُ   شفَى قُرْبُهُ التَّبْرِيحَ أو نَقَعَ الصَّدَى[3]   [١٨٤ ظ]
إذا انتزَعَتْه من يدىَّ انتباهةٌ   عددْتُ حَبِيبًا راحَ مِنِّىَ أو غدا
ولمْ أرَ مِثْلَيْنا ولا مِثْلَ شأْنِنا   نُعذَّبُ أيقاظًا ونَنْعَمُ هُجَّدا

وقوله :

فما نَلْتَقِى إلاَّ على حُلْمِ هاجِدٍ   يُحِلُّ لنا جدواكَ وهىَ حرامُ[4]

---

(١) ديوانه ٢ : ١٢٢ .   (٢) ديوانه ٢ : ٨٧ ؛ وفيه : « وخيال من قتيلة » .
(٣) ديوانه ١ : ١٧٤ .   (٤) ديوانه ٢ : ٢٤٩ .

إذا ما تَبادَلْنا النَّفائِسَ خِلْتَنا ... مِنَ الجِدِّ أيقاظاً ونحنُ نِيامُ (١)

وقوله :

ولَيْلَةَ هَوَّمْنا على العِيسِ أرْسَلَتْ ... بِطَيفِ خَيالٍ يُشبِهُ الحَقَّ باطِلُه (٢)
فلولا بَياضُ الصُّبحِ طالَ تَشبُّثى ... بِعِطفَىْ غَزالٍ بِتُّ وهناً أغازِلُه

٥ وقوله :

أمِنْكِ تأوُّبُ الطَّيْفِ الطَّرُوبِ ... حَبيبٌ جاءَ يُهْدَى من حَبيبِ (٣)
تَخَطَّى رِقْبَةَ الواشِينَ كُرْها (٤) ... وبُعْدَ مسافَةِ الخَرْقِ المَجُوبِ
يُكاذِبنى وأصْدُقُه وِداداً ... ومِنْ كَلَفٍ مُصادَقةُ الكَذُوبِ

وقوله :

١٠ ما تَقَضَّى لُبانَةٌ عند لُبْنَى ... والمُعَنَّى بالغانياتِ مُعَنَّى (٥)
هَجَرَتْنا يَقْظَى وكادَتْ على مذْ ... هَبِها (٦) في الصُّدودِ تَهْجُرُ وَسْنَى
بَعْدَ لأْيٍ وقَدْ تَعَرَّضَ مِنها ... طائفٌ عَرَّجَتْ على الرَّكْبِ وهْنا

قال المرتضى رضى الله عنه : ووجدت أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدىّ مع ميله إلى البحترىّ وانحطاطه فى شِقِّه، واجتهاده فى تأويل ما أُخِذَ عليه من خطأ وزلل يزعم أن البحترىّ

١٥ أخطأ فى قوله :

هَجَرَتْنا يَقْظَى وكادَتْ على مذْ ... هبِها فى الصُّدودِ تَهْجُرُ وَسْنَى

قال: "لأن (٧) خيالها يتمثّله فى كلّ أحوالها ؛ يقظى كانت أو وَسْنَى". قال: "ولكنّ الجيد فى هذا المعنى قوله:

---

(١) حاشية الأصل : « فى نسخة س : قرأت فى ديوانه على شيخى : « خلتنا » ، بضم التاء .

(٢) ديوانه ٢ : ١٦٢ . (٣) ديوانه ١ : ٨٤ .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « وهنا » ؛ وهى رواية الديوان .

(٥) ديوانه ٢ : ٢٩٠ . (٦) فى الديوان : « عادتها » :

(٧) الموازنة بين أبى تمام والبحترى : ١٨٨ .

أُرِدْ دُونَكِ يَقْظَانًا ويأْذَنُ لى عَلَيْكِ سُكْرُ الكرَى إن جئتُ وَسْنانا

قال : "والذى أوقع البحترىّ فى هذا الغلط قول قيس بن الخَطِيم :

/ ما تَمْنَعِي يَقْظَى فقد تُؤْتِينَهُ في النَّوْمِ غيرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبِ [١٨٠ و]

وكان الأجود أن يقول : ما تمنعى فى اليقظة فقد تؤتينه فى النوم ، أى ماتمنعينه فى يقظى فقد تؤتينه فى حال نومى ؛ حتى يكونَ النوم واليقظةُ منسُوبين إليه ؛ لأن خيال المحبوب يتمثّل فى حال نومه ويقظته جميعاً ، قال : إلاّ أنه يتّسع من التأويل فى هذا لقيس مالا يتّسع للبحترىّ لأن قيسا قال : « فقد تؤتينه فى النوم » ولم يقل نائمة ؛ وقد يجوز أن يُحْمَل على أنه أراد : ماتمنعى يَقظى وأنا يقظان ؛ فقد تؤتينه فى النوم، أى فى نومى ؛ ولا يسوغ مثل هذا فى بيت البحترىّ لأنه قال : «وسْنى» ولم يقل فى الوسن".

قال سيّدنا أدام الله علوّه : وقد يمكن من التأويل للبحترىّ ماأمكن مثلُه لقيس؛ لكنّ الآمدىّ قد ذهب عن ذلك؛ لأن البحترىّ لما قال: « وَسْنى » دلّ على حال الوَسَن؛ والحال المعهودة للوسَن حالٌ يشترك الناس فيها فى النوم بالعادة ، كما أنّ الحال المعهودة لليقظة حالٌ مشتركة بالعادة؛ فقوله : « وَسْنى » يُنبِىء عن كونه هو أيضاً نائماً ؛ وإنما أراد المقابلة فى زِنة اللفظ بين يقظَى ووسنَى.

وقوله : «يقظى» متى لم يُحمل أيضا على هذا المعنى لم يصحّ ؛ لأنه لابدّ أن يريد بذلك: هجَرْتنا فى أحوال اليقظة ؛ ويكون معنى « يَقْظَى » يتعدّى إليه ؛ ألا ترى أن الآمدىّ حمل قول قيس:« يقظى » على معنى : «وأنا يقظان» وإن لم يبيِّن الوجه ! ؛ فكيف ذهب عليه مثلُ ذلك فى قول البحترىّ !

وقوله: «وسنى» و«يقظى» مثل قول قيس: «يقظى»، ولو مكّن قيسا وزنُ الشعر من أن يقول؛ «وسنى» فى مقابلة: «يقظى» لقاله وما عدل عنه إلى النوم؛ لأنه لم يكن عليه فى «وسْنَى» إلا ما عليه فى « يَقْظى»، وما يُتأوّل له فى أحد الأمرين يُتأوّل له فى الآخر .

قال سيدنا أدام الله تمكينه : ولى فى الخيال وطروقه معنًى ماعلمت أنه سُبِق إليه ، من جملة قصيدة :

وَزَوْرٍ تَخَطَّى جُنُوبَ المَلاَ ... فَنَادَيْتُ أَهْلاً بِذَا الزَّائِرِ
أتانِي هُدُوًّا وعَيْنُ الرَّقِيـ ... ـبِ مَطْرُوفةٌ بالكَرَى الغامِرِ
فأَعْجِبْ بِهِ يُنْصِفُ الماجِرِينَ ... وَتُخْرِمُهُ مُقْلَةُ السَّاهِرِ
[١٨٥ ظ] / وَعَهْدِى بتَمْوِيهِ عَيْنِ المحبِّ ... يَنِمُّ على قَلْبِهِ الطَّائِرِ
فلمَّا الْتَقَيْنَا بِرَغْمِ الرُّقا ... ةِ مَوَّهَ قَلْبِي على نَاظِرِي

ومعنى البيت الآخر أن الأحلام إنما هى اعتقادات تَحْصُل فى القلب لاحقيقة لأكثرها؛ لأن الإنسان يعتقد أنه راءٍ لما لا يراه على الحقيقة ، ومُدْرِكٌ لما ليس بمدْرِكه على الحقيقة ؛ فالقلب يخيِّل فى النوم للعين مالا حقيقة له ؛ كما أنَّ العين تخيِّل فى كثير من الأحوال للقلب مالا حقيقةَ له .

فأما قول مروان :

* فكأنَّما طرقَتْ بنفحة روضَةٍ * . . البيت

فيشبه أن يكون مأخوذاً من قول نَهْشَل بن حَرِّىّ(١) :

طَرَقَتْ أسماءُ الرِّحالَ ودُونَها ... ثِنْيانِ من لَيلِ التَّمامِ الأَسْوَدِ(٢)
وَمَفاوِزٌ وَصلَ الفَلاَةَ جُنُوبَها ... بِجُنُوبِ أُخْرَى ، غيرَ أنْ لم تُعْقَدِ

(١) حاشية الأصل : « منسوب إلى الحرة ؛ موضع فيه حجارة سود » .

(٢) فى حاشيتى الأصل ، ف : « الثنى : واحد أثناء الشىء أى تضاعيفه ، وثنى الوادى والجبل : منعطفه » . ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « بينان » ؛ وهو مثنى بين ؛ والبين : القطعة من الأرض على مد البصر . ومن نسخة أيضا :

* نَقَيَانِ مِنْ رَمْلِ التَّمامِ الأَسْوَدِ *

وفى حاشيتى الأصل ، ف : « يقال : ولد المولود لتمام ، وقمر تمام [بفتح التاء وكسرها] ، وليل التمام ، بالكسر لاغير ؛ وهى أطول ليلة فى السنة » .

رَمْلٌ إذَا أيْدِي الرِّكَابِ قَطَعْنَهُ   قَرِعَتْ مَنَاسِمُهَا بِقُفٍّ قَرْدَدِ (١)
وكأَنَّ رِيحَ لَطِيمَةٍ هِنْدِيَّةٍ   وذَكِيَّ جَادِيٍّ بِنِصْعٍ مُجْسَدِ (٢)
ونَدَى خُزَامَى الجَوِّ ، جَوِّ سُوَيْقَةٍ   طَرَقَ الخَيَالُ بِهِ بُعَيْدَ المَرْقَدِ (٣)

أو من قول الآخر :

طَرَقَتْكَ زَيْنَبُ والمَزَارُ بَعِيدُ   بِمِنًى ونَحْنُ مُعَرِّسُونَ هُجُودُ (٤)
فكَأَنَّمَا طَرَقَتْ بِرَيَّا رَوْضَةٍ   أُنُفٍ يُسَحْسِحُ مُزْنُهَا ويَجُودُ (٥)

وهذا المعنى كثير فى الشعر المتقدم والمتأخر جداً .

فأما قوله :

* باتت تسائل فى المنام معرّساً *

البيت ، والبيتان اللذان بعده ؛ فقد قال الناس فى وصف قلة النوم ، ومواصلة السُّرَى ، والإدلاج ، وشُعْثِ السارين فأكثروا ، فمن أحسن ما قيل فى ذلك قول لَبيد :

وَمَجُودٍ من صُبَابَاتِ الكَرَى   عَاطِفِ النُّمْرُقِ صَدْقِ المُبْتَذَلْ (٦)

---

(١) الركاب : الإبل ؛ والمناسم : جمع منسم كمجلس : خف البعير . والقف : ما ارتفع من الأرض وغلظ . والقردد : الغليظ المرتفع .   (٢) اللطيمة : العير التى تحمل الطيب والمسك . والجادىّ : الزعفران . والنصع : الثوب الأبيض . والمجسد : المصبوغ بالزعفران .

(٣) الخزامى : نبت طيب الريح . وجو سويقة : موضع بالصمان .

(٤) يقال : عرس القوم بالمكان وأعرسوا ؛ إذا نزلوا فى آخر الليل للاستراحة .

(٥) روضة أنف : لم ترع . ويسحسح : يسيل . والجود : المطر الغزير .

(٦) ديوانه ٢ : ١٣ . المجود : الذى يجهد من النعاس ؛ كذا ذكره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت . وفى حاشية الأصل : « المجود الذى سقى الجود ؛ وهو المطر ؛ والمعنى هنا على التشبيه ؛ كأن النوم جاده ؛ أى مطره . والصبابات : جمع صبابة ؛ وهى البقية . والنمرقة ، مثلثة : الطنفسة فوق الرحل . وصدق المبتذل : جلد قوى لا يتغير عند ابتذاله نفسه ولا يسقط ؛ والمبتذل : مصدر بمعنى الابتذال ؛ وهو ضد الصيانة » .

[١٨٦ و] / قالَ هَجِّدْنا فقدْ طالَ السُّرَى ... وقَدَرْنَا إنْ خَنَى الدَّهْرِ غَفَلْ(١)

فَلَمَّا عَرَّسَ حَتَّى هِجْتُه ... بالتَّبَاشِيرِ من الصُّبْحِ الأُوَلْ(٢)

يَلْمَسُ الأَحْلاسَ في مَنْزِلِهِ ... بيَدَيْهِ كاليَهُودِيِّ المُصَلْ(٣)

يَتَمارَى في الذي قُلْتُ لهُ ... وَلَقَدْ يَسْمَعُ قَوْلِي حَيَّهَلْ(٤)

ومن ذلك قول ذي الرمة :

وَلَيلٍ كأثْناءِ الرُّوَيْزِيِّ جُبْتُهُ ... بأَرْبَعةٍ، والشَّخصُ في العَيْنِ واحِدُ(٥)

ــ والرُّوَيْزِيّ ، هو الطيلسان . وقد روى أيضاً: « كجلباب العروس ادرَعْتُه »؛ وكل ذلك وَصْفٌ له بالسواد ؛ لأن الطيلسان أسود ، وجلباب العروس أخضر ، والعرب تجمع بين الخضرة والسواد ــ

أحَمُّ عِلافِيٌّ ، وأبيضُ صارِمٌ ، ... وأعْيَسُ مهرِيٌّ ، وأشْعَثُ ماجِدُ(٦)

---

(١) هجدنا ؛ من التهجيد ؛ وهو هنا بمعنى النوم ؛ أى دعنا تنام . والسرى : سير عامة الليل وقدرنا ، أى وقدرنا على ورود الماء ، أو قدرنا على التهجيد ، أو على السير . وخنى الدهر : آفته وفساده ؛ أى إن غفل عنا فساد الدهر فلم يعقنا .

(٢) فلما ؛ ما المتصلة بقل كافة لها عن طلب الفاعل ؛ وتجعلها بمنزلة ما النافية فى الأغلب ؛ وهنا لإثبات القلة . والتعريس : النزول فى آخر الليل للاستراحة : وهجته : أيقظته من النوم ، وهاج يهيج : يجيء لازما ومتعديا . وبالتباشير ، أى بظهورها . والتباشير : أوائل الصبح ، جمع تبشير . والأول : صفة التباشير ؛ وهو جمع أولى مؤنث الأول .

(٣) يلمس الأحلاس ؛ يطلبها ، والأحلاس : جمع حلس ؛ وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله . وقوله: « كاليهودىّ المصل » ؛ قال فى حاشية الأصل : « شبهه باليهودىّ لأنه يسجد على شق وجهه ، وأصل ذلك أنهم لما نتق الجبل فوقهم قيل لهم : إما أن تسجدوا وإما أن يلقى عليكم ، فسجدوا على شق واحد مخافة أن يسقط عليهم الجبل ؛ فصار عندهم سنة إلى اليوم » . وكذا جاء فى شرح الطوسى .

(٤) التمارى : المجادلة . وحيهل : اسم فعل بمعنى أسرع وعجل ؛ وهذه الأبيات أوردها صاحب الخزانة (٢ : ٢٨) نقلاعن الفرر .

(٥) ديوانه : ١٢٩ . أى لاتتفاوت الشخوص والألوان فيه لظلمته .

(٦) يقول : جبت الليل بأربعة ؛ ثم فسر الأربعة فقال : أحم أسود ؛ ويعنى به الرحل ، وعلافىّ : منسوب إلى علاف ؛ وهو رجل من قضاعة . والأبيض الصارم : السيف القاطع . والأعيس: الأبيض ، يعنى بعيره. والماجد: الكثير الفاخر؛ وفى حاشية الأصل : « الإبل المهرية : منسوبة إلى مهرة بن حيدان ، =

أَخُو شُقَّةٍ جابَ الفَلاةَ بنفسِهِ ... على الهَوْلِ حتَّى لوَّحَتْهُ المَطَارِدُ[١]
وأشعثَ مِثْلِ السَّيْفِ قد لاحَ جِسْمَهُ ... وَجِيفُ المَهَارَى والهُمُومُ الأَبَاعِدُ[٢]
سَقَاهُ الكَرَى كأسَ النُّعاسِ فرأسُهُ ... لدِينِ الكَرَى من آخرِ الليلِ ساجِدُ
أَقَمْتُ له صَدْرَ المطِيِّ فما دَرَى ... أَجائرةٌ أعناقُها أَمْ قَوَاصِدُ!
تَرَى النَّاشِئَ الغِرِّيدَ يُضْحِي كأنه ... على الرَّحْلِ مِمَّا منَّهُ السَّيْرُ عاصِدُ[٣]

ومن ذلك قول أبي حيَّةَ النُّميريّ :

وأغيَدَ من طُولِ السُّرَى بَرَّحَتْ بهِ ... أفانِينُ نَهَّاضٍ على الأَيْنِ مِرْجَمِ[٤]
سَرَيْتُ بهِ حتَّى إذا ما تَمَزَّقَتْ ... تَوَالِي الدُّجَى عن وَاضِحِ اللَّوْنِ مُعْلَمِ
أَنَخْنَا فلمَّا أنْ جَرَتْ في دِماغِهِ ... وعَيْنَيْهِ كأسُ النَّوْمِ قلتُ له: قُمِ
فما قامَ إلاَّ بين أيدٍ تُقِيمُهُ ... كما عَطَفَتْ ريحُ الصَّبَا خُوطَ ساسَمِ[٥]
خَطَا الكَرَى مَغْلُوباً كأنَّ لِسانَهُ ... لِما رَدَّ من رَجْعٍ لِسانُ المُبَلْسَمِ
وَوَدَّ بوُسْطَى الخَمْسِ منهُ لوانَّنا ... رَحَلْنا وقُلْنا في المُنَاخِ له: نَمِ[٦]

= والجمع المهاريّ، ثم تخفف فيقال: مهارى ، وتفتح الراء فيقال: مهارَى، تشبيهاً بصحارى وعذارى، وأصله صحاريّ وعذاريّ، فنهم من يحذف الياء فيقول صحارِي [بالكسر]، ومنهم من يحذف الأولى ويجعل الثانية ألفاً فيقول صحارَى [بالفتح] لتسلم الألف من الحذف عند التنوين ، ومن يحذف الثانية يقول : صحارٍ كجوارٍ » .

(١) جاب الفلاة : قطعها . ولوحته : أبعدته . وفي الديوان : « لوحته » . وفي حاشية الأصل : « المطارد : المواضع التي يطرد فيها . ويجوز أن يكون جمع مطرد » . وفي الديوان : « المطاود » . وفي شرحه: « المطاود : الذهاب في الأسفار » . (٢) أشعث ، يعني صاحبه ، يشبهه بالسيف في ضموره ودقته ؛ والوجيف: نوع من السير . (٣) الناشئ : الشاب . والغريد: ذو الصوت الحسن . وفي حاشية الأصل . « العاصد من الإبل : الذي يلوي عنقه إلى حاركه عند الموت . والعصد : اللّيّ » .

(٤) المرجم : الرجل الشديد ، كأنه يرى به معاديه .

(٥) الساسم : نوع من الشجر ؛ قيل هو الأبنوس . (٦) بوسطى الخمس ؛ أي بدل قطع الوسطى ؛ وفي حاشية الأصل : « يروى « بجدع الأنف » ، ويروى : « بقطع الخمس » .

مجلس آخر [٤٢]

تأويل آية

[١٨٦] إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ؛ [هود : ٢٠].

فقال: أي معنى لاختصاص «الأرض» بالذكر وهم لا يفوتون الله تعالى ولا يُعجزونه، ولا يخرجون عن قبضته على كل حال، وفي كل مكان؟ ولِمَ نفَى الأولياء عنهم، وقد نجد أهلَ الكفر يتولّى بعضُهم بعضا وينصرونهم ويَحمونهم من المكاره؟ وكيف نفَى استطاعتهم للسمع والإبصار، وأكثرهم قد كان يسمع بأذنه ويرى بعينه؟

الجواب، قلنا: أمّا الوجه في اختصاص الذكر بالأرض، فلأنّ عادة العرب جاريةٌ بقولهم للمتوعَّد: لا مهربَ لك مني، ولا وَزَرَ، ولا نَفَق، والوزَر: الجبل، والنَّفَق: السَّرَب، وكلُّ ذلك مما يلجأ إليه الخائف المطلوب، فكأنه تعالى نفَى أن يكون لهؤلاء الكفار عاصم منه، ومانع من عذابه؛ وأن جبال الأرض وسهولَها لا تحجز بينهم وبين ما يريد إيقاعه بهم؛ كما أنها تحجز عن كثير من أفعال البشر؛ لأنّ معاقل الأرض هي التي يهرب إليها البشر من المكاره؛ ويلجئون إلى الاعتصام بها عند المخاوف؛ فإذا نفَى تعالى أن يكونَ لهم في الأرض معقل فقد نفَى المعقل من كل وجه.

فأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فمعناه أنه لا وليَّ لهم، ولا ناصرَ من عذاب الله تعالى وعقابه لهم في الآخرة؛ ولا مما يريد أيضا إيقاعَه بهم في الدنيا، وإنْ كان لهم مَن يحميهم من مكروه البشر وينصرهم ممن أرادهم بسوء؛ وقد يجوز أن يكون ذلك أيضاً بمعنى الأمر، وإن كان مخرجه مخرج الخبر؛ ويكون التقدير: وليس لهم أن يتخذوا أولياء

من دون الله، بل الواجب أن يرجعوا إليه فى معونتهم ونصرهم، ولا يعوّلوا على غيره.

فأما قوله عز وجل: ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ففيه وجوه:

أحدها أن يكون المعنى: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون؛ وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون؛ عِناداً للحق، وذهاباً عن سبيله؛ فأسقط الباء من الكلام، وذلك جائز كما جاز فى قولهم: لأجزينّك بما عملت، ولأجزينّك ما عملت؛ ولأحدثنّك بما عملت، ولأحدثنك ما عملت؛ وكما قال الشاعر:

نُغَالِى اللَّحْمَ لِلأَضْيَافِ نِيئاً ... وَنَبْذُلُه إذا نَضِجَ القَدِيرُ[1]

فأراد: نغالى باللحم.

والوجه الثانى أنهم لاستثقالهم استماعَ آيات الله تعالى، وكراهيتهم[2] تذكّرها وتفهّمها جروا مَجْرى مَنْ لا يستطيع السمعَ، كما يقول القائل: ما يستطيع فلان أن ينظر لشدّة عداوته إلى فلان، وما يقـــدر على أن يكلمه؛ وكما نقول لمن عهدنا منه العناد والاستثقال لاستماع الحجج والبينات: ما تستطيع أن تسمع الحق؛ وما تطيق أن يُذْكَرَ لك؛ وكما قال الأعشى:

وَدِّعْ هرَيْرَةَ إنّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أيُّها الرَّجُلُ[3]!

ونحن نعلم أنه قادرٌ على الوداع؛ وإنما نفى قدرته عليه من حيث الكراهة والاستثقال.

ومعنى: ﴿ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ أى أن إبصارَهم لم يكن نافعا لهم؛ ولا مُجْدِياً عليهم؛ مع الإعراض عن تأمل آيات الله تعالى وتدبرها؛ فلما انتفتْ عنهم منفعة الإبصار جاز أن ينفى عنهم الإبصار نفسه؛ كما يقال للمعرض عن الحق، العادل عن تأمله: مالك لا تبصر، ولا تسمع؛ ولا تعقل؟ وما أشبه ذلك.

---

(١) البيت فى اللسان (غلا): قال فى شرحه: «نغالى اللحم، نشتريه غاليا، ثم نبذله ونطعمه إذا نضج فى قدورنا». والقدير: ماطبخ من اللحم بتوابل.

(٣) ديوانه: ٤١.

والوجه الثالث (١) أن يكون معنى نفى السمع والبصر (١) راجعاً إلى آلهتهم لا إليهم؛ وتقدير الكلام : أولئك وآلهتهم لم يكونوا معجزين فى الأرض، يضاعف لهم العذاب؛ ثم قال مخبراً عن الآلهة : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ، وهذا الوجه يُرْوَى (٢) عن ابن عباس رحمة الله عليه ، وفيه أدنى بعد .

ويمكن فى الآية وجه رابع ، وهو أن يكون مافى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ ليست للنفى؛ بل تجرى مجرى قولهم: لأواصلنَّك مالاح نجم؛ ولأقيمنَّ على مودتك ما طلعتْ شمس ؛ ويكون المعنى أن العذاب يضاعف لهم فى الآخرة ؛ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ؛ أىْ أنهم معذبون ما كانوا أحياء .

فإن قيل : كيف يعبِّر عن كونهم أحياء باستطاعة السمع والإبصار ؛ وقد يكون حياً مَن لا يكون كذلك ؟

[١٨٧ ظ] قلنا : للعرب فى مثل هذا / عادة ؛ لأنهم يقولون : والله لا كلَّمت فلاناً مانظرتْ عينى، ومشتْ قَدَمى ؛ وهم ، يريدون : ما بقيتُ وحييتُ ؛ لأن الأغلب من أحوال الحىّ أن تنظر عينُه ، وتمشى قدمه ؛ فجعلوا الأغلب كالواجب ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

وما أَنْسَ مِنْ شَىْءٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... فَلَسْتُ بِنَاسٍ ما هدَتْ قَدَمِى نَعْلِى
عَشِيَّةَ قالتْ والدُّمُوع تُعِينُها: (٣) ... هَنِيئاً لِقَلْبٍ عنكَ لم يُسْلِهِ مُسْلِى (٤)

وإنما أراد : أنّى لا أنسى ذلك ما حييتُ ؛ وكذلك لا يمتنع أن يعلّق على هذا المذهب دوامُ العذاب بكونهم مستطيعين للسمع والإبصار ؛ ويعودُ المعنى إلى تعلُّقه ببقائهم، وبكونهم أحياء ؛ والمرجع فى ذلك إلى التأبيد ؛ لأنه إذا علّق العـذاب ببقائهم وإحيائهم وعلمْنا أنْ الآخرة لا موت فيها، ولا خروج عن الحياة ، علمنا تأبيد العذاب .

* * *

(١ـ١) حاشية ف (من نسخة) : « أن يكون نفى السمع والبصر » .
(٢) م : « مروى » . (٣) د ، ف : « يبينها » .
(٤) د ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « مسل » .

ونعود إلى ما كنا شرعنا فيه من الكلام على شعر مروان؛ فمما يختار له من القصيدة التي مضى أولها وتكلمنا عليها:

وَضَعُوا الخُدُودَ لدَى سَوَاهِمَ جُنَّحٍ ... تَشْكُو كُلُومَ صِفَاحِها وكَلالَها
طَلَبَتْ أميرَ المؤمنينَ فواصَلَتْ ... بعد السُّرَى بغُدُوِّها آصالَها
نَزَعَتْ إليكَ صوادِياً فتقاذَفَتْ ... تَطْوِي الفَلاةَ حُزُونَها ورِمالَها[1]
يَتْبَعْنَ ناجيةً يَهُزُّ مِراحُها ... بَعْدَ النُّحُولِ تَلِيلَها وقَذالَها[2]
هَوْجاءَ تَدَّرِعُ الرُّبا وتَشُقُّها ... شَقَّ الشَّمُوسِ إذا تُراعُ جِلالَها[3]
تَنجُو إذا رُفِعَ القَطِيعُ كما نَجَتْ ... خَرْجاءُ بادَرَتِ الظلامَ رِئالَها[4]
كالقَوْسِ ساهِمَةً أتتكَ وقد تُرَى ... كالبُرْجِ تَملأُ رَحْلَها وحِبالَها

هذه الأبيات في وصف الرواحل بالسرعة والنحول، جيدة الألفاظ، مطردة النسج، وقد سبق الناسُ في هذا المعنى إلى ضروب من الإحسان؛ فمن ذلك قول الأخطل:

بِخُوصٍ كأعطالِ القِسِيِّ تَقَلْقَلَتْ ... أجِنَّتُها من شُقَّةٍ ودُءُوبِ[5]

---

(١) نزعت: اشتاقت. صواديا: عطاشا. تقاذفت: تسارعت. (٢) التليل: العنق.

(٣) الشموس: النفور.

(٤) الخرج، بالتحريك: لونان؛ سواد وبياض؛ يقال: نعامة خرجاء وظليم أخرج. والرئال: جمع رأل؛ وهو ولد النعام، وبادرت الظلام رئالها؛ أي بدرت الظلام إلى رئالها.

(٥) ديوانه ١٧٩–١٨٠ وفي حاشية الأصل: «هذه الأبيات من قصيدة يمدح الأخطل فيها عباد بن زياد بن أبيه: أولها:

خليليَّ قوماً للرَّحيلِ فإنّني ... وجدت بني الصمعاء غير قريبِ

ـ يعني عمير بن الحباب ورهطه ـ:

وأَسْفَهْتُ إذ مَنَّيْتُ نفسي ابن واسعٍ ... مُنًى ذهبتْ لم تَسْقِني بذَنوبِ
فإن تنزلا بابن المحلّق تَنْزِلا ... بذي عذرةٍ يبدا كما بلغوبِ

ـ المحلق: عبد العزيز بن حنتم ـ

لحا الله أرماكا بدجلةَ لا تقي ... أذاةَ امرئٍ عَضْبِ اللسان شَغوبِ

ـ يعني نفسه ـ.

[١٨٨ و] /إذا مُعْجَلٌ غادرْنَهُ عِنْدَ مَنْزِلٍ(١) … أُتيحَ لِجَوّابِ الفَلاةِ كَسُوبِ

ـ المعجَل : الملقَى من الأجنّة لغير تمام، وجوّاب الفلاة : الذئب ـ

وَهُنَّ بنا عُوجٌ كأنّ عُيُونَها … بَقايا قِلاتٍ قَلَّصَتْ لِنُضُوبِ(٢)

مَسانيفُ يَعْلُوها مع القَيْظِ والسُّرَى … تَكاليفُ طلّاعِ النِّجادِ رَكُوبِ(٣)

قَديمٌ تَرَى الأصْواءَ فيهِ كأنّها … رِجالٌ قِيامٌ عُصِّبُوا بِسُبُوبِ(٤)

يَمُمْنَ بنا عَوْمَ السَّفِينِ إذا انْجَلَتْ … سَحابةُ وَضّاحِ السَّرابِ جَنُوبِ(٥)

وقال مسلم بن الوليد الأنصاريّ :

إلى الإمامِ تهادانا بأرْحُلِنا … خَلْقٌ من الرّيحِ في أشْباحِ ظِلْمانِ(٦)

كأنّ إفلاتَها والفَجْرُ يأخُذُها … إفلاتُ صادِرَةٍ عن قَوْسِ حُسْبانِ(٧)

وقال بشار :

وإذَا المطِيُّ سَبَحْنَ في أعْطافِهِ … فاتَ المَطِيَّ بكاهِلٍ وتَليلِ(٨)

= إذا نحنُ ودَّعْنا بلاداً هُمُ بها … فبِعداً لحرّاتٍ لها ونُهُوبِ !

نسيرُ إلى مَنْ لا يُغِبُّ نَوالَهُ … ولا مسلِمٍ أعراضَهُ لِسُبُوبِ

بخوص . . .

أعطال : جمع عطل ؛ وهو القوس التى لا وتر له . وتقلقلت أجنتها : تحركت فى بطونها من سرعة السير .

(١) فى الديوان : « منزل » . (٢) بنا ، أى بحملنا ؛ أو حل أعياننا . والعوج : جمع أعوج وعوجاء . والقلات : جمع قلت ؛ وهو النقرة فى الجبل ؛ والتقليص : الانزواء ، والنضوب : غئور الماء .

(٣) المسانيف هنا : الإبل المتقدمات والنجاد : جمع نجد ؛ وهو المرتفع من الأرض . والركوب : المذلل . (٤) قديم ؛ أى طريق قديم . والأصواء : الأعلام . والسبوب : جمع سب ؛ وهو الثوب الأبيض الرقيق ؛ وقيل هو العمامة . (٥) ف : « تعوم » . « خبوب » . وهى رواية الديوان .

(٦) ديوانه : ١٠٣ . والتهادى : المشى الضعيف يتكئ صاحبه على اثنين يمينا وشمالا . والظلمان : جمع ظليم ؛ وهو الذكر من النعام . ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « خلق من الزج » .

(٧) إفلاتها ؛ أى سرعتها . صادرة ، أى إفلات سهام صادرة . والحسبان : سهام يرى بها الرجل فى جوف قصبة ، ينزع فى القوس ثم يرى بعشرين منها فلا تمر بشىء إلا عقرته ؛ والواحد حسبانة .

(٨) حاشية الأصل (من نسخة) « سنحن » أى ظهرن . وأعطافه : جوانبه . وفات : سبق ؛ والتليل : العنق ؛ يقول : « إذا بدا يسير مع المطايا جاوزهن بكاهل وعنق » .

فَكأنّهُ والناعجاتُ[١] يُرِدْنَه قِدْحٌ تَطَلَّعَ مِنْ قِدَاحِ مُجِيلِ

ولبعض الحارثيين :

نَهَشَ الهَجَائِرُ والظِّهارُ لَحْمَها حتى تَخدَّدَ لَحْمُها المتضابِرُ[٢]
حَرْفٌ تُناهِبُها النَّجاءَ قلائِصٌ مِمَّا تَنَخَّلَ[٣] شَدْقَمٌ أو داعِرُ[٤]
صُبْرٌ إذَا عَطَفَتْ سَوالِفَها البُرَى سُمِعَتْ لهُنَّ كَشَاكِشٌ وجَراجِرُ[٥]
ويُخَلْنَ من عِزِّ النفُوسِ وجِدِّها[٦] جِنًّا ، وهُنَّ إذَا اخْتُبِرْنَ أباعِرُ
أمَّا إذَا ما أقْبَلَتْ فكأنَّها ذُعُرٌ تَهادَتْها الفلاةُ نَوافِرُ[٧]
أما إذَا ما أعْرَضَتْ فكأنَّها كُدْرٌ تَوَرَّدْنَ النِّطافَ صَوادِرُ[٨]
أما إذَا ما أدْبَرَتْ فكأنَّها صُرُحٌ مُشَيَّدَةٌ وهنَّ ضَوامِرُ[٩]

* * *

/وإنى لأستحسن قول بَشامة بن الغدير فى وصف الناقة بالسرعة[١٠] : [١٨٨ ظ]

---

(١) الناعجات هنا : الخفاف من الإبل ؛ ومنه قوله :

* والناعجات المسرعات للنجا *

(٢) اللحم المتضابر : المتراكم المكتنز ، وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « المتظاهر » . ومن نسخة أخرى « المتطاير » . (٣) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « منجل » .

(٤) الحرف : الناقة الضامر الصلبة . وتناهبها : تباريها فى الجرى . والنجاء : السير السريع . والقلائص : جمع قلوص ؛ وهى الفتية من الإبل . و شدقم وداعر : اسمان افحلين منجبين من فحول الإبل ، تنسب إليهما الإبل الشدقيات والإبل الداعرية . (٥) السوالف : جمع سالفة ؛ وهى أعلى العنق ، والبرى : جمع برة ، وهى الحلقة فى الزمام . والكشاكش والجراجر : أصوات تخرج من جوف الإبل .

(٦) حاشية الأصل (من نسخة) : « وحدها » . (٧) ذعر ؛ أى وحش مذعورة ؛ ويجوز أن يريد بالذعر النعام ؛ وهى توصف بذلك . (٨) الكدر : قطا ألوانها كلون الرماد . والنطاف : جمع نطفة ؛ وهى الماء القليل . (٩) فى حاشيتى الأصل ، ف : « صرح : جمع صرح ؛ وهو القصر ، وأصله صروح فقصره ؛ وقد قيل فى أسد ، جمع أسد أنه أسود ، فقصر ثم خفف بتسكين السين » .

(١٠) الأبيات من قصيدة فى المفضليات ٧٩ـ٩١ ، ومختارات ابن الشجرى ١٤ـ١٦ ، وأبيات منها فى حماسته ٢٠٥ـ٢٠٦ ، ومجموعة المعانى ٥٢ ، وأبيات منها أيضا فى الأغانى ١١ : ٨٧ ، ونسبها لعقيل بن علفة .

كَأَنَّ يدَيْها إذا أَرْقَلَتْ ... وقد جُرْنَ ثُمَّ اهْتَدَيْنَ السَّبِيلاَ (١)

يدَا سابِحٍ خَرَّ في غَمْرَةٍ ... وقد شارَفَ المَوْتَ إلا قَلِيلاَ (٢)

إذَا أَقْبَلَتْ قلتَ مَشْحُونةٌ ... أطاعَتْ لها الرِّيحُ قِلْعاً جَفُولا (٣)

وإنْ أَدْبَرَتْ قلتَ مَذْعُورةٌ ... مِنَ الرُّبْدِ تَتْبَعُ هَيْقاً ذَمُولا (٤)

ومعنى قوله :

* وقد جرن ثم اهتدين السبيلاَ *

يعنى المطايا ؛ يقول : كن نشيطاتٍ يمرحن فلا يلزمن لَقَمَ (٥) الطَّرِيق ؛ بل يأخذن يمينًا وشمالا ؛ فلما عضّهن الكلال استقمن على المحجة ، فكأنه وصف ناقته ببقاء النشاط مع كلال المطيّ ؛ وكنى عن الكلال بلزوم جادة الطريق بعد تنكُّبها وهذه كناية فصيحة مليحة.

ومثله قول الآخر :

كأَنَّ يدَيْها حِينَ جَدَّ نَجاؤُها ... يدا سابِحٍ في غَمْرَةٍ يَتَذَرَّعُ (٦)

ومما يشاكل هذا المعنى ويقاربه قول الشماخ :

كأَنَّ ذِراعَيْها ذِراعا مُدِلَّةٍ ... بُعيدَ السِّبابِ حاوَلَتْ أن تَعذَّرا (٧)

مُمجَّدَةُ الأعْراقِ قال ابنُ ضَرَّةٍ ... عَلَيْها كلاماً جارَ فيه وأهْجَرا

---

(١) أرقلت : أسرعت . وجرن : عدلن عن محجة الطريق .

(٢) الغمرة : الماء الكثير ؛ ورواية ابن الشجرى :

يدا عائمٍ خرّ في غَمْرَةٍ ... فأدركه الموتُ إلّا قليلا

(٣) المشحونة : المملوءة ، وهو من وصف السفينة . والجفول : الذى تستخفه الريح ثم تحركه .

(٤) الربد : جمع ربداء ؛ وهى فى السوداء المنقطة بحمرة ؛ من وصف النعام . والهيق : ذكر النعام والذمول : وصف لسير الظليم ، ورواية المفضل :

إذا أقبلت قلتَ مذعورةٌ ... من الرُّمْد تلحق هيقاً ذمولَا

(٥) لقم الطريق معظمه ؛ وقال الليث : لقم الطريق منفرجه ، تقول : عليك بلقم الطريق فالزمه .

(٦) يقال : ذرع السابح ، إذا حرك يديه للسبح .

(٧) من قصيدة طويلة فى ديوانه : ٢٦-٣٤ ، وأولها :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيرا ... بذَرْوة أقوى بعد ليلى وأقفرا

شبّه ذراعيها وهي تتذرع في مشيها(١) بذراعي امرأة مُدلّة على أهلها ببراءة ساحتها ، وقد حكَى عنها ابن ضرتها كلاماً أهجر فيه ؛ أي أفحش، فهي ترفع يديها وتضمهما تتذرو تحلف وتنضح عن نفسها .

وقد قيل إن معنى قوله : «مُدِلّة » أنها تُدِلّ بحسن ذراعيها، فهي تُدّ من إظهارهما لتُرِى(٢) حسنهما .

وقوله : « بُعَيْدَ الشباب » أي في عقيب الشابّة قامت تعتذر إلى الناس ؛ وقوم يروونه « بعَيْدَ الشباب »؛ ومعنى هذه الرواية أنها نَصَفٌ من النساء ، فهي أقوم بحجتها من الحَدَثة الغِرّة ؛ ويشهد لهذه الرّواية الأخيرة قول الآخر :

كأنّ يَدَيها حينَ يَقْلَقُ ضَفْرُها ... يدَا نَصَفٍ غَيْرَى تعذّرُ من جُرْمِ(٣)

و / قوله : « حينَ يَقْلَقُ ضَفْرُها » فيه سرٌ وفائدة ؛ لأنّ الضّفر هو الأنساع(٤) ؛ وإنما تقلق إذا جَهَدَها السيرفضمَرَتْ، فكأنه وصفها بالتذرّع والنشاط مع الجهد والكلال؛ ومثله : [١٨٩ و]

كأنّ ذِراعَيْها ذِراعا بَذِيَّةٍ ... مفجّعَة لاقتْ ضرائرَ عن عُفْرِ(٥)

سَمِعْنَ لها وَاسْتَعْجَلَتْ في كلامها ... فلا شَيْءَ يَفْرِي باليَدَيْنِ كما تَفْرِي(٦)

ويقاربه قول الآخر :

ألاَ هلْ تُبلِغَنّيهِمْ ... على اللّأْوَاءِ والظّنّة

وآةٌ لِحَصَى المَعْزَا ... ءِ في أخفافِها رنّه(٧)

إذَا ما عَسَفَتْ قُلْتَ ... حَماةٌ فاضحتْ كَنّه(٨)

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « في سيرها » . (٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « ليرى حسنهما » بالبناء للمجهول. (٣) النصف : المرأة التي ذهب نصف عمرها ، ويقال للرجل أيضا .

(٤) الأنساع : جمع نسع ، وهو السير المضفور يجعل زماما للبعير وغيره .

(٥) عن عفر ، أي بعد حين . وفي حاشيتي الأصل، ف : ويروى « عن عقر » . أي بعد كونها عاقرا .

(٦) يفري ، أي يأتي بالعجب . (٧) الوآة : النجيبة من الإبل . والمعزاء : المكان الصلب الكثير الحصى : (٨) الحماة : أم الزوجة . والكنة : امرأة الولد :

ومن شبه سرعة أيدى الإبل بأيدى النوائح كعب بن زهير فقال[١]:

كأنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْها إذا عَرِقَتْ   وقدْ تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيلُ[٢]
وقال للقَوْمِ حادِيهِمْ وقد جعلتْ   وُرْقُ الجنادِبِ يَرْكُضْنَ الحصَى: قِيلُوا[٣]
شَدَّ النهارِ ذِراعا عَيْطَلٍ نَصَفٍ   قامَتْ فجاوَبَها نُكْدٌ مَثَاكِيلُ[٤]
نَوّاحَةٌ رِخْوَةُ الضَّبْعَيْنِ ليس لها   لمّا نَعَى بِكْرَها النّاعُونَ مَعْقُولُ[٥]

العساقيل : أوائل السّراب ؛ ولا واحد لها من لفظها . وأخبر أنّ ناقته فى شدّة الحر واتقاد الظهيرة تَمْرحُ فى سيرها وتتذرع بيديها؛ وشبه ذراعَيها بذراعى امرأة نَصَفٍ تنوح على ابنها،وقد نُعِيَ إليها ؛ فهى تشير بيديها وتوالى تحريكهما . والعيطل: الطويلة العنق، وجعلها نَصَفاً لأنها قد كادت تيأس من الولد فهى أشد لحزنها على ابنها وتفجُّعها عليه ، والقُور : جمع قارة وهى ما ارتفع واستدار من الرمل ؛ وأراد أن يقول : كما تلفعت القُور بالعساقيل، فلم يمكنه فقلَب .

---

(١) ديوانه : ١٦–١٨ ، من قصيدته المشهورة : « بانت سعاد » .

(٢) رواية الديوان : « وقد عرقت » . وأوب : رجع . وتلفع : تلحف ، وفى حاشية الأصل : « قريب منه قول المرار الفقعسى يصف ناقته :

كأنما أَوْبُ يديْها إلى   حَيْزُومِها فَوْقَ حَصَى الجَدْجَدِ
نَوْحُ ابنةِ الجَوْنِ على هَالِكٍ   تندبه رافعةَ المِجْلَدِ

ـ الجدجد: الأرض الصلبة . ابنة الجون : نواحة معروفة . والمجلد : قطعة جلد تضرب بها النائحة على صدرها » .(٣) حاشية ف (من نسخة) : « ورق » ، والورق والأرق : جمع أورق ؛ وهو الأخضر المائل إلى السواد . أو ما كان على لون الرماد وقيلوا ؛ من القائلة.

(٤) شد النهار : ارتفاع النهار ؛ وهو ظرف ، أى وقت ارتفاع النهار . والعيطل : الطويلة ، ونكد : قليلات الأولاد . والنصف ، هى التى قامت تنوح ، شبه يدى ناقته بيدى هذه المرأة . والنكد : جمع نكداء ، وهى التى لايصيبها خير . (٥) نواحة ، يعنى هذه النصف ، وقوله : « رخوة الضبعين » يريد أنها شديدة الحركة والاندام . والضبعان هما العضدان ، والواحد ضبع . وبكرها : أول ولدها . والمعقول : العقل ، يقال : مالفلان معقول ، وماله مجلود .

ومثله :

وكأنَّما رَفَعَتْ يَدَىْ نوّاحَةٍ   شَمْطاءَ قامَتْ غَيْرَ ذَاتِ خِمارِ

/ وإنما خص الشَّمْطاء لما ذكرناه من اليأس من الولد، كما قال عمرو بن كلثوم : [١٨٩ ط]

ولا شَمْطاءُ لم يَتْرُكْ شَقَاها   لهــا من تِسْعَةٍ إلاَّ جَنِينا(١)

وقد قيل في بيت عمرو : بل شَبَّهَ الناقةَ بشمطاء، لما على رأسها من اللُّغام(٢) .

ومثل ما تقدم من المعاني قول الشاعر :

يا لَيْتَ شعْرِي والمُنَى لا تَنفَعُ!   هل أَغْدُوَنْ يومًا وأمْرِي مُجْمَعُ!

وَتحتَ رَحْلِي زَفَيَانٌ مَيْلَعُ   كأنَّها نائحــةٌ تَفَجَّعُ

تَبْكِي لِمَيْتٍ وسِواها المُوجَعُ

ـ الزَّفيان : الناقة الخفيفة ، والمَيْلَعُ : السريعة ؛ وشبَّه رَجْع يديها في السير لنشاطها بيدىْ نائحة تنوح لقوم على ميِّتهم بأجرة ، فهي تزيد في الإشارة بيديها ليُرى مكانها .

ومثله بعينه قول ذي الرمة :

مَجانِينُ تُضْحِي وَهْيَ عُوجٌ كأنَّها   بجَوْزِ الفَلا مُستأجَراتٌ نَوائحُ(٣)

---

(١) من المعلقة : ٢١٥ ـ بشرح التبريزي ؛ وقبله :

فما وَجَدَتْ كوجدي أم سقبٍ   أضَلَّتْهُ فرجَّعَتِ الحنينـا

والسقب : ولد الناقة الذكر .

(٢) اللغام : الزبد الذي يعلو شفاه الإبل إذا اهتاجت

(٣) ديوانه: ١٠٤ . والعوج : جمع عوجاء ، وهي الناقة الضامرة ، كأنها عجفت فاعوج ظهرها .

وقبل هذا البيت :

وصَيْرِي وأعْراءُ المتانِ كأنَّها   إضاءٌ أحسَّتْ نَفْحَ ريحٍ ضحاضحُ

على حِمْيَرِيَّاتٍ كأن عيونَهـا   ذِمامُ الركايا أنكرتْها المَواتحُ

ـ الأعراء : الخالية من النبات . والمتان : ما ارتفع من الأرض. والإضاء : جمع أضاة ، وهو الغدير . والضحاضح : قليلة الماء . والحميريات : إبل منسوبة إلى حمير . وركية ذمة : قليلة الماء . ونكرت الركية : قل ماؤها ، وأنكرتها أنا .

المجانيق : التي ضَمَرْن بعد سِمَن ؛ وخصّ المستأجرات من النوائح للمعنى الذى ذكرناه .

وقال الشماخ فيما يقارب هذا المعنى :

كأنّ أوْبَ يَدَيْها حين أعْجَلَها أوْبُ المُرَاحِ وقَدْ نادَوْا بتَرْحالِ
مَقْطُ الكُرِين على مكنوسةٍ زَلَقٍ فى ظَهْرِ حَنّانَةِ النِّيرَيْنِ مِغْوالِ

ـ معنى : « أوْب ذراعيها » أىْ رجْعهما ـ وأوب المُراح ، إذا أراح القوم عازبَ أموالهم ليرحلوا، وقدروى: «أوب المِراح» بالكسر ؛ ومعناه رجع المِراح والنشاط. والمَقْط: اللعب بالكرة . والكُرِين : جمع كرة . والمكنوسة : الأرض البَرّاح التى لا شىء فيها . والزَّلَق : المستوية من الأرض . والحنانة : الريح . والنيران : جانبا هذه الأرض. ومغوال، قيل : إنه من صفات الريح ؛ وقيل : من صفات الأرض ؛ وإن كان من صفات الريح فمعناه أنّ الريح تَغُول الأرض بأسرها ؛ أى تعلوها ، وإذا كان للأرض فالمعنى أنها تغُول من [١٩٠ و] سَلَكها أى تُهلكه ؛ وتلخيص معنى البيت أنه شبه يدىْ ناقته بيدىْ ضاربٍ / بكُرَةٍ فى أرض واسعة فى يوم ريح عاصفٍ ؛ وهذا من دقيق المعانى وحَسن التشبيه والمبالغة .

ومثل بيتى الشماخ قول المسيّب بن عَلَس[١] :

مَرِحَتْ يداها للنَّجاء كأنّما تكْرُو بكفّىْ ماقِطٍ فى قاعِ[٢]
فِعلَ السَّريعةِ بادَرَتْ جُدّادَها قَبْلَ المَساءِ تَهمُّ بالإسْراعِ

(١) فى حاشيتى الأصل ، ف : قال س : «وجدت بخط القاضى أبى عبد الله محمد بن سلامة القضاعى رحمه الله: « علس » بفتح العين مضبوطا كأنه يجعله فعلا ماضيا ، والعلس : حب كالعدس » .

(٢) من قصيدة فى المفضليات ٦٠ــ٦٣ (طبعة المعارف) أولها :

أرحلت من سلمى بغير متاعِ قبل العُطاس ورعتَها بوَداعِ

والماقط : الضارب ، ورواية المفضليات :

* تكْرُو بكفّىْ لاعبٍ فى صاعِ *

معنى: «تَكُرو» أى كأنها تلاعب بِكُرَةٍ . والسريعة ، يعنى نسّاجة . والجُدّاد: الغزْل الضعيف، فأراد أنها تُسرع الضرب بالحَفِّ[1] والنسج قبل المساء ؛ وما دامت تبصر ؛ فشبّه يدىْ ناقته فى تذرّعها بيدىْ هذه النساجة .

وقال الأصمعىّ الجُدّاد : هُدْبُ الثوب ؛ فيعنى أن هذه النساجة قد قاربت الفراغ من الثوب ، وبلغت إلى هُدْبه ؛ فهى تبادر لتفرُغ منه قبل المساء .

وقريب منه قول الآخر :

كأنَّ أيْدِيهنَّ بالقَاعِ القَرِقْ[2] أيْدِى جوارٍ[3] يتعاطَيْنَ الوَرِقْ

فالقَرِقُ الخَشِن الذى فيه الحصى ؛ وشبّه خَذْف[4] مناسِمهن[5] له بخذف جَوارٍ يلعبن بدرام، وخصّ الجوارى لأنهن أخفُّ يداً من النساء .

وقال آخرون : القَرِق هاهنا: المستوِى من الأرض، الواسع؛ وإنما خُصّ بالوصف لأن أيدى الإبل إذا أسرعت فى المستوى فهو أحمَدُ لها ؛ وإذا أبطأتْ فى غيره فهو أحْمَدُ لها .

ومن أحسن ما قيل فى الإسراع قول المرّار بن سعيد :

فتنَاوَلُوا شُعَبَ الرِّحال فقَلَّصَتْ سُودُ البُطونِ كفضلة المُتَنَمِّسِ

ذكر قوما سَفْراً هبُّوا من رقدتهم إلى رحالهم ليسيروا ؛ ويعنى بسود البطون الإبل ؛ والمتنمّس: الصائد الذى اتخذ ناموساً، وهو ما يستتر به ليختِلَ الصيد، فشبه المطايا فى سرعتها بقطاً قد صاد الصائد بعضها ، وأفلت بعضُها ؛ فهنّ يَطِرْنَ طيراناً شديداً .

ومثل هذا — وإن كان فى صفة الخيل — قولُ النابغة :

---

(١) الحف : المنسج . (٢) البيتان فى اللسان (قرق) .
(٣) اللسان : « أيدى نساء » . (٤) الخذف : الرمى بالحصى الصغار .
(٥) م « مناسمها » .

* كالطَّيرِ تَنْجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي البَرَدِ *[١]

وأما قول مروان :

... يَهُزُّ مِراحُها   بعْدَ النُّحُولِ تَلِيلَهَا وقَذَالَها

فقد مضى من وصف المطايا بالنشاط بعد السآمة والجَهد مامضى .

[١٩٠ ظ] وأحسنُ من قول مروان / وأشدُّ إفصاحاً بالمعنى وإعراباً عنه قولُ الهذليّ :

ومن سيرها العَنَقُ المُسْبَطِرُّ   والعَجْرَفيَّةُ بعدَ الكَلالِ[٢]

وإنما كان هذا أحسنَ لأنه صريح بنشاطها بعد كلالها . وقول مروان: «بعد النحول» لا يجرى هذا المجرى ؛ لأن النحولَ قد يكون عن جَهْد السفر والتعب ، ويكون عن غيره .

وأما قوله :

* كالقوس ساهمة أتتك وقد تُرَى *

فقد أكثرت العرب فى وصف المطايا بالنحول وتشبيهها بالقِسِيّ وغيرها ؛ وقد أحسن كُثَيِّر فى قوله :

نفَى السيرُ عنها كلَّ دَاءٍ إقامَةٍ   فهُنَّ رَذَايا بالطَّرِيقِ تَرَائِكُ[٣]

وحُمِّلَتِ الحَاجاتِ خُوصاً كأنَّها   وقد ضَمِرَتْ صُفْرُ القِسِيِّ العَوَاتِكُ[٤]

وقال سلْم بن عمرو الخاسر[٥] :

وكأنَّهنَّ من الكَلالِ أهِلَّةٌ   أو مِثْلُهُنَّ عَطائفُ الأقْوَاسِ[٦]

---

(١) ديوانه : ٢٣ ، وصدره :

* والخيْلُ تمزعُ غرباً فى أعنّتِها *

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ١٧٥ ، والبيت لأمية بن عائذ العنق : السير المنبسط . والمسبطر : المسترسل السهل. والعجرفيه : الشديد . (٣) ديوانه: ٢ : ١٣٦ ؛ الرذايا : جمع رذية ؛ وهى الناقة المهزولة من السير . والترائك : المتروكة لضعفها . (٤) العواتك : جمع عاتكة ؛ وهى القوس إذا قدمت واحمرت .

(٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : « قيل إنما سمى عمرو خاسرا لأنه ورث عن أبيه مصحف قرآن ، فاشترى به عوداً » . (٦) القوس العطيفة : المعطوفة ؛ وهى المنحنية .

قُودٌ طَوَاها ما طَوَتْ من مَهْمَهٍ ... نائى الصُّوَى ومناهجٍ أدْراسِ[١]

وقال أبو تمام يصف ناقة :

أتينَا القَادِسيَّةَ وهِىَ تَرْنُو ... إلىَّ بمَيْنٍ شيطانٍ رَجيمِ[٢]
فَما بلَغَتْ بنا عُسْفَانَ حتَّى ... رَنَتْ بلَحاظِ لقمانَ الحَكيمِ
وَبدَّلَها السُّرَى بالجَهْلِ حِلْماً ... وَقَدَّ أديمَها قَدَّ الأديمِ
أذَابَ سَنامَها قَطْعُ الفَيافِى ... ومزَّقَ جِلْدَها نَضْحُ الصَّميمِ[٣]
بدَتْ كالبَدْرِ وافَى ليلَ سَعْدٍ ... وآبَتْ مِثْلَ عُرْجُونٍ قَديمِ

وقال البحترىّ :

وَخَدَانُ القِلاَصِ حَوْلا إذَا قا ... بَلْنَ حَوْلا من أنجمِ الأسْحارِ[٤]
يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّرَابِ وقَدْ خُضْـ ... ـنَ غِماراً من السَّرابِ الجارِى
/ كالقِسِىِّ المعطَّلاتِ، بلِ الأسـ ... ـهُمِ مبرِيَّة ، بل الأوْتارِ [١٩١ و]

(١) قود : جمع أقود ؛ وهو من الإبل الطويل العنق . الصوى : جمع صوة ؛ وهى الأعلام فى الطريق. وفى حاشية الأصل : « ومثله بيته للمتنبي :

فتبيت تُسْئِدُ مسئداً فى نِيِّهَا ... إسْئَادَها فى المَهْمَهِ الإنضاءُ

الإسئاد : إسراع السير فى الليل . والنى : الشحم . والمهمه : الأرض الواسعة البعيدة . والإنضاء : مصدر أنضاه ينضيه إذا هزله . قال العكبرى : « والمعنى أن المهمه ينضيها كما تنضيه » .

(٢) ديوانه : ٣ : ٢٢٤ ؛ من قصيدة يصف حجة حجها ؛ وأولها :

لعلَّكَ ذاكِرُ الطَّلَلِ القَديمِ ... ومُوفٍ بالعهودِ على الرُّسُومِ
وواصفُ ناقةٍ تَذَرُ المهارَى ... موكَّلَةً بوخْدٍ أو رسيمِ
وقد أممت بيت الله نِضْواً ... على عَيْرَانةٍ حَرْفٍ سَعُومِ

أتيت القادسية . . .

(٣) النضح : الرشح . والصميم : العرق .

(٤) ديوانه : ٢ : ٤٢ ؛ من قصيدة يمدح فيها أبا جعفر بن حميد . وخدان القلاص : إسراعها وحول : جمع حائل ، وحول الثانية جمع أحول .

ولهُ أيضاً :

وَهِيَ العِيسُ ، دَهْرَها فِي ارتحالٍ ... مِنْ حُلُولٍ ، أو فُرْقَةٍ من جميعِ[1]
رُبَّ مَرْتٍ مرَّتْ تُجاذِبُ قُطْرَيْـ ... ـهِ مَرَاباً كالمَنْهَلِ المَشْرُوعِ[2]
وَسُرًى تَنْتَحِيهِ بالوَخْدِ حتَّى ... تَصْدَعَ اللَّيْلَ عن بياضِ الصَّدِيعِ[3]
كالبُرَى في البُرَى ويُحْسَبْنَ أحْيا ... ناً نُسوعاً مَجْدُولةً في نُسُوعِ[4]

---

(١) ديوانه ٢ : ٩١ ؛ من قصيدة يمدح فيها محمد بن محمد الواثق .

(٢) المرت : الأرض القفر . (٣) الصديع : الفجر .

(٤) البرى : جمع برة ؛ وهى الحلقة . والنسوع : الحبال .

مجلس آخر [٤٣]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص : ٧٥] .

فقال : كيف أضافَ إلى نفسه اليد ، وهو ممن يتعالى عن الجوارح ؟

الجواب ، قلنا فى هذه الآية وجوهٌ :

أوّلها أن يكون قوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ جارياً مجرى قوله : «لما خلقت أنا» ، وذلك مشهور فى لغة العرب ، يقول أحدهم : هذا ما كسبتْ يداك ؛ وما جرّت عليك يداك ؛ وإذا أرادوا نفيَ الفعل عن الفاعل استعملوا فيه هذا الضّرْب من الكلام فيقولون : فلان لا تمشي قدمه ، ولا ينطق لسانه ، ولا تكتب يده ؛ وكذلك فى الإثبات ، ولا يكون للفعل رجوع إلى الجوارح فى الحقيقة ؛ بل الفائدة فيه النفى عن الفاعل .

وثانيها أن يكون معنى اليد هاهنا النعمة ، ولا إشكال فى أن أحدَ محتملات لفظة اليد النعمة.

فأما الوجه فى تثنيتها فقد قيل فيه إن المراد نعمة الدنيا ونعمة الآخرة ، فكأنه تعالى قال : مامنعك أن تسجدَ لما خلقتُ لنعمتى ؛ وأراد بالباء اللام .

وثالثها أن يكون معنى اليد هاهنا القدرة ؛ وذلك أيضا من محتَملات اللفظة ؛ يقول القائل : مالى بهذا الأمر يدٌ ولا يدان، وما يجرى مجرى ذلك ؛ والمعنى : أننى لاأقدر عليه ولاأطيقه ؛ وليس المراد بذلك إثباتُ قدرة على الحقيقة؛ بل إثبات كون القادر قادرا، ونفى

كونه قادرا ، فكأنه تعالى قال : ما منعك أن تسجد لما خلقت وأنا قادر على خَلْقه ؛ فعبَّر عن كونه قادراً بلفظِ اليد الذى هو عبارة عن القدرة ؛ وكلُّ ذلك واضح فى تأويل الآية .

* * *

[١٩١ ظ] ونعود إلى ما كنا ابتدأناهُ من/الـكلام على شعر مروان .

فمن قصيدته التى تقدم بعضها ووقع الـكلام عليه مما يختار قوله :

أَحْيَا أميرُ المؤمنينَ مُحَمَّدٌ ... سُنَنَ النبيِّ حَرَامَها وحَلالَهَا
مَلِكٌ تَفَرَّعَ نَبْعَةً من هاشِمٍ ... مدَّ الإلهُ على الأنامِ ظِلالَهَا
جَبَلٌ لأُمَّتِهِ تَلُوذُ بِرُكْنِهِ ... رَادَى جِبالَ عَدُوِّها فأزالَها(١)
لم تَغْشَهَا مِمَّا تَخافُ عَظِيمَةٌ ... إلاَّ أجالَ لها الأمورَ مجالَها
حتى يُفَرِّجها أغرُّ مُبارَكٌ(٢) ... ألفى أباهُ مُفَرِّجاً أمثالَها
ثَبْتٌ على زَلَلِ الحَوادِثِ راكِبٌ ... من صرْفِهِنَّ لِكُلِّ حالٍ حالَها(٣)
كِلْتَا يدَيْكَ جَعلْتَ فَضْلَ نوالِها ... للمُسْلِمِينَ ، وفى العدوِّ وبالَها(٤)
وقَعَتْ مواقِعَها بعفوِكَ أنفُسٌ ... أذْهَبْتَ بعد مخافةٍ أوْجالَها
أمَّنْتَ غيرَ مُعاقِبٍ طُرَّادَها ... وفَكَكْتَ مِن أسَرائِها أغلالَها
ونَصَبْتَ نفسَكَ خيرَ نفسٍ دُونَها ... وجَعلْتَ مالَكَ واقِياً أموالَها(٥)

أما قوله :

أحْيَا أميرُ المؤمنين محمدٌ ... سنن النبيِّ حرامَها وحلالَها

فقد عابه عليه بعضُ مَن لامعرفة له بنقد الشعر فقال : كيف يكون فى سنن النبيِّ عليه

---

(١) فى حاشيتى الأصل ؛ ف « رادى » فاعل » من المراداة ؛ وهى مراماة الحجر ؛ أصله من المردى وهو الحجر الذى يكسر به الحجارة ، يستعمل فى المفاخرة والمناجزة» . (٢) م : « مهذب » .

(٣) أى راكب من الصروف لـكل حال حالها . (٤) ش : « وللعدو وبالها » .

(٥) حاشية ف : « بخط عبد السلام بن الحسين البصرى رحمه الله : صيالها » .

السلام حرام ! وما ذلك بعجيب ؛ لأنه أراد بقوله : « حلالها وحرامها » التحليل والتحريم ؛ ومن سننه تحريمُ الحرام، وتحليل الحلال ؛ وإنما العيب من هذا قول ابن الرِّقاع العاملىّ :

وَلقد أراد الله إذ ولّاكَها ‌ ‌ ‌ ‌ من أمّةٍ إصلاحَها وفسادَها[1]

ومثل قول مروان قول سَلْم الخاسر :

ولما وليتَ ذكرتُ النبيّ ‌ ‌ ‌ ‌ بتحليله وبتحريمه

فأما قوله :

* حتى يفرِّجها أغرُّ مباركٌ * . . . البيت

فكثير جداً للمتقدمين والمحدَثين ؛ والأصل فيه قول زهير :

وما كانَ من خَيْرٍ أتوْهُ فإنما ‌ ‌ ‌ ‌ توارثَهُ آباءُ آبائِهِمْ قَبْلُ[2]

وهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلاّ وشيجُهُ ‌ ‌ ‌ ‌ وتُغْرَسُ إلاّ فى منابِتِها النَّخْلُ[3]

ومثله قول الآخر :

/ وَحمزةُ والعبّاسُ منهُمْ ومِنهُمُ ‌ ‌ ‌ ‌ عَقيلٌ وماءُ الوِرْدِ من حَيْثُ يُعْصَرُ[4] [١٩٢] و

ومثله للرّبيع بن أبى الحُقَيْق اليهودىّ :

إذ ماتَ منّا سيّدٌ قامَ بَعْدَهُ ‌ ‌ ‌ ‌ لهُ خَلَفٌ يكفِى السِّيادَةَ بارِعُ

---

(١) الطرائف الأدبية : ٩٠ ؛ والرواية هناك : « إصلاحها ورشادها » ، وهى أيضا رواية المؤلف فى المجلس التاسع والأربعين. وفى الحاشية : « عدىّ قال : « فسادها » ، والأصمعىّ أنشد : « رشادها » » ؛ والبيت من قصيدته التى أولها :

عرف الديار توهما فاعتادَها ‌ ‌ ‌ ‌ من بعد ما درس البلى أبلادها

وانظر روايتها وتخريج أبياتها فى الطرائف الأدبية ٨٧ــ٩١ .

(٢) ديوانه : ١١٠ ؛ وتوارثه ؛ أى ورثوه كابرا عن كابر ؛ كناية عن مجدهم القديم .

(٣) الخطىّ : الرماح ؛ منسوبة إلى الخط ؛ وهى جزيرة بالبحرين ترفأ إليها سفن الرماح . والوشيج : القنا الملتف فى منبته ، واحدها وشيجة . ‌ ‌ ‌ ‌ (٤) حاشية الأصل : « ومثله للمتنبى :

فإن كان سيارُ بن مكرمٍ انقضَى ‌ ‌ ‌ ‌ فإنك ماء الورد إن ذهب الوردُ

مِنَ أبنائِهِ والعِرْقُ يَنصُرُ فَرْعَه   على أصْلِهِ، والعِرْقُ للعِرْقِ نازِعُ(١)

ومثله له:

تَرْجُو الغُلامَ وقدْ أعْيَاكَ والدُهُ   وفى أرُومَتِهِ ما يَنْبُتُ العُودُ

وأخذ هذا المعنى وبعض اللفظ الكُمَيْت فقال:

تَجرِي أصاغِرُهُمْ مَجْرَى أكابِرِهِمْ   وفى أرُومَتِهِ ما يَنْبُتُ الشَّجَرُ

ومن هذا المعنى قول عبيد الله بن قيس الرُّقيات:

يَخلُفُكَ البِيضُ من بَنِيكَ كما   يَخلُفُ عُودُ النُّضَارِ فى شُعَبِه(٢)

ومنه قول نَهشل بن حَرِّىّ:

أرَى كلَّ عودٍ نابتا فى أرُومَةٍ   أبَى نَسَبُ العِيدانِ أن يَتَغَيَّرا(٣)

بَنُو الصَّالِحِينَ الصَّالِحُونَ ومن يَكُن   لِوالِدِ سَوْءٍ يَلْقَه حيثُ سَيَّرا(٤)

ومثله لمسلم بن الوليد الأنصارىّ:

ألَحَّ على الأيَّامِ يَفْرِى خُطُوبَها   على مَنْهَجٍ ألْفَى أباهُ بِهِ قَبْلُ(٥)

ولبشار:

* على أعْراقِها تَجرِى الجِيادُ *

---

(١) نازع؛ أى ينزع إليه فى الشبه. (٢) النضار: شجر الأثل؛ وقيل: النضار: كل شجرة ناضرة. (٣) ف: « ناميا فى أرومة ». (٤) نسب هذا البيت فى حماسة أبى تمام — بشرح التبريزى ١: ٣٠٠ إلى جبل بن عبد الله بن معمر؛ ضمن أبيات ثلاثة؛ وهى:

أبوكَ حُبابٌ سارقُ الضيفِ بُرْدَهُ   وجَدِّىَ يا حجاجُ فارسُ شَمَّرا

بنو الصالحين الصالحون ومَنْ يَكُنْ   لآباءِ صدقٍ يَلْقَهُمْ حيثُ سَيَّرا

فإن تغضبوا من قِسْمَةِ اللهِ حَظَّكُمْ   فللهِ إذْ لم يُرْضِكُمْ كانَ أبصرَا

وهى فى الحماسة — بشرح المرزوقى ٣١٥—٣١٦ من غير نسبة.

(٥) ديوانه: ٢٠٣

ومثله :

وَمافِىَّ من خَيْرٍ وشَرٍّ فإنها ... سَجِيَّةُ آبائى وَفِعْلُ جُدُودِى

هُمُ القَوْمُ فَرْعِى منهمُ مُتَفَرِّعٌ ... وعُودُهُمُ عند الحَوادِثِ عُودِى

وللبحترى :

وإذَا أبو الفَضْلِ استعار سَجِيَّةً ... لِلْمَكْرُماتِ فَمِن أبى يَعْقُوبِ[1]

شَرَفٌ تَتابَعَ كابِراً عن كابِرٍ ... كالرُّمحِ أُنْبُوباً على أُنْبُوبِ

وَأرَى النَّجابةَ لا يكُونُ تَمامُها ... لِنَجِيبِ قَوْمٍ لَيْسَ بابْنِ نَجِيبِ

[١٩٢ ظ] / وله أيضاً :

ما سَمَوْا يَخْلُفُونَ غيرَ أبيهِمْ ... كُلُّ ساعٍ منَّا يُرِيدُ نِصابَهُ[2]

وله أيضاً :

وَما تابِعٌ فى المَجْدِ نَهْجَ عَدُوِّهِ ... كَمُتَّبِعٍ فى المَجْدِ نَهْجَ أبيهِ[3]

وفى هذه القصيدة يقول مروان :

هلْ تعلمونَ خليفةً منْ قبلِهِ ... أجْرَى لِغايَتِهِ التى أجْرَى لَها

طَلَعَ الدُّرُوبَ مُشَمِّراً عن ساقِهِ ... بالخَيْلِ مُنْصَلِتاً يُجِدُّ نِعالَها[4]

قُوداً تَرِيعُ إلى أغرَّ لِوَجْهِهِ ... نُورٌ يُضِىءُ أمامَها وخِلالَها[5]

قَصُرَتْ حَمائِلُه عليهِ فقَلَّصَتْ ... ولقَدْ تَحَفَّظَ قَيْنُها فأطالَها

حتَّى إذا وَرَدَتْ أوائِلُ خَيْلِهِ ... جَيْحانَ بَثَّ على العَدُوِّ رِعالَها[6]

---

(١) ديوانه ١ : ٥٧ ؛ من قصيدة يمدح فيها يعقوب بن إسحاق النوبختى .

(٢) ديوانه ١ : ٩٠ ؛ من قصيدة يمدح فيها أبا ثوابة .

(٣) ديوانه ٢ : ٣٢٨ ؛ من قصيدة يمدح بها أحمد بن المدبر .

(٤) الدروب ، يريد بها دروب الروم . والمنصلت : الماضى فى الأمر .

(٥) قود : جمع أقود ، وهو الذلول من الخيل . وتريع : ترجع .

(٦) جيحان : اسم نهر . والرعال : جمع رعيل ؛ وهو القطعة من الخيل تتقدم العسكر .

أحمى بِلادَ المُسلمينَ عَلَيهِمُ   وأباحَ سَهْلَ بلادِهِمْ وَجِبالَها
أدْمَتْ دَوَابِرَ خَيلِهِ وشكيمَها   فأرأتهنَّ والْحَقَتْ آطالَها(١)
لم تُبقِ بعدُ(٢) مَقادَها وطِرادَها   إلّا نَحائزَها وإلّا آلَها(٣)
وَرَمَى الخَليفةَ ناظِرَيْ وراشَني   بِيَدٍ مُبارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوالَها
وَحُسِدتُ حتى قِيلَ أصبحَ باغِياً   في المَشْيِ مُتْرَفَ شِيمَةٍ مُختالَها(٤)
ولقدْ حَذَوْتُ لِمَنْ أطاعَ ومَنْ عصى   نَعْلاً وَرِثْتَ عن النبيِّ مِثالَها(٥)

أما قوله: «قَصُرَتْ حمائلُه» فالأصل فيه قول عنترة:

بَطَلٌ كأنَّ ثِيابَهُ في سَرْحَةٍ   يُحذَى نِعالَ السِّبْتِ ليسَ بتَوْءَمِ(٦)

أو قول الأعشى:

إلى ماجدٍ كهِلالِ السَّما   ءِ أزكى وفاءً ومَجداً وخِيرَا(٧)
طَويلِ النِّجادِ، رَفيعِ العِما   دِ، يَحمي المُضافَ ويُغني الفَقيرا(٨)

[١٩٣ و] / ومثله:

طَويلُ نِجادِ السَّيفِ عارٍ جَبينُهُ   كَنَصْلِ اليَمانِي أخْلَصَتْهُ صَياقِلُهْ
إذا هَمَّ بالمَعْرُوفِ لم تَجْرِ طَيرُهُ   نُحُوساً، ولم تَسْبِقْ نَداهُ عواذِلُهْ

---

(١) الدوابر: جمع دابرة، وهي الموضع الذي يقع عليه مؤخر السرج. والحقت: ضمرت. والآطال: جمع إطل؛ وهي الخاصرة. (٢) ش: «لم يُبْقِ بُعْدُ».

(٣) نحائزها: طباعها. وآلها: يريد شخصها. (٤) المترف: المبقى في الملك والنعمة.

(٥) حاشية الأصل: «يعني أنه اقتدى عن النبي عليه السلام في أفعاله حذو النعل بالنعل».

(٦) المعلقة — بشرح التبريزي: ١٩٩؛ أي هو بطل. والسرحة: الشجرة الكبيرة الطويلة؛ يستظل بها. ونعال السبت: المدبوغة بالقرظ، وكانت الملوك تلبسها. وليس بتوءم: لم يولد معه آخر فيكون ضعيفا. (٧) ديوانه: ٧٠. والرواية فيه: «إلى ملك».

(٨) رواية الديوان: «ويعطي الفقيرا». والمضاف: الملجأ، من قولهم: أضاف ظهره إلى الحائط أي استند إليها.

ومثله قول طُرَيح بن إسماعيل الثَّقَفِيّ :

وأشمّ طَلَّاعِ الثنايا مباركٍ   يقولُ نِجادَ السَّيف وهو طويلُ(١)

ولأبى جُوَيْرِيَة العبدىّ :

يَعُدُّ نِجادَ السَّيْفِ حتّى كأنّهُ   بأعلى سَنامَىْ فالِجٍ يتطوّحُ

إذا اهتزَّ فى البُرْدِ اليمانىِّ خِلتَهُ   هلالاً بدا فى جانبِ الأُفْق يَلْمحُ

ولأبى عطاء السِّنْدِىّ :

وأزْهَرَ من بَنى عَمرو بنِ عَمْرٍو   حمائلُه وإنْ طالَتْ قِصارُ

ولبعضهم فى آل المهلب :

رَأَيتُكُمُ أعزَّ الناس جاراً   وأمنعَهُمْ إذا عُدُّوا ذِمارًا(٢)

حَمائلُكُمْ وإنْ كانَتْ طِوالاً   نَرَاها عن شَمائِلِكُمْ قِصارًا

ولبعض بنى العنبر فى معنى الطول :

فَجاءَتْ به عَبْلَ العِظامِ كأنَّما   عِمامتُه بين الرِّجالِ لِواءُ(٣)

ولآخر :

أشَمُّ طويلُ السَّاعِدَيْنِ كأنَّما   تُناطُ إلى جِذْعٍ طويلٍ حمائلُهْ(٤)

ولابن هَرْمَة :

تُناطُ حمائلُ الهِنْدِىِّ منهُ   بِعاتِق ، لا ألَفَّ ولا ضَئِيلِ

ولكِنْ تَستَقِلُّ به قُواهُ   على ماضٍ بقائمِهِ نَبِيلِ

---

(١) د ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « يطول » .

(٢) الذمار : الذمة والعهد .

(٣) عبل العظام : ضخمها ، والبيت من أبيات ثلاثة فى الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢٦٩ــ٢٧٠ ، والرواية هناك : « سبط العظام » .   (٤) حاشية ف (من نسخة) : « طوال الساعدين » .

ولسلم الخاسر :

يقومُ معَ الرُّمحِ الرُّدَينيِّ قائماً ‏ ‏ ويقصُرُ عنهُ طولُ كلِّ نجادِ

وللخثعميّ :

يُوازِي الرُّدَينيَّ في طولِهِ ‏ ‏ ويقصُرُ عنه نجادُ الحُسامِ

[١٩٣ ظ] وللواليّ :

طَوْلٌ وَطُولٌ فترَى كفَّهُ ‏ ‏ ينهلُّ بالطَّوْلِ انهلالَ الغمامْ

وطُولهُ يَغتالُ يومَ الوَغَى ‏ ‏ وغيرِه فضْلَ نجادِ الحُسامْ

فأما قوله :

ولقد حَذَوْتَ لمن أطاع ومنْ عصى ‏ ‏ نعلا ورِثْتَ عن النبيِّ مثالَها

فقد ردَّد مروان معناه في مواضع من شعره فقال :

شبيهُ أبيهِ مَنظرًا وخَليقةً ‏ ‏ كما حُذِيَتْ يوماً على أختِها النَّعلُ

وقال في موضع آخر :

أحْيا لَنا سُنَنَ النبيِّ مُحبُّه[1] ‏ ‏ قدَّ الشِّراكِ بهِ قرَنْتَ شِرا كا[2]

وقال أيضا :

صَحِيحُ الضَّميرِ ، سِرُّهُ مثلُ جَهْرِهِ ‏ ‏ قِياسَ الشِّراكِ بالشِّراكِ تُقابِلُهْ

وقال أيضا :

تَشابَهْتُما حِلماً وعَدلاً ونائِلاً ‏ ‏ وحزْما إذا أمرٌ أقامَ وأقْعَدَا

تَنازَعْتُما نفسَيْنِ ، هذي كهذِهِ ‏ ‏ على أصلِ عِرْقٍ كانَ أفْخرَ مُتلَدَا

كما قاسَ نَعْلاً حضْرَميٌّ فقدَّها ‏ ‏ على أختِها لم يألُ أنْ يتجوَّدا

---

(١) م : « محمد » . ‏ ‏ (٢) حاشية ف : « قد الشراك : مصدر في موضع الحال ، أي قاداه » .

وأخذ هذا المعنى أبو نواس فقال :

تَنازَعَ الأَحْمَدانِ الشِّبْهَ فاتَّفَقا ... خَلْقاً وَخُلْقاً كما قُدَّ الشِّراكانِ[(١)]

والأصل فى هذا قول ابن أبى ربيعة :

فلما توافقْنا عرفْتُ الذي بِها ... كَمِثْلِ الذى بى، حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ[(٢)]

ومثله للسّيد بن محمد الحِميرى رحمه الله تعالى :

يَتْلُونَ أَخْلاقَ النبيّ وفضْلَه ... فالنَّعْلُ تُشْبِهُ فى المِثالِ طِراقَها[(٣)]

وقد تقدّم إلى هذا المعنى يزيد بن المكسَّر بن ثعلبة بن سيّار العِجْلى بقوله فى يوم ذى قار، يحرض قومه على القتال :

مَنْ فَرَّ منكم فرَّ عن حَرِيمِه[(٤)] ... وجارِهِ، وفرَّ عن نَدِيمِهِ
/ أنا ابنُ سيّارٍ على شَكِيمِه[(٥)] ... مِثْلُ الشِّراكِ قُدَّ من أَدِيمِهِ [١٩٤ و]

* وكلُّهم يجرِي على قَدِيمِهِ *

فأما قوله :

* وحُسِدْتُ حتى قيل أصبح باغياً * . . . البيت

ففى معناه قول البحترىّ :

أَلِنْتَ لِىَ الأيامَ من بعدِ قَسْوَةٍ ... وعاتبْتَ لى دَهْرِى المُسِىءَ فأَعْتَبا[(٦)]
وأَلْبَسْتَنِى النُّعْمَى التى غيَّرَتْ أخِى ... عَلَىَّ فأَمْسَى نازِحَ الوُدِّ أَجْنَبا

* * *

ومما يختار لمروان قوله:

---

(١) حاشية الأصل : « أي ينزعان فى الشبه ، كل منهما إلى صاحبه فى الشبه ، ويجوز أن يكون تنازع ، من النزع الذى هو السلب » . (٢) ديوانه : ٣٢٦ .
(٣) طراق النعل : ما أطبقت عليه فخرزت به . (٤) الأبيات فى تاريخ الطبرى ٢ : ١٥٤ . وفى حاشية الأصل : من نسخة «منكم». (٥) شكيمه : طبعه وعادته . (٦) ديوانه ١ : ٥٦ .

مُوَفَّقٌ لِسَبِيلِ الرُّشْدِ مُتَّبِعٌ يَزِينُهُ كُلُّ ما يأتِي ويَجْتَنِبُ
تَسْمُو العُيُونُ إليهِ كلَّما انفرجَتْ لِلناسِ عن وجهِهِ الأبوابُ والحُجُبُ
لهُ خلائقُ بِيضٌ لا يُغَيِّرُها صَرْفُ الزَّمانِ كما لا يَصْدَأُ الذَّهَبُ

ووجدت بعض من ينتقد[1] الشعر يقول: ليس في شعر مروان بيت يُتمثل به غير هذا البيت الأخير من الثلاثة الأبيات . وكأن ابن مناذر[2] إياه أراد بقوله، وقد سأل وهو مجاور بمكة: عمن ببغداذ من الشعراء ؟ فقيل له: العباس بن الأحنف ؛ فقال: أنشدونى له ، فأنشدوه :

لو كُنْتِ عاتِبَةً لَسَكَّنَ عَبْرَتِي أَمَلِي رِضاكِ، وزُرْتُ غيرَ مُراقَبِ[3]
لكنْ مَلِلْتِ فلم تكُن لىَ حيلةٌ ، صَدُّ المَلولِ خلافُ صدِّ العاتِبِ[4]

فقال ابن مناذر : أخلِقْ بمن أدام بحثَ التراب أن يصيب خرَزة .

قال سيدنا أدام الله تمكينه : ولا شك فى قلة الأمثال فى شعر مروان ؛ ولكن ليس إلى هذا الحد ؛ وهذا المعنى الذى قد تضمنه البيت قد سُبق إليه أيضا ، قال طُرَيح بن إسماعيل :

جَوادٌ إذا جِئْتَهُ راجِياً كَفاكَ السؤالَ وإنْ عُدْتَ عادا
خَلائِقُه كَسَبِيكِ النُّضا رِ لا يَعْمَلُ الدَّهرُ فيها فَسادا

ومثله قول الخُرَيْمىّ :

[١٩٤ ظ] /رَأَيْتُكَ يازَيْدُ زَيْدَ النَّدَى وزَيْدَ الفَخارِ وزَيْدَ الكَرَمْ
تَزِيدُ على نائِباتِ الخُطُو بِ بَذْلاً وفى سابِغاتِ النِّعَمْ
كَذا الخَمْرُ والذَّهَبُ المَعْدِنِىُّ يُجَوِّدُ هذا وذاكَ القِدَمْ

وفى قوله : «الذَّهب المعدنىّ» فائدة؛ لأنه إذا خَلَص الذهب وصَفا لم يفسد؛ وإذا امتزج

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « ينقد » . (٢) حاشية الأصل : « ابن مناذر ، بضم الميم ، ومنهم من يفتح الميم ، ذهابا إلى أن له آباء اسم كل منهم المنذر ، وليس هذا بشىء . وقيل له : يابن مناذر ، فقال : مناذر الصغرى أم الكبرى ؟ وهما ناحيتان بالأهواز ، بل أنا ابن مناذر ، بضم الميم » .

(٣) ديوانه : ٢ : ٢٢ . (٤) رواية الديوان : « لكن مللت » .

بغيره لم يكن هذا حكمه ؛ ومثله للأموى(١) :

يَأوِى إلى خُلُقٍ لم يُصْدِهِ طَبَعٌ ... كأنَّ جوهَرَهُ من جوهرِ الذّهبِ

ولبعضهم:

مَلِكٌ لهُ خُلُقٌ خَلِيقٌ بالعُلا ... كَسبيكَةِ الذّهَبِ التى لا تَـكْلَفُ(٢)

وقد أخذ الخُبزأرْزِىّ هذا المعنى فى قوله :

فلاَ تُمَنَّ لتَحذيفٍ تـكلّفه ... لِصُورَةٍ حُسنُها الأصلىّ تَـكْفيها
إنَّ الدَّنانيرَ لا تُجلَى وإن عَتُقَتْ ... ولا تُزَادُ على النَّقْشِ الذى فيها

ولجحظة مثله :

صديقٌ لى له أدَبُ ... صَداقةُ مِثْلِهِ حَسَبُ
رَعَى لِى فَوْقَ ما يُرْعَى ... وأوجَبَ فوقَ ما يَجبُ
وَلوْ نُقِدَتْ خلائقُهُ ... لَبُهْرِجَ عندَها الذّهبُ

---

(١) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « الأسدى » (٢) لاتـكلف : لاتصدأ ؛ من الـكلف ؛ وهو لون يخالف لون الوجه .

مجلس آخر

تأويل آية

إن سائل سائل عن قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾؛ [الإسراء: ٤٧].

فقال: لِمَ وحّد ﴿نَجْوَى﴾ وهو خبر عن جمع؟ وما معنى ﴿مَّسْحُورًا﴾ وما جرت عادة مشركي العرب بوصف رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، بل عادتهم جارية بقرفه بأنه ساحر؟

الجواب، قلنا: أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ فإن «نَجْوَى» مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، وهو مُقَرٌّ على لفظه. ويجرى ذلك مَجرَى [١٩٠ و] /قولهم: الرجال صَوم، والمنازل حَمْد، يعنى بصوم صائمون، وبحمد محمودون.

وقد قال قوم: إن معناه: وإذ هم أصحاب نجوى، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ويقال: القوم نَجِيٌّ والقوم أنجِيَة، فمن وَحّد بنى على مذهب المصدر، ومن جمع جعله منقولا عن المصادر، ملحقاً برغيف وأرغفة، وما أشبه ذلك.

وقد قال الشاعر (١):

أتاني نَجِيِّي بعدَ هَدْءٍ ورَقْدَةٍ ... ولم أكُ فيما قد بلَوْتُ بكاذبِ (٢)

---

(١) ف: «وقال الشاعر فى التوحيد»؛ وهو سواد بن قارب الدوسى؛ صحابىّ ذكره ابن حجر فى الإصابة ٣: ١٤٨-١٤٩. (٢) من أبيات أنشدها عند الرسول عليه السلام، ذكرت مع خبر له فى مقدمة جمهرة الأشعار ٢٤-٢٦. والرواية هناك:

* ولم يَكُ فيما قد عَهِدْتُ بكاذبِ *

وأنشد الفراء فى الجمع:

ظَلَّتْ نِسَاؤُهُمُ والقَوْمُ أَنْجِيَةٌ يُعْدَى إليها كما يُعْدَى على الغَنَمِ[١]

فأما قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾ ففيه وجوه:

أوّلها أن يكون المراد: إن تتبعون إلا رجلا متغيّر العقل؛ لأن المشركين كان من مذهبهم عيبُ النبي صلى الله عليه وآله، وتضعيفُ أمره وتوهينُ رأيه، وكانوا فى وقت ينسبونه إلى أنه ساحر، وفى آخر يرمونه بالجنون، وأنه مسحور مُغَيَّر العقل[٢]، وربما قذفوه بأنه شاعر حُوشِيّ من ذلك كلِّه. وقد جرت عادة الناس أن يصفوا مَنْ يُضيفونه إلى البله والغفلة وقلة التحصيل بأنه مسحور.

وثانيها أن يريدوا بالمسحور المخدوعَ المعلَّل؛ لأن ذلك أحد ما يستعمل فيه هذه اللفظة، قال امرؤ القيس:

أرانا مُوضِعِينَ لِحَتْمِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعَامِ وبالشَّرابِ[٣]

وقال أمية بن أبى الصلت:

فإنْ تَسْأَلِينا فِيمَ نَحْنُ فإنَّنا عَصافِيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ[٤]

---

(١) البيت فى اللسان (نجا)، ونسبه لسحيم، ولم يذكر فى ديوانه. وفى ف، وحاشية الأصل (من نسخة): «يعدى عليها». (٢) د، ف، حاشية الأصل من نسخة: «متغير العقل».

(٣) ديوانه: ١٣٢. موضعين: مسرعين، والإيضاع: نوع من السير. والحتم: الإيجاب؛ وبعده:

عصافيرٌ وذِبّانٌ ودودٌ وأجرأ من مجلّحةِ الذئابِ

فبعضَ اللوم عاذِلتى فإنّى ستَكْفِينى التجاربُ وانْتِسابى

إلى عِرْقِ الثرى وَشَجتْ عروقِى وهذا الموت يسلبنى شبابى

(٤) البيت فى اللسان (سحر)، ونسبه إلى لبيد؛ وهو أيضا فى ديوانه ١: ٨١

وثالثها أن السَّحر في لغة العرب الرِّئة وما تعلق بها ، فيها ثلاث لغات: سَحرٌ وسِحْر وسُحرٌ ، وقيل السَّحْر مالصق بالحلقوم والمرىْ من أعلَى الجوف؛ وقيل إنه الكبد؛ فكأنّ المعنى على هذا : إنْ تتبعون إلا رجلا ذا سِحْر ؛ خلقه الله بَشَرا كخَلْقِكم .

ورابعها أن يكون معنى مسحور أي ساحر ، وقد جاء لفظ مفعول بمعنى فاعل؛ قال الله
[١٩٠] تعالى : ﴿ وإذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ / جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً﴾ ؛ [الإسراء : ٤٥] ، أي ساترا ، والعرب تقول للمعسر : مُلْفَج ، ومعناه مُلْفِج ؛ لأن ماضيه ألْفَجَ[١] ، فجاءوا بلفظ المفعول وهو الفاعل ؛ ومن ذلك قولهم : فلان مشئوم على فلان وميمون ؛ وهم يريدون شائم له ويامن ؛ لأنه من شأمَهم[٢] ويَمَنَهم .

ورأيت بعض العلماء يطعن على هذا الاستشهاد الأخير فيقول : العربُ لا تعرف «فلان مشئوم على فلان» ؛ وإنما هذا من كلام أهل الأمصار ؛ وإنما تسمى العرب من لحقه الشؤمُ مشئوماً؛ قال علقمة بن عَبَدة:

ومنْ تعرَّض لِلْغِرْبانِ يَزْجُرُها ... على سلامَتِهِ لابدَّ مَشْئُومُ[٣]

والوجوه الثلاثة الأوَل أوضح وأشبه.

***

ومما يختار لمروان بن أبي حفصة قوله من قصيدة يمدح بها معن بن زائدة الشيباني، أولها:

أرَى القَلْبَ أمْسَى بالأوَانِسِ مُولَعاً ... وإنْ كانَ من عهدِ الصِّبا قد تمتَّعا[٤]

يقول فيها :

ولمَّا سَرَى الهَمُّ الغَرِيبُ قَرَيْتُه ... قِرى من أزالَ الشكَّ عنه وأزْمَعا

---

(١) حاشية الأصل : « يقال : ألفج ؛ فهو ملفج ، وأسهب إذا ذهب عقله فهومسهب ، وأحصن فهو محصن» . (٢) شأمهم : أصابهم بشؤم. (٣) ديوانه : ١٣١ ، المفضليات : ١٢٠ (طبعة المعارف) .
(٤) الأوانس : جمع آنسة ؛ وهي الفتاة الطيبة الحديث والنفس .

عَزَمْتُ فَعَجَّلْتُ الرَّحِيلَ ولم أكُنْ ... كَذِى لُوثَةٍ لا يُطْلِعُ الهمَّ مَطلَعا
فأمَّتْ رِكَابِى أرْضَ مَعْنٍ ولم تَزَلْ ... إلى أرضِ مَعْنٍ حَنِينًا كانَ نُزَّعا(١)
نَجَائِبُ لولاَ أنها سخِّرتْ لَنا ... أبَتْ عِزَّةً من جَهْلِها أن تُوَزَّعا
كَسَوْنا رِحالَ الَيْسِ منها غوارِبًا ... تدارَكَ فيها النِّىُّ صيفًا ومَرْبَعا(٢)
فما بلغتْ صنعاء حتى تواضعتْ ... ذُرَاها وزالَ الجهْلُ عنها وأقلَعا(٣)
وما الغيثُ إذْ عمَّ البلادَ بصَوْبِه ... على الناسِ من معْرُوفِ مَعْنٍ بأوْسَعا

يقول فيها :

تدارَكَ معْنٌ قبَّةَ الدِّينَ بعدَما ... خَشِينا على أوتادِها أن تُنزَّعا
أقامَ على الثغرِ المَخُوفِ ، وهاشِمٌ ... تَساقَى مِياما بالأسِنَّةِ مُنقَعا
مُقامَ امرِئٍ يأبَى سِوَى الخُطَّةِ التى ... تكُونُ لدَى غِبِّ الأحاديثِ أرْفَعا
وما أحْجَمَ الأعداءُ عنك بَقيَّةً ... عليكَ؛ ولكِن لم يرَوْا فيكَ مطمَعا
رَأوا مُخْدِرًا قد جرَّبوه وعايَنوا ... لدَى غِيلِهِ مِنْهُمْ مَجَرًّا ومَصْرَعا
/ وليسَ بِثانِيهِ إذا شَدَّ أن يرَى ... لدَى نَحْرِهِ زُرقَ الأسِنَّةِ شُرَّعا [١٩٦ و]
لهُ راحَتانِ : الحَتْفُ والغَيْثُ فيهما ... أبَى اللهُ إلاَّ أنْ تضُرَّا وتَنفَعا
لقدْ دَوَّخَ الأعداءَ مَعْنٌ فأصْبَحُوا ... وأمْنَعُهم لا يدْفَعُ الذُّلَّ مَدفَعا
نَجِيبُ مناجِيبٍ وَسَيِّدُ سادَةٍ ... ذُرَا المَجْدِ من فَرْعَىْ نِزارٍ تفرَّعا
لَبانَتْ خِصالُ الخيرِ فيهِ وأكْمِلَتْ ... وما كَمَلَتْ خَمْسٌ سِنوهُ وأربعا(٥)

---

(١) نزعا ، أى مشتاقين. (٢) الميس : خشبة الرحل ، والغوارب : أعلى السنام . والنىّ : الشحم .

(٣) ذراها : جمع ذروة ؛ وهى الأعالى ؛ ويعنى هنا الأسنمة .

(٤) المخدر : الأسد فى خدره وهو غيله ؛ ويعنى بالخدر الأجمة . (٥) فى حاشيتى الأصل ، ف :

ومثله لآخر :

لَئِنْ فَرِحَتْ بى مَعْقِلٌ عِندَ شِيبتى ... لقَدْ فرِحَتْ بى بين أيدى القوابلِ

لقد أصبحتْ في كلِّ شرقٍ ومغربٍ   بِسَيْفِكَ أعناقُ الُربينَ خُضَّعا
وطِئْتَ خُدُودَ الحضرميِّينَ وطأةً   لها هُدَّ رُكْنا عِزِّهِمِ(١) فتضعضعا
فأقعَوا على الأذنابِ إقعاءَ مَعْشَرٍ   يَرَوْنَ لُزُومَ السِّلْمِ أبقَى وأودَعا
فلَوْ مُدَّتِ الأيدِي إلى الحَرْبِ كلها   لكَفُّوا وما مدُّوا إلى الحَرْبِ إصْبَعا

أما قوله:

فما بلغتْ صنعاءَ حتى تواضعتْ   ذُراها، فزالَ الجهلُ عنها فأقلَعا

فقد ردّده في موضع آخر فقال :

فما بلَغَتْ حتّى سَماها كَلالُها   إذا عُرِّيَتْ أصلابُها أن تُقَيَّدا

وهذا المعنى(٢ كثير في الشعر القديم والمحدَث٢)، فمنه قول جرير :

إذا بلغوا المنازِلَ لم تُقَيَّدْ   وفي طولِ الكَلالِ لها قُيُودُ(٣)

وروي أنه قيل لنُصَيْب : لك بيت نازعك فيه جرير؛ أيُّكما فيه أشعر ؟ فقال : ما هو؟ فقيل قولك:

أضرَّ بها التَّهجيرُ حتّى كأنَّها   بقايا سُلالٍ لم يَدَعْها سُلالُها(٤)

وأنشد بيتَ جريرَ الذي تقدّم، فقال : قاتل الله ابن الخطفي ! فقيل له : قد فضلته عليك، فقال : هو ذاك .

وأخذ هذا المعنى المؤمل بن أُمَيْل المحاربيّ فقال :

كانتْ تُقَيَّدُ حِينَ تَنْزِلُ منزِلاً   فاليَوْمَ صار لها الكَلالُ قُيُودا

ولأبي نخيلة :

[١٩٦ ظ] /قَيَّدَها الجَهْدُ ولم تُقَيَّدِ   فَهِيَ سَوامٍ كالقنا المُسَنَّدِ

---

(١) حاشية ف (من نسخة) : «عزمهم» . (٢ــ٢) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : «كثير في شعر القدماء والمحدثين» . (٣) ديوانه : ١٤٨ . (٤) السلال : السل .

وما لَها مُعلِّل[1] من مِزْوَدٍ مِنها[2] ولا من شاخِصٍ مُسْتَبْعَدِ

ومعنى قوله : « سَوَامٍ » أي هي رافعة رءوسها ، وشبهها بالقنا ، لأن القنا إذا ركز مال قليلا مع الريح[3]، فيقول : في أعناقها ميل من الضعف ، كما قال الشماخ :

فأضحتْ تَغالَى بالسِّتارِ كأنّها رِماحٌ نَحاها وِجْهَةَ الرِّيحِ راكِزُ[4]

وكما قال حميد بن ثور الهلاليّ :

بمَثْوَى حرامٍ والمَطِيُّ كأنّهُ قَنًا مُسْنَدٌ هَبّتْ لهنّ خَرِيقُ[5]

---

(١) ش « معلل » ، بكسر اللام المشددة . وهو على هذا كناية عن العلف الذي تجتره من جوفها .

(٢) في حاشيتي الأصل ، ف : « منها، متعلق بالمزود ؛ أي من مزود منها، أي من نفسها ، يعني كرشها ».

(٣) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « من الريح » .

(٤) في حاشيتي الأصل ، ف : « وهذا البيت آخر زائيته ؛ وقبله :

فأصبح فوق الحِقْفِ حِقْفِ تَبالَةٍ له مَرْكَدٌ في مستوى الحبل بارزُ

فأضحت تغالى بالستار كأنها . . .

يصف حيرا وصائدا ، والحقف : ما اعوج من الرمل ، والمركد : المقام والحبل : الممتد من الرمل . وقوله : « تغالى » أي تدخل رءوسها بعضها في بعض . والستار : موضع ؛ وشبهها في دقتها وطولها بالرماح ونحاها: جعلها في ناحية الريح؛ شبهها منحرفة إلى ناحية الريح لتنتشي ؛ فإن حلت الريح ريح الصائد إليها تركت ذلك الورد وأتت غيره ؛ وإلا تقدمت بالرماح» والقصيدة في ديوانه : ٤٣-٥٣ ؛ ورواية البيتين فيه:

وأصْبَحَ فوق النَّشْزِ نشزِ حمامةٍ له مَرْكَضٌ في مستوى الأرض بارزُ

وظلّتْ تَغَالَى باليفاعِ كأنّها رماحٌ نحاها وجهةَ الريحِ راكِزُ

(٥) ديوانه : ٣٤ ، من قصيدة طويلة ؛ أولها :

نَأَتْ أمُّ عَمْرٍو فالفؤادُ مَشُوقُ يَحِنُّ إليها والِهًا ويَتُوقُ

وهو أيضا في الكامل بشرح المرصفي ٦ : ١٩٣ ، واللسان (خرق)، وفي حاشيتي الأصل ، ف : نسخة س : « مثوى حرام : منى » ، وقبل هذا البيت:

فأعرضتُ عنها في الزيارة أتقي وذو اللُّبِّ بالتقوى هناك حقيقُ

وهذا البيت لم يرد في ديوانه ؛ والذي ورد قبل البيت المذكور :

ألاَ طرقتْ صحبي عميرة إنّها لَنَا بالمَرَوْراةِ المَطِيِّ طَرُوقُ

والمروراة هنا : الأرض أو المفازة لا شيء فيها .

فالخريق ريحٌ شديدة تنخرقُ من كل جهة .

ومعنى قول أبي نُخيلة : « من مِزْوَدِ » أي من ثميلة[١] تجترّها، من الاجترار، وأراد أنه لاشيء في أجوافها تتعلّل[٢] به . والمستبعَد : ما بَعُد من المرعى .

وأنشد أبو العباس ثعلب :

إذا بلغُوا المنازلَ لم تُقيَّدْ ركائبُهم ولم تُشدَدْ بِعقْلِ
فهنَّ مُقيَّداتٌ مُطلَقاتٌ تَقضَّمُ ما تَشَذَّرُ في المَحلِ[٣]

والأصل في هذا قول امرىءِ القيس :

مَطَوْتُ بهم حتّى تَكِلَّ مَطِيُّهُمْ وَحتّى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأرْسانِ[٤]

ولعباد بن أنف الكلب الصيداويّ :

فتُمسِي لا أُقيِّدُها بحَبْلٍ بِها طُولُ الضَّرَاوَةِ والكَلالِ

ومن جيد هذا المعنى قول الفرزدق يصف الإبل :

بَدَأْنا بِها من سِيفِ رملِ كُهَيْلَةٍ وفيها نَشَاطٌ من مِرَاحٍ وعَجْرَفِ[٥]

---

(١) الثميلة : بقية العلف .

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « فتتعلل به » . (٣) تشذر : تفرق ؛ وفي د ، ف : « تشذب » ، وهي بمعنى تفرق أيضا . (٤) ديوانه : ١٢٩ . مطوت بهم ؛ أي مددت بهم في السير ، ما يقدن بأرسان ؛ أي أعيت فلا تحتاج إلى أرسان . وفي حاشيتي الأصل ، ف : « قبله :

وَمَجْرٍ كَغُلّانِ الأُنيعِمِ بالغٍ دِيارَ العدوِّ ذي زُهاءٍ وأرْكانِ

المجر : الجيش الكبير الثقيل . والغلان : الأودية ؛ واحدها غال ، وهو الوادي الكثير الشجر . وذو زهاء ؛ أي لا يحصون لكثرتهم . (٥) ديوانه ٢ : ٥٥١ — ٥٥٨ ؛ من نقائضه المشهورة ، وأولها :

عزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزفُ وأنكرتَ من حدراءَ ما كنت تعرفُ

وأصل السيف شاطىء البحر ، وكهيلة : موضع . والعجرف : سير فيه نشاط . وفي حاشيتي الأصل ، ف : « قبل هذا البيت :

فما بَلَغتْ حتّى تقارَبَ خطْوُها ... وبادَتْ ذُرَاها والمَناسِمُ رُعَّفُ(١)

وحتّى قَتلْنا الجهْـلَ عنها وغُودِرَتْ ... إذا ما أُنيختْ والمَدامِعُ ذُرَّفُ(٢)

/وحتّى مشى الحادِي البَطِيءُ يسُوقُها ... لها بخَصٌ دامٍ ودَأْيٌ مُجلَّفُ [١٩٧ و]

ـ البخَص : لحم الخفّ الذى تطأ عليه . والدَّأى : فَقار الظهر . والمجلّف : المقشور ـ

وحتّى بمَثْناها وما فِي يَدٍ لَها ... إذا حُلّ عنها رُمّةٌ وهي رُسَّفُ

ـ الرُّمة : الحبل ؛ وأراد أنها ترسُف كما يرسُف القيد ، وإن لم يكن فى يدها قيد ـ

إذا ما نزَلْنا قاتلتْ عن ظهورِها ... حراجيجُ أمثالُ الأهلّةِ شُسَّفُ

ـ الحراجيج : الطِّوال من الإبل ، والشُّسَّف : اليابسة من الجهد والكلال . ومعنى قتالها للغربان أنهـا إذا عرِّيت ظهورها تقع الغربان عليها لتأكل دَبَرها ؛ فالإبل تُدافع الغِربان بأفواهها عن ظهورها وذلك قتالها ـ

= إليك أميرَ المؤمنين رَمَتْ بنَا ... هموم المنى والهوْجَلُ المتعسِّفُ

وعَضُّ زمانٍ يابن مروان لم يَدَعْ ... من المال إلا مُسْحتا أو مجرّفُ

ومائرةِ الأعضاد صُهْبٍ كأنما ... عليها من الآنِ الجسادُ المدوّف

بدأنا بها من سِيفِ رمل كُهَيْلَةٍ ... ...

ـ الموجل : البطن الواسع فى الأرض . المتعسف : الطريق المسلوك من غير علم . ويروى : « إلا مسحت » ، بالرفع ؛ ومعنى : لم يدع » ، من الدعة ؛ أى « لم يتدع » مع هذا الزمان إلا مسحت مستأصل . قال سويد :

أرّق العينَ خَيالٌ لم يَدَعْ ... من سُلَيْمى ففؤادِي منتزِعْ

والمجرف : الذى أخذ ما دون الجميع ؛ وقال ثعلب : « مسحتا » نصب بوقوع الفعل عليه ، وقد وليه الفعل ، ولم يل الفعل « مجرف » فاستؤنف به فرفع ، قال : التقدير : « هو مجرف » . ومائرة الأعضاد : التى تمور بيديها دون رجليها ، وذلك مما يستحب فى الإبل . والجساد : العرق ؛ وهو ما اصفر ، يضرب إلى الحمرة .

(١) بادت : هلكت أسنمتها والناسم : أظفار الإبل . ورعف : دامية من الحفاء .

(٢) نسخة الشجرى : « قتلنا جهلها ؛ وهو مرحها ونشاطها بالكلال » . ويروى : « وغورت » من التغوير ، وهو نزول القائرة ؛ والقائرة نصف النهار » .

إذا ما أَرَيناها الأَزِمَّةَ أقبلَتْ إلينا بحرّاتِ الخُدُودِ تَصدَّفُ
فأفنَى مِرَاحَ الدّاعريّة[1] خَوضُها بنا اللّيلَ إذ نامَ الدَّثُورُ المُلَفَّفُ[2]

ومن أحسن ما قيل فى وصف الإبل بالنحول من الكلال والجهد بعد السِّمن قول الشاعر:

وذاتِ ماءَيْنِ قد غَيَّضْتُ مُجّتَها بحيثُ تُستَمسَكُ الأَرواحُ بالحَجَرِ
رَدَّتْ عوارِيَ غِيطانِ الفَلا وَنَجَت بمثلِ إيبالةٍ من حائلِ العُشَرِ[3]

قوله: «ذات ماءين» يعنى سِمَناً على سِمَن؛ وقيل: بل عنَى أنها رعتْ كلأ عامين. وقوله «قد غيّضتُ مُجّتَها» يعنى أنه أتعبها بالسير حتى ردّها هزيلًا بعد سِمَن؛ فكأنه غيّض بذلك ماءها.

ومعنى:

* بحيثُ تستمسك الأرواحُ بالحجر *

يعنى الفلاة؛ حيث لا يكون فيها الماء، فيقتسم الركب الماء الذى يكون معهم بالحجر الذى يقال له المَقلة[3] فتمسك أرماقهم.

وقوله:

* ردت عوارىَ غِيطانِ الفلا وَنجَتْ *

أى مارعتْ من كلأ هذه الأماكن وسمنت عنه كان كعارية عندها، فردّته حيث جهدها السير وأهزلها[4]. والإيبالة: الحُزْمة من الحطب اليابس.

---

(١) الداعرية: إبل منسوبة إلى فحل يقال له: داعر، معروفة بالنجابة والكرم. وخوضها: سيرها بالليل. والدثور: الرجل الثقل البدن، الذى لا يبرح مكانه. الملفف، أى فى ثيابه.

(٢) العشر: شجر له صمغ، وفى حاشيتى الأصل، ف: «يعنى بحائل العشر ما يبس من هذا الشجر، وأصل الحائل فى الإبل إذا لم تحمل».

(٣) المقلة، بالفتح: حصاة القسم؛ توضع فى الإناء ليعرف قدر ما يسقى كل واحد منهم؛ وذلك عند قلة الماء فى المفاوز. (٤) من نسخة بحاشيتى الأصل، ف: «هزلها».

وأخذ هذا المعنى بعينه أبو تمام فقال :

رَعَتْهُ الفَيَافِي بعدَ ما كانَ حِقْبَةً ... رَعاها، وماءُ المُزْنِ يَنْهَلُّ ساكِبُه(١)

فكَمْ جِزْعِ وادٍ جَبَّ ذِرْوَةَ غارِبٍ ... ومِن قبلُ كانتْ أتْمَكَتْهُ مذانِبُه(٢)

فأما قوله/ : [١٩٧ ظ]

فما أحجمَ الأعداءُ عنك بَقِيَّةً ... عليكَ، ولكن لم يَرَوْا فيك مَطْمَعَا

فمأخوذ من قول الأول(٣) :

فما بُقْيا عليَّ تَرَكْتُماني ... ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ(٤)

وقريب منه قول الآخر :

لَعَمْرُكَ ما الناسُ أثنَوْا عليكَ ... ولا قَرَّظُوكَ ولا عَظَّمُوا

ولوْ أنَّهم وَجَدُوا مَطْمَعاً ... إلى أنْ يَعِيبوكَ ما أحْجَمُوا

فأنتَ بفضلِكَ ألجأتَهُمْ ... إلى أنْ يُجِلُّوا وأنْ يُعظِموا

---

(١) ديوانه : ٤٤ من قصيدته التي يمدح فيها عبد الله بن طاهر ؛ وأولها :

أهُنَّ عوادِي يوسفٍ وصواحبُهْ ... فعزماً فقدماً أدركَ السُّؤْلَ طالبُهْ

وفي الديوان : « وماء الروض ينهل ساكبه » . وبعده :

فأضحى الفلا قد جدَّ في بري نحضه ... وكان زماناً قبل ذاك يلاعبُهْ

النحض : اللحم المكتنز .

(٢) جب : قطع . أتمكته : أسمنته . المذانب : مجاري الماء . ورواية الديوان :

* وبالأمس كانتْ أتمكتْه مذانبُهْ *

(٣) هو العين المنقري ؛ وكان قد تعرض لجرير والفرزدق فقال :

سأقضي بين كلب بني كليبٍ ... وبين القين قينِ بني عقالِ

بأن الكلبَ مرتعه وخيمٌ ... وأن القينَ يعمل في سفال

فلم يجبه أحد منهما ؛ فقال :

فما بقيا عليَّ تركتماني ، ... ولكن خفتما صرد النبال

(٤) البقيا : الرحمة والشفقة . وصرد السهم : نفذ أو نكل ؛ وهو من الأضداد ؛ والمعنى على الأول: أنكما خفتما أن تنفذ سهامي فيكما ، أي هجائي ، وعلى الثاني : أنكما خفتما ألا تنفذ سهامكما ، فعجزتما عن الرد عليَّ .

ومثله وقريب منه :

أما لوْ رأى فيكَ العدوُّ نَقيصةً ... لَخَبَّ بتَصْريفِ العُيُوبِ وأوضَعا
وَلـكنَّهُ لـما رَآكَ مبرَّأً ... مِنَ العَيْبِ غطَّى رَأْسَه وتَقَبَّمَا

ومثله :

قدْ طَلَبَ العَاذِلُ عَيْباً فَمَا ... أصابَ عَيْباً فانثَنَى عاذِرَا

وللبحتريّ فى معنى قول مَرْوان :

* فما أحجم الأعداءُ عنك بقيّةً *

من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف لقاءه الأسد :

غداةَ لقِيتَ اللَّيْثَ واللَّيْثُ خادِرٌ ... يُحدِّدُ ناباً لِلِّقاءِ ومِخْلَبا[1]
شَهِدْتُ ، لقَدْ أنصَفْتَهُ يومَ تَنبَرِى ... لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً من البِيضِ مِقْضَبا[2]
فلَمْ أرَ ضِرْغامينِ أصْدَقَ مِنكُما ... عِراكاً إذا الهَيَّابةُ النِّكْسُ كذَّبا[3]
هِزَبْرٌ مَشَى يَبْغِي هِزَبْراً ، وأغْلَبٌ ... منَ القَوْمِ يَغْشَى باسِلَ الوَجْهِ أغْلَبا[4]
أدَلَّ بِشَغْبٍ ثمَّ هالَتْهُ صَوْلَةٌ ... رآكَ لهـا أمضَى جَناناً وأشْغَبا
فأحْجَمَ لمَّا لم يَجِدْ فيكَ مَطْمَعاً ... وأقْدَمَ لمَّا لم يَجِدْ عنكَ مَهْرَبا
فلم يُغْنِهِ أن كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً ، ... ولم يُنْجِه أن حادَ عنكَ مُنكِّبا
حَمَلْتَ عليهِ السَّيفَ لا عَزْمُكَ انثَنَى ، ... ولا يَدُكَ ارتَدَّتْ ، ولا حدُّهُ نَبا
[١٩٨ و] / وكُنتَ متى تَجْمَعْ يمينَيْكَ[5] تَهْتِكِ الـ ... ـضَّرِيبةَ ، أولا تُبقِ للسَّيفِ مَضْرِبا

ومن صافى كلام مرْوان ورائقه ، ومما اجتمع له فيه جودة المعنى واللفظ واطِّراد النسج قوله :

---

(١) ديوانه ١ : ٥٦ .

(٢) يقال : أصلت السيف إذا جردته . والعضب : السيف القاطع . والقضيب : القطع أيضا.

(٣) أى كذب الظن فيه ؛ ومن نسخة بحاشية الأصل : « نكبا » .

(٤) الأغلب : الأسد إذا كان غليظ الرقبة .

(٦) جعل كلتا يديه يمينا .

بنُو مَطرٍ يومَ اللّقاء كأنّهمْ ... أسُودٌ لها فى غِيلِ خفّانَ أشبُلُ(١)
هُمُ يمْنَعونَ الجارَ حتى كأنّما ... لجارِهمُ بين السّماكَيْن منْزِلُ
بَهاليلُ فى الإسلامِ سادُوا ولم يكُنْ ... كأوّلِهم فى الجاهِليّةِ أوّلُ
هُمُ القَوْمُ إنْ قالوا أصابوا، وإنْ دُعُوا ... أجابُوا ، وإنْ أعطوْا أطابُوا وأجْزَلوا
وَما يَسْتَطيعُ الفاعِلُونَ فِعالَهمْ ... وإنْ أحْسنوا فى النّائِباتِ وأجْمَلُوا
ثَلاثٌ بأمْثالِ الجِبالِ حُباهُمُ ... وأحْلامُهُمْ مِنْها لَدَى الوَزْنِ أثْقَلُ

ومن جيد قوله من قصيدة يمدح بها معناً :

ما مِن عدوٍّ يَرَى مَعْناً بساحَتِهِ ... إلاّ يَظُنُّ المَنَايَا تَسْبِقُ القَدَرَا
يُلفَى إذا الخَيلُ لم تَقْدمْ فَوارِسُها ... كاللّيثِ يزْدادُ إقداماً إذا زُجِرَا
أغرّ يُحْسَبُ يومَ الرّوعِ ذا لِبَدٍ ... وَرْداً ويُحسبُ فوقَ المِنْبَرِ القَمَرَا(٢)

وله من قصيدة يصف يوماً حارًّا :

ويومٍ عَسُولِ الآلِ حامٍ كأنّمَا ... لَظَى شَمْسِهِ مَشْبُوبُ نارٍ تَلَهّبُ(٣)
نَصَبْنَا لَهُ منّا الوُجوهَ وَكِنُّها ... عَصائِبُ أسْمالٍ بها نتعصّبُ

ويشبه أن يكون أخذ ذلك من قول الشّنْفَرى :

وَيومٍ من الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعابُه ... أفاعيهِ فى رَمْضائِهِ تتَمَلْمَلُ(٤)
نَصَبْتُ لهُ وجْهِى ولا كِنَّ دُونَهُ ... ولا سِتْرَ إلاّ الأتْحمِىُّ المرعْبَلُ(٥)

(١) حماسة ابن الشجرى : ١٠٩ — ١١٠ ، وأبيات منها فى لباب الآداب ٢٦٥ ، ٢٦٦

(٢) لبد : جمع لبدة ؛ وهو ما اجتمع من الشعر على قفا الأسد فتلبد .

(٣) عسول : جار ؛ وأصله فى الذئب والثعلب . وحام : حار . (٤) لامية العرب — بشرح الزمخشرى : ١٢٨ — ١٢٩ . الشعرى : من الكواكب القيظية . (٥) الأتحمى : نوع من البرود . والمرعبل : المقطع .

ولمروان من أبيات يصف فيها حديقة وهبها له المهدى ، ويذكر نخلها وشجرها أجاد فيها :

نواضِرَ غُلْباً قد تدانت رءوسُها ... من النبتِ حتى ما يَطيرُ غُرابُها[1]

ترى الباسِقاتِ العُمَّ فيها كأنها ... ظَعائِنُ مضروبٌ عليها قِبابُها

[١٩٨ ظ] /ترى بابَها سَهْلاً لكلِّ مُدَفَّعٍ ... إذا أيْنَعتْ نَخْلٌ فأُغْلِقَ بابُها[2]

يكُونُ لنا ما نجتَنِى من ثمارِها ... رَبيعاً إذا الآفاقُ قَلَّ سَحابُها

حَظائِرُ لم يُخْلَطْ بأثمانِها الرِّبا ... ولم يَكُ من أخْذِ الدِّيَاتِ اكْتسابُها

ولكنْ عطاءُ اللهِ من كلِّ مِدْحَةٍ ... جَزِيلٍ من المُسْتَخْلَفِينَ ثَوابُها

ومن رَكْضِنا بالخيلِ فى كلِّ غارَةٍ ... حَلالٌ بأرضِ المُشْرِكينَ نِهابُها[3]

حَوَتْ غُنْمَها آباؤنا وجُدُودُنا ... بِصُمِّ العَوالِى والدِّماءُ خِضابُها

أمّا قوله :

حَظائِرُ لم يُخْلَطْ بأثمانِها الرِّبا ... ولم يَكُ من أخْذِ الدِّيَاتِ اكْتِسابُها

فكأن ابن المعتز نظر إليه فى قوله :

لنا إبلٌ ما وَفَّرَتْها دماؤنا ... ولا ذَعَرَتْها فى الصباحِ الصَّوابِحُ[4]

وفى ضد هذا قول أبى تمام :

---

(١) ف : « نواضرعلبا » .

(٢) يريد أنه إذا أغلق الآخرون الأبواب على نخيلهم ؛ فإن نخل هذه الروضة لايغلق بابه .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « للخيل » .

(٤) ديوانه : ٢٢ ؛ والرواية فيه :

* لنا وَفْرَةٌ ماوفَّرتْها دِماؤُنا *

وفى نسخة ش : « الصوائح » ؛ والمعنى أنه لم تأخذ عوضاً عن دمائنا .

كَثُرَتْ فِيهِمُ المَدَارِحُ إلاَّ أنَّها من مَنَاكِحٍ وَدِيَاتِ[1]

ومثل الأول قول حسان يهجو قوماً من قريش :

وما لَكُمُ لامن طِرادِ فَوارِسٍ ولكِنْ من التَّرْقِيحِ بِآلِ مالِكِ[2]

---

(١) ف ، حاشية الأصل من نسخة : « المواشى » ؛ وفى حاشيتيهما أيضا : إذا سكنت الياء من « المواشى » ؛ كان البيت مشعث العروض ؛ والتشعيث فى العروض غير مألوف وإنما هو فى الضرب الأول من الخفيف . والتشعيث : أن تقطع وتد فاعلاتن فتحذف ألفه وتسكن لامه فتصير : « فاعاتن » ، فتصير : « مفعولن » . (٢) الترقيح : إصلاح المال .

مجلس آخر

تأويل آية

إن سأل سائل عن معنى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ ﴾ ؛[الإنسان : ٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ ؛[الرحمن : ٢٧] .

وما شاكل ذلك من آى القرآن المتضمنة لذكر الوجه .

الجواب ، قلنا : الوجه فى اللغة العربية ينقسم إلى أقسام :

فالوجه المعروف المركب فيه العينان من كل حيوان .

والوجه أيضا أول الشىء وصدره ؛ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ﴾ [آل عمران:٧٢] أى أوّل النهار ؛ ومنه قول الربيع بن زياد :

/ مَنْ كان مسرُوراً بمقتل مالكٍ فليأتِ نِسْوَتَنَا بوجهِ نهارِ(١) [١٩٩ و]

أى غداةَ كلِّ يوم . وقال قوم : وجه نهار : موضع .

والوجه القصد بالفعل؛ من ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾؛ [لقمان : ٢٢] ؛ معناه : من قصد بأمره وفعله إلى الله سبحانه ، وأراده بهما . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ ﴾ ،[النساء : ١٢٥] ؛ وقال الفرزدق :

---

(١) الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٩٩٠ ؛ وفى نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « فليأت ساحتنا » ؛ وهى رواية الحماسة ؛ وهو مالك بن زهير العبسى قتل فى بنى فزارة ؛ فرثاه الربيع بأبيات من هذا البيت .

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي حِينَ شُدَّتْ رَكَائِبِي ... إلى آلِ مَرْوَانٍ بُنَاةِ الْمَكَارِمِ

أى جعلت قصدى وإرادتى لهم ، وأنشد الفراء :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ الْعِبادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ والعَمَلُ

أى القصد ؛ ومنه قولهم فى الصلاة : وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ؛ أى قصدت قصدى بصلاتى وعملى ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ [الروم : ٤٣] .

والوجهُ الاحتيال للأمرين ؛ من قولهم كيف الوجه لهذا الأمر ؟ وما الوجه فيه ؟ أى ما الحيلة ؟

والوجه المذهب والجهة والناحية ، قال حمزة بن بيض الحنفىّ :

أَىَّ الوُجُوهِ انْتَجَعْتَ ؟ قُلْتُ لَهُمْ : ... لأَىِّ وَجْهٍ إِلاَّ إِلى الْحَكَمِ[1]

مَتَى يَقُلْ صاحِبا مُرَادِقِهِ : ... هذا ابنُ بَيْضٍ بالبابِ يَبْتَسِمِ

والوجه : القدر والمنزلة ؛ ومنه قولهم : لفلان وجه عريض ، وفلان أَوْجَهُ من فلان ، أى أعظم قدراً وجاهاً ، ويقال : أَوْجَهَه السلطان إذا جعل له جاهاً ؛ قال امرؤ القيس :

ونادَمْتُ قَيْصَرَ فى مُلْكِهِ ... فأَوْجَهَنِي وَرَكِبْتُ البَرِيدا[2]

والوجه الرئيس المنظور إليه ؛ يقال : فلان وَجْهُ القوم ، وهو وجه عشيرته ؛ ووجه الشىء نفسه وذاته ؛ قال أحمد بن جندل السَّعْدِىّ :

---

(١) الأغانى ١٠ : ١٤ . (٢) اللسان (وجه) ؛ وهو من أبيات أربعة فى الأغانى ٨ : ١٩٦ (طبعة دار الكتب المصرية) ، وفى حاشية ف : « يقال : حمل فلان على البريد إذا هيىء له فى كل مرحلة مركوب ليركبه ؛ فإذا وصل إلى المرحلة الأخرى نزل عن المعيى وركب المرفه ؛ وهكذا إلى أن يصل إلى مقصده » .

ونحنُ حَفَزْنا الحَوْفَزَانَ بطَعْنَةٍ فأفْلَتَ مِنها وجْهه عَتِدٌ نَهْدُ(١)

أراد أفلته ونجّاه ومنه قولهم : إنما أفعل ذلك لوجهك ، ويدل أيضا على أن الوجه يُعبَّر [١٩٩] به/عن الذات قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ؛ [القيامة : ٢٢ — ٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ ؛ [الغاشية : ٨ ، ٩] ، لأن جميع ما أضيف إلى الوجوه فى ظاهر الآى ؛ من النظر ، والظن ، والرضا لا يصحُّ إضافته فى الحقيقة إليها وإنما يضاف إلى الجملة، فمعنى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ؛ أى كل شىء هالك إلا هو ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾؛ لما كان المراد بالوجه نفسه لم يقل «ذى الجلال» كما قال : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ؛ [الرحمن : ٧٨] : لما كان اسمه غيره .

ويمكن فى قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ وجه آخر ؛ وقد روى عن بعض المتقدمين ، وهو أن يكون المراد بالوجه ما يقصد به إلى الله تعالى ويوجَّه ؛ نحو القربة إليه/جلت عظمته ؛ فيقول : لا تُشرك بالله ، ولا تَدعُ إلهًا غيره ؛ فإن كل فعل يُتقرب به إلى غيره ، ويُقصد به سواه فهو هالك باطل ؛ وكيف يسوغ للمشبِّهة أن يحملوا هذه الآية والتى قبلها على الظاهر ! أوَليس ذلك يوجب أنه تعالى يَفْنَى ويبقى وجهه: وهذا كفر وجهل من قائله .

فأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ ، [الإنسان : ٩] ، وقوله : ﴿ إِلَّا

---

(١) حفزنا : طعنا . ويقال فرس عتد، بفتح التاء وكسرها : إذا كان شديدا تام الخلق سريع الوثبة ؛ ليس فيه اضطراب ولا رخاوة والنهد من نعت الخيل : الجسيم المشرف . والحوفزان هو الحارث بن شريك طعنه قيس بن عاصم يوم جدود ؛ والمشهور فى ذلك قول سوار بن حيان المنقرىّ :

ونحنُ حَفَزْنا الحوفزانَ بطعنةٍ سقته نجيعاً من دم الجوف أشكلا
وحمرانَ قسْرًا أنزلتْه رماحُنا فعالج غُلاًّ فى ذراعَيْه مُقْفَلا

وانظر شرح المفضليات ٤٧٠ .

ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ ؛ [الليل : ٢٠] ، وقوله : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ، [الروم : ٣٩] ؛ فمعلومٌ أن هــذه الأفعال مفعولة له ؛ ومقصود بها ثوابه ، والقربة إليه ، والزلفة عنده .

فأما قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ؛ [البقرة : ١١٥]، فيحتمل أن يُراد به : فثَمّ الله ، لا على معنَى الحلول ، ولــكن على معنى التدبير والعلم ، ويحتمل أن يراد به: فثمّ رضا الله وثوابه والقربة إليه .

ويحتمل أن يُراد بالوجه الجهة ، وتكون الإضافة بمعنى الملك والخلق والإنشاء والإحداث ؛ لأنه عزّ وجل قال : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾؛ أى أن الجهاتِ كلَّها لله تعالى وتحت ملكه ؛ وهذا واضح بيّن بحمد الله .

* * *

أخبرنى أبو الحسن علىّ بن محمد الـكاتب قال حدّثنى محمد بن يحيى الصولىّ قال : انحدرنا مع المـكتفى بالله فى آخر سَفْرَة سافرها للصيــد من الموضع المعروف بجُنَّة إلى تَــكْرِيت فى حَرّاقة(١) فــكانت تجنح كثيراً ، فيشتد فزع مَنْ معه من الجلساء / لذلك؛ وكنت أشدّهم [٢٠٠ و] فزعاً ، وكان فى الحَرّاقة سواى من الجلساء يحيى بن علىّ المنجم، ومتوّج بن محمود بن مروان، والقاسم المعروف بابن حَبابة ، وكان يَضحك لفزعنا ويقول : لقد قسم الله لـكم حظّاً من الشجاعة جزيلا ، فقلت له: إن البحترىّ يقول شعرا يصف فيه مثلَ حالنا، ويمدح به أحمد بن دينار بن عبد الله ــ وقد غزا الروم فى مراكب ــ أوله :

أَلَمْ تَرَ تَغْلِيسَ الرَّبِيعِ الْمُبَكِّرِ ... وما حاكَ من وَشْيِ الرِّياضِ الْمُنَشَّرِ(٢)

(١) الحراقة : اسم لسفينة ؛ وأصل الحراقات : سفن كانت بالبصرة، فيها مرامى نيران يرمى بها العدو .

(٢) ديوانه ٢ : ٢٢ ــ ٢٤ .

فقال له : أنشدْنى الموضعَ الذى ذكر هذا فيه منها ــ وكان جيِّد العلم بالأشعار ، حافظاً للأخبار ــ فأنشده :

غَدَوْتَ على المَيْمُونِ صُبْحًا ، وإنما غدا المَرْكَبُ الميْمُونُ تحتَ المُظفَّرِ (١)
إذا زَمجرَ النُّوتِىُّ فوقَ عَلاتِهِ رَأيْتَ خَطيباً فى ذُؤابَةِ مِنبرِ (٢)
يَغُضُّون دُونَ الإشتيامِ عُيونَهُم وفَوْقَ السِّماطِ للعَظِيمِ المُؤَمَّرِ (٣)
إذَا ماعلَتْ فيهِ الجَنُوبُ اعْتَلى لهُ جناحَا عُقَابٍ فى السماءِ مُهجِّرِ (٤)
إذَا ما انْكَفَا فى هَبْوَةِ النَّارِ خِلْتَهُ تَلَفَّعَ فى أثناءِ بُردٍ مُحبَّرِ (٥)
وحَوْلَكَ رَكَّابُونَ لِلهَوْلِ عاقَروا كُؤُوسَ الرَّدَى؛ من دارِعِينَ وحُسَّرِ (٦)
تَمِيلُ المَنَايا حيث مالَتْ أكُفُّهُمْ إذا أصلَتُوا حدَّ الحَديدِ المُذَكَّرِ
إذا أرْشَقُوا بالنَّارِ لم يكُ رِشْقُهُم لِيُقْلِعَ إلاَّ عن شِواءٍ مُقتَّرِ (٧)

(١) قبله :

ولَمَّا تولَّى البحرُ والجودُ صِنْوُهُ غدا البَحْرُ من أغلاقِهِ بَيْنَ أبْحُرِ
أضاف إلى التَّدْبيرِ فَضْلَ شجاعَةٍ ولا عزم إلا للشجاع المدَبِّرِ
إذا شَجَروهُ بالرماحِ تكسَّرتْ عواملُها فى صدر ليثٍ غَضَنْفَرِ

والميمون ، يريد به السفينة ؛ وفى حاشية الأصل : «هوادم حراقة» .

(٢) حاشية الأصل : «العلاة : الموضع الذى يركب فيه الملاح من السفينة» .

(٣) حاشية الأصل : «يقال وقفوا دونه سماطا ؛ أى اصطفوا ؛ وفى شعره : «وفوق السماط» ؛ قال س : «وهو الصواب ؛ وكذا قرأت على مشايخى . والإشتيام : رئيس الركب ؛ كلمة نبطية» .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : «إذا عصفت فيه» ؛ وهى رواية الديوان ومهجر ؛ أى يحلق فى الهاجرة . (٥) فى حاشيتى الأصل ، ف : «انكفا الميمون ؛ أى تمايل ؛ وأراد بهبوة النار ما كانوا يرمون به من النار إلى العدو من الحراقة التى اسمها ميمون ، وشبه سواد الحراقة وحمرة النار وبياض الماء بلون البرد . وانكفا ، أصله الهمز تخفف ؛ يقال : انكفأت المرأة وتكفأت ؛ إذا تمايلت فى سيرها» وفى م ؛ والديوان : «هبوة الماء» تصحيف . (٦) المعاقرة : الملازمة .

(٧) الرشق : الرمى من جهة واحدة . والشواء المقتر : الذى يصعد منه القتار ؛ والقتار عند العرب : ريح الشواء إذا ضهب على الجمر .

صدمتَ بهم صُهْبَ العَثَانِينِ دونَهم ... ضِرابٌ كإيقادِ اللَّظَى المُتَسَعِّرِ
يَسُوقُونَ أسطُولاً كأنَّ سَفِينَهُ ... سحائبُ صَيْفٍ من جَهامٍ وَمُمْطِرِ (١)
كأنَّ ضَجيجَ البَحْرِ بينَ رِماحِهم ... إذا اختلفتْ تَرْجِيعُ عَوْدٍ مُجَرْجِرِ (٢)
تُقَارِبُ من زَحْفَيْهِمُ فكأنَّما ... تُؤَلِّفُ من أعناقِ وَحْشٍ مُنَفَّرِ
فَأرمتَ حتى أجْلَتِ الحَرْبُ عن طُلًى ... مُقَصَّعَةٍ فيهم، وَهَامٍ مُطَيَّرِ (٣)
على حينَ لا نَقْعٌ تُطَوِّحُهُ الصَّبا ... ولا أرْضَ تُلْقِي للصَّرِيعِ المُقَطَّرِ (٤)
وكُنتَ ابنَ كِسْرَى قبلَ ذاكَ وبعدَهُ ... مَلِيًّا بأنْ تُوهِي صَفَاةَ ابنِ قَيْصَرِ
/ جَدَحْتَ له المَوْتَ الذُّعافَ فَعَافَهُ ... وَطَارَ على ألْوَاحِ شَطْبٍ مُسَمَّرِ (٥) [٢٠٠ ب]
مضى وهو مَوْلَى الرِّيحِ يَشْكُرُ فَضْلَها ... عليهِ، وَمَنْ يُولَ الصَّنِيعةَ يَشْكُرِ

قال: فاستجاد المكتفي قوله:

* على حينَ لا نَقْعٌ تطوِّحُه الصَّبا *

فقال له يحيى بن علي: أنشدني ابنُ الرومي شعرًا له في هذا المعنى:

وَلَمْ أتَعَلَّمْ قطُّ من ذِي سِبَاحَةٍ ... سِوَى الغَوْصِ، والمَضْعُوفُ غيرُ مُغَالِبِ (٦)
وَلِمْ لا؟ ولو ألْقِيتُ فيها وَصَخْرَةً ... لَوافَيْتُ منها القَعْرَ أوَّلَ راسِبِ
وَأيْسَرُ إشفاقي من الماءِ أنَّني ... أمُرُّ بهِ في الكُوزِ مَرَّ المُجانِبِ
وأخْشَى الرَّدَى منه على كلِّ شارِبٍ ... فكيفَ بأمْنِيهِ على كلِّ راكِبِ!

---

(١) الأسطول: جماعات السفن. وفي حاشيتي الأصل، ف: «قال ش: ذكر لي أستاذي عند قراءة شعر البحتري عليه بأصبهان أن الأسطول لغة مصرية؛ وهي عندهم عبارة عن جماعة العسكر الذين يتوجهون إلى البحر بحوائجهم؛ فهم بمجموع مراكبهم وحراقاتهم وشباراتهم وتجارهم أسطول؛ ويشتكي أهل مصر فيقولون: ما جاءنا العام أسطول». وفي حاشية الأصل أيضا: «الشبارات: نوع من المراكب البحرية».

(٢) العود: المسن من الإبل. (٣) الطلى: جمع طلية؛ وهي صفحة العنق؛ ومقصعة: مقطعة. ورواية الديوان: «طلى مقطعة». (٤) يقال: طعنه فقطره؛ أي ألقاه على قطره، أي جانبه، فتقطر. (٥) جدحت: خلطت؛ والشطب في الأصل: الفرس الطويل؛ وجعل المركب شطبا على التشبيه لمركبه ونجا. (٦) ديوانه الورقة ٢٣؛ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.

فقلت له : إنما أخذ ابنُ الرومىّ بيتَه الثالث من قول أبى نُواس ؛ فقال المكتفى بالله : فما قال ؟ قلت : حدثنى علىّ بن سراج المصرىّ قال حدثنى أبو وائل اللخمىّ قال حدثنى إبراهيم بن الخصيب قال : وقف أبو نواس بمصر على النيل ؛ فرأى رجلا قد أخذه التمساح فقال :

أضمرتُ للنِّيلِ هِجْرانًا وَمَقْلِيَةً ... مُذْ قيلَ لى : إنَّما التمساحُ فى النِّيلِ
فَمَنْ رأى النِّيلَ رَأْىَ العَيْنِ منْ كَثَبٍ ... فما أرَى النِّيلَ إلاَّ فى البَوَاقِيلِ

قال الصولىّ : والبواقيل سُفُن صغار .

ثم أجرى المكتفى بعد ذلك ذِكرَ الشيب ، فقال : العربُ تقول أظلم من شَيْب ، وقد شِبْت، وظلمنى المشيب؛ وشبتَ ياصولىّ ، فقلت : جواب عبدك فى هذا جوابُ معن بن زائدة الشيبانىّ لجدّك المنصور وقد قال له : كَبِرْتَ يامعن ، فقال : فى طاعتك ياأمير المؤمنين ، قال : وإنَّك لَتتجلَّد ، قال : على أعدائك ، قال : وفيك بحمد الله بقيّة ، قال : لخدْمتك . فنزع المكتفى عمامته ، فإذا شيْبتان فى مقدَّم رأسه ، فقال: لقد غمّنى طلوعُ هاتين الشيبتين ، فقلت له : إنما يعيش الناس فى الشيب ؛ فأما السواد فلا يصحب الناس خالصاً أكثر من أربعين سنة إلى الخمسين /، وقد يعاش فى البياض الذى لا سواد فيه ثمانون سنة . وأنشده يحيى [٢٠١ و] ابن علىّ فى معنى طول العمر مع المشيب قولَ امرىء القيس :

ألا إنَّ بعدَ العُدْمِ للمرءِ قِنْوَةً ... وبعدَ المَشيبِ طُولَ عُمْرٍ وَمَلْبَسَا[(١)]

وأنشدته أنا أيضاً أبياتاً أنشدها إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ لبعض القيسيين :

لم يَنْتَقِصْ مِنى المَشِيبُ قُلامَةً ... الآنَ حِين بدَا أَلَبُّ وَأَكْيَسُ
وَالشَّيْبُ إنْ يَظْهَرْ فإنَّ وَراءَهُ ... عُمْرًا يكونُ خلالَه مُتَنَفَّسُ

قال سيدنا أدام الله تمكينه : أما قول البحترىّ : « مضى وهو مَوْلَى الريح » فقد كرر معناه فى قوله من قصيدة يمدح بها أبا سعيد الثغرىّ :

---

(١) ديوانه : ١٤٢ ؛ والقنوة : المال .

أَشْلَى على مَنْوِيلَ أطرافَ القنا   فَنَجا عَتِيقَ عَتِيقَةٍ جَرْدَاءِ[١]

ولو انّهُ أبطا لهنّ هُنَيْهَةً   لَصَدَرْنَ عنه ، وَهُنّ غيرُ ظِمَاءِ

فَلَئِنْ تَبَقَّاهُ القضاءُ لِوَقْتِهِ   فلقدْ عَمَمْتَ جُنُودَهُ بِفَنَاءِ

وأظنه أخذ هذا المعنى من قول أبي تمام في قصيدة يمدح بها المعتصم ، ويذكر فتح الخُرَّمِيَّة[٢] :

لولاَ الظَّلامُ وقُلَّةٌ عَلِقُوا بها   باتَتْ رِقابُهُمُ بغيرِ قِلالِ[٣]

فَلْيَشْكُروا جُنْحَ الظَّلامِ ودَرْوَزاً   فهُمُ لِدَرْوَزَ والظلامِ مَوَالِي[٤]

وقد أخطأ الصولىّ فى تفسير بيت أبى نواس بأن البواقيل سُفُن صغار ؛ لأن البواقيل جمع بوقال؛ وهو آلة على هيئة الكوز معروفة؛ تُعمل من الزجاج وغيره ؛ وهذا مثل قول ابن الرومىّ :

* أمرُّ بهِ فى الكُوزِ مرَّ المُجانِبِ *

وإنما أراد أننى لا أمرّ بماء النيل إلا إذا أردت شربه فى كوز أو بوقال .

وأظن الصولىّ استمر عليه الوهم من جهة قوله : « فما أرى النيل » وصرف ذلك إلى أنه أراد النيلَ على الحقيقة؛ وإنما أراد ماء النيل؛ وماعلمت أن السفن الصغار يقال لها بواقيل إلا من قول الصولىّ ، هذا ولو كان ما ذكره صحيحاً من أنّ ذلك اسم لصغار السفن لكان بيت أبى نواس بما ذكرناه أشبه / وأليق وأدخلَ فىمعنى الشعر ؛ وكيف تدخل الشُّبْهة فى [٢٠١ ظ] ذلك مع قوله :

(١) ديوانه ١ : ٥؛ أشلى : أغرى. ومنويل : اسم قائد والعتيقة هنا : الفرس.

(٢) الخرمية: فرق تنسب إلى بابك الخرمى ؛ خرج من كورة بفارس تدعى البذ، وأثار فتنة على الخليفة سنة ٢١٠ ؛ وامتدت زمن المأمون والمعتصم ؛ إلى أن قتل بعد حوادث دامية فى أزمان متطاولة ؛ على يد الأفشين قائد المعتصم سنة ٢٢٣ . (٣) ديوانه : ٢٦٢ . (٤) دروز : موضع فى ثغر أذربيجان ؛ كذا ذكره ياقوت وأورد بيتى أبى تمام .

* فمَنْ رأى النيل رأى العين من كَثَب *

ومن رأى النيل في السفن فقد رآه من كَثَب، ومن رأى ماءه في الآنية على بُعد لا يكون رائياً له من كَثَب .

* * *

فأما مدح الشيب وتفضيله على الشباب فقد قال فيه الناس فأكثروا؛ فما تقدم من ذلك قول رُؤْبة بن العجّاج ؛ ويقال إن رؤبة لم يقل من القصيدة إلا هذين البيتين :

أيُّها الشَّامِتُ المُعيِّرُ بالشَّيْـ ... ـبِ أقِلَّنَّ بالشَّبابِ افتِخارا
قد لَبِسْتُ الشَّباب غَضًّا جَدِيداً ... فوجدْتُ الشَّبابَ ثَوْباً مُعارا

ولعليّ بن جَبَلة :

جفا طَرَبَ الفتيانِ وهوَ طَرُوبُ ... وأعقَبَهُ قُرْبَ الشَّبابِ مَشيبُ
تجافَتْ عُيُونُ البِيضِ عنه، ورُبَّما ... مدَدْنَ إليهِ الوَصْلَ وَهوَ حَبِيبُ
لعَمْرِي لَنِعْمَ الصَّاحِبُ الشَّيْبُ واعِظاً ... وإن كانَ منه للعيونِ نُكُوبُ
خَلِيطُ نُهىً، مُنْتابُ حِلْمٍ ؛ وَإِنَّه ... على ذاكَ مَكْرُوهُ الخِلاطِ مُرِيبُ

ولآخر :

وتَنَكَّرَتْ شَيْبِي فقلتُ لَها : ... لَيْسَ المَشِيبُ بناقِصٍ عُمرِي
سِيَّانِ شَيْبِي والشَّبابُ إذا ... ما كُنتُ من عُمْرِي على قَدْرِ

ولآخر :

إنْ أكُنْ قَدْ رُزِئتُ أسْوَدَ كالفَحْـ ... ـمِ وأُعْقِبْتُ مِثْلَ لونِ الثَّغامه[(١)]
فلقَدْ أُسْعِفُ الكَرِيمَ وأحْبو ... أهلَهُ بالنَّدَى وآبَى الظُّلامَهْ

(١) الثغامة : نبت أبيض يشبه به الشيب .

غيرَ أنَّ الشَّبابَ كانَ رِداءً خانَنا فيُوهِ كَفِيءِ الغَمامهْ

ولآخر :

إنَّ المَشِيبَ رِدَاءُ الحِلْمِ والأَدَبِ كالشَّبابُ رِدَاءُ اللَّهو واللَّعِبِ
تَعَجَّبَتْ إذْ رَأَتْ شَيْبِي فقلتُ لَها: لاتَعْجَبِي، من يَطُلْ عُمرُهُ به يَشِبِ[1]

ولابن الجهم :

حَسَرَتْ عنِّيَ القِنَاعَ ظَلُومُ وتَوَلَّتْ ودَمْعُها مَسجومُ[2]
[٢٠٢ و] / أنـكَرَتْ مارَأَتْ برأسِي فقالتْ : أَمَشِيبٌ أم لُؤْلُؤٌ مَنظُومُ !
قلتُ : شَيْبٌ وليسَ عَيباً ، فأَنَّتْ أَنَّـةً يَستَثِيرُها المَهْمُومُ
شدَّ ما أنـكَرَتْ تَصَرُّمَ عَهدٍ لم يدُمْ لِي ، وأيُّ شيءٍ يَدُومُ !

ولأبي هِفَّان :

تَعَجَّبَت دُرٌّ من شَيْبِي فقلتُ لها : لاتَعْجَبِي فطُلُوعُ الشَّيبِ في السُّدَفِ[3]
وَزَادَها عَجَباً لـمّا رأتْ سَمَلِي وما دَرَتْ دُرٌّ أنَّ الدُّرَّ في الصَّدَفِ[4]

وقد أحسن أبو تمام غاية الإحسان في قوله:

أَبدَتْ أَسًى أنْ رَأَتْني[5] مُخلِسَ القَصَبِ[6] وآلَ ما كانَ من عُجْبٍ إلى عَجَبِ[7]

---

(١) د ، ف ، حاشية الأصل من نسخة : « تعجبت أن رأت شيبي » . (٢) ديوانه : ١٧٦–١٧٧ ؛ وظلوم : اسم امرأة . (٣) حماسة ابن الشجرى : ٢٤٥ ؛ والسدف : الظلمات .

(٤) السمل ، محركة : الثوب الخلق البالى ، ومن نسخة بحاشية الأصل : « أن رحت فى سمل » ؛ وهى رواية الحماسة . (٥) ديوانه : ١٠ ، والشهاب ١٠ ، وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « إذ رأتنى » ، وهى رواية الشهاب والديوان . (٦) يقال : أخلس النبت ؛ إذا جف أعلاه وابيض ، وفى حاشية الأصل : « القصب: الذوائب المقصبة ؛ الواحدة قصبة وتجمع قصائب ، يقال : قصب ، فيسكن » . وبخط الشجرى : « القصب » ، بضم ففتح . (٧) حاشية الأصل : « أى كانت تعجب بى فصارت تعجب من شيبى » . وفى الشهاب : « وأما قوله : « من عجب إلى عجب » فمن البلاغة الحسنة والاختصار السديد البارع » .

سِتٌّ وعِشْرُونَ تَدْعُونِى فأتْبَعُها ... إلى المَشِيبِ ولم تَظْلِم ولم تَحُبِ [1]
فلا يُؤرِّقكَ إيماضُ القَتِيرِ بهِ ... فإنَّ ذاكَ ابْتِسامُ الرَّأىِ والأَدَبِ [2]

وللبحترىّ :

عيَّرَتنى بالشيب وهْىَ رَمَتْهُ ... فى عِذارِى بالصَّدِّ والإجتنابِ [3]
لا تَرَيْهِ عاراً فما هوَ بالشَّيـ ... ـبِ ولـكنَّهُ جلاءُ الشَّبابِ [4]
وبياضُ البازِىِّ أصْدَقُ حُسْناً ... إن تأمَّلْتِ من سَوادِ الغُرابِ

وله:

ها هُوَ الشَّيبُ لائِماً فأفِيقِى ... واتْرُكِيهِ إن كانَ غيرَ مُفِيقِ [5]
فلقد كَفَّ من عناءِ المُعَنَّى [6] ... وتلافَى من اشْتِياقِ المَشُوقِ

---

(١) لم تحب : لم تأثم ؛ والحوب : الإثم ، وبعده فى الديوان :

يومِى من الدهرِ مثلُ الدَّهرِ مشتهرٌ ... عزماً وحزماً وساعِى منه كالحُقُبِ
فأصغرِى أنَّ شيباً لاحَ بى حدثاً ... وأكبرِى أننى فى المهدِ لم أشِبِ

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « فلا يغرنك » . والقتير : الشيب ، أو أوله . وفى الشهاب للمرتضى : « وقوله :

* فإنَّ ذاكَ ابْتِسامُ الرأىِ والأدَبِ *

يريد أن الرأى والأدب والحلم إنما يجتمع ويتكامل فى أوان الكبر والشيب دون زمان الشباب ، وقد تصف الشعراء أبدا الشيب بأنه تبسم فى الشعر لبياضه ؛ إلا أن هذه من أبى تمام تسلية عن الشيب وتنبيه على منفعته » .

(٣) ديوانه ١ : ٧ ، والشهاب : ٢٥ . وفى حاشية الأصل :

* عيَّرَتْنِى المشيبَ وهى بدتْه *

وهى رواية الديوان ؛ وبدته ، مخفف من بدأته بالهمز . وفى حاشية الأصل أيضا (من نسخة) : « جنته » . (٤) لاتريه : لاتظنه . وفى حاشية الأصل : « جعل سواد الشباب وسخا وصدأ على الشخص والشيب جلاء له » .

(٥) ديوانه ٢ : ١٢٥ ، والشهاب : ٢٥ ، وحماسة ابن الشجرى : ٢٤٣ — ٢٤٤ ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « يقول : أيتها العاذلة ، أفيقى من عذله وملامته ، فقد أقبل الشيب يلومه ويعذله ، ولا حاجة إلى عذلك وإن لم يفق فاتركيه » . (٦) د ، والحماسة والشهاب . « من عناء المنى » .

سِتٌّ وعِشْرُونَ تَدْعُونى فأتْبَعُها ... إلى المَشِيبِ ولم تَظْلِمِ ولم تَحُبِ(١)
فلا يُؤَرِّقْكِ إيماضُ القَتِيرِ بهِ ... فإنَّ ذاكَ ابتِسامُ الرَّأىِ والأَدَبِ(٢)

وللبحترىّ :

عيَّرَتنى بالشيب وهىَ رَمَتْهُ ... فى عِذَارِى بالصَّدِّ والاِجتنابِ(٣)
لا تَرَيْهِ عاراً فما هوَ بالشَّيـ ... ـبِ ولكنَّهُ جلاءُ الشَّبابِ(٤)
وبياضُ البازِىِّ أصدَقُ حُسْناً ... إن تأمَّلتِ من سَوادِ الغُرابِ

وله:

ها هُوَ الشَّيبُ لائِماً فأفِيقى ... واترُكيهِ إن كانَ غيرَ مُفِيقِ(٥)
فلقد كَفَّ من عناءِ المُعَنَّى(٦) ... وتلافَى من اشتياقِ المَشُوقِ

---

(١) لم تحب : لم تأثم ؛ والحوب : الإثم ، وبعده فى الديوان :

يومِى من الدهرِ مثلُ الدَّهْرِ مشتهرٌ ... عزماً وحزماً وساعِى منه كالحُقُبِ
فأصغرِى أنَّ شيباً لاحَ بى حدثاً ... وأكبرِى أننى فى المهد لم أشِبِ

(٢) حاشية الأصل (من نسخة) : « فلا يغرنك » . والقتير : الشيب ، أو أوله . وفى الشهاب للمرتضى : « وقوله :

* فإن ذاكَ ابتسام الرأى والأدَب *

يريد أن الرأى والأدب والحلم إنما يجتمع ويتكامل فى أوان الكبر والشيب دون زمان الشباب ، وقد تصف الشعراء أبدا الشيب بأنه تبسم فى الشعر لبياضه ؛ إلا أن هذه من أبى تمام تسلية عن الشيب وتنبيه على منفعته » .

(٣) ديوانه ١ : ٧ ، والشهاب : ٢٥ . وفى حاشية الأصل :

* عيَّرَتنِى المَشيبَ وهى بدتْه *

وهى رواية الديوان ؛ وبدته ، مخفف من بدأته بالهمز . وفى حاشية الأصل أيضا (من نسخة) : « جنته » . (٤) لاتريه : لاتظنه . وفى حاشية الأصل : « جعل سواد الشباب وسخا وصدأ على الشخص والشيب جلاء له » .

(٥) ديوانه ٢ : ١٢٥ ، والشهاب : ٢٥ ، وحماسة ابن الشجرى : ٢٤٣ ــ ٢٤٤ ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « يقول : أيتها العاذلة ، أفيقى من عذله وملامته ، فقد أقبل الشيب يلومه ويعذله ، ولا حاجة إلى عذلك وإن لم يفق فاتركيه » . (٦) د ، والحماسة والشهاب . « من عناء المنى » .

عَذَلتْنَا فى عِشقِها أمُّ عَمْرٍو ... هَلْ سَمِعْتُمْ بالعاذِلِ المَعْشُوقِ (١)

وَرأتْ لِمَّةً أَلَمَّ بها الشَّيـ ... ـبُ فَرِيعَتْ من ظلمةٍ فى شُرُوقِ

وَلعَمْرِى لولا الأقاحِى لأبصَرْ ... تِ أنيقَ الرِّياضِ غيرَ أنيقِ

وَسوادُ العُيُونِ لو لم يكمَّلْ ... ببَياضٍ ما كانَ بالمَوْمُوقِ (٢)

/وَمِزاجُ الصَّهباءِ بالماءِ أملَى (٣) ... بصَبُوحٍ مُستَحْسَنٍ وغَبُوقِ [٢٠٢ ط]

أىُّ ليلٍ يَبْهَى بغيرِ نجُومٍ ... أو سماءٍ تندَى بغيرِ برُوقِ!

ويشبه أن يكون أخذ قوله :

* أىُّ ليلٍ يَبْهَى بغير نجوم *

من قول الشاعر :

أشَيْبٌ ولم أَقْضِ الشَّبابَ حُقوقَهُ ... ولم يَمْضِ من عهد الشَّبابِ قَدِيمُ (٤)

رأتْ وَضَحًا فى مَفْرِقِ الرَّأْسِ راعَها ... وشتَّانَ مُبْيَضٌّ به وبَهِيمُ

تَفارِيقُ شَيْبٍ فى الشَّبابِ لوامِعٌ ... وما حُسْنُ ليلٍ ليس فيهِ نُجُومُ!

ولمحمود الوراق فى مثل هذا المعنى وهو قوله :

ما الدُّرُّ منظومًا بأحْسنَ من ... شَيْبٍ يُجَلِّلُ هامةَ الكَهْلِ

وكأنَّهُ فيها النُّجُوم إذَا ... جَدَّ المَسِيرُ بها على مَهْلِ

لا تَبْكِيَنَّ على الشَّبابِ إذا ... يَبْكِى الجَهُولُ عليه لِلْجَهْلِ

واشْكُرْ لشَيْبِكَ حُسنَ صُحْبَتِهِ ... فلقَدْ كَساكَ جَلالَةَ الفَضْلِ

---

(١) حاشية الأصل : « إنما عذلته لأنه شاخ والعشق مع الشيخوخة لا يستحسن » .

(٢) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « بالمرموق » ؟ (٣) فى حاشيتى الأصل : « أملى ، مخفف من أملأ ؛ أى أوثق ؛ يقال : ماؤ فلان بذلك ؛ إذا كان ثقة به ، وفلان أملأ بكذا من فلان » .

(٤) البيت الأول والثالث فى حماسة ابن الشجرى : ٢٤٤ ، من غير نسبة .

ولآخر فى مدح الشيب :

لا يَرُعْكِ المشيبُ يا ابنةَ عبدِ الـ … ـلّهِ فالشَّيْبُ حِليةٌ وَوَقارُ(١)
إنما تَحْسُنُ الرِّياضُ إذا ما … ضَحِكَتْ فى خِلالِها الأنْوارُ

ولى فى هذا المعنى من قصيدة :

جَزِعَتْ لِوَخَطاتِ المَشِيبِ وإنما … بَلَغَ الشَّبابُ مدى الكمالِ فنوَّرا
والشَّيْبُ إن فكَّرْتِ فيهِ مَوْرِدٌ … لابدَّ يُورِدُه الفتَى إن عُمِّرا
يَبْيَضُّ بعد سوادِهِ الشَّعَرُ الذى … إنْ لم يَزُرْهُ الشَّيْبُ وارَاهُ الثَّرَى

وممن عدل بين الشيب والشباب ، ومدح كل واحد منهما طريح بن إسماعيل الثقفى فقال :

والشَّيْبُ للحُكَماءِ من سَفَهِ الصِّبا … بدلٌ يكون لذى الفضيلةِ مَقْنَعُ
[٢٠٣ و] /وَالشَّيْبُ غايةُ من تأخَّر حَيْنُهُ … لا يَسْتَطِيعُ دِفاعَهُ من يجزَعُ
إنَّ الشَّبابَ له لَذَاذَةُ جِدَّةٍ … والشَّيْبُ منه فى المَغَبَّةِ أنفعُ
لا يبعدِ اللهُ الشَّبابَ فمرحبا … بالشَّيْبِ حين أوَى إليهِ الرجع

ومثله لآخر :

وكان الشبابُ النَّضْرُ لِى فيهِ لَذَّةٌ … فوقَّرنى عنه المَشِيبُ وأدَّبا
فَسَقْياً وَرعْياً للشبابِ الذى مَضَى … وَأهلاً وَسَهْلاً بالمَشِيبِ وَمَرْحَبا

---

(١) حماسة ابن الشجرى : ونسبهما إلى على بن الجهم .

مجلس آخر [٦]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ؛ [البقرة : ١٨٦]

فقال : كيف ضَمِنَ الإجابةَ وتكفّلَ بها ، وقد نرى مَنْ يدعو فلا يجاب ؟ .

الجواب، قلنا فى ذلك وجوهٌ .

أوّلها أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي ﴾ أى أسمع دعوته ؛ ولهذا يقال للرجل : دعوتُ مَنْ لايجيب أى دعوتُ من لايسمع . وقد يكون أيضاً يسمع بمعنى يجيب ؛ كما كان يجيب بمعنى يسمع ؛ يقال : سمع الله لِمَنْ حمده ؛ يراد به : أجاب الله مَنْ حمده وأنشد ابنُ الأعرابىّ :

دَعَوْتُ اللهَ حتى خِفْتُ ألاّ ... يكونَ اللهُ يَسْمَعُ ما أقولُ

أراد يجيب ما أقول .

وثانيها أنّه تعالى لم يُرِدْ بقوله : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ من قُرْب المسافة ؛ بل أراد أننى قريب بإجابتى ومعونتى ونعمتى، أو بعلمى بما يأتى العبد ويذَر ، وما يُسرّ ويَجهَر ، تشبيهاً بقرب المسافة ؛ لأن مَنْ قرب من غيره عرف أحواله ولم تخف عليه ؛ ويكون قوله : ﴿ أُجِيبُ ﴾ على هذا تأكيداً للقرب ؛ فكأنه أراد : إننى قريب قرباً شديدا ، وإننى بحيث لايخفى علىّ أحوال العباد ؛ كما يقول القائل إذا وصفَ نفسه بالقرب من صاحبه والعلم بحاله : أنا بحيث أسمع كلامَك ، وأجيب نداءك، وما جرى هذا المجرى . وقد روِى أن قوماً سألوا الرسول صلى الله عليه وآله فقالوا / له : أربُّنا قريب فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية . [٢٠٣ ظ]

وثالثها أن يكون معنى هذه الآية أنى أجيب دعوة الداعى إذا دعانى على الوجه الصحيح، وبالشرط الذى يجب أن يقارِن الدعاء ؛ وهو أنْ يدعو باشتراط المصلحة ؛ ولا يطلب وقوعَ مايدعو به على كل حالٍ ؛ ومَنْ دعا بهذا الشرط فهو مجاب على كل حال ؛ لأنه إن كان صلاحاً فَعل مادعا به ؛ وإن لم يكن صلاحاً لم يفعل لفقد شرط دعائه ، فهو أيضاً مجاب إلى دعائه .

ورابعها أن يكون معنى ﴿ دَعَانِ ﴾ أى عبدنى ، وتكون الإجابة هى الثواب والجزاء على ذلك ؛ فكأنه قال : إننى أُثيبُ العباد على دعائهم لى ؛ وهذا مما لا اختصاص فيه .

وخامسها ماقاله قومٌ من أنّ معنى الآية أنّ العبد إذا سأل الله تعالى شيئا فى إعطائه صلاحٌ فَعله به وأجابه إليه ، وإن لم يكن فى إعطائه إياه فى الدنيا صلاحٌ وخِيرة لم يُعطه ذلك فى الدنيا ، وأعطاه إياه فى الآخرة ، فهو مجيب لدعائه على كل حال .

وسادسها أنّه إذا دعاه العبد لم يَخْلُ من أحد أمرين : إمّا أن يُجاب دعاؤه ، وإمّا أن يختارَ له بصرفه عما سأل ودعا ، فحسْنُ اختيار الله له يقوم مقام الإجابة ، فكأنه يجاب على كل حالٍ .

وهذا الجواب يضعّف لأنّ العبد ربما سأل مافيه صلاحٌ ومنفعة له فى الدنيا ، وإن كان فيه فساد فى الدين لغيره فلا يعطَى ذلك ، لأمر يرجع إليه ، لكن لِمَا فيه[1] من فساد غيره ، فكيف يكون مجاباً مع المنع الذى[1] لايرجع إليه منه شىء من الصلاح ! اللهم إلاّ أن يقال : إنه دعاء مشروط بأن يكون صلاحاً ، ولا يكون فسادا ، وهذا مما تقدم .

ومعنى قوله تعالى ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ ، أى فليجيبونى وليصدّقوا رسلى ، قال الشاعر :

وَدَاعٍ دَعَا يامنْ يُجيبُ إلى النَّدَى   فلمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجيبُ[2]

(١—١) ساقط من الأصل، وتكملته من د ، ف . (٢) مطلع قصيدة كعب بن سعد الغنوى ؛ وهى فى أمالى القالى ٢ : ١٤٨ — ١٥١ .

أى لم يجبه .

* * *

قال سيدنا أدام الله علوّه : وإذْ كنا قد ذكرنا فى المجالس المتقدمة لهذا المجلس طرَفا من الشعر فى تفضيل الشيب وتقديمه ، والتعزّى عنه ، والتسلِّى عن نزوله ؛ فنحن متبعوه بطرف مما قيل فى ذمّه والتألّم به والجزع منه .

فمن ذلك قول أبى حيّة النميرىّ :

[٢٠٤ و] / تَرَحَّلَ بالشَّبابِ الشَّيْبُ عنّا ... فليتَ الشَّيْبَ كانَ به الرَّحيلُ(١)

وقد كان الشبابُ لنا خَليلاً ... فقد قَضَّى مآرِبَهُ الخَليلُ

لعمْرُ أبى الشبابُ لقد تولّى ... حَميداً ما يُرادُ به بَديلُ(٢)

إذِ الأيامُ مُقْبِلَةٌ علينا ... وَظِلُّ أراكَةِ الدُّنيا ظَليلُ

وقال الفرزدق :

أرَى الدَّهرَ ، أيامُ المشيبِ أمرُّهُ ... علينا ، وأيام الشبابِ أطايبه(٣)

وفى الشيبِ لذّاتٌ وقُرَّةُ أعيُنٍ ... ومن قَبلِهِ عَيْشٌ تَمَلَّلَ جادِبُهْ(٤)

إذا نازَلَ الشَّيْبُ الشبابَ فأصْلَتا ... بسَيْفَيهما ، فالشَّيْبُ لابدَّ غالبُهْ

فيا خَيْرَ مهزُومٍ ، وياشرَّ هازمٍ ... إذَا الشَّيبُ وافَتْ للشّبابِ كتائبُهْ

وَليسَ شبابٌ بعدَ شَيْبٍ براجعٍ ... مدَى الدّهرِ حتى يَرْجِعَ الدَّرَّ حالبُهْ

وما المَرْءُ مَنفوعاً بتَجْريبِ وَاعِظٍ ... إذا لم تَعِظْهُ نَفْسُهُ وتجارِبُهْ

وأنشد إسحاق الموصلىّ :

---

(١) حماسة ابن الشجرى : ٢٣٩ ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات .

(٢) الحماسة : « لايرادبه بديل » . (٣) ديوانه : ١ : ٥٢ .

(٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : جادبه : عائبه ، أى لم يجد عيبا فتملل وجها يتمحل به باطلا ومنه قول ذى الرمة :

فيالك من خد أسيلٍ ، ومَنْطِقٍ ... رخيم ، ومن خَلْقٍ تعلل جادبه

لعَمْرِى لئنْ حُلِّئْتُ عن مَنهلِ الصِّبا ... لقد كنت ورّاداً لِمَشْرَبِهِ العذبِ(١)
ليالِىَ أمْشِى بين بُرْدَىَّ لاهياً ... أَمِيسُ كغُصْنِ البانةِ النّاعمِ الرَّطْبِ
سلامٌ على سَيْرِ القِلاصِ مع الرَّكْبِ ... ووَصْلِ الغَوانى والمُدامَةِ والشَّرْبِ
سلامَ امرِئٍ لم تَبْقَ منه بقيّةٌ ... سِوَى منظرِ العينَيْنِ أو شَهْوَةِ القَلْبِ(٢)

ولمنصور النَّمَرِىّ :

ما تَنْقَضِى حسْرَةٌ منى ولا جَزَعُ ... إذا ذكرتُ شباباً ليسَ يُرْتَجَعُ(٣)
بانَ الشبابُ ففاتنى بشِرَّتِهِ ... صروفُ دَهرٍ وأيامٍ لها خُدَعُ
ما كنتُ أُوفِى شبابى كُنْهَ عِزَّتِهِ ... حتّى مضَى فإذا الدُّنيا له تبعُ(٤)

ولمحمد بن أبى حازم :

عَهدَ الشبابِ ، لقد أبقَيْتَ لى حَزَناً ... ماجدَّ ذِكْرُكَ إلاّ جدَّ لى ثُكُلُ(٥)
سَقْيا ورعْياً لأيّامِ الشّبابِ وإنْ ... لم يَبْقَ منكَ له رَسْمٌ ولا طَلَلُ
جرّ الزّمانُ ذُيُولاً فى مَفارِقِهِ ... وللزّمانِ على إحْسانِه عِلَلُ(٦)
وَرُبَّما جرّ أذْيالَ الصِّبا مَرَحاً ... وبين بُرْدَيْهِ غُصْنٌ ناعِمٌ خَضِلُ
لا تَكْذِبَنّ فما الدُّنيا بأجْمعها ... من الشبابِ بيَوْمٍ واحدٍ بدَلُ
كَفاكَ بالشَّيبِ عيباً عند غانِيَةٍ ... وبالشّبابِ شَفِيعاً أيها الرَّجُلُ

---

(١) حلئت : طردت ومنعت . (٢) د ؛ ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « نظر العينين » .
(٣) حماسة ابن الشجرى : ٢٣٩ (٤) حاشية الأصل (من نسخة) :

ما كِدْتُ أُوفى شبابى كُنْهَ شِرَّتِهِ ... حتى مَضَى فإذا الدُّنْيَا لها تَبَعُ

(٥) من أبيات فى الأغانى ١٢ : ١٥٢ — ١٥٣ مجموعها ثلاثة عشرة بيتا ؛ وأبيات منها فى الورقة : ١١٠ ، وحماسة ابن الشجرى : ٢٣٩ . (٦) فى حاشيتى الأصل ، ف : « أى للزمان علل على تركه الإحسان ؛ ويجوز أن يكون المعنى : له مع إحسانه علل » .

ولأبى نواس :

كانَ الشبابُ مَطِيَّةَ الجَهْـلِ ... ومُحَسِّنَ الضَّحَـكاتِ والهَزْلِ[١]
كانَ الجميلَ إذا ارتديتُ بِهِ[٢] ... ومشيتُ أخْطِرُ صَيِّتَ النَّعْـلِ
كانَ البَلِيغَ إذا نطقتُ بِهِ ... وأصاخَتِ الآذانُ للمُملى
كانَ المُشَفَّعَ فى مآرِبِهِ ... عندَ الحِسانِ ومُدْرِكَ التَّبْـلِ
والباعِثِى والناسُ قد هَجَعُوا ... حتَّى أبيت خليفَةَ البَعْلِ
والآمِرِى حتَّى إذا عزَمَتْ ... نفسى أعانَ علىَّ بالفعلِ
فالآن صرتُ إلى مقارَبَةٍ ... وحَطَطْتُ عن ظهرِ الصِّبا رحلى

قال سيدنا رضى الله عنه : وعلى هذا الـكلام طلاوة ومَسْحَة من أعرابية ليستا لغيره .

ولبشار :

الشَّيبُ كُرْهٌ، وكُرْهٌ أن يفارِقَنِى ... أعجِبْ بشَىْءٍ على البَغْضاء مَوْدُودِ[٣]
يَمْضِى الشَّبابُ ويأتِى بعدَهُ خَلَفٌ ... والشَّيْبُ يذهَبُ مفقُوداً بمفقُودِ

وهذا البيت الأخير يُرْوَى لمسلم بن الوليد الأنصارى .

ومما أحسن فيه مسلم فى هذا المعنى قوله :

طَرَفَتْ عُيُونَ الغانِياتِ وربمـا ... أمَانَ إلىَّ الطَّرْفَ كلٌّ مَمِيلِ[٤]
/وماالشَّيْبُ إلا شَعْرَةٌ، غيرأنَّه[٥] ... قليلُ قذاةِ العَيْنِ غيرُ قليلِ [٢٠٥ و]

---

(١) ديوانه : ٣١١ .   (٢) ديوانه : « كان الجمال » .

(٣) البيتان فى حماسة ابن الشجرى : ٢٤٥ ، ونسبهما إلى مسلم .

(٤) البيتان فى حماسة ابن الشجرى : ٢٤٢ ، ونسبهما لابن الرومى ؛ وفى حاشيتى الأصـل ، ف : «يقال : فلان مطروف العين بفلان ؛ أى بحبه . والمعنى أنه وقع فى عينه ، يقال : طرفت عينه بشوكة وبحاشية ثوب ؛ وأصله من طرفته إذا أصبت طرفه ، ورأسته إذا أصبت رأسه » .   (٥) الحماسة :

* وما شبتُ إلاَّ شيبةً غير أنَّه *

وله :

أهْلاً بوافِدَةٍ للشَّيْبِ واحِدَةٍ ... وإن تَرَاءتْ بشَخْصٍ غيرِ موْدُودِ

لا أجْمَعُ الحِلْمَ والصَّهْبَاءَ قد سَكَنَتْ ... نَفْسِى إلى الماءِ عن ماءِ العناقِيدِ

لم يَنْهَنِى كِبَرٌ عنها ولا فَنَدٌ ... لـكن صَحَوتُ وغُصْنى غيرِ مَخْضُودِ .

أوْفَى بِىَ الحِلْمُ واقتادَ النُّهَى طلقًا ... شأوِى وعِفْتُ الصِّبا من غيرِ تَفْنِيدِ(١)

وقد أحسن دعبل فى قوله يصف الشباب والشيب :

كانَ كُحْلاً لمآقيها فقدْ ... صارَ بالشَّيْبِ لعَيْنَيْهَا قَذَى

ولغيره :

رَأَتْ طَالِعاً للشيبِ أغفَلَتْ أمْرَهُ ... فلم تتعاهَدْهُ أكُفُّ الخوَاضِبِ(٢)

فقالتْ: أشَيْبٌ ماأرى؟ قلتُ : شامَةٌ ... فقالتْ: لقدْ شانَتْكَ بينَ الحبَائِبِ(٣)

ولمحمودالورَّاق - ويروى لمحمد بن حازم(٤):

أليسَ عَجِيباً بأنَّ الفَتى ... يُصابُ بِبعضِ الذى فى يدَيْهِ

فمِن بين باكٍ له مُوجَعٍ ... وبَينَ مُعَزٍّ مُغِذٍّ إليْهِ

ويَسْلُبُهُ الشيْبُ شَرْخَ الشبابِ ... فليْسَ يُعزِّيه خَلْقٌ عليْهِ(٥)

ولأبى دُلَف :

فى كلِّ يومٍ أرَى بَيضاءَ طالِعَةً ... كأنَّما طَلَعَتْ فى أسوَدِ البصرِ

لئِنْ قَصَصْتُكِ بالمِقْرَاضِ عن بَصَرى ... لمَا قَصَصْتُكِ عن هَمِّى وعن فِـكَرِى

(١) حاشية الأصل : « يقال عدا طلقا وشأوا إذا عدا عدوا شديدا إلى غاية » .

(٢) حاشيةالأصل (من نسخة): « تتعهده » . (٣)حاشية الأصل (من نسخة) « شامتك » .

(٤) فى الأصل : «محمد بن أبى حازم» ، وصوابه من ف . (٥) حاشية الأصل: «يقول : عجبت من الناس يعزى بعضهم بعضا على فوت المال ، ولا يعزون على فوت الشباب » .

وليحيى بن خالد بن برمك(١) ـ ويروى لغيره :

اللَّيْـلُ شَيْبٌ والنهارُ كلاهما رَأْسِي بكَثْرَةِ ما تدور رَحاهُما
يَتَناهَبانِ نُفُوسَنا ودِماءنا ولُحُومَنا عَمْداً ونَحْنُ نَرَاهُما
والشَّيبُ إحدى المِيتَتَيْنِ تقدَّمَتْ أُولاهُما وتأخَّرَتْ أُخْراهُما

/ وقد أتى الفحلان المبرّزان أبو تمام وأبو عبادة فى هذا المعنى بكل غريب عجيب . [٢٠٥ ظ]

فمن ذلك قول أبى تمام :

غدا الهمُّ مُخْتَطّاً بفَوْدَىَّ خِطَّةً طَرِيقُ الرَّدَى مِنها إلى المَوْتِ مَهْيَعُ(٢)
هُوَ الزَّوْرُ يُجفَى ، والمُعاشِرُ يُجتوَى وَذُو الإلْفِ يُقْلَى ، والجَدِيدُ يُرَقَّعُ
لهُ مَنْظَرٌ فى العَيْنِ أبيضُ ناصِعٌ ولـكِنَّهُ فى القَلْبِ أَسْوَدُ أسْفَعُ
ونَحْنُ نُرَجِّيهِ على الـكُرْهِ والرِّضا وأَنْفُ الفَتى مِنْ وَجْهِهِ وهوَ أجْدَعُ(٣)

وله :

شُعْلَةٌ فى المَفَارِقِ اسْتَوْدَعَتْنِي فِى صمِيمِ الفُؤادِ ثُكْلاً صَمِيماً(٤)
تَسْتَثِيرُ الهُمُومُ ما اكْتَنَّ مِنْها صُعُداً وهْىَ تَسْتَثِيرُ الهُمُوما
غُرَّةٌ(٥) مُرَّةٌ الاَ إنما كُنْـ ـتُ أغَرّاً أيّامَ كنتُ بَهِيما

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « البرمكى » . (٢) ديوانه : ١٩٠ ، والشهاب : ٦ ؛ وحماسة ابن الشجرى : ٢٤١ ـ ٢٤٢ . وفى م قبل هذا البيت :

لَئِنْ جَزِعَ الوحشىّ منها لرُؤيتى لإنسيّها من شَيْبِ رأسِيَ أجْزَعُ

وفى حماسة ابن الشجرى : « غدا الشيب » ، وفى م : « غدا الصبر » . وفى حاشية الأصل (من نسخة) : « إلى النفس مهيع » ، وهى رواية الديوان ؛ ومهيع : واسع .

(٣) حاشية الأصل (من نسخة) : « يجدع » .

(٤) ديوانه : ٢٩١ ، وحماسة ابن الشجرى : ٢٤١ ، والشهاب : ٧ .

(٥) حاشية الأصل (من نسخة) : « عرة » أى عيب .

دِقَّةٌ فى الحَيَاةِ تُدْعَى جَلالاً   مِثْلَ ما سُمِّىَ اللَّدِيغُ سَلِيمَا[١]
حَلَّمَتْنِى ـ زَعَمْتُمْ ـ وأرانِى   قَبْلَ هذا التَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيمَا

وله :

لَعِبَ الشَّيْبُ بِالمَفَارِقِ بَلْ جَـ   ـدَّ فَأَبْكَى تُمَاضِراً ولَعُوبَا[٢]
خَضَبَتْ خَدَّهَا إلى لُؤْلُؤِ العِقْـ   ـدِ دَمًا أنْ رأتْ شَوَاتِى خَضِيبَا
كُلُّ داءٍ يُرْجَى الدَّوَاءُ له   إلا الفَظِيعَيْنِ : مِيتَةً ومَشِيبَا
يا نَسِيبَ الثَّغَامِ ذَنْبُكَ أبْقَى   حَسَنَاتِى عندَ الحِسَانِ ذُنُوبَا
ولَئِنْ عِبْنَ ما رأَيْنَ لقَدْ أنْـ   ـكَرْنَ مُسْتَنْكَراً وعِبْنَ مَعِيبَا
أو تَصَدَّعْنَ عن قِلًى لَكَفَى بالشْـ   ـشَيْبِ بَيْنِى وبَيْنَهُنَّ حَسِيبَا
لَوْ رأَى اللهُ أنَّ فى الشَّيْبِ فَضْلاً   جاوَرَتْهُ الأبْرارُ فى الخُلْدِ شِيبَا

قال سيدنا أدام الله علوّه : وجدت الآمدىّ يذكر أن قوما ادّعوا المناقضة على أبى تمام فى هذه الأبيات بقوله :

لَعِبَ الشَّيْبُ بِالمَفَارِقِ بل جَـ   ـدَّ فأبْكَى تماضرا ولعوبا *

وقوله :

خضبت خدّها إلى لؤلؤ العِقْـ   ـد دماً أنْ رأت شَوَاتِى خضيبا
يا نسيب الثّغام ذنبك أبقى   حسناتى عند الحسان ذنوبا

[٢٠٦ و] /وقوله:

ولئن عبن ما رأين لقد أنْـ   ـكَرْنَ مُسْتَنْكَراً وعِبْنَ مَعِيبَا

---

(١) حاشية الأصل: «مثل، بنى لإضافته إلى «ما»، ويجوز أن يكون صفة لمحذوف، أى تدعى جلالا دعوة مثل تسمية اللديغ سليما».   (٢) ديوانه : ٢٥، ٢٦ ، والشهاب : ٩ .

قالوا: كيف يبكين دماً على شَيْبه ثم يعبنه!

قال الآمدىّ: "وليس هذا بتناقض؛ لأن الشيب إنما أبكى تُماضر ولعوب أسفاً على شبابه، والحسان اللواتى عِبْنه غير هاتين الرائين، فيكون مَنْ أشفق عليه من الشيْب منهن وأسِفَ على شبابه بَكى؛ كما قال الأخطل:

لمّا رأتْ بدلَ الشبابِ بكَت لهُ ... إنّ المَشيبَ لأرذَلُ الأبْدَالِ[١]

ولم يكن هذه حال من عابه". قال: "وهذا مستقيم صحيح".

قال سيدنا أدام الله علوّه: وليس يحتاج فى الاعتذار لأبى تمام إلى ما تكلفه الآمدىّ؛ بل المناقضة زائلة عنه على كل حال، وإن كان مَنْ قد بكى شبابه، وتلهف عليه من النساء هُنّ اللواتى أنكرن شيْبه، وعِبْنه به، وما المنكَر من ذلك! وكيف يتناقض أن يبكى على شبابه ونزول شيبه منهن مَن رأيْنَ الشيب ذنباً وعيباً منكراً! وفى هذا غاية المطابقة؛ لأنه لا يبكى الشيب، ويجزع من حلوله وفراق الشباب إلاّ مَن رآه منكراً ومعيباً.

وقال أبو تمام:

رَاحَتْ غَوانِى الحَىّ عنكَ غَوانِيا ... يَلبَسنَ نَأيا تارةً وصُدُودَا[٢]

مِنْ كلِّ سابغَةِ الشبابِ إذا بدَتْ ... تَرَكتْ عَميدَ القرْيَتَيْنِ عَميدَا

أرْبَيْنَ بالمُرْدِ الغطارِفِ بُدّنًا ... غِيدا ألفنهُمُ لِدَاتًا غِيدَا

أحْلَى الرِّجالِ من النِّساءِ مواقِعاً ... مَنْ كانَ أشبَهَهُم بِهِنّ خُدُودَا

وقوله: «أرْبَيْنَ بالمُرْدِ» من أربّ بالشىء إذا لزمه، وأقام عليه، يقال: أربّ وألبّ بالمكان إذا لزمه: يريد أنهن لزِمْنَ هوى المُرْد وأقبَلن عليهم. ورواه قوم «أرْبَيْنَ بالمُرْد» من الرِّبا الذى معناه الزيادة، يقال: قد أربَى الرجل إذا ازداد؛ فيقول: أرْبَين بالمُرْدِ، أى زِدْنَ علينابهم، وجعلن المُرْد زيادةً اخترنها علينا[٣].

---

(١) ديوانه ١٥٨ (٢) ديوانه: ٨٧ — ٨٨. (٣) انظر الشهاب: ١٠.

ويقال(١): إنه أخذ قوله:

* أحلى الرجال من النساء مواقعاً * . . . البيت

من قول الأعشى :

وأرَى النَّوَانِي لا يُوَاصِلْنَ امرأً　　فقدَ الشَّبابَ وقدْ يصلْنَ الأمْرَدَا(٢)

[٢٠٦ ظ] /ولمنصور النَّمَرِيّ مثله :

كرِهْنَ مِنَ الشَّيبِ الذى لوْ رأينَهُ　　بِهِنَّ دَأَيْنَ الطَّرْفَ عَنْهُنَّ أزْوَرَا

ونحوه قول الآخر :

أرَى شَيْبَ الرِّجالِ مِنَ الغَوَانِي　　كوقْعِ مَشِيبِهِنَّ من الرِّجالِ

وقال أبو تمام:

شابَ رأسِي وما رأيتُ مَشِيبَ الـ　　ـرَّأسِ إلاَّ من فَضْلِ شَيبِ الفُؤَادِ(٣)

وَكَذَاكَ القُلُوبُ فى كلِّ بُؤْسٍ　　وَنَعِيمٍ طلائعُ الأجْسادِ

طَالَ إنْكارِيَ البَيَاضَ وَإنْ عُمِّـ　　ـرْتُ شَيئاً أنكرْتُ لوْنَ السَّوادِ(٤)

زادَنِي شَخْصُهُ بطَلْعَةِ ضَيْمٍ　　عَمَّرَتْ مَجْلِسِي مِنَ العُوَّادِ

نالَ رَأْسِي من ثُغْرَةِ الهَمِّ لمَّا　　لم يَنَلْهُ من ثُغْرَةِ الميلادِ(٥)

ومعنى هذا البيت الأخير أن «الثغر» هي الفرجة والثُّلْمة تكون فى الشيء ؛ ولذلك سُمِّيَ كل بلد جاور عدواً ثَغْراً؛ كأن معناه مكشوف للعدو. ويجوز أن يكون أصله من ثَغْر الإنسان، لأنه أول ما يقابلك من أسنانه ، وأول ما يظهر عند الكلام ، وأول ما يسقط فيرَى مثلوماً ، فيشبَّه الثَّغر الذى هو البلد ؛ يقال اثَّغر الصبيُّ واتَّغر ؛ وتسمى تلك الفرجة فى موضع

(١) الموازنة : ٣٠.　　(٢) ديوانه : ١٠١ ؛ والرواية : « وأرى الغوانى » .

(٣) ديوانه : ٧٥ .　　(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « ولو عمرت شيئا » أى تعميرا ، وهى رواية الديوان .　　(٥) حاشية الأصل : يروى : « من ثغرة الهم مالم * تشتمله » .

السن ثُغرة وفى كل موضع منفرج ؛ ومنه ثغرة النّحْر.

وأراد بقوله :

* نال رأسى من ثغرة الهم لَمّا *

أى وجد الشيبُ من الهم فرجة دخل على رأسى منها ؛ لأن الهَمّ يُشيب لا محالة .

وقوله :

* مالم ينله من ثُغرة الميلاد *

أراد بثُغْرَة الميلاد الوقت الذى يهجم عليه فيه الشّيب من عمره؛ لأنه يجد السبيل فى ذلك الوقت إلى الحلول برأسه ؛ فجعله ثغرة من هذا الوجه ؛ فأراد أن الشيب حلّ برأسه من جهة همومه وأحزانه لمّا لم يبلغ السن التى تُوجب حلولَه به من حيث كِبَره .

ورأيت الآمدىّ يطعن على قوله :

* عمرت مجلسى من العوّاد *

ويقول: "لاحقيقة لذلك ولامعنى، لأنا مارأينا ولا سمعنا أحدا / جاءه عوادٌ يعودونه من الشيب ؛ ولا أن أحدا أمرضَه الشّيب ، ولا عزّاه المزون عن الشباب" ؛ وهذا من الآمدىّ قلةُ نقد للشّعر وضعف بصيرة بدقيق معانيه التى يغُوص عليها حذاقُ الشعراء؛ ولم يرد أبو تمام بقوله : [٢٠٧ و]

* عمرتْ مجلسى من العوّاد *

العيادة الحقيقية التى يغشى فيها العوّاد مجالسَ المرضى وذوى الأوجاع، وإنما هذه استعارة وتشبيه وإشارة إلى الغرض خَفِيّة ؛ فكأنه أراد أنّ شخص الشيب لمازارنى كثُر المتوجعون لى ، والمتأسفون على شبابى ، والمتوحشون[1] من مفارقته ؛ فكأنهم فى مجلسى عُوّاد لِى ، لأن مِن شأن العائد للمريض أن يتوجّع ويتفجع .

---

(١) حاشية الأصل (من نسخة) : « والمتفجعون » .

وكنى بقوله :

* عمرتْ مجلسى من العوّاد *

عن كثرة مَن تفجع له وتوجّع من مشيبه؛ وهذا من أبى تمام كلام فى نهاية البلاغة والحسن؛ وما المعيب إلا مَنْ عابه وطعَن عليه ؛ ونحن نذكر فى المجلس الآتى بمشيئة الله ما للبحترىّ فى هذا المعنى إن شاء الله .

مجلس آخر [٤٧]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ؛ [النحل : ١٠] .

فقال : إذا كانَ الشجر ليس ببعض للماء كما كان الشراب بعضاً له ؛ فكيف جاز أن يقول : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ بعدقوله : ﴿ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ ؟ وما معنى ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ؟ وهل الفائدة في هذه اللفظة هي الفائدة في قوله : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ ؛ [آل عمران : ١٤] ، وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٨٢ ، ٨٣] ؟ .

الجواب ، قلنا في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ وجهان :

أحدهما أن يكون المراد منه سَقْي شجرٍ ، وشُرْب شجر ؛ فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ؛ وذلك كثير في لغة العرب ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة : ٩٣] ، أي حبّ العجل .

والوجه الآخر أن يكون المراد : ومِن جهة الماء شجر ، ومن سقيه وإنباته شجر ؛ فحذف الأول وخلَفه الثاني ؛ كما قال عَوْف بن الخَرِع :

أَمِنْ آلِ لَيْلَى عَرَفْتَ الدِّيَارَا ... بِجَنْبِ الشَّقِيقِ خَلاَءً قِفَارَا[١]

أراد : من ناحية آل ليلى .

---

(١) المفضليات ٤١٢ (طبعة المعارف) ، والرواية هناك :

أَمِنْ آلِ مَيٍّ عَرَفْتَ الدِّيَارَا ... بحيث الشقيقُ خلاءً قفارا

والشقيق : ماء لبني أُسيد بن عمرو بن تميم .

وقال زهير :

[٢٠٧ ظ] /أمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ بحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فالْمُتَثَلَّمِ(١)

أراد : من ناحية أم أوفى .

وقال أبو ذؤيب :

أمِنْكَ البَرْقُ أرْقُبُه فَهاجَا فَبِتُّ إخالُهُ دُهْمًا خِلاَجَا(٢)

وقال أيضاً :

أمِنْكِ بَرْقٌ أبِيتُ اللَّيْلَ أرْقُبُهُ كأنَّهُ في عِراضِ الشَّامِ مِصْباحُ(٣)

وقال الجعديّ :

لِمَنِ الدِّيارُ عَفَوْنَ بالتَّهْطَالِ بَقِيَتْ على حِجَجٍ خَلَوْنَ طِوَالِ

أراد بقيت على مَرّ حجج، وتكرار حجج .

فأما قوله تعالى: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ فمعناه ترعون ، وترسلون أنعامكم؛ يقال: أسامَ الإبل يُسيمها إسامة ؛ إذا أرعاها وأطلقها فرعَتْ منصرفة حيث شاءت ؛ وسوَّمها أيضا يُسَوِّمها من ذلك ؛ وسامت هي إذا رعت ؛ فهي تَسوم، وهي إبل سائمة ؛ ويقال : سمتها إذا قصرتها على مرعًى بعينه ؛ وسُمْتُها الخسفَ ؛ إذا تركتَها على غير مَرْعى؛ ومنه قيل لمن أُذِلَّ واهتُضِم: سِيمَ فلان الخَسْفَ ؛ وسِيم خُطَّةَ الضَّيم ؛ قال الكميت بن زيد في الإسامة التي هي الإطلاق في الرَّعْي(٤):

(١) أول المعلقة ، ديوانه : ٤ . الدمنة آثار الناس وما سودوا من الرماد وغيره . ولم تبين : لم تكلم . وحومانة الدراج والمتثلم : موضعان .

(٢) ديوان الهذليين ١ : ١٦٤؛ وفي حاشيتي الأصل، ف : « شبه السحاب بإبل سود ، وصوت الرعد بحنينها؛ ولم يذكر السحاب إلا أن البرق دل عليه ، وخلاج : جمع خلوج ؛ وهي الناقة التي تخلج ولدها؛ وهو فعول في معنى مفعول ، كالركوب والحلوب » .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٤٧ ، واللسان (عرض)؛ وعراض الشام نواحيه ؛ الواحد عرض .

(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « المرعى » .

رَاعِيا كانَ مُسْجِحاً فَفَقَدْنا ... وفَقْدُ المُسِيمِ هُلْكُ السَّوَامِ (١)

وقال آخر :

وأَسْكُنُ ماسَكَنْتِ بِبَطْنِ وادٍ ... وأظْعَنُ إن ظَعَنْتِ فلا أُسِيمُ (٢)

وذهب قوم إلى أنَّ السَّوْمَ فى البيع من هذا ؛ لأن كل واحدٍ من المتبايعين يذهب فيما يبيعه من زيادة ثمن أو نقصانه إلى ما يهواهُ ، كما تذهب سوائم المواشى حيث شاءت .

وقد جاء فى الحديث : « لا سوْم قبل طلوع الشَّمس » فحمله قوم على أن الإبل وغيرها لا تُسام قبل طلوع الشَّمس ؛ لئلا تنتشر وتفوت الراعى ويخفى عليه مقاصدها .

وحمله آخرون على أنَّ السوم قبل طلوع الشَّمس فى البيوع مكروهٌ ، لأن السِّلْعة المبيعة تستتر عيوبها أو بعضها ، فيدخل ذلك / فى بيوع الغَرر المنهىّ عنها. [٢٠٨ و]

فأما الخيل المسوّمة ، فقد قيل : إنها المعلَمة بعلامات ؛ مأخوذ من السِّيماء وهى العلامة .

وروى عن الحسن البصرىّ فى قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ قال : سُوِّمَ نواصيها وأذنابها بالصوف .

وقيل أيضا : إن المسوّمة هى الحسان .

وروى عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ قال : هى المطهَّمَة الحسان .

وقال آخرون : بل هى الراعية ؛ روى ذلك عن سعيد بن جبير ؛ وكلٌّ يرجع إلى أصل واحد ، وهو معنى العلامة ، لأن تحسينَ الخيل يجرى مجرى العلامة فيها ؛ التى تُعرف بها وتتميز لمكانها؛ وقد قيل : إن السَّوم من الرَّعْى يرجع إلى هذا المعنى أيضا ، لأن الراعىَ يجعل فى المواضع التى يرعاها علامات أو كالعلامات بما يزيله من نباتها ، ويمحوه من آثارها؛ فكأن الأصل فى الكلّ متفق غير مختلف .

---

(١) مسجحا : رفيقا سهلا ، وفى م : « مسيما » (٢) د ، ونسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « ماظعنت ».

وقال لبيد فى التسويم الذى هو التعليم:

وغَداة قاعِ القَرْنتينِ أتينَهمْ ... رهْواً يلوحُ خِلالها التسويمُ(١)

أراد التعليم .

وأما قوله فى الملائكة: ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾؛ فالمراد به المعلمين، وكذلك قوله تعالى: ﴿ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ . مُسَوَّمَةً ﴾ أى مُعَلَّمة ؛ وقيل : إنه كان عليها كأمثال الخواتيم .

***

قال سيدنا أدام الله علوّه : ونعود إلى ما كنا وعدنا به من ذكر ما للبحترىّ فى ذمّ الشيب والتألم من فقد الشباب ؛ فمن ذلك قوله(٢):

وكُنتُ أرجِّى فى الشّباب شفاعةً ... فكيفَ لباغِى حاجةٍ بشفيعِهِ(٣)

مَشيبٌ كَبَثِّ السِّرِّ عَىَّ بحمْلِهِ ... مُحدِّثُهُ ، أو ضاقَ صَدْرُ مُذيعِهِ(٤)

تلاحَقَ حتّى كادَ يأتِى بطيئُهُ ... لِحَثِّ اللّيالِى قبلَ أتْىِ سريعِهِ

وما أحسن هذا من كلام! وأبلغه وأطبعه(٥)!

---

(١) ديوانه ٢ : ١ : ١٠٤ وفى حاشية الأصل: « بعد هذا البيت :

بكتائبٍ رُجُحٍ تعوّد كبشُها ... نَطْحَ الكباش كأنهنّ نجومُ

والقرنتان : موضع ، ورها فى السير رهوا أى رفق ، قال القطامىّ :

يَمْشِينَ رَهْوًا، فلاَ الأعجازُ خاذلةٌ ... ولا الصدُورُ على الأعجاز تتّكِلُ

(٢) ديوانه ٢ : ٩٠ ، والشهاب : ١٣ ، وفى حاشيتى الأصل ، ف : « يقول : كنت أرجى أن يكون الشباب شفيعى. ويجوز أن يكون المعنى : كنت أرجى فى شبابى شفاعة إلى الحسان من طراوتى وحسنى » .

(٣) فى حاشيتى الأصل ، ف : « يعنى أنه جد محتاج إلى الشفيع ؛ ولكنه ولى وذهب » .

(٤) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « كبث السر » . وفيهما أيضا : « أى أنه كان كالسر تبرم به صاحبه فأفشاه » .

(٥) ذكر المرتضى فى الشهاب تعليقا على هذه الأبيات : « وهذا والله أبلغ كلام وأحسنه وأحلاه وأسلمه وأجمعه لحسن اللفظ وجودة المعنى ؛ وما أحسن ما شبه تكاثر الشيب وتلاحقه ببث السر عن ضيق صدر صاحبه وإعيائه بحمله وعجزه عن طيه ! ويشبه بعض الشبه قوله :

* تلاحَقَ حتى كاد يأتى بطيئه * =

وقال أيضاً :

رُدِّى علىَّ الصِّبا إن كنتِ فاعلةً ... إنَّ الصِّبا ليسَ من شانِي ولا أرَبِي (١)

جاوَزْتُ حَدَّ الشَّبابِ النَّضْرِ مُلْتَفِتاً ... إلى بناتِ الصِّبا يرْكُضْنَ فى طَلَبِى (٢)

/والشَّيبُ مَهْرَبُ مَن جارَى مَنِيَّتَهُ ... ولا نَجاءَ لهُ مِنْ ذَلِكَ المَرَبِ [٢٠٨ ظ]

والمَرْءُ لو كانَتِ الشِّعْرَى لهُ وَطَناً ... صُبَّتْ عليهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ من كَثَبِ (٣)

وقال أيضا :

لا يَئِسٌ من شبيبةٍ أمْ ناضٍ ... وَمُلِيحٌ من شَيْبَةٍ أمْ راضِى (٤)

وَإِذَا ما امْتَعَضْتُ من وَلَعِ الشَّـ ... ـيْبِ برأسى لم يَثْنِ ذَاكَ امْتِعَاضِى (٥)

ليسَ يَرْضَى عن الزَّمانِ مروٌّ ... فيهِ إلاَّ عن غَفْلَةٍ أو تَغَاضٍ (٧)

والبواقِى من اللَّيالِى وإنْ خا ... لَفْنَ شيئاً فَشِبْهاتُ المَواضِى (٦)

نا كَرَتْ لِمَّتِى وناكَرْتُ منها ... سُوءَ هَدْىِ الأبْدَالِ والأعْواضِ

= قولى من أبيات :

سَبَقَ احترامِى من أذاهُ بطيئُهُ ... حتى تجلَّلنى ، فكيف عجولُه !

وفى البيت لمحة بعيدة من بيت البحترى وليس بنظير له على التحقيق ؛ ومعنى البيت الذى يخصنى أدخل فى الصحة والتحقيق ؛ لأنى خبرت بأن بطىء الشيب سبق وغلب احترامى وحذرى ؛ فكيف عجوله ! ومن سبقه البطىء كيف لايسبقه السريع ! والبحترى قال : إن البطىء كاد أن يسبق السريع ؛ وهذا على ظاهره لايصح ؛ لأنه يجعل البطىء هو السريع ؛ بل أسرع منه ؛ لكن المعنى : أنه متداول متواتر فيكاد البطىء له يسبق السريع ؛ وهذا فى غاية الملاحة » .

(١) ديوانه١ : ٢٩ ، ٣٠ ، والشهاب : ١٤ . (٢) حاشية الأصل : « فى نسخة س : قرأت فى شعره على شيخى : إلى بنات الردى » . (٣) د ، ف ، حاشية الأصل (من نسخة) : « من صبب » أى حدور ؛ وهو الموضع الذى ينحدر فيه » . وفى م : « ويروى : حطت عليه صروف الدهر من كثب » .

(٤) ناض : خالع ، ومليح : مشفق ؛ يخاطب نفسه فيقول : ألايس أنت برد الشباب أم خالعه ؟ .

(٥) فى م : « لم يثن ذاك » وفى الديوان : « لم يعد » . (٦) مروّ : مفكر .

(٧) د ؛ ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « مشبهات » ؛ وفى حاشية الأصل : « ويروى : شبيه بالمواضى وهو أحسن . قال س : فشبهات ، لابأس به ، والذى حسن الفاء طول الكلام وإن الشرطية فيه » .

شَمَرَاتٌ أَقْصُهُنَّ وَيَرْجِعْـ ... نَ رُجُوعَ السِّهَامِ فِى الأَغْرَاضِ[1]
وَأَبَتْ تَرْكِىَ الغُدَيَّاتُ وَالآ ... صَالُ حَتَّى خَضَبْتُ بِالمِقْرَاضِ[2]
غَيْرَ نَفْعٍ إِلاَّ التَّعَلُّلَ مِنْ شَخْـ ... صٍ عَدُوٍّ لَمْ يَمْدُهُ إِبْغَاضِى
وَرُوَاءُ المَشِيبِ كَالبَخَصِ فِى عَيْـ ... نِى فَقُلْ فِيهِ فِى العُيُونِ المِرَاضِ[3]
طِبْتُ نَفْساً عَنِ الشَّبَابِ وَمَا سَـ ... وَّدَ مِنْ صِبْغِ بُرْدِهِ الفَضْفَاضِ
فَهَلِ الحَادِثَاتُ يَا ابْنَ عُوَيْفٍ ... تَارِكَاتِى وَلُبْسَ هَذَا البَيَاضِ !

وقال أيضاً :

تَعِيبُ الغَانِيَاتُ عَلَىَّ شَيْبِى ... وَمَنْ لِى أَنْ أُمَتَّعَ بِالمَعِيبِ !
وَوَجْدِى بِالشَّبَابِ وَإِنْ تَوَلَّى ... حَمِيداً دُونَ وَجْدِى بِالمَشِيبِ[4]

وقال أيضاً :

أَرَأَيْتِهِ مِنْ بَعْدِ جَثْلٍ فَاحِمٍ ... جَوْنَ المَفَارِقِ بِالنَّهَارِ خَضِيبَا[5]
فَعَجِبْتِ مِنْ حَالَيْنِ خَالَفَ فِيهِمَا ... صَرْفُ الزَّمَانِ وَمَا رَأَيْتِ عَجِيبَا

---

(١) حاشية الأصل : « من شأن الغرض أن تنزع السهام منه ثم تعود إليه فى الحال » .

(٢) قال المرتضى فى الشهاب تعليقا على هذا البيت والذى قبله : « قوله : خضبت بالمقراض فى غاية الملاحة والرشاقة . ومعنى قوله : رجوع السهام فى الأغراض أنه لا يملك ردا لطلوع الشيب فى شعره ولا تلافيا لحلوله ، فيجرى فى ذلك مجرى رجوع السهام إلى الغرض فى أنه لا يملك مرسل السهم صده عنه ولا رده عن إصابته . ويمكن فى ذلك وجه آخر ؛ وإن كان الأول أشف ؛ وهو أن يريد بالأغراض المقاتل والمواضع الشريفة من الأعضاء ؛ فكأنه يشبه رجوع الشيب بعد قصه له وطلوعه فى شدة إيلامه وإيجاعه بإصابة السهام للمقاتل والفرائص . ويحتمل وجها آخر ؛ وهو أن السهام تنزع من الأغراض ، ثم ترجع بالرمى إليها أبدا ، فأشبهت فى ذلك الشيب فى قصه ثم طلوعه ورجوعه إلى موضعه » .

(٣) حاشية الأصل : الرؤاء يهمز ولا يهمز ؛ فإذا لم يهمز كان من الرى وإذا همز كان من الرؤية » . والبخص : لحم نانئ فوق العينين أو تحتهما كهيئة النفخة . وفى حاشية الأصل أيضا : « مثله لابن الرومى :

إِذَا شَنِئَتْ عَيْنُ الفَتَى عَيْبَ نَفْسِهِ ... فَعَيْنُ سِوَاهُ بِالشَّنَاءَةِ أَجْدَرُ

(٤) ديوانه : ٢ : ٨٤ .

(٥) ديوانه : ١ : ٧٥ . الجثل من الشعر : الكثير . والجون هنا : الأسود ؛ وهو من الأضداد ، يطلق على الأسود والأبيض . وفى حاشية الأصل : « جعل النهار خضابا لأنه شيء قد شاع وتمرن عليه » .

/ إنّ الزّمانَ إذا تتابَع خَطْوُهُ ... سبقَ الطّلُوبَ وأدركَ الطّلُوبا [٢٠٩ و]

وقال أيضاً :

رأتْ فَلَتاتِ الشّيبِ فابتَسَمتْ لها ... وقالتْ : نُجُومٌ لو طَلَعنَ بأسْعُدِ(١)

أعانِكُ ما كانَ الشّبابُ مُقرِّبي ... إليكِ ، فألحَى الشّيبَ إذ كانَ مُبعِدي

وقال أيضاً :

عَنَتْ كَبِدي قَسْوَةٌ مِنكِ ما إنْ ... تَزالُ تُجَدِّدُ فيها نُدُوبا(٢)

وحُمِّلْتُ عندكِ(٣) ذَنْبَ المشيـ ... ـبِ حتى كأنِّي ابتَدَعْتُ المَشِيبا

ومن يطَّلعْ شَرَفَ الأربعينَ ... يُحَيَّ مِنَ الشّيبِ شخصاً(٤) غَريبا

قال المرتضى رضي الله عنه : ولى فى هذا المعنى :

قُلنَ لمّا رأينَ وخطاً مِن الشّيـ ... ـبِ برأسِي أعيَا على مَجهُودِي

كَسَنَا بارِقٍ تَعرّضَ وَهناً ... فى حَواشِي بعضِ اللّيالى السُّودِ

أبياضٌ مُجدّدٌ من سَوادٍ ... كانَ قِدْماً ! لا مَرحَباً بالجَديدِ

يا لَحاكُنّ من رَماكُنّ بالحُسْـ ... ـنِ لتَقهَرْننا بغيرِ جُنودِ

ليسَ يبقى منى فأُجزَى عليهنّ ... صُدُوداً أو ليسَ فيكنّ سُودِي

قَلّ ما ضرّكُنّ من شَعَراتٍ ... كُنّ يوماً على الوَقارِ شُهُودِي

وقال البحترى أيضاً :

خَلِّياهُ وَجِدَّةَ اللّهوِ ما دا ... مَ رِداءُ الشّبابِ غَضّاً جَديدا

---

(١) الشهاب : ١٧ . (٢) ديوانه ١ : ٥١ ، والشهاب : ١٨ عنت : قصدت والندوب : آثار الجراحات . وفى حاشية الأصل : « نسخة ج : ما تزال هو حسن ؛ لتكون عروض البيت محذوفة ؛ والقصيدة بأسرها محذوفة العروض إلا البيت المصرع فى أولها ؛ وإذا روعيت : « ما إن تزال » فالعروض سالمة ، فعولن » .

(٣) حاشية الأصل : « س : روى « حلت عبدك » ؛ كأنه تصحيف ، ولكنه حسن » .

(٤) فى حاشيتى الأصل ، ف : « يروى : زورا » . (١) ديوانه ١ : ١٨٢ ، الشهاب : ١٩ .

إنّ أيّامَهُ منَ البيضِ بيضٌ ... ما رأيْنَ المفارقَ السُّودَ سُودَا

وقال أيضاً :

تَرَكَ السَّوادَ للابسيهِ وَبيّضا ... وَنضا مِنَ السّتينَ عنْهُ ما نَضا[1]

وَشآه أغْيَدُ فى تَصرُّفِ لَحْظِهِ ... مَرَضٌ أعَلّ بهِ القلُوبَ وَأمْرَضا[2]

وكأنَّهُ وَجَدَ الصِّبا وَجَديدَهُ ... دَيْناً دَنا مِيقَاتُهُ أنْ يُقْتَضى

أسْيانُ أثْرَى منْ جَوىً وَصَبابةٍ ... وَأساف منْ وصْلِ الحِسانِ وأنفضا[3]

وقال أيضاً :

هلْ أنتَ صارفُ شيبةٍ إنْ عَلّستْ ... فى الوقتِ أوْ عجِلَتْ عنِ الميعادِ[4]

جاءتْ مُقدِّمةً أمام طَوالعٍ ... هذى تُراوِحُنى وَتِلْكَ تُغادِى

وَأخُو النَّبيِنةِ تاجرٌ فى لِمَّةٍ ... يَشْرِى جديدَ بياضِها بسوادِ[5]

لاتَكْذِبَنّ فما الصبا بمُخلَّفٍ ... لهوًا وَلا زَمَنُ الصِّبا بمُعادِ

---

(١) ديوانه ٢ : ٧٠ ، الشهاب : ١٩ . وفى حاشية الأصل : « أى خلع إتيان الستين عليه المسرة والنشاط » . (٢) شآه : غلبه ، وفرم : « سباه » . (٣) من نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « أسوان » ، وهو الحزين ، وأساف الرجل : ذهب ماله ، وكذلك أنفض ، والمراد هنا أنه ذهب من يده وصل الحسان وميلهن إليه . (٤) ديوانه ١ : ١٤٤ ، الشهاب ٢٠ — ٢١ .

(٥) قال المرتضى فى الشهاب تعليقاً على هذا البيت : « وجدت الآمدى قد نزل فى معنى قوله :

* يَشْرِى جديدَ بياضِها بسوادِ *

لأنه قال : معنى يشرى يبيع ؛ وأراد : أن الغبن من باع جديد بياضه بالسواد ، وأراد بالسواد الخضاب ؛ فكأنه ذم الخضاب . والأمر بخلاف ماذكره ، وماجرى للخضاب ذكر ، ولاها هنا موضع للكناية عنه ؛ ومعنى : « يشرى » هاهنا يبتاع ؛ لأن قولهم : شريت يستعمل فى البائع والمبتاع جميعا ؛ وهذا من الأضداد ، نص أهل اللغة على هذا فى كتبهم ؛ فكأنه شهد بالغبن لمن يبتاع الشيب بالشباب ويتعوض عنه به ؛ وإنما ذهب على الآمدى أن لفظة « يشرى » تقع على الأمرين المتضادين ؛ فتمحل ذكر الخضاب الذى لامعنى له هاهنا » .

وَأرى الشَّبابَ على غضارةِ حُسْنِهِ ... وَكَالِهِ عَدَداً مِنَ الأعْدادِ(١)

/ وقال أيضا : [٢٠٩ ب]

أيُثَنَّى الشَّبابُ أمْ ما تَوَلَّى ... مِنْهُ في الدَّهْرِ دَوْلَةٌ ماتَعُودُ(٢)

لا أرى العَيْشَ وَالمفارِقُ بِيضٌ ... أُسْوَةَ العَيْشِ والمفارِقُ سُودُ

وَأعُدُّ الشَّقِيَّ جِدًّا وَلَوْ أَنْـ ... ـعَمَ عُنْماً حتى يُقالَ سَعِيدُ

مَنْ عَدَتْهُ العُيُونُ وَانصَرَفَتْ عَنْـ ... ـهُ الْتِفاتاً إلى سِوَاه الخُدُودُ

وقال أيضا :

قدْكِ مِنِّي فَما جَرَى السُّقْمُ إلاَّ ... في ضُلوعٍ على جَوَى الحبِّ تُحْنَى(٣)

لو رأتْ حادِثَ الخِضَابِ لأنَّتْ ... وَأرَنَّتْ من اعْرارِ اليَرَنَّا(٤)

كَلَفُ البِيضِ بالمُمَرِّ قَدِيماً ... حِينَ يَكْلَفْنَ وَالمصغَّرِ سِنًّا(٥)

يَتَشاغَفْنَ بالغَرِيرِ المُسَمَّى ... مِنْ تَصابٍ دُونَ الجَلِيلِ المُكَنَّى(٦)

---

(١) قال المرتضى في الشهاب أيضا : « وقال الآمدي في قوله : عددا من الأعداد » أنه أراد : عددا قليلا ؛ وقد أصاب في ذلك ؛ إلا أنه ماذكر شاهده ووجهه ؛ والعرب تقول في الشيء القليل إنه معدود؛ إذ أرادوا الإخبار عن قلته ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ وقال جل اسمه في موضع آخر : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ وأظنهم ذهبوا في وصف القليل بأنه معدود من حيث كان العد والحصر لايقع إلا على القليل والكثير ؛ ولكثرته لا ينضبط ولاينحصر » . (٢) ديوانه ١ : ٢٠٨ ، الشهاب : ١٨ ؛ وبرده : جمع برد ؛ وهو كساء مربع مخطط.

(٣) ديوانه ٢ : ٢٩٠ ، الشهاب : ١٩ . (٤) اليرنا ، بضم الياء وفتحها ، مقصورة مشددة النون ، واليرناء ، بالضم والمد : الحناء ؛ ويرنأ صبغ به ، كمنأ ؛ وهو من غريب الأفعال .

(٥) في حاشية الأصل ف : الكلف : المحبة ؛ وهذا كما قال أبو الشيص :

شيئان لاتصبو النساءُ إليهما ... حُلَلُ المشيب وحُلة الإنفاض

(٦) من نسخة بحاشيتي الأصل ، ف : « الكبير » .

وقال أيضاً :

أخيّ إنّ الصبا استمرّ به ... سيرُ الليالى فأنهجتْ بُردُه[(١)]
تَصُدُّ عنى الحِسانُ مُبعِدةً ... إذْ أنا لاقُرْبُه ولا صدَدُه
شَيبٌ على المفرقين بارضُه ... يَـكْثُرُنى أن أبينهُ عددُه[(٢)]
تَطلُب منى الشَّبابَ طالةً ... بُعَيْدَ خمسينَ حينَ لاتجدُه
لاعجبٌ إنْ مَلِلْتِ خُلَّتَنا ... فافتقدَ الوصلَ مِنْك مُفتقِدُه
مَن يتَطاوَلْ على مُطاوَلةِ الْـ ... ـعيش تقَمقَمْ مَنْ مَلَّةٍ عَمَدُه

قال سيدنا أدام الله تمكينه : ورأيت الآمديّ قد أخطأ فى معنى البيت الأخير ، لأنه قال: "معنى « تُقمقـِـعُ من مَلّةٍ عَمَدُه » أى عظامُه ، يجىء لها صوت إذا قام وقعد من كِبَرِه وضَعْفه" قال: "وقوله : « من ملة » أى من تملّى العيش ؛ يريد طولَه ودوامه ؛ ومنه تملّيْتَ حبيبَك" والأمر بخِلاف ماتوهمه ، ومعنى « تُقَمْقِـعُ من مَلّةٍ عَمَدُه » أنَّ مَنْ تطاوَل عمرُه تعجَّلَ [٢١٠ و] ترحُّلُه وانتقاله عن الدنيا ؛ وكـنَى عن ذلك / بتقمقع العَمد ؛ وهذا مثلٌ معروف للعرب ، يقولون: « مَنْ يتجمّع يتقَمقعْ عَمَدُه » ؛ يريدون أنّ التجمّـع داعى التفرق ؛ وأنّ الاجتماع يعقِب ويورث مايدعو إلى الانتقال الذى يتقمقع معه العَمَد .

والآمدىّ على كثرة ما يدعيه من التنقيب والتنقير على علوم العرب إن كان لم يعرف هذا المثل ومعناه فهو طريف ، وإن كان قد سمعه وجهل أنّ معنى بيت البحترىّ يطابقه فهو أطرف .

فأما قوله: « من مَلّة » فإنما أراد به من مَلَل ؛ وملّة « فَعْلَة » من المَلَل ، وكيف يكون

---

(١) ديوانه : ١ : ١٤٥ ، الشهاب : ٢٠ . (٢) حاشية الأصل : « البارض : النبت أول ما يبدو من البهمى ، وهو شوك . أبينه : أزيله . يكثرنى : يغلبنى بالـكثرة » .

من تملِّى العيش، ولم يسمع فى تمَلَّيت « مَلَّةً » ! وهذا خطأ على خطأ[1] .

وقال البحترىّ :

ما كانَ شَوْقٌ بِبِدْعٍ يومَ ذاكَ ولا دَمْعى بأوَّلِ دَمْعٍ فى الهوى سُفِحا[2]
ولِمَّةٍ كُنْتُ مَشْغُوفاً بِجِدَّتِها فما عفَا الشَّيْبُ لى عَنْها ولا صفَحَا

وقال أيضاً :

وَما أَنْسَ لاأَنْسَ عهْدَ الشَّبابِ وَعلوةَ إِذْ عَيَّرَتْنى الكِبَرْ[3]
كَوَاكِبُ شَيْبٍ عَلِقْنَ الصِّبا فَقَلَّلْنَ مِنْ حُسْنِهِ ما كَثُرْ
وَإِنى وَجدْتُ وَلاَ تَكْذِبَنَّ سَوَادَ الهوَى فى بياض الشَّعَرْ
ولابُدَّ من تَرْكِ إحدى اثنتيـــن إمَّا الشَّبابِ وإما العُمُرْ

قال الآمدى : " وعليه فى قوله :

ولا بدَّ من تَرْكِ إحدى اثنتيـــن إمَّا الشَّباب وَإما العُمُرْ

معارضة ، وهو أن يقال له : إنَّ مَنْ مات شاباً فقد فارق الشباب وفاته العمر أيضاً ، فهو تاركٌ لهما معاً ، ومَنْ شاب فارق الشباب ، وهو مفارق للعمر لامحالة؛ فهو أيضاً تاركٌ لهما جميعاً " .

---

(١) وعاد المرتضى فبسط هذا النقد مرة ثانية فى كتابه الشهاب فقال : " وقد نبهنا فى كتاب الغرر على هفوة الآمدى فى قول البحترىّ : « تَقَعْقَعَ مِنْ مَلَّةٍ عَمَدُهْ » ؛ لأنه ظن أن معناه أن عظام الكبير السن يجىء لها صوت إذا قام وقعد ، وتسمع لها قعقعة ؛ وما سمعنا بهذا الذى ظنه فى وصف ذوى الأسنان والكبر؛ والمعنى أظهر من أن يخفى على أحد ؛ لأنه أراد : من عمر وأسن وطاول العيش تعجل رحيله وانتقاله من الدنيا ؛ وكنى عن ذلك بتقعقع العمد ؛ لأن ذوى الأطناب والخيام إذا انتقلوا من محل إلى غيره وقوضوا عمد خيامهم، وسارت بها الإبل سمعت لها قعقعة، ومن أمثال العرب المعروفة : « من يتجمع يتقعقع عمده » ، يريدون أن التجمع يعقب التفرق والرحيل الذى تتقعقع معه العمد . ومعنى قوله : « من ملة » يريد من السأم والملال دون ما ظنه الآمدى من أنه تملى العيش " . (٢) ديوانه ١ : ١١٤ . (٣) ديوانه ١ : ٢١٩ .

"وقوله: «إما وإمّا» لا توجب إلا إحداهما" قال: "والعذر للبحتريّ أنْ يقال: إنّ مَنْ مات شاباً فقد فارق الشباب وحدَه لأنّه لم يعمَّر، فيكون مفارقا للعمر ألا ترى أنهم يقولون: عُمِّر فلان إذا أسنّ، وفلان لم يعمَّر إذا مات شابا، ومَنْ شاب وعُمِّر ثم مات لم يكن مفارقا للشباب في حال موته؛ لأنه قد قطع أيام الشباب، وتقدمتْ مفارقتُه له، وإنما يكون في حال موته مفارقاً للعمر وحده، فإلى هذا ذهب البحتريّ، وهو صحيح [٢١٠ ب] / ولم يُرِدْ بالعمر المدّة القصيرة التي يعمّرُها الإنسان، وإنما أراد بالعمر هاهنا الـكِبَرَ، كما قال زهير:

رأيتُ المنايا خَبطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ، وَمَنْ تُخطِئْ يُعمَّرْ فَيَهْرَمِ (١)

قال رضي الله عنه: وما رأيت أشدّ تهافتاً في الخطأ منه فيما يفسِّرُه ويتـكلم عليـه من شعر هذين الرجلين! ومعنى البيت غيرُ ما توهّمه؛ وهو أظهر من أن يخفى؛ حتى يحتاج فيه إلى هذا التّغلغل والتعسّف؛ وإنما أراد البحتريّ أن الإنسان بين حالَيْن: إما أن يفارق الشباب بالشّيب، أو العمر بالموت؛ فمن مات شاباً ــ وإن كان قد خرج من العمر، وخرج بخروجه عن سائر أحوال الحياة من شباب وشيب وغيرهما ــ فإنه لم يفارق الشباب وحـدَه؛ وإنما فارق العمر الذي فارق بمفارقته الشباب وغيره. وقِسْمَة الرجل تناولت أحد الأمرَيْن: إمّا مفارقة الشباب وحدَه بلا واسطة ــ ولَنْ يكون ذلك إلاّ بالشّيب ــ أو مفارقة العمر بالموت. وتلخيص كلامه: أنه لا بدّ للحي من شيب أو موت، فـكأنّ الشيب والموت متعاقبان؛ والبحتريّ إنما جعل قوله: «العمر» مقام الحياة والبقاء، وإنما قال: «العمر» لأجل القافية؛ مع أنه مُنْبِئٌ عن مراده؛ ولو أنّه قال: ولابدّ من ترك الحياة أو ترك الشباب لقامَ مقام قوله: «العمُر».

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال حدثني عليّ بن محمد الـكاتب قال حدثنا أحمد بن عبيد الله قال: مِن معاني ابن الروميّ التي فتقها قولُه يذمُّ مَن جعل مصيبةَ غيره مُنْسِيةً له مصيبَتَه، وعاب

---

(١) من المعلقة، ديوانه: ٢٩؛ خبط عشواء؛ أي تسير على غير قصد؛ يقال: عشا يعشو عشا إذا أصابه العشا؛ وهو السير على غير بصر.

مَنْ تعلّل بالتأسّي بما نال غيره، وهو يرثى شبابه ، وأحسن :

يا شبابي وأينَ منّي شبابي ! … آذَنَتْني أيامُهُ بانقضابِ (١)
لَهفَ نفسي على نعيمي وَلَهْوِي ! … تحتَ أفنانِه اللِّدانِ الرِّطابِ
ومُعَزٍّ عن الشبابِ مُؤَسٍّ … بمشيب اللِّدات والأصحاب
قلتُ لمّا انتحى يَعُدُّ أساه (٢) … من مصابٍ شبابه كمُصابِ
ليسَ تأسُو كُلومُ غيري كُلومِي … مابِهِ مابِهِ، ومابيَ مابي

ولابن الرومي :

[٢١١ و] / لَهفي على الدُّنيا وهل لَهفةٌ … تنصِفُ منها إن تلهّفتُها ! (٣)
قُبحاً لها قُبحاً على أنها … أقبحُ شيءٍ حينَ كشّفتُها
وَقدْ يعزّيني شبابٌ مضَى … ومدّةٌ للعيشِ أسلفتُها
فكّرتُ في خمسينَ عاماً مضتْ … كانتْ أمامي ثم خلّفتُها
أجهلتُها إذ هي موفورةٌ … ثم مضتْ عنّي فعرّفتُها
ففرحةُ الموهوبِ أعدمتُها … وترحةُ المسلوبِ ألحِفتُها
لو أنّ عمري مائةٌ هدّني … تذكُّري أنّي تنصّفتُها

وله في هذا المعنى ، وقد تقدمت هذه الأبيات في الأمالي السالفة ، وقد أحسن في معناها كلّ الإحسان :

كفَى بسراجِ الشَّيبِ في الرأس هاديا … إلى مَنْ أضلّتْهُ المنايا لَياليا (٤)
أمِنْ بعدِ إبداءِ المشيبِ مقاتِلي … لِرامي المنايا تَحسبينيَ ناجيا !
غدَا الدَّهرُ يَرميني فتَدنو سِهامُهُ … لِشَخصيَ أخلِقْ أنْ يُصِبْنَ سَوادِيا
وكانَ كَرامي اللّيلِ يَرمِي وَلا يَرَى … فلمّا أضاءَ الشَّيبُ شَخصيَ رَمانيا

---

(١) ديوانه، الورقة ٢٤ (٢) أساة : جمع أسوة ؛ وهو القدوة (٣) ديوانه ،الورقة ٤٤
(٤) حاشية الأصل (من نسخة) : « لمن قد أضلته » .

مجلس آخر [٤٧]

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ؛ [آل عمران : ١٢٨] .

فقال : كيف جاءت ﴿ أَوْ ﴾ بعد مالا يجوز أن يعطف عليه ؟ وما الناصب لقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وليس فى الكلام مايقتضى نصبه ؟

الجواب ، قلنا : قد ذكر فى ذلك وجوه :

أوّلها أن يكون قوله : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ معطوفاً على قوله : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ والمعنى أنه تعالى عَجّل لكم هذا النصر ، ومَنَحكم به ليقطع طرَفاً من الذين كفروا ، أى قِطْعَةً منهم ، وطائفة من جمعهم أو يكبتهم ؛ أى يغلبهم ويهزمهم بكم فيخيِّب سعيَهم ، ويُكَذِّبَ فيكم ظنونَهم ، أو يعظهم مايرون مِنْ تظاهر آيات الله تعالى ، الموجبة لتصديق / نبيه صلى الله عليه وآله ، فيتوبوا ويؤمنوا ، فيقبَلُ الله تعالى ذلك منهم ، ويتوب عليهم ، [٢١١ ظ] أويكفروا بعدقيام الحجج ، وتأكيدالبينات والدلائل ، فيموتواأوْ يُقْتَلُوا كافرين ؛ فيعذبهم اللهباستحقاقهم فى النار ؛ ويكون علىهذا الجواب قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ معطوفا على قوله تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ؛ أى ليس لك ولا لغيرك مِنْ هذا النّصر شىء ؛ وإنما هو من الله تعالى .

والجواب الثانى أن يكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى «حتى» ، أو «إلاّ أنّ» ؛ والتقدير : ليس لك من الأمر شىء حتى يتوب عليهم ؛ أو إلا أن يتوب عليهم ، كما قال امرؤ القيس :

بكى صاحِبي لمَّا رأى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأيْقَنَ أنا لاحِقانِ بقَيصَرَا(١)
فقُلْتُ لهُ : لاتَبْكِ عينك إنَّما ... نُحاوِلُ مُلْكاً ، أوْ نَمُوتَ فنُعْذَرَا

أراد : إلاّ أن نموت

وهذا الجواب يضعَّف من طريق المعنى ؛ لأن لقائل أن يقول : إنّ أمْر الخلق ليس إلى أحدٍ سوى الله تعالى قبل توبة العباد وعقابهم بعد ذلك ؛ فكيف يصحُّ أن يقول : ليس لك من الأمر شيء إلاّ أن يتوب عليهم أو يعذبهم ؛ حتى كأنه إذا كان أحد الأمرين كان إليه من الأمر شيء !

ويمكن أن ينصر ذلك بأن يقال : قد يصحُّ الكلام إذا حُمِل على المعنى ؛ وذلك أن قوله : ﴿ لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ معناه: ليس يقع ماتريده وتؤثره من إيمانهم وتوبتهم ، أو ماتريده من استئصالهم وعذابهم ، على اختلاف الرواية في معنى الآية وسبب نزولها؛ إلاّ بأنْ يلطُفَ الله لهم في التوبة فيتوبَ عليهم أو يعذبهم ؛ وتقدير الكلام : ليس ماتريده من توبتهم أو عذابهم بك ، وإنما يكون ذلك بالله تعالى .

والجواب الثالث أن يكون المعنى : ليس لك من الأمر شيء أو مِنْ أن يتوب الله عليهم؛ فأضمر «من» اكتفاء بالأولى ، وأضمر «أن» بعدها لدلالة الكلام عليها واقتضائه لها ، وهي مع الفعل الذى بعدها بمنزلة المصدر ؛ وتقدير الكلام : ليس لك من الأمر شيء ومِنْ توبتهم وعذابهم .

ووجدت أبا بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ يطعن على هذا الجواب ويستبعده، قال : لأنّ الفعل لايكون محمولا على إعراب الاسم الجامد ، الذى لاتصرُّفَ له على إضمار « أن » مع الفعل / [٢١٢ و] لأنه ليس من كلام العرب: «عجبت من أخيك ويقوم» ، على معنى: «عجبت من أخيك ومن

---

(١) ديوانه : ١٠٠ . الدرب : باب السكة الواسع ؛ وهو هنا كل مدخل إلى الروم فهو درب ؛ وصاحبه عمرو بن قميئة الشاعر ؛ وكان رفيق امرئ القيس فى رحلته .

أن يقوم» ، لأنّ أخاك اسمٌ جامد محض، لا يعطف عليه إلاّ ماشا كله. وقال : وهذا إذاً يستقيم ويصلح في ردّ الفعل على المصدر ، كقولهم : «كرهت غضبَك وأنْ يُغضبَ أبوك» ؛ على معنى: «كرهت غضبَك وأن يغضبَ أبوكَ»، فيطرد هذا في المصادر ، لأنّها تتأوّل بـ«أنْ» فيقول النحويون: «يعجبني قيامك» ، وتأويله: «يعجبني أن تقوم»، قال : والاسم الجامد لا يمكن مثل هذا فيه .

وليس الذي ذكره ابن الأنباريّ مستبعداً، وإن لم يضعُف هذا الجواب إلاّ من حيث ذكر فليس بضعيف؛ وذلك أن فيما امتنع منه مثل الذي أجازه؛ لأنه قد أجاز ذلك في المصادر ، وإن لم يجزه في غيرها.

وقوله تعالى: ﴿ لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ فيه دلالة الفعل ، لأنّ «الأمر» مصدر أمرتُ أمراً؛ فكأنه تعالى قال : ليس لك مِن أنْ آمُرَهُم أو تأمرهم شيء ، ولا من أن يتوبوا، وجرى ذلك مجرى قولهم : «كرهت غضبك ويغضب أبوك» ، في رد الفعل على المصدر ؛ والوجه الأوّل أقوى الوجوه ؛ والله أعلم بمراده .

تأويل خبر

إن سأل سائل عن الخبر الذي يرويه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : «لا تناجَشُوا ولا تَدابروا ، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه وعِرضُه» .

الجواب ، قيل له : أما النَّجْشُ فهو المدح والإطراء ، قال نابغة بني شيبان يذكر الخمر :

وَتُرَجِّي بالَ مَنْ يَشْرَبُها ... ويُفَدَّى كَرْمها عِندَ النَّجَش(١)

أي عند مدحها ، ومنه النَّجْشُ في البيع ؛ وهو مدح السلعة والزيادة في ثمنها من غير إرادة لشرائها؛ بل ليقتدي بالزائد في زيادته غيره ؛ وأصل النجْش استخراج الشيء والتنقيرُ عنه، قال بعض الفقعَسيين :

---

(١) ديوانه : ٨٦ .

أَجْرِسْ لها يابنَ أبى كِباشِ[1] فما لها الليلةَ من إنفَاشِ[2]
غيرَ السُّرَى وسائقٍ نَجَّاشِ أسْمَرَ مثل الحَيَّةِ الخَشْخاشِ

والنَّجاش : هو المستثير لسيرها ، والمستخرج لما عندها منه ، ومعنى : أَجْرِسْ لها ، أى أَحْدُ لها لتسمع / الحداء فتسير ، وهو مأخـــوذ من الجَرْس وهو الصوت ؛ ومعنى : [٢١٢] الإنفاش، أراد أنها لا تُترك ترعى ليلا، والنفش أن ترْعى الإبل ليلا، وقد أنفشتُها إذا أرسلتها بالليل ترعى .

والخشخاش : الخفيف الحركة السريع التقلّب .

والنجْش فى البيوع يرجع معناه إلى هذا أيضاً؛ لأن الناجش يستثير بزيادته فى الثمن ، ومدحه السلعةَ الزيادة فى ثمنها ؛ فيكون معنى الخبر على هـذا : لا تناجشوا ، أى لا يمدح أحدكم السلعة فيزيد فى ثمنها ، وهو لا يريد شراءها ليسمعه غيره فيزيده .

وقد يجوز أيضاً أن يريد بذلك : لا يمدح أحدُكم صاحبه من غـير استحقاق ليستدعىَ منفعته، ويستثير فائدته؛ وهذا المعنى أشبه بأن يكون مراده عليه السلام، لأن قوله: «ولا تدابروا» أشدُّ مطابقة له.

ومعنى : « لا تدابروا » أى لا تهاجروا ويولّى كلُّ واحـد صاحبه دُبُرَ وجهِه ، قال الشاعر :

وأَوْصى أبو قَيْسٍ بأن تَتَوَاصلُوا وَأَوْصى أبوكُمْ، وَيْحَكُم!أن تدابرُوا[3]

فكأنه قال عليه السلام: لا تمادحوا وتتواصلوا بالمدْح الذى ليس بمستحق، ولا تهاجروا وتتقاطعوا .

---

(١) اللسان (جرس) ؛ وفى حاشية الأصل : «صوت الجرس ؛ وروى ابن السكيت : «أجرش» ، وأنكروا عليه : أجرشت الشىء إذا لم تنعم دقه » .

(٢) حاشية الأصل : « نفشت الإبل : تفرقت فى الرعى ، وأنفشتها أنا ، أى ليس لها الليلة استراحة » .

(٣) اللسان (دبر) ، من غير نسبة .

فأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلُّ المسلم على المسلم حرام دمُه وعرضه»، فقد ذهب قوم إلى أنَّ عِرْض الرجل إنما هو سلَفه من آبائه وأمهاته؛ ومَن جرى مجراهم.

وذهب ابن قُتيبة إلى أن عِرْض الرجل نفسُه، واحتج بحديث النبي صلى الله عليه وآله حين ذكر أهل الجنة فقال: «لا يبولون ولا يتغوّطون؛ إنما هو عرَقٌ يجرى من أعراضهم مثل المسك»؛ أي من أبدانهم؛ قال: ومنه قول أبي الدرداء: «أقرِضْ من عِرْضك ليوم فقرك» أراد مَنْ شتمك فلا تشتمه، ومن ذكرك بسوء فلا تذكره به، ودعْ ذلك قرضاً عليه ليوم الجزاء والقصاص.

واحتج أيضاً بحديث الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضَمْضَم! كان إذا خرج من منزله قال: اللهمَّ إني قد تصدّقت بعِرْضي على عبادك»؛ قال: فمعناه قد تصدّقت بنفسي وأحللت مَن يغتابني، فلو كان العِرْض الأسلاف ما جاز أن يحِلّ مَنْ سبَّ الموتى؛ لأن ذلك إليهم لا إليه.

[٢١٣ و] قال: ويدلّ على ذلك أيضاً حديثُ سفيان بن عيينة: «لو أن رجلا أصاب / من عِرْض رجل شيئاً ثم تورّع من بَعْدُ؛ فجاء إلى ورثته بعد موته فأحلّوه له، لم يكن ذلك كفارةً له، ولو أصاب من ماله شيئاً ثم دفعه إلى ورثته؛ لكنّا نرَى أن ذلك كفارة له».

قال: ويدلّ على أن عِرْض الرجل نفسه قول حسان:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فأجَبْتُ عنهُ ... وعندَ اللهِ في ذاكَ الجزاءُ(١)
فإنَّ أبي ووَالدَه وعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ منكمْ وِقاءُ

---

(١) ديوانه: ٩؛ يخاطب أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ويهجوه؛ وقبله:

ألا أبلِغْ أبا سفيانَ عَنِّى ... فأنتَ مجوّفٌ نَخِبٌ هواءُ
بأن سيوفَنا تركتْك عبداً ... وعَبْدُ الدار سادتُها الإماءُ

والأبيات في الاقتضاب: ٣٠٠؛ ونقل عن محمد بن الحسن بن دريد بسنده: "أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته التي أولها:

عَفَت ذاتُ الأصابع فالجِواءُ ... إلى عذراء منزلُها خلاءُ =

أراد: فإنّ أبى وجدّى ونفسى وقاءٌ لنفس محمد، صلى الله عليه وآله.

وقال آخرون ـ وهو الصحيح: العِرْض موضع المدح والذّم من الإنسان، فإذا قيل: ذَكَرَ عِرْضَ فلان، فمعناه ذكر ما يرتفع به أو ما يسقط بذكره، ويُمْدح أو يذم به، وقد يدخل فى ذلك ذكر الرجل نفسَه، وذكر آبائه وأسلافه؛ لأن كل ذلك مما يمدح به ويذم؛ والذى يدل على هذا أن أهلَ اللغة لا يفرّقون فى قولهم: «شتَمَ فلان عِرْض فلان» بين أن يكون ذَكَرَه فى نفسه بقبيح الأفعال، أو شتم سلَفه وآباءه؛ ويدلّ عليه قول مسكين الدارمىّ:

رُبَّ مَهزولٍ سَمينٍ عِرْضُهُ ... وسَمينِ الجِسْمِ مَهْزُولِ الحَسَبْ(1)

فلو كان العرض نفسَ الإنسان لكان الكلام متناقضاً؛ لأن السِّمَن والهُزَال يرجعان إلى شىء واحد؛ وإنما أراد: رُبَّ مهزول كريمة أفعاله، أو كريم آباؤه وأسلافه؛ وقد قال ابن عبدل الأسدى(2):

= حتى انتهى إلى قوله:

هجوتَ محمداً وأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جزاؤك على الله الجنة يا حسان؛ فلما انتهى إلى قوله:

فإنّ أبى ووالدَه وعِرْضى ... لِعِرْضِ محمدٍ منكمْ وقاءُ

قال رسول الله صلى الله عليه: وقاك الله يا حسان النار؛ فلما قال:

أتهجوه ولستَ له بِنِدٍّ ... فشرُّكما لخيركما الفِدَاءُ

فقال من حضر: هذا أنصف بيت قالته العرب".

(1) بعده:

كسبَتْه الوَرِقُ البيضُ أباً ... ولقد كانَ وما يُدْعَى لأبْ

وانظر الأغانى ١٨: ٧٠، وأمالى القالى ١: ١١٨، واللآلى: ٣٥٢.

(2) من مقطوعة فى أمالى القالى ٢: ٢٦١، عدد أبياتها أربعة عشر بيتا؛ ومنها فى حماسة أبى تمام ـ بشرح المرزوقى ١١٦٣ ـ ١١٦٤ ستة أبيات؛ وذكر القالى من خبر هذه الأبيات أنه "اجتمع الشعراء بباب الحجاج؛ وفيهم الحكم بن عبدل الأسدىّ فقالوا: أصلح الله الأمير! إنما شعر هذا فى الفأر وما أشبهه، قال: ما يقول هؤلاء يابن عبدل؟ قال: اسمع أيها الأمير، قال: هات، فأنشده الأبيات؛ حتى انتهى إلى قوله:

ولستُ بذى وجهين فيمنْ عرفتُه ... ولا البخلُ فاعْلَمْ من سمائى ولا أرضى

وإنّى لاستَغْنِى فما أبطَرُ الغِنى ، وأبذُلُ مَيْسُورِى لمن يَبْتَغِى قَرضِى (١)
وأعسِرُ أحياناً فتَشْتَدُّ عُسْرَتى وأدرِكُ مَيسورَ الغِنَى ومعى عِرْضِى

ولا يليق ذلك إلا بما ذكرناه .

قال سيدنا أدام الله تأييده: وجدت أبا بكر بن الأنبارىّ قد ردّ على ابن قتيبة قوله هذا وطعن على ما احتج به ، فقال فى الحديث المروىّ عنه عليه السلام فى وصف أهل الجنة : إن المراد بالأعراض مَغابِن (٢) الجَسَد .

وحكى عن الأموىّ أنه قال : الأعراض المغابن التى تعرق من الجسد ؛ نحو الإبطين وغيرها، وقال فى حديث أبى الدرداء : معناه : مَن عابك / ، وذكر أسلافكَ ، فلا تجازِه؛ ليكون الله تعالى هو المثيب لك . [٢١٣ ظ]

وقال فى قول أبى ضَمْضَم: معناه أنه أحلّ من أوصل إليه أذى بذكره وذكر آبائه فلم يُحلّ إلا من أمرٍ إليه .

وقال فى قول حسان : المراد بِعرضه أيضاً أسلافه ؛ كأنه قال : إن أبى ووالده وجميع أسلافى الذين أمْدَح وأذَمّ من جهتهم وقاء له عليه السلام ، فأتى بالعموم بعد الخصوص؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ؛ [الحجر : ٨٧] ، فأتى بالعموم بعد الخصوص ؛ ولم أجده ذكر فى خبر سفيان بن عيينة شيئاً ؛ وتأويله يقرب من تأويل خبر أبى ضَمْضَم ، لأنّ من آذى رجلا بسبّةٍ فى نفسه ، أو سبّ سلَفَه وأدخل عليه بذلك وضما ونقصا لم يكن إلى ورثته بعد موته الإحلالُ من ذلك ، لأن الأذى لم يدخل عليهم، ولو كان داخلا عليهم أيضا مع دخوله على المسبوب لكان إحلالُهم مما يرجع إلى غيرهم لايصحّ ؛ على أن فى الإحلال من الضرر وسقوط العوَض المستحق عليه ، وهل يسقط بإسقاط مستحقه أم لا ؟ فيه كلام ليس هذا موضعه ، وقد ذكرناه فى مواضع .

= فلما سمع الحجاج هذا البيت فضله على الشعراء بجائزة ألف درهم فى كل مرة يعطيهم" .

(١) أبطر الغنى ، أى أبطر فى الغنى حتى أذهب من سنن الشكر . وأعرض ميسورى ؛ يريد يسرى ؛ وضع اسم المفعول موضع المصدر . (٢) المغابن : معاطف الجلد ؛ جمع مغبن .

وبعد، فلو سلّم لابن قتيبة أنّ المراد بالعِرْض في كلّ المواضع التي ذكرناها النفس دون السّلف، أو سُلّم له ذلك في بيت حسان خاصة؛ فإنه أقرب إلى أن يكونَ المراد به ما ذكره لم يقدحْ فيما ذكرناه؛ لأنا لم نقل: إن العِرْضَ مقصور على سَلَف الإنسان، بل ذكرنا أنه موضع الذم والمدح من الإنسان، ولا فرق بين سَلَفه ونفسه؛ فكيف يكون الاحتجاج بما المراد بالعِرض فيه النفس طعناً علينا، وإنما ينفع ابن قتيبة أن يأتي بما يدلّ على أن العِرْض لا يستعمل إلّا في النفس دون السّلف، وكل شيء فيما المراد بالعِرض فيه النفس، أو المراد به السّلف فهو مؤكِّد لقولنا في أنّ هذه اللفظة مستعملة في موضع الذمّ والمدح من الإنسان؛ وإنما يكون ما استشهدنا به، وما جرى مَجراه؛ مما يدلّ على استعمال لفظة «العِرض» في السّلف حجة على ابن قتيبة؛ لأنه قصَرَ معناها على النفس والذات، دون السلف؛ وهذا واضح بيِّنٌ بحمد الله.

* * *

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانيّ قال حدثنا محمد بن الحسن بن دريد قال أخبرنا أبو حاتم قال: كان أبو عبيدة/ مَعْمَر بن المثنىّ صُفْرِيا(1)، وكان يكتم ذلك؛ فأنشدني لعمران بن حِطّان(2): [٢١٤ و]

(١) في حاشيتي الأصل، ف: «الصفرية: جنس من الخوارج، سموا بذلك لاصفرار وجوههم؛ وقيل: نسبوا إلى رجل اسمه صفار».

(٢) هو أبو سماك عمران بن حطان بن ذبيان السدوسي؛ رأس القعدة من الصفرية، وخطيبهم وشاعرهم، أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، ثم لحق بالشراة، فطلبه الحجاج فهرب إلى الشام، فطلبه عبد الملك بن مروان ففر إلى عمان، ولما طال عمره قعد عن الحرب، واكتفى بالتحريض والدعوة بشعره؛ وتوفي سنة ٨٤. وهذه الأبيات يقولها في رثاء أبي بلال مرداس بن أدية؛ وكان قد قتل في لحاوة عبيد الله بن زياد، سنة ٦١؛ وهي برواية أبي العباس المبرد:

يا عَيْنُ بَكِّي لمرداسٍ ومصرعِه ... يا ربَّ مرداسٍ اجعلني كمرداسِ
تركتني هائماً أبكي لمرزأتي ... في منزلٍ مُوحِشٍ من بعد إيناسِ
أنكرتُ بعدكَ ما قد كنتُ أعرفُه ... ما الناس بعدك يا مرداس بالناسِ
إمّا شَرِبْتَ بكأسٍ دار أوّلُها ... على القرونِ فذاقوا جرعة الكاسِ
فكلُّ مَنْ لم يذقها شاربٌ عجِلاً ... منها بأنفاسِ وردٍ بعد أنفاسِ

وانظر الإصابة ٥: ٨١، والكامل — بشرح المرصفي ٧: ٨٣.

أنكرتُ بعدكَ مَنْ قد كُنتُ أعرِفهُ، ما الناسُ بعدكَ يا مِرْدَاسُ بالناسِ
إمّا تكُنْ ذُقتَ كأساً دارَ أوّلُها على القُرُونِ فذاقوا نَهْلَةَ الكاسِ
قدْ كُنتُ أبكيكَ حِيناً ثمّ قد يَئِستْ نَفسِي فما ردَّ عنّي عَبْرتي يأسِي

* * *

وأخبرنا أبو عبيد الله المرزبانيّ قال أخبرنا ابن دريد قال حدثنا الأشنانداني قال قال التوّزيّ: كنت إذا أردت أن أنشط أبا عُبيدة سألته عن أخبار الخوارج فأبعجُ منه ثبَجَ بَحْرٍ؛ فجئته يوماً وهو مُطرِق ينكُتُ الأرض في صحن المسجد؛ وقد قربت منه الشمس، فسلمت عليه فلم يَرْدُدْ[1]، فتمثلت:

وما لِلمَرْءِ خَيْرٌ فى حياةٍ إذَا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المتَاعِ

ـ والبيت لقَطرِيّ بن الفجاءة ـ فنظر إليّ وقال: ويحك! أتدرى مَنْ يقوله؟ قلت: قَطَرِيّ، فقال: اسكت، رَضّ[2] الله فاك! فألاّ قلت: أمير المؤمنين أبو نعامة[3]! ثم انتبه فقال: اكتمها عليّ يا توّزيّ، فقلت: هي ابنةُ الأرض، فأنشدني:

أقولُ[4] لها إذا جاشَتْ حَياءً مِنَ الأبطَالِ وَيحَكِ لَنْ تُرَاعِي[5]
فإنّكِ لو طَلَبتِ حياةَ يومٍ على الأجَلِ الّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي[6]
فصَبْراً فى مجَالِ المَوْتِ صَبْراً فما نَيلُ الخلودِ بمُستَطاعِ

(١) د؛ ومن نسخة بحاشيتي الأصل، ف، : «فلم يرد». (٢) حاشية الأصل (من نسخة): «فض الله فاك». (٣) هي كنية قطري بن الفجاءة بن مازن الخارجي؛ كان زعيما من زعماء الخوارج؛ خرج زمن مصعب بن الزبير سنة ٦٦، وبقى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة؛ وكان الحجاج يسير إليه جيشا، وهو يستظهر عليه، إلى أن توجه إليه سفيان بن أبرد الكلبي، فظهر عليه وقتله سنه ٧٨، (ابن خلكان ١ : ٤٣٠). (٤) الأبيات في الحماسة ـ بشرح التبريزى ١ : ٩٦ـ٩٧.

(٥) د، ومن نسخة بحاشية الأصل: «وقد جاشت». وفى حاشية الأصل (من نسخة): «وقد طارت حياء»، ورواية الحماسة: «وقد طارت شعاعا»؛ الشعاع: المتفرق، والخطاب لنفسه؛ ولن تراعى، من الروع، وهو الفزع. (٦) الحماسة: «بقاء يوم».

وَما طُولُ الحيَاةِ بثَوْبِ مَجْدٍ … فيُطْوَى عنْ أخِي الخَنَعِ اليَرَاعِ (١)
سَبيلُ المَوْتِ مَنْهجُ كلِّ حَيٍّ … وَدَاعِيهِ لأهْلِ الأرْضِ دَاعِ (٢)
وَمنْ لا يُعْتَبطْ يَسأمْ وَيَهْرَمْ … وَتُفْضِ بِهِ المنونُ إلى انْقطَاعِ (٣)
وَما لِلْمرْءِ خَيْرٌ في حيَاةٍ … إذَا ماعُدَّ منْ سَقَطِ المَتاعِ

فكتبتها وقت لأنصرف ؛ فقال : اقْعُد، ثم أنشدني :

إلى كم تعاريني السُّيُوفُ ولا أرَى … مُغاراتَها تدعُو إليَّ حِمَامِيا (٤)
أقارِعُ عنْ دَارِ الخلودِ ولا أرَى … بَقاءً على حالٍ لمَا لَيْسَ بَاقِيَا
/ وَلو قرَّبَ المَوْتَ القِراعُ لقدْ أنَى … لِمَوْتِيَ أنْ يَدْنُو لِطُولِ قِرَاعِيا [٢١٤ ظ]
أُغادِي جِلَادَ العالمِين كأنَّني (٥) … على العَسَلِ المَاذِيِّ أُصبِحُ غادِيا (٦)

---

(١) الحماسة : « بثوب عز » . الخنع : الجبن ، واليراع : الجبان الضعيف .

(٢) حاشية ف (من نسخة) : « غاية كل حى » ، وهى رواية الحماسة .

(٣) ف :

* وَيُفْضِ به البَقاءُ إلى انقطاعِ *

ورواية الحماسة :

* وَتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انقِطَاعِ *

والاعتباط : أن الحي يموت من غير علة ؛ أى من لم يمت شابا مات هرما

(٤) د ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « تعاريني » ، وفى حاشية الأصل ، ف : « المعاراة، بالعين المهملة : من العرى ، أى تلقانى السيوف عارية ، وبالغين المعجمة : من غرى به إذا أولع ، والمغاراة أيضا : المتابعة بين الشيئين ، يقال غاريت بين الشيئين ، إذا واليت بينهما » . وفى م : « تقارينى » ، تحريف .

(٥) د ، ومن نسخة بحاشيتى الأصل ، ف : « المعلمين » ، بكسر اللام ، والمعلم : الفارس الذى علم مكانه فى ساحة الحرب بعلامة أعلمها ؛ ومنه قول الشاعر :

فتعرّفونى أننى أنا ذاكُمُ … شاكٍ سلاحى فى الحوادث معلِم

وقول الأخطل :

مازال فينا رباط الخيل معلِمةً … وفى كليبٍ رباط اللؤم والعارِ

(٦) الماذىّ : العسل الأبيض .

وأدْعُو الكُماةَ للنِّزالِ إذا القنا ... تحطَّمَ فيما بيْننا من طِعانِيا
وَلستُ أرَى نفسًا تموتُ وإنْ دنتْ ... مِنَ المَوْتِ حتى يبْعثَ اللهُ داعِيا[1]

فقال ابن دُريد : وهذا الشعر أيضًا لقطرىّ بن الفُجَاءة .

* * *

أخبرنا أبوالحسن علىّ بن محمد الكاتب قال أخبرنا ابن دريد قال أخبرنا أبوحاتم قال : جئتُ[2] أبا عبيدة يومًا ، ومعى شعر عُروة بن الورد ، فقال . فارغٌ حَمَل شعر فقير ليقرأه على فَقِير ، فقلت : مامعى غيرُه ، فأنشِدْنى أنت ماشئت ، فأنشدَنى :

يارُبَّ ظِلِّ حمارٍ قدْ وقيتُ بهِ ... مُهْرِى من الشمْسِ ، والأبْطالُ تَجْتلِدُ[3]
وَرُبَّ يوْمٍ حِمًى أرْعيتُ عَقْوتَهُ ... خيلى اقْتِسارًا ، وأطْرافُ القَنَا قِصَدُ[4]
وَيوْمَ لَهْوٍ لأهْلِ الخَفْضِ ظلَّ بهِ ... لَهْوِى اصْطِلاءُ الوَغا ونارُهُ تَقِدُ[5]
مُشهِّرًا مَوْقِفِى والحَرْبُ كاشفَةٌ ... عنْها القِناعَ وَبحْرُ المَوْتِ يطَّرِدُ
وَرُبَّ هاجِرةٍ تَغْلِى مَراجِلُها ... نحرتُها بمطَايا غارَةٍ تَخِدُ[6]
تجْتابُ أوْدِيةَ الأفْزاعِ آمِنةً ... كأنّها أُسُدٌ يقتادُها أسَدُ[7]
فإنْ أمُتْ حتْفَ نَفْسِى لا أمُتْ كمَدًا ... على الطِّعَانِ وَقصْرُ العاجِزِ الكمَدُ
وَلم أقلْ لَمْ أُساقِ القتْلَ شاربَه[8] ... فى كأْسِهِ والمَنايا شُرَّعٌ وُرُدُ

ثم قال له : هذا الشعر ! ؛ لا ماتعلِّلُون به نفوسكم من أشعار المخنَّثين . والشعر لقَطرىّ .

* * *

(١) حاشية الأصل : « أى ملكا يقبض روحه ويدعوه » .

(٢) الخبر والأبيات فى أمالى القالى ١ : ٢٦٠ — ٢٦١ ، وزهر الآداب — طبعة الحلبى ١٠٢٧ — ١٠٢٨ . (٣) د : « ظل عقاب » وفى حاشية الأصل : « روى ظل عقاب ، يريد بها الراية » .

(٤) العقوة : الساحة ، والقصد : القطع ؛ واحده قصدة . (٥) د ، ف ، وحاشية الأصل (من نسخة) : « إذ ناره » . (٦) د : « نحرتها » . وتخد : تسرع . (٧) الأفزاع : المخاوف ، وفى زهر الآداب : « يصطادها » . (٨) حاشية الأصل (من نسخة) : « ساقيه » .

أخبرنا على بن محمد الكاتب قال قال أخبرنا ابن دريد قال: أخبرنا أبو حاتم قال: كان أبو عبيدة يأنس إلىّ فى أول مااختلفتُ إليه، لأنه كان يظنّنى على رأْيهم ويسألنى عن خوارج سِجِسْتان ـ لأنه كان يظنّنى على رأيهم ـ وكنت أوهمه أنى على رأيهم، فنالتنى منه لذلك عناية خاصة، فكان كثيرا ما يُنشدنى أشعارهم، ثم يتمثل:

أولئكَ قومٌ إنْ بَنَوْا أحسنوا البُنَى ... وإن عاهدوا أوفَوْا، وإن عَقَدُوا شَدُّوا[1]

/ قال: وأنشدنى يوما لرجل من طيِّئٍ من الخوارج: [٢١٥]

لا كابنِ ملحانَ من شارٍ أخى ثقةٍ ... أو كابنِ علقمةَ المستشهد الشارى[2]

من صادقٍ كنتُ أصفيه مُخالَصَتى ... فباعَ دارى بأعلى صفقة الدار[3]

إخوان صدقٍ أرجّيهم وأحذرُهمْ ... أشكو إلى الله إخوانى وإحذارى

فصرتُ صاحبَ دنيا لستُ أملكُها ... وصار صاحبَ جناتٍ وأنهارِ

تم القسم الأول من كتاب غرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى، ويليه القسم الثانى إن شاء الله تعالى، وأوله: تأويل آية؛ إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ...﴾

---

(١) البيت للحطيئة، ديوانه: ٢٠. (٢) الشارى: واحد الشراة؛ والخوارج تسمى نفسها بذلك؛ كأنهم شروا أنفسهم؛ أى باعوها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أى يبيعها. وقال قطرى فى هذا المعنى:

رأَتْ فِئَةً باعُوا الإلَهَ نفوسهم ... بجنّاتِ عَدْنٍ عِنْدَه ونَعِيمِ

(٣) فى حاشيتى الأصل، ف: «دارى، يعنى الدنيا التى كانت داره؛ وهو فى قيد الحياة؛ يعنى أنه باعها بصفقة رابحة؛ أراد أنه استشهد وقتل، فباع داره بدار فى الجنة».

فهرس الموضوعات

المجلس الأول

المجلس الثانى

المجلس الثالث

المجلس الرابع

المجلس الخامس

المجلس السادس

المجلس السابع

المجلس الثامن

المجلس التاسع

المجلس العاشر

المجلس الحادى عشر

المجلس الثانى عشر

المجلس الثالث عشر

المجلس الرابع عشر

المجلس الخامس عشر

المجلس السادس عشر

المجلس السابع عشر

المجلس الثامن عشر

المجلس التاسع عشر

المجلس العشرون

المجلس الحادي والعشرون

المجلس الثانى والعشرون

المجلس الثالث والعشرن

المجلس الرابع والعشرون

المجلس الخامس والعشرون

المجلس السادس والعشرون

المجلس السابع والعشرون

المجلس الثامن والعشرون

المجلس التاسع والعشرون

المجلس الثلاثون

المجلس الحادى والثلاثون

المجلس الثانى والثلاثون

المجلس الثالث والثلاثون

المجلس الرابع والثلاثون

المجلس الخامس والثلاثون

المجلس السادس والثلاثون

المجلس السابع والثلاثون

المجلس الثامن والثلاثون

المجلس التاسع والثلاثون

المجلس الأربعون

المجلس الحادى والأربعون

المجلس الثانى والأربعون

المجلس الثالث والأربعون

المجلس الرابع والأربعون

المجلس الخامس والأربعون

المجلس السادس والأربعون

المجلس السابع والأربعون

المجلس الثامن والأربعون